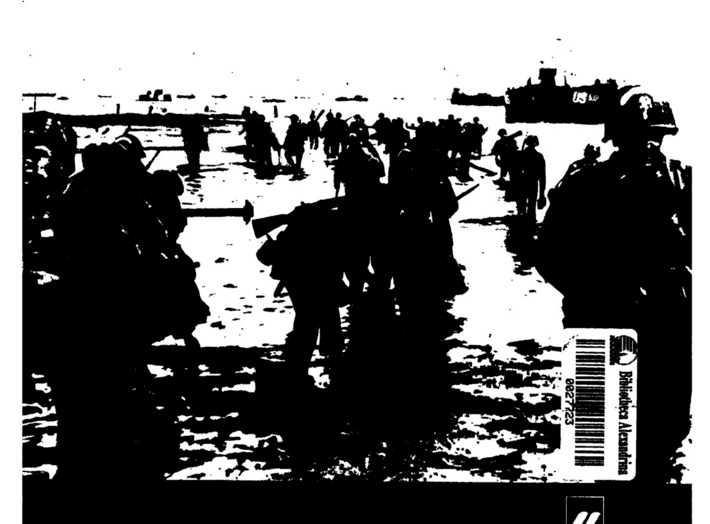
الحرب العالمية الثانية

الجزء الثاني



مؤسسة نوفل ش.م.م



ألجزء الثاني



١٩٤٢ - ١٩٤٥

مؤسسة نوفل ش.م.م.
بناية نوفل — شارع المعماري
ص.ب ١١/٢١٦١ تلفون ٣٥٤٨٩٨
تلكس ٢٢٢١٠
بيروت لبنان

NAUFAL GROUP SARL
B.P 11/2161
Beyrouth, Liban

الحرب العالميّة الثانية

نقله الى العربية
سهَيل سماحة وانطوان مسعود
باشراف
جبران مسعود



مؤسسة نوفل ش.م.م

سنة ١٩٤٣ قرّر «روزفلت» و «تشرتشل» في «الدار البيضاء» إرجاء نزول القوات الحليفة في «أوروبا» إلى السنة التالية.

ريمون كارتييه

الحرب العالمية الثانية

«لاروس» و«باري - ماتش»
باريس

الفصل السابع عشر

أرض دامية

أيلول ١٩٤٢

جبهات الحرب السبع

لم يكن ميزان القوى الجوهرية يفسح للشكّ مجالاً ؛ «فألمانيا» و «إيطاليا» و «اليابان» لم تبقَ تكافح من أجل أن تنتصر ، بل من أجل ألاّ تُقهَر .

كانت رحى الحرب تدور ، من حيث الوجهة العسكريّة ، على مسارح سبعة رئيسة ، هي : ١ . الجبهة الروسيّة . ٢ . المدى الجويّ الأوروبي . ٣ . المحيط الأطلسيّ . ٤ . «أفريقيا الشماليّة» . ٥ . «برمانيا» . ٦ . «الصين» . ٧ . «أوقيانيا» .

١ - من القطب الشمالي إلى "القفقاس"

كانت هذه أهمّ الجبهات وأدماها على الإطلاق ، فهي تنطلق من بحر «بارنتز» ، وتأخذ في الامتداد حتى تبلغ جوار بحر «قزوين» ، مستوعبة ١٩٧ فرقة من مجموع فرق الجيش الألمانيّ الـ ٢٦٧ . يضاف إليها ٧٢ فرقة بين رومانيّة ، وإيطاليّة ، ومجريّة ، وسلوفاكيّة ، على خطّ لا يقلّ طوله عن ٥.٠٠٠ كلم ، أي ما يعادل عشرة أضعاف ما بلغته الجبهة الفرنسيّة في حرب ١٩١٤ ١٩١٨ .

كان إنشاء موقف دفاعيّ متماسك على مثل تلك المسافة الشاسعة أمراً محالاً ، لذا بقيت الجبهة قابلة للاختراق ، مما وفّر للقيادة الروسيّة إمكانيّة تغذية حركة الأنصار وتنسيقها ، فضلاً عن السهولة في التحرك . ذاك أنّ الحرب لم تكن جبهيّة فحسب ، بل ضاربة في العمق أيضاً . فلم يكن إذاً بدّ من تنظيم المؤخّرات الألمانيّة تنظيماً دفاعيّاً ، حتى أنّ حماية كلّ خطّ من الخطوط الحديديّة كانت تستوجب فرقة كاملة ، بل لقد لجأ الألمان إلى تنظيم حرب عصابات معاكسة ، فجنّدوا مساعدين من الروس أنفسهم ، أُطلق عليهم اسم «هيلفيفيليجي» ، واختصر «بيفيز» . ولقد توافر المتطوّعون ، إلاّ أنّ الأمر أخذ يتضاءل مع توالي الإخفاقات الألمانيّة وتعدّدها .

كانت الخسائر الألمانيّة طفيفة في بدء الحملة ، ثم أخذت تثقل مع الأيام ، فإذا بها تبلغ في آب ١٩٤٢ : ٣٣٦.٠٠٠ قتيل ، و ١.١٢٦.٩٤١ جريحاً ، و ٧٥.٩٩٠ مفقوداً ، أي ما مجموعه ١.٦٣٧.٠٠٠ رجل من أصلهم ٤٧.٩٦٦ ضابطاً . صحيح أنّ عودة الجرحى إلى القتال بعد شفائهم ، ودفعات التجنيد الجديدة ، والدفعات القادمة من الغرب ، قد أمّنت للجيش الألمانيّ ٣.٠٤٠٥.٠٠٠ رجل ، إلاّ أن الوحدات كانت ما تزال تفتقر إلى عديد جانبيّ إضافيّ ليكتمل عددها ، وهذا ما جعل الجيش الألمانيّ يفقد قوّة التحرك اللازمة للحالات التي يجابهها .

والعتاد الألمانيّ لم يتطوّر كثيراً ، تشهد بذلك صدمة الدبابات ، فمنذ أن ظهرت الدبابات الروسيّة «ت ٣٤» ، [illegible] قوّاد المدرّعات من هتلر [illegible] تزويدهم بدبّابة أقوى من دبّابة «بـ . كـ . ف ٤» [illegible]

سفينة حربيّة كندية تحمي إحدى القوافل شماليّ الأطلسيّ .

مؤسسة «كروب» . بمعاونة البروفسور «بورشي» . بإنشاء نموذج لدبّابة «تيغر» تزن ٦٥ طنّاً . وبنسخة عنها مخفّفة تحمل اسم «بنتير» . بيد أنّ «هتلر» كان يصرّ علي الاعتقاد بأنّ عهد الدبّابة قد انقضى . وبأنّ من المحتّل أن تتخصّص بمجهود صناعيّ مُفرط . وهكذا لم يسمح الفوهرر بتلبية الطلب الأوّل الخاصّ بصنع ٢٥٠ دبّابة من «تيغر» و «بنتير» إلاّ في ٢٣ حزيران ١٩٤٢ . ولسوف تنقضي أشهر طويلة قبل أن يتسنّى لهذه المعدّات الممتازة الانضمام إلى الصفوف الألمانيّة .

ولو نظرنا إلى الأرقام المجرّدة لتبيّن لنا أنّ ما عانته «روسيا» كان أضخم بكثير ممّا عانته «ألمانيا» ، هذا مع العلم بأنّ «روسيا» لم تنشر قطّ جدولاً مفصّلاً بخسائرها . صحيح أنّ عدد الأسرى الروس قد تضاءل منذ أضحت المعارك أقلّ تفاوتاً . إلاّ أنّ الخسائر الدامية ما فتئت فادحة للغاية . كانت «روسيا» تدفع للدفاع عن أرضها ثمناً من الأرواح البشريّة يبلغ من السخاء حدّاً يذكّر بمجازر الحرب العالميّة الأولى على الجبهة الفرنسيّة . كان بوسع الوطن الروسيّ أن يوفّر لنفسه مثل هذه التضحيات الهائلة ، فمستودعه من الرجال ما زال ممتلئاً . وإمكانيّة تجديد جيشه ما انفكّت مدهشة غريبة . فقد تمكّن المكتب الثاني الألمانيّ . بتاريخ ١٥ آب . من تحديد ٤١٨ فرقة روسيّة على الجبهة ، وقدّر مجموع الفرق الروسيّة بـ ٧٨٩ . ولقد كان التقدير صحيحاً على ما يبدو . إلاّ أنّ الجنرال «فارليمونت» يشكّ في أن يكون أحد قد تجرّأ فأطلع عليه «هتلر» الذي ما انفكّ يتّهم مجلس أركانه بأنّه يرى الأعداد مزدوجة في مجال إحصاء العدوّ !

لم تكن الانتفاضة الروسيّة في ميدان الإنتاج بأقلّ مثاراً للإعجاب. ولقد أتت سنة ١٩٤٢ حاسمة من هذه الناحية . إذ تمّ نقل الصناعات الحربيّة إلى ما وراء «الأورال» . فغدا بعض مدن «آسيا» الوسطى . «كاألما – آتا» . مصانع للأسلحة متأجّجة باللهب . فتمّ بذلك تعويض الخسائر الباهظة التي حلّت بالأعتدة. وخاصّة في مجال المدفعيّة التقليديّة حيث بقي الروس أسياد الموقف . أمّا في ميدان المدفعيّة الثوريّة فقد أخذت قاذفة الصواريخ «خوستيكوف» . التي دعاها الروس «كاتيوشكا» والألمان «أرغن ستالين» . تلعب دوراً متزايد الخطورة مع الأيّام . شأنها في ذلك شأن منافستها «النيبلفرفر» الألمانيّة . أمّا في حقل الدبّابات . فقد أقلع الروس عن صنع الجبّارة منها وأكثروا من إنتاج دبّابة خفيفة سريعة هي «ت – ٧٠». وفي حقل الطيران طفقوا يخرجون عدّة أصناف من المطاردات «ياك» . وطائرةَ القتال الممتازة «ي ١ – ٢» .

وقصارى القول . أنّ الهوّة التي كانت تفصل ما بين الجيش الألمانيّ والجيش الروسيّ أخذت في الزوال في مجالات التكتيك والتسلّح كلّها . ولكن . هل كانت هنالك هوّة حقّاً ؟ ألم تكن الهوّة مظهراً خادعاً ؟ ألواقع أنّ ما كان بعض الأخصّائيّين يدركه بشأن الجيش الألمانيّ قد أثبتته المحنة الروسيّة : فذاك الجيش الذي أعيد بناؤه على وجه السرعة وفقاً لمعطيات برّاقة وسطحيّة . ذاك الجيش الذي انتصر بسهولة . بادىء ذي بدء . على خصوم ضعاف أو حمقى . كانت تعوزه صلابة الأساس؛ بل إنّ «ألمانيا» نفسها كانت تفتقر إلى احتياطيّ القوّة ، وإلى الاستعداد البعيد المدى . الضروريّين لمجابهة نزاع جبّار . وهكذا كان الجنرالات. الذين طالما أخطأوا في تقدير الظروف . محقّين في اختلافهم مع «هتلر» جملةً وجوهراً ، فمع أنّ «ألمانيا» قد اجتاحت «أوروبا» بكاملها . وأضحى بوسعها أن تتصرّف على هواها بثرواتها الماديّة والبشريّة . فإنّها لم تتمكّن من رفع أداتها الحربيّة إلى مستوى التحدّي الذي أطلقته .

هذا . ولا بدّ من الإشارة إلى عامل مثّل دوراً خطيراً في قلب ميزان القوى على الجبهة الشرقيّة . ألا وهو العون الأميركيّ . ففي ذلك الغمر من العتاد . وذاك النهر المتدفّق من القوّة. اللذين انصبّا على «روسيا» وأوروباها ابتداء من ١٩٤١ : ما يعجز الخيال . فالعقبات كانت هائلة . والصناعة الحربيّة الأميركيّة قد اجتازت مضائقها الأولى وبلغت مرحلة الإنتاج الضخم . إلاّ أنّ الطلبات كانت كثيرة متعطّشة ؛ فقد أعلن «ماك أرثر» و «نيميتز» . يدعمهما في ذلك الأميرال «كينغ» ، أنّه قد ضُحّي بهما . وأنّ الدم الأميركيّ يترف في المحيط الهادىء لأنّ ما يتلقّيانه من عتاد لا يكفي . وهكذا كانت الأركان كلّها تلحّ في الطلب . من الأركان القائمة بإعداد النزول إلى البرّ الأفريقيّ الشماليّ . إلى التي تدير معركة الأطلسيّ . إلى التي تعدّ العدّة لغزو «أوروبا» . ولكنّ ذلك لم يحُل دون تمتّع الروس بأسمى حقوق الأفضليّة ، مع أنّهم أصعب الزبُن إرضاءً : فهم ينصبّون على الأميركيّين بوابل من الطلبات . ويناقشون في نوعيّة ما يقدّم لهم . ويلحّون مطالبين بتسليمهم كميّات ضخمة هائلة . متشدّدين في التكتّم لدرجة أنّهم قد آثروا التخلّي عن دفعة من قاذفات القنابل . على أن يسمحوا لطيّارين أميركيّين بإيصالها إلى «سيبيريا» .

أمّا المشكلة الأزليّة ، مشكلة ١٩١٤ . فهي مشكلة الطرقات ، فأبواب «الدردنيل» مغلقة من جديد . وما يتقاضاه المحيط المتجمّد الشماليّ هائل مخيف ، أمّا المحيط الهادىء فيفرض دورة واسعة جدّاً ؛ ولذا لا يُلجأ إليه إلاّ في الكثير من الحذر ، وتحت ظلّ العلم السوفياتيّ فحسب . طالما أنّ المناطق المجاورة «لفلاديفوستوك» واقعة تحت رقابة اليابانيّين . أمّا طريق «إيران» فآمنة . ولكنّ قدرة استيعابها ضعيفة . وهكذا انتصبت العقبات والمساوىء في كلّ ناحية ، بحيث غدا الحلّ الوحيد اعتمادَ هذه الطرقات جميعاً في آن معاً ، مع قبول ما قد ينتج عن ذلك من خسارة وتأخّر .

وهكذا اندفعت في هذه المجاري الضيّقة سيولٌ من الأعتدة . فسلّمت «أميركا» «الاتحاد السوفياتيّ» ، بين تشرين الأوّل ١٩٤١ وحزيران ١٩٤٢ ، ١.٢٨٥ طائرة . و ٢،٢٤٩ دبّابة . و ٨١.٢٨٧ رشّاشاً . و ٥٩،٤٥٥،٦٢٠ ليبرة من الموادّ المتفجّرة . و ٣٦،٨٢٥ شاحنة . و ٥٦،٤٤٥ هاتف ميدان . و ٣٨١،٤٣١ ميلاً من أسلاك الهاتف ، الخ . ثمّ رفعت اتّفاقيّة ثانية هذه الكمّيات إلى أضعاف ثلاثة وأربعة وخمسة . وأضافت إليها بعض التجهيزات الصناعيّة ، فقدّمت مصفاة للنفط خاصّة بإنتاج بنزين ذي درجة عالية من الأوكتان . ومصنعاً لأطُر المطّاط تابعاً لشركة «فورد» للمحرّكات أرسل إلى «الأورال» . كما قدّمت جهازاً للإشارة بقصد تطوير الخطوط الحديديّة السوفياتيّة . يضاف إلى ذلك كلّه تشكيلة لا تُحدّ من الآليّات والعُدَد . هذا . وقد تمّ تجهيز بعض المصانع الأميركيّة لصناعة بعض السلع الملائمة للحاجات الروسيّة . كجزمات اللبّاد «فيتياجويا» التي وضع تصميمها الأوّل إسكافُ «نقولا الثاني» الخاصّ اللاجىء إلى «الولايات المتّحدة» منذ ١٩٢٠ . فقدت «روسيا» نصف مواردها الغذائيّة : فأرسلت لها «أميركا» اللحوم وغيرها ، وهي أفضل ما تكون تركيزاً وتجفيفاً . وأخذت عدّة مصانع في «الغرب الأوسط» تنتج «البورتش» (أي الحساء الروسيّ) بأحجام شبيهة بعلب الثقاب ؛ وكذلك «التوشونا» ، أو لحم الخنزير على الطريقة الروسيّة . غير أنّ الحكومة السوفياتيّة طلبت إلغاء كلّ ما يمكن أن يشير إلى مصدر هذه المعلّبات ، قائلة إنّ شعبها قد يشعر بشيء من الذلّ إن هو علم بأنّ بلداً غريباً يوفّر له الغذاء .

وإليك مقارنةٌ بسيطة تُظهر مقدار العون الأميركيّ : ففي ٢١ حزيران ١٩٤١ كان الجيش الألمانيّ قد دخل «روسيا» بـ ١،٨٣٠ طائرة ، و ٣.٥٨٠ دبّابة . و ٦٠٠.٠٠٠ سيّارة ؛ وخلال ١٩٤٢ – ١٩٤٣

قدّمت «أميركا» «لروسيا» ٣٠٠٥٢ طائرة . و ٤٠٠٨٤ دبّابة . و ٥٢٠٠٠٠٠ سيّارة — أي أنّها في سنة واحدة قدّمت ما يعادل العتاد الألمانيّ أو يزيد.

كانت الجبهة الألمانيّة — السوفياتيّة تنطلق من المحيط المتجمّد الشماليّ ممتدّة أولاً حتى خليج «فنلندا» . فتشمل ١٠٦٠٠ كلم من المروج والغابات . هنا لم يتبدّل الوضع منذ ١٩٤١ : فالنشاط خفيف . وبعد شلل الشتاء الطويل عاد حزيران فميّع المستنقعات التي لا سبيل إلى اجتيازها نظراً للميارات البعوض التي تحميها ، ثمّ حلّ آب ١٩٤٢ معلناً للمرّة الثانية قرب أفول الصيف . وممّا دلّ على ضعف الجيش الألمانيّ عجزُه عن تجديد الهجوم على خطّ حديد « مورمانسك » ، فالقُطُر الثقيلة المحمّلة بالعتاد الأميركيّ كانت تمرّ على كيلومترات قليلة من الخطوط ، ولا يعكّر سلاح المدفعيّة والطيران حركة مرورها إلاّ قليلاً . بين الفينة والفينة .

وشمل القطاع الألمانيّ الثاني الكبير مجموعة جيوش الشمال التي يقودها الجنرال — فيلد مارشال «فون كوخلر» . فقد ضرب نطاقاً حول «لينينغراد» . ملامساً بحيرة «لادوغا» في «شلوسلبورغ» . محاذياً «الفولشوف» . مستديراً حول بحيرة «إلمن» . محدقاً بنجد «الفالداي» . راسماً ناتئة «ديميانسك» الكبرى ، منتهياً في «شولم» . على «اللوفا» . ولم يكن يسيطر على هذا الخطّ المتعرّج الذي يبلغ طوله ١٠١٠٠ كلم غير ٤٥ فرقة ألمانيّة . إلاّ أنّ الغابات الشاسعة ، والمستنقعات العميقة ، وقلّة الطرقات . وفقر الموارد المحليّة ، لم تُفقد الحرب شيئاً من حدّتها وضراوتها .

أمّا «لينينغراد» فقد صمدت وكأنّها جلمود صخر ، فالمدينة التي كاد يتمّ تطويقها لا تتنفّس إلاّ من نافذة ضيّقة بقيت لها على بحيرة «لادوغا» بين «شلوسلبورغ» وحدود ١٩٣٩ . التي عاد الفنلنديّون فاحتلّوها رافضين التقدّم إلى ما وراءها . كان تموين المدينة ممكناً أثناء الشتاء بفضل طريق فُتحت على الجليد ، أمّا الآن فقد قطع ذوبان الجليد هذه الصلة الضعيفة . ولم تعد حركة الملاحة على البحيرة وصلتها إلاّ جزئياً . فباتت لقمة الخبز اليوميّة التي يتبلّغ بها مليون من المدنيّين . وباتت حصص جيش بكامله من الزاد والذخيرة والموادّ الأوّليّة التي تغذّي صناعة حربيّة أبت أن تخبو . باتت كلّها متوقّفة على بعض السفن الماخرة في البحيرة . إلاّ أنّ التحدّي ما زال قائماً . كان بوسع الألمان أن يروا من مواقعهم . في «تساركوي سيلو» . سحبَ الدخان تنبعث من مصانع «كولبينو» الكبرى التي ما فتئت تقذف في وجههم دبّابات جديدة . إنّهم ليبصرون قبّة «القديس إسحق» . وسهم «الأميراليّة» . وقلعة «بطرس وبولس» . هم يقصفون المدينة بمدافعهم . ولكنّ تجلّد المحاصَرين قد علا المِحن كلّها. فبعدما أنِف «هتلر» من الاستيلاء على

ها قد حلّ الخريف بوحوله في أرباض « لينينغراد » .





قاهر « سيباستوبول » ، « فون مانشتاين » . لقد أكسبته مأثرته تلك عصا المارشاليّة ، فضلاً عن قيادة الهجوم على « لينينغراد » .

«لينينغراد» سنة ١٩٤١ . أخذ الآن يستنكر المقاومة التي تجابهه بها ، ورغبة منه في تصفية وضعها نقل من الجنوب إلى الشمال فاتحي «سيباستوبول» . أي الجيش الحادي عشر . و «إريك فون مانشتاين» . أحدث المارشالات عهداً .

أخذ «مانشتاين» يجمع المدافع الجبّارة التي سحقت «سيباستوبول» . وراح يركّزها بنظام . وبينا هو في غمرة استعداداته اتّصل به «هتلر» هاتفيّاً في ٤ أيلول من «فينيتزا» . معلناً أنّ الروس قد استبقوا عمليّة الهجوم على «لينينغراد» . فشنّوا جنوبيّ «شلوسلبورغ» هجوماً تخاذل تحت وطأته الجيش الثامن عشر . ودوهمت خطوط الحصار المضروب حول العاصمة السابقة من الوراء! وقال الفوهرر إنّه يعتمد على «مانشتاين» لتلافي ما أسماه «بالكارثة» . وهكذا تحوّل حصار «لينينغراد» إلى معركة هدفُها منع تطويق المحاصِرين !

خرج قاهرو «سيباستوبول» من أتّون صيف «القرم» . فإذا الخريف قد حلّ في «لينينغراد» ، وإذا بفصل الأوحال قد عاد من جديد. زُوّد الفيلق ٣٠ . التابع للجنرال «فريتز بيكو» . بدبّابات «تيغر» الثلاث الأولى التي خرجت من المصانع عمالق يعتمد عليها لتجديد حرب المصفّحات ، فما كان من المدفعيّة السوفياتيّة المضادّة للدبّابات إلاّ أن دمّرتها جميعاً في مدى دقائق ! إلاّ أنّ مهارة «مانشتاين» وحيويّته قد أنقذتا الموقف ، فشنّ هجوماً معاكساً على جنبات الجيب الذي رسمه التقدّم السوفياتيّ . وأباد المهاجمين . بيد أنّ الموقعة قد استنفدت الذخائر المكدّسة للانقضاض على «لينينغراد» . وعندما انتهت في تشرين الأوّل كان الفصل قد تقدّم بمقدار لم تبقَ معه إعادة تنظيم العمليّة ممكنة . صحيح أنّ جيشاً روسيّاً آخر قد أبيد . غير أنّ « لينينغراد » قد أنقذت من جديد .

أمّا في الجنوب الأقصى فقد جرت معركتان متناقضتان : معركة

أما آن للشتاء أن ينتهي ؟ توغّلت الجيوش الألمانيّة في مآزقه ، وبئس المصير !





سائقو الدرّاجات البخاريّة يتقدّمون بصعوبة في ضواحي « ستالينغراد ».

« ديميانسك » التي طوّق فيها الألمان . ومعركة « فولشوف » التي كانوا فيها المطوّقين .

أمكن تلافي الكارثة في « ديميانسك » . إذ تمكّن جنرال المدفعيّة « فون سيدليتز – كورزباخ » . في مطلع نيسان ، من تحرير الفرق الستّ التابعة للكونت « بروكدورف – اهليفيلا » التي أمّن سلاح الطيران الألمانيّ تموينها طوال أربعة أشهر . وتحقّق بذلك انتصار « هتلر » . لأنّ الصمود والتموين الجوّي اللذين فرضهما فرضاً قد أنقذا موقفاً اعتبره الجنرالات جميعهم ميؤوساً منه .

وفعل « ستالين » ما فعله « هتلر » . فسمّر في الأرض جيش الصدام السوفياتيّ الثاني المطوّق غربيّ « فولشوف » ، إنّما لم يتّخذ أيّ تدبير من أجل تموينه . فإذا احتضاره مذهل ، تخلّله أكل اللحوم البشريّة . وانتحار بالجملة . وموت بسبب الجوع والقرّ . ثمّ أتى انفجار الصيف العنيف . وتحوّل الغابة المتحجّرة إلى موحل يعجّ بالديدان والهوامّ . فأجهزا على الناجين الذاهلين الهائمين . وكان بوسع المفارز الألمانيّة . التي توغّلت حذرة داخل المحيط المطوّق ، أن تشاهد في كلّ ناحية أكواماً من الحشرات قد اجتمعت تشير إلى مواقع الجثث الكالحة في الوحل .

كانت تلك المفارز الألمانيّة تبحث عن القائد الذي وكل إليه « ستالين » مهمّة إنقاذ الجيش العالق في الشرك . والذي دافع عن « كييف » . وكان أحد المنتصرين في « موسكو » . وهو الجنرال « اندريافيتش فلاسوف » .

وفي ١١ تموز كشف أحد الفلاّحين النقاب عن ضابط روسيّ قد اتّخذ من هريه مخبأ له . ووشى به إلى الألمان . فأمر الكابتن « فون شفردتنر » أحدّ ضبّاط الأركان في فرقة المشاة ٥٨ بتطويق الهري . فإذا بعملاق ضامر هزيل يخرج قائلاً : « لا تطلقوا النار . أنا هو الجنرال فلاسوف » . فأمر الجنرال « ليندمان » . قائد الجيش الألمانيّ ١٨ . بإحضار خصمه المقهور . ثمّ صافحه وهنّأه . وأمر بأن يحاط بالعناية المناسبة لوضعه .

لقد أتت المُنجزات الضخمة في « القفقاس » حصيلة الجهود الفرديّة الجبّارة .



وبعد ثلاثة أشهر مثُل « فلاسوف » في مقرّ أركان الفوهرر الأوكرانيّة في « فينيتزا » ; وأخذت الطائرات الألمانيّة . على أثر ذلك . تمطر الخطوط الروسيّة وابلاً من المنشورات تقول إنّ « الأسير رقم ١٦٠٩٠١ » . الليوتنان جنرال « فلاسوف » . يدعو جنرالات الجيش الأحمر وضبّاطه وجنوده أجمعين . كما يدعو الروس كلّهم . إلى أن يثوروا على الطغيان الستالينيّ وينضمّوا إليه من أجل تحرير « روسيا » .

لقد اكتشف هذا الرجلَ جماعةٌ صغيرة من الألمان الذين آمنوا بأنّ قهر « روسيا » محال ما لم يشركوا الروس أنفسهم في النضال ضدّ « البولشفيّة » . كان أحدهم هو الكولونيل كونت « دي شتاوفنبرغ » الذي سيُخلد اسمَه إثر محاولة قام بها لاغتيال « هتلر » . وكان مستشار السفارة « هيلجر » . وكابتن الاحتياط « ستريك – ستريكفيلدت » . والكولونيل « هيري » ، والجنرال « كوسترنغ » . من هذه الجماعة . كان « فلاسوف » . المتحدِّر من أصل قرويّ ، وربيبُ النظام القائم . والمعروفُ كواحد من أفضل القوّاد السوفياتيّين ، هبة منّت بها السماء . فقد أعلن عن استعداده لأن يقود ضدّ الجيوش الستالينيّة جيشاً يُجمع أفراده من معسكرات الاعتقال أو من المقاطعات المحتلّة من « الاتّحاد السوفياتيّ » ؛ ولقد وضع لذلك شرطاً قوامه أن تعامل « ألمانيا » « روسيا » المتحرّرة من الستالينيّة . ومن النظام الكولخوزيّ ، معاملة الندّ للندّ لا معاملة بلد مغلوب . إنّه لشرط خرافيّ أخرق ! فقد يقبل الألمان بخائن مارق ، ولكنّهم لن يقبلوا بشريك . لم يبلغ « هتلرَ » أيٌّ من التقارير التي وضعها حماة « فلاسوف » ومتبنّوه . فقد كان « كيتل » يوقفها لدى ورودها ويعلّق عليها بعبارات كهذه : « موضوع غير وارد ... لا حاجة لإطلاع الفوهرر على ذلك ، فأنا أدرى برأيه ... » ظنّ « فلاسوف » أنّه سيجتمع « بهتلر » في « فينيتزا » . ولكنّه لم يجد غير مسؤولين ثانويّين

كانت الحرب سجالاً بين الإنسان والطبيعة . ولكم وقفت هذه الغابات الروسيّة ، بخريفها الرطب البارد ، حائلاً دون أقوى الآليّات .



خاض معهم غمار مباحثات لا طائل تحتها . وتأسّست في « سمولنسك » . في ٢٧ كانون الأوّل ١٩٤٢ . لجنة من أجل تحرير « روسيا » . ولكن سرعان ما سكنت في سبات عميق . وأخذ « هملر » على عاتقه أمر تحرير نشرة تعيد إلى الأذهان أنّ الروسيّ « رجل دون الرجال » لا يعقل أن تقام معه علاقات ندّ لندّ . وهكذا راح « فلاسوف » ينتظر طوال شهور . ويقتل السأم والوقت بشرب الكحول في بيت صغير من « برلين – دهليروس » . خائناً تحت الطلب !

كان صيف ١٩٤٢ بالنسبة للجيش الألمانيّ . في الوسط كما في الشمال . فترة توتّر مستمرّ ، فقد خلّفت معارك الشتاء المثيرة . التي أشرفت فيها مجموعة جيوش المارشال « فون كلوغي » على الفناء . جبهةً لا تمتاز بالاتّساع المفرط فحسب . بل وبالتعقيد أيضاً ، فطولها الذي



جنود سوفياتيون يهاجمون إحدى القرى .

يبلغ ٩٠٠ كلم بالنظر لقوس « أوريل – كيروف – جياسك – رجيف – فيليكي لوكي » . قد يبلغ ضعف ذلك إذا قيس بالنسبة لطول الخطوط الفعلي . ولم تتمكن الجيوش الخمسة ، بفرقها الـ ٨٥ ، من مواجهة خصم باسل عنيد يثير لها الأزمات التكتيكية المتلاحقة بلا انقطاع ، إلا بصعوبة .

كانت المعارك ضارية ، فبعد ما فك « فون سيدليتز » الحصار عن « ديميانسك » عمد إلى تطهير مؤخرات الجيش التاسع . فاستولى على ٥٠٠ مدفع . واختصر من الجبهة ٢٠٠ كلم ، فرد الروس على ذلك في ١٤ آب بشن هجوم عنيف لاستعادة « رجيف » . وما لبث الوضع أن بدا « لفون كلوغي » ، في أول أيلول ، من الخطورة بحيث وجد من نفسه الجرأة على مواجهة « هتلر » ليعرض عليه الجلاء عن الناتئة البارزة . ولكنه قوبل بالرفض والاستنكار : ذاك أن « رجيف » اسم رمزي ينبغي ألا يتخلى عنه مهما كانت الذرائع . وهكذا ألقت القيادة الألمانية في الميدان بكل ما توافر لديها من قوى الاحتياط . فتمكنت من إيقاف العدو في خرائب المدينة .

وفي الجناح الآخر من مجموعة جيوش الوسط كان « هتلر » قد فكر بإجراء عمليات واسعة النطاق ، كان على جيوش ثلاثة ، هي السادس والرابع والثاني المصفح ، أن تشن هجومها معاً لتخفيف الضغط عن جيوش مجموعة الجنوب ، إلا أنه ، نظراً لانعدام الوسائل والعتاد ، قلص المخطط إلى هجوم يقوم به الجيش الثاني المصفح وحده في جوار « سوشينيتشي » . شنت الحملة في ١١ آب ، وأحرزت بعض الانتصارات الأولية . ولكن تكاليفها الباهظة بلغت حداً أمر معه « هتلر » بإيقافها بعد ثلاثة أيام . لم يبق بوسع « ألمانيا » أن تتحمل أعباء عدة هجمات في آن معاً ، فهي تسعى إلى إنجاز عمل واحد ضخم يقوم على فتح « القفقاس » لتنتزع من « روسيا » ثروة النفط التي تحرك جيوشها ، ولقد سردنا أولى مراحل هذا المجهود الأخير في الجزء الأول من هذا الكتاب . كانت الأحداث في أول أيلول قد حملت جيش المارشال « فون كلايست » حتى جوار « تفليس » . وجيش الجنرال « باولوس » حتى تخوم « ستالينغراد » . وعلى هذا الشكل توثقت عقدة إحدى أعظم مآسي التاريخ العسكري على الإطلاق .

في المستنقعات ، بين القصب ، كمن هؤلاء الجنود السوفياتيون استعداداً لإطلاق مدافعهم .



٢ - المعركة الجوية في سماء "أوروبا"

لقد رافقت نهاية ١٩٤١ ومطلع ١٩٤٢ هدنة شبه كاملة في ميدان الصراع الجوي بين « ألمانيا » و « انكلترا » . غير أن الانكليز فسخوا هذه الهدنة في ٢٨ آذار بأن أرسلوا ٢٣٤ قاذفة قصفت « لوبيك » . وقد ذكر التقرير الرسمي أن المدينة قد احترقت كعود الثقاب » . ونادى « هتلر » بالثأر . فاستدعى من « صقلية » مجموعتي قصف . ثم أمر بشن غارات منتظمة على المدن التي هي مراكز للفن . وهكذا دفعت « إكستير » و « باث » و « يورك » و « كانتربوري » ثمن « لوبيك » . غير أن التشكيلات الألمانية التي كانت تنجز هذه المهمات البربرية كانت تعد أقل من ١٠٠ طائرة ، فيما راحت قوة تدميرية مروعة صاعدة تعمل تدريجياً في وجه « ألمانيا » .

في ليل ٣٠ – ٣١ أيار هاجمت « كولونيا » ١٠١٣٠ قاذفة بريطانية . واستيقظت من جراء الرعشة التي سرت في أوصال السماء مقاطعات انكليزية عديدة . فأدركت بغبطة ما بعدها غبطة أن الحرب قد اتخذت مجرى جديداً . وأما الأضرار التي لحقت بالمدينة الكبرى فقد كانت فادحة . وقام ممثلا الطيران الألماني لدى المقر العام في « فينيتزا » بإعلام « هتلر » بأن نحواً من مئة طائرة انكليزية قد تمكنت من تضرير « كولونيا » ، ولكن « هتلر » كان قد تلقى تقريراً صحيحاً من الحاكم « غروهي » ، فصب على الطيارين جام غضبه . ثم توجه بنقمته ناحية

قام بين الطيران الانكليزي والطيران الأميركي جدال : أقصف ليلي أم قصف نهاري ؟
في الصورة : طياورن الانكليز يتلقون تدريباً نظرياً قبل قيامهم بغارة ليلية .



الغائب الأزلي فقال : « إن المرء « غورنغ » غائب بالطبع ... » وحين وصل وزير الجو في اليوم التالي . كان الأسطول الجوي البريطاني قد حقق غارة ثانية على « إيسين » اشتركت فيها ١٠٠٠ طائرة . فتمنع « هتلر » من مصافحة الرجل الذي عينه خلفاً له !

كان « غورنغ » مذنباً : فهو من محبي المتعة . كسول . فلم يعر الطيران الألماني بالتالي غير فتات ملذاته . بيد أن « هتلر » كان مذنباً هو الآخر ، فقد حطم اندفاع طيرانه . في تموز ١٩٤٠ . يوم أمره بالتخلي عن مجمل المشاريع التي لم تكن قابلة للتنفيذ عسكرياً في غضون الأشهر الثمانية المقبلة . وهكذا أصيب الطيران الألماني الذي كان أفضل طيران عند نشوب الحرب . بتخلف تقني وعسكري راح يزداد باطراد . وتضاءل دوره في ساحات القتال شيئاً بعد شيء . فبات

جليّاً — وهذا أمر أبلغ خطورة من الاعتبارات السابقة — أنّه لم يبقَ قادراً على حماية سماء « ألمانيا » وأرضها .

في عشيّة ميلاد ١٩٤١ انتحر « إرنست أوديت » . رئيس سلاح المطاردة الألمانيّ . وبطل الحرب الأولى الذي كان يحمل في جعبته ٦٢ انتصاراً جويّاً . بعد نداء مفعم بالقلق جاء فيه : « نحن بحاجة إلى مقاتلات . آلاف من المقاتلات . وإلاّ فالويل لنا من الهزيمة » . فما كان من « هتلر » إلاّ أن أمر بتمويه هذا الانتحار المتّهِم والقول إنه مجرّد حادثة .

وعلى نقيض ذلك لم يتوانَ الانكليز عن العناية بالطيران الملكيّ . فما كاد الخطر المهيمن على رؤوسهم يخفّ حتى راحوا يحوّلون جهدهم الرئيس في الصناعة الجويّة من سلاح الدفاع . أي سلاح المطاردات ، إلى سلاح الهجوم . أي سلاح القاذفات . وفي الوقت نفسه شهد الطيران الأميركيّ انطلاقة كبيرة ؛ ففي ١٩٣٩ صنعت « أميركا » ٢،١٤١ طائرة ، أي ما

غوّاصة ألمانية أصابتها قذائف إحدى الطائرات البريطانية .



يعادل ربع الإنتاج الألمانيّ . ولكنّها في ١٩٤٢ صنعت ٤٧،٨٣٦ طائرة . منها ١٢،٦٢٧ قاذفة . وهو رقم يفوق ثلاثة أضعاف الأرقام الألمانية .

وهكذا بدأ الإسهام الأميركيّ في الهجوم الجوّيّ على « ألمانيا » . فقد أُنشئ الجيش الجوّي الأميركيّ الثامن في « انكلترا » في ١٨ حزيران . بقيادة الجنرال « كارل سباتس » . كانت طائراته ، باستثناء المقاتلات ، تصل إليه من « أميركا » بطريق الجوّ . بفضل شبكة قواعد وسيطة هي « غوزلي » في « لابرادور » . و « غاندر » و « ستيفنسفيل » في « الأرض الجديدة » . و « بلوي وست ١ » و « بلوي وست ٩ » في « غرينلند » . و « ريكجافيك » في « اسلندا » . ونظراً للمخاطر التي كانت تحفّ بالرحلات البحريّة استنتجت الأركان العامّة أنّ العمليّة تُعتبر صالحة إذا بقيت نسبة الخسائر في الحوادث دون ١٠ بالمئة . وقد بقيت هذه النسبة في الواقع ٥،٢ بالمئة خلال الصيف والخريف ، إلاّ أنّ عواصف الشتاء قد أرغمت المسؤولين على تعليق نشاط الخطّ الجوّيّ .

قام بين الطيران الانكليزيّ والطيران الأميركيّ جدال : أقصفٌ ليليّ أم قصف نهاريّ ؟ كان الانكليز من محبّذي الأوّل . نظراً للنسبة الضئيلة في الخسائر . فيما حبّذ الأميركيّون الثاني ، فهم يفهمون الغارات الجوّية هجمات قويّة تقوم بها في تشكيلات متراصّة قاذفاتٌ ثقيلة من طراز « ب — ٢٤ ليبيريتور » أو « ب — ١٧ قلاع طائرة » ، فيوفّر بعضها للبعض الآخر حاجزاً من نار . وأمّا النتيجة العمليّة لهذا الجدال فقد أتت موافقة لاختصاص كلّ من البلدين : فسوف ينهال الطيران الأميركيّ على « أوروبا » قصفاً خلال النهار ، فيما يؤمّن الطيران البريطانيّ نوبته ليلاً .

شهد يوم ٤ تموز ١٩٤٢ أوّل مهمّة تنجزها القاذفات الأميركيّة ؛ فقد انطلقت ستّ طائرات لمهاجمة مطارَي « هامشتيدي » و « دي كوي » الهولنديّين . فوُفّقت اثنتان منها إلى الهدف بينما أسقطت المدفعيّة المضادّة اثنتين منها . وكانت المهمّة الثانية ، في ١٧ آب . تهدف إلى قصف مراثب السكّة الحديديّة في « سوتفيل — ليس — روان » ، إشتركت في هذه العمليّة ١٨ طائرة يقودها الجنرال « إيكر » ، ولم يُمنَ الحلفاء في هذه الغارة بأيّة خسارة ، فيما أتت النتائج مرموقة ؛ إلاّ أنّ شرود القذائف كان بالغاً . فلحقت بالسكّان المدنيّين إصابات بليغة . وقد وُصف الأميركيّون على أثر ذلك بأنّهم جزّارون عميان . في الوقت الذي قيل فيه عن الانكليز إنّهم يسعون وراء الدقّة محاولين قصارى جهدهم صيانة المدنيّين .

والغريب في الأمر هو أنّ دخول سلاح الجوّ الأميركيّ حلبة « أوروبا » كان بطيء التأثير على « ألمانيا » . فقد بقي الألمان ينسبون الخراب الذي راح يغطّي بلادهم إلى الانكليز وحدهم لإيمانهم بأنّ الأميركيّين عاجزون عن القتال ! وفي ٤ تشرين الأوّل . في عيد الحصاد . قال « غورنغ » ساخراً : « أنا لا أحطّ من شأن الأميركيّين . فهم لا مثيل لهم في صناعة شفرات الحلاقة . ولكن لا تنسوا أنّ شعار شركاتهم هو كلمة واحدة : المخاتلة والخداع ... »

٣ - معركة "الأطلسيّ"

كان الأميرال « دونيتز » يعلم أنّ النجاح الرخيص الذي أحرزته الغوّاصات الألمانيّة على طول السواحل الأميركيّة عابر كسحابة صيف ؛ فقام إلى تنظيم خطّته . واستدار ثانية نحو مضارب صيده المعتادة . صحيح أن الخسائر الحليفة بقيت مرتفعة ، ولكنّها راحت تتضاءل تدريجيّاً . ففي حزيران ١٩٤٢ بلغت خسائر الحلفاء عامّة ١١٤ سفينة و ٨٥٦،٠٤١ طنّاً ، وتدنّت إلى ٦٩ سفينة و ٦٩٥،٥٦٢ طنّاً في تمّوز ، وتضاءلت أكثر فأكثر خلال الأشهر اللاحقة فبلغت في كانون الأوّل أدنى حدّ لها عرفته منذ ١٩٤١ بسبب عواصف الشتاء . وسيُبرز حساب ١٩٤٢ أنّ ما دُمّر من السفن التجاريّة قد بلغ ٨،٣٣٣،٢٥٨ طنّاً ، أي بمعدّل ٢٩٤،٤٣٨ طنّاً للشهر الواحد .

راح « دونيتز » يدقّق في حساب المجزرة في مقرّ قيادته الباريسيّ . فالهدف الذي اختطّه لنفسه هو أن يدمّر من السفن الحليفة بقدر ما تنتجه مصانعها أو أكثر . وقد قدّرت دوائره المختصّة بـ ٨،٠٩٠،٠٠٠ طنّ مجموع الإنتاج في المصانع البحريّة البريطانيّة والأميركيّة . وهذا ما كان يفرض على قوّات المحور البحريّة والجوّيّة تدميراً شهريّاً يبلغ ٧٠٠،٠٠٠ طنّ على وجه التقريب . وقد بدت سنة ١٩٤٢ ، والحالة هذه ، متوازية الكفّتين : لا زيادة ولا نقصان .

كانت المعركة ما تزال حامية الوطيس . وكان عمل الغوّاصات المنسّق . أي خطّة الذئاب . ما يزال محكماً . وقد دُمّر بعض القوافل



لم يتقد « مونتغومري » لفكرة الانتقال إلى الهجوم المعاكس . وها هو في الصورة يعتمر قبّعة كنديّة، وقد وقف بجانبه «وندل ويلكي» يقرأ في إحدى الخرائط .

كالـ« س. ك. ١٠٧ » التي فقدت في ليال أربع ١٥ سفينة من سفنها الـ ٣٩ . وبعد نسف « اللوكانيا » التي أغرقت وهي تقلّ ١،٨٠٠ أسير إيطاليّ . أغرقت كذلك في شهر تشرين الأوّل ثلاث سفن نقل تفوق حمولتها ٢٠،٠٠٠ طنّ . وهي : « أورونسي » . و « أوركيدز » . و « دانشس أوف أتول » . ومع ذلك انخفضت منجزات الغوّاصات الفرديّة إلى عُشر ما كانت عليه سنة ١٩٤٠ . ولم يتمكّن « دونيتز » من الحفاظ على نتائجه إلاّ بفضل تنمية أساطيله الصغيرة . فقد كان يملك ٢٦٠ غوّاصة . وكان بميسوره أن يستخدم منها في الأطلسيّ مئة في آن معاً.

بيد أنّ الخسائر الغامضة قد تكاثرت . فقد تلاشت أربع غوّاصات ألمانيّة في خليج « غاسكونيا » وهي في طريق عودتها من جولة بحريّة . في الوقت الذي كان مقرّ « دونيتز » يعتبرها فيه بعيدة عن الخطر . وقد مكّنت تقارير بحريّة وضعها بعض القادة من إماطة اللثام عن سرّ هلاك هذه الغوّاصات . كانت الغوّاصة تصعد إلى سطح الماء ليلاً لتعبئة بطّاريّاتها . ولتزويد عدّتها بالأوكسيجين . ولاكتساب السرعة التي تعوّض بطء الغوّاصات القاتل تحت الماء . وبصورة فجائيّة كانت الأضواء تتسلّط على الغوّاصة من السماء . ثمّ تنقضّ عليها طائرة فتغمرها بقنابلها. كان الليل في السابق شريك بحّارة الغوّاصات الذي لا غنى لهم عنه في صعودهم المتوالي للتنفّس كالحيتان . أمّا الآن . وقد فُقد في الليل الأمان . وأمسى الرادار إرهاقاً مستمرّاً . فقد بطل مفهوم حرب الغوّاصات كما حُقّقت منذ ١٩١٤ .

« الآن ، وإلّا فلا » . « رومل » في « أفريقيا الشماليّة » ، في آب ١٩٤٢ .



كان « دونيتز » يبحث عن عمليّات باهرة . إلاّ أنّ واحدة منها لم تكن مرضية . فالسفينة الصالحة هي تلك التي تحرّكها عنفة على الأوكسيجين. والتي كان العالم « فالتر » يقترحها منذ سنين ؛ إنّها سفينة جديرة بأن تحمل اسم غوّاصة قادرة على الغوص بلا انقطاع خلال أكثر الرحلات طولاً . ومتمتّعة بسرعة أثناء الغوص تبلغ ٢٣ عقدة بدلاً من ٧ عقد أو ٨ . إلاّ أنّ « فالتر » كان أوّل من أعلن أنّ الفرصة قد فاتت بالنسبة لتحقيق مخطّطاته . وبما أنّ إيجاد عنفة الأوكسيجين كان محالاً . فقد اقترح « فالتر » على الأميرال اختراعاً بسيطاً نسبيّاً : إنّه أنبوب يسيّر أوتوماتيكيّاً . يضخّ في اتّجاه السطح الهواء الضروريّ لسير محرّكات الديزل . ممّا يمكّن بالتالي من التخلّي عن المحرّكات الكهربائيّة . ويزيل ضرورة العوم تكراراً . «فالشنوركل». وهو أنبوب الغوّاصة المزدوج الذي يزوّد السفينة بالهواء النقيّ وينفث غازات محرّكاتها بفضل اتّصاله بالسطح . قد دخل التاريخ منذ ذلك الحين . بعدما كان قد اختُبر لأوّل مرّة سنة ١٨٩٧. وسيُسهم « الشنوركل » مع المحاولات الألمانيّة الأخيرة في منازعة « انكلترا » و «أميركا » حريّة التصرّف في البحار .

لم تكن العلاقات طيّبة بين « دونيتز » و « ريدر » ؛ فالأميرال الكبير البالغ من العمر سبعاً وستّين سنة ، كان يتحسّر لعدم حصوله على عدد كبير من سفن القتال الكبيرة . وينظر بعين حاسدة إلى الظفر الذي تسربلت به غوّاصات « دونيتز » . وقد حاول مرّتين أو ثلاثاً أن يجزّيء قيادة « دونيتز » ، وهي محاولة تبلغ من الخطورة حدّاً بعيداً إذا ما علمنا أن طباع « ريدر » وبزّته بقيت تتمتّع ببعض النفوذ . فقد أعلن الفوهرر بتواضع : « أنا في البرّ بطل . ولكنّي في البحر عديم الكفاءة ... » كان الأميرال الكبير أحد أواخر أعيان الجيش الألمانيّ الذين بقي « هتلر » يصغي لآرائهم .

ولكنّ هذه القاعدة الشاذّة زالت حين تفجّرت قضيّة القافلة « ج و ٥١ ب » . فقد كانت هذه إحدى قوافل « مورمانسك » التي غامر الانكليز بإرسالها في أواخر كانون الأوّل ١٩٤٢ ، متكلين على الليل القطبيّ وحالة البحر . وعلمت البحريّة الألمانيّة بها فعزمت على تدميرها بواسطة سفنها العائمة . وصعدت البارجة « لوتزوف » والطرّاد « هيبر » و ٦ مدمّرات إلى الخطّ ٧٣ ، مقتحمةً عاصفة عنيفة ، وفي يوم عيد الميلاد هاجمت بالرادار مواكبة مؤلّفة من سفن صغيرة ومن مدمّرات . بيد أنّ هذه المواكبة أبدت مقاومة حسنة للغاية بحيث أنّها أتاحت للطرّادين « جامايكا » و « شيفيلد » مجال الإسهام في القتال . وأصيب « الهيبر » بأضرار . وأغرقت مدمّرة واحدة . فظنّ الأميرال الألمانيّ أنّ قوّات العدوّ متفوّقة فلاذ بالتراجع . ولم تصب أيّة سفينة تجاريّة بخدوش . فوصلت القافلة « ج و ٥١ ب » إلى « مورمانسك » بكامل وحداتها .

كان « هتلر » يرقب نتائج معركة عيد الميلاد البحريّة هذه بقلق ملك عليه جوارحه . وما ان علم بالإخفاق الألمانيّ حتى تفجّر غيظاً . وصرّح بأن السفن الكبرى لا تجدي نفعاً . وأنّه سيعمل على تجريدها من السلاح في الحال بما فيها الطرّادات الخفيفة . لم يكن هذا القرار قراراً اعتباطيّاً : فأسطول المسافات البعيدة كان من الضعف لدرجة لا تخوّله القيام بدور ستراتيجيّ . وهو يجمّد الرجال ويلتهم الموارد لا أكثر . ولم يكن الأميرال « ريدر » العجوز ليقبل بهذا الحكم القاسي . فحاول تأجيله . ولكنّ ثرثرة « هتلر » العنيفة غمرته وتسلّطت عليه . فعمد إلى تقديم استقالته متلعثماً . وإذ طُلب إليه أن يسمّي في الحال الضابطين الأكثر كفاءة لخلافته سمّى الأميرال « كارل » في المرتبة الأولى والأميرال « دونيتز » في المرتبة الثانية . وأمّا « هتلر » فقد اختار الثاني . الأمر الذي ملأ قلب « ريدر » كدراً .

٤- معركة "أفريقيا الشمالية"

في ٣١ آب هاجم « رومل » الخطوط الإنكليزية في « العلمين » . ولقد دفعته إلى قراره هذا أسباب اضطرارية؛ كان يعلم أن أمداداً كبيرة كانت في طريقها إلى « مصر » ، وخصوصاً قافلة تحمل ١٠٠،٠٠٠ طن كانت تدور حول رأس « الرجاء الصالح » . وكان وصولها متوقعاً في أيلول. فهذا الأمر كان من شأنه أن يرجح كفة عدوه أكثر فأكثر . ومع أنه قد تلقى فرقة ألمانية رابعة . فضلاً عن فرقتين إيطاليتين جديدتين . « ليتوريو » و « فولغوري » . الأولى مصفحة والثانية منقولة جواً . إلا أنه قد أبلغ ألا يتوقع المزيد من المدد . ولقد أوجز موقفه من احتلال « السويس » بقوله : « الآن . وإلا فلا » .

في آب لم يتلق الجيش الأفريقي المصفح غير ٣٢ بالمئة من الأعتدة المرتقبة ، وبدلاً من أن تمتلىء مخازنه من جديد استعداداً للهجوم ، راح يستهلك موارده الاحتياطية . كانت الغنائم التي وقعت في يديه في « طبرق » قد غذته وسلحته . إلا أنها قد بدأت تشح ، فيما بدأ الرجال يتذمرون من الجوع . وبلغت آلياته . التي كان ٨٥ بالمئة منها من صنع انكليزي أو أميركي ، درجة الوهن الشديد . وتدنى احتياطي الوقود إلى درجة مقلقة . كان « رومل » يتوقع أن يتسلم ٥،٠٠٠ طن من الوقود قبل أول أيلول . فإذا بـ ٢،٦٠٠ طن منها قد أغرق في الطريق ، وبقيت ١،٥٠٠ طن في «إيطاليا » . كان ضرورياً أن ينجح الهجوم في أسرع وقت ممكن. ولذا كان يجب احتلال «الإسكندرية » في أربعة أيام والتزود فيها .

ولكن الانطلاق لم يصب غير نجاح جزئي ؛ فقد كبحت جماح « رومل » حقول ألغام أدهشته لغزارتها . كان يأمل أن يتقدم ٣٠ ميلاً في اليوم الأول . فإذا به لا يقطع غير ٨ أميال . وكان هنالك حاجز آخر أقوى وأمنع . ألا وهو الطيران . فقد عرف الألمان لأول مرة مذاق المعركة تحت سماء يسيطر عليها العدو تماماً . في مثل ذلك الجو فقدت الدبابة سلطانها . وباتت مراكز القيادة ، الثابتة منها والمتحركة، عرضة للمطاردة التي لا تعرف الرحمة . وفي أركان الفيلق الأفريقي العامة قتل الجنرال « فون بسمارك » وسبعة من الضباط . وأصيب الجنرال « نهرنغ » بجراح . وكاد « رومل » أن يلقى حتفه غير مرة . ومنذ العشية الأولى أيقن أن محاولته قد أخفقت . ولذا بات لزاماً عليه أن يخوض معركة إنهاك في سبيل الاستيلاء على ناتئة « علم الحلفا » . وهي مفتاح ساحة القتال . إلا أن احتياطيه من الوقود والذخيرة حال دون ذلك .

وطوال ثلاثة أيام راح يتحرى عن الضعف في درع العدو . وفي ٤ أيلول تراجع إلى موقع الانطلاق ، متخلياً عن فكرة التراجع الفوري إلى الحدود الليبية . وتغلب « مونتغومري » من جهته على فكرة شن هجوم معاكس . وقرر انتظار الأسلحة الهائلة التي كانت في طريقها إليه في المحيط الهندي . وهكذا خيم الهدوء برهة أمام « العلمين » .

٥- أدغال "برمانيا"

على تخوم « الهند » استقرت جبهة مجهولة . حيوية . كان الانكليز قد فقدوا « برمانيا » إثر سلسلة من الهزائم مماثلة لتلك التي لحقت بهم في « ماليزيا » ، وراح جيش « إيدا » الخامس عشر يتسلل عبر الأراضي التي كان الأوروبيون يعتبرونها غير سالكة . فاستولى على « رانغون » . وقطع على « تشانغ كاي تشك » طريق تموينه . ودفع بالانكليز حتى « أسام » . وسرت الرعشة في « لندن » إزاء مسيرة الجيوش الأسيوية الظافرة .

كان تخلي الأسطول الياباني عن خليج « البنغال » . ثم كارثة « ميدوي » ، قد أضعفا وضع « إيدا » ، وقد بقي حظه في اجتياح « الهند » رهناً بعمليات بحرية جوية غدا تحقيقها محالاً . وكانت أمداده بحاجة ماسة إلى البحر . وحاولت الأركان اليابانية أن تتحرر من هذه الحاجة بحمل الأسرى في « سنغافورة » على بناء خط حديدي يصل « سيام » « ببرمانيا » ، إلا أن هذه المعركة ضد الأدغال ، فوق جثث البيض ، كانت أبدية . وكما توقف « رومل » أمام أبواب « مصر » . توقف « إيدا » أمام أبواب « الهند» بسبب انبساط المجهود الوطني المفرط .

ومع ذلك لم يكن وضع الانكليز بأقل حرجاً ، فقد اتخذت القومية الهندية أشكالاً متطرفة ، وأعلن « غاندي » العصيان المدني دعماً لحملته التي شعارها « أخلوا الهند » . فشل بذلك المواصلات العسكرية . أوقف « غاندي » في ٩ آب . إلا أن الفتن في « مادراس » . وفي



سرب من قاذفات القنابل القادمة من « أوستراليا » يقصف جزيرة « بوغنفيل » حيث أقام اليابانيون عدة قواعد جوية بحرية .

« بيهار » . وفي « المقاطعات المتّحدة » ، جمّدت ٥٧ كتيبة . ولم تكن « الهند » الإسلاميّة أقلّ اندفاعاً ؛ ففي « السند » قام المعارضون بقطع سكّة « لاهور » الحديديّة ؛ وفي « الحملايا » راح فقير « إيبي » يبشّر بحرب مقدّسة استوجبت مواجهته برتل مؤلّف من ٤ ألوية . لم يكن اليابانيّون قد فكّروا بالفرص التي يوفّرها لهم الغليان الهنديّ ، إذن لكانوا أداروا دفّة ستراتيجيّتهم بشكل آخر .

قام الجنرال « ويفل » يدعّم دفاع «أسّام » بنشاط بالغ . في الداخل كانت « إمفال » هي ركيزة هذا الدفاع ، يحميها الفيلق الرابع ؛ وعلى الساحل كانت « شيتاغونغ » هي الركيزة ، وهي قاعدة عمليّات الفيلق البرمانيّ . كانت الساحة تمتدّ من تلال « ناغا » ، بأدغالها التي يبلغ علوّها ٤،٠٠٠ متر ، إلى المستنقعات الساحليّة التي تغطّيها الأشجار القاتلة . كان الوبال مستفحلاً : فالعلقة هي البليّة الرئيسة ، العلقة الصغيرة السوداء التي تعيش في حقول الأرزّ بالمليارات ، والعلَقة ــ الفيل الضخمة الخضراء أو الصفراء . وكان الحريش السامّ واسع الانتشار . وفي موسم الجفاف القصير كانت القرادة تحلّ مكان العلقة ، فضلاً عن مرض يلحق بالجلد ، وبجلدة الرأس خصوصاً . ومن تشرين الثاني إلى أيّار أغرقت الأمطار الموسميّة الأرض بسيول هائلة ، فحدثت انخسافات أرضيّة أودت بالطرق القليلة . وقد كان تفاؤل وزارة الحرب مبنيّاً على معرفة ناقصة بالأوضاع المحليّة ، بحيث حدّدت عدد الفرق المسندة إلى جبهة « أسّام » بـ ١١ فرقة . ولسوف تمضي شهور طوال ، وتُبذل جهود كبار ، قبل أن يتمّ إنجاز هذا البرنامج .

وللحال حاول « ويفل » أن يستعيد المبادرة بانتزاعه مقاطعة « أراكان » الساحليّة من اليابانيّين ، وهي لسان من الأرض بين خليج « البنغال » ونهر « مايو » . كانت الأحوال قاسية مزعجة ، فصبّت الأمطار الموسميّة ٣٠٠ ملم من المياه في نهار ٥ تشرين الثاني ، وراحت الفرقة الهنديّة ١٤ ، بقيادة الميجر جنرال « و.ل. لويد » ، تتقدّم بعناء شديد في السهل الذي غمرته السيول . ولقد كان لزاماً عليهم أخذ الأبواب اليابانيّة واحداً واحداً ، في حين كانوا يبنون طريقاً لتموين الزحف . ولسوف تنقضي سنة ١٩٤٢ قبل أن يبلغ الانكليز هدف هجومهم ، ألا وهو موقع « أكياب » ومطارها.

في تلك المنطقة من «آسيا »، التي كانت تعجّ فيها بشريّة بائسة ، اتّخذت الحرب أشكالاً محزنة ؛ كانت أقلّ عمليّة تثير هياج حشود من الناس الخائفين ، فيهيمون على وجوههم ويغدون فريسة للخور والوباء. صحيح أنّ القصف الجويّ كان تافهاً بالنسبة للقصف الذي كان يجتاح « أوروبا » . إلاّ أنّ هلع السكّان كان يضاعف فتكه ؛ ففي ٢٠ كانون الأوّل قصف اليابانيّون « كالكوتا » بتسع طائرات فحسب ، فأركن نصف مليون من الناس إلى الفرار وانتشروا في « البنغال » الآهل بالسكّان . إنّ مأساة كبيرة كانت تختمر ، ولسوف تتفجّر في ١٩٤٣ .

٦ - الحرب في "الصين"

في المرحلة التي سبقت قطع طريق « برمانيا » كانت مخاوف جدّية تقضّ مضاجع « واشنطن » بشأن موقف « تشانغ كاي تشك » ؛ فاتّهامات صهره ، السفير « ت. ف. سونغ » ، راحت تهدّد باتّفاق « الصين » مع « طوكيو » . اتّفاق يحرّر القوّات اليابانيّة المجمّدة في « الصين » ليطلقها نحو مهامّ أخَر . ووصلت من « تشونغ كينغ » اتّهامات السيّدة « تشانغ كاي تشك » اللاذعة ؛ فقد قالت تلك المرأة البالغة النفوذ : « نحن نشعر وكأنّ الحلفاء يعتبرون أنّ « الصين » ليست جزءاً من مجهود حربهم . إنّنا نريد عن السؤال التالي جواباً بنعم أو لا : هل تريد « أميركا » أن نعقد الصلح مع « اليابان » ؟ !

لم يكن مجهود « الصين » الحربيّ الخاصّ ليعلّل هذه اللهجة المتعالية . فالجنديّ النزيه الذي كان يشرف في « تشونغ كينغ » على تنفيذ قانون « الإعارة والتأجير » ، وهو الميجر جنرال « ماغروبر » ، قد أبلغ وزارة الحربيّة أنّ القيمة العسكريّة للتحالف الصينيّ قد بولغ في تقديرها . كانت « الصين » تعتزّ بـ ٢٣٤ فرقة ، كانت كلّها ، أو معظمها ، زمراً لا تكاد تملك من السلاح شيئاً ، عديمة الانضباط ، تعيش على الأسلاب ، لا تظهر طاعة إلاّ لأسيادها الحربيّين ، ولا تقاتل اليابانيّين على الإطلاق . كان التقصير والفساد يسودان شعاب الحكومة كلّها ؛ وكانت العمليّات قد علّقت بشكل تامّ تقريباً ، بموجب هدنة صامتة واتّفاقيّات محليّة عديدة . أمّا آخر عمليّة هامّة فكانت محاولة يابانيّة جديدة للاستيلاء على « تشانغ تشا » ، عاصمة « هونان » ، بغية إقامة خطّ حديديّ متّصل بين « كانتون » و « هانكيو » ؛ ولكنّ هذه المحاولة أخفقت ، ومنذ ذلك الحين توقّف النشاط الحربيّ كليّاً .

في « واشنطن » اعتبر مناصرو الصينيّين أنّ فقدان « ماندالاي » ، وقطع الرابط الأخير بين « الصين » الوطنيّة والغرب ، كارثة ؛ وقد أُلصقت مسؤوليّة هذه الأحداث « بانكلترا » ، وخاصّة « بويفل » . وتعالت أصوات نافذة تطالب أن تحلّ « أميركا » في كلّ مكان في «آسيا » محلّ السلطة البريطانيّة التي تشوبها النزعة الاستعماريّة . وطالب آخرون بإيجاد طريق لتموين « تشانغ كاي تشك » مهما بلغ ثمنها . وقد طُرح على بساط البحث موضوع بعث طريق الحرير القديمة عبر واحات « غوبي » ، وعُمد إلى درس طريق جديدة تلفّ حول « برمانيا » عبر أكثر الجبال وعورةً وأكثرها أمطاراً في العالم. وما ان تبدّدت هذه الأحلام الواهمة حتى لم يبقَ غير تحدّ آخر للطبيعة : جسر جويّ فوق « الحملايا » .

وهنا تبدأ إحدى مغامرات الحرب الرائعة . كان آخر مطار هنديّ صالح للاستعمال هو « دنجان » ، في وادي « برامابوترا » ، على علوّ بضعة أمتار من سطح البحر . وفي طرف المدرج كان ينتصب جرف جبليّ علوّه ٣،٠٠٠ متر ، وكان على الطائرات من ثمّ أن تجتاز بالتدريج قمماً مكلّلة بالثلوج تفصل بين أودية الأنهر التالية : « شندون » ، و « إيراوادّي الغربيّ » ، و « سالفين » و « ميكونغ » . والنقطة التي سوف يطلق عليها الطيّارون اسم « الحدبة » التاريخيّ هي قمّة « سانتسينغ » ، المنتصبة على علوّ ٦،٠٠٠ متر بين النهرين الأخيرين . كانت المضايقات مخيفة فوق بقاع لا خرائط لها ، وفي جواء لم يتطرّق إليها علم الأحوال الجويّة ، وحيث كانت الرياح والأمطار الموسميّة تسيطر بجبروتها . كانت طائرات « داكوتا ك ٤٧ » و « سكايمستر ك ٥٣ » تتسلّق الجبل بحمولتها الثقيلة تحسّساً ، باحثة عن الممرّات الجبليّة من خلال الغيوم . وكان الوصول خطراً ، سواء إلى « كانمنغ » ، وسط الجبال العالية ، أو إلى « تشونغ كينغ » المدفونة في ضباب « اليانغ تسي » . وستعقب هذا الخطّ الجويّ البطوليّ خسارةُ بعض ساحات القتال ، بيد أنّ النتائج كانت تفوق الآمال . فالحمولة الشهريّة التي انطلقت بـ ٣٠٦ أطنان في تموز ١٩٤٢ ، بلغت في نهاية الحرب رقم ٧١،٠٤٢ طنّاً القياسيّ ، أي أكثر ممّا شهدته طريق « برمانيا » في أيّ وقت مضى .

وأمّا الكارثة المرتقبَة فإنّها لم تحلّ قطّ ؛ فقد بقيت « الصين » في الحرب . ولكنّها بقيت كذلك مصدر الصعوبات المتجدّدة أبداً ، والمشاحنات التي تمتزج فيها الدسيسة والعقيدة والستراتيجيّة .

٧ - "غينيا الجديدة" و"غواد الكانال"

كان اليابانيّون قد استعدّوا لاستغلال النصر الذي كانوا يعلّلون به النفس في « ميدوي » . كان من المفروض أن يعقبه احتلال « كاليدونيا الجديدة » وجزر « فيدجي » و « ساموا » . وأن يدفع من جديد تلك العمليّة التي أحبطتها معركة بحر المرجان ، وهي احتلال « غينيا الجديدة » الشرقيّة ، أو « بابوازيا » ، كلّ ذلك تمهيداً لهدف عامّ هو عزل « أوستراليا » ، واجتياحها إذا اقتضى الأمر .

إلاّ أنّ بضع قنابل كانت كافية لتحطيم هذه الأحلام . فقد ألغى الأمر الامبراطوريّ الصادر في ١١ تموز العمليّات التي كانت مذكّرة ١٨ أيّار قد رسمتها . وهكذا فإنّ فقد ثلثي حاملات الطائرات قد أعاد « اليابان » إلى حملات محدودة الآفاق ، وإلى قفزات تنقلهم من جزيرة إلى جزيرة بحماية قوّات جويّة قواعدها في اليابسة . إنطلقت الحرب اليابانيّة الأميركيّة بأوسع ما عرفه التاريخ العسكريّ من تحرّكات ، وها هي الآن تسير بالنسبة للمحيط الهادىء سير حرب الخنادق .

أمّا فتح « بورت مورسبي » فقد قرّر اليابانيّون استئنافه باجتياز « بابوازيا » . إنطلقوا من « رابول » ، قاعدتهم الهجوميّة جنوبيّ الهادىء ، فنزلوا في « بونا » على الساحل الشماليّ من « غينيا الجديدة » . فإذا « ببورت مورسبي » على بعد ١٠٠ كلم . وهي مسافة تافهة بالنسبة لجيش قادم من البعيد البعيد .

بيد أنّ الكيلومترات « الغينيّة الجديدة » لا تشبه في شيء الكيلومترات « الماليّة والبرمانيّة » . فبين « بونا » و « بورت مورسبي » تنتصب سلسلة « أوين ستانلي » بارتفاعها البالغ ٥،٠٠٠ م . وهنا يتضافر الجبل والمنطقة الحارّة في إقامة الحواجز والعقبات ، فبينا تصبّ المنطقة الحارّة أمطارها الخانقة على أدغال كثيفة متشابكة تعجّ بالنباتات والحيوانات السامّة ، ينصب الجبل جدراناً عموديّة ، ويحفر أودية ضيّقة سحيقة يقذف إليها بسيول ذات فيضانات صاعقة ، ويرفع وسط السحب الثقيلة قمماً جليديّة تكسوها أعشاب تبلغ سبعة أقدام طولاً ، حادّة الحروف كحدّ السيف. لم يبقَ هناك غير مسلك واحد هو ممرّ « كوكودا » الذي يعبر غور نهر « كوموزي » على عبّارة متدلّية ، ثمّ يرتفع بدرب من دروب الماعز على سفح جدار يبلغ ارتفاعه ١،٥٠٠ م ، ليصل في « الغاب » إلى ممرّ ضيّق لا يمكن للجيش عبوره إلاّ رجلاً رجلاً ، ثمّ ينحدر إلى « بورت مورسبي » وسط جحيم نباتيّ .

سلك اليابانيّون ذاك الطريق العسير ، وعبثاً حاولت حفنة من الجنود الأوستراليّين إيقافهم ، فعبروا « الغاب » الذي لا يمكن عبوره ، وأدركوا في نهاية أيلول قرية « إيوريبوايا » الواقعة على ٣٠ كلم من « بورت مورسبي » . فإذا هم أشبه بالهياكل العظميّة منهم بالرجال الأصحّاء . قطع الطيران الأميركيّ في مؤخّرتهم عبّارة « الكوموزي » فاستحال وصول أيّ غذاء إليهم . فمضوا يلتهمون كلّ ما تقع عليه أيديهم في البساتين ، ويقتاتون بحيوانات الأدغال القذرة ، غير أنّ الجوع كان أقوى من هذه الموارد الحقيرة . مات الكثيرون ، وأنهكت الحمّى من بقي منهم حيّاً . فأمر قائد الجيش الـ ١٧ ، الليوتنان جنرال « هياكوتاكي » ، بالتراجع نحو « كوكودا » ، ثمّ في ٩ تشرين الثاني نحو « بونا » ، فكانت تلك أولى الحملات اليابانيّة التي تعود على أعقابها !

من الأسباب التي دعت إلى هذا التراجع احتدام معركة « جزر سليمان » وحلول « غواد الكانال » محلّ « بابوازيا » . ذلك أنّ مجلس الأركان الإمبراطوريّة قد أصدر أمراً بتعليق العمليّات الهجوميّة كافّة جنوبيّ المحيط الهادىء ريثما تنجلي المعركة عن نهايتها .

تنبسط « جزر سليمان » في امتداد مجموعة جزر « بسمارك » . فتشمل أوّلاً جزيرة « بوغنفيل » الضخمة حيث أقام اليابانيّون عدّة قواعد جويّة بحريّة ؛ ثمّ ينقسم الأرخبيل انقسام أسطول يمخر عباب البحر في خطّ مزدوج باتّجاه الجنوب الشرقيّ ، فيشمل الرتل الأيسر جزر « شوازول » ، و « سنتا إيزابيل » ، و « مالايتا » ؛ ويشمل الرتل الأيمن « فيلاّ لا فيلاّ » ، و « جورجيا الجديدة » ، و « غواد الكانال » . أمّا القناة الفاصلة بين الرتلين فقد أطلق عليها اسم « الشقّ » . ولقد برزت في وسطها ، بين « مالايتا » و « غواد الكانال » ، جزيرة « فلوريدا » ، وتابعتها « تولاغي » مركز المؤسّسات البريطانيّة الرئيس . هذه الجزر كلّها متشابهة ، شبيهة « بغينيا الجديدة » من حيث الشكل والمناخ والنبات والسكّان ، وعدم ملاءمتها الصحّة ، ووحشيّتها المفرطة .

ما إن وطىء اليابانيّون جزيرة « بوغنفيل » حتّى صمّموا على النزول في « غواد الكانال » . لم تكن هذه الجزيرة التي يناهز طولها ١٠٠ كلم قد اكتُشفت عمليّاً . فقد استقرّ على ساحلها مرسلان أو ثلاثة ، وبعض زارعي « الكوبرة » ، ولكنّ أحداً لم يفكّر بالتوغّل في داخلها حيث يعيش ما يقارب الآلاف العشرة من « الكاناك » الهمج الشرسين . إكتشف اليابانيّون بالقرب من رأس « لونغا » مكاناً صالحاً لإقامة مدرج ملائم للطائرات ، فأرسل بعض العمّال من « رابول » ، بحماية فصيلة من رماة البحريّة ، لإنشائه . وفي تلك الأثناء احتلّت سريّة من الجند جزيرة « تولاغي » التي وفّر لها كيانها كعاصمة أن تملك خليجاً ، وبعض الدكاكين ، وفندقاً صينيّاً .

بيد أنّ الأميركيّين قرّروا استعادة زمام المبادرة ، فما انقضت على معركة « ميدوي » أربعة أيّام حتّى عرض « ماك أرثر » على لجنة رؤساء الأركان مشروع هجوم عامّ على « رابول » . أقرّت من المشروع مرحلته الأولى ، أي إعادة فتح « تولاغي » و « غواد الكانال » . وبما أنّ هذه العمليّة تتّخذ المنطقة الجنوبيّة من المحيط الهادىء مسرحاً لها . فقد خضعت لإدارة الأميرال « نيميتز » العليا ، ولسلطة الأميرال « غورملي » المباشرة . أمّا القوّات البريّة فتوفّرها فرقة مشاة البحريّة (المارينز) الأولى التي يقودها الميجر جنرال « اليكسندر أرثر فنديغريفت » ، وكان رجالها من الجنود المحترفين الذين أخضعوا للتدريب البدنيّ والإعداد النفسيّ المعمول بهما في « فيلق البحريّة » .

نزل الأميركيّون في الجزيرة في ٧ آب ، فأبيدت السريّة اليابانيّة التي كانت تحتلّ « تولاغي » عن بكرة أبيها ؛ أمّا الرجال الـ ١،٧٠٠ اللذين كانوا يعملون في « غواد الكانال » ، ورماة البحريّة الـ ٤٣٠ الذين كانوا يؤمّنون لهم الحماية ، فقد لاذوا بالفرار . وفي ٩ آب أنزل « فنديغريفت » إلى البرّ معظم رجال فرقته البالغ عددهم ١٩،٠٠٠ ، فهام اليابانيّون على وجوههم في الأدغال شراذم صغيرة ، والحرمان يتربّص بهم ويهدّدهم بالهلاك . وبدت قضيّة « غواد الكانال » بحكم المنتهية .

لم تكن تلك ، في الواقع ، إلاّ بدايتها ، إذ سرعان ما بدرت ردّة الفعل اليابانيّة ! ففي « رابول » أمر الأميرال « غونيشي ميكاوا » ، قائد الأسطول الثامن ، بإبحار الجيوش المتوافرة على ناقلات ستّ سار هو في مقدّمتها على رأس سبعة طرّادات . وهكذا ، ما كادت تمرّ على نزول الأميركيّين المفاجىء اثنتا عشرة ساعة ، حتّى برز الأسطول اليابانيّ من جهة أرخبيل « بسمارك » منقضّاً على العدوّ الرائع موقّتاً في بهجة الظفر . فلم يبقَ إلاّ ٥٠٠ ميل تفصل ما بين الخصمين .

غير أنّ عيوناً كانت ترصّد البحر ، فلقد نظّمت الحكومة

الأوسترالية من المزارعين والموظّفين فيلقاً من المتطوّعين حرّاس الساحل ؛ فبدل أن يولّي هؤلاء الأدبار أمام الغزو ، تفرّقوا في الجزر ، وراحوا ينقلون المعلومات عن العدّو . كان أحد رجال « حرس الساحل » في « بوغنفيل » أوّل من أعلن أنّ أسطولاً يابانياً يمّم شطر الجنوب الشرقيّ بأقصى سرعته . وهكذا افتُضح أمر « ميكاوا » لدى انطلاقه وأصبح عرضة لعقوبة مريعة ، إذ أنّه كان ينازل قوّة بحريّة تضمّ في جملتها حاملات الطائرات الكبرى « انتربريز » و « ساراتوغا » و « واسب » . كان هذا الهجوم أشبه بانقضاض قِدر من خزف على قِدر من حديد !

لكن ، وا أسفاه ! كان الأميركيّون يفتقرون إلى وحدة الإدارة . وكانت حواجز فاصلة قد أُقيمت بين منطقة جنوب شرقيّ الهادىء الخاضعة « لماك أرثر » ، ومنطقة جنوبيّ الهادىء الخاضعة « لنيميتز ». وفي « غواد الكانال » نفسها لم تتولّ أيّة سلطة مهمّة تنسيق العمليّات ؛ لم يكن « فنديغريفت» إلاّ مساعداً للبحريّة ، فيما بقي «غورملي » في « نوميا » ؛ أمّا « فليتشر» . قائد أسطول عرض البحر . فهو الحكم الأوحد في ما يمكن أن يُقدم عليه من مجازفات . سبق أن شهد غرق اثنتين من حاملات الطائرات هما « اللكسنغتون» في بحر المرجان ، و « اليورك تاون » في « ميدوي » . فهو لذلك يدرك أعمق إدراك قيمة السفن التي يحمل مسؤوليّتها ؛ وإذا به ، في الساعة ٨ من مساء ٩ آب . وقد أمسى « ميكاوا » على بعد ١٥٠ ميلاً فحسب ، يصمّم فجأة على العودة إلى « نوميا » . ولم تكن هناك لأيّ إنسان سلطة إيقافه .

هبط الليل ، فإذا بسفينة النقل « جورج ف. إيليوت » باقة من لهب. أمّا حماية عمليّة النزول فقد أُلقيت على عاتق قوّة صغيرة من الطرّادات يقودها الأميرال « تورنر » . فعمد هذا إلى توزيعها بين جبهتي جزيرة « سافو » المغروسة كطوف مخروطيّ الشكل وسط المضيق الفاصل بين « غواد الكانال » و « تولاغي » ، فأقام « الفنسين » و« الأستوريا » و « الكوينسي » إلى اليمين . فيما وقف « الشيكاغو » والطرّاد الأوسترالي « كمبيرّا » إلى اليسار . ورست وراء هذه الطرّادات سفن النقل الملاصقة للشاطىء ولمّا يتمّ إفراغها بعد . بينما بدأ رجال « الماريتز » . التابعون « لفنديغريفت » . على الجزيرة ليلتهم الثانية وسط البرغش والرطوبة .

تضافر الليل والمطر لحجب تقدّم « ميكاوا » . واندفع الأسطول على أثر الطرّاد ــ الأميرال « شوكاي » عبر القناة الجنوبيّة حيث كانت حرائق «جورج ف. إيليوت» تبرز معالم السفن الأميركيّة . وفي تمام الساعة ١٠٤٣ أرسلت المصابيح الكاشفة اليابانيّة أضواءها . وأدركت الطوربيدات خصوماً نياماً ، فأُصيب «الكامبيرّا» بجرح قاتل فيما كان يدوّي نفير إنذاره ؛ وشُطرت مقدّمة « الشيكاغو » . ودار « ميكاوا » حول جزيرة « سافو » بأقصى سرعته . فلم تمضِ خمس دقائق حتى وقع على مجموعة السفن الأميركيّة الراسية في القناة الشماليّة . فإذا « بالأستوريا » تنفجر . و « الكوينسي » تجنح . و « الفنسين » تتبعج وتغرق كالحجر . وهكذا ، في مدى ربع ساعة ، وفي أقصر معارك الحروب البحريّة على الإطلاق ، أُبيدت أربع طرّادات كبيرة ، وأُعطب طرّاد خامس ؛ لقي ١٬٠٩١ من بحّارة الحلفاء حتفهم . ولم يُقتل من اليابانيّين سوى ٥٨ جندياً !

ومع هذا ، فقد أخطأ « ميكاوا » انتصاراً أعظم من الأوّل ؛ لقد حال خوفه من حاملات الطائرات ــ وكان يجهل أمر فرارها ! ــ دون البقاء في ميدان القتال حتى الفجر لتدمير سفن النقل . فما كان منه في الساعة ٢،٣٠ إلاّ أن عاد أدراجه في « الشقّ » بسرعة ٣٠ عقدة ، بعدما ظفر بنزو وأخطأ انتصاراً . وعادت أدراجها كذلك الناقلات الستّ التي كان قد حمّلها جنوداً مهمّتهم استرجاع « غواد الكانال » . بعدما أغرقت الغوّاصةُ الأميركيّة « س ٣٨ » أهمّها ، وهي « المايو مارو » . عاد الجميع إلى « رابول » باستثناء الطرّاد « كاكو » الذي صادف في طريقه الغوّاصة الأميركيّة « س ــ ٤٤ » فكان على يدها حتفه . لقد سجّلت البحريّة الأميركيّة على نفسها هزيمة نكراء ، إلاّ أنّ رجال « الماريتز » بقوا في « غواد الكانال » .

ولكنّ وضعهم لم يكن ممّا يُحسد عليه ؛ فلم تمضِ على كارثة «سافو» بضع ساعات حتى جمع « تورنر » الناقلات واختفى بدوره في الجنوب الشرقيّ ، ترافقه السفن الحربيّة الباقية . أقفر بذلك المضيقُ بين « فلوريدا » و « غواد الكانال » ، بعدما كان بالأمس آهلاً بالسفن كمرفإ كبير . فغمر القلوبَ شعورٌ بالخذلان والتخلّي أخذ ينفجر حول مواقد المعسكرات التّعسة لعنات قذرةسافلة تنصبّ على البحريّةالأميركيّة ؛ وخواطرَ واعتباراتٍ لاذعة تدورُ حول أهليّة « الماريتز » للاستهلاك ! لم تُفرَغ إلاّ نصفُ الذخائر ، وجزء قليل من المدفعيّة ؛ أمّا الزاد فلم يكن ليكفي ثلاثين يوماً إلاّ بإلغاء إحدى الوجبات الثلاث اليوميّة . وبالاعتماد على الأطعمة اليابانيّة التي وُجدت هناك وقوامُها الأرزّ والأسماك المجفّفة. مقارنة واحدة سيطرت على الأحاديث : ألا وهي « باتان » . والواقع أنّ فرقة « الماريتز » الأميركيّة الأولى قد وجدت نفسها في المأزق الذي تردّى فيه جيشُ « ماك أرثر » لثمانية أشهر خلت : فإمّا الاستشهاد . وإمّا الاستسلام .

أمّا الفرصة الثانية فقد عرضت بإنشاء حقل الطيران في رأس «لونغا » .



حلّ محلّ « إيشيكي » العاثر الحظّ جنرالٌ كثّ الشاربين يُدعى « كاواغوشي » ، فأقسم ليطهّرنّ « غوادالكانال » من الأميركيّين قبل ١٠ تشرين الأوّل .

في الصورة أعلاه : الجنرال «كاواغوشي » وأركان حربه .

إلاّ أنّ منظر ذاك المدرج الحيويّ لم يكن مشجّعاً ؛ فالمستطيل الضيّق الذي لم ينجز اليابانيّون تسويته ليس إلاّ مستنقعاً ؛ أمّا قوام عتاد التمهيد الأميركيّ فجرّاف واحد . وكان استئناف العمل مستحيلاً والحالة هذه لو لم يخلّف اليابانيّون ، في فرارهم السريع ، داحلة قديمة لعبت في حرب المحيط الهادىء دوراً أجلّ من دور أعتى البوارج . وشاء حُسن الطالع أن تُنزل إلى البرّ أربعة مدافع من عيار ٩٠ ، فنُصبت حول « هندرسن فيلد» وتمكّنت من إرغام قاذفات العدوّ على البقاء على علوّ يفوق ٢٧٠٠٠ قدم . إلاّ أنّ ذلك لم يَحُل دون إصابة الحقل يومياً بوابل من القذائف ؛ فكان لا بدّ ، في كلّ مرّة ، من العودة إلى ردم الحُفَر . وتسوية الأرض ونقل التراب في الخُوَذ ، واستئناف عمل دائب بين تعاقب المطر الوحشيّ

والشمس المجنونة . حول «هندرسُن فيلد» هذا ستدور رحى معركة « غواد الكانال » خلال ستّة أشهر متتالية سيبقى فيها الحقل محور الاشتباكات البريّة والبحريّة والجويّة الضارية كلّها التي ستنشب في الجزيرة وحولها وفوقها .

يغصّ تاريخ الحروب بذكرى المذابح التي أريقت فيها الدماء من أجل قرى «كأوسترليتز » برزت من العدم فجأة . ثمّ عادت إلى عالم النسيان إثر سقوط الضحيّة الأخيرة. أمّا « هندرسُن فيلد » ذاك ،بأمتاره المربّعة القليلة . فقد فاق كلّ تيك السوابق شهرةً . وما هو غير بقعة من الأرض الفاسدة النتنة قد انبسطت على إحدى أشنع جزر العالم واستعادت وحشيّتها منذ أمد بعيد .

من حسن حظّ الأميركيّين أنّ اليابانيّين قد أساؤوا تقدير قوّتهم فاعتقدوا أنّ عددهم لا يتجاوز ٢٠٠٠ ، ولم يخامرهم شكّ بأنّ هنالك فرقة كاملة من جنود « المارينز » ،وهم نخبة الجيش الأميركيّ . كان قد فاتهم استغلال النصر البحريّ الذي أحرزوه في «سافو» ، وها هم الآن يبذلون من أجل إعادة الفتح جهوداً متتالية بوسائل غير كافية .

كُلّفت بالمحاولة الأولى وحدة موسومة بحظّها العاثر . هي فوج المشاة ٢٨ الخاضع لإمرة الكولونيل « كيوناوو إيشيكي » . والذي كان عليه أن ينزل في « ميدوي » بتاريخ ٥ حزيران ! أفهم الجنرال « هياكاتوكي » قائدَ الفوج أنّ « غواد الكانال » توفّر له فرصة تعويض ما فقده من حظوة في ذاك اليوم المشؤوم . أنزلت ستّ مدمّرات . أثناء الليل . الدفعة الأولى من الفوج . أي ما يقارب ألف رجل . فأعادوا الصلة بمواطنيهم الهائمين في الجزيرة وتلقّوا منهم معلومات مشجّعة . كان الأميركيّون يبدون نشاطاً محدوداً . إذ أنّهم قد تحصّنوا بين نهري « لونغا » و « تينارو » ، أمّا الدوريّة الوحيدة التي غامرت بالخروج من المحيط المحصّن ، قصد حضّ اليابانيّين على الاستسلام ، فقد كان نصيبها الإبادة التامّة ، فاقتنع « إيشيكي » بأنّه لا محالة متغلّب على هذا العدوّ الخائف فيما لو قام بعمل مفاجىء عنيف ، واستعدّ لتوجيه ضربته في ٢١ آب على خطّ «تينارو» الساحليّ .

بيد أنّ كشّافاً من أهالي الجزيرة قد حمل نبأ وصول الفوج اليابانيّ . فتمكّن كمين أميركيّ من الإيقاع ببعض الجنود الذين كانوا قد نزلوا حديثاً في « غواد الكانال » . وقع الهجوم على أميركيّين متنبّهين شرعوا يحشون أوصال المصبّ الصغير بالجثث ، ثمّ ما لبثت كتيبة « المارينز » الأولى أن شنّت على الغزاة . بقيادة الليوتنان كولونيل « كريسويل » ، هجوماً معاكساً . فطوّقتهم في غاب من شجر الجوز الهنديّ . فإذا باليابانيّين يجدون للمرّة الأولى من يفوقهم قيمة وغيظاً ، ومضت الدبّابات الأميركيّة الخفيفة تهزّ بعنف جذوع الأشجار الليّنة وتُسقط منها المناوشين اليابانيّين. أمّا اليابانيّون الذين رموا بأنفسهم في البحر فقد أصلوا ناراً حامية وهم بين الصخور . فلم يستسلم منهم غير ١٥ فيما لقي ٨٠٠ حتفهم . وما كان من الكولونيل « إيشيكي » إلاّ أن انتحر واضعاً حدّاً لسوء طالعه .

كان «هندرسُن فيلد » قد استقبل قبل هذا الفوز بيومين أوّل طائفة من المطاردات وقاذفات القنابل الانقضاضيّة ، وكان أسطول صغير من مدمّرات قديمة حوّلت إلى ناقلات قد أعاد فتح خطوط « غواد الكانال » البحريّة . فوصلت كتيبة المتطوّعين من أجل الخدمة والعمل . للإسهام في المعركة . بترميم المدرج الجويّ الذي يفسده التهوّر والقصف المتواصلان. وذلك بهمّة لا تعرف كلالاً . بقيت الحياة على قساوتها المخيفة . في معسكرات مغمورة بالماء . وتحت سحب من الحشرات . بتغذية رتيبة غير كافية . ولكنّ أمراً قد تغيّر على الأقلّ : فقد انتهت عزلة الأيّام الأولى .

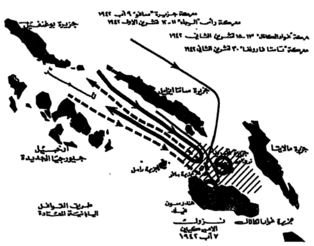
عاد اليابانيّون من جهتهم ينظّمون صفوفهم . فأقاموا قاعدتهم في رأس « الرجاء » شماليّ الجزيرة . وراحوا . في سبيل تأمين وصول المؤن والنجدات ، يغذّون حركة ليليّة تقوم بها المدمّرات ذهاباً وإياباً ، فأطلق عليها الأميركيّون اسم « طوكيو اكسبريس » . ثمّ قرّروا أن يلقوا على الجزيرة . في وضح النهار . مفرزةً من ١٠٥٠٠ رجل . سخّروا لحمايتها قوّات بحريّة جبّارة يقودها الأميرال الكبير « ياماموتو » شخصيّاً ، فجُنّدت من أجل هذا الغرض حاملتا الطائرات «شوكاكو» و «زويكاكو» . وحاملة الطائرات الخفيفة « رويجو » . والبوارج « ياماتو » « وموتسو » و « هي » و « كيريشيما » . فضلاً عن ١٢ طرّاداً . و ٣١ مدمّرة . و ١٢ غوّاصة ... وهكذا حُشد أسطول بكامله من أجل إنزال كتيبة !

تنبّه الأميركيّون . فحشدوا للقاء أسطولاً موازياً ضمّ حاملات الطائرات « انتربريز » و « ساراتوغا » و « واسب » . والبارجة الجديدة « نورث كارولينا » . فضلاً عن ٧ طرّادات و ١٨ مدمّرة . جرت الموقعة ، التي أطلق عليها اسم « سليمان الشرقيّة » . في ٢٤ آب . معيدة إلى الأذهان ذكرى موقعة « ميدوي » . ولكن من غير أن تعادلها . لم تتبادل السفن طلقة مدفع واحدة . ولكنّ الطيّارين اليابانيّين أعطبوا « الانتربريز » . فيما أغرق الطيّارون الأميركيّون « الرويجو » . وإذ أدرك « ياماموتو » أنّه لم يؤمّن لنفسه السيطرة على البحر تخلّى عن إنزال جنوده الـ ١٠٥٠٠ . فعادت الكتيبة إلى « رابول » ، أمّا الأسطول الضخم فلم يفز من القتال بطائل .

وفي أيلول جرت محاولة جديدة . فأُرسلت الأمداد التي من أجلها عرّض « ياماموتو » ذلك العدد الكبير من السفن . وأحرق تلك الكميّة الضخمة من المازوت . إلى « غواد الكانال » عن طريق « طوكيو اكسبريس » . وحلّ محلّ « إيشيكي » العاثر الحظّ جنرال كثّ الشاربين يُدعى « كاواغوشي » . فأقسم ليطهّرنّ « غواد الكانال » من الأميركيّين قبل ١٠ تشرين الأوّل . فأمر بشقّ درب في الأدغال . وأقام قاعدة انطلاقه على بعد ٣٠٠٠٠ متر من « هندرسُن فيلد » . كان مفتاح هذا الحقل قمّة بارزة من الغابة ستحمل في التقارير الرسميّة اسم حاميها المدعوّ « إدسون » . واسم « ريدج الدامية » في روايات الجنود . في ١٢ أيلول تعرّض حماة القمّة لهجوم يابانيّ صارخ ، غير أنّ محترفي « فيلق البحريّة » القساة كانوا يفوقون روعةً اليابانيّين الذين كانوا . بمعدّل واحد ضدّ خمسة . يكنسون انكليز « ماليزيا » كما تُكنس الأوراق الميتة ! فدافعوا عن القمّة قدماً قدماً ، وأرغموا « كاواغوشي » على إيقاف القتال والعودة إلى الأدغال . مخلّفاً في ساحة القتال ٦٠٠ قتيل ، وفاقداً ضعف ذلك العدد أثناء تراجعه وسط الجحيم الأخضر .

كانت الفترة التالية بالنسبة للأميركيّين فترة سعيدة . إذ قد آلت إليهم سيادة الجوّ والبحر على السواء . خانهم الحظّ بفقد حاملة الطائرات «واسب» العائدة من المقلب الثاني حيث أنقذت « مالطة » . والتي قضت عليها طوربيدات غوّاصتين . ولكنّهم ربحوا معركة رأس « الرجاء » التي دخل فيها الطرّادان الثقيلان « فوروتاكا » و « هاتسويوكي » في عداد السفن الكثيرة المغرّقة في قعر القناة . أمّا على اليابسة فوصول فوج المشاة ١٦٤ . وهو أوّل مدد بريّ ، قد مكّن « فنديغريفت » من الانتقال إلى الهجوم . كما مكّنه من توسيع المحيط الذي تحصّن فيه منذ شهر آب حتّى نهر « ماتانيكو » ، فشعرت المراجع العليا بأنّ معركة « غواد الكانال » قد انتهت بالفوز .

إلاّ أنّ الكبرياء اليابانيّ كان محور المعركة ، إذ قد غدت جزيرة « غواد الكانال » ذاتُ الأهميّة الستراتيجيّة المشكوك فيها ، والمعروفة بمناخها المستنقعيّ الفاتك ، محكّاً للإرادات المصطرعة . عُقدت بين الجيش والبحريّة الإمبراطوريّين اتّفاقيّة أعلنت بموجبها جزيرة « غواد



ساحة القتال في « غواد الكانال ».

الكانال » رسمياً مسرح المحيط الهادىء الرئيس . كما أعلن مدرج «هندرسُن فيلد» مفتاح « غواد الكانال » . فتعهّد الجنود بالاستيلاء على « هندرسُن فيلد » . وتعهّد البّحارة بمؤازرة الجنود بكلّ قواهم . ومضت « طوكيو إكسبريس » تنقل إلى « غواد الكانال » ، في دفعات ليليّة تبلغ كلّ منها ٩٠٠ رجل ، جنودّ فرقة « سنداي » الثانية التي يقودها الجنرال « ماروياما » . فضلاً عن جماعة من جنود النخبة تضمّ ٣٢٠٠٠ رام بحري . وهكذا ارتفع عدد القوّات إلى ٣٠٠٠٠ رجل . عُيّن ١٨ تشرين الأوّل موعداً للهجوم . وتعهّد المنفّذون بالاستيلاء على «هندرسُن فيلد » في ٢١ منه .

بدأ الاستعداد في ليل ١١–١٢ تشرين الأوّل . فصبّت البارجتان « كونغو » و « هيرونا » على «هندرسُن فيلد » ٩١٨ قذيفة من عيار ٣٦٠ مم . منها ٢٩٣ ذات جدار رقيق وشحنة من المتفجّرات كبيرة. كان التأثير مروّعاً : فقد حُصدت أشجار جوز الهند حصداً . وسُحقت المعسكرات سحقاً. واندلعت النيران في صهاريج الوقود، وتمزّقت الطائرات إرباً . وكذلك الرجال . وما إن أفرغت البارجتان نيرانهما حتى حلّت الطرّادات محلّها بقذائفها من عيار ٨ بوصات . ولم يمكن إلاّ الاعتقاد بأنّ الشمس سوف تشرق في القاعدة المدمّرة على جثث وأنقاض . إلاّ أنّ شيئاً من هذا لم يكن ، لم يسقط تحت القصف غير ٤١ قتيلاً . ومن جملة الطائرات الـ ٩٠ بقيت ٤٢ طائرة صالحة للطيران . وأعاد المتطوّعون الرائعون إصلاح المدارج بسرعة مدهشة . ثمّ إنّه تمّ العثور على بضع مئات من براميل الوقود المنثورة في المزرعة . ومنذ يوم ١٢ عادت طائرات « هندرسُن فيلد » للإسهام في المعركة . فأغرقت ناقلتين . ومع أنّ « المارينز » قد أثّر فيهم السهر . فقد استعادوا الثقة بالنفس . وباتوا ينتظرون الهجوم المحدق بهم بمعنويّات جيّدة .

جهّز اليابانيّون عمليّة تسير إلى نقطة واحدة . فلسوف تقوم قوّة مؤلّفة من ٥ كتائب . بقيادة جنرال المدفعيّة « سوميوشي » . بالمهاجمة بواسطة الدبّابات على مجرى نهر « ماتانيكو » الأسفل . وتقوم مفرزة يقودها الكولونيل « أوكا » بعبور النهر صُعُداً . عبر جسر مصنوع من جذور أشجار جوز الهند يُعرف « بجسر اليابانيّين » . وأمّا الهجوم الرئيس . الذي كان يقوده « ماروياما » بنحو من عشر كتائب . فقد كان تجسيداً للهجوم الذي أخفق في الشهر المنصرم . ولسوف يهاجم الجناح الأيسر « ريدج الدامية » للإحداق بالعدوّ . فيما يعمد الجناح الأيمن إلى الاستيلاء على « هندرسُن فيلد » بعد الاستدارة حول القمّة .وقد كان هذا الجناح بإمرة « كاواغوشي » الذي رفض أن يحذو حذو الكولونيل « إيشيكي »

اليائس . والذي آثر الانتقام على الانتحار . وقد نصّت تعليماته على ما يلي : « بإمكانكم قبول استسلام العدوّ شريطة أن يأتي الجنرال « فنديغريفت » شخصيّاً لطلبه وإلى جانبه علم أميركيّ وعلم أبيض ... » ففي جزر آكلي اللحوم البشريّة . في المحيط الهادىء . كان اليابانيّون يريدون تكرار مظاهر الاحتفال التي رافقت استسلام « سنغافورة » !

وفي سبيل الوصول إلى قاعدة الانطلاق كان من الضروريّ شقّ ممرّ ضيّق عبر أدغال «غواد الكانال» . يتّسع لـ ١٠٠٠٠ رجل و ٨٠٠ طنّ من العتاد . وأكبّت سريّة الكابتن « أودا » الهندسيّة على العمل . وقد أذن لها قائد الفرقة بأن تطلق على ثمرة جهودها اسم « طريق ماروياما » تشجيعاً . إلاّ أنّ هذه السريّة كانت بحاجة إلى بعض الجرّافات أكثر من هذا التشجيع ، كان خطّ هذا الممرّ يجتاز أكثف الغابات الرطبة . وكتلة نباتيّة كثّة متشابكة معرّشة يبلغ حجمها حجم رجل عاديّ . تتدلّى من أشجار عملاقة خشبُها صلب صلابة الحديد . ولم يكن لدى اليابانيّين غير معدّات يدويّة خفيفة . وقد عمل نقّابو الكابتن « أودا » لدرجة الوهن . وبعد ما وصلوا إلى سفح جبل « أوستن » . وقعوا في متاهات من القمم والشعاب كانت الغابات تحجبها . وأمّا الممرّ الذي تمكّنوا من شقّه فلم يكن سوى معبر ضيّق كمعبر الكشّافين ، وكان تحويله إلى طريق يسلكه الجيش يقتضي أسابيع طوالاً من العمل الدائب .

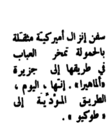
أسابيع طويلة عاشت البحريّة خلالها على أعصابها . وقد صرّحت بأنّها لا تقدر على إبقاء سفنها في البحر إلى ما شاء الله . وعندما أعلن الجيش عن عدم استعداده للهجوم في ١٨ ثارت ثورة البحّارة ؛ وحين صرّح « ماروياما » بأنّ تاريخ ٢٣ كان يبدو له قريباً جداً هدّد البحّارة بنقض العهد وبالتخلّي عن كلّ مؤازرة . وجُنّ جنون « هياكاتوكي » . فأمر « ماروياما » بشنّ الهجوم مهما كانت الظروف . وعمل على إطلاق عمليّة نهر « ماتانيكو » ، فكانت إخفاقاً كاملاً ؛ فقد دُمّرت الدبّابات اليابانيّة التي حاولت عبور النهر فوق عارضة المصبّ الواحدة تلو الأخرى ، وأمّا المشاة الذين كانوا يرافقونها فقد حُصدوا حصداً . وباتت جثثهم طُعمة لتماسيح الـ « ماتانيكو » تلتهمها على الضفاف الرمليّة . وأمّا مفرزة الكولونيل « أوكا » التي خرجت من «جسر اليابانيّين » فقد ابتلعتها الأدغال ، فلم تتمكّن بالتالي من القيام بالتحرّك الجامح الذي أمرت بتنفيذه؛ وقد أُلقيت مسؤوليّة الإخفاق على عاتق رئيسها .

خلال هذه المعارك المشؤومة لقيت فرقة « ماروياما » مصير الشهداء . كانت تتقدّم رتلاً من الرجال يسيرون واحداً إثر آخر ، في ظلمة القبّة النباتيّة . تتعثّر بالجذور وتنزلق على الأرض الدّبِقة؛ وكان الرجال

حاملة الطائرات الأميركيّة « الزنبريز » في معركة «سانتا كروز » وقد أصابتها القاذفات اليابانيّة . أمّا قذائف المدافع المضادّة للطائرات فمصدرها السفينة « ساوث داكوتا » . وقد التُقطت الصورة من على ظهر هذه السفينة في ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٢ .



ألطّريق إلى "طوكيو"



سفن إنزال أميركيّة مثقلة بالحمولة تمخر العباب في طريقها إلى جزيرة «ألماهيرا» . إنّها ، اليوم ، الطريق المؤدّية إلى « طوكيو » .

إنطلق الأميركيّون من « لنغاين » ، وهي أوّل نقطة نزلوا فيها في جزيرة « لوسون» (الفيليبين) ، إلى « مانيلا » التي سقطت في أيديهم في كانون الثاني ١٩٤٥ . وتبدو في الصورة قافلة تموين عبر الأدغال .

طائرة « زيرو » يابانيّة أسقطت في جزر «سليمان».



على ظهر حاملة الطائرات «لكسنغتون» راح هؤلاء الطيّارون يتلقّون أدقّ التعليمات للمعركة المقبلة .





محمّلين بطريقة وحشيّة . فكان كلّ جنديّ يحمل قذيفة . فضلاً عن معدّات قتاله الفرديّة والجماعيّة . وقد جُرّت المدافع بالأيدي؛ وبعد ما تمّ بلوغ وهاد « أوستن » راح الجنود يرفعونها بآلات رفع الأثقال . إلاّ أنّ المجهود كان يتنافى والطاقة البشريّة . فتُركت المدافع كلّها في أماكنها. وبعدما وصل الجند إلى منطقة عمليّاتهم تحت سيل من الأمطار العارمة، كان الوهن قد حلّ بهم تماماً . فالغابة التي شلّت خطاهم قد خانتهم كذلك، ولم تبقِ عنصر مفاجأة كما كانوا يتوقّعون، فقد بصر الأميركيّون على سفح جبل « أوستن » بالأفعى اليابانيّة الطويلة تلفّ وتفكّ أسفاطها البشريّة ، فباتوا ينتظرونها وهم على أتمّ الاستعداد .

صدر الأمر بشنّ الهجوم الأوّل في الساعة ٠٠،٣٠ في ليل ٢٤–٢٥ تشرين الأوّل . كان المطر المنهمر يغمر الظلمة الحالكة . ولم ينطلق بالهجوم غير فوج واحد . هو الفوج الـ ٢٩ ؛ وأمّا الأفواج الثلاثة الأخرى فقد تاهت في الدياجير . كانت الأنظمة اليابانيّة تقول : « إنّ الأدغال والليل هي حليفتنا في وجه الغربيّين المتأنّثين الجبناء ... » ولكنّ هذا التحالف، الذي أدّى مهمّته في «ماليزيا» على أكمل وجه، قد تلاشى في « غواد الكانال ». ففي الساعة ٧ صباحاً لم يتمكّن من التسلّل إلى نطاق الدائرة الدفاعيّة إلاّ بعض العناصر الضعيفة ، فأبيدت من غير شفقة.

كانت ليلة ٢٦–٢٧ تكراراً لليلة السابقة ؛ فالهجوم الجزئي المفتّق قد أبيد مجدّداً من غير أن يتكبّد الأميركيّون أيّة خسارة تقريباً . ولم يبقَ أمام اليابانيّين سوى العودة إلى ممرّ الوحوش الضارية الذي سلكوه . وراح مشاة البحريّة يدفنون بعجلة ٢،٥٠٠ قتيل. ولم يُعرف قط على وجه الصحّة عدد القتلى الآخرين الذين تُركوا للطبيعة المسعورة التي تتحلّل فيها الجثث بين ليلة وضحاها .

ومع ذلك فقد كهربت رسالةُ النصر الأسطولَ اليابانيّ ! فهذه الرسالة طيّرها ضابط الاتّصال البحريّ في الساعة ٠١،٢٦ بالنصّ التالي : « بانزاي! لقد تمّ احتلال المطار! » ومنذ الفجر بعث الأميرال بنحو خمس عشرة طائرة راحت تحلّق فوق «هندرسن فيلد» بانتظار إشارة الهبوط، وكم كان ذهول الطيّارين عظيماً حين أبصروا ٨ مقاتلات أميركيّة تنقضّ عليهم من المطار الذي زُعم احتلاله . وتسقطهم واحداً واحداً !

وفي البحر . كانت المعركة البحريّة الرابعة التي أثارتها «غواد الكانال» قائمة على مقربة من جزر « سانت كروز » ، وهي مجموعة جزر صغيرة تعصف بها ملاريا فتّاكة . تتالت الضربات القاسية ، فأسقط الأميركيّون ١٠٠ طائرة وأخرجوا من القتال السفن «شيكاكو» و«زويهو» و«شيكوما». ولكنّهم أرغموا على التخلّي عن « الهورنيت» بعدما كافحوا ألسنة اللهب التي راحت تلتهمها كفاحاً مستميتاً. إنّها حاملة الطائرات الكبيرة السابعة تُغرق في المحيط الهادىء في غضون عشرة أشهر .

كان مصير «غواد الكانال» يتقرّر في الأركان العامّة أكثر منه في ساحات القتال البحريّة أو البريّة؛ فكانت فكرة التخلّي عن الجزيرة الملتهمة قويّة في كلا الجانبين . في ٢ تشرين الأوّل حمل «فنديغريفت» حتّى «نوميا» إلى رئيسه الأميرال «هالسي» ، خليفة الأميرال «غورملي». الواقعَ التالي : إمّا إجلاء القوّات . وإمّا أن توفّر لها أسباب النصر . وطارت المعضلة إلى «واشنطن» بمعطيّاتها هذه . كان تحضير النزول في «أفريقيا الشماليّة» في أوجه، وكان مخطّطون كثيرون يرون أنّه من الواجب أن يُلاذ بمبدإ الستراتيجيّة الدفاعيّة في المحيط الهادىء . وبالتالي أنّه من الخطإ أن تُزجّ قوّات جديدة في «غواد الكانال»؛ إلاّ أنّ «روزفلت» أثار اعتبار القيمة الرمزيّة التي اتّخذتها الجزيرة . والصدمة المعنويّة التي قد تنجم من جرّاء التخلّي عنها . وفي ٢٤ تشرين الأوّل صدرت مذكّرة كتبها بيده تبتّ في الموضوع : «يجب الحفاظ على «غواد الكانال» بالطرق الضروريّة . حتّى ولو جرّ هذا الأمر إلى تأخير في تنفيذ تعهّداتنا الأخرى».

لقد أعقب قرارَ الرئيس تجاوبٌ فوريّ : فالأميرال «كينغ»، المؤمن بأفضليّة المحيط الهادىء ، قد انتهز هذه السانحة الجديدة فأرسل إليه مفرزة بحريّة قويّة مؤلّفة من بارجة و٦ طرّادات ، الخ... وفي البرّ حلّ موضع فرقة مشاة البحريّة الأولى ، التي أعفيت وأرسلت إلى «أوستراليا» ، الفرقةُ الثانية ، تدعمها فرقتان من الجيش ؛ وأنشئت في الجزيرة قاعدة جديدة، وأصلح الوضع في المخيّمات فحلّ محلّ ارتجاليّة البداية ورومنطيقيّتها نظامُ انضباط صارم ؛ ولقد قال الجنود القدامى : «إنّ معالم «غواد الكانال» قد تغيّرت تماماً» .

إجتاز اليابانيّون التجربة نفسها ووصلوا إلى الاستنتاج الذي بلغه الأميركيّون ، فقرّروا نقل الفرقتين ٣٨ و ٢٣٠ إلى «غواد الكانال»، فضلاً عن مدفعيّة الجيش السابع عشر وأركانه العامّة . فكان على تشرين الثاني أن يحقّق ما عجز تشرين الأوّل عن تحقيقه: القضاء على «هندرسن فيلد» وجعل «أولد غلوري»، الراية ذات النجوم ، ترفرف إلى جانب الراية البيضاء !

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف اعتزم اليابانيّون إنزال ١٣،٠٠٠ رجل إلى البرّ دفعة واحدة ، تنقلهم ١١ سفينة سريعة يحميها أسطولهم بكامله ، باستثناء الـ «زويكاكو» التي لم تُصب بأذى ، غير أنّ طائراتها قد دُمّرت جميعها في معركة جزر «سانتا كروز» . وكما في تشرين الأوّل عُهد إلى البارجتين «هيي» و «كيريشيما» بافتتاح العمليّة بقصف « هندرسن فيلد » . إنّها نقطة انطلاق معركة « غواد الكانال » البحريّة الخامسة ، وهي المعركة التي ستحمل اسم ذلك الموضع لأنّها أهمّ مثيلاتها السابقة واللاحقة .

نهار الجمعة في ١٣ تشرين الثاني كانت ١٣ سفينة أميركيّة . بين مدمّرات وطرّادات . تقوم بأعمال الدوريّة في خطّ مستقيم أمام الجزيرة . وقد كان في معيّتها أميرالان هما «سكوت» و «كالاغان» الذي كان يقوم بأعباء القيادة نظراً لأقدميّته . وحلّت الظلمة حالكة السواد يتخلّلها البريق .

كانت « هيي» و « كيريشيما» تتقدّمان في المنطقة نفسها . ولكن في وجهة معاكسة ، تواكبهما ١٥ مدمّرة ، فوصلتا إلى نقطة بين «سافو» و «غواد الكانال» وأبراجهما على أهبة إطلاق النيران على «هندرسن فيلد». وإذا اعتبرنا قياس السرعة لدى الطرفين ، كانت المجموعتان تسيران للقاء بسرعة ١٠٠ كلم في الساعة ، وذلك من غير أن تعلم الواحدة منهما بوجود الأخرى على مقربة منها . وكان الأميركيّون مزوّدين بالرادار . وأمّا اليابانيّون فلا .

وفي الساعة ٠١،٣٤ اكتشف الطرّاد «أتلنتا» العدوّ . ولكنّ عمل الاتّصال كان سيّئاً . ولم يكن الالكترونيك قد أقنع بعدُ بحّارةَ الطراز التقليديّ بفعاليّته . وتأخّر «كالاغان» في إصدار أمر إطلاق النار . ولم تكن النار قد فُتحت بعد في الساعة ٠١،٤٢ . حين أبصر حرّاس المدمّرة «أكاتسوكي» إلى يسار السفينة هيكلَ طرّاد ، وأبلغ الأميرال «آبي» في الحال بواسطة الإشارة البصريّة . فأمر بإضاءة الأنوار الكاشفة وبإطلاق النار .

أمّا الاشتباك الذي حصل بعد ذلك فلم يكن بالإمكان وصفه بدقّة في يوم من الأيّام . إنقطع خطّ «كالاغان» المستقيم منذ الطلقة الأولى . واشتبكت التشكيلتان الأميركيّة واليابانيّة ، وراحت السفن تطلق نيرانها على غير هدى . وقُتل الأميرالان الأميركيّان . وحين بزغ فجر ١٤ فوق بحر هادىء برّاق كالمعدن . كانت هنالك ٨ سفن على الأقلّ مثخّنة بالجراح بين «سافو» و «غواد الكانال» . ٥ منها أميركيّة . في جملتها الطرّادان



في ٢٦ تشرين الأوّل ١٩٤٢ أرغم الأميركيّون على التخلّي عن « الهورنيت » بعد ما كافحوا ألسنة اللهب التي راحت تلتهمها كفاحاً مستميتاً . إنّها حاملة الطائرات السابعة تُغرَق في المحيط الهادىء في غضون عشرة أشهر .

«بورتلاند» و «أتلنتا» . ولكنّ إحدى السفن اليابانيّة الثلاث لم تكن غير البارجة «هيي» التي اجتاحتها قذائف الـ «سان فرانسيسكو» من على مرمى حجر . ولسوف تُجهز عليها خلال النهار مدمّرة يابانيّة .

هذا . ولم تتلقّ «هندرسُن فيلد» . وهي هدف الغارة ، قذيفة واحدة ! ولم تقترب سفن النقل الـ ١١ من «غواد الكانال» . وعلى الرغم من الأخطاء التي ارتكبها الأميركيّون . ومن الخسائر الفادحة التي تكبّدوها . فقد كان ممكناً أن يعتبروا نتيجة تلك الليلة لصالحهم .

لكنّ تلك الليلة لم تكن غير تمهيد ، في «نوميا» تمكّنت جهود جبّارة من إصلاح الـ «انتربريز» وإعطائها حدّاً أدنى من الإمكانات العمليّة بعدما كان أحد مصاعدها قد دُمّر . وتضرّر جسر إقلاعها . في معركة جزر « سانتا كروز » . ووصلت هذه الحاملة وعلى متنها ٧٨ طائرة . وهي أثمن من البارجتين الجديدتين «واشنطن» و «ساوث داكوتا» اللتين رافقتاها . وفي المساء لم يبقَ منها غير ١٨ طائرة . إلاّ أنّ خسائر العدوّ كانت فادحة تغطّي هذه التضحية : فقد أغرق الطرّاد « كينوغاسا » . وسبع من الناقلات الـ ١١ التي تكدّس فيها الجنود . وتمكّنت ثلاثة طرّادات أخرى . ومدمّرة واحدة . من الفرار . وهي مثخنة جراحاً .

ولكنّ العزيمة اليابانيّة لم تتحطّم بعد . جمع الأميرال « كوندو » حول ناقلاته الأربع الناجية آخر عماراته . ويمّم شطر «غواد الكانال» . وعاد ليل ١٤–١٥ الاستوائيّ الآمن يرتجّ تحت قصف المدفعيّة العنيف . وأمّا السفينتان الأميركيّتان الكبيرتان . اللتان كان يقودهما الأميرال «وليم اوغوستوس لي » . فقد توغّلتا بجرأة فائقة في مياه المضيق الضيّقة . بمواكبة ضعيفة مؤلّفة من ٤ مدمّرات . وجرت المقابلة جزئيّاً بواسطة الرادار . وجزئيّاً بالرؤية المباشرة . في غمرة النور الذي وفّرته الأسهم المضيئة . فأغرقت ثلاث من المدمّرات الأميركيّة الأربع ، وبعدما أصاب الـ «ساوث داكوتا » خلل في مجاريها الكهربائيّة . وقعت فريسة لنيران الأسطول اليابانيّ . ولولا متانة بنيانها لغرقت . وأنقذ الموقف بفضل الـ «واشنطن» . وهي سفينة الأميرال التي سلّطت على « كيريشيما » عاصفة قذائفها من عيار ١٦ بوصة . وبعد دقائق قليلة لم تبقَ البارجة اليابانيّة غير حطام . وما لبثت أن ابتلعتها الأعماق .

أثناء تلك المقابلة وصلت الأمداد اليابانيّة بعد عناء إلى «غواد الكانال» . وأنزلت إلى الشاطىء بصورة يائسة . فجنحت الناقلات الأربع على الصخور المرجانيّة حيث أقبلت القاذفات الأميركيّة منذ الفجر فأحرقتها . وفُقد العتاد بكامله ، ومقابل ثمن بارجتين جاء ٢٠٠٠٠ رجل على الأكثر ينضمّون إلى إخوانهم في السلاح في وجه طبيعة شرسة وعدوّ ساحق !

صمد اليابانيّون في الجزيرة الملعونة بفضل ثبات جنانهم الفائق . وراحت «أميركا» تؤمّن السيطرة على الجوّ وعلى البحر بصورة متزايدة ، وراح « طوكيو إكسبريس » يعمل بصعوبة فائقة مطّردة . فتدنّت الأعداد اليابانيّة إلى ما دون الـ ٢٥٠٠٠ رجل مقابل قوّات أميركيّة تفوقها بضعفين . وفي سبيل الفرار من قصف الطيران كان اليابانيّون مرغَمين على الاختباء في أعماق الأدغال ، راضخين لأمراضها المتعدّدة الرهيبة . ولم يكن لديهم لا كينا ولا ناموسيّات ، وراح الجوع يذيقهم مرّ العذاب . فكان اللحم البشريّ يغذّيهم ! ومع ذلك راح أولئك الرجال الصُفر الصغار يجالدون بعناد سخيف ومؤثّر على السواء . ولم تلقَ الدعوات التي تطلب منهم الاستسلام آذاناً صاغية . فكانوا يدافعون عن كلّ مركز من مراكزهم حتى آخر جنديّ .

وهكذا . في كانون الأوّل . استغرق احتلال الأميركيّين جبل « أوستن » ١٥ يوماً ، وفي كانون الثاني استولوا على المرتفع ٢٧ . وعلى بعض التلال . وعلى موقع « جيفو » . في ظروف صعبة مماثلة . وبدا للأميركيّين بعد ذلك وكأنّ اليابانيّين يبذلون مجهوداً كبيراً جديداً ؛ فقد قلقوا لتجمّعات بعض السفن . واستعاد « طوكيو إكسبريس » نشاطه . وبعد معركة « تاسّا فارونغا » وقعت معركة بحريّة سابعة ، معركة جزر « رينيل » . في ٢٩ و ٣٠ كانون الثاني . أدّت إلى خسارة الطرّاد « شيكاغو » . فما كان من « باتش » . الذي حلّ محلّ «فنديغريفت» . إلاّ أن أنذر القيادة بأنّه يتوقّع نشوب أزمة ، وطلب المدد .

لم تكن العمليّة غير تمويه ماهر ؛ فقد تخلّى اليابانيّون عن «غواد الكانال» ؛ وأمّا التحرّكات التي ظنّها الأميركيّون تحرّكات تدعيم فلم تكن غير تحرّكات إجلاء. وقد أبحر الناجون جميعاً. وعددهم ١١،٧٠٠٠ خفية ، على متون المدمّرات . وأمّا الأميركيّون الذين كانوا يواصلون بحذر تحرّكاً بصورة ملقط شماليّ الجزيرة ، فقد عجبوا لكونهم لم يجدوا أيّة مقاومة ، فحثّوا خطاهم. وفي ٩ شباط اتّصل رتلاهم في قرية على نهر « تينانبو ». كان العدوّ قد تلاشى . فلم يبقَ هنالك يابانيّ واحد في « غواد الكانال » . حتى ولا يابانيّ جريح واحد .

إنّ هذا الجلاء الباهر قد أفقد « النهاية السعيدة » بعضاً من رونقها. ومع ذلك فـ «غواد الكانال» هي إحدى أطول المعارك وأوسعها وأضراها في التاريخ العسكريّ ، على الرغم من نطاقها الذي يبدو لأوّل وهلة ضيّقاً . ويليق بنا أن لا نعتبر عدد المحاربين في الجزيرة إذا ما أردنا أن نقيس مدى أهميّة هذه المعركة ؛ فكلّ محارب في كلا المعسكرين كان يدعمه فريق من الطيّارين ، والبحّارة ، والجنود ، والعمّال ، الذين يحرسون القواعد ويسهرون على صيانتها . لم تتعدّ الخسائر الأميركيّة في المعارك البرّيّة ١،٤٩٢ قتيلاً ، مقابل ١٤،٨٠٠ يابانيّ ، فضلاً عن ٩٠٠ قتلهم الوباء؛ بيد أنّ البحريّة قد دفعت ثمن «غواد الكانال» حاملتين للطائرات ، و ١٢٦،٠٠٠ طنّ من السفن الحربيّة .

كانت «ميدوي» أوّل برهان على المقدرة الحربيّة الأميركيّة البارزة . وأمّا «غواد الكانال» ، بقساوتها الفائقة الوصف ، وبتجاربها الطويلة الأمد ، فقد جاءت مصداقاً لهذه المقدرة ، في ظروف مختلفة تماماً. فالخرافة التي تحكي عن مناعة اليابانيّين قد تلاشت ، وها إنّ الطريق قد انفتحت لاستعادة المحيط الهادىء ومحاصرة « اليابان » .

الفصل الثامن عشر

تشرين الأول - تشرين الثاني ١٩٤٢

منعطف

كانت حرب الصحراء الطويلة قد ولّدت في رجالها عقليّة خاصة مميّزة ، قوامها : الفرديّة ، والكبرياء ، والمرارة ، والاعتقاد الراسخ بأنّ الوطن الأمّ يجحد خدماتهم وينكر آلامهم .

إنقاذ «السويس» : إحتلال مدينة «الجزائر»



قوبل تعيين «مونتغومري» ، الضابط الانكليزيّ الصارم ، على رأس الجيش الثامن ، بالنفور والتخوّف . كان قد عُرف بترفّعه وجفائه وعدائه الإيجابيّ النشيط الكحول والتبغ ، وغلوّه في التعصّب ، لدرجة أنّه قد أثار ضحك الجنود سنة ١٩٤٠ بمذكّرته التي عرض فيها أخطار الأمراض الزهريّة المريعة ، وأهميّة الطهارة بالنسبة الروح العسكريّة . وأثر عنه كذلك تمسّكه الشديد باللباس . وتعلّقه بمظاهر الاحترام الخارجيّة .

والحال أنّ الجيش الثامن كان قد ألغى التحيّة عمليّاً ، ولم يكن نادراً عند الأوستراليّين خصوصاً أن يستقبل الضبّاط العامّين ، أثناء قيامهم بجولة التفتيش ، فتيانٌ منهم ليس عليهم من الثياب إلاّ شارة الرتبة ملصقة على أكتافهم ! ولذا فقد اتّخذ الجنود القدامى تلقائياً موقف المقاومة والسلبيّة إزاء قائد جديد يتناقض إلى هذا الحدّ عاداتهم وتقاليدهم .

بقي هذا هو المعتقد السائد إلى أن استُدعي الضبّاط ذوو الرتب العالية إلى «القاهرة» ، وجُمعوا يومي ١٩ و٢٠ تشرين الأوّل في إحدى دور السينما . عرض عليهم «مونتغومري» خطّة الهجوم التي سيعتمدها في «العلمين» : كان ينوي ، في مرحلة أولى ، تدمير فرق العدوّ المتحصّنة وراء خطّ النار ، بقتال جبهيّ . ويُصار في المرحلة الثانية الى شنّ فترة تُستغلّ وفقاً لأساليب حرب الصحراء العاديّة . على أن تبدأ المعركة مساء ٢٣ تشرين الأوّل بقصف تمهيديّ عنيف .

قليلون هم الحاضرون الذين استطاعوا إخفاء ما شعروا به لدى إصغائهم إلى القائد الأعلى ، فوضوح العرض وجفافه المدقّق كانا يشهدان بمقدرة القادم الجديد وبنشاطه . خاصةً بعد ما حلّل واستنتج الأسباب التي أملت عليه مناورته . ذاك أنّ التحرّكات الجانبيّة التي تعتمد أسلوب «أوكنلك» و «رومل» لم يكن يسمح بها وضع الجبهة الألمانيّة الإيطاليّة التي تتكىء ، من جهة ، على البحر ، ومن جهة أخرى على منخفض «القطّارة» الذي يستحيل اجتيازه . هذا فيما كان تفوّق الجيش الثامن في مجالَي المدفعيّة والطيران يسمح له بسحق العدوّ سحقاً . كانت معركة «العلمين» معركة إتلاف مبدئيّ شبيهة بمعركة ١٩١٧ في الصحراء .

الواقع أنّ التفوّق البريطانيّ ، من حيث الأرقام الصرفة ، كان بنسبة اثنين لواحد : ٢٢٠٠٠٠ رجل مقابل ١٠٨٠٠٠ ، و٩٣٩ دبّابة مقابل ٥٤٨ ، الخ . كانت القوّات الإيطاليّة ممثّلة بـ ٥٥٠٠٠ جنديّ و٢٩٩ دبّابة ، إلاّ أنّها لم تكن بمستوى قوّات العدوّ رجالاً وأعتدة . وأخذت دلائل التهوّر تظهر على الألمان أنفسهم . فالمعدّات

«هيوني أسبوعين أصمدْ في وجه الهجمات الألمانيّة ، هيوني ثلاثة أسابيع أهزم الألمانيّ ، هيوني شهراً أطرده من «افريقيا» (مونتغومري).

هزيمة الألمان المُنكَرة بعد «العلمين» ، والقوّات البريطانيّة في أعقابهم .

قد أدركها الإعياء ، والرجال جائعون ، والحالة الصحيّة سيّئة . ففي ظرف عشرة أيّام أجلي معاونو « رومل » الرئيسون كلّهم : أبعِد « غوزي » بسبب الإعياء ، و « فيستفال » بسبب مرض الصفراء ، و « ملنثين » بسبب الزُّحار الأميبيّ ، الخ . و « رومل » نفسه غادر « أفريقيا » لمعالجة كبده وتخفيض ضغطه . وحاول لدى مروره في « روما » أن يحثّ « موسوليني » ، إلاّ أنّه لم يلقَ غير استقبال يشوبه الاحتقار والعداء . أمّا في مقرّ قيادة « الفوهرر » فقد ألفى تفاؤلاً مفرطاً ، ووعوداً سخيّة مدهشة، ولكنْ مبهَمة ، فضلاً عن تبجّحات « غورنغ » الذي كان يكرّر زعمه بأنّ الأميركيّين لا يحسنون غير عمل واحد . ألا وهو صنع شفرات الحلاقة !

كان الجنرال الذي تولّى زمام القيادة في غيابه مثل « مونتغومري » حديث العهد بالصحراء : إنّه « شتومي » نفسه الذي شهدناه يلامس خطر الإعدام في « أوكرانيا » . لقد بذل نشاطاً كبيراً ، ولكن من غير أن يتمكّن من إثبات هيبته ونفوذه على قدامى « الفيلق الأفريقيّ » الكثيري التذمر .

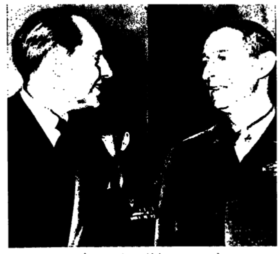
دسائس واستعدادات في مدينة "الجزائر"

فيما كان « مونتغومري » يودِّع ضبّاط جيشه الأعلين كلّهم أسراره ، بدأ تنفيذ عمليّة النزول في « أفريقيا » الشماليّة الفرنسيّة ، ففي ٢٠ تشرين الأوّل غادرت القافلة البطيئة الأولى خليج « شيزابيك » في طريقها إلى « المغرب » و « الجزائر » . وكان ما كان .

كان الأمر قد قُرِّر في ٢٢ تموز . وبإمكاننا أن نقيس حماسة القائد الأعلى المعيَّن . « دوايت د . أيزنهاور » ، بالعبارة التي أسرّ بها إلى ضابط اتّصاله ، قائد السفينة « هاري ك . باتشر » ، إذ قال : « أخشى أن يكون ٢٢ تموز هذا أكلح أيّام التاريخ » . كان « مارشال » و « ستيمسون » ورجال الأركان كلّهم قد حاربوا مشروع الحملة . إلاّ أنّ « تشرتشل » كان قد فاز بتأييد « روزفلت » ، فلم يبقَ أمام أخصّائيّي السّراتيجيّة إلاّ أن ينحنوا ممتثلين .

طَرَح أمر النزول إلى البرّ الفرنسيّ ، بالنسبة للفرنسيّين المنقسمين على أنفسهم ، مشكلةً دقيقة ، فحامية « أفريقيا » الشماليّة كانت تقدَّر بـ ٢٠٠،٠٠٠ رجل ، عُرفوا بقلّة التسليح وضعف بالغ في الذخيرة ، ولكنّهم امتازوا بانضباط وقيادة ممتازين . كان بوسع ذاك الجيش والحالة هذه ، أن يعمد إلى مقاومة تحيل عمليّة النزول إلى كارثة ، ولذا كان من الخطورة بمكان أن يضمن تمهيد سياسيّ ملائم فتحاً يسيراً « لأفريقيا » الشماليّة . فلا تتعدّى المقاومة حدود قتال رمزيّ قصير .

أبقي « ديغول » بمعزل عن ذلك التمهيد السياسيّ ، إذ أنّ الاستفتاءات كلّها ، التي أجريت في الجيش وبين السكّان المدنيّين ، قد اتّفقت على تقرير الكراهية التي تثيرها الديغوليّة . كان « ديغول » في « فرنسا » المحتلّة يعتبر ، بما يشبه الإجماع ، رمز المقاومة القوميّة . أمّا في « فرنسا » غير المحتلّة فقد أخذ مركزه الأوّليّ ، الذي كان ضعيفاً أوّل الأمر ، يقوى ويشتدّ بانحلال النظام الفيشيّ ، وممالأة حكومة « لافال » النظامَ النازيّ ، أمّا في « أفريقيا » الشماليّة فكان « ديغول » يُعتبر ضابطاً متمرّداً ، شريكاً في مؤامرة « المرسى الكبير » ، وصاحب فكرة الاعتداء على « دكار » ، ومسؤولاً عن اقتتال الأشقّاء في « سوريا » و « لبنان » . وكانت « أفريقيا » الشماليّة تدين بالولاء التامّ « لبيتان » ، ولذا عمل الأميركيّون على اكتساب العون والمساهمة في صفوف أنصاره فحسب .



« روبرت مورفي » ، عين « الولايات المتحدة » في مدينة « الجزائر » وأذنها ، في حديث مع الجنرال الأميركيّ « مارك كلارك » في « لندن » .

سعى « روبرت مورفي » في ذلك جهده ، ففضلاً عن كونه مستشار السفارة الأميركيّة في « فيشي » ، وقنصلاً عامّاً رسميّاً في مدينة « الجزائر » ، كان الممثّل الشخصيّ للرئيس « روزفلت » ، وعميل « مكتب الخدمات السّراتيجيّة » (م.خ.س.) ، أي وزارة التجسّس والعمل السرّيّ الخفيّ . كانت كاثوليكيّته ومحافظته تقرّبانه من أعيان « أفريقيا » الفرنسيّين ، وما لبث أن اكتشف الكفاءة والمهارة اللتين تمكّن بهما أولئك الوجهاء من بسط سيادة القانون الفرنسيّ بين سكّان ينتمون إلى فئات مختلفة ، وعلى أرض متراميةِ الأطراف ، ولحظ توثّب الروح الوطنيّة فيهم ، كما لحظ ما كان يُفعِم قلوب الأكثريّة من حقد على « ألمانيا » ورغبة في الاثّأر . ولقد ظنّ « روبرت مورفي » نفسه قادراً على تجميع « المغرب » اعتماداً على أمثال أولئك الرّجال .

بدأت المهمّة بالاتّصال « بفيغان » ، قبل كارثة « بيرل هاربور » ، فتمكّن « مورفي » من عقد اتّفاق لتموين « أفريقيا » الشماليّة تموينا محدوداً ، واعتقد أنّ قليلاً من السكّر والموادّ القطنيّة يكفي لإثارة حركة تفاهم وتقارب في طبقات الأهلين . أضف إلى ذلك أنّ الاتّفاقيّة سمحت باستقرار أحد عشر رجلاً أعلِن أنّهم نوّاب قنصل ، ولم يكونوا في الواقع غير عملاء لمكتب التجسّس . والغريب انّ الإهمال الألمانيّ الفائق التصوّر قد سمح لتيك الشبكة بالبقاء ، حتّى بعد نشوب العدوان بين « ألمانيا » و « الولايات المتّحدة » .

لمّا استُدعِي « فيغان » في تشرين الثاني ١٩٤١ أهمل الأميرال « ليهي » كلّ شيء قانطاً ، ووصف ردّة الفعل الفرنسيّة على المطاليب الألمانيّة بأنّها مائعة ، واقترح إلغاء الاتّفاق المتعلّق بالتموين ، فوُفّق إلى إبطاله ، بيد أنّ « مورفي » بقي وثبت وثابر ، فإذا بجماعة من المتآمرين يلتفّون حوله رويداً رويداً بين عسكريّين ، وموظّفين ، ومستوطنين ، وأعضاء ورشات الشباب ، وأمثال الجنرال « ماست » ، والجنرال « مونسابير » ، و « هنري داستييه دي لا فيجري » ، و « تاربيه دي سان هاردوان » ، و « فان هيك » ، و « جان ريغو » ، و « ليميغر — دوبرويل » .

كان متآمرو « الجزائر » أولاء كلّهم محافظين ، وإلى حدّ ما ملكيّين ، يحلمون بتمديد ملكيّة المارشال « بيتان » الموقّتة ، بملكيّة « الكونت دي باريس » الوراثيّة . ولقد ضمن « مورفي » وطنيّتهم ، وكان على حقّ ، ولكنّه لم يتغلّب إلاّ بصعوبة على الشكّ الناتج عن

لونهم السياسيّ . وعن الوظائف التي قبلوا أن يتسلّموها من حكومة « فيشي » . وأيّاً كانت الأسباب . فالواقع أنّ الشبهات قد أحاطت بكلّ ما هو فرنسيّ . فقد كتب الأميرال « ليهي » : « غنيّ عن البيان أنّ « ديغول » محاط بالجواسيس . وأنّ أيّة معلومات تبلغه ستنتقل لتوّها إلى الألمان » . ولم يكن متآمرو « الجزائر » ليتمتّعوا بثقة أكبر بكثير . ولذا كان المسؤولون يذكّرون « مورفي » دوماً بألاّ يعطيهم أيّة معلومات عن تنظيم النزول وتاريخه . فكانوا بالتالي يتآمرون في ظلام .

كانت أفضل طريقة لمنع « أفريقيا » الشماليّة من إبداء أيّة مقاومة هي في العثور على شخصيّة فرنسيّة رفيعة قادرة على إصدار أمرها بمساندة قضيّة الحلفاء متى آن الأوان . طرح « ليهي » على « بيتان » السؤال التالي : « ما عساكم تفعلون في حال نزول قوّات في «أفريقيا» الشماليّة ؟» فأجاب: «سنقاوم» . وقال « ليهي » : « حتى ولو كان النازلون أميركيّين » ؟ وأتاه الردّ : « أجل ، حتى ولو كانوا أميركيّين » .
وحين طُرح السؤال على « فيغان » أجاب بدوره أنّه قد عاد شخصاً عاديّاً يدين للمارشال بولاء غير مشروط ، وأنّ سنّه المتقدّمة لا تسمح له بالتآمر . إتّجه التفكير إذ ذاك إلى أحد خرّيجي مدرسة « ليوتي » اللامعين . وهو الحاكم العامّ « أوغست نوغيس » الذي كان لحكمه القدير الصارم فضل إبقاء « المغرب الأقصى » ضمن حظيرة الولاء النموذجيّ . فقد عُرف عنه أنّه قد تردّد طوال يومين قبل أن يعير نداء ١٨ حزيران ١٩٤٠ أذناً صمّاء ، ثم إنّه يعتزّ بأنّ ألمانيّاً واحداً لم يجتز عتبة داره . ذلك كلّه مكّن « مورفي » ، عقب عشاء شهيّ ، من إثارة احتمال ممكن يبرز فيه في « أفريقيا » الشماليّة جيش أميركيّ يبلغ نصف مليون رجل ليسير بها على طريق النصر . فانتفض « نوغيس » وقال : « لا تفعلوا ! فلو حاولتم لتلقّيتكم بكلّ ما لديّ من قوى ناريّة . لقد بات دخول « فرنسا » الحرب غير معقول بعد اليوم . . . » ثمّ قال هذه العبارة التي تبرز بجلاء شكل الوطنيّة التي كانت تفرض عليه تفكيره:
« لو غدا « المغرب الأقصى » ساحة قتال لضاع على « فرنسا » » !

نفدت بذلك لائحةُ الشخصيّات الممكنة ، وإذا بحادث غريب يُدخل عليها اسماً جديداً . هو اسم « هنري هونوري جيرو » . لقد تركنا « جيرو » أسيراً في سهول « كامبريزيس » . إلاّ أنّه ، في نيسان ١٩٤٢ . وقد بلغ الثالثة والستين . فرّ من قلعة « كونغشتاين » بواسطة حبل ذي عقد والتحق « بفرنسا » غير المحتلّة حيث لقي استقبالاً فاتراً معتدلاً . لامه كثيرون لتدابير الثأر التي سبّبها فراره للأسرى . وطلب منه « لافال » أن يعود إلى الأسر بغية تهدئة سخط « هتلر » . تردّد « جيرو » قليلاً . ثمّ رفض العودة إلى النير . فسُمح له بأن ينسحب إلى جوار أسرته في ضواحي « ليون » بعد ما تعهّد « بالامتناع عن أيّ عمل قد يسيء إلى علاقاتنا مع الحكومة الألمانيّة أيّاً كانت الإساءة » . وهكذا أمسى . على ما يبدو . جنرالاً قديماً متقاعداً ينتظر أن تفرض قوّة السلاح قراراً لا تكون له في تحقيقه أيّة ضلع .

بيد أنّ مؤامرة ذات جرأة فريدة قد انعقدت حوله . في أزمنة تحكّمت بها قوّة بوليسيّة عاتية ظافرة . كان « جيرو » قد عاش في « المغرب » أمجد ساعات حياته العسكريّة . فظنّت الحكومة الأميركيّة أنّها واجدة فيه ذاك القائد الذي يستطيع أن يؤمّن لها انضمام « أفريقيا الشماليّة » إذا أخفقت في إقناع «بيتان» و « فيغان » . فعرض عليه القائم بالأعمال الأميركيّ في « فيشي » ، باسم الرئيس « روزفلت » ، وبواسطة نائبة القنصل في « ليون » . التعاون على تنظيم عمل عسكريّ ضدّ « ألمانيا » . فوضع « جيرو » لذلك شروطه . فإذا أحدها لا يقبل إلاّ « بأن يتولّى بنفسه قيادة القوّات الحليفة العليا حيثما تشترك بالقتال


الجنرال « جيرو » (إلى اليمين) والأميرال « دارلان » في مدينة « الجزائر » ، في تشرين الثاني ١٩٤٢ .

جيوش فرنسيّة » . كان على يقين من أنّ العمل المنويّ إنّما سيجري في « فرنسا » الأمّ ، وإذا به يتقمّص من جديد شخصيّة القائد الأعلى ، ويعمد إلى وضع مخطّط للعمليّات يهدف إلى إرساء رأس جسر على الشاطىء المتوسّطيّ ، يمتدّ من « بور – فندر » إلى « تولون » ؛ وبدا له أنّ ٢٥٠ طائرة مطاردة ، و٣ فرق أميركيّة « تنخرط تحت القيادة الفرنسيّة حال وصولها إلى البرّ » ، كافية لإنجازه .

كانت « أفريقيا » الشماليّة في نظر « جيرو » قاعدة رأس الجسر الخلفيّة . « قبِل » أن تتولّى الأركان الأميركيّة تنظيم عمليّات النزول إلى البرّ ، غير أنّه أصرّ على أن تؤول إليه إمرة القوّات الحليفة كلّها « بعد أن تمرّ ٤٨ ساعة على نزول القافلة الأولى إلى البرّ » .
كان على متآمري مدينة « الجزائر » ، الذين ألفوا في « جيرو » ما يبعث الطمأنينة والأمل في ميولهم التحفّظيّة والملكيّة ، أن يمهّدوا الطريق لانضمام جيش « أفريقيا » . لم يجرؤ أحد على الاتّصال « بجوان » قائد القوّات البريّة الأعلى ، لأنّ الألمان لم يسرّحوه إلاّ بعد ما تعهّد بعدم اللجوء إلى السّلاح ضدّهم ؛ بيد أنّ الجنرال « ماست » كان قائد فرقة مدينة « الجزائر » ، فجعل منه « جيرو » ممثّلاً له في « أفريقيا الشماليّة » . وراح « لوميغر – دوبرويل » يبذل نشاطاً ملحوظاً متنقّلاً بين مدينة « الجزائر » و « ليون » ، متوهّماً أنّه رئيس وزارة لحكومة سريّة . إلاّ أنّه ، شأنه في ذلك شأن « جيرو » ، لم يكن أدرى من قيادة الجيش الألمانيّ العليا . بالنيّات الانكليزيّة الأميركيّة !

كان من حقّ الحملة الأفريقيّة الشماليّة . على الصعيد الستراتيجيّ . ان تبطل جدوى موقعة « العلمين » ، ذاك أن إمداد الجيش الثامن عن طريق « الكاب » الطويلة . بدلاً من تسليط الوسائل الضروريّة على «المغرب» . بغية استعجال النصر والانقضاض بعنف على خطّ تراجع « رومل » . لم يكن من المنطق وحصافة الرأي في شيء بالنسبة « لانكلترا » و « أميركا » المفتقرتين إلى السفن . بيد أنّ التخوّف الذي رافق نظرة الأميركيّين إلى المغامرة الأفريقيّة كان آخذاً في الازدياد . ذلك أنّ التوغّل في ما وراء مضيق « جبل طارق » كان يشعرهم بأنّهم يزجّون برأسهم في حبل المشنقة . كانوا يخشون تدخّلاً إسبانيّاً أكثر ممّا يخشون مقاومة فرنسيّة ؛ فقد يعتبر « فرانكو » عمليّة النزول اعتداء غير مباشر . فيبادر إلى إغلاق البحر المتوسّط . ويبرز من « المغرب » الإسبانيّ . ليقطع في « فاس » حبل السرّة الواهي الذي يصل « المغرب الأقصى » «بالجزائر» .
كان لا بدّ من إلحاح « تشرتشل » لتمديد عمليّة النزول حتى مدينة

«الجزائر»، أمّا المحاولات التي بُذلت لشمل «تونس» أيضاً في رمية الشبكة الأولى فقد أهملت.

من الحقّ أن نعترف بضعف الوسائل الحليفة، بل لقد كانت من الضعف بحيث وجبت إحاطتها بالمزيد من التكتّم والتحفّظ. كان المخطّطون قد قدّروا القوّة الضروريّة المحتّمة بـ ٢٥٠.٠٠٠ رجل. ومع هذا فلن تُذكر البتّة لمتآمري «الجزائر» قوّة يقلّ عدد أفرادها عن نصف مليون! وفي الواقع لم يتوافر لهم غير ١١٣.٠٠٠ رجل وزّعوا على فصائل ثلاث تحت إمرة الجنرالات «باتون» («الدار البيضاء»). و«فريدندال» («وهران») و«رايدر» («مدينة الجزائر»). وقد دلّت التجارب التي أُجريَت في «سكوتلندا» وفي «ايرلندا الشماليّة» على نقص في الخبرة لم يستطع معه «أيزنهاور». الذي كان يفتقر هو نفسه إلى الكثير منها. إخفاء قلقه. كانت عمليّة الاختبار هذه المنويّ القيام بها في «أفريقيا الشماليّة». والتي فرضتها ضرورات سياسيّة. سابقة لأوانها على الصعيد العسكريّ. وإلاّ لوجب دعمها بالأمداد التي بُذلت «لمونتغومري».

آثر المسؤولون قلب المسألة رأساً على عقب، فبدلاً من أن يُعتبر الانتصار في موقعة «العلمين» أمراً تافهاً. نُظر إليه على أنّه ضروريّ لنجاح عمليّة النزول إلى البرّ، فكتب «تشرتشل» يقول: «من شأن ذلك النصر أن يبدّل موقف الفرنسيّين من عمليّة النزول في «أفريقيا الشماليّة» تبديلاً جذريّاً». من هنا نشأ تنسيق العمليّتين التاريخيّ، فبات على «مونتغومري» أن يتحرّك في ٢٣ تشرين الأوّل. فيما ترتّب على حركة المدّ المؤاتية في ليل ٧ — ٨ تشرين الثاني أن تحمل الغزاة إلى «المغرب الأقصى» و«الجزائر». هذا، وكان الأمل كبيراً بأن توفّر الفسحة الممتدّة بين التاريخين فرصةً كافية لإحراز نصر مبين في الصحراء.

"رومل" و"مونتغومري" في "العلمين"

فاق «مونتغومري» بخداعه أرفعّ حيل «روميل» إطلاقاً. فقد أمر ببناء خطّ للأنابيب موجّه إلى جنوب الجبهة، لإيهام العدوّ بأنّ الصدمة البريطانيّة ستحدث في حاشية منخفض «القطّارة»، فالدبّابات التي اكتشفها الألمان في تلك المنطقة كانت أشكالاً من المطّاط مموّهة، بينما اتّخذت الدبّابات الحقيقيّة المحتشدة في الشمال أشكال شاحنات عاديّة. وقد تمّ تمركز المشاة ليلاً. فكانوا يقضون ساعات النهار متراصّين. في خنادق ضيّقة. تحت ضباب الذباب. وقد أُمروا بألاّ يأتوا حركة مهما كان السبب.

وأخيراً. غاصت شمس ٢٣ تشرين الأوّل وراء الأفق. وحلّ الليل بارداً صافياً، وتناول الرجال طعاماً ساخناً. ومن ثمّ تسلّلوا بصمت نحو الحاشية الخارجيّة لحقل ألغام العدوّ. من خلال ثغر حقل الألغام الانكليزيّ. وفي الساعة ٢١.٤٠ باشرت المدفعيّة عملها. إنّ هذا القصف الذي انصبّ على جبهة تبلغ ٣٨ ميلاً. بواسطة ١.٢٠٠ فوهة نار. منها ٤٥٠ من عيار يفوق عيار ١٠٥. لم يكن يضاهي عنفاً قصف السحق في الحرب العالميّة الأولى. ومع ذلك فسوف يبقى عالقاً في أذهان محاربي «العلمين» كمربون للقوّة والقصف.

في تمام منتصف الليل انطلق حاجز من الرجال متحرّك. راح يتقدّم ١٠٠ ياردة كلّ خمس دقائق حسب قواعد ١٩١٦ القديمة، وبقيت مدفعيّة العدوّ شبه صامتة. لا بسبب نيران البطاريّات المضادّة فحسب. بل خصوصاً بسبب الأمر الذي فرض عليها توفير ذخيرتها. ووراء الحاجز المتحرّك. أطبق المشاة على أعشاش الرشّاشات الغارقة في حقول الألغام. والتي كانت تشكّل موقع المخافر الأماميّة. وعند جبليّي الفرقة ٥١ السكوتلنديّين سار النافخون في مزامير القِراب في المقدّمة. فكانت تقاسيم هذه الآلات تتخلّل الانفجارات.

كان المشاة يتقدّمون عبر حقول الألغام راضين بما يتكبّدونه من خسائر. ولكن كان من الضروريّ فتح منافذ أمام الفرق المصفّحة. وقد أُوكلت هذه المهمّة لزمرة النقّابين الأخصّائيّين. وكان المهندس الأفريقيّ الجنوبيّ «دوتوا» قد وضع لهم خصّيصاً آلة تضرب الأرض كالمدقّة، في مقدّمة دبّابة من طراز «ماتيلدا»؛ إلاّ أنّ الغبار الكثيف الذي كانت تثيره تلك العقرب قد أرغم مستعمليه على التخلّي عنه؛ وهكذا بقي إبطال الألغام حرفة يدويّة. فخلال الليل بطوله؛ وبينما كان المشاة يسيرون وراء الحاجز، عمل النقّابون دائبين. فكانوا يكتشفون الألغام ثمّ ينزعون فتائلها تحسّساً باللمس.

عند الفجر لم تكن المهمّة قد أُنجزت بعد. فمن المنفذين اللذين جُهّزا خصّيصاً لفرقتَي الفيلق العاشر المصفّحتين، كان منفذ واحد سالكاً نوعاً. فأهداف المشاة لم يتمّ بلوغها إلاّ جزئيّاً. وفي الشمال كانت فرقتان فحسب من فرق الفيلق الـ ٣٠ الخمس قد اجتازتا حقل الألغام الرئيس. وهما الفرقة الأوستراليّة التاسعة والفرقة النيوزيلانديّة الثانية. وفي الجنوب لم يسجّل الفيلق ١٣، الذي كان يقوم بالنشاط الثانويّ لتجميد احتياطات العدوّ. غير نتائج ضئيلة؛ وفي أقصى الجنوب بات اللواء الفرنسيّ، الذي كان يهاجم أحد المرتفعات، عالقاً بالرمال اللزجة. فكان على المدفعيّة أن تقصف من جديد، وتوجّب استئناف أعمال اكتشاف الألغام. كان «روميل» في مستوصفه المعلّق النمساويّ قد تبلّغ نبأ انطلاق الهجوم من «كيتل» بمكالمة هاتفيّة؛ وما هي إلاّ ساعات حتّى كان «هتلر» يطلب منه شخصيّاً أن يعود إلى مقرّ قيادته، فاسم «شتومي» كان على لائحة المفقودين، ولم يكن عنف الهجوم ليترك مجالاً للشكّ في أنّ الانكليز كانوا يبذلون جهدهم الأكبر.

في اليوم التالي. ٢٥ تشرين الأوّل، عاد «روميل» بطائرته الخاصّة نحو «أفريقيا». وإبّان توقّفه في «روما» نقل إليه الجنرال «فون رينتيلين»، الملحق العسكريّ الألمانيّ، أنباء ملأته خيبةً وحنقاً. فحظّ الجيش الأفريقيّ المصفّح من الوقود لم يترك لكلّ دبّابة إلاّ مجالاً في العمل على نطاق ٣٠٠ كلم فحسب؛ وإذ قام المارشال بتعنيف «رينتيلين» أجابه هذا، بشيء من الوقاحة، بأنّه عائد لتوّه من إجازة نقاهة. وبأنّ التموين كان رهناً بجماعة «الماكاروني»!



بطاريّة بريطانيّة تعصف في «العلمين».



مدفع بريطانيّ مضادّ للدّبابات يعصف في « العلمين »، فيما راح أحد الجنود يسعف جريحاً .

عندما هبط « رومل » في « درنة » كانت جثّة « شتومي » قد حُملت إليها . كان « شتومي » قد ذهب نحو خطّ النار برفقة كولونيل واحد هو « بوختنغ » . لا تواكبه أيّة شاحنة . وبالقرب من المرتفع ٢٨ . الذي يسمّيه الانكليز « الكلية »، تسلّطت على الألمان نيران الرشّاشات فقُتل « بوختنغ » في الحال برصاصة في رأسه . وأمّا « شتومي » ، الذي كان بديناً يشكو من ارتفاع الضغط ، فقد حاول أن يتّخذ من هيكل السيّارة درعاً له ، إلاّ أنّ نوبة قلبيّة أرغمته على التراخي والوقوع ، ولم يلاحظ السائق ذلك . وقد استمرّ البحث عن جثّته يومين عثر عليها بعدهما .

إنّ موقع « العلمين » الذي سيطرت عليه ٨ فرق مشاة ، منها ٦ إيطاليّة ، كان ما يزال سليماً . إلاّ أنّه كان على الفرق الستّ الآليّة أو المصفّحة (٣ ألمانيّة و٣ إيطاليّة) أن تشنّ هجمات معاكسة متوالية . وكان لدى الانكليز دفاع مضادّ للدّبّابات قويّ للغاية : ففي عشيّة ٢٥ لم يبقَ لدى الفرقة المصفّحة الألمانيّة الـ ١٥ غير ٣١ دبّابة صالحة من مجموع الدبّابات الـ ١١٩ التي كانت لديها في الصباح . وقد كان « رومل » عالماً بما يجدر القيام به ، ألا وهو الإفلات . كان من الضروريّ الفرار من وجه تلك المدفعيّة الساحقة التي تطلق نحواً من ٥٠٠ قذيفة مقابل واحدة ، والعود إلى الحرب السريعة التي تمكّن من تعويض الضعف بالمهارة . إلاّ أنّ جفاف الوقود قد بلغ أشدّه . حتى إن الوحدات الميكانيكيّة لا تكاد تقوم بالتحرّكات التكتيكيّة الضروريّة . وكان يُنتظر بفارغ الصبر وصول ناقلة البترول « بروزيربينا » التي تحمل ٧٠٠٠ طنّ من الوقود ، ولكنّها أغرقت عقب وصولها إلى « طبرق » .



أمّا الـ « لويزيانو » ، التي أرسلت بدلاً منها ، فقد لقيت المصير عينه . وكان على « رومل »، والحالة هذه، أن يرضخ لمشيئة «مونتغومري»، فيقبل معركة الفناء .

هذا ، وكان الهجوم الانكليزيّ يعيش مرحلة متأزّمة ! ففي ٢٦ ، نام « مونتي » (مونتغومري) في الساعة العاشرة كعادته . ولكنّ تقارير النهار الأخيرة كانت مخيّبة لدرجة أنّ رئيس أركانه ، السير « فرنسيس دي غينغاند » ، أخذ على عاتقه أن يدعو إلى مركز القيادة المتجوّل الجنرالين «ليس» قائد الفيلق ٣٠ ، و « لومسدن » قائد الفيلق ٣١ . فوصلا في الساعة ٣:٣٠ مرهقَين . كان « مونتغومري » غاضباً لأنّه قد أوقظ من غفوته ، فاستقبلهما استقبال الكلاب . وأمر بأن يُستأنف الهجوم كما انطلق في الليلة السابقة ، حتى يتمّ إفناء العدوّ إفناءً كاملاً .

عند بزوغ شمس اليوم التالي عاد « مونتغومري » عن قراره . وقرّر أن يقوّم عمليّته ؛ فلسوف يركّز الفيلق ١٣ في وضع دفاعيّ . وأمّا الفرقة المصفّحة التي كانت ملحقة به فستنطلق صُعُداً نحو الشمال لتلتحق بالفيلق العاشر . وسيجري سحب الفرقة النيوزيلانديّة الثانية من الجبهة لإعادة تجهيز كتلة صدام . كانت هذه التجمّعات تتطلّب أيّاماً عديدة ، وقد انتاب الجيشَ الثامن من جرّاء تباطؤ المعركة شعورٌ بأنّ الهجوم قد باء بالإخفاق .

وبعيداً عن هذه المعركة كان هذا الشعور أكثر رسوخاً ، فقد استشاط « تشرتشل » غيظاً وقال : « ألن نتمكّن أبداً من العثور على جنرال قادر على كسب معركة ؟ » وحرّر برقيّة طلب فيها من «ألكسندر» استبدال « مونتغومري » . إلاّ أنّ « بروك » تمكّن من الحصول على مهلة لصديقه .

كان الهجوم الجديد في ٢ تشرين الثاني عمليّة أكثر تنسيقاً وأدقّ توقيتاً من هجوم ٢٤ تشرين الأوّل . فالانقضاض الرئيس سوف يقوم به لواءان متساندان ، على جبهة طولها ٤ كلم فحسب ، وقد حُدّد عمق تقدّم المشاة بـ ٦ كلم . ولسوف يرافق المشاةَ لواءٌ مصفّح ، ويتجاوزهم لواء آخر لاحتلال هضبة تنطلق منها الفرق المصفّحة الأولى والسابعة والعاشرة لاستغلال الثغرة . ولسوف تُحدّد التنقّلات والعمليّات بدقّة متناهية . إنّه باليه عسكريّ بطيء ، وتدريب في حقل المناورات ، جهّزهما « برنارد مونتغومري » !

كان ليل ٢١ تشرين الثاني جليديّاً ، فاصطكّت أوصال الرجال برداً . وقد حُدّدت الساعة ١،٠٥ موعداً للعمليّة الحاسمة . وبعد ما رفض « فريبرغ » المشاة النيوزيلانديّين الذين نزفوا دماءهم كثيراً ، على حدّ قوله ، استعاض « مونتغومري » عنهم اللواءَ الانكليزيّ ١٥١ وجنودُه من « نورثامبرلاند » ، واللواء ١٥٢ وجنودُه من السكوتلانديّين . وأمّا غبار المسيرة التي قطعت ٧ أميال فقد حوّل المشاة إلى أشباح . وفي الظلمة كانت قاعدة الانطلاق تبدو وكأنّها محطّة قطار، بسبب المصابيح الخضراء والحمراء التي ملأت جنبات الممرّات في حقول الألغام . وانطلق قصف المدفعيّة بعنف مماثل للذي اتّسم به في ٢٤ تشرين الأوّل ، يرافقه قصف جوّيّ أضرم في مؤخّرات العدوّ نيراناً جامحة . وعلى الرغم من دقّة التوقيت ، لم يجد التقدّم سبيلاً للتقيّد به . ثمّ إنّ اللواء المصفّح التاسع لم يتمكّن من مجاوزة المشاة إلاّ في الساعة ٦:١٥ ، ساعة بدأت مقاطع الأعمدة الكهربائيّة تلوح من خلال أشعّة الفجر الأولى . وأمّا قائده ، البريغادير « كوليتز »، فقد أوضح لـ « فريبرغ » أنّه يجب توقّع خسارة تبلغ ٥٠ بالمئة في سبيل الاستيلاء على الهضبة . وأجاب « فريبزغ » يقول : « لقد أبديت أمام « مونتي » الملاحظة نفسها . فأجاب بأنّه مستعدّ لقبول ١٠٠ بالمائة من الخسائر » .

بقي القتال عاصفاً طوال النهار . وهبّت رياح رمليّة حجبت الرؤية على أبعد من ٣٠ ياردة . وتمكّنت هجمات الفرقة المصفّحة الألمانيّة ٢١ العمياء من اكتشاف التقدّم الانكليزي . وفي المساء لم يبقَ لدى اللواء ٩ غير ١٩ دبّابة من دبّاباته الـ ٩٤ . وكان قسم من تلك الهضبة ما يزال في أيدي الألمان .

ولكنّ « رومل » بات منهوك القوى . لم يبقَ لديه غير ٣٢ دبّابة لمجابهة انقضاض ٣ فرق مصفّحة انكليزيّة . وخلال الراحة النسبيّة التي نعم بها في الأيّام السابقة . كان قد حضّر تراجعاً من نحو ١٠٠ كلم إلى موقع « فوقا » الذي كان . كخطوط « العلمين » . مستنداً إلى منخفض « القطّارة » . وقد رأى أنّ الوقت قد حان لإصدار أمر بالإفلات . وفي غمرة الهجمات التي قامت بها الطائرات المقاتلة القاذفة التي كانت تنقضّ على سيّارته كالبتزان ، قصد مركز إرساله الموجود بالقرب من « سيدي عمر » لكي يصدر أوامره . كان يعتزم جعل العناصر غير الآليّة تتراجع أثناء الليل ، وكان على العناصر الآليّة أن تمدّ ستاراً محاولةً اكتساب ٢٤ ساعة من الوقت قبل أن تتراجع هي الأخرى.

كانت الساعة ١٣،٣٠ . وفي « سيدي عمر » وصلت رسالة من الفوهرر . ردّاً على صيحة الاستغاثة التي أطلقها « رومل » في الأمس . وفيها ينهى « هتلر » عن أيّ تحرّك إلى الوراء ، قال : « ليست هذه هي المرّة الأولى في التاريخ تنتصر فيها إرادة ثابتة على الكتائب الضخمة . لا تترك أمام جندك إلاّ خياراً وحيداً : النصر أو الموت . »

لم تكن الصحراء ذات قيمة . فـ ٥٠ كلم أو ٥٠٠ كلم لا مغزى لها البتّة عسكريّاً . وها إنّ « رومل » الآن قد قلب أوضاع الحرب بهربه

قال له مقرّبوه عنه ، مصيبين أو مخطئين ، إنّه أنقذ بواسطته الجيش الألمانيّ . إذاً يجب على الجيش الألمانيّ ألاّ يتراجع خطوة واحدة ، سواء كان يحارب في الرمال أو فوق الثلوج !

لم يتوانَ « رومل » عن الطاعة ، فلم يصدر أوامر التراجع . وتوارى ليل ٣ — ٤ في هدوء نسبيّ ، ولكن ، عند طلوع النهار ، عاد الهجوم إلى حدّته ، فألقى الانكليز في المعركة قواهم كافّة ، مجازفين بالكلّ في سبيل الكلّ .

وتداعت أركان الإيطاليّين في كلّ مكان ؛ في الجنوب تشتّت فيالقهم الـ ٢١ أمام الفيلق البريطانيّ ١٣ ؛ وفي الوسط راحت فرقة « آريتي » المصفّحة ، وهي رفيقة الفيلق الأفريقيّ القديمة ، تقاوم ببطولة . ولكنّ دبّاباتها من طراز « ل » و « م » ، التي كانت خصماً هزيلاً في وجه « غرانت » و « شيرمان » ، قد دُمّرت واحدة واحدة ؛ وكذلك فرقة « ليتوريو » . فقد أبيدت بدورها ؛ وتلاشت فرقة « تريستي » التي كانت تحمي جانب الفيلق الأفريقيّ الأيمن ، فبات الإيطاليّون ، من ثمّ ، لا يشكّلون قوّة عسكريّة شرعيّة . أمّا الذين حصلوا منهم على سيّارات فقد ولّوا الأدبار ، وأمّا مَن تبقّى منهم فقد استسلموا بعد نفاد الزاد والماء .

لم ينجُ الألمان من المصير البائس . فقد استولى جنود الفرقة السكوتلنديّة على مقرّ الفرقة المصفّحة ١٥ العامّ ، وزيّنوا صدورهم بمئات الصلبان الحديديّة التي عثروا عليها في أحد الصناديق . وبعد ما زحفت الفرقة الأوستراليّة ، والفرقة المصفّحة الأولى ، على أشلاء فرقة « تريستي » ، وصلتا إلى الساحل ، وعمدتا إلى تطويق بقايا الفرقة الألمانيّة ١٦٤ . وقد



الدبّابات البريطانيّة تسعى في أثر العدوّ في مجاهل الصحراء .

من وجه التفوّق المعادي وبتراجعه حتّى « سدرة طرابلس » . إلاّ أنّ اعتبارات العنفوان كانت تسيطر على عقل « هتلر » . كانت المعركة تتعثّر أمام « ستالينغراد » . وبات العالم يتعجّب إزاء العجز الذي يبديه الألمان في إخضاع المدافعين عن تلك المدينة التي دخلوا إليها منذ أسابيع طويلة . وفضلاً عن الشعور بتعثّر النصر في خاتمة مطافه . كان لتراجع منتصر « طبرق » أن يحدث تأثيراً معنويّاً مفجعاً . وأبى « هتلر » أن يرضخ لهذا الواقع . وكانت أفكاره وأحاديثه تشدّه دوماً وأبداً إلى سابقة شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١ . إلى « الموقع الشتويّ » ، الذي

أسر قائد الفيلق الأفريقيّ ، الفارس « فون توما » ، فيما كان يحاول إجلاء هذه البقايا . وأمّا رئيس أركانه العامّة ، الكولونيل « بايرلاين » ، فقد تمكّن من الفرار ، ولحق « برومل » في مركز قيادته . وكانت المعركة ناشبة من حولهما وسط عواصف الرمل التي كانت تثيرها القنابل والقذائف . وأمّا « رومل » الساخط فكان قد انتهى لتوّه من مناقشة حامية مع المارشال « كيسلرنغ » الذي هرع للاستطلاع ، فلامّ « رومل » رئيسه لوماً عنيفاً لكونه قد غذّى « هتلر » بالسراب ؛ فما كان من « كيسلرنغ » ، الذي أجاب باللهجة نفسها ، إلاّ أن نصح « رومل »

بألاّ يعمل بأمر « هتلر » الذي ينهى عن أيّ تراجع . فوقف « رومل » من النصيحة حذِراً . إلاّ أنّ الأنباء التي وصلته جعلته يصمّم ، فأمر « بايرلاين » بتسلّم قيادة الفيلق الأفريقيّ الذي تدنّت عدّته إلى ١٢ دبّابة . وبالانسحاب كيفما اتّفق نحو « فوقا » . وأردف قائلاً : « سوف أمثل أمام المحكمة العسكريّة . ولكن نظراً للظروف الراهنة أرى أنّ من واجبي العصيان . . . »

ولكنّ « رومل » نجا من المحكمة العسكريّة ، وقد برهن « كيسلرنغ » على أنّه قد أخلص له النصح . فعلى أثر هبوطه في « إيطاليا » اتّصل هاتفياً بالفوهرر يعلمه بأنّ الدفاع والصمود يعنيان إفناء الجيش الأفريقيّ المصفّح إفناءً تاماً ؛ ولم تنقضِ ساعات حتّى وردت برقيّة جديدة من الفوهرر تطلق « لرومل » حريّة التصرّف كاملة .

كانت المطاردة التي قام بها « مونتغومري » شديدة الفتور . فقد تقفّى أثر « رومل » من بعيد . غير آبه للجنرالات الذين طلبوا إليه أن يحثّ خطاه . ولسوف يوضح فيما بعد أنّ السيول العرمة هي التي أنقذت خصمه . وأنّه كان بإمكانه أن يأسره لو أنّ الشمس كانت انكليزيّة ! وفي الواقع كان نفوذ « رومل » يحمي تراجعه أكثر من الآليّات الجهنّميّة التي خلّفها وراءه . وبقي « مونتغومري » يردّد أنّه لن يفعل كالآخرين. أي مثل « أوكونور » و « ريتشي » اللذين كرّ العدوّ عليهما باستدارة مباغتة فأعادهما إلى نقطة انطلاقهما . ورفض أن يستسلم لسهولة الصحراء . فبقي . في استثماره النصرَ كما في المعركة ، ذلك الضابط النظاميّ المتّزن .

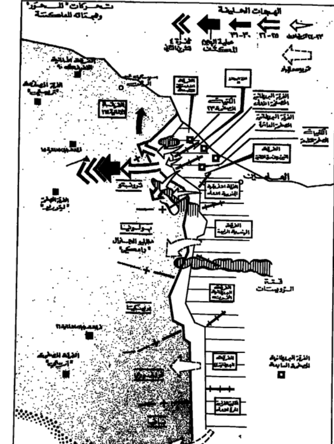
ومع ذلك فقد كان النصر تاماً . بلغت خسائر « المحور » ٢٥،٠٠٠ قتيل وجريح . و ٣٠،٠٠٠ أسير . منهم ١٠،٧٢٤ ألمانياً . وأبرق « ألكسندر » إلى « تشرتشل » يقول : « فلتقرع الأجراس ! » وفي غمرة تلك الصبيحة من شهر تشرين الثاني راحت أجراس « لندن » ، التي بقيت ثابتة فوق أبراجها ، صامتة منذ ١٩٤٠ . لا يُتوقّع منها إلاّ إعلان ساعة الغزو ، راحت أجراس « لندن » تلك تقرع ابتهاجاً « بالعلمين » في وحدة متجانسة الألحان !

غـزو "أفـريقـيَا الشـمَاليّـة" المضطـرب

ما إن وصل الجنرال « هنري هونوري جيرو » إلى « جبل طارق » حتّى اقتِيد إلى السرداب الذي أقام فيه « أيزنهاور » مكتبه ؛ فإذا بالأميركيّ يلقى أمامه رجلاً يربو طوله على ستّة أقدام . عسكرياً من رأسه إلى أخمص قدميه بالرغم من الثوب المدنيّ الذي كان يرتديه . كان « جيرو » قد ركب البحر في الساعة الواحدة من صباح اليوم السابق ، في عرض « لافندو » ، وكان اليمّ من الهياج بحيث سقط إلى الماء أثناء عبوره من زورقه إلى سطح الغوّاصة . أمّا الغوّاصة « سيراف » فكانت من قطع البحريّة البريطانيّة ، ولكنّها مُنحت الجنسيّة الأميركيّة تلبية لإحدى متطلّبات الجنرال الفرنسيّ . فوُضعت تحت إمرة الكابتن « جيرولد رايت » ، أحد ضبّاط البحريّة الأميركيّة . وبعد رحلة استغرقت ٣٦ ساعة ، نُقل « جيرو » إلى متن طائرة جوماتيّة من طراز



لم يكن ثمّة مجال للمداورات الجانبيّة في « العلمين » . فكان لزاماً على الحلفاء أن يهاجموا مواقع الأعداء جبهيّاً .



معركة « العلمين » .



أسرى إيطاليّون بعد موقعة « العلمين » .

« كاتالينا » حطّت به في « جبل طارق » في الساعة ١٥ من ٧ تشرين الثاني . ولم يمض وقت طويل حتى انفجر سوء التفاهم . . .

إدّعى « جيرو » دائماً أنّ الرئيس « روزفلت » قبل بأن تُسند إليه قيادة القوّات الحليفة العليا . وقد لا يكون في ذلك على خطإ تامّ . كما قد يكون « روزفلت » ، في حرصه على تأمين إسهام قيل له إنّه ضروريّ ، قد تساهل فقطع وعداً طائشاً بذلك . فممّا لا شكّ فيه ، على الأقلّ ، أنّ « مورفي » كان قد دعم مطلب الجنرال الفرنسيّ خلال حديث جرى بينه وبين « أيزنهاور » في « لندن » ، إلاّ أنّ « أيك » اللّبق تجنّب العقبة إذ ذاك ، مدّعياً أنّ مسألة القيادة لم تكن مُلحّة . وتحاشى « مورفي » إطلاع « جيرو » على أنّ وضعه الرسميّ لم يكن قد حُدّد بوضوح بعد . دخل « جيرو » مكتب « أيزنهاور » دخول رئيس على مرؤوس ، معلناً بلهجة مسرحيّة : « الجنرال « جيرو » مستعدّ لتسلّم قيادته ! » .

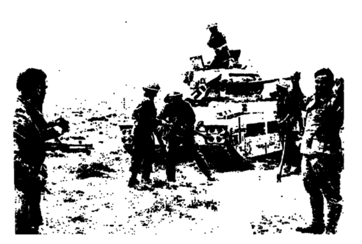
يا للادّعاء الأحمق الأخرق ! فعمليّة النزول إلى البرّ تبدأ في غضون ساعات ، وليس في القوّات البحريّة والجويّة والبريّة المقتربة من شواطىء « الجزائر » و « المغرب » فرنسيّ واحد ، هذا مع العلم بأنّ « جيرو » كان يجهل كلّ شيء عن تنظيم الجيش المختلط الذي يطالب بإدارته ، كما يجهل كلّ شيء عن منطقه وأساليبه . لم تكن لديه فكرة واضحة عن « أميركا » . وكان يشعر إزاء الانكليز بذلك النفور العنيف الذي أورثته حوادث ١٩٤٠ . ومع أنّ فراره قد اعتُبر بطولة رياضيّة ، إلاّ أنّ ماضيه ، خلال الحرب العالميّة الثانية ، هو ماضي جنرال قد هُزم في اليوم الثاني لبدء العدوان وأُسر في اليوم السابع منه . فتصلّبه ، والحالة هذه ، في المطالبة بدور لم يُسند إلى مواطنه « فوش » ، في الحرب العالميّة الأولى ، إلاّ بعد أربع سنوات من قتال لم يفقد فيه الجيش الفرنسيّ البتّة شرفَ اعتباره أفضل دروع الحلف ، إن هو إلاّ تصلّب ساذج مغرور .

ومع هذا كلّه كاد « جيرو » يكسب الجولة ! ذاك أنّه ، حين انسحب في نصف الليل ، معلناً موقفه بشكل قرار نهائيّ قائلاً : « إذاً فسيلتزم « جيرو » موقف المتفرّج »، خلّف محدّثيه في ذهول مطبق ، فاقترح إذ ذاك مستشارا « أيزنهاور » السياسيّان أن تُسند إليه القيادة الاسميّة ، بيد أنّ « أيزنهاور » رفض اعتماد هذا الحلّ اللقيط . وأعلن أنّ الحملة ، إذا أصرّ « جيرو » على مطلبه ، ستستمرّ كما لو أنّ الجنرال « جيرو » لم يوجد قطّ . وما لبثت لجنة رؤساء الأركان أن أبرقت من « واشنطن » معلنة موافقتها وتأييدها ، وأردفت البرقيّة تقول : « نأسف لأمر واحد فحسب ، هو أن تكون قد اضطررت إلى إضاعة هذا المقدار من وقتك ، وفي مثل هذا الظرف . . » إنّه ، والحقّ يقال ، لظرف مثير ! كان « أيزنهاور » في الليلة السابقة قد شهد من « جبل طارق » مرور القوافل الميمّمة شطر « الجزائر » ، ناقلة من « بريطانيا العظمى » و « ايرلندا الشماليّة » ٤٩،٠٠٠ جنديّ أميركيّ ، و ٢٣،٠٠٠ جنديّ بريطانيّ ، لتنزلهم في « وهران »، و « أرزيو »، و « كاستيغليوني » ، و « سيدي فروخ » ، وفي مدينة « الجزائر » نفسها ، وفي رأس « ماتيفو » . هذا ، فيما كانت قوافل أخرى تقلّ من « أميركا » مباشرة ٣٥،٠٠٠ جنديّ للقيام بغزو « المغرب » عن طريق « آسفي » ، و « فضالة » ، و « القنيطرة » . كان مقرّ قيادة « جبل طارق » يعلم أنّ العمليّات الجزائريّة قد بدأت في الساعة ٢٣ وفقاً للبرنامج المرسوم ، أمّا في ما يتعلّق « بالمغرب » فكان الاضطراب سائداً : فحاجز الرمال والصخور في الشواطىء المغربيّة لم يكن ليُعبر إلاّ في أوضاع جوّيّة ممتازة . والمعلومات التي تنقلها الغوّاصات تعلن عن حركة جزر تبلغ ١٥ قدماً. ففكّر « أيك » باستدعاء القوافل وجمعها في مرفإ « جبل طارق » بانتظار تحسّن الطقس ، ولكنّ العمليّة كانت تتناول ٢٠٤ سفن . وكانت الفوضى المرتقب حصولها تثير الخوف .

إعتدل البحر في مطلع ليل ٧ ، فقرّر الأميرال « هيويت » ، سيّد عمليّات الإنزال الكبير ، أن يجازف فيتقيّد بالبرنامج . كان الهدف الرئيس هو بلدة « فضالة » التي سيُنزل على شواطئها ١٩،٨٧٠ رجلاً . و ١،٧٠١ عربة ، ومنها تنطلق القوّة لفتح « الدار البيضاء » . وصلت إلى بعد ميلين من الشاطىء ١٢ سفينة نقل تحميها ٤ مدمّرات. وفي تمام الساعة ٤،٤٥ من صباح ٨ تشرين الثاني انفصلت عنها السفن المسطّحة واتّجهت في الظلمة الدامسة نحو القطاعات الستّة التي وُزّع النزول بينها . كان الضبّاط والرجال المشتركون بهذا النزول الليليّ على ساحل مجهول ، في أكثريّتهم الساحقة ، بحّارة وجنوداً ، من الأفواج المجنّدة حديثاً ، وكان الكثيرون منهم يتنشّقون هواء البحر للمرّة الأولى . وما أزفت الساعة ٥،١٥ حتى نزل مشاة الفرقة الأميركيّة الثالثة إلى اليابسة ، سائرين بين متحطّم الأمواج .

كان كلّ شيء نائماً على اليابسة ، فلم يلحظ أحد من الناس اقتراب الأساطيل الضخمة ، كما أنّ أحداً لم يلحظ بروز الجيش وتدفّقه . وكذلك لم يسمع أحد دويّ الاشتباك القصير الذي دار في البحر حين حاول قارب الصيد المسلّح « فيكتوريا » أن يهمز المدمّرة « هوغان » ، وقد أرادت أن تتحقّق من هويّته ، فقصفته بوابل من

الاستيلاء على دبّابة ألمانيّة وأسر دبّابيها بعد موقعة « العلمين » .



قنابلها . كان يحمي « فضالة » بطاريّة المرفإ . وبطاريّة « جسر بلوندان » المؤلّفة من أربع قطع حديثة من عيار ١٣٨ مم ؛ إلاّ أنّها لزمت الصمت لأنّها كانت صمّاء . كان كلّ شيء نائماً .

ما كان بالإمكان أن تمرّ التحرّكات الكبيرة ، التي عركت الأمواج منذ خمسة عشر يوماً ، غير ملحوظة تماماً؛ فقد علم بها « المحور » . وأنبئت بها « فرنسا » « فيشي » نفسها في سجنها . ولكنّ الغريب في الأمر هو أنّ أحداً لم يفكّر بأنّ « أفريقيا الشماليّة الفرنسيّة » هي الهدف المقصود . فكّر البعض بنزول في « دكار » . وفكّر العدد الأكبر بعمليّة متوسطيّة صرفة كتموين « مالطة » ، أو النزول في مؤخّرات « رومل » . أو . في أسوإ الاحتمالات . محاولة اجتياح « صقلّية » أو « سردينيا » . ولذا فقد اتّخذت القيادة الألمانيّة الإيطاليّة المشتركة الاحتياطات العاديّة . فحشدت قوّاتها حول مختنق « المتوسّط » الأوسط . أمّا « أفريقيا » الفرنسيّة فكانت رائعة في طمأنينة تامّة . في ما خلا حفنة من المتآمرين . لقد كانت نائمة .

أمّا في « المغرب » . فبعد ما تهرّب « نوغيس » . اجتذب أحدُ عملاء « مورفي » ، نائب القنصل الزائف « كينغ » . جنرال « نرفيك » الفتيّ « إميل — ماري بيتوار » ، بيد أنّ السريّة المطبقة لم تسمح بتزويد « بيتوار » بأقلّ إشارة إلى النيّات الأميركيّة . ونظراً لما اتّصفت به العلاقات مع متآمري « الجزائر » من ضعف ووهن . لم يُخطَر « بيتوار » بالنزول إلاّ عند انتصاف ليل ٧ تشرين الثاني ، فبادر إذ ذاك إلى « الرباط » . فأيقظ « نوغيس » . وألحّ عليه بأن يعلن تأييده للحلفاء . وهكذا حال احترامه التسلسلّ الرئاسيّ . وافتقاره إلى الخبرة في شؤون التآمر ، دون تثبّته من شخصيّة الحاكم العامّ وموقفه . إتّصل « نوغيس » بالأميرال « ميشليه » قائد البحريّة ، فنفى هذا أن يكون ثمّة اجتياح ، وأعلن أنّ العمليّة قد لا تتعدّى غزواً يقوم به الفدائيّون الانكليز ؛ فما كان من « نوغيس » إلاّ أن تشبّث بسلطته ، وأمر بإيقاف « بيتوار » !

كان البارود أثناء ذلك قد تكلّم ، ففي « فضالة » أطلقت بطاريّة « جسر بلوندان » نيران مدفعيّتها قبل السادسة بدقائق وهي تجهل هويّة السفن التي تتّجه نحوها . أفلح الأميركيّون في نزولهم إلى « القنيطرة » و « آسفي » ، ولكنّ قتالاً نشب حالما استعاد الفرنسيّون وعيهم . وأمام « الدار البيضاء » أسقطت مدفعيّة السفن المضادّة للطائرات مطاردةً فرنسيّة حاولت أن تعترض طريق طائرة أميركيّة؛ ثمّ . في الساعة ٠١و٠٧.

في ٨ تشرين الثاني بدأت عمليّات الإنزال في مرفإ « فضالة » المغربيّ الصغير ، بحماية أربع مدمّرات . وقد تمّ إنزال ١٩٫٨٧٠ رجلاً .



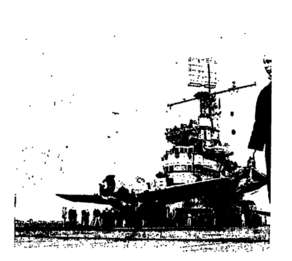
أطلقت السفينة « جان بار » المجمّدة في المرفإ نارها على البارجة « مساتشوستس » ، فبدأت بذلك المعركةُ الفرنسيّة — الأميركيّة من أجل « المغرب » .

وعلى هذا الغرار جرت الأمور في معركة « وهران » : تمالك الفرنسيّون نفوسهم بعد الوهلة الأولى . فعمدوا إلى المقاومة ؛ وهكذا أغرقت بطاريّات الساحل المدمّرتين « هارتلورد » و « والني » البريطانيّتين ، وقد كانتا تقلاّن مشاة أميركيّين، أثناء محاولتهما الدخول إلى مرفإ « وهران » . فلقي ٢٠٠ من الجنود حتفهم .

كانت مدينة « الجزائر » هي المكان الأوحد الذي نُظّم فيه تعاون فعّال بين السلطات الأميركيّة والمقاومة الفرنسيّة . كان الجنرال « كلارك » معاون « أيزنهاور » . قد انتقل في الغوّاصة « سيراف » . في ٢٣ تشرين الأوّل ، حتى الساحل الجزائريّ حيث اجتمع بالجنرال « ماست » في دارة أحد المستوطنين . المدعوّ « تيسييه » . نقل الفرنسيّ طائفة من المعلومات ، إلاّ أنّ الأميركيّ . الملتزم بأوامر صارمة . لم يتمكّن من أن يبادله ثقةً بثقة فيطلعه على موعد النزول ؛ ولم يُسمح « لمورفي » إلاّ في ٤ تشرين الثاني بأن يكشف النقاب عن الحقيقة ويعلن أنّ ليل ٦—٧ هو الليل الموعود . صُعق « ماست » واحتجّ على قلّة الثقة التي يفضحها مثلُ هذا الإخطار المتأخّر . وأشار إلى أنّ ضيق الوقت لا يسمح له البتّة بوضع خطّة فعّالة مجدية ؛ فلم يستطع « مورفي » إلاّ أن يشيل بكتفيه معبّراً عن عجزه . كان على المتآمرين أن ينصاعوا للأمر الواقع . فينجزوا ما اتُّفق عليه من احتلال مركز البريد الرئيس . وأهمّ المراكز الإداريّة . ومطار « البيت الأبيض » الذي كان « مورفي » يأمل أن يبرز عليه « جيرو » بروز إله .

أخلدت السلطات المدنيّة والعسكريّة . مساء ٧ تشرين الثاني . إلى النوم . كعادتها في كلّ مساء ؛ وكان الجنرال « جوان » أحد أولئك النيام . ولكنّه ما عتّم أن أوقظ في دارة « الزيتون » حيث خلف « فيغان » ، وظهر أمام « مورفي » في لباس نومه الزهريّ ، ليتلقّى بملء صدره نبأ النزول ! وإذ طُلب منه أن يتّخذ له موقفاً تردّد ، ثم أعلن أنّه ما كان ليرجىء قراره لحظة لو أنّ الأمر يعود إليه وحده . قال : « ولكنّ « دارلان » في مدينة « الجزائر » كما تعلمون . وهو رئيسي . وإليه يعود حقّ اتّخاذ أيّ قرار » . « دارلان » في « الجزائر » ؟ كلاّ . لم يكن « لمورفي » أيّ علم بذلك ! وهكذا تسلّل إلى سوء التفاهم الفرنسيّ— الأميركيّ عنصرٌ جديد . غريب . فاجع .

في الطريق إلى « أفريقيا الشماليّة » : الحاملة « رانجر » تطلق إحدى مطارداتها .





جنود أميركيّون أنزلوا في « فضالة » في ١١ تشرين الثاني .

يوم كان الأميرال « ليهي » في « فيشي » . كان « دارلان » يحاول إغراءه قائلاً : « إن أتيتم ٥٠،٠٠٠ أطلقت عليكم النار ، أمّا إذا أتيتم ٥٠٠،٠٠٠ فسأفتح لكم ذراعيّ . . . » وبعد ذهاب « ليهي » حاول « دارلان» جهده الإبقاء على صلته « بمورفي » ، فأبلغه . بوساطة الأميرال « فينار » ، أمين « الجزائر » العامّ . أنّ عودة « لافال » إلى الحكم تبقيه هو على رأس القوّات المسلّحة ، ولا تعدّل في شيء تلك السلطة العليا التي يتمتّع بها في « أفريقيا » . وكان هناك وسيط آخر هو نجل الأميرال عينه ، قائد السفينة « ألان دارلان » ، فشرح « لمورفي » موقف أبيه ، قال : « على أبي أن يداري شعور المحتلّين . بيد أنّه يسعى إلى إشراك الجنود الفرنسيّين والسفن الفرنسيّة في مخطّطات الحلفاء المتعلّقة « بأفريقيا » ، وحتّى المتعلّقة « بفرنسا » عند الاقتضاء » . فأبلغ « مورفي » « روزفلت » الأمر ، وأطلع « روزفلت » « تشرتشل » عليه ، وهكذا تفسّر العبارة المدهشة التي أسرّ بها هذا الأخير إلى « أيزنهاور » لدى رحيله لتنفيذ الحملة الأفريقيّة الشماليّة : « بالغاً ما بلغ مقتي « لدارلان » . فأنا على استعداد لأن أزحف أمامه على بطني مسافة ميل كامل . من أجل أن يأتينا بالسفن الفرنسيّة الراسية في

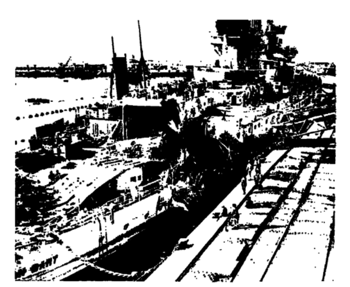
سفينة نقل أميركيّة في خليج « بوجي » (العين الكبيرة) ، وقد اندلعت فيها النيران اثر غارة جويّة فرنسيّة .

« تولون » . . . » ومهما يكن من أمر فقد وردت من الرئيس الأمير[...] بتاريخ ١٧ تشرين الأوّل . برقيّة تخوّل « مورفي » حقّ التفاوض [...] الأميرال « دارلان » والاتّفاق معه « على أيّة صيغة من شأنها أن ت[...] عمليّة النزول » . وهكذا فإنّ فكرة استخدام الأميرال كانت قد و[...] من غير شكّ في المخطّط الأميركيّ .

على أنّ دهشة « مورفي » لم تكن قطّ مصطنعة ، إذ لم يكن له [...] بوجود « دارلان » في مدينة « الجزائر » ، ذاك أنّ حياة « آ[...] دارلان » كانت قد تعرّضت لخطر الموت لأربعة أيّام خلت [...] إصابته بشلل الأطفال . كان الأميرال قد وصل في ٥ تشرين [...] بصفة غير رسميّة ، وفي نيّته أن يعود بابنه إلى « فرنسا » في اليوم الت[...] الواقع أنّ شبهات كثيرة قد حفّت بهذه الصدفة ، إلّا أنّ واحدة [...] لم تثبت : فوجود السلطة الفيشيّة الثالثة في « أفريقيا الشماليّة » . [...] بروز الحلفاء من البحر . كان مجرّد صدفة .

كان « دارلان » قد نزل في بيت الأميرال « فينار » . فلمّا [...] من نومه سارع وبرفقته الأميرال « فينار » والأميرال « باتيه » [...] أطلعه « مورفي » على حقيقة ما يجري ، احمرّ وجهه ، ثمّ ا[...] قائلاً : « أنا أعلم منذ زمن بعيد أنّ الانكليز حمقى أغبياء . و[...] أعتقد أنّ الأميركيّين أوفر ذكاء ، فإذا بي أكتشف الساعة أ[...] متشابهون . لو أنّكم انتظرتم بضعة أسابيع لكنّا عملنا معاً على أ[...] مخطّط تعاون موضوع ، لا من أجل « أفريقيا » فحسب ، بل من [...] « فرنسا » أيضاً . ولكنّكم قد أردتم العمل وحدكم ! ولست ، وا[...] هذه ، أعلم ما ستؤول إليه بلادي ! » .

راح « دارلان » يذرع أرض البهو في حنق ، وأخذ « مورفي » [...] إلى جانبه محاولاً توقيع خطاه العريضة على خطى الأميرال الق[...] الصغيرة ، وكان يتكلّم ويكذب مضخّماً عدد القوّات القائمة بالغز[...] ليذكّر « دارلان » بأنّه قد وعد بفتح ذراعيه للحلفاء إذا بلغ [...] المهاجمين ٥٠٠،٠٠٠ ، وليقنعه بأنّ أولئك الرجال هم الآن هنا . لم [...] « دارلان » جواباً ، غير أنّه عاد فانفجر لدى سماعه اسم « جيرو [...] فقال : « جيرو » لا يصلح لأن يكون غير قائد فرقة ! إنّه لطفل [...] إنّه لا يفهم شيئاً من شيء ، ولن يفيدكم في شيء ! » غمرت ا[...] والمرارة رجلاً رأى أحلامه تنهار فجأة وتستحيل هباء ، فقد سبق ل[...] بحكم ارتباطه بالفريق المهزوم ، أن اجتاز بأمان نقمة « هتلر » وغضب[...] وثبت بعد عودة « لافال » ، وراح يعدّ العدّة لانقلاب ينقله إلى صف[...]



السفينة الفرنسيّة «جان بار» في «الدار البيضاء»، وقد أخلدت إلى سكون الموت بعد تصدّيها للنّيران الانكليزيّة الأميركيّة.

الظافرين. فإذا بأحلامه تتبخّر! دامت النزهة الغاضبة ربع ساعة كان كافياً لإخماد نار الغيظ، فهدأ «دارلان» وجلس. أمّا ما عزم عليه إذ ذاك فهو اكتساب الوقت، والتثبّت أوّلاً من أهميّة النزول وخطورته. وكما ذكر «جوان» «دارلان»، ذكر «دارلان» «بيتان». أجل، ذكر أنّه قد قطع على نفسه عهداً بالولاء للمارشال، وأنّه لا يستطيع أن يأتي عملاً ما قبل الحصول على موافقته. ولذا طلب أن يطلعه على حقيقة الوضع وينتظر ما يرده من تعليمات.

قبل «مورفي» بذلك، كما قبل بأن يلتحق الأميرالات والجنرالات بمراكز قياداتهم، ولكنّ الشبّان الذين ضربوا نطاقاً حول دارة«الزيتون» كانوا أوفر حكمةً من قنصل «الولايات المتّحدة» العامّ، فعمدوا إلى قطع الطريق والرشّاشاتُ في أيديهم؛ فسأل «جوان»: «إذاً، نحن الآن أسرى؟» فأجاب «مورفي»: «هذا ما يبدو لي». فأردف «دارلان»: «كيف يمكنني، والحالة هذه، أن أتّصل «بفيشي»؟» فتطوّع نائب القنصل الأميركيّ، «كينيث بندار»، بحمل برقيّة إلى مركز الإرسال، فأفسح له رجال المقاومة السبيل.

ذرّ النهار قرنه. فإذا بالفرنسيّين في نومهم، وإذا «بمورفي» يضطرب ويقلق، فقد كان على القوّات الأميركيّة أن تبرز في الثانية والنصف. وها هي الساعة تشير إلى السادسة والنصف، والانتظار مستمرّ..

وفجأة انقلب الوضع رأساً على عقب، ذلك أنّ بعض أفراد الحرس المتجوّلين قد برزوا حول الدارة وجرّدوا المتآمرين من أسلحتهم، وأفرجوا عن الجنرالات! دُفع «مورفي» على الطريقة العسكريّة داخل مسكن حقير، وتُرك تحت حراسة الأميرال «فينار»، فيما انتقل «جوان» و «دارلان» إلى حصن «الامبراطور». بدأت فترة ما بعد الظهر فإذا بممثّل الرئيس «روزفلت» يتساءل، وعرق القلق يتصبّب من جبينه: ما إذا كان قد أخطأ يومه، وما عسى أن يكون عليه الوضع القانونيّ المتعلّق بدبلوماسيّ تزعّم حركة تمرّد في البلد الذي أوفد إليه!...

وأخيراً فُتحت الأبواب في الساعة ١٥، وبدا «دارلان». لم يكن الغزو خرافة، فقد دخلت مدينةَ «الجزائر» بضعةُ أرتال أميركيّة أخّر وصولَها بعضُ أخطاء في التوجيه، وها هو «دارلان» يطلب من «مورفي» أن يتّصل بالجنرال الذي يتولّى قيادتها. ذهب «مورفي». يُسحق به علم أميركيّ وعلم أبيض، فالتقى بطليعة يقودها ملازم حذر، ثم التقى «راندولف تشرتشل» نجل «ونستون» وقد ارتدى بزّة أميركيّة، فاقتاده إلى الجنرال «رايدر» الذي قبل أن يرافق «مورفي» إلى حصن «الامبراطور». وقبل أن يرخي الليل سدوله وُقّع على اتّفاق محلّيّ بمنع إطلاق النار. أمّا الخسائر فقد انحصرت بعدد قليل من الضحايا. وبالمدمّرة البريطانيّة «بروك» التي صُدّت بعنف في مرفإ «الجزائر»، ثمّ غرقت بعد ساعات. ولن ينجلي الموقف في مجمل «أفريقيا الشماليّة» إلاّ بعد ثلاثة أيّام دامية.

في ٩ تشرين الثاني هبط «جيرو» في مطار «بليدة». فأذهله ألاّ يكون أحد في استقباله، ثم تضاعف ذهوله حين أدرك أنّ معظم جيش «أفريقيا» يعتبره متمرّداً. فخشي الاعتقال. واختبأ عند «لوميغر — دوبرويل» في «القصبة».

إستمرّ القتال في «وهران». و «القنيطرة». و «آسفي»، وغصّ مرفأ «الدار البيضاء» بحطام السفن. إلاّ أنّ المقاومة كانت مستمرّة. وإذا بالإذاعة تحمل أوامر المارشال «بيتان»: «لقد قلت دوماً إنّنا سندافع عن امبراطوريّتنا، أيّاً كان المغتصب المعتدي. ها نحن قد هوجمنا، وها نحن نهبّ للدفاع؛ إنّني لآمر بذلك...» لم يكن للمقاومة بحدّ ذاتها أيّ رجاء، ولكنّها كانت، في حال استمرارها، تهدّد بفتح ثغرة بين الفرنسيّين والحلفاء قد يتعذّر رفوُها.

لم يلبث الأميركيّون طويلاً، بعد ما خاب فأل «جيرو»، حتى اكتشفوا أنّ الرجل الوحيد القادر على إيقاف النزاع المشؤوم كان «دارلان»، ذاك أنّه كان يجسّد شرعيّةً وولاءً لذاك العهد الذي اكتشفوا بذهول صلابتَه وإخلاصَه. أسرع «كلارك» بالمجيء من «جبل طارق»، وراح يستحثّه تارة، وطوراً يهدّده بالاعتقال، ثمّ وُفّق أخيراً فانتزع منه، في ١٠ تشرين الثاني، أمراً بالتوقّف عن إطلاق النار أصدره «باسم المارشال». وفي تلك اللحظة بالذات تمّ استسلام «وهران»، وأوشكت «الدار البيضاء» أن تُقصَف.

توقّف القتال فوراً. فقَد الانكليز والأميركيّون ٧٠٠ قتيل، و٢٩ سفينة من أصلها ٣ مدمّرات و٧ ناقلات، وفقَد الجانب الفرنسيّ ما يعادل ذلك تقريباً من الضحايا البشريّة، وعدداً من السفن أكبر بقليل؛ فقد دُمّرت القوّة البحريّة الراسية في «الدار البيضاء»، واستقرّت «جان بار» في قعر المرفإ، وفُقدت ٨ غوّاصات، وأُغرقت أربعٌ من المدمّرات التي ضحّت بنفسها في حملتها على الأسطول الأميركيّ الجبّار.

أمّا ردّة فعل «بيتان» الرسميّة فقد أتت في الحال: خُطّئ «دارلان»، وذُمّ، ثمّ أُسقط من منصبه واستُبدل به «نوغيس»، وأُعيد إصدار أمر القتال حتى النهاية مراراً، وإنّما من غير جدوى. ومع هذا فإنّ محاكمات ما بعد الحرب ستثبت أنّ «دارلان» قد تلقّى برقيّات، أُذيعت بواسطة شيفرة سرّيّة، نقلت إليه موافقة المارشال. وهكذا ضاعت القضيّة في منعرجات اللعبة المزدوجة.

"بيتان" يقرّر: "سأبقى"

إنّ أحداث تشرين الثاني ١٩٤٢ في «أفريقيا» تشكّل مرحلة خطيرة من مراحل الحرب؛ فهجوم الدول البحريّة المعاكس قد عرف انطلاقة محسوسة. قبل «العلمين» لم تسجّل هذه الدول غير الهزائم، إلاّ أنّها، بعد «العلمين»، لن تصيب إلاّ نصراً.



سفن الإنزال تعمل في «فضالة».



مظليّون انكليز يدهنون وجوههم بلون الليل، وهم على أهبة الاستعداد للإقلاع إلى «أفريقيا الشماليّة».

في «فضالة»: الجنود الأميركيّون يسحبون إلى اليابسة بطاريّة مضادّة للدبّابات.



وانعكست النتائج المباشرة على «فرنسا» والفرنسيّين. لقد كانوامنقسمين. وهذا الانقسام سيتفاقم. كانوا يظنّون أنّ هزيمتهم قد تركتهم في وضع ممتاز بين شعوب «أوروبا» المستعبَدة. ولكنّ حجاب هذا الوهم سيتمزّق. إنّ حياد «فيشي» وانهزاميّتها قد دالت دولتهما من غير رجعة. وبات على المواقف أن تتركّز حول القضيّة الألمانيّة نفسها، وسنرى أنّ حرباً أهليّة فرنسيّة سوف تتولّد في الحرب العالميّة.

كان النزول في «أفريقيا الشماليّة»، في معتقد «ديغول». إساءة متعمّدة. كان «تشرتشل» قد استأذن «روزفلت» بإعلام رئيس الفرنسيّين الأحرار قبل أيّام. جاعلاً سريّة الإنزال رهن شرفه العسكريّ. وكان «روزفلت» قد أجاب برفض قاطع. ولم يُستَدْعَ «ديغول» إلى «داونينغ ستريت» إلاّ في ٨ تشرين الثاني ظهراً. كي يسمع من فم «تشرتشل» النبأ الذي كانت «انكلترا» قاطبة على علم به! ولم يحدث الانفجار المرتقَب، بل اكتفى «ديغول» بإبداء بعض الملاحظات على الصعيد العسكريّ، مصرّحاً بأنّ الحلفاء يرتكبون خطأً جسيماً بعدم نزولهم في «تونس». ثمّ انصرف بوقار وأنفة. وفي العشيّة نفسها وجّه إلى فرنسيي «أفريقيا» نداء يطلب منهم فيه مناصرة الحلفاء «من غير أن يكترثوا للصيَغ أو للأسماء». ومع ذلك كان الوضع فريداً: فقد وجدت الامبراطوريّة الفرنسيّة نفسها مجزّأة إلى ثلاث مناطق: المناطق الخاضعة «لديغول». والمناطق التابعة لمدينة «الجزائر». والوطن الأمّ الذي يحكمه «لافال». إلاّ أنّ الهدوء الجليل الذي اعتصم به «ديغول» لم يكن بمتناول أنصاره. فقد فاق سخطهم كلّ حدّ إزاء الأوضاع الراهنة. وأمّا النائب المنفيّ. «هنري دوكيريليس». الذي هرع إلى مقرّ البعثة الفرنسيّة في «نيويورك» مجاهراً بحماسته واندفاعه. فلم يلقَ «غير عيون مزوّرة وشفاه مرّة». وتعالت نغمة العناصر الديغوليّة المعادية للأميركيّين حتى بلغت حدّة فائقة. وقد نشرت جريدة «المارسيلياز» ما يلي: «إنّ احتلال حلفائنا الأميركيّين أرضاً بذلنا من أجلها ما بذلنا من الدماء قد أصاب بلدنا أكثر ممّا أصابه احتلالُ الهتلريّين المقاطعات الفرنسيّة. لأنّه يطعنه في صميم شرفه».

في «فيشي»، في ليل ٧. كان المستر «تاك» قد سلّم المارشال «بيتان» رسالة من «روزفلت» تعلّل غزو «أفريقيا الشماليّة» بأنّه تدبير وقائيّ. وتطلب من «فرنسا» أن تنضمّ إلى الحلفاء. وبعد ذلك بساعات بلغت قصرَ المارشال رسالةٌ أخرى حملها ممثّل «ألمانيا». القنصل العامّ «كروغ فون نيدّا». نبّه «هتلر» فيها الحكومة الفرنسيّة إلى أنّ قطع العلاقات الدبلوماسيّة مع «أميركا» ان يعتبر ردّاً كافياً على الاعتداء على «أفريقيا الشماليّة»، وطلب من «فرنسا» أن تعلن الحرب على القوّات الانكلوسكسونيّة. وأعلن أنّه بانتظار «لافال» في «مونيخ» حيث كان مؤتمر ألمانيّ إيطاليّ على أهبة الانعقاد في اليوم التالي.

كان الاستياء والفوضى يخيّمان في «مونيخ». وقد أوضح شاهد عيان الموقفَ بقوله: «إنّه لجوّ شبيهٌ بجوّ القاعة التي تسجّى فيها جثّة الميت». وأمّا «موسوليني». الذي كان يجتاز مرحلة جمود قاتم. تعذّبه تباريح آلام معدته. فقد رفض أن يقوم بالرحلة. وكان على «تشيانو» أن يتحمّل عنه حوار «هتلر» الخطابيّ! وكان موضوع هذا الحوار أنّ النزول الانكليزيّ الأميركيّ لا يشكّل أيّ خطر. وأنّ الفرق الألمانيّة الـ ٥٢ المقيمة في الغرب كانت تحجب كلّ إمكانيّة بغزو «أوروبا» كامتداد للمباغتة في «أفريقيا». إلاّ أنّه كان يفترض اتّخاذ احتياطين للأمن: احتلال القطر الفرنسيّ كلّه، وإحلال قوّات «المحور» في «تونس». وكان الفوهرر مصمّماً على الإصغاء إلى

« لافال » الذي كان قادماً بطريق البرّ . والذي تأخّر بسبب الضباب ، إلاّ أنّ شيئاً ممّا قد يقوله « لافال » لن يغيّر قراراته .

وصل « لافال » في الساعة الرابعة صباحاً منهوك القوى ، « ففيشي » التي غادرها كانت تتوقّع الاحتلال التامّ ، وكان المارشال يخضع لضغط يطالبه باغتنام الفرصة وإعادة « فرنسا » إلى معسكرها الطبيعيّ . وأمّا « فيغان » ، الذي قدم بسرعة من « سان رافايل » في الطائرة التي أرسلها إليه « بيتان » ، فقد تراشق و « لافال » ، الذاهب إلى « مونيخ » ، بسهام قاتلة . قال له : « أيّها السيّد « لافال » ، إنّ ٩٥ بالمئة من الفرنسيّين هم أخصامك » . فأجاب « لافال » : « بل قل ٩٨ بالمئة إذا شئت ، ولكنّني سأسعى إلى تحقيق سعادتهم رغم إرادتهم ! » .

كان يقسم العاصمةَ المؤقّتةَ تكتّلان متوتّران لدرجة البغضاء ؛ فتلبيةً لأمر الجنرال « فيرنو » كان جيش الهدنة الصغير يتّخذ احتياطات القتال ، ليوفّر « لبيتان » الوقتَ اللازم لبلوغ مدينة « الجزائر »، وكان قلق مطبق يخنق « لافال » إزاء هياج الوطنيّة ذاك . كان يكره الابتعاد في



لقد قضت الأوامر بنشر الأعلام الأميركيّة إلى أبعد حدّ .

تلك الظروف الحاسمة . ولكن بدا له مُحالاً أن يتملّص من دعوة « هتلر » . وكان مصمّماً ، في أيّة حال ، أن يرفض دخول « فرنسا » الحرب . ومنذ الساعة ١١ من ١٠ تشرين الثاني ، وقف « لافال » ينتظر في الصالة نفسها التي شهدت « تشامبرلين » و « دالادييه » . سنة ١٩٣٩ ، يهديان « هتلر » انتصاراً من غير قتال . وقد وصف «تشيانو» « لافال » وقد نبا به المقام وسط البزّات العسكريّة في ثيابه التي تشبه ثياب الفلاّحين ، فراح يحاول الترفيه عن المسلّحين المحيطين به بنكات لم تكن لتقع موقعاً حسناً . واستوقفه « هتلر » ساعات طوالاً ، إلاّ أنّه عاد فأصغى إليه كما قال . كان يعكّر صفوَ « لافالّ » عاملان اثنان : عدم تمكّنه من التدخين في حضرة « هتلر » ، وكلمةٌ كان قد همسها « أبتز » في أذنه تبلغه أمر وقف إطلاق النار الذي أصدره « دارلان » . بيد أنّه دافع عن قضيّته ببراعة ، ثمّ استأذن بالانصراف وهو مغتبط من الفوهرر وقد سحره فيه صبرُه وتأدُّبه . وكانت أوّل حركة قام بها على أثر ذلك أن أسرع إلى الهاتف ليقول لـ « فيشي » ألاّ تأتي عملاً ، وألاّ تقرّر أمراً قبل عودته ؛ فالثأر الرهيب ، واحتلال « فرنسا » على الطريقة البولونيّة ، هما العقاب الذي سوف يكون ثمناً لأتفه الأخطاء .

في الوقت الذي قفل فيه « لافال » عائداً ، في صبيحة ١١ تشرين الثاني . كانت حكومة « فيشي » تتلقّى زيارة ، بعد ما هالتها تسلُّمُ وثائق ألمانيّة ثلاث انهالت عليها تباعاً ؛ فالوثيقة الأولى ، التي سُلّمت في الساعة ٢٣،٥٠ من الليلة الماضية ، كانت تدعو « فرنسا » إلى فتح « تونس » أمام القوّات الألمانيّة والإيطاليّة ؛ وأمّا الثانية ، التي سُلّمت في الساعة الثانية صباحاً ، فقد استبقت هذا الاستئذان بإعلانها أنّ القوّات المذكورة قد باشرت نزولها ؛ وأعلنت المذكّرة الثالثة ، التي وصلت في الساعة ٥،٣٠ ، عن دخول القوّات الألمانيّة إلى المنطقة الجنوبيّة . وأمّا الزيارة ، زيارة المارشال « فون روندشتاد » ، فقد جاءت تثبت هذا النبأ الأخير . وكان جواب المارشال اعتراضاً ضعيفاً . ولم يجرِ التفكير بأيّة مقاومة ماديّة ، إذ أنّ الجنرال « بريدو » ، وهو سكرتير الدولة في وزارة الدفاع ، وابنُ جنرالٍ قُتل سنة ١٩١٤، وأبٌ لكابيتين كان يقاتل بالبزّة الألمانيّة ، قد حلّ مركز قيادة « فيرنو » بوساطة الحرس السيّار . وأمر الجند بالعودة إلى ثكناتهم .

كان بإمكان « بيتان » أن ينصرف ، فقد أعدّت طائرة لنقله إلى « أفريقيا الشماليّة » . وراح أكثر مستشاريه إخلاصاً يتوسّلون إليه أن يفعل . ولكنّه رفض قائلاً إنّ واجبه يحتّم عليه . أكثر من أيّ وقت مضى . أن يقف بين الشعب الفرنسيّ وهازمه . ويذكر الجنرال « سيرينيي » ، رفيقه منذ ثلاثين عاماً ، أنّه أتى كذلك على ذكر مخاوف طبيبه ، بشأن مخاطر السفر الجوّي ، وحين أجابه « سيرينيي » بأنّ نهاية كتلك قد تكون ذروة مجده لم يكن راضياً . إنّ هذين التعليلين قد يكونان صحيحين معاً . فبواعث الرجال معقّدة ، والشيخوخة هي سنّ الأنانيّة الطاغية .

الأسطول الفرنسيّ يفلح في انتحاره بعد لأي

لم يكن « بيتان » هو الوحيد الذي ضيّع فرصة الذهاب إلى «الجزائر». فمنذ ١٩٤٠ ، كان أسطول « تولون » يرقد في أحواض مرافئه . كان منقسماً إلى قوّة مؤلّفة من السفن ذات المدى البعيد . بإمرة أميرال



الطرّاد «زيتلاند» ينفث ستاراً من الدخان كثيفاً ليسهل على السفينة «بروك» — وقد أعطبتها نيران البطاريّات الساحليّة — الخروج من مرفأ مدينة «الجزائر».

الأسطول كونت «جان دو لابورد». وقوّة للدفاع الساحليّ بإمرة الحاكم البحريّ الفيس أميرال «ماركي». فالامتياز الذي كانت تنعم به البحريّة قد منح المؤسّسة التولونيّة نشاطاً وازدهاراً لم تكن لتجد لهما مثيلاً في «فرنسا» خلال تلك السنوات القاتمة. وكان أركان الضبّاط يتجاذبون الحديث بلهجة العداء التقليديّ للانكليز. وفي زهو من أمرهم لكونهم لم يُهزموا قطّ. كما لو كان بالإمكان إقامة الحواجز والسدود المنيعة في الكارثة التي أصابت الأمّة! وكان هنالك أمر حازم واضح. وهو أنّ السفن يجب ألاّ تقع. في أيّة حال من الأحوال. في أيدٍ غريبة كائنة ما كانت.

إنّ هذا العزم قد خلق عند البحّارة الفرنسيّين وسواس إتلاف سفنهم. لم يسبق خلال التاريخ أن جُهّز تدمير ذاتيّ بمثل تلك المثابرة. وقد وُضعت بهذا الصدّد تعليماتٌ وإرشادات مطوّلة، وكانت التمارين تقام بصورة دوريّة. فعلى تلك السفن، التي انتزع منها رؤساؤها كلّ أمل بالعودة إلى المعارك المظفّرة. كان النشاط الرئيس مقتصراً على تمثيل دور الانتحار. وقد كاد هذا الدور أن يحقق!

حين انطلق «دارلان» من مدينة «الجزائر» إلى «دمشق» أطلق إلى الأسطول أمراً باللحاق به. فكانت النتيجة غريبة: لم يدُر في السفن محرّك واحد! كانت السفن الضروريّة حاصلة على كميّة من المازوت كافية لعبور «المتوسّط». وكانت قوّة بحرية إنكليزيّة أميركيّة جبّارة تجوب العباب لمواكبتها. غير أنّ الأميرال «لابورد» كان يمقت الانكليز. وكان الأميرال «ماركي» يعتبر نفسه مأموراً. وبعد ما أضيئت الأنوار بغُية التدخّل في وجه غزاة «الجزائر»: عادت إلى الانطفاء بعد ما اعتُبر الغزو مُحالاً. وكان عوّدٌ إلى الانتظار.

ثمّ عادت النشوة إلى الظهور. وعلمت «تولون» بارتياح أنّ الفوهرر لم يكن عازماً على الاستيلاء على السفن، وأنّه كان متّكلاً على شرف البحريّة الفرنسيّة للدفاع عن المدينة. جُهّز معسكر محصّن. واستُدعيت إليه عشرون كتيبة من الجيش. ووجدت «تولون» نفسها مرفّعة إلى دور المحافظة على سيادة «فرنسا» العسكريّة، في «فرنسا» المحتلّة بكاملها. وقد بقي هذا الوهم قائماً حين منع الألمان تدعيم القاعدة برّاً وأمروا بتفريق الكتائب الـ ٢٠. وأكبّت البحريّة على تجهيز جبهة البحر بصورة دفاعيّة ضدّ الانكليز والأميركيّين. وفي الداخل: من ناحية الألمان. كان ثلاثة جنود بثلاثة. موزّعين في «ساناري» و «أوليول» و «لافاليت»، هم المدافعين الوحيدين عن كيان «تولون»!

إنّ القرار الذي اتّخذه «هتلر» بشأن الإجهاز على البقيّة الباقية من القوّة العسكريّة الفرنسيّة لا يخلو من بعض الصواب. فقد عقب وقفَ إطلاق النار في مدينة «الجزائر» انضمامُ الجيش الفرنسيّ الأفريقيّ إلى الحلفاء. و «جيرو»، الذي كان قد تعهّد خطيّاً بعدم إقامة العراقيل في وجه سياسة المارشال الألمانيّة، قد تسلّم القيادة في ١٣ تشرين الثاني، وأصدر أمراً إلى القوّات الفرنسيّة بأن تحمي دخول الحلفاء إلى «تونس». وأمّا «جوان» فقد وضع نفسه تحت إمرته. حاثّاً الضبّاط العامّين المتردّدين، أمثال «منديغال» و «كولتز»، على الاقتداء به. وراح «دارلان» يمثّل دور المنتقم للوطن؛ وكما تشهد أوراق «غوبلز». كان الألمان يرتابون من اتّفاق سرّيّ بينه وبين «بيتان». ولم تكن الأسباب الوجيهة لتعوز الرجال الذين راحوا يغيّرون مواقفهم أو ينقضون عهودهم، ولكن يجب الاعتراف على الأقلّ بأنّهم كانوا يوفّرون «لهتلر» حججاً للتسلّح ضدّ أيّ تخاذل جديد.

في ليل ٢٦ تشرين الثاني عاد «فون نيدّا» إلى المسرح، فتوجّه إلى منزل «لافال» في «شاتلدون»، ونزولاً عند رغبته انتظر تمام الساعة ٤:٣٠ ليطلب أن تُفتَح الأبواب له. وبعد ذلك بعشر دقائق كان «لافال» يستقلّ سيّارته وينطلق كالسهم نحو «فيشي». هذا لا يعني أنّه كان قادراً على درء الأمر الذي بدأ إنجازُه، أي حلّ الجيش بصورة

راح هؤلاء الجنود الأميركيّون الذين أنزلوا لتوّهم يصغون إلى التعليمات قبل توغّلهم في الداخل.



كاملة: والاستيلاء على الأسطول: جلّ ما كان يبغيه هو خنق المقاومات والتحسّب للطوارىء . كانت « فرنسا » ، حسب ظنّه، جسداً خائر القوى بين يدي عدوّ فائق السطوة : فالموقف الوحيد الذي يمكن أن يخفّف من عقابها لم يكن في تصلّبها ، بل في تلاشيها واستسلامها !

إنّ تسريح الجيش – وهو تلميح هتلريّ – لم ينته إلى أيّة عاقبة . فقد كان محتجزاً في ثكناته منذ ١١ تشرين الثاني ، وكان جنرال واحد . دون سواه . وهو « دي لاتر » ، قد حاول القيام بحمله في محاولة سخرت « فيشي » منها . كان الألمان يجتاحون حُجَر الجنود ويلقون بهم في الطريق وهم في قمصان النوم أحياناً ! يا للجيش الفرنسيّ الطيّب الذكر ! لقد أتت كارثة « سيدان » كاملة . وكان كلّ شيء مهدّداً بالزوال . حتّى الشرف . لو لم تبدأ النهضة ما وراء البحار .

في « تولون » ، كان الحلّ رهناً بدقائق معدودة: فقد حشد الألمان فرقة مصفّحة اجتاحت المدينة بقدر ما تسمح به زناجير الدبّابات من صمت . وتمّت السيطرة على اثنين من مراكز الدرك الثلاثة قبل أن يُطلقا الإنذار . كذلك اجتيح حصن « لا مالك » ، وهو مقرّ المقاطعةالبحريّة. وبعد ما عُزل عن المرفإ بقي مُتّصلاً « بفيشي » . فأبلغه الأميرال « لولوك » منها هاتفياً « أمراً من الرئيس « لافال » بتجنّب الحوادث ، وأضاف يقول : « إنّ هذا يحوّل الأوامر السابقة تحويلاً كاملاً » . وفي آخر لحظة حاولت « فيشي » أن تحول دون إتلاف السفن بأيدي رجالها ، « فلافال » يخشى أن يثير تدمير السفن سخط « هتلر » . . .

ولحسن الحظّ كان الأوان قد فات ، فقد دوّت الانفجارات في المرفإ وفي الحوض الكبير . وراحت إرشادات الانتحار الممتازة تلعب دورها بإبداع . كان ضجيج المصفّحات قد أيقظ « تولون » ، وكاد الأميرال كونت « دي لا بورد » أن ينتظر لحظات إضافيّة ثمينة ، ولكن في النهاية . وفي الساعة ٥،٢٩ . صدر من السفينة « ستراسبورغ » أمر الانتحار . كان الألمان على الرصيف . فتبادلت الدبّابات والسفن نيران مدافعها . غير أنّ آخر أمر مذعور من « فيشي » : « أوقفوا هذه المجزرة ! » لم يبلغ المسامع . وطلع النهار على خليط متشابك من السفن الجانحة أو المُحترقة : بارجتان . طرّاد قتال . ٧ طرّادات . ناقلة طائرات . ٢٩ مدمّرة . ١٢ غوّاصة . أي ما مجموعه أكثر من مئة قطعة تبلغ حمولتها حوالي ٢٣٠،٠٠٠ طنّ . هلكت كلّها خلال ليلة كان ثمنها أبهظ من « الطّرَف الأغرّ » ! ولسوف يجمع الألمان بعض الحديد. وبعض الوحدات الصغيرة . ولسوف يشهد الحلفاء قدوم الـ « كازابيانكا » بقيادة « ليرمينيه » . مع غوّاصات ثلاث كانت قد انتزعت مرابطها وانطلقت إلى العرض كالشهاب مجتاحة حواجز الشباك . هذا هو الأثر التافه المتبقّي لأقوى أسطول امتلكته « فرنسا » إطلاقاً منذ « لويس السادس عشر » .

كان الصدى عميقاً للغاية . فقد كان ليل « تولون » إدانة لنهار « المرسى الكبير » . وقد أثبت أنّ أكثر الأساط الفرنسيّة عداء « لانكلترا » لم تكن شريكة في التآمر مع « ألمانيا » . وقد كانت عناوين التقارير التي نشرها بعض الصحف الأميركيّة تقول : « الظفر « لتولون » ! إنّه لظفر باهت . سلبيّ . ورمز للانحطاط الذي تردّت فيه « فرنسا » .

نهـايـة الأميرال "دارلان"

كان غد انتحار الأسطول في « تولون » يوماً حافلاً بالأمل بالنسبة للقيادة الانكليزيّة الأميركيّة . فبعد ما نزل الجيش البريطانيّ الأوّل من غير مشقّة في « بوجي » (بُجاية) و « فيليبفيل » (سكيكدة) و « بونة » (عنابة) دخل مدينة « تونس » في ١٥ تشرين الثاني ؛ وفي ٢٧ اقترب جناحه الأيسر من « ماطر » عبر طريق « بنزرت » . وفي وادي « مجردة » استولى جناحه الأيمن على « طبربة » وبلغ « الجديدة » . باتت مدينة « تونس » على بعد ٢٥ كلم : لقد بدا وكأنّ المباراة في « أفريقيا الشماليّة » قد تمّ كسبُها .

ولو أنّ المفوّض العامّ في « تونس » ، الأميرال « إستيفا » ، ناهض النزول الألمانيّ الإيطاليّ ، لبات نجاح هذه المباراة أمراً محتوماً . فهذا البحّار الملتحي العفيف هو أكثر الوطنيّين وطنيّة ، وقد قيل عنه « إنّه يحضر قدّاس الساعة السادسة لأنّه يشطر صبيحته شطرين » ؛ إلاّ أنّ الظروف المعقّدة التي تورّطت فيها المواقف الفرنسيّة قد فاقت تفكيره . فرفض إطاعة « دارلان » لأنّه كان يرى فيه أميرالاً سياسياً، وكان عاجزاً عن أن يدرك أنّ اعتراضات « بيتان » الساخطة ضدّ الاعتداء على « أفريقيا الشماليّة » كانت تحجب ، سرّاً ، قبولَه ورضاه . وإذ كان لديه أمر بفتح « تونس » لقوّات « المحور » فقد عمد إلى فتحها . فتمّ احتلال « تونس » . واستسلمت « بنزرت » . وقد كان للتمركز الألمانيّ الإيطاليّ أن يتمّ بسرعة أكبر لو لم يقم الجنرال « باري » بجمع بعض قنّاصة « أفريقيا » ، وحفنة من رجال الحرس السيّار . فيستقرّ معهم في « مجاز الباب » على طريق « الجزائر » . وعندما أمره الجنرال « نهرنغ » بتسهيل المرور رفض ، وتراجع نحو الغرب وهو يقاتل . وفي ٢٠ تشرين الثاني لحقت به في « وادي الزرقاء » مقدّمة



سارع الجنرال « كلارك » من « جبل طارق » ملحاً على الأميرال « دارلان » بإصدار أمر التوقّف عن القتال . وقد بدا الجنرال « أيزنهاور » في الصورة يخاطب الأميرال بلهجة آمرة .

بريطانيّة بقيادة الجنرال « بليد » . فما كان من « نهرنغ » ، الذي لم يكن يملك غير حفنة من الدبّابات ، إلاّ أن تراجع ، وبذلك استمرّ التقدّم الانكليزيّ شطر مدينة « تونس » . وفي الوقت نفسه اجتاحت فرقة « قسنطينة » ، « تونس » الوسطى بإمرة الجنرال « ولفرت » ، ثمّ ، وبعد ما دعمها مظليّو الكولونيل « راف » الأميركيّون ، استولت على « القصرين » و « قفصة » . وهكذا أمسى احتلال « صفاقس » ، والنفاذ إلى خليج « قابس » ، واحتلال خطّ « مارث » ، وكأنّها محقّقة حتماً في غضون أيّام .

بيد أنّ الأمل كان عابراً . فمنذ ٢٩ تشرين الثاني تغيّر مجرى الحرب . ففقد « بليد » ٤٠ دبّابة وهو يحاول أخذ « الجديدة » . وفي ٤ كانون الأوّل أفلتت « طبربة » من يديه . وراح تسيير القوّات الحليفة نحو « تونس » يصطدم بعقبات جمّة ، فترك « باتون » والكثير من الجيوش الأميركيّة في « المغرب » خوفاً من تدخّل « فرانكو » . كان اتاح الطريق الوحيدة من مدينة « الجزائر » إلى مدينة « تونس » فائق الضعف ، وكانت الدوائر الإداريّة مفتقرة إلى الخبرة؛ أمّا تنسيق

الجيوش الثلاثة ، التي كانت تخضع لمبادىء مختلفة تمام الاختلاف . فقد راح يرتطم بالعقبات في كلّ لحظة . وكانت تنقص الجنودَ الفرنسيّين الموارد الضروريّة ، وكانت الأركان العامّة تتخبّط في خضمّ من التيّارات العنيفة . إذ اعتُبر « ماست » و « بيتوار » . وحتى « جيرو » نفسه ، من الخونة ، نظراً للدور الذي لعبوه قبل ٧ تشرين الثاني . وأتى طقس « أفريقيا الشماليّة » القاسي مفاجأة لقيادة كانت تظنّ أنّها تقاتل في ربيع دائم . فحيث كان غزاة « المغرب » يتوقّعون العثور على الرمال ، كانوا يجدون وحلاً . وكانوا يقاسون الأمرّين من الطوفانات في الأماكن التي ظنّوها جافّة .

إنّ استئناف الهجوم نحو مدينة « تونس » ، الذي كان مقرّراً ليوم ٩ كانون الأوّل ، قد تأجّل إلى ٢٢ . وتساقطت الأمطار أكثر غزارة . قاطعةً الطرق ، مكبّلة الدبّابات ، مجمّدة نشاط الطيران . فكانت النتيجة أن تأجّل الهجوم مرّة أخرى . وفي ٢٤ توجّه « أيزنهاور » تحت السيول العارمة إلى مقرّ « اندرسون » العامّ ، فتقرّر تأجيل الهجوم ثانية حتى نهاية موسم الأمطار . فقد زال كلّ أمل بالاستيلاء على مدينة « تونس » قبل ربيع ١٩٤٣ .

كان « أيزنهاور » ما يزال هناك . وكان التفكير بالاحتفال الجزئيّ بعيد الميلاد قد بدأ يحجب المشاغل العسكريّة ، حين هبطت من مدينة « الجزائر » ضربة صاعقة : لقد اغتيل الأميرال « دارلان » ! إنّ اتّفاقيّة « دارلان » كانت قد غدت ما يطيب للأميركيّين تسميته بالفرنسيّة « قضيّة شهيرة » ، ففضلاً عن إخضاع « الجزائر » و « المغرب » ، كان انحياز الأميرال قد آل إلى انضمام « أفريقيا الغربيّة » ، وقيام تعاون مباشر بين السلطات الفرنسيّة وقوّات الحملة . كان « دارلان » قد سجّل إخفاقاً ساعةَ رفض الأسطول تلبية ندائه . إلاّ أنّ النشاط والمقدرة اللذين كان يتحلّى بهما كانا يخفّفان عن القيادة الأميركيّة عبء مهامّ كثيرة لم تكن مستعدّة لتحمّلها . فقد كان متّفقاً أنّه سيحمل لقب مفوّض سامٍ في « أفريقيا » ، فيما يتسلّم « جيرو » القيادة العليا للقوّات الفرنسيّة ، ويحتفظ كلّ من الموظّفين الكبار الآخرين ، أمثال « نوغيس » و « بواسّون » و « أيف شاتيل » ، بمنصبه . إنّه لحلّ سريع وواقعيّ ، مطابق للروح التي عمل « مورفي » بموجبها شهوراً طوالاً . ولكنّه كان يخلق مشكلة معنويّات سياسيّة ، ويثير اضطرابات صاخبة .

كانت الهجمات قد انطلقت من شخص « دارلان » صُعُداً نحو أولئك الذين كانوا يسمّون حاضنيه ، أي « أيزنهاور » ، والحكومة الأميركيّة ، و « روزفلت » ذاته . وقد رأى « مورفي » « ميلتون أيزنهاور » يهرول مذعوراً بعد ما علم أنّ مستقبل أخيه بات مهدّداً بسبب تفاهمه مع الأميرال الفاشستيّ . وكانت شخصيّات أخرى بالغة النفوذ تفد إلى مدينة « الجزائر » للتحرّي عن عدم فسخ قوانين « فيشي » ، وعن عدم إطلاق أسر النوّاب الشيوعيّين الذين أوقفوا في ١٩٣٩ ، وعن عدم إعتاق اليهود (الذين اعتقد الأميركيّون أنّهم أودعوا الأحياء اليهوديّة في « المغرب » منذ النصر الهتلريّ) . وعن عدم تحرير الشعوب التي استعبدها الاستعمار الفرنسيّ . وهلمّ جرّاً . . . وقامت حملة عالميّة اشترك فيها الأميركيّون الأحرار ، والديغوليّون ، والشيوعيّون . تمثّل « دارلان » كإنكار حيّ للمُثُل التي كانت الأمم المتّحدة تقاتل من أجلها .

كان « روزفلت » أوّل من قام بالتضحية في سبيل تقويم الوضع المتوتّر . ففي مؤتمره الصحفيّ المنعقد في ١٧ تشرين الثاني . نعت الاتّفاقيّة المعقودة مع « دارلان » بأنّها « وسيلة مؤقّتة » . وردّ الأميرال ، في كتاب إلى « كلارك » ، بأنّ هذه الطريقة ، التي يعتبر بموجبها كليمونة تُطرح جانباً بعد عصرها ، كانت تمسّ سلطته وتقلّل من شأن الخدمات التي يمكن أن يسديها للقضيّة المشتركة . إلاّ أنّ الأحلام الواهمة لم تكن تخدعه في أيّة حال ، فكان يتمنّى أن يغادر المسرح بأسرع وقت ممكن ، وهو يقول انّه لا يطمح إلى أيّة مكافأة غير الحصول على جواز سفر إلى « الولايات المتّحدة » . وفي ٢٣ كانون الأوّل تناول طعام الغداء مع « مورفي » ، وبعد ما أبلغه بأنّه كان على علم بأربع مؤامرات لاغتياله ، راح يبحث معه في أمر خلافته . قال : « إنّ ذكر « ديغول » ليس وارداً في الوقت الراهن ، فسوف تأزف ساعته في الربيع المقبل . . . »

وفي الساعة ١٥ من اليوم التالي دخل شابّ إلى قصر الصيف بعد ما صرّح بأنّه يدعى « موران » وقال إنّه يرغب في مقابلة الأميرال « دارلان » بشأن قضيّة عاجلة ، فدُعي إلى الجلوس في قاعة الانتظار ؛ وخرج « دارلان » بعد لحظات برفقة معاونه « هوركاد » ، فأصابته رصاصتان من الرصاصات الثلاث التي أطلقت عليه ؛ وبعد ساعتين لفظ آخر أنفاسه في المستشفى . إنّه لاغتيال عجيب . وأمّا القاتل ، « بونييه دي لا شابيل » ، وهو مستوطن جزائري شابّ في الواحدة والعشرين من عمره ، فقد كان ملكيّاً متطرّفاً في عدائه للألمان . وبعد ما مثل في اليوم التالي أمام القضاء وحُكم عليه بالإعدام ، صرّح للمحكمة العسكريّة بأنّ لا شريك له في عمليّته ، « لأنّ لا ضرورة لحشد من الناس لقتل خائن » . كان قد حصل على بطاقة هويّته ، التي تحمل اسم « موران » ، من شخص يُدعى الأب « كورديه » ، وكانت السيّارة التي أقلّته إلى قصر الصيف سيّارة « استيبي دي لا فيجوري » ، ولكنّنا لا نعرف حتّى اليوم من أعطاه المسدّس ، وهو من عيار ٦،٣٥ . وما هي نسبة الصحّة في الرواية التي تقول إنّ « بونييه » ربّما قد حلّ مكان اثنين من رفقائه سُحب اسماهما بالقرعة ، فتمنّعا عن القيام بالمهمّة لتخاذلهما .

وقد بذلت جهود كبيرة في سبيل إنقاذ « بونييه » ، فراح ديغوليّو « لندن » يثيرون الرأي العامّ العالميّ ، وراح ديغوليّو مدينة « الجزائر » يجهّزون مهاجمة سجن « بربروسا » . وبعد ما عاد « جيرو » مسرعاً من « تونس » وجد نفسه عرضة لضغط من كلّ نوع . وفي الساعة ١١ ، في ٢٦ ، أتاه صديق له شخصيّ بزائر عرّف عن نفسه بأنّه « الكونت دي باري » . كان من المفروض أن يكون في أراضيه في « العرائش » في « المغرب » الإسبانيّ ، فإذا به في مدينة « الجزائر » سرّاً ، ووسط الاضطراب الذي أحدثه مقتل « دارلان » . وكان هدف زيارته طلب العفو عن « بونييه » . وتركه « جيرو » يتكلّم ، ثمّ أخبره بأنّ فصيلة الإعدام قد أنجزت مهمّتها عند الفجر ، وأنّ العدل قد أخذ مجراه . صُعق الأمير للنبأ ، ولكنّه عاد فتمالك رشده ، وفي مدى ساعتين راح يعظ الجنرال عن الظفر الذي ينتظر الجنديّ الذي قد يعيد « فرنسا » إلى شرعيّتها . وأجاب « جيرو » بأنّه سيكون سعيداً جدّاً بتناسي قدوم « كونت دي باري » إلى مدينة « الجزائر » ، وأنّ طائرة ستنقله فوراً إلى « المغرب » الإسبانيّ .

مضى « دارلان » غير مأسوف عليه كثيراً . وخلفه « جيرو » في مهامّه كمفوّض سامٍ ، وراحت الحركة الديغوليّة تنمو في « أفريقيا الشماليّة » ، فانفتحت صفحة جديدة من صفحات الحروب الفرنسيّة .

في تلك الصبيحة انتحر الأسطول الفرنسيّ تخلّصاً من خاطبيي ودّه ، وهم الأميركيّون الذين كانوا بانتظاره في مدينة « الجزائر » ، والألمان الذين حضروا المأساة وقد أسقط في أيديهم .

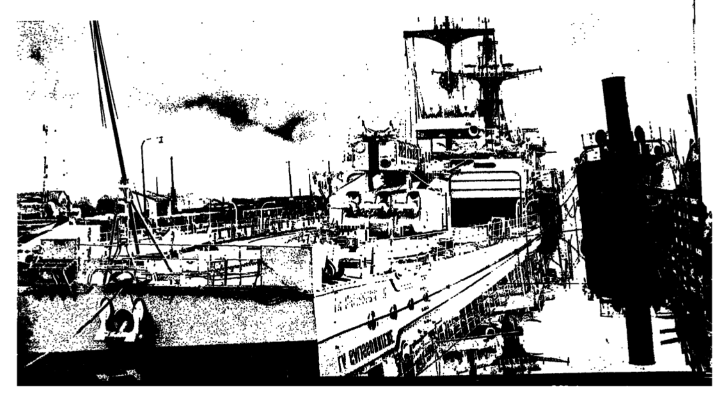


إنطلق أمر الإغراق من السفينة « ستراسبورغ » . وفيما كان أحد الضبّاط يأمر بإتلاف معدّات سفينته أصابته قذيفة دبّابة ألمانيّة كانت إلى الحائط الفاصل فقتلته . وتسلّل المشاة الألمان من ثمّ إلى الرصيف ، وصاح الترجمان في ذلك الليل موجّهاً كلامه إلى الأميرال « لابورد » : « أيّها الأميرال ، إنّ قائدي يأمرك بتسليم السفينة سليمة من الأذى » . فأجاب الأميرال : « لقد قُضي الأمر » . ويضيف الأميرال « أوفان » ، مؤرّخ تلك الأحداث : « . . . ووجم الألمان ، وإذا بالترجمان يعلن : « أيّها الأميرال ، يبلّغك قائدي عميق احترامه . »
وفجأة دوّت الانفجارات الأولى .



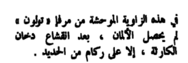
لقد أجسن أسطول "تولون" انتحارًا !

إحتضار إحدى السفن في حوضها .

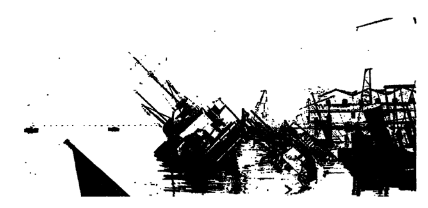


في جحيم الحريق انطلقت انفجارات القذائف التي راح الطيران الألمانيّ يمطرها الغوّاصات الهاربة . ولقد نجت من الغوّاصات الخمس ثلاثٌ بلغت مرافىء « الجزائر » .





في هذه الزاوية الموحشة من مرفأ « تولون » لم يحصل الألمان ، بعد انقشاع دخان الكارثة ، إلا على ركام من الحديد .



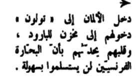


لم يكن بوسع السفن التي كانت قيد الإصلاح في الأحواض أن تدمّر نفسها كما فعلت شقيقاتها . وقد تمكّن الإيطاليّون من السيطرة على عدد منها .

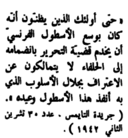


غرقت النسّافات التي كانت راسية قرب رصيف « الميلاد » .





دخل الألمان إلى « تولون » دخولهم إلى مخزن للبارود ، وقلبهم يحدّثهم بأنّ البحّارة الفرنسيّين لن يستسلموا بسهولة .

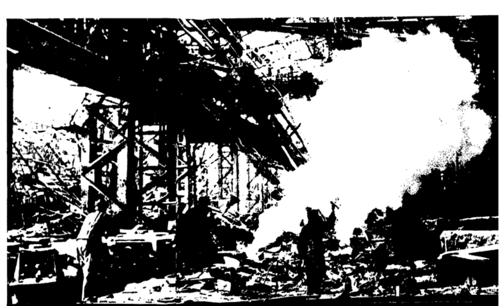


« حتى أولئك الذين يظنّون أنّه كان بوسع الأسطول الفرنسيّ أن يخدم قضيّة التحرير بانضمامه إلى الحلفاء لا يتمالكون عن الاعتراف بجلال الأسلوب الذي به أنفذ هذا الأسطول وعيده ».
(جريدة التايمس . عدد ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٢) .

دبّابة المانيّة على رصيف « تولون » تمرّ بأطــلال هذا الوحش الفولاذيّ الذي بات ينتصب عاجزاً عن الحركة .

حان وقت العودة إلى السهوب الروسيّة ؛ فالمأساة الدائرة هنـاك تعدل بعظها وتأزّمها مأساة شتاء ١٩٤١ عـلى أبواب «موسكو» ، إلاّ أنّهـا ، على صعيد التاريخ ، تبزّها صدى ووقعاً .

فاجعة «ستالينغراد»



من «فورونيج» إلى «القفقاس» بلغ امتداد الخطوط الألمانيّة والتواؤها حدّاً غريباً مدهشاً . كانت مجموعة جيوش الجنوب قد بدأت حملتها الصيفيّة على جبهة تبلغ ٨٠٠ كلم طولاً . ثمّ قُسمت إلى مجموعتي جيوش ، «أ» و «ب» ، لا يقصر مجموع جبهاتهما عن ٢،٦٠٠ كلم . لم يكن يصل المحاربين بقواعد التموين غير طرقات تعطّلها أقلّ مطرة . وخطوط حديديّة منفردة في الغالب ، مُدّت أسلاكها على الحضيض مباشرة بلا حصى . كان سير العتاد المتحرك ، والحالة هذه ، غاية في البطء ، فأتت هجمات الأنصار ـ وقد بلغ معدّلها الشهريّ ٧٠٠ هجوم ـ تعرقله وتزيد في بطئه ، هذا ولم يكن لأيّ تدبير زجريّ أن يضع لهذا الوضع حدّاً .

رمى الزحف إلى فتح ما وراء «القفقاس» . وأُسندت المهمّة إلى مجموعة الجيوش «أ» بقيادة الفيلد ـ مارشال «فون كلايست» ، أمّا مهمّة مجموعة الجيوش «ب» ، التي أُسندت قيادتها على التوالي إلى المارشال «فون بوك» فإلى الكولونيل ـ جنرال «فون فايخس» ، فلم تكن غير مهمّة تغطية ، إلاّ أنّها كانت كبيرة جليلة . كان عليها أن تمدّد حاجز «الدون» بإقفال البرزخ الفاصل بين «الدون» و «الفولغا» والذي يبلغ ٦٠ كلم طولاً . ثمّ تصطفّ بإزائه تدريجياً حتّى «استراخان» . وفي آخر الحملة ، أي قُبيل حلول الفصل الرديء ، كان على المواقع الألمانيّة في جنوب «الاتّحاد السوفياتيّ» أن تبلغ حدود ساحل البحر الأسود . والنور القفقاسيّ من «باتوم» إلى «باكو» عبر «تبليس» . وساحل بحر «قزوين» . وأخيراً «الفولغا» و «الدون» .

ترى ، أكان مثل ذاك الطموح أخرقَ غير معقول ؟ نعم ولا . لا . لأنّ المخطّط الهتلريّ كان يرمي إلى تزويد «ألمانيا» بنفط «القفقاس» . وبالتالي إلى إقصاء الروس عن البحر الأسود ، والقضاء بذلك على كلّ محاولة لشنّ هجوم معاكس على «القرم» و «أوكرانيا» و «رومانيا» ، إذ ذاك يغدو نهر «الفولغا» دعامة عريضة متينة للبناء الألمانيّ في «روسيا» . كان المضيّ في الحملة يستوجب القيام بعمليّات تبلغ دائرتها ٤٫٢٠٠ كلم . بيد أنّ النصر كان سيعيد الجبهة الفعليّة إلى حدود ١٫٠٠٠ كلم . فتمتدّ من مصابّ «الفولغا» إلى مجرى «الدون» الأوسط . لم تبقَ هناك في الواقع أيّة فرصة أخرى لتحقيق النصر . منذ أن تبدّد الأمل بانهيار الجيش الأحمر انهياراً سريعاً شاملاً .

أمّا الحماقة البيّنة المشؤومة ففي أنّ الوسائل لم تكن على مستوى الهدف ، فتحقيق مخطّط «هتلر» كان يفرض على الجيوش الألمانيّة أن تعدّ ضعف ما تعدّه من الرجال ، وأن تعتمد ثلاثة أضعاف ما تملك من قدرة التحرّك ، وأربعة أضعاف ما تملك من طائرات . كما أنّه كان يفرض أن تسرّيح الجيوش ، وأن تسدّ الفراغ الحاصل في صفوفها . فهي لم تنفكّ تقاتل منذ اندلاع الحرب مع «روسيا» . والخسائر التي منيت بها

تدور هذه المعارك في «ستالينغراد» ، في أحد معامل «تشرين الأوّل الأحمر» .

لم تعوّض لا في الرجال ولا في العتاد . ما كان عدد الرجال في السريّة ليتجاوز الستّين الاّ نادراً ، ولا عدد الدبّابات في الفرقة ليربو على الثمانين . لم تكن لدى «هتلر» أيّة فكرة واقعيّة عمّا كانت عليه جيوشه من تلف في غمرة انتصاراتها . وهو الذي ما كان يقصد إلى الجبهة البتّة . وما كان يسمح لمساعديه المقرّبين بأن يقصدوا إليها .

كان الفوهرر ، إزاء بوادر القلق التي تظهر حوله . يجيب معلّلاً نفسه بأنّ الجيوش السوفياتيّة قد أنهكت . كان يتقبّل بلهفةٍ البوادرَ التي تشير إلى إعياء العدوّ ، ويرفض بحنق البوادرَ المعاكسة . وكان يصرّ على تبرير خطط الجرأة التي تعتمدها ستراتيجيّته بدنوّ ربع الساعة الأخير . مدّعياً أنّ الحرب لا تُربح إلاّ ببقايا ، وأنّ البقايا الألمانيّة ما تزال تحتفظ ، إزاء الحطام الروسيّ ، بقدرة تمكّنها من فرض الكلمة الفصل .

مضى الصيف ، وها هو الخريف ينقضي ، وغدت ريح السهوب باردة بعدما كانت بالأمس حارّة لافحة . سقط الثلج على الجبل ، وما لبث أن هبط على السهل . فمضى قوّاد الأفواج يحرّرون التقرير تلو التقرير طالبين الإسراع في إرسال الأعتدة الشتويّة . كان من المفروض ، استناداً إلى تقويم القيادة العليا ، أن تكون أهداف ١٩٤٢ قد تحقّقت . فإلى أيّ حدّ قد تحقّقت يا ترى ؟ وإلى أيّ حدّ يمكن أن تتحقّق بعدُ ، قبل موسم القرّ والزمهرير؟ !

من المفروض أن تكون «باتوم» على البحر الأسود قد سقطت ، والواقع أنّها ما زالت على بعد ٥٠٠ كلم ! فمنذ احتلال «نوفوروسيسك» لم يتحقّق أيّ تقدّم يُذكر . وبدا ارتقاء «الالبروز» (ارتفاعه ٥،٨٠٠ م) في الداخل وكأنّه قد وضع حدّاً للمجهود الألمانيّ بمأثرة رياضيّة . كانت مجموعة الجيوش الثانويّة . التي يؤلّفها الجيش الألمانيّ ١٧ والجيش الرومانيّ ٣ . تقاتل تحت إمرة «رووف» في مناطق رائعة الجمال : فمن غابات عذراء . إلى فجاج موحشة . إلى نواتىء صخريّة تطلّ على السهل الساحليّ المخضوضر . وعلى رقعة البحر الفسيحة الدكناء . إلاّ أنّ المحاولات التي بُذلت للهبوط إلى تلك الجنّة قد باءت بالإخفاق .

أمّا في «القفقاس» الأوسط فمفروض أن تكون «تفليس» قد غدت ألمانيّة ، والواقع أنّ «أوردجونيكيدزي» . مدخلها . لم تغدُ ألمانيّة بعد . جمع جيش الدبّابات الأوّل في منعطف «التيريك» القوّات التي استطاع أن يسحبها من جبهته البالغة ٧٠٠ كلم . وحاولت فرقة الدبّابات ١٣ أن تصعّد في الفجاج التي تنزلق فيها طريق «أوسيتيا» العسكريّة ، إلاّ أنّ وعورة الأرض . ونقص الوقود . والمقاومة الروسيّة . قد تضافرت جميعها لإيقافها . وفي نقطة أقرب إلى الشرق حاولت فرقة «الفيكينغ» . المؤلّفة من متطوّعين شماليّين . أن تستولي على منطقة «غروزني» البتروليّة الهامّة . فتمكّنت من إرساء رأس جسر على «التيريك» بعدما بذلت في سبيل ذلك جهوداً ضارية ، إلاّ أنّ الأمداد الضروريّة لاستغلال ذاك التفوّق كانت معدومة تماماً . فما كان من رجال «الفيكينغ» . في ١٢ تشرين الثاني . إلاّ أن عادوا فعبروا النهر . وسط عاصفة ثلجيّة شعواء . وهكذا لن يبلغ الجيش الألمانيّ في مكان ما نقطة أبعد من التي بلغها هنا .

كان هدف الحملة الأوّل هو «باكو» . إلاّ أنّ جنديّاً ألمانيّاً واحداً لن يتقدّم إلى أقرب من ٦٠٠ كلم منها . مع أنّ «هتلر» كان قد قال : «إن لم أضع يدي على نفط «باكو» فسأضطر إلى تصفية الحرب اضطراراً...»

فُرض على فرقة واحدة . هي الفرقة الآليّة ١٦ . أن تسدّ فراغاً يمتدّ مسافة ٤٠٠ كلم بين مجموعتَي الجيوش «أ» و «ب» . بين «التيريك» و «الفولغا» الأسفل عبر سهب «الكلموك» . والحقيقة أنّ الروس أنفسهم قد عجزوا عن ملء أصقاع مترامية الأطراف كهذه . وضعت الفرقة الآليّة ١٦ يدها على «إيليستا» حاضرة الرّحّل . وتقدّمت دوريّة يقودها الأوبرلوتنانت «غوتليب» حتى نقطة تبعد مسافة ٢٥ كلم عن «استراخان» . فقطعت خطّ «باكو» الحديديّ ، وأضرمت النار في قطار للنفط ، ثمّ عادت ولمّا ترَ من جنود الأعداء واحداً . إذاً فقد انبسط بين الجيوش المقاتلة في «القفقاس» ، والجيوش الملتحمة على نهر «الفولغا» ، فراغٌ فعليّ شامل .

حاول الجيش الرومانيّ الرابع ، المشتمل على فوجين هزيلين ، أن يقيم جبهة دفاعيّة شماليّ «إيليستا» باصطفافه إزاء سلسلة من البحيرات كانت تحتضن «الفولغا» في مجراه القديم. وإلى يساره بلغ جيش الدبّابات الرابع ، بقيادة «هوث» ، النهرَ الكبير ، بالقرب من المنعطف الذي يرسمه حين يترك وجهة البحر الأسود ليتّجه ناحية بحر «قزوين» . كان هذا الجيش حتى ١٦ أيلول قد اشترك في القتال من أجل «ستالينغراد» . ثمّ تخلّى عن قسم من وحداته للجيش السادس المكلّف بإتمام فتح المدينة . وإذ لم يبقَ منه غير الفيلق ٤ ، والفرقة الآليّة ٢٩ ، لم يتمكّن من احتلال مرتفعات «كراسنو-ارمنسيك» التي كان الروس يشرفون على خطوطه منها .

يبدأ قطاع الجيش السادس عند تخوم «ستالينغراد» . وكان الضابط العامّ الذي يتولّى قيادته ، «فريدريك باولوس» ، أحدث الرؤساء الألمان عهداً . لم يكن له من العمر سوى ٥٢ سنة ، وكان قد شغل مركز رئيس أركان المارشال «رايخناو» ، ثمّ استُدعي لترؤّس إحدى أهمّ قطع رقعة الشطرنج العسكريّة ، مثيراً بذلك حقدَ البعض . كان «هتلر» قد فكّر بأن يُسند إليه دوراً أقلّ إثارة للحسد ؛ كان ينوي أن يُسند إليه مهمّات «جودل» بعد أن يتمّ «لباولوس» الاستيلاء على «ستالينغراد» ، فيجعل منه مستشاره العسكريّ الخاصّ . لم تلعب الحظوة السياسيّة أيّ دور في ترقية «باولوس» الباهرة . نشأ في بيئة الموظّفين البسطاء ، ثمّ ارتفع في سلّم المجتمع بزواجه بامرأة من إحدى الأسر الرومانيّة المرموقة . كان حيادياً من حيث السياسة ، باهتاً من حيث الشخصيّة . وإن كانت الطاعة هي قوّة الجيوش الرئيسة ، فإنّ الخروج عليها هو الذي يرفع القوّاد الكبار إلى المجد دائماً . ولكنّ «باولوس» كان عاجزاً عن أن يخالف أمراً .

ألواقع أنّ الدور الذي أسند إليه في حملة ١٩٤٢ ما فتىء يتضخّم ويثقل ؛ لم تُسند إلى الجيش السادس أوّلاً إلاّ العمليّات الخاصّة بحلقة «الدون» ، على اعتبار أنّ «ستالينغراد» هدف ثانويّ، بل مغنم لا هدف . وما لبث الثانويّ أن غدا رئيساً ! كان «هتلر» قد أعلن أنّه لا يصرّ على احتلال المدينة ، وأنّه يكتفي بتدمير طاقتها الصناعيّة ؛ أمّا الآن فقد بات يرى في المعركة الضارية التي تثيرها الامتحانَ الرئيس الحاسم لنزاعه مع «روسيا» .

بدأ الحصار في ٢ أيلول بالتقاء الجيش السادس والجيش الرابع المصفّح على الهضاب المشرفة على المدينة . كانت القضيّة يائسة بالنسبة للروس ؛ فمواصلات «ستالينغراد» البريّة مقطوعة كلّها ، وتموين الحامية لم يبقَ ممكناً إلاّ عن طريق «الفولغا» . فأعلن الجنرال «لوباتين» ، قائد الجيش ٦٢ . أنّ الدفاع عن المدينة غير ممكن . وطلب الإذن بالارتداد إلى ما وراء النهر . بيد أنّ «ستالين» ، وقد أقلع عن خطّة الدفاع المطّاطة التي كان قد تبنّاها في مطلع الصيف ، أعلن أنّه لم يبقَ بوسع «روسيا» أن تتخلّى عن أيّ جزء من أراضيها : فعمد «إيريمنكو» ، قائد مجموعة الجيوش ، بالاشتراك مع مفوّضه السياسيّ الجديد «خروشتشيف» ، إلى استبدال «لوباتين» بجنرال آخر وصل حديثاً من الشرق الأقصى ، هو «تشويكوف» . أمّا التعليمات التي تلقّاها فتتلخّص بعبارة واحدة: الموت ، أو الحفاظ على «ستالينغراد» .

أمّا «ستالينغراد» فرصيف على مجرى «الفولغا» ، تولّي السهوب ظهرها لتمتدّ متراصّة على طول الكتلة المائيّة الضخمة . تهوي الجروف في انحدار سريع يعقّد مواصلات المدينة والنهر ، إلاّ أنّه يوفّر زاوية ميتة

بالنسبة للأسلحة ذات الرماية الموتورة . أمّا الأودية الروسيّة الضيّقة ، ومسايل السهب ، فتمتدّ داخل المدينة بمجموعة من المنخفضات احتلّ نهر «تزاريتزا» أعمقها .

تنحدر المدينةُ الوسطى ، وقلبُها الساحة الحمراء ، بمجموعات من السلالم من هضبة «ماماي» حتّى الرصيف الخاصّ بسفينة العبور التي تقوم مقام الجسور المفقودة . أمّا صفّ القلاع الصناعيّة فيمتدّ باتّجاه الشمال . فيحتلّ مصنع «لازور» للموادّ الكيمائيّة وسط حلقة للخطوط الحديديّة بالغة الوضوح في الصور المأخوذة من الجوّ ، ولذا دُعيت «مضرب الكرة» . يأتي بعد ذلك مصنع الصلب «تشرين الأوّل الأحمر» ، ومصهر المدافع «باريكاد» ومصنع الجرّارات «دجيرجنسكي» . وتمدّد ضاحيتا «سبارتوكوفسكا» و «رينوك» مدينةَ «ستالينغراد» حتّى مسطّح الماء الكبير ، حيث يبدأ مسيل «الأشتوبا» العريض بتجزئة «الفولغا» . وفي الجملة لا يتجاوز طول هذه السلسلة المدنيّة والصناعيّة ٥٠ كلم . أمّا عرضها فقلّما يتعدّى ٣٠٠٠ خطوة .

سقطت المدينة القديمة أولاً . وكان احتلال مستودع القمح الكبير ، على يد الفرقة الآليّة ٢٩ . أوّل المعارك الهائلة الخياليّة التي أضفت على موقعة «ستالينغراد» طابعها الفريد . كانت الانفجارات المدوّية على الغلاف الضخم المصنوع من الاسمنت المسلّح تفجّر طبلات الآذان تفجير بالونات المطّاط . كان البناء ما يزال ممتلئاً بالقمح ، فإذا بالروس والألمان يتذابحون وسط سيل متدفّق ذهبيّ ، ولكن بقي التفوّق للألمان . وفي أواسط تشرين الأوّل كانوا قد فتحوا ، في القطاع الجنوبيّ ، ما يقارب عشرة كيلومترات من الضفّة الممتدّة من «كوبير وفسكوي» إلى موطىء سلالم الساحة الحمراء ، واحتلّوا ، في القطاع الشماليّ ، واجهة معادلة تمتدّ إلى جانبيّ «رينوك» .

لو تعقّل الروس لتخلّوا عن المدينة ، إذ لم يبقَ لهم من «ستالينغراد» غير قسم من الأحياء الصناعيّة الشماليّة ، وممرّ لا يتعدّى عشرات الأمتار عرضاً في المدينة الوسطى ، ينتهي بخطّ منحرف عند موطىء رصيف العبور . بيد أنّ الموقعة كانت قد خرجت عن سنن المنطق ، فلم يبقَ ثمّة قيادتان تستلهمان المنطق العسكريّ ، بل عصبيّتان جامحتان تصطرعان !

كان الموقف من الناحية الألمانيّة أكثر توغّلاً في الخرق والشطّط . وأبرز تنكّراً للمعقول ، ذاك أنّ بلوغ موقع «ستالينغراد» المتقدّم قد فقد كلّ نوع من الأهميّة الستراتيجيّة ، عندما بدا في تشرين الأوّل أنّ مجموعة الجيوش «أ» لم يبقَ لها أيّ حظّ في الاستيلاء على نفط «القفقاس» خلال ١٩٤٢ . أمّا مبرّرها الاقتصاديّ الأخير ، وهو قطع المواصلات على «الفولغا» ، فكان على وشك الزوال ، نظراً لأنّ التجمّد كان سيقطع حركة الملاحة قطعاً عمليّاً بعجز عن تأمينه وجودُ جنود «باولوس» في «رينوك» وجنود «هوث» في «كوبير وفسكوي» . كان على القيادة الألمانيّة أن تهتمّ بعد اليوم بتلقّي الشتاء الروسيّ الثاني بشروط أفضل من التي عرفها الشتاء الأوّل ، أي بتقليص الجبهة المترامية وتدعيمها . وهكذا كان التقدّم نحو «تفليس» ، وضربة المخرز حتّى «الفولغا» ، في طليعة التضحيات التي كان لا بدّ من القبول بها . بيد أنّ «هتلر» رغب عن الحقّ والواقع ، ومن حاول ردّه إليهما دفع الثمن غالياً . ففي مطلع أيلول حُطّم أحد الجنرالات لأنّه زعم أنّ الضرورة كانت تقضي بوضع حدّ للتقدّم والتوغّل ، وهوى جنرال آخر من أعلى ذُرى الحظوة لديه لأنّه دافع عن زميله . أمّا الأوّل فهو الفيلد مارشال «ليست» ، وأمّا الثاني فهو الكولونيل جنرال «جودل» . ذاك أنّ «جودل» ، لدى عودته من مهمّة قام بها في مقرّ قيادة مجموعة الجيوش «أ» ، تجاسر فأعلن في وجه «هتلر» أنّ الأخطاء التي نُسبت إلى «ليست» أتت نتيجة للأوامر التي كان «هتلر» نفسه قد أصدرها ، فما كان من «هتلر» إلاّ أن غادر القاعة . وقد علت وجهه صفرةُ من كاد يفقد وعيه . وهام على وجهه ساعات في آجام «فينيتزا» . وعلى أثر ذلك امتنع حتّى وفاته عن تناول الطعام على مائدة ضبّاطه ، محكماً بذلك إقفال حلقة العزلة التي عقدها حوله . أمّا «ليست» فقد نُحّي عن قيادته وتوارى عن مسرح القتال .

في آخر أيلول توارى «هالدر» بدوره . وكان يشغل منصب رئيس أركان الجيش العامّة منذ أزمة «مونيخ» ، إلاّ أنّ عقله النقّاد ، ونظّارتيه ، ومنطقه ، وإفراطه في التقريع والتحذير ، وحتّى كثلكته ، كانت كلّها تضايق طاغية ترك متملّقيه يعلنون أنّه أكبر عبقريّة عسكريّة عرفها التاريخ ، وإذا بالكيل يطفح في ٢٤ أيلول ، فيعلن «هتلر» : «لقد أرهقت أعصابك وأعصابي فبلغت حدود طاقتها ؛ لست بحاجة إلى معلّم مدرسة ، بقدر ما أنا بحاجة إلى رجل امتلك عليه التعصّبُ القوميّ الاشتراكيّ جوارحه ، لكي أدير حربي في روسيا ...»

حلّ محلّ «هالدر» جنرالٌ ميجر عاديّ هو «كورت زيتزلر» ، لم يكن له في قيادة جيش البرّ غير صلاحيّات إدارة الجبهة الشرقيّة ، بعدما وُضعت مسارح العمليّات الأخرى تحت سلطة قيادة الجيش العليا المباشرة ، أي تحت سلطة «كيتل» . هذا من حيث المبدإ ، أمّا من حيث الواقع ، فقد اندمجت الصلاحيّات كلّها تحت سلطة وأدولف هتلر «المطلقة ، النزّقة ، الثرثارة . فمنذ أن نشبت بينه وبين «جودل» الأزمةُ ، سجّل الكتّاب المختزلون وقائع الجلسات التي تُعقد في مقرّ قيادته العامّة ، فإذا هي للتاريخ صور لهذيان غريب مدهش نرى فيه «هتلر» ينتقل من أسمى التأمّلات والاعتبارات إلى أدقّ التفاصيل وأتفهها ، فحيناً يجوب العالم مستعلياً ، وبعد دقيقة يعمد إلى نقل سريّة ، من غير أن يشعر ، ولو مرّة واحدة ، بميل يدفعه إلى أن يذهب فيطّلع على حقيقة حربه ، ومن غير أن يتّصل برجال الميدان ، أي بغير الأبطال ذوي الأوسمة والقفافيز الذين كان يطلب تقديمهم إليه بين الحين والحين .

وبدل أن يزهد الجيش الألمانيّ «بستالينغراد» زاد بها تشبّثاً ، فاستُقدمت كتائب هندسة الجيش كلّها بطريق الجوّ ، وشُكّلت فئات هجوميّة مهمّتها أن تفتح الطريق أمام المشاة في المعاقل الصناعيّة الكبرى . فالتحم القتال وسط خليط من الآلات والمعدّات المحطّمة ، والجسور المتحرّكة المقلوبة ، والهياكل المعدنيّة المنهارة . أمّا المقاومة الروسيّة فكانت رائعة عتيّة ، وكان الألمان يعلمون أنّ شيئاً واحداً لن يُترك لهم ، وأنّه لا بدّ للحجر الأخير في «ستالينغراد» من أن يرتوي بدمائهم .

في ٩ تشرين الثاني ، وبمناسبة ذكرى انقلاب «مونيخ» الـ ١٩ ، جلس «هتلر» متظرّفاً يقول : «أردت أن أبلغ «الفولغا» في المدينة التي تحمل اسم «ستالين» ذاتها ، وقد فتحنا تلك المدينة ما عدا جزيرتين أو ثلاثاً لا قيمة لها ، ويسألونني : لماذا لا تُقدم على إنهاء الحرب بشكل أسرع ؟ فأجيب : لأنّي لا أريد «فردان» ثانية . ولذا تركت لبعض عناصر الهجوم مهمّة إنجاز فتح «ستالينغراد» ...»

والحقيقة أنّ «الفوهرر» لا يبالغ إذ يقول إنّ فتح «ستالينغراد» كاد ينتهي تماماً . فالروس ما زالوا محتفظين برصيف الإنزال ، متشبّثين «بمضرب الكرة» ، ممسكين بقسم من «تشرين الأوّل الأحمر» ، وبمنافذ «باريكاد» و «دجرجنسكي» الشرقيّة . أمّا الباقي كلّه ، أي تسعة أعشار «ستالينغراد» ، أو ما يعادل ٥٠ كلم من الأنقاض ، فقد أمسى للعدوّ . بُقرت البنايات المنتصبة في وسط المدينة كلّها ، وأُحرقت البيوت الخشبيّة كلّها ، فلم يبقَ من رسومها إلاّ ألوف المداخن المسودّة . لم يتمكّن السكّان من عبور «الفولغا» فلاذوا بالفرار عبر السهب . لا يملكون من أسباب العيش شيئاً . فلقي ألوف من الأبرياء حتفهم جوعاً .

سخر «هتلر» من رعاياه إذ أوهمهم أنّ معارك «ستالينغراد» باتت من شؤون بعض منظّفي الأنقاض ؛ ذاك أنّ مجموع الفوج الـ ٥١ ، الذي تضخم حتّى شمل ثماني فرق ، قد زُجّ به في حرب الشوارع التي امتصّت أفضل عناصر مجموعة الجيوش. تظاهر «الفوهرر» بالتجلّد والتروّي . إلاّ أنّه في الواقع كان كثير اللجاجة في بلوغ النهاية . ففي ١٧ تشرين الثاني . من «برشتشغادن» التي انتقل إليها منذ النزول الانكليزيّ الأميركيّ في «أفريقيا الشماليّة» ، توجّه بالكلام إلى الكولونيلات القوّاد في «ستالينغراد» ، قال : «أنا أدرك ما تصادفه مهمّتكم من صعوبات . وليست صعوبات الروس بأقلّ منها . وعمّا قليل ستزيدها قطع الجليد العائمة هولاً . وإنّي لأنتظر من همّتكم أن تحسنوا الإفادة من تلك السانحة المؤاتية لإنجاز احتلال مصنع المدافع ومصنع الصلب ...» .

استجابت الأفواج الألمانيّة لذاك النداء . فتمّ في ١٩ تشرين الثاني سقوط «دجرجنسكي» و «باريكاد» . كما تمّ فتح بضع مئات من الأمتار على الضفّة . وقطعت كتلُ الجليد الطافية على سطح الماء حركةَ تموين المدافعين ، فأعلم «تشويكوف» المسؤولين أنّ الذخائر والمؤن والدماء قد نفدت ...

أشرف الحصار على نهايته ، فإذا بقيادة الجيش السادس تبلّغ أمراً لم يكن قطّ في الحسبان : أوقفوا الهجمات كلّها في جبهة «ستالينغراد» ..

جانب الكبش الزجاجيّ

لم يكن جيش «باولوس» يقاتل في «ستالينغراد» وحدها . فبعدما انعطف كذراع واقية راح يسدّ البرزخ الذي يفصل «الفولغا» عن «الدون» ثمّ اجتاز النهر الثاني ، وبعدما عاد إلى قطع عقدة «كريمينسكايا» التي بقيت في أيدي الروس امتدّ حتّى «كليستكايا» . وكان فيلقان ، هما الـ ٨ و الـ ١١ ، يحميان هذه الجبهة الدفاعيّة .

وما وراء «كليتسكايا» ، وحتّى جوار «فورونيج» ، انبسطت ٤٠٠ كلم سيطر على قطاعاتها حلفاءُ «ألمانيا» : الرومانيّون ، والإيطاليّون ، والمجر .

كانت الجيوش الثلاثة متشابهة بضعفها . وقد قام شاهد عيان ايطاليّ ، أبصر مواطنيه يمرّون في «فيينا» في طريقهم إلى «روسيا» ، بتدوين مشاعره على الوجه التالي : « إنّ جنودنا يفتقرون إلى المهابة والوقار . فهم قذرون ، سيّئو العتاد ، وخصوصاً سيّئو التجنيد وفاسدو التسليح . فإن هم قاموا إلى محاربة الجيش الروسي ، فسيجدون أنفسهم في وضع سيّىء للغاية . إنّ قلوبنا لتنفطر لهذا الوضع ...» وأمّا آليّة الجيوش الثلاثة فقد كانت منعدمة تقريباً ، وأمّا العتاد ، والملبس ، والاستخبارات ، والعدّة البصريّة ، الخ ... فقد كانت في حالة يرثى لها . وكانت المدفعية ممّا أكل الدهر عليه وشرب . ولم يكن الدفاع المضادّ للدبّابات يتضمّن أيّ عتاد يفوق مدفع ٣٧ الذي تجرّه الخيل . أمّا التقهقر في المعنويّات فحدّث عنه ولا حرج : فقد كان الجنود يشعرون بأنّ تلك الحرب لم تكن حربهم . وكانوا متأثّرين بالظروف الماديّة والمعنويّة التي تحيق بهم .

من الناحية العدديّة كان الإسهام المجريّ – الإيطاليّ – الرومانيّ في الحرب الهتلريّة هائلاً . فالجيش المجريّ الثاني ، الذي كان أكثر الجيوش اقتراباً من «فورونيج» ، يضمّ ثلاثة فيالق ؛ والجيش الرومانيّ الرابع ، الذي كان أكثر الجيوش اقتراباً من «ستالينغراد» ، يضمّ أربعة ، فضلاً عن فيلقَي الجيش الثالث اللذين كانا في الجبهة في السهوب الكلموكيّة ، وعن الفرق السبع التي كانت تحارب مع الجيش الألمانيّ السابع عشر . وإذ أنّ المجر والرومانيّين أعداء بالوراثة ، فقد توسّطهم الجيش الإيطاليّ الثامن ، المؤلّف من أربعة فيالق ، منها الفيلق الجبليّ . كانت ٣٢ فرقة ، من جملتها ٢٤ ، في الجبهة على «الدون» ، تضخّم بالتالي عدّة قتال الجيش الألمانيّ ، ولكن ، لو أردنا أن نقيس القيمة القتاليّة لهذه القوّات بالمستوى الألمانيّ ، لوجب علينا أن نحسم من العدد ثلثيه !

كان الجنرالات الألمان قد طالبوا منذ البدء بدمج هؤلاء المساعدين الضعفاء بالجنود الألمان ، بيد أنّ اعتبارات سياسيّة عالية كانت تعوق تحقيق هذا الأمر . كانت حكومات الأفلاك الألمانيّة ترغب في وجود جيوش شرعيّة تحت قيادات وطنيّة . ونظراً لضعف هذه الجيوش في الناحية الهجوميّة ، كانت مهمّتها مقتصرة على الجبهات السلبيّة . ولهذا السبب رأينا أنّ حماية جانبَي الهجوم على «ستالينغراد» قد أُوكلت على هؤلاء الحلفاء بصورة شبه تامّة .

وإزاء تكوين الهجوم المعاكس ، إزاء تحضير إحدى أجمل الانتصارات في التاريخ الروسيّ ، بقيت المصادر الروسيّة ، مرّة أخرى ، مخيّبة للغاية ، فتاريخ الحرب العالميّة الذي نشره الجنرال «بلاتونوف» يقول إنّ المخطّطات قد بوشر وضعها في شهر أيلول ، وهو يعطي عنها موجزاً واضحاً . إلاّ أنّ النصّ لم يخرج من دائرة الجفاف . وأمّا الظروف التي وُضعت فيها المناورة المحكمة ، وأمّا المناقشات التي سبّبتها ، فلا ذكر لها البتّة ، يجب الاكتفاء ، في التاريخ المذكور ، بهذه الصيغة التقليديّة المفخّمة ، وبهذه الحقيقة الرسميّة التي خلفت حقيقة رسميّة تختلف عنها كليّاً : فحتّى ١٩٥٣ كان «ستالين» هو منتصر «ستالينغراد» الوحيد ؛ ومنذ ١٩٥٦ بات «ستالين» ميتاً بالنسبة للتاريخ ، لدرجة أنّ اسمه لم يُذكر قط في كتاب «بلاتونوف» .

كانت جبهات ثلاث ، أو مجموعات جيوش ، تحيط بناتئة «ستالينغراد» : الجبهة الجنوبيّة الغربيّة بإمرة «فاتوتين» ؛ جبهة «الدون» بإمرة «روكوسوفسكي» ؛ جبهة «ستالينغراد» بإمرة «إيريمنكو» . كانت فكرة المناورة تقضي بالهجوم المشترك في الشمال والجنوب لإغلاق الكلاّبة على الطرف الشرقيّ من عقدة «الدون» .

قال «بلاتونوف» : «لم تكن السهوب صالحة بالنسبة للتركيز السوفياتيّ ، ومع ذلك تمكّننا من إخفائه . وقد جرت التنقّلات كافّة خلال الليل ؛ وعند أوّل خيوط الفجر كان الجنود يتوقّفون ، فيتناثرون في القرى متوارين عن الأنظار . لقد كان هجومنا مفاجأة شاملة للقيادة العدوّة » .

لقد أخطأ «بلاتونوف» التقدير ، فقد كان الهجوم متوقّعاً . فركاكة الجانب الدفاعيّ كانت منذ أمد بعيد مصدراً للقلق . ومنذ آب أشار «هتلر» إلى ضعف جبهة «الدون» ، مذكّراً بأنّ الجيش الروسيّ الأبيض قد اندحر في ١٩٢٠ فيما كان يهاجم «تزاريتزين» (ستالينغراد) ، أمام هجوم منطلق من النهر . فالتحرّكات باتّجاه المؤخّرات ، وحشد القوّات في رؤوس الجسور الخطرة ، قد أبلغ عنها غير مرّة . ودارت المناقشات في الأركان العامّة تتساءل على من ستقع الضربة : أعلى المجر ، أم على الإيطاليّين ، أم على الرومانيّين ؟ ولقد قال «هتلر» : « لو كان الألمان هم الذين يحرسون «الدون» لنمت قرير العين » .

في ٧ تشرين الثاني ، في مؤتمر الفوهرر ، قام «زيتزلر» ، رئيس الأركان العامّة الجديد ، بإبلاغ خبر نقلته الجاسوسيّة يزعم أنّ هجوماً سوفياتيّاً كبيراً على «الدون» قد جُهّز في «الكرملين» لأربعة أيّام خلت ،



نيسان ١٩٤٢ . كانت القوافل الروسيّة المحمّلة بالعتاد إلى «لينينغراد» تذرع بحيرة «لادوغا» المتجمّدة ليلَ نهار .

فأصدر أمر إلى قوّة الاحتياط الميكانيكيّة الوحيدة . وهي الفيلق المصفّح ٤٨ الذي كان في أعقاب الجيش الإيطاليّ ، بأن تتمركز وراء الجيش الرومانيّ الثالث . كان هذا الفيلق ، وهو بإمرة الجنرال «فون هايم» ، مؤلّفاً من فرقة الدبّابات ٢٢ ، ومن الفرقة الرومانيّة المصفّحة الأولى الحديثة العهد الّتي لم تكن تملك سوى ٤٠ دبّابة تشيكيّة سلاحُها الضعيف الوحيد مدفع من عيار ٣٧ . ولم تكن أحوال الفرقة ٢٢ مرضية ، فقد شُطر فوج دبّاباتها قسمين بغية إنشاء نواة للفرقة المصفّحة ٢٧ . وأكثر آليّات البدل الّتي حصلت عليها كانت دبّابات «ب ز . كف. ٢ و ٣» ، وهي لا تضاهي دبّابات « ت ـ ٣٤» السوفياتيّة . وفضلاً عن ذلك كانت تنتظر «فون هايم» مفاجأةٌ مضحكة : كان يفتقر إلى الوقود . فاضطرّ إلى ترك دبّابات الفرقة المصفّحة الـ ٢٢ مخبّأة تحت أكوام من القشّ ، وعندما حان وقت إخراجها تبيّن أنّ الفئران ، الّتي عافت القشّ لكثرته ، قد التهمت كساء صمغ المطّاط في الدبّابات ، فعطّلت بذلك الجهاز الكهربائيّ ! ومن جملة دبّابات الفرقة الـ ١٠٤ تحرّكت ستّون دبّابة تقريباً استعداداً لمسيرة تبلغ ٢٥٠ كلم عبر طريق يكسوها الجليد ، وقد بلغت ٣٢ دبّابة منها فحسب موقعَ التمركز الجديد ، ثمّ لحقت بها ١٢ دبّابة في الأيّام التالية . وفي ١٩ تشرين الثاني كان الفيلق المصفّح ٤٨ ، وهو قوّة الهجوم المعاكس الوحيدة على عقدة «الدون» ، مؤلّفاً من حفنة دبّابات رومانيّة معدمة ، ومن ٤٤ دبّابة ألمانيّة ، منها ٣١ دبّابة خفيفة .

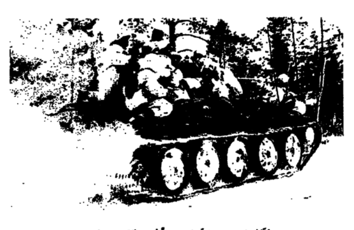
كان ليل ١٨–١٩ ليلاً مهيباً . وقد وصف شهود عيان فذكروا أنّ ضبابه كان « كالحليب» . وعند منتصف الليل بدأ الثلج يتساقط . وفي الساعة ٤ باشرت المدفعيّة الروسيّة قصفاً مبيداً ، مركّزاً على قطاعين ضيّقين . أوّلهما في رأس جسر «سيرافيموفتش» ، والآخر في رأس جسر «كريمسكايا» . وفي الساعة ٨ انبثقت الدبّابات حاملة عناقيدَ من الجنود يتدلّون من جدرانها الخارجيّة ، فوقع هجوم الغرب ، الذي شنّه الجيش المصفّح الخامس ، على الفيلق الرومانيّ الثاني ، ووقع هجوم الشرق ، الذي شنّه جيش الصدام الثالث ، على الفيلق الرومانيّ الرابع . لقد شاءت الأقدار أن يكون الرومانيّون أضعف الحلفاء ، كانت وحدات كثيرة من وحداتهم مضرّاة ، وكان بعض جنرالاتهم ممتازين ، وكان جنودهم متجلّدين أقوياء على الطقس ، وأفضل استعداداً من المجر ، وخصوصاً من الإيطاليّين ، الخوض معركة عقائديّة ضد « الاتّحاد السوفياتيّ » . ومع ذلك كانت الهزيمة صاعقة : فقد أحدث انبثاق الدبّابات الروسيّة التأثير نفسه الذي أحدثه انبثاق الدبّابات الألمانيّة في «سيدان» ، فتفرّق الجنود أيدي سبا . وتفشّت الانهزاميّة في الوحدات الّتي لم تكن قد هوجمت قط . وفي وسط الثغرتين اتّكأت مجموعة بقيادة الجنرال «لاسكار» إلى «الدون» ، وقاومت بعزم لا يلين ، بيد أنّ الجيش الرومانيّ الثالث قد تفكّك بمجمله . وعلى الطرقات الّتي غطّاها الثلج هامت جموع من الرجال تلسعهم الرياح الجليديّة . وكان العمل الوقائيّ الوحيد يكمن في شنّ هجوم معاكس . بيد أنّ الخسائر والتشتّت قد أضعفت الجيش الألمانيّ بصورة تفوق الوصف . ومع ذلك فإنّ تدخّلاً سريعاً من فرقة الدبّابات ١٤ ، إلى الشمال من جيش «باولوس » ، قد أخرج الفيلق الألمانيّ من مأزقه . ولكنّ الفيلق المصفّح ٤٨ ، الذي كان يترجّح بين أوامر متناقضة ، راح يدور في ساحة القتال الجليديّة وكأنّه في دوّامة . تغشّيه جماعات الفارّين . وهو يصطدم في كلّ مكان بقوّات متفوّقة . إلى أن انتهى به المطاف إلى الفرار تجنّباً للتطويق . وأمّا «فون هايم» ، الذي أتلفت الفئران نصف مصفّحاته ، فقد اعتُبر مسؤولاً عن الكارثة وبقي أسيراً في سجن «موابيت» العسكريّ حتّى ١٩٤٥ !

في ٢٠ تشرين الثاني ، وفيما كان «فاتوتين» و «روكوسوفسكي» ينطلقان غربيّ «الدون» ، شنّ «إيريمنكو» هجوماً جنوبيّ «ستالينغراد» ، فما كان من الفيلق الألمانيّ الرابع إلاّ أن صمد للصدمة . ولكنّ الجيش الرومانيّ الرابع انهار كما انهار الجيش الثالث في الليلة السابقة . وسارع الجيش السوفياتيّ الـ ٦٠ نحو «كالاتش» ، وهي ممرّ «الدون» الرئيس ومنفذ اتّصالات «باولوس» الحيويّ ، وحين بلغه في ٢٢ كان جنود «روكوسوفسكي» قد استولوا على الجسر . أمّا عنصر المدفعيّة المضادّة للطائرات الذي كان يقوم بحراسته ، وبطّاريّة ١٥٥ الّتي كانت تقوم بتغطيته ، فلم يكونا يتوقّعان حدوث ثغرة روسيّة ، حتّى إنّ الجنود ظنّوا أنّ دبّابات « ت ـ٣٤» القادمة من «الدون» إن هي إلاّ دبّابات العدوّ الّتي استُولي عليها ، والّتي كانت تستخدمها فرقة التدريب في «كالاتش» . وما هي إلاّ دقائق معدودة حتّى كان الجسر في أيدي الروس ، فيما طُوّق الجيش السادس .

وكاد «باولوس» نفسه أن يقع في الأسر ! فقد كان في مركز قيادته في «غلوبولينسكايا» على بعد ١٥ كلم شماليّ «كالاتش» ، على ضفّة «الدون» الغربيّة ، حين أقبل الروس في الساعة ١٤ ، فأركنت الأركان

العامّة إلى الفرار فوق «الدون» المتجمّد . مخلّفة وراءها معدّات فرقة الدعاية . وآنية المطبخ . وطار «باولوس» ورئيس أركانه الجنرال «آرثر شميدث» في طائرتين وحطّا رحلهما في المقرّ العامّ الشتويّ للجيش في «نيجني تشيركايا» . على ملتقى «الدون» و«التشير» . أي خارج الجيب الذي أحدثه العدوّ . قلّما بلغت انقلابات الأوضاع حدّاً أعنف وأقسى ! فقبل ليلتين كان بميسور «باولوس» أن يعتبر أنّ احتلال «ستالينغراد» . والنصر الذي سوف يخلّد اسمه . كانا على قيد أنملة ، وفي الليلة السابقة كان قد تلقّى من قائد مجموعة الجيوش «فون فايخس» . أمراً غير متوقّع بإعادة وحداته السيّارة نحو الغرب ، وفي الصباح كان يسعى لإدراك ما قد حلّ بالجيش المجاور بهذه السرعة ، وبعد الظهر . ومن غير أن تلحق به الهزيمة . وجد نفسه في وضع مضحك . وضع جنرال انفصل عن جيشه ولاذ بالفرار قبل أوّل جنديّ من جنوده !

وبعدما أفلت «باولوس» من الفخّ اعتقد برهة أنّه يستطيع إدارة العمليّات من الخارج لإنقاذ جيشه . ولكنّ برقية من «هتلر» أرجعته إلى مفهوم الواجب القاسي : «على قائد الجيش السادس أن يعود إلى «ستالينغراد» . ولسوف يستقرّ الجيش في جبهة مغلقة بانتظار أوامر جديدة» .



رشّاشون روس يشنّون هجوماً في منطقة «سينيافينو» .

كان الوضع يتطلّب ردّة فعل سريعة . ومبادرات جريئة فإذا بتعليمات «هتلر» . الصادرة من «برشتشغادن» . تفرض التريّث من غير حراك .

كان «باولوس» على أهبة الطيران إلى «ستالينغراد» ساعة أبصر أحدّ زملائه في الشقاء . «هوث» . قائد الجيش المصفّح الرابع . كان «هوث» قد فقد كل شيء : فوحداته الألمانيّة مطوّقة في جيب «ستالينغراد» . ووحداته الرومانيّة متشتّتة في السهوب الكلموكيّة . وكان وداع بين هذين القائدين اللذين كان أحدهما يمثّل جيشاً مُباداً . والآخر يعود إلى الانضمام إلى جيش حُكم عليه بالموت . وداع صلب . ولكنّ مفعم بالعاطفة . وأقلعت طائرة «باولوس» وطارت على مستوى السهل الأبيض . ثمّ هبطت بالقرب من محطّة «غومراك» . على بعد ١٥ كلم من «ستالينغراد» . حيث كان المقرّ الجديد لقيادة الجيش قد باشر عمله .

كان «باولوس» ضابط أركان عامّة مثاليّاً . يتمتّع بسرعة في التحليل وسهولة في العرض . منذ الساعة ١٦ وجّه للقيادة العليا للجيوش البرّ تقريراً واضحاً عن وضعه الراهن : فالجيش السادس . الذي كان محاصَراً . قد احتفظ برأس جسر غربيّ «الدون» . إلّا أنّ جانبه الجنوبيّ قد انفتح . وقد أخذ وقوده يشحّ . ولم يكن لديه من المؤن إلّا ما يكفي لستّة أيّام.

كان السرد واضحاً ، ولكنّ الاستنتاج كان يفتقر إلى الحزم . فقد وقف متردّداً ، فيما احتدمت المناقشة في «نيجني تشيركايا» . فاتّخاذ شكل القنفذ الدفاعيّ ، بناء على رغبة «هتلر» ، كان يفرض تموينا جوّياً إلى أن يقطع الحلقةَ تدخّلُ جيش جديد . وأمّا قائد الجيش الجويّ الرابع ، «فولفرام فون ريشتوفن» ، فقد أبدى رأيه بصورة جازمة : إنّ تموين ٢٠٠.٠٠٠ أو ٣٠٠،٠٠٠ رجل بطريق الجوّ تفوق طاقة طيران النقل . وتكلّم جنرال المدفعيّة المضادّة للطائرات ، «مارتن فيبغ» ، في الموضوع ذاته . فقال «لباولوس» إنّه لم يبقَ أمامه غير حلّ هو إخراج جيشه من الفخّ في الحال . إلّا أنّ رأي «شميدث» ، رئيس الأركان العامّة ، كان مختلفاً ، قال إنّ التراجع قد يكون «نابوليونياً» ، فيتطلّب التخلّي عن عتاد لا حصر له ، وعن ١٥،٠٠٠ جريح . وإذ كان «باولوس» متردّداً ، فقد طلب من الفوهرر منحه حريّة التصرّف . ومجال التخلّي عن «ستالينغراد» ، في الوقت الذي يغدو فيه الجيش السادس عاجزاً عن إغلاق جانبه الجنوبيّ » .

وبعد ٢٤ ساعة كانت أفكار «باولوس» قد تطوّرت ، فبان له الوضع أشدّ قتاماً ، ولذا أبرق إلى الفوهرر يقترح إحداث ثغرة في الحال لإنقاذ «جنود قيّمين » على الأقلّ . وقد أضاف أنّ قوّاد فيالقه الخمسة يشاطرونه الرأي .

في الوقت نفسه كان قائد مجموعة الجيوش «فون فايخس» يتكلّم بحزم أشدّ . قال في «إنجيربورغ» إنّ تموين عشرين فرقة بطريق الجوّ لا يمكن أن يغطّي أكثر من عُشر حاجاتها. وسوف يفقد الجيش السادس المحاصَر في بضعة أيّام القسمَ الأكبر من قيمته القتاليّة . وأمّا محاولة إحداث الثغرة فستقود إلى خسارة كميّة من العتاد. ولكن ليس هنالك حلّ آخر لتفادي الكارثة الشاملة .

وصل «هتلر» إلى «راستنبرغ» في ٢٣ . في الساعة الواحدة صباحاً . وأمّا «زيتزلر» . الذي كان ينتظره بفارغ صبر . فقد أبلغ أنّ الفوهرر تعبٌ من جرّاء سفره . وأنّه لن يستقبل أحداً قبل منتصف النهار . فاعترض «زيتزلر» متذرّعاً بطابع الأهميّة الفائقة . وتمكّن من فرض زيارته ، وكم كانت دهشته عظيمة حين وجد أمامه رجلاً صافي الذهن! فبعدما أكبّ «هتلر» على العمل مع «جودل» في القطار . تمكّن من إيجاد خطّة ظنّ أنّها تؤول إلى تلافي أزمة «ستالينغراد» . تقوم على استدعاء فرقة أو فرقتين مصفّحتين من «القفقاس» لإعادة فتح اتّصالات الجيش السادس ، فردّ «زيتزلر» بأنّ نقل فرقة كان يتطلّب خمسة عشر يوماً. وأن الجيش السادس سيبلغ إبّان ذلك درجةَ الإعياء التامّ . وعندما اقترح إحداث ثغرة مباشرة سأله «هتلر» ما إذا كان ينوي التخلّي عن «ستالينغراد» ، وإذ أجاب «زيتزلر» بالإيجاب ضرب «هتلر» الطاولة بقبضته حنقاً وهو يصيح مردّداً : «لن أتخلّى عن «الفولغا» . لن أتخلّى عن «الفولغا» أبداً! »

وازدادت الأخبار سوءاً خلال النهار ، فالمحافظة على رأس الجسر غربيّ «الدون» قد غدت صعبة للغاية . وأعاد «زيتزلر» الكرّة . فتمكّن من زعزعة «هتلر» . وفي الساعة الثانية صباحاً اتّصل هاتفيّاً «بفون سودنشترن» . رئيس الأركان العامّة لمجموعة الجيوش «ب» ، يعلمه بأن الفوهرر قد قبل بإعادة النظر في القضيّة . وبأنّه سيعلن عن قراره في الساعة الثامنة . وأضاف قائلاً : «يبدو لي مستبعَداً أن لا يأمر «هتلر» بإحداث الثغرة من غير توان . إنّ بإمكان الجيش السادس أن يستعدّ» . ونقل «سودنشترن» النبأ هاتفيّاً إلى مركز قيادة «غومراك» ، فانتشر النبأ في الجيب محدثاً شعوراً بالارتياح يعرفه الذين يتنشّقون أوّل نفحة من الهواء النقيّ بعد إقامتهم في مكان لا منفذ له .

في الساعة ١٠ لم تكن مجموعة الجيوش قد تلقّت أمراً بعد . وانتاب «سودنشترن» القلقُ . فاتّصل هاتفيّاً «براستنبرغ» . فلم يلقَ غير طلب يدعوه إلى التذرّع بالصبر ! ولم تنقضِ دقائق معدودة حتى كانت أذن الراديو تلتقط أمراً موجّهاً مباشرة من هتلر إلى «باولوس» يدعو الجيش السادس إلى تنظيم صفوفه على الجبهة التالية : «ستالينغراد» الشماليّة . الخطّ ١٣٧ . «مارينوفكا» . «زينكو» . «ستالينغراد» الجنوبيّة . فهذه الجبهة تمتدّ بطول ٦١ كلم . وعرض ٤٠ كلم تقريباً . وكان يجب التخلّي عن رأس الجسر على «الدون» . وكان يُعتبر الباب السرّي للإفلات . وختم الفوهرر رسالته قائلاً إنّ بإمكان الجيش السادس الاتّكال عليه في أمر تموينه التموين الكافي . وفي ما يتعلّق برفع الحصار عنه في الوقت المناسب ! ..

وهكذا . لم يستطع «هتلر» التسليم بفكرة التخلّي عن «ستالينغراد» ! وحين أتاه «زيتزلر» في الساعة الثامنة سمعه يتلفّظ بعبارة جديدة : «إنّ «ستالينغراد» لقلعة ! » أجل . إنّها لكذلك ; وإنّ الجيش السادس لها بمثابة الحامية . والحامية لا تتخلّى عن القلعة التي كُلّفت بحمايتها . قال «هتلر» : «إذا اقتضى الأمر ستبقى حامية «ستالينغراد» تقاوم الحصار

اليوتنان جنرال «روكوسوفسكي» قائد جبهة «الدون» في مركز مراقبة اليوتنان جنرال «ب. باتوف» قائد الجيش ٦٤ .

طوال الشتاء . ولسوف أنقذها بهجومي الربيعيّ » . وعندما حاول «زيتزلر» تقديم البرهان على أنّ «ستالينغراد» لم تكن تملك من صفات القلعة شيئاً . عاد «هتلر» إلى الضرب بقبضته صائحاً : « لن أتخلّى عن «الفولغا» ! .. »

في ٩ تشرين الثاني . في «مونيخ» . كان «هتلر» قد تلفّظ بالكلمات التالية : «ليست هنالك قوّة في العالم تقدر على انتزاع ما قد أمسك به الجنديّ الألمانيّ ... » فكيف يقبل بأن يكذّب بهذه السرعة ؟

واستشاط «زيتزلر» غضباً . وصاح قائلاً: «يا سيّدي الفوهرر ! إنّ التخلّي عن الجيش جريمة نكراء . فهذا يعني موت ربع مليون من الجنود الشجعان أو أسرهم . وإنّ خسارة جيش كبير لتحطّم عمود الجبهة الشرقيّة الفقريّ ! » .

وما إن سمع «هتلر» كلمة جريمة حتى انتفض ، إلاّ أنّه تمالك روعه . فدقّ الجرس وطلب إلى حارس النوبة أن يدعو المارشال «كيتل» والجنرال «جودل» إلى الدخول . ثمّ أعلن بلهجة مقتنعة أنّه على وشك اتّخاذ قرار خطير . وأنّه لا يودّ التفرّد بالرأي . فهو لذلك يطلب رأي أفضل مساعديه الصريح . سأل : «مارأيك . فيلد مارشال «كيتل» ؟

فأجاب «كيتل» : «ياسيّدي الفوهرر . لا تتخلّ عن «ستالينغراد»» . قال «كيتل» هذا بلهجة مسرحيّة ، وهو في وقفة تأهّب ، وعيناه تقدحان شرراً . أمّا «جودل» فراح يقارن بين الحسنات والسيّئات ، وانتهى إلى ضرورة البقاء في «ستالينغراد» بانتظار حلّ أفضل على الأقلّ .

ولمّا سئل «زيتزلر» رأيه أصرّ على موقفه : إحداث ثغرة مباشرة . وأصغى «هتلر» بهدوء . ثمّ قال بتأدّب قارص : «جنرال ، لا بدّ أنّك لاحظت أنّني لست وحيداً في رأيي . فهذا الرأي يشاطرُنيه ضابطان هما أعلى منك رتبة وأكثر خبرة . فسألوذ إذاً بالقرار الذي اتّخذته : إنّني آمر بالدفاع عن «ستالينغراد» القلعة ! »

إلاّ أنّ هنالك نقطة واحدة كانت تكيّف الأوضاع كلّها ، وهي مدى إمكان تموين الجيش السادس بواسطة جسر جويّ . فقد حدث ذلك في الشتاء المنصرم بالنسبة لجيب «ديميانسك» . ولكنّ جيب «ديميانسك» كان يضمّ أقلّ من ١٠٠.٠٠٠ رجل . وأمّا «ستالينغراد» القلعة ففيها ثلاثة أضعاف ذاك العدد !

ووُجّه السؤال إلى الجيش السادس فأعلن أنّه بحاجة . كحدّ أدنى يوميّاً ، إلى ٧٥٠ طنّ من الذخيرة . والوقود . والعلف ، والمؤن (٤٠ طنّ من الخبز) . وعندما سئل رئيس طيران النقل عن ذلك أجاب بأنّ ٣٥٠ طنّاً هي الحدّ الأقصى لإمكاناته . وتمشّياً مع التقليد العسكريّ . اعتبر الرقم الأوّل حدّاً أعلى . والرقم الثاني حدّاً أدنى . وكان «غورنغ» . الغائب الأزليّ . في «باريس» . وبعد ما استُشير هاتفيّاً أعلن أنّ الحقيقة تقضي بالأخذ بالحلّ الوسط : فبميسور طيرانه الحربيّ أن ينزل إلى «ستالينغراد» القلعة ٥٠٠ طنّ يوميّاً . فهو بذلك كفيل بتوفير حاجات الجيش السادس الأساسيّة . وقد حمل رئيس أركانه العامّة «جيشونيك» تأكيداً «لهتلر» بهذا الصدد . ولكنّه أهمل ذكر مكالمة من «فون ريشتوفن» يطلب فيها أن يبلّغ «هتلر» عن رأيه في أنّ إقامة جسر جويّ أمر مُحال !

سقط القرار الذي اتّخذه «هتلر» على المطوّقين كالصاعقة . إنّ كلمة «قلعة» كانت تغرّ جمهوراً جاهلاً . ولكنّ الحامية كانت تدرك الأمور على حقيقتها . كانت «ستالينغراد» خراباً يباباً : فالأماكن القليلة في الدائرة المحاصَرة قد أحرقت بما فيها . وأصبحت السهوب عارية تماماً ، وفي الجبهة الشماليّة كانت أشغال تحضير الأرض قد بوشرت في الصيف . إلاّ أنّ الجبهتين . الغربيّة والجنوبيّة . لم تُتمّا بناء قناة واحدة ، فقد بات مستحيلاً حفر الأرض المتجمّدة . وفُقد الخشب الضروريّ لبناء الملاجىء . لم يبق لدى الجنود غير قماش خيامهم يتّقون به نيران العدوّ . والرياح الجليديّة التي تبلغ ٤٠ درجة تحت الصفر . وكانت ردّة الفعل الأولى لدى الجنرالات اعتراضاً شديداً ، قال «ينيكي» . قائد الفيلق الرابع . «لباولوس» : « إنّ «رايخناو» لايطيع مثل هذا الأمر » . فطأطأ «باولوس» رأسه وقال : « أنا لست «رايخناو» . » وكان يخمد اعتراضات مرؤوسيه بالحجّة التي لا تقبل أيّ جدال : على الجنديّ أن يطيع .

كان «سيدلتز كورباخ» هو الجنرال الوحيد الذي لم ينقَد كما انقاد غيره ، فقد كان مقتنعاً بالثغره لدرجة أنّه أجلى مخافره الأماميّة . وأمر بإتلاف ما لا يمكن نقله . أو ما كان من العتاد لا طائل تحته . بما في ذلك ثيابه الداخليّة الإضافيّة ومعطفه الثاني ! وحرّر «لباولوس» مذكّرة طلب أن تبلّغ لذوي الرتب العالية ، وقد ورد فيها : إنّ ٥٠٠ طائرة . تنقل ١.٠٠٠ طنّ يوميّاً . لا تقدر على تغطية حاجات الجيش السادس . وما يجدر عمله هو الإفادة من اللحظة السانحة التي ما يزال فيها العدوّ ضعيفاً في الجنوب الغربيّ من «ستالينغراد» لإحداث ثغرة باتّجاه «كوتيلنيكوفو» . وقال : « إذا كانت القيادة العليا لجيوش البرّ تحتفظ بقرارها القاضي بالصمود . فإنّني أرى أنّ واجبكم الضميريّ تجاه الجيش



«كانت خرائط الأركان تحدّد المواقع استناداً إلى المنازل في الأحياء ، واستناداً إلى ركام الخراب في المعامل» . (تشويكوف) .

والشعب يفرض عليكم بإلحاح أن تأخذوا بزمام الأمور لدرء فاجعة كبرى . ألا وهي إبادة ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل وفقدان عتادهم . أنا لا أرى للخيار مجالاً» !

إنّ اسم «سيدلتز» لصفحة من أنصع صفحات التاريخ العسكريّ البروسيّ . والسطور الآنفة الذكر . التي تُعتبر إطلاقاً أجرأ تحدّ «لهتلر» قابله به أحدُ ضبّاطه . كانت بمثابة حكم ذاتيّ بالموت . وبات «سيدلتز» ينتظر أن تأتي طائرة لتقله إلى خشبة الإعدام . ولكنّ «فون فايخس» كان قد أوقف المذكّرة . فإذا «بسيدلتز» يتلقّى أمراً بأن يشمل بقيادته جبهة الجيب الشماليّة بكاملها . وعندما سأله «باولوس» عن عزمه أجاب : «بما أنّك لن تعصى الأوامر . فإنّه لم يبقَ أمامي سوى الطاعة» .

وباشر الجسر الجويّ نشاطه . فأقلعت من مطاري «تازنيسكايا» و «موروسوفسكايا» . على عقدة «الدون» . مئة طائرة «يونكرز» من ذوات الثلاثة محرّكات . فحطّ بعضها في «بيتومنيك» . وبعضها الآخر في «غومراك» . بعدما قطعت مسافة ٢٠٠ كلم . وعادت هذه الطائرات محمّلة بالجرحى . في البداية لم تكن الخسائر التي سبّبها العدوّ بالغة . إلاّ أنّ الخسائر الناجمة عن رداءة الأحوال الجويّة . وعن إرهاق العتاد . كانت فادحة للغاية منذ اللحظة الأولى . بدأ النتاج اليوميّ بخمسين طنّاً تقريباً . ولم يرتفع إلى حدود المئة إلاّ ببطء . وكان الطيران يدعو المحاصَرين إلى الصبر بقوله إنّه كان بحاجة لبعض الوقت لكي ينظّم شؤونه .

كان الإحصاء يشير إلى وجود القوّات التالية في الجيب : الفيالق ٤. ٨. ١١ و ٥١. والفيلق المصفّح ١٤ ؛ وفرق المشاة ٤٤. ٧١. ٧٦. ٧٩. ٩٤. ١٠٠. ١١٣. ٢٩٥. ٢٩٧. ٣٠٥. ٣٧١. ٣٧٦. ٣٨٤. و ٣٨٩ ؛ والفرق الآليّة ٣ . ٢٩. و ٦٠ ؛ والفرق المصفّحة ١٤. ١٦. و ٢٤ ؛ وفيلق المدفعيّة المضادّة للطائرات الثامن ؛ وفوجَي الصواريخ ٢٤٣. و ٢٤٥ ؛ و ١٢ كتيبة هندسيّة ؛ فضلاً عن ١٤٩ تشكيلة مستقلّة . من المدفعيّة الثقيلة . إلى البريد . وفرقتين رومانيّتين . وفيلق كرواتيّ . يا له من جيش كبير . قويّ . باسل ! ..



ظهور «مانشتاين» على المسرح

في سبيل الإفراج عن ذاك الجيش الأسير استدعى «هتلر» «إيريك فون مانشتاين» ساحره العسكريّ . والقائد المخطّط الذي نازعه مجد خطّة «سيدان» . والمدفعيّ الذي سحق «سيباستوبول» . والمداور الذي حال دون رفع الحصار عن «لينينغراد» .

عشيّة ٢١ تلقّى «مانشتاين» . وهو في «فيتبسك» . أمراً بتسلّم قيادة مجموعة جيوش «الدون» . وتظهر صياغة المهمّة المسندة إليه سعة المسافة التي ما زالت تفصل القيادة العليا عن الوقائع . كما تُظهر الدَّرْك الذي انحطّ إليه التفكير العسكريّ الألمانيّ . كان على «مانشتاين» «إيقاف زحف العدوّ . وإعادة المواقع إلى ما كانت عليه سابقاً» . وهكذا غدا الجنرال «غاملان» . صاحب الأمر المأثور «رقّع واستعد» . معلّمَ قاهره !

لم يتسرّع «مانشتاين» ؛ فبدل أن يغامر بنفسه فيستقلّ الطائرة وسط العواصف الثلجيّة العاتية . سافر في قطار قيادته . ولم يصل إلى «ستاروبلسك» . مقرّ قيادة المجموعة «ب» التي كان عليه أن يجزّئها ليؤلّف قيادته ، إلاّ في ٢٤ . هنا تسنّى له أن يسبر خطورة الموقف . ويقيس ثقل المهمّة وفقر الوسائل التي مُنحها للنهوض بها .

وُضع تحت إمرة «مانشتاين» الجيش السادس (المحاصَر في «ستالينغراد» والمسمَّر إلى الحضيض بأمر «هتلر») ، والجيش الرابع المصفّح (ولم يبقَ منه غير الفرقة الآليّة ١٦) . والجيش الرومانيّ الثالث (الذي ما زال جناحه الأيسر وحده سليماً) . ثمّ الجيش الرومانيّ الرابع (وقد عانى من التلف أكثر من الجيش الثالث) . وُضعت تحت تصرّفه كذلك بقايا الفيلق المصفّح ٤٨ . ومفرزة جيش «هوليدت» . المؤلّفة من أجناد ألمانيّة ورومانيّة مختلطة ؛ وهناك ، أخيراً . عدّة فرق مصفّحة كانت في طريقها إليه ، دُعيت اثنتان منها ، وهما الـ ٢٣ القادمة من «القفقاس» والـ ٦ الآتية من «فرنسا» ، في الجنوب من «ستالينغراد» . إلى بناء جيش الدبّابات الرابع ، المكلّف بفكّ الحصار عن «باولوس» ، على أن تلحق بهما فرقة أخرى هي الـ ١٧ .

لو تمّ لمثل هذه القوّات أن تحتشد وتستريح . لما كفت للنهوض بالمهمّة المزدوجة الرامية إلى إيقاف الزحف السوفياتيّ . وإنقاذ الجيش السادس ، فكيف بها وهي تعبئة ناقصة مشتّتة ؟ فالنجدات القادمة من «فرنسا» و «القفقاس» تجرّ نفسها على خطوط حديديّة مصدّعة . والرجال يعانون أهوال الجحيم البارد في عربات مكشوفة مشرّعة لكلّ ريح . أمّا الوحدات الأخرى فموزّعة على ميدان قتال يبلغ ٨٠٠ كلم يمتدّ من «الدون» . الذي يسند إليه «هوليدت» ميسرته . حتى السهب الكلموكيّ حيث تتابع الفرقة الآليّة ١٦ . في الفراغ . مهمّة الوصل بين «القفقاس» و «الفولغا» . فمن المدهش المُعجز حقّاً أن يقف الروس على «التشير» وأمامهم «خليطٌ» جيش يتألّف من فراريّين أوقفوا في فرارهم . وجنود تابعين لسلاح الطيران . ومأذونين من جيش «باولوس» . وغيرهم . بدل أن يغيروا على «روستوف» حيث يستطيعون أن يقطعوا خطوط تراجع مجموعة الجيوش «أ» . بيد أنّ الستراتيجيّة الروسيّة المنتظمة لم تكن تبغي التسرّع . ولم تندفع لاختلاس الفرص السانحة الباهرة . وحتى لم تقدّر بدقّة تضعضعَ الخصم الماثل الذي عرفته في السنة السابقة . كان بوسع القيادة السوفياتيّة أن تفرض على «مانشتاين» معركة يائسة من أجل «روستوف» . ولكنّها تركت له فرصة القيام بمحاولة أخيرة من أجل «ستالينغراد» .

مدفع ألمانيّ من طراز «فرديناند» وقد ألقمه العدوّ ضربات الموت !

قال المارشال «إيريمنكو» : «لو توافرت لهذه المحاولة الأخيرة الجرأة الكافية لكُلِّلت بالنجاح » . وقال : «حتى ٢٤ كانون الأول لم تكن لنا في قطاع «كوتلنيكوفو» غير قوات ضئيلة. كان الجيش الـ ٥١ ضعيفاً جداً. فيما لا يمثل فيلق الفرسان الرابع إلا كثافة تقل عن كوكبة واحدة في الكيلومتر ... كان باستطاعة فرقة الدبابات السادسة الواصلة من «فرنسا» كاملة طازجة أن تشق طريقها نحو المطوقين منذ ٤ كانون الأول ... بيد أن الهتلريين ذهبوا. هذه المرة أيضاً. ضحية رتوبهم. فتكرم علينا «مانشتاين» بعشرة أيام ! ».

كان «مانشتاين» قد أعد أول الأمر مناورة عالم خبير . كان على «هوليدت» . القائم في حلقة «الدون» . أن يُغير على «كالاتش» فيستعيدها . وكان على الفيلق المصفح الـ ٤٨ . الذي أعيد تنظيمه بالاعتماد على فرقة الدبابات الثانية ، أن يكرّ . انطلاقاً من رأس الجسر الذي كان قد احتفظ به أمام «نيجني تشيركايا» ، لدعم الهجوم الرئيس الذي يشنه الفيلق المصفح الـ ٤٧، انطلاقاً من منطقة «كوتلنيكوفو». غير أن جمع «هوليدت» برمته كان مأخوذاً بالدفاع عن «التشير» ؛ أما الفيلق الـ ٤٨ فقد طُرد من رأس جسره ولم يبق بوسعه أن يشترك في الزحف. فبدلاً من أن تقوم محاولة فك الحصار على اندفاع متعدد الأطراف مركز الاتجاه ، تقلّص إلى حدود مجهود فرد يبذله الفيلق الـ ٥٧. ضُرب ٢ كانون الأول موعداً للهجوم ، ثم أرجئ إلى ٨ ، ثم إلى ١٢ ، بسبب بطء حركة النقل .

ومهما يكن من أمر ، فإن نزاعاً في وجهات النظر قد ذرّ قرنه بين «مانشتاين» و «هتلر» . كان لكل من الرجلين ، بشأن فك الحصار عن «ستالينغراد» ، نظرية تختلف عن الأخرى تمام الاختلاف ؛ فالمارشال يريد إنقاذ الجيش السادس ليضمه إلى القوات المتحركة في الجبهة الشرقية . فهو يريده ، ينساب عبر الثغرة المفتوحة لاستعادة تنظيمه في منطقة «روستوف» ؛ ويريد في الوقت ذاته أن تنسحب مجموعة الجيوش «أ» من «القفقاس» حتى «الدون» . واعتماداً على كتلة المناورة الضخمة هذه ، التي تتوافر بتقلص مسرح العمليات . يعتقد «مانشتاين» أنه قد يصبح بالإمكان حد الزحف السوفياتي ، وربما تكبيد الجيش الأحمر تلك الهزيمة الحاسمة التي طال انتظارها . وهو بالطبع يطمح إلى إدارة مجمل المعركة ، وإذ يعمد إلى إثبات ضرورة خلق قيادة عليا للجبهة الشرقية . لا يدع مجالاً للشك في هوية القائد العام الذي يفكر به : إنه هو ...

أما أن يكون «مانشتاين» أقدر من يستطيع القيام بهذا الدور . وربما القدير الأوحد . فلم يكن ذلك موضوع جدل ؛ ذاك أن ساعة «هتلر» العسكرية قد انقضت. وإن صح أنه تمخض في أول الحرب عن أفكار رائعة . وإن صح أنه قد أنقذ الجيش الألماني شتاء ١٩٤١—١٩٤٢ . وإن صح كذلك أن خطة حملته الصيفية تشكل آخر فرصة تجنب «ألمانيا» شر هزيمة شاملة . فصحيح أيضاً أنه قد أمسى بعد اليوم يمثل الخطر الأكبر والعدو الأظلم الأغشم . ذاك أن كل فكرة ستراتيجية قد امحت من عقله. فلم يبق فيه غير إرادة عاتية عمياء في الإبقاء على مكاسبه ؛ ففك الحصار عن «ستالينغراد» لا يعني في نظره استرجاع جيش بغية الإمساك من جديد بزمام المبادرة في العمليات . بل لا يمثل غير إمكانية المحافظة على القدم التي وطئ بها ضفاف «الفولغا» .

بدأ الزحف على «ستالينغراد» ناجحاً باهراً . لم تتعد قوة إحدى الفرقتين المصفحتين التابعتين للفيلق الـ ٤٧ . وهي الفرقة الـ ٢٣ . القادمة من «القفقاس» . ٤٠ دبابة ؛ أما الفرقة السادسة الآتية من «فرنسا» فكانت كاملة . وإذا بالغارة الأولى تحملها إلى شق «الأكساي» . فعبرته في ١٣ . فيما راحت الفرقة الـ ٢٣ الواقعة إلى يمينها تتقدم . مع ضعفها . بإزاء الخط الحديدي الذي كُدّس عليه ٣٠٠٠٠٠ طن من المؤن والوقود ليتزود بها المحاصرون . وفي ١٩ بلغ الجنود «الميشكوفا» بعدما قطعوا ١٣٠ كلم من المسافة الفاصلة بين الجيش الرابع المصفح والجيش السادس . والبالغة ١٨٠ كلم . وإذا بالمحررين يتبينون في السماء الأنوار الكاشفة المنبعثة من المدافعين عن «ستالينغراد» .

ومع هذا لم يقع «مانشتاين» فريسة الغرور والأوهام . لعلمه بأن الأحداث المتدافعة أمام «روستوف» لم تبق تفسح له إلا وقتاً ضيقاً محدوداً . وأنه لم يبق أمام الجيش السادس غير فرصة واحدة . ألا وهي أن يعمد إلى إسعاف نفسه بنفسه . فيمضي بسرعة للقاء «هوث» . أصدر إليه «مانشتاين» أمراً بذلك . مضاعفاً أحاديثه الهاتفية مع «باولوس» ؛ وإذ قلق لتحفظ هذا الأخير أوفد إلى الجيب أحد ضباط أركانه . الميجر «أيسمان» . الذي ما لبث أن عاد واصفاً ذلك الوضع النفسي الغريب الذي كان يعانيه قائد الجيش السادس ورئيس أركانه . وخلاصة تفكيرهما أنهما غير مسؤولين عن التطويق . وأن من حقهما بالتالي أن ينتظرا إنقاذهما . وهما . إلى ذلك . يدعيان أن إمكانية تحرك الدبابات المئة المتبقية لديهما لا تتعدى ٣٠ كلم تقريباً . بحيث تضطر إلى التوقف بسبب نفاذ الوقود فيُقضى عليها قضاء مبرماً . فيما لو شنا هجومهما قبل أن يصل «هوث» إلى تلك المسافة على الأقل . وعبثاً أجاب «أيسمان» بأن المجازفة التي يرفضان الإقدام عليها ليست شيئاً إزاء خطر الموت جوعاً وفظاعة التعفن في الأسر . فقد أصر «باولوس» و «شميدث» على موقفهما لا يلينان ؛ وإذ أعيت الحجة «أيسمان» استنصر سلطة المارشال «فون مانشتاين» ؛ فما كان منهما إلا أن استنصرا سلطة أسمى هي سلطة الفوهرر .

ذاك أن «هتلر» كان قد حظّر على حامية «ستالينغراد» أن تخرج . محيياً «زيتزلر» . الذي ما انفك يطالب بخروجها صباح مساء . أنه يعتبر الجيش السادس ناجياً من الورطة. وأنه. بدل أن يقبل بإخلاء «ستالينغراد» يفكر ببسط مغانمه على ضفاف «الفولغا» . وعندما خُيّل «لزيتزلر» أنه قد أقنعه . قدم له الأمر بفتح الثغرة ليوقع عليه . فوقع «هتلر» . ثم أضاف بخط يده هذا الشرط الذي نسف كل شيء : « مع التحفظ الواضح التالي : أن يظل الجيش ممسكاً بخط «الفولغا» ! ...»

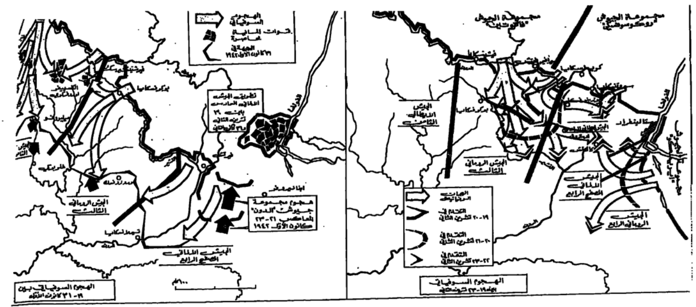
ولقد بُتّ في الموضوع على كل حال. إذ نزلت بجيوش المحور كارثة قضت على مصير الجيش المحاصر في «ستالينغراد» ؛ فبعد الهزيمة الرومانية . تجمدت الجبهة تقريباً غربي «الدون» . فحاذت مجرى النهر حتى «فيسشنكايا» . ثم انحرفت نحو الجنوب فالتقت «بالتشير» وجارته حتى ملتقاه . ثم عادت فلقيت «الدون» شمالي «بوتمكنسكايا» . لم يبق للأنهر المتجمدة أية قيمة عائقة ، أما المواقع الدفاعية فلا أثر لها . وأما السهوب فلا تعوق تقدم الدبابات إلا بثلوجها . وهبط ميزان الحرارة إلى ٣٠ أو ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر . فاستولى الذهول على الإيطاليين الذين كان حلفاؤهم قد أكدوا لهم أن البرد لا يتعدى الدرجة الخامسة أو السادسة في جنوب «روسيا» ؛ فقفّ الرجال نظراً لقلة اللباس وسوء التغذية ؛ كانت الشمس تظهر أحياناً فتخلق من الثلج سحراً . إلا أن ضباباً من جليد كان يكسو الجو عادة . ولا يتقشع إلا ليكشف عن سماء من رصاص .

أشرفت على الجبهة . من الشرق إلى الغرب . بقايا الجيش الثالث الروماني . ومفرزة من جيش «هوليدث» . والجيش الثامن الإيطالي . والجيش الثاني المجري . ولم يخف على أحد أن أضعف حلقات هذه السلسلة الطويلة كانت الحلقة الإيطالية. قلق «هتلر» لذلك . استناداً إلى

قافلة بريطانية في طريقها إلى "الاتحاد السوفياتي"

في صقيع «المحيط المتجمّد الشمالي» الأبيض راح هؤلاء البحارة يكسرون طوق الجليد على جسر مدمّرتهم . إنّها إحدى السفن التي قامت بحراسة قافلة حملت إلى «الاتحاد السوفياتي» زاداً وعتاداً . كانت طريق القوافل تمرّ بين «ايسلندا» و «غرينلاند» ، ثمّ تمتدّ شمالاً فتجاور «سبيتزبرغ» ، وتعود فتهبط جنوباً فتقطع البحر الأبيض . أمّا خاتمة مطافها فكانت «أرخانجلسك». إنّها لطريق هائلة ! فقد بلغ طولها ٧ آلاف كيلومتر ، وكانت الأخطار تحفّ بها من كلّ جانب .





مرحلتا معركة «ستالينغراد»

بحضر ١٢ كانون الأول . ولكن لم تتوافر هناك أية قوة ألمانية لدعم فرق الجنرال «غاريبولدي» ، الذي انبسطت فيالقه الأربعة ٢٩ ، و ٣٥ و ٢ ، والفيلق الجبلي ، على جبهة يبلغ طولها ٢٧٠ كلم ، وباتت تنتظر الصدمة التي كانت هيئة الأركان تتبين إعدادها كما في كتاب مفتوح .

ولقد انهالت الصدمة تلك في ١٦ كانون الأول . إذ عبر جيش الحراسة السوفياتي الأول نهر «الدون» وسط الضباب . وانقض على قلب الجبهة الإيطالية . فعاد السهب يمتلىء بجماعات المنهزمين الفارين . ولقد نقل شاهد عيان ، هو الجنرال الألماني «فريتر-بيكو» ، ذاك الانطباع الناتج عن زمر الجنود الإيطاليين ، «وليس لهم من السلاح غير قيثارة» ، السائرين نحو الغرب ، وهم ينشدون رغم قساوة البرد . وقد أبرق «هتلر» إلى «موسوليني» يطلب منه أن يناشد جنوده الكف عن الهرب ، أما «الدوتشي» الحانق فلم يجب !

تقدم الروس مسافة ٢٥ كلم منذ مساء ١٦ . ثم اتسع الزحف في الأيام التالية . فزحف الجيش السوفياتي السادس في الميمنة الروسية على «فوروشيلوفغراد» و «ستالينو» ؛ وفي الميسرة مدد جيش الحراسة الثالث ، والجيش المصفح الخامس ، الهجوم حتى جبهة «التشير» . كانت مجموعة «هوليدت» المطوقة تناضل في ظروف صعبة . فوقعت ممرات «الدونيتز» السفلى : «كامينسك» ، و «شاتينسك» ، و «فورشتاد» ، تحت التهديد المباشر ، وتعرضت «روستوف» للخطر ، وبات الألمان على وشك الوقوع في «ستالينغراد كبرى» تضم مليون رجل !

كان وضع جيش الدبابات الرابع خصوصاً متهوراً : فبينا كانت الجبهة الألمانية تنهار ، وبينا كان الهجوم الروسي يهدد «روستوف» ، كان ذاك الجيش ما يزال يتشبث بشق «ميشكوفا» ريثما يعتزم جيش «باولوس» على الخروج من «ستالينغراد» . كانت المهمة ذات الطابع المقدس ، والقاضية بإنقاذ ٢٠٠,٠٠٠ رفيق ، ترفع المعنويات ، بيد أن «هوث» ما انفك ينذر بأنه لا يتماسك في مكانه إلا بخيط واه ، وأن تراجعه بات رهين ساعات ما لم يبادر الجيش السادس إلى لقائه . إلا أن نداء أصدرته مجموعة الجيوش ، قبل الميلاد بيومين ، أتى يعجل في هذا التراجع : ذاك أن «مانشتاين» قد أطلع «هوث» على الوضع القائم غربي «الدون» ، وطلب منه أن يتخلى عن إحدى فرقه المصفحة في محاولة لتركيز القتال في منطقة «موروسوفسكايا» ، فعين «هوث» ، وقد أدرك الخطر ، الفرقة السادسة ، وهي أقوى فرقه ، فانطلقت هذه باتجاه «بوتيمكينسكايا» عبر عاصفة ثلجية ، مودية بآخر فرصة لإنقاذ محاصري «ستالينغراد» .

إحتضار الجيش السادس

بعد انقضاء عيد الميلاد خفضت حصة الخبز من ٢٠٠ غرام إلى ١٠٠ غرام . وفي أول كانون الثاني أبلغت دائرة الصحة عن أوائل الوفيات الناتجة عن الخور . فقد أثبت أنه لا يمكن تموين الجيش السادس عن طريق الجو . ولكي يفي الطيران الحربي بوعد رئيسه المذنب ، راح يقوم بمجهود بطولي لا طائل تحته ، متكبداً خسائر جعلت من «ستالينغراد» معركة جوية تضاهي بثمنها الباهظ معركة «انكلترا» : فقد فقد ٥٣٦ طائرة نقل ، و ١٤٩ مطاردة ، و ١٢٣ قاذفة . وكانت الأحوال الجوية معاكسة دوماً : فحين تكون السماء صافية فوق «ستالينغراد» تكون مقطبة الجبين في منطقة «روستوف» ، والعكس بالعكس . مما أدى إلى إعاقة انتظام الجسر الجوي إما في نقطة الانطلاق وإما في نقطة الوصول . وبما أن الروس قد استولوا على «تازينسكايا» و «موروسوفسكايا» ، فقد نقلوا مطارات الانطلاق إلى «سالسك» و «نوفوشيراسك» و «تشيرنتكوفو» ، فتضاعفت المسافة ، وانخفض نتاج الطائرات . هذا ، وإن المعدل اليومي للتسليم ، خلال الحصار بكامله ، لم يتجاوز ٩٤ طناً ، وهو معدل دون خمس ما وعد به «غورنغ» .

أخرج «هتلر» الجنرال «هوبي» من الجيب ليقلده أوراق السنديان التي أضيفت على صليبه من رتبة كوماندور . فقال «هوبي» : «ياسيدي الفوهرر ، لقد أمرت في الماضي بإعدام بعض جنرالات الجيش رمياً بالرصاص . فلماذا لا تأمر الآن بإعدام جنرال الطيران الذي وعدك بتموين «ستالينغراد» ؟ »

لقد تلاشى كل أمل في الإنقاذ ؛ «فهوث» قد تراجع ، خطوة خطوة في البدء ، والغيظ يتآكل قلبه ، ومن ثم تراجع بسرعة معجلة . وستشهد بداية ١٩٤٣ الجيش المصفح الرابع على «الكوبيرلي» ، على بعد ٢٠٠

كلم من «ستالينغراد» . فلقد بات التخلّي عن الجيش السادس أمراً واقعاً .

كان الوضع في الجيب يفوق كلّ وصف ؛ فقد خُفّضت حصّة الخبز إلى ٥٠ غراماً ، وكان الوقود نادراً جداً ، حتى أنّ الآليات الوحيدة التي أُذن باستخدامها كانت الدرّاجات النارية ذات المقعد الجانبي . وأمّا الجرحى الذين جرى إجلاؤهم فقد كانوا أولئك الذين تمكّنوا من الزحف بأنفسهم للوصول إلى المطارات . وراح الثلج يتضخّم بتلال من جُثث . جثث الرجال الذين قضوا نحبهم من الجوع والبرد .

في ٨ كانون الثاني رفرف علم أبيض في مقدّمة المخافر الأمامية . فقد قدم مفاوضون سوفيات ثلاثة يعرضون على «باولوس» استسلاماً مشرّفاً . ولكنّ «باولوس» رفضه بناء على أمر من «هتلر» ، وأمر بالردّ بالنار على كلّ محاولة جديدة للمفاوضات . وفي الغد قام الروس بالهجوم ، فدافع الألمان عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً . وكان هدف المعركة مطار «بيتومنيك» الذي كان يتحمّل أكبر قسط من النقل الجوي . فاستولى الروس عليه في١٦ . فلم يبقَ التموين ممكناً إلاّ من خلال مطار «غومراك» القاسد، ومن ثمّ بواسطة المظلاّت بعدما سقط المطار في أيدي الروس . لقد فُقد أربعة أخماس الجيب ، وأُلقي بالألمان باتّجاه «الفولغا» ، فحُجر عليهم في موضع غزوهم المشؤوم ، في أنقاض «ستالينغراد» . وفي ٢٤ كانون الثاني خاطب «باولوس» «هتلر» قائلاً إنّ استمرار المقاومة لا منطق فيه البتّة : فهنالك ١٨،٠٠٠ جريح طُرحوا في الأقبية بلا علاج ، وقد بدأ التيفوس المتفشّي يحدث أضراراً بالغة ، واستُنفدت الذخائر والمؤن ؛ لذلك طلب قائد الجيش إذناً بالاستسلام ، وقد عضد «مانشتاين» ، قائدُ مجموعة الجيوش ، هذا الطلب في مكالمة هاتفيّة مع «هتلر» استغرقت ثلاثة أرباع الساعة . إلاّ أنّ «هتلر» أصرّ على عناده قائلاً : «إنّني أحظّر الاستسلام . يجب على الجيش أن يصمد حتى آخر طلقة . إنّ بطولته لإسهام خالد في سلامة الغرب» .

واستؤنفت الهجمات الروسيّة في ٢٥ ، وفي ٢٦ اتّصل الجيش ٦٢ بالجيش ٢١ في تلّة «ماماي» ، فشُطر الجيش الألمانيّ شطرين . وفي الشمال لاذت فلول الفيلق ٥١ بالتحصّن في مصنع الجرّارات ؛ وفي الجنوب تكدّس حطام الفيالق الأربعة الأخرى في وسط المدينة ، وأقام «باولوس» آخر مقرّ عامّ له في أقبية الـ «اونيفرماغ» في الساحة الحمراء . وكان الروس في عجلة من أمرهم ، فقصفوا أنقاض «ستالينغراد» قصفاً عنيفاً ، فلم يردّ على هذا التحدّي مدفع واحد ، ولكن ، ما إن حاول المشاة التقدّم عبر الخرائب ، حتى انطلقت في وجههم آخر الرصاصات تسدّ دونهم الطريق .

في ٣٠ رفع «هتلر» «باولوس» إلى رتبة جنرال فيلد مارشال . وقال «لكيتل» : «لم يسبق قط أن استسلم مارشال ألمانيّ» . كان «هتلر» يتوقّع بالتالي من الضابط الذي رفّعه إلى أرفع المراتب العسكرية أمراً واحداً : الانتحار . ولكنّه كان يجهل أنّ «باولوس» حظر على ضبّاطه الانتحار، قائلاً إنّ عليهم أن يشاطروا جنودهم مصيرهم حتى النهاية .

في ٣١ كان القتال قد انتهى من الوجهة العمليّة . وقد وصف أحد أواخر لاسلكيّي الجيش السادس الوضع على الوجه التالي : «لقد هام الجنود على وجوههم ، والذين استمرّوا في القتال كانوا قلائل ، ولم يبقَ للقيادة أيّة فعالية ...» واستأنف بعد لحظات ، في الساعة ٥،٤٥ : «لقد وصل الروس إلى الموقع المحصّن . وستتلف الجهاز فوراً ...» وأعقبت هذا الوصفَ ، ثلاثَ مرّات ، الإشارةُ التالية : «ك.ل.ل» التي تعني : «لن تعود هذه المحطّة إلى البثّ ...» . بلغ الروس «اونيفرماغ» بالفعل . وقد آوت أقبيتها أحدث المارشالات عهداً ، أوّل مارشال للهزيمة خلقه «هتلر» . لم تنطلق رصاصة واحدة . وتقدّم مفاوض سوفياتيّ يفرض الاستسلام ، فاقتيد إلى الموقع المحصّن الذي خرج «باولوس» منه وهو شديد النحول . أجل ، إنّه يستسلم . كلاّ لم يبقَ لديه ما يغدقه على صيحة الموالاة ، على تحيّة «هايل هتلر» التي كان يطلقها في الأمس . فقد انطلق مثال ضبّاط الأركان العامّة نحو الأسر بصمت مطبق !

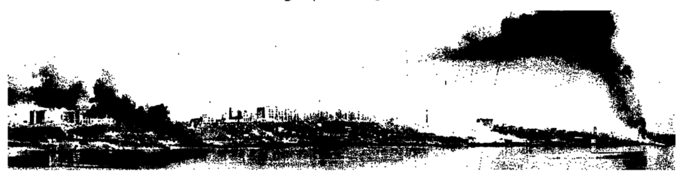
ولقد بلغتنا اللعنات التي استنزلها «هتلر» على أثر ذلك من خلال نصّها الاختزاليّ . قال : «إنّ المرء ليقتل نفسه برصاصته الأخيرة ... أنا أحتقر الجنديّ الذي يستسلم ، «كجيرو» ... في «ألمانيا» ينتحر ٢٠،٠٠٠ شخص سنوياً ، وإنّه لمن السخف أن يعجز قائد عن أن يقوم بما تقوم به امرأة مُسّ شرفها ... لن أخلق مارشالات بعد اليوم ... إنّ بطولة عشرات الآلاف من الجنود قد حجبها جبن جنديّ واحد ... سوف ترون أنّ الروس سيرغمون «باولوس» و «سيدلتز» على الكلام في الإذاعة . ولا شكّ أنّهما سيحثّان رجال الجيب ، وسيحثّان الجيش الألمانيّ بكامله ، على الاستسلام ...» .

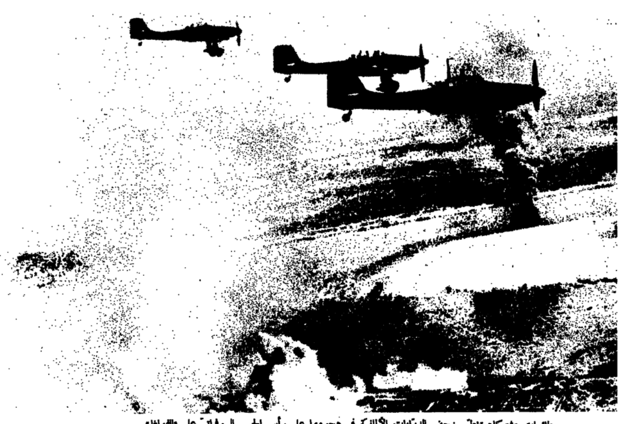
لم يحصل «باولوس» على متّسع من الوقت لحثّ «رجال الجيب» على الاستسلام : فقد استسلم الباقون منهم في ٢ شباط . وقد أخطأ «هتلر» كذلك تقدير التاريخ الذي سيدعو «باولوس» فيه الجيشَ والشعب الألمانيّين إلى إلقاء السلاح ؛ «فاللجنة الوطنيّة لتحرير ألمانيا» لم تؤسّس إلاّ في ١٣ تموز ١٩٤٣ برئاسة الكونت «بسمارك ـ إنكل» والجنرال «فون سيدلتز» . إلاّ أنّ انضمام «باولوس» إلى المقاومة الألمانيّة الخارجيّة قد استغرق من الوقت أكثر من هذين الاسمين التاريخيّين . فهو لم يشدّ عزمه على ذلك إلاّ بعد ٢٠ تموز ١٩٤٤ ، بعدما بلغته أخبار التعذيب الذي خضع له بعض الجنود الذين كان يكنّ لهم أكبر قسط من الاعتبار ، أمثال «فيتزليبن» و «هوبنر» .

قال أحد الذين كتبوا سيرة «باولوس» : «لقد وجد «باولوس» صعوبة جمّة في الوصول إلى قرار نهائيّ ؛ وكان يميّز بعناء كبير الحقّ من الباطل ...» .

إنّ أكبر المواهب العسكريّة ما كانت لتنقذ الجيش الألمانيّ من الهزيمة في ١٩٤٢ ؛ أمّا نقائص «باولوس» الخاصّة فقد أسهمت في إعطاء هذه الهزيمة طابعاً ساحقاً .

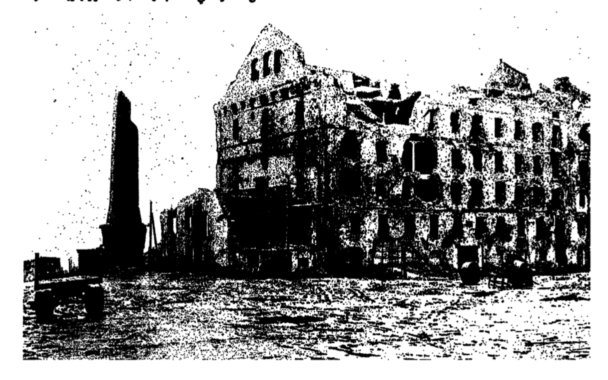
كانت «ستالينغراد» تتلقّى حصّتها من الدم الطازج اليوميّة عبر النهر .





طائرات «شتوكا» تغطّي زحف الدبّابات الألمانيّة في هجومها على رأس الجسر السوفياتيّ على «الفولغا» .

ألقاض الطاحونة التي اتّخذتها أركان الجنرال «روديمتزيف» مقرّاً .



بين أنقاض «ستالينغراد» وقف الألمان والروس وجهاً لوجه



ضابط صفّ ألمانيّ يعيّن لجنوده مواقعهم وسط أنقاض «ستالينغراد» .

ولكم انتقلت المنازل ، في اليوم الواحد ، من يد إلى يد ! في الصورة :
جنود سوفياتيّون أثناء القتال .



لا، لـيس للجبَان، هـنا، مكَان !

« إنّني أطلب من القوّات التيقّظ الكامل والبطولة القصوى ، ومن القيادة سلطة ثابتة في القتال . فلا ترتجفنّ ، في هذه المعركة الهائلة ، يد ، فليس في صفوفنا مكان للجبناء الرّعاديد !

« وإليكم جميعاً مهمّتنا المشتركة : القضاء على العدوّ في «ستالينغراد» تحقيقاً لأوّل خطوة نحو إطاحته كليّاً وتطهير بلادنا من الغزاة الغاشمين ؛ وإنّنا لبالغون هذه الغاية لا محالة ، لأنّنا نملك لها القوّة الكافية والعُدّة اللازمة . ألا فليكن عظيماً ثأركم من الوحوش ، من زبانية الحروب الذين قوّضوا قرانا ومدننا ومعاملنا ، وأراقوا دماء إخواننا الآمنين ! إنّ الوطن ليهيب بكم صائحاً ، وإنّ القيادة العليا لتتوجّه إليكم آمرةً : وقوفاً !

(الكولونيل جنرال « إريمنكو » ، والليوتنان جنرال « خروشتشيف » ، في أوّل أيلول ١٩٤٢)

رشّاشون سوفياتيّون يهاجمون أعشاش المقاومة الأخيرة في أحد أحياء « ستالينغراد » .

تحت : الروس يهاجمون منزلاً في «ستالينغراد» .





إحدى مقدّمات معركة «ستالينغراد» : دبّابات ألمانيّة تهاجم المنشآت الدفاعيّة الغربيّة في المدينة .



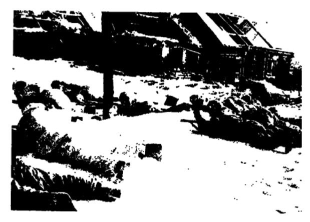
مهاجمة أحد منازل «ستالينغراد» في تشرين الأوّل ١٩٤٢
« أجل ، إنّ الحرب لفظيعة ، وإنّ العدوّ لقاسٍ »
(المارشال « إريمنكو »)



جنود ألمان يقاتلون في شوارع «ستالينغراد» .



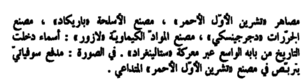
بين أنقاض مصنع «تشرين الأوّل الأحمر» .



شهد القسم الشماليّ من المدينة أدهى معارك الحرب كلّها وأضراها .
ولقد أتت أشهر الشتاء تزيدها ضراوة .



لقد هزم البردُ هؤلاء !



مصاهر «التشرين الأوّل الأحمر» ، مصنع الأسلحة «باريكاد» ، مصنع الجرّارات «دجرجينسكي» ، مصنع الموادّ الكيماويّة «لازور» : أسماء دخلت التاريخ من بابه الواسع عبر معركة «ستالينغراد» . في الصورة : مدفع سوفياتيّ يتربّص في مصنع «التشرين الأوّل الأحمر» المتداعي .



«ستالينغراد» في «أفريقيا»: مدينة «تونس»

كسفت مأساة «ستالينغراد» كلّ شيء باحتدامها الفاجع، واكتمال إخراجها المسرحيّ، فأخفت الهدف الرئيس من حملة شتاء ١٩٤٢ - ١٩٤٣، ومجمل الأحداث العسكرية التي بفضلها أفلتت «ألمانيا» بصعوبة من هزيمة مُنكرة، بل أفلتت - موقّتاً - من الهزيمة الكاملة.

ففي مطلع كانون الثاني. ولمّا يفقد محاصَرو «ستالينغراد» بعد كلّ أمل في النجاة. كان وضع الجيوش الألمانية في «روسيا» كما يلي:

١) ما زالت مجموعة «الجيوش «أ» في «القفقاس». يفصلها عن عنق زجاجة «روستوف» ٤٠٠ كلم بالنسبة للجيش السابع عشر. و ٧٠٠ كلم بالنسبة لجيش الدبّابات الأوّل.

٢) بعدما أخفق جيش الدبّابات الرابع في محاولته الرامية إلى فكّ الحصار عن «ستالينغراد». خاض غمار معركة دفاعية جنوبيّ «الدون». وهو ما زال على بعد ٤٠٠ كلم إلى الشرق من «روستوف».

٣) أمّا الروس فقد حملتهم انتصاراتهم في كانون الأوّل على «الدون» وعلى «التشير» إلى مجرى «الدونيتز» الأسفل. فباتوا على بعد ٧٠ كلم من «روستوف». وغدوا بذلك أقرب إليها ستّ مرّات من جنود «هوث». وعشرَ مرّات من جنود «فون ماكنسن» القائد الجديد لجيش الدبّابات الأوّل.

٤) إمتدّ. غربيّ «روستوف». عنق زجاجة آخر تشكّله ممرّات «الدنيبر» في «دنيبير وبيتروفسك» وفي «زابوروجي». ولقد أصبح الروس في مواقعهم في منطقة «فوروشيج» على بعد ٣٥٠ كلم منه فحسب. يقابل هذه المسافة ٧٠٠ كلم بالنسبة للجيش الألمانيّ الرابع. و ١٠٠٠٠ كلم بالنسبة لجيش الدبّابات الأوّل.

٥) أمّا على ما تبقّى من الجبهة فلم يعرف الألمان أيّة استراحة. فقد تعاقبت الهجمات العنيفة حول «رجيف» و «ديمايانسك» و «لينينغراد». وغدا سحب القوّات من الوسط والشمال، لإرسالها إلى الجنوب. من الصعوبة بمكان.

لقد تعرّض الجيش الألمانيّ للخطر خلال شتاء ١٩٤١-١٩٤٢. أوّلاً بسبب قساوة المناخ الذي جمّد جيشاً بُني للحرب المتحرّكة في المناطق المعتدلة من «أوروبا»، وشلّ حركته. ولم يتبدّل هذا المناخ في شتاء ١٩٤٣، فهو هو بما يفرضه على الجنود من آلام وبما يواجه به القيادة من عقبات. إلاّ أنّه تدحل في منزلة ثانوية إزاء الخطر المميت المحدق بالجيوش الألمانية الناتج عن الوضع الستراتيجيّ الذي خلقته أوهام «هتلر» ومطامعه. لقد أفقده عناده جيشاً كاملاً، أتراه يتمكّن من إنقاذ الجيوش الأخرى. وهو أمام خصم باسل، مُداور، يفوقه عدداً، وتلهب الانتصارات حماسته؟ أم أنّنا سنشهد انهيار الجيش الألمانيّ الكامل؟

في ٢٨ كانون الأوّل قرّر «هتلر» أن يثني مجموعة الجيوش «أ». ولم يكن بقصد التخلّي عن «القفقاس»، وإعادة قوّات «فون كلايست» بأسرع ما يمكن إلى منطقة «روستوف». كما طلب ذلك «زيتزلر» و «مانشتاين»، فالأمر يشير بدقّة إلى أنّ الحركة ستتمّ خطوةً خطوة. ويحدّد مداها: «موزتولسكويا»، «أرمافير»، و «سالسك». ذاك أنّ «هتلر» كان ينوي أن يحتفظ بين «القفقاس» و «الدون» بشرفة تبلغ ٢٠٠



في مقرّ الرئيس «روزفلت» في «الدار البيضاء»، ينمو من اليسار إلى اليمين: الجنرال «جيرو»، والرئيس «روزفلت»، والجنرال «ديغول»، و «تشرتشل».

كلم عرضاً . يأمل أن ينطلق منها مجدّداً . في مستقبل قريب . نحو المغانم التي اضطرّ إلى التخلّي عنها موقّتاً .

إستمرّ الجلاء عن المقاطعات الواقعة قبل «القفقاس» طوال شهر كانون الثاني . وعاد الألمان يجتازون ، تحت لسع البرد ، تلك الأصقاع الشاسعة التي كانوا قد قطعوها في أتّون آب اللهّاب ، يعوق تراجعَهم الأمرُ القاضي بإنقاذ العتاد كلّه . وضرورة إجلاء الجرحى ، فضلاً عن فقر طرق المواصلات . ممّا اضطرّ الجيش المصفّح الأوّل إلى طلب التوقّف خمسةً وعشرين يوماً على «الكوما» لتغطية رحيل ١٥٥ قطاراً . ولحسن حظّ الألمان أساء الجنرالات الروس إدارة المطاردة ، ممّا سيسبّب لهم متاعب ومضايقات ؛ فقد انسحب الجيش الـ ١٧ نحو «كراسنودار» من غير صعوبة تُذكَر . وتمكّن جيش الدبّابات الأوّل من أن يتخلّى عن الفيلق المصفّح ٤٠ لدعم جيش «هوث» ، الذي ترتّب عليه الإبقاء على ممرّ «روستوف» مفتوحاً لأنّه مهرب مجموعة جيوش «أ» . إتّجهت نحو «هوث» الجيوش السوفياتيّة ٥١ و ٢ و ٢٨ ، وفي كانون الثاني وصلت طليعة روسيّة إلى بعد ٤٠ كلم من «روستوف» ، وأوشكت أن تخطف المارشال «فون مانشتاين» من مقرّ قيادته في «نوفوتشركاكس» ؛ فواجه «هوث» الوضع بما عُهد عنه من برودة طبع باسمة ميزّته من غيره من الجنرالات الألمان ، فانثنى ببطء حتى وادي «مانيتش» ، وهو الحدّ الفاصل بين «أوروبا» و «آسيا» الذي احتفت الدعاية الألمانيّة باجتيازه في الصيف المنصرم !

تمركزت مفرزتا «هوليدت» و «فريتر بيكو» على «الدونيتز» شماليّ «روستوف» . ثمّ أقام الجيش الإيطاليّ الثامن حاجزاً على ٢٠٠ كلم بين «الدونيتز» و «الدون» ؛ بيد أنّ الفيلقين اللذين هُزما في كانون الأوّل يكادان يكونان صوريّين ، أمّا الفيلق الثالث ، وهو خليط من بقايا الألمان والإيطاليّين ، فمع أنّه كان يحمل اسم فيلق الدبّابات الـ ٢٤ ، لم يكن يضمّ وحدة مصفّحة واحدة ! ووقف الفيلق الجبليّ ، الذي لم يهاجَم قط ، حارساً على «الدون» من «كاليتفا» إلى «بالكا» حيث يبدأ الجيش المجريّ الثاني الممتدّ ، بفيالقه الثلاثة ، تحت قيادة الجنرال «جاني» ، حتى تخوم «فورونيج» حيث يتّصل بالجيش الألمانيّ الثاني الذي يقوده الجنرال «فون سالموث» . ثمّ تنحرف الجبهة نحو الغرب لتمضي فتلتحم قرب «كورسك» بميمنة مجموعة الوسط .

فالوضع إذاً على ما كان عليه في تشرين الثاني ، بل هو أسوأ ؛ فهنالك جبهة مترامية يبلغ طولها في خطّ مستقيم ٦٠٠ كلم يتمسّك بها نحو من أربعين وحدة كبيرة ، لا تبلغ نسبة الألمان فيها الثلث . لم يبقَ من الفرق التي تلقّت الصدمة الروسيّة إلّا صور وأطياف ، هذا إذا لم تُبَد تماماً : لم يبقَ منها غير كتيبتين أو ثلاث لا عتاد لها ، وقد أُعيد تأليفها بحشد الفراريّين . لم يُقَم موقع ثانٍ في أيّ مكان ؛ واقتصرت الأمداد التي أرسلتها قيادة جيش البرّ على نصف دزينة من الفرق ، من أصلها الفيلق المصفّح التابع لفرقة الصاعقة ، وفرقة «ألمانيا الكبرى» .

أتى هجوم كانون الثاني السوفياتيّ نسخة عن الهجومين السابقين : ركّز الروس هجومهم على قطاعين اثنين في قلب الجيش المجريّ وميمنته ، بالقرب من «كوروتجاك» و «كاليتفا» ، فثقبوا الجبهة في غير مشقّة ، ثمّ قذفوا بوحداتهم الآليّة وخيّالتهم على شكل مروحة .

لم يقاتل المجر في الواقع ، فانكسر الجانب الواقي لمواصلات الجيش الألمانيّ الحيويّة . وتحطّم للمرّة الثالثة لدى الصدمة الأولى كما يتحطّم الزجاج .

كشف التفكّك المجريّ الفيلقَ الجبليّ فأحدق به العدوّ ؛ إلّا أنّه تملّص وأفلت من التطويق ، وتمكّن ، بعد صراع دامٍ ١٥ يوماً ، من الاتّصال بقوى مصفّحة ألمانيّة على «الدونيتز» . وإذا بهذا التقهقر عبر القرّ الشديد ، ووسط حشود الأعداء ، يُنهي بمأثرة من البأس والتجلّد ذلك الإسهام الايطاليّ التاعس في حرب الجبهة الشرقيّة .

كانت الحكومة الايطاليّة قد طلبت عودة قوّاتها للدفاع عن الوطن الأمّ المهدّد ، فرفض «كيتل» أن يوفّر لها سبل النقل الحديديّة ؛ فاضطرّ الناجون من الجيش الثامن ، وهم ١١،٠٠٠ رجل من أصل ٢٣٠،٠٠٠ . أن ينسحبوا من «روسيا» سيراً على الأقدام فيقطعوا ١،٠٠٠ كلم من الطرقات المضنية !

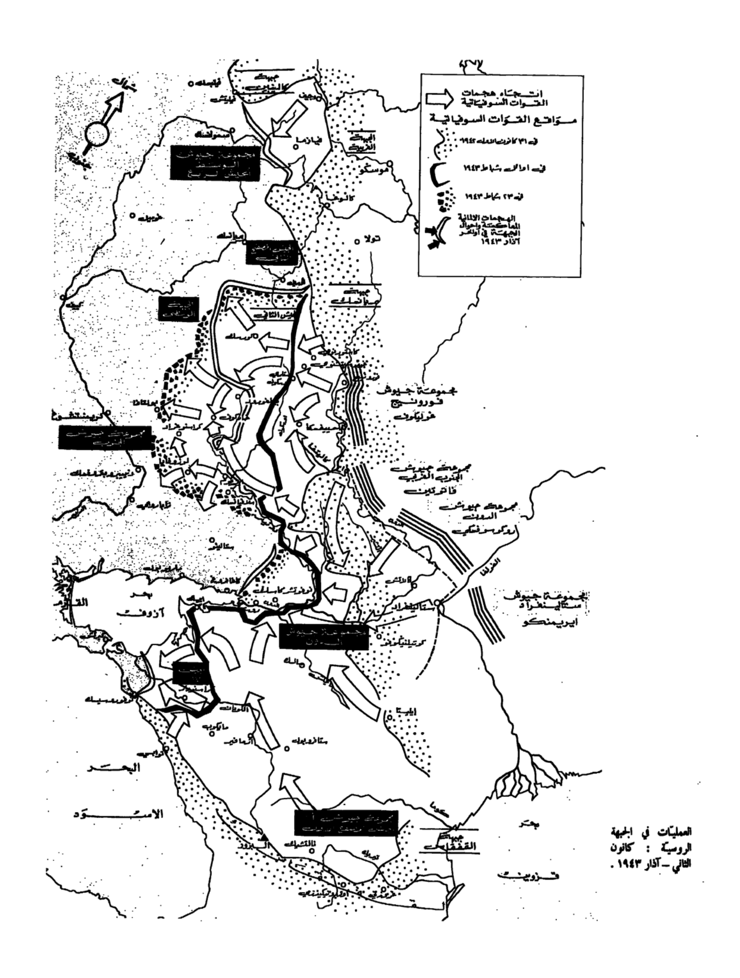
لم يكن الوضع أقلّ خطورة في قطاع «فورونيج» . فقد اجتاح الجيش السوفياتيّ الـ ٤٠ مؤخّرات الجيش الألمانيّ الثاني ، واستولى في ٢٦ كانون الثاني على عقدة طرق «غورشيتشنوي» الواقعة على ٨٠ كلم وراء الألمان . وتمكّنت إغارة منطلقة من الشمال من أن تقطع في «كاستورنوي» خطّ اتّصال «فون سالموث» الحديديّ الوحيد ؛ فتريّث «هتلر» حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يتخلّى عن فكرته الحمقاء في الدفاع عن «فورونيج» . ولم يكن للمدينة ، وحاميتُها لا تتعدّى ثلاث فرق ، إلّا أن تكون نسخة ثانية مصغّرة لمعركة «ستالينغراد» . ملأ المحاصَرون في المدينة الخَرِبة قطراً كاملة بكميّات المؤن والذخيرة المخزونة من أجل الحصار ، ولكنّ العدوّ كان قد قطع الخط الحديديّ ! ومع هذا فقد أمكن تحاشي الأسوإ ، لأنّ الفرق التي تحرّرت بهجر «فورونيج» ، وقُذفت بسرعة نحو الغرب . عادت ففتحت الممرّ . فرتّب «سالموث» جيشه بشكل رتل صفيق . وانساب به دفعة واحدة والعدوّ يكيل له الضربات على جانبيه ، فيرغمه على ترك ثلم من الأسلحة والعربات والجثث التي لا تلبث أن تتحجّر ؛ فإذا المسيرة الاضطراريّة ، في قرّ يبلغ ٢٥ درجة مئويّة تحت الصفر . وفي ريح لاسعة صافرة ، أشبه ما يكون بالتقهقر النابوليونيّ !

دبّابة سوفياتيّة على أهبة الاستعداد للهجوم في محاولة لإحداث ثغرة في حصار «لينينغراد» .



جنود الدبّابات الألمان في «خاركوف» ؛ وقد احتلّ الألمان هذه المدينة مرّتين ثمّ انتُزعت منهم .





العمليات في الجبهة الروسية : كانون الثاني ـ آذار ١٩٤٣ .



العلم الأحمر يخفق منتصراً في ساحة «ستالينغراد» الرئيسة ، في كانون الثاني ١٩٤٣ .

حاول الألمان أن يتوقّفوا على «الأوسكول» بين «الدون» و «الدونيتز» . ولكنّ تصميم الروس على القتال لم يكلّ ولم يهن ، بل إنّ نهاية موقعة «ستالينغراد» المظفّرة قد ألهبت معنويّاتهم فزال مركّب النقص الذي طالما هيمن على القيادة والجند . وإنّ «روسيا» لتشعر بالثقة من الظفر ، وهي تستمدّ من هذه الثقة الرائعة ما تمتاز به الخطط الجديدة ، التي تضعها لتحرير أرضها ، من جرأة وبسالة . ثمّة ثلاث مدن روسيّة كبيرة ينبغي تحريرها في الحال وهي : «كورسك» ، و «خاركوف» ، و «روستوف» ؛ وثمّة هدف ستراتيجيّ حاسم لابدّ من بلوغه هو ممرّات «الدنيبير» . فلو تمكّنت القوّات الروسيّة من استخلاصها لحقّقت مشروع «ستالينغراد الكبرى» الذي يُقلق خواطر الجنرالات الألمان ويقضّ عليهم مضاجعهم .

سجّل الألمان من ناحيتهم نتيجة ذات شأن ، إذ أنقذوا جيشيهما المصفّحين الأوّل والرابع ولو موقّتاً ، عقب نزاع مزدوج ناهضوا به الروس و «هتلر» معاً .

فكّر «مانشتاين» بنقل هذين الجيشين المصفّحين إلى الجناح الشماليّ من مجموعة جيوشه، لقهر القوّات الروسيّة المتقدّمة باتّجاه «الدنيبير» . وفكّر «هتلر» بالإبقاء عليها جنوبيّ «الدون» متأهّبة للعودة إلى احتلال «القفقاس» . ولم يقبل «هتلر» بتعديل خطّته إلاّ في ٢٢ كانون الثاني ، بحيث يبقى الجيش السابع عشر وحده في «الكوبان» فتتولّى «القرم» تزويده عبر مضيق «كيرتش» ، فيما يعود جيش الدبّابات الأوّل إلى عبور «الدون» . ولكنّ هذا الجيش كان ما يزال في «أرمافير» على بعد ٣٠٠ كلم ، وكان بالتالي لا بدّ من الإبقاء على ممرّ «روستوف» مفتوحاً فترة من الوقت كافية لتمكّنه من الانسياب . والحال أنّ الروس قد بلغوا المطار في ٢٠ ، وبات الممرّ بذلك في حكم المقفل !

غامر «مانشتاين» بما لديه ، ومع أنّ جبهة «الدونيتز» كانت تنذر بالانهيار ، فقد نقل إلى جنوبيّ «الدون» فرقتي الدبّابات ٧ و ١١ اللتين تمكّنتا، بهجومهما المعاكس القصير العنيف ، من كنس الروس حتى وادي «المانيتش» الأسفل . بدأت مصفّحات «ماكنسن» عبور جسر «روستوف» في ٣١ كانون الثاني عائدة من أقصى نقطة وصل إليها الجنود الألمان ، ومع أنّها لم تُهزم ، فقد أنزلت بها مسيرتها التراجعيّة الطويلة تلفاً بليغاً . وبقيت وحدات كثيرة ، منها الفرقة الخمسون برمّتها ، في رأس جسر «كوبان» حيث احتشد ، من غير جدوى ، ٤٠٠،٠٠٠ رجل . ولم يفِد «مانشتاين» من إنقاذ جيش «ماكنسن» إلاّ أربع فرق، بينها اثنتان مصفّحتان .

طُرحت إذ ذاك على القيادة الألمانيّة مشكلة مؤلمة ، ألا وهي حلقة «الدونيتز» . فلو أصرّ الألمان على الاحتفاظ بها لاضطرّوا الى الإقدام على معركة ضارية في تلك الناتئة ، فيما يشتدّ الضغط نحو «الدنيبير» ، ويتفاقم خطر تطويق الجناح الأيمن بكامله على بعد ٤٠٠ كلم غرباً ، ساعة بعد ساعة .

أستُدعي «مانشتاين» إلى «رستنبورغ» في ٦ شباط حيث أثار مشادّة مضنية ؛ فالأراضي التي يقترح التضحية بها ، من أجل استرجاع قوّاته المتحرّكة والإفراج عن ميسرته ، تنتمي إلى المنطقة الكبيرة الغنيّة بالمناجم ومصانع الصلب التي يصرّ «هتلر» على أن لا غنى له عنها من أجل متابعة الحرب ، خاصّة بعدما عمد أخصّائيّون ألمان إلى فتح المناجم والمصانع . ولكي لا يتخلّى «هتلر» عن فتوحاته أخذ يناضل نضالاً حثيثاً حارّاً ضدّ أفضل جنرالاته . ألا يستطيع «مانشتاين» أن يتريّث قليلاً قبل أن يقدم على التضحية ؟ ألا يكون الروس ، الذين أصيبوا بخسائر فادحة ، قد استنفدوا قواهم ؟ أيكون الوضع ناحية «الدنيبير» في الواقع مريعاً إلى هذا الحدّ ؟ والفيلق المصفّح التابع لفرقة الصاعقة الذي أُرسل إلى هذه المنطقة . ألا يكفي لتركيز الوضع ؟ ثمّ ، ألا يبشّر ذوبان الصقيع المبكر ، وارتخاء الطرقات، وبدء ذوبان الثلوج، باقتراب فصل الوحول وتوقّف العمليّات النشيطة الوشيك ؟ أجاب «مانشتاين» أنّه لا يجوز الركون إلى آمال واهية كهذه للمجازفة بمصير الجيش ؛ وكانت فاجعة «ستالينغراد» من حداثة العهد بحيث لم يجرؤ «هتلر» على إصدار أمر بالانحصار في «روستوف» . وعاد «مانشتاين» وقد مُدّدت سلطته حتى غربيّ «خاركوف» ، بعد ما أُلغيت المجموعة «ب» وأُلحق الجيش الثاني بمجموعة الوسط . أمّا مجموعة «الدون» ، التي لم تبقَ تَمتّ إلى «الدون» بصلة ، فستُدعى بعد الآن مجموعة الجنوب .

إستعاد الروس «روستوف» للمرّة الثانية في ١٤ شباط ؛ وفي ١٧ منه . عادت مفرزة «هوليدت» إلى عبور «الميوس» ، فعادت الجيوش الألمانيّة بذلك إلى مواقع الربيع ، بعدما تقدّمت ، ثمّ تراجعت ، على التوالي مسافة ٨٠٠ كلم — أي ما يعادل ، من حيث الوقت والمسافة — الحملة التي قام بها جيش «نابوليون» على «موسكو» ذهاباً وإياباً .

وحلّ بالجيش الألمانيّ و «بألمانيا» ما حلّ بذلك الجيش و «بفرنسا» يومذاك ؛ فقد خارت قواهما في تينك المسيرتين المتعاكستين المدهشتين . أُبيدت في «ستالينغراد» عشرون فرقة ، فيما تهرّأ غيرها ، وتبخّرت أربعة جيوش حليفة . أمّا العتاد البشريّ القادم حديثاً من «ألمانيا» ومن البلاد المحتلّة ، فلا يساوي القوّات التي بُذلت ، لا من قريب ولا من بعيد . ومهما يكن من أمر فإنّ معركة الشتاء لم تنتهِ بعد . فُقدت عشرون فرقة في «ستالينغراد» ، ولكنّ التطويق يهدّد من جديد ضعف هذا العدد في المثلّث الواقع بين «نيكوبول» و «خاركوف» و «تاغنروغ» . فهل يُكتب لها الخلاص ؟

أُستؤنف الزحف الروسيّ في ٢ شباط بحملة شنّها الجيش الـ ٦٩ والجيش الـ ٣ المصفّح على ضواحي «ستاري أوسكول» ، وامتدّ في الغد نحو الشمال بدخول الجيشين الـ ٤٠ و الـ ٦٠ إلى الميدان . حُرّرت «كورسك» في ٨ ، وفي ٩ تمّ الوصول إلى «الدونيتز» ، كما تمّ تحرير مدينة كبيرة أخرى هي «بيلغورود» ؛ فاستغلّ الجنرال «موسكاليكو» ، قائد الجيش الـ ٤٠ ، تفوّقه بجرأة وبسالة ، فانقضّ على «خاركوف» ، وفي ١٥ أدرك أبواب المدينة الكبيرة (٩٠٠،٠٠٠ نفس) ، عاصمة «أوكرانيا» الثانية ؛ فأصدر «هتلر» أمره بالدفاع عنها حتى الرصاصة الأخيرة — كما فعل بشأن «ستالينغراد» — بيد أنّ أمراً خارقاً قد جرى وكأنّه من تدبير العناية : فقد أقدم قائد الفيلق المصفّح التابع لفرقة الصاعقة على التمرّد ، فغادر «خاركوف» إنقاذاً لفيلقه ؛ فدخل الروس المدينة في ١٦ شباط وكادوا لا يتجشّمون قتالاً .

كان لهذا الحدث الذي عقب سقوط «روستوف» فوراً ، فجارى الجلاء عن «ديميانسك» بعد خمسة عشر يوماً من استسلام «ستالينغراد» ؛ وقعٌ مرير من الأسى والذهول في «ألمانيا» . لقد انهارت الجبهة الشرقيّة !

وانحلّ الألمان الذين لا يُقهرون . بعد الرومان والإيطاليّين والمجر !

واستمرّ الزحف ، فأضحت ٥٠٠ كلم من ضفاف «الدنيبير» عرضة للخطر . وسارت الجيوش الظافرة في «خاركوف» باتّجاه «كريمنتشوغ» ، ولم يبقَ الجيش السوفياتيّ السادس الزاحف على «الدنيبير» الأوسط إلاّ على بعد ٢٠٠ كلم من «دنيبيرو بتروفسك» ؛ وإذا به يجتاز ثلثي هذه المسافة في ثمانية أيّام ، فيقطع الاستيلاءُ على عقدة الخطوط الحديديّة في «لوزوفايا» أحدَ خطوط تموين مجموعة «مانشتاين» ، ويقطع انتزاعُ محطّة «سيزيتنيكوفو» خطّاً آخر ، فلا يبقى له غير خطّ ثالث يعبر «الدنيبير» في «زابوروجي» ، وهو خطّ يكاد الروس يبلغونه ! لم يُسند أمر الدفاع عن النهر إلاّ إلى وحدات من المدفعيّة المضادّة للطائرات يساندها بعض قوى الدرك وبعض تشكيلات استحدثتها الظروف ، تألّفت من رجال مصالح الخدمة . وهكذا أوشكت مأساة «كالاتش» أن تتكرّر على «الدنيبير» !

وتصدّع الجيش الألمانيّ من جديد شرقيّ مجموعة الجيوش كذلك ، فلقد اقتحم فيلق سوفياتيّ مصفّح مجرى «الميوس» في «متفيجفكورغان» ، كما اقتحم فيلق من الخيّالة مجرى «الدونيتز» . وبدل أن يستخدم «مانشتاين» الجيش الأوّل المصفّح للإفراج عن ميسرته المهدّدة اضطرّ إلى أن يكرّسه لدعم ميمنته المتداعية ، ولم يبقَ له من أجل إنقاذ ممرّات «الدنيبير» إلاّ جيش الدبّابات الرابع القادم من «الدون» ، والذي يعوق سيرَه بدءُ الذوبان . أفتراه يصل قبل فوات الأوان ؟

كان الوضع من الخطورة بحيث أقدم «هتلر» على ما لم يُقدم عليه أيّام أهوال «ستالينغراد» . أجل ، لقد أزعج نفسه ، فإذا «بمانشتاين» يراه في ١٧ شباط مقبلاً إلى «زوبوروجي» ، مقرّ قيادة مجموعة الجيوش ، وهو بكلمة أخرى ، مكان يتمتّع بطمأنينة تامّة في ظروف الحرب العاديّة ! بيد أنّ الظروف لم تكن عاديّة : فهناك لواء روسيّ مصفّح يطوف على بعد ٥٠ كلم فحسب ، والجيش الوحيد المدافع عن «زوبوروجي» هو لواء الحرس الخاصّ بمقرّ القيادة . لم يتنفّس «مانشتاين» إلاّ بعد ٤٨ ساعة : حين أقلعت الطائرة التي أقلّت «هتلر» ، يُحدق بها سرب من طائرات «مسرشميت» .

كان لذاك القلق حسنة : فالخوف الذي حلّ «بهتلر» جعله يدرك أنّ الموقف خطير . كان قد أتى وفي نيّته أن يسترجع «خاركوف» في الحال ، بعدما مسّ فقدها وتر الهيبة الحسّاس المؤلم ، فإذا به يرضى بالإقلاع عن عزمه . وبدل أن ينطلق الفيلق المصفّح التابع لفرقة الصاعقة نحو الشمال ، احتشد حول «بافلوغراد» للإسهام في الهجوم المعاكس الذي سيقوم به جيش الدبّابات الرابع . وهكذا شنّ «هوث» هجومه على جانبي الناتئة الروسيّة العميقة معتمداً على خمس فرق سريعة هي فرقتا الدبّابات ٤٨ و ٥٧ ، وفرقة «الصاعقة النموذجيّة» ، وفرقة «الرايخ» . و «توتنكوف» .

٢٦ كانون الثاني ١٩٤٣ . إحدى مراحل المعركة قرب «رجيف» ، على مجرى «الفولغا» الأعلى ، غربيّ «موسكو» .



وفجأة انقلب الوضع رأساً على عقب . وهنا يقرّ المؤرّخ «بلاتونوف» بأنّ القيادة السوفياتيّة قد ارتكبت خطأً إذ ظنّت أنّ الألمان قد عادوا فعبروا «الدنيبير» ، وأنّ النصر قد بلغ طور المطاردة ، فإذا بالهجوم المعاكس ، وقد أحسن حشده وأحسنت قيادته ، يقع على قوّات سوفياتيّة متبعثرة تفتقر إلى الذخيرة ؛ وما حلّ أوّل آذار حتّى أبعد كلّ خطر يهدّد «الدنيبير» . أحصيت الجثث الروسيّة الساقطة في حومة الوغى فإذا هي ٢٣،٠٠٠ ؛ واستولى الألمان على ٦١٥ دبّابة ، و٣٥٤ مدفعاً ، ولكنّهم لم يأسروا غير ٦،٠٠٠ رجل ، لأنّ الروس كانوا إذ ذاك يفضّلون الموت على الاستسلام . ودّ «مانشتاين» لو يتوقّف عند هذا الحدّ ، بيد أنّ «هتلر» لم ينسَ «خاركوف» . وبأمر منه طوّق «هوث» المدينة وأعاد احتلالها في ١٤ آذار على يد فرقة «ألمانيا الكبرى» ؛ وعادت الجبهة الألمانيّة فانتقلت حتّى تخوم «فوروشيلوفغراد» على «الدونيتز» ، وحتّى «تاغنروغ» على «الميوس» ؛ ثمّ فصلت المتحاربين هدنةُ الوحل التي تحلّ مرّتين في السنة .

وهكذا أُنقذ الجيش الألمانيّ بعد ما حاذى الهزيمة. ونتج عن هذه العمليّة ، التي أدارها «مانشتاين» إدارة معلّم بارع ، درسٌ عسكريّ واضح : إذا كان الألمان ما زالوا يحتفظون بشيء من التفوّق ، ففي حرب الحركة وفي المداورة ، وطالما أنّهم يتمتّعون بفضل القتال في عقر دار العدوّ ، فليس للمدن المفقودة ، ولا للأرض المتروكة ، أيّة قيمة . وطريقة الزحف التي اعتمدوها عام ١٩٤١ في مسيرتهم على «موسكو» ، وعام ١٩٤٢ في مسيرتهم على «القفقاس» ، لم تبقَ في متناول إمكاناتهم ؛ فموقف الدفاع الجامد على جبهة يستحيل عليهم ملؤها يقضي عليهم بتحمّل تفوّق العدوّ المادّيّ . أمّا الستراتيجيّة الوحيدة المؤاتية لقوّتهم فهي في الدفاع ـ الهجوميّ ، الذي يعتمد الردّ كما يعتمد مناورة قوى الاحتياطيّ . غير أنّ ذلك يقضي بتقصير شديد للجبهة ، وبالانكفاء إلى خطّ «الدونا» و «الدنيبير» ، أو ، بكلمة أخرى ، بالتخلّي عن القسم الصناعيّ من «أوكرانيا» ، وعن «روسيا» الوسطى بكاملها ، وعن جبهات «لينينغراد» المتوغّلة . ولكنّ القبول بذلك كان يفرض على «هتلر» ألاّ يبقى «هتلر» !

«هتلر» ينجو من محاولتي اغتيال

إنّ هذا الحدث الجسيم لم يحدث قط . «فهتلر» لم يمت . كان مفروضاً أن يموت في ١٣ آذار ، إلاّ أنّ عناية إلهيّة خاصّة قد شملته بعطفها .

إستمرّت المؤامرة ضدّ «هتلر» في جوّ مفعم بالصعوبات الفائقة وبالمهالك الشنيعة . وراح الرؤساء المدنيّون والعسكريّون كـ «غورديلير» ، و «فيتزليين» ، و «بك» ، يلملمون أطرافها التي لا تنفكّ تتشوّش أو تتحطّم . فلقد تغلبّوا على تردّدهم الضميريّ ، وأقرّوا نهائياً بأنّ في اغتيال الطاغية السبيلَ الوحيد للخلاص الألمانيّ . ففي الأوساط العسكريّة ، وفي الأركان العامّة خاصّة ، كانت نتيجة التضحية القاسية بالجيش السادس في «ستالينغراد» أن تحرّكت الأحقاد بغليان شديد . ومن بين الضبّاط الفتيان كان كثيرون على استعداد لانتحال شخصيّة «بروتوس» . وكان معظم هؤلاء الضبّاط ينتمون إلى الأرستوقراطيّة العالية . ولكنّ اغتيال «هتلر» عمليّة صعبة : فهو يرتدي صدرة واقية من الرصاص ، وداخلُ قبّعته مصفّح . وهو لا يتناول أيّ طعام قبل أن يذوقه طبيبه الخاصّ ؛ وأمّا تنقّلاته فتحفّ بها سريّة كاملة وفرص الاقتراب منه نادرة جداً . وهو محاط بحراسة من كلّ صوب .

« اعقد السّلم مع « روسيا » (من كلام « موسوليني » إلى « هتلر » .)

كان الماجور جنرال «هننغ فون ترشكوف» . وهو من عائلة عسكريّة عريقة ، أعلى الضبّاط رتبة في أركان مجموعة جيوش الوسط العامّة . ولقد حاول أن يحثّ على الانقلاب العسكريّ قريبَه المارشال «فون بوك» ، ثمّ خلَفَه «فون كلوغي» . كانت الخطّة تهدف إلى القضاء على «هتلر» خلال إحدى زياراته إلى «سمولنسك» ، مقرّ مجموعة الجيوش العامّ . وأخذ البارون «فون بوسليغر» ، قائد فوج الحرس ، على عاتقه إنجاز المهمّة مصرّحاً بأنه واثق كل الثقة من مرؤوسيه . بيد أنّ «كلوغي» ردّ بأنّ الوضع العسكريّ لم يكن متأزّماً لدرجة تدعو إلى القيام بعمل جذريّ ؛ فالأمّة والجيش لن يفهما . وقرّر «ترشكوف» ومساعده الليوتنان «فابيان فون شلابرندورف» أن يقوما بالمهمّة منفردين . وبواسطة متفجّرات وفتيل من صنع انكليزيّ حصلا عليها من أحد المتآمرين، عمدا إلى صنع قنبلتين بشكل قنّينتين. وفي ١٣ آذار وصل «هتلر» إلى «سمولنسك» تحيط به جماعة من رجال الصاعقة الذين كان تيقّظهم الفائق يشير إلى أنّ شكوكاً خاصّة كانت تخامر «هتلر» . وعندما قفل «هتلر» عائداً ، حملت طائرته



قافلة ألمانية على بحيرة « إلمن » جنوبيّ « نوفغورود » .

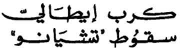
معها القنبلتين وهما مُعمّلتان بإتقان . كان «شلابرندورف» قد سلّم الآلة الجهنّميّة إلى كولونيل من الحاشية ، وطلب منه أن يسلّم قنّينتي الكونياك هاتين إلى الجنرال «هلموث ستيف» من قبل الجنرال «فون ترشكوف» . إنقضت ساعة ، ثمّ ساعتان . وتلقّى مركز «برلين» الكلمة الاصطلاحيّة التي تفيد أنّ المحاولة كانت قيد التنفيذ . وبات «ترشكوف» مع مجموعة «سمولنسك» يترقّبون من أحد لاسلكيّي إحدى مقاتلات المواكبة النبأ الذي يعلن عن تفجّر طائرة الفوهرر في الجوّ. ولكنّ النبأ الذي بلغهم من «مينسك» قد أعلن أنّ الفوهرر قد هبط إلى الأرض من غير أذى ...

إلاّ أنّ المتآمرين قد أنقذوا الوضع . فألغوا انطلاق الانقلاب العسكريّ في الوقت المناسب . واتّصل «شلابرندورف» هاتفياً بالكولونيل الذي جعل منه منفّذاً غافلاً للمهمّة وضحيّة لها ، وطلب إليه ألاّ يسلّم الرزمة ؛ وفي الغد ذهب إلى «رستنبورغ» لاسترجاعها بأمر موقّع من «ترشكوف» . وبعدما فتح العلبة وجد أنّ الحامض كان قد أشعل القادح بعدما قرض



الشريط المعدنيّ ، ولكن الكبسولات لم تتفجّر تحت تأثير الصدمة .

وبعد أيّام قام المتآمرون بمحاولة أخرى لنسف «هتلر» في «مصنع الذخيرة» في «برلين» فيما يزور معرضاً يعود ريعه لجنود الجبهة ؛ ولكنّ هذه المحاولة أخفقت أيضاً . فكان على المتآمرين أن ينتظروا سانحة أخرى .



في كانون الأوّل وصل الكونت «تشيانو» إلى مقرّ الفوهرر العامّ ، في الوقت الذي كان الجيش الإيطاليّ يندحر فيه على «الدون» . وكانت رحلته الطويلة في القطار الحديديّ قد وفّرت له وقتاً كافياً للتدرّب على حدّة سخطه ضد «أولئك الألمان الأغبياء» ، و «ريبنتروب» «ذلك السافل» .



المحارب المرهَق !

وهتلر «ذاك المجرم». وقد لعب جوّ «رستنبورغ» دوراً حاسماً في إفعام روحه بالكرب والحقد. فقد أشار قائلاً: «لم تكن هنالك لمسة ملوّنة زاهية واحدة، إنّما رائحة مطبخ. ونبرات عسكريّة، وأحذية». وكانت أنباء الجبهة المفجعة، وهرب الجيش الإيطاليّ، تزيد من قتام ذلك النهار الذي لم يعرف للشعاع مرأى. فلحقت الشتائم ببعض ضبّاط حاشية المارشال «كافاليرو»، وخُيّل للإيطاليّين، وهم في قُطُر النوم الخاصّة بهم. أنّهم محتجزون كأسرى.

أمّا الرسالة التي بعث بها «موسوليني» إلى «هتلر» مع صهره فقد كانت التالية: «اعقد السلم مع روسيا»!

وراح «تشيانو» يدافع عن حجج «الدوتشي»: إنّ حرب «روسيا» لا مغزى لها. فالخطر كامن في الغرب، لقد بادر الانكلوسكسون إلى الهجوم في «المتوسّط»، وستتفشّى عمليّاتهم إلى «أوروبا» خلال السنة المقبلة؛ كان ينبغي على «ألمانيا» بالتالي أن تضع حدّاً للحرب على جبهتين؛ كان عليها أن تعقد «بريست ـ ليتوفسك» جديدة بتوجيهها «روسيا» شطر «الهند» و «الخليج الفارسيّ»؛ وإذا تعذّر هذا الأمر للحال، كان ينبغي وضع الجبهة الروسيّة موضع الدفاع، وتسيير معظم الجيش الألمانيّ ضدّ الغرب.

وراح «هتلر» يصغي بفارغ صبر إلى هذا العرض الذي كان يشجب السياسة الشاملة التي انتهجها منذ ١٩٤١؛ ثمّ أجاب بأنّه حاول منذ ١٩٤٠ أن يسلّط أنظار الروس على «الهند» و «إيران»، وأنّهم قد رفضوا الاكتراث لكونهم يتّبعون سياسة «بطرس الأكبر» باتّجاه «البلطيق» والمضائق. فإن كان هو. «هتلر»، قد هاجم، فلأنّه قد استبق النيّات العدوانيّة. محبطاً بذلك استعدادات «الاتّحاد السوفياتيّ». فالصعوبات الموقّتة يجب ألاّ تزيل من الأذهان المنجزاتِ الكبار التي تمّ تحقيقها: فلقد أبعد الروس ١٠٥٠٠ كلم. وبات الخطر الذي يشكّلونه أقلّ بكثير. وكالمعتاد كان الشتاء موآتياً لهم، إلاّ أنّ الحملة الصيفيّة ستجهز عليهم.

قطع «تشيانو» النقاش قائلاً إنّه سينقل إلى «الدوتشي» تصريحات الفوهرر بحذافيرها. فالمشادّة قد انتهت موقّتاً، إلاّ أنّ الخشونة وانعدام الثقة تفاقما في كلا الجانبين. وراح الإيطاليّون يقيسون بحقد الهوّة السحيقة التي جرّ نظامَهم وبلدَهم إليها رجلٌ مصاب بمرض العظمة كان يضعهم منذ البدء أمام الأمر الواقع. كان الألمان يعلمون أنّ «إيطاليا» تحاول التحرّر من ارتباطاتها. وأنّ «موسوليني»، رغم إخلاصه للتحالف، يزداد ضعفاً وانفراداً يوماً بعد يوم.

وبعد انطواء الصفحة الروسيّة اتّجه النقاش شطر «المتوسّط». قال «هتلر»: إنّنا نخوض الحرب الفونيّة الرابعة (١)؛ وكون «تونس» قد استعادت أهميّة ستراتيجيّة استثنائيّة ليس مجرّد صدفة؛ ونتيجة القتال الذي يدور فيها وقفٌ على النقل دون سواه. فإن تعذّر تأمين هذا النقل في شروط مرضية اعتُبر كلّ سلاح وكلّ جنديّ يُنقل إلى «أفريقيا الشماليّة» مفقودين سلفاً. وأمّا في غير هذا الوضع، فسترى «ألمانيا» نفسها قادرة على استعادة «الجزائر» و «المغرب»، ولسوف يتبدّل موقف «فرنكو» سريعاً بعد أن يصل جنودها إلى «مليلة». ولكن، هل البحريّة الإيطاليّة مستعدّة للقيام بالتضحيات الضروريّة لكي يؤول التدخّل الانكلو ـ سكسونيّ في «أفريقيا الشماليّة» إلى انتصار باهر «للمحور»؟ هنا تكمن المشكلة. وقد شدّد «كيتل» على هذه النقطة بقوله: «إنّ مصير الحرب بين أيدي بحّارتكم!».

تخلّل المحاورةَ الألمانيّة الإيطاليّة وجهٌ غير مألوف. فلقد استُدعي «لافال» لسبب مجهول، فقضى في القطار ثمانين ساعة لكي يحظى بمقابلة مدّتُها ساعتان، تكلّم خلالها مدّة عشرين دقيقة كي يطلب إذناً بحلّ المؤسّسات الهتلريّة المتطرّفة التي كانت تناهضه. ولكنّ «هتلر» رفض ذلك منتزعاً من عميله هذا جملةَ التنهّد التالية: «إنّه ليصعب حكم «فرنسا» في حين يصرخ كلّ من فيها: الموت «للافال»! وصرّح «هتلر» «لتشيانو» بأنّه قد فقد كلّ رجاء من الفرنسيّين، قال: «إنّ «بيتان» آلة منفوخة تنهار على بعضها. وإنّه لمن صالحنا أن نعمل على نفخها من وقت لآخر».

عاد «تشيانو» إلى «إيطاليا» فوجد عاصمة تضجّ بالانهزاميّة؛ وأمّا «موسوليني»، الذي كان مريضاً، فقد خاب ظنّه لردّة فعل «هتلر» وانكفأ على نفسه في منزله، وما لبث أن غادره عائداً بعد ثلاثة أسابيع. وفي ٥ شباط دخل «تشيانو» إلى مكتب حَميه فإذا «بموسوليني» يسأله بغتة ما إذا كان يرضى بتسميته حاكماً على «ألبانيا»؛ فما كان من «تشيانو»، الذي كاد لا يدهشه السؤال، وقد شعر أنّ شيئاً مريباً سيحدث، إلاّ أن أجاب بأنّه يفضّل السفارة لدى «الفاتيكان». وقبل «الدوتشي» رغبته، ثمّ حاول التراجع، بيد أنّ «تشيانو» كان قد هرع للحصول على موافقة أمانة السرّ البابويّة. ولذا بات مُحالاً أن يتراجع عن تسميته من غير أن يُلحق الإهانة بقداسة البابا.

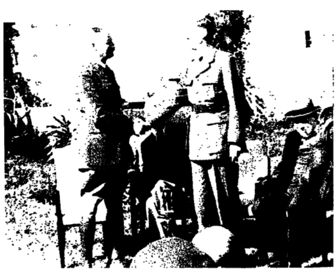


هكذا كان مصير عشرات الألوف من الألمان في «ستالينغراد».

لم يكن صرف وزير الخارجيّة إجراء منفرداً. فلقد أُقيل الوزراء كافّة. كان «الدوتشي» شغوفاً بتبديلات الحرس الطنّانة هذه، ولكنّ الناس قد ألفوا التفكير بأن صهره كان يدور في فلك خاصّ؛ لذلك كان فقدانه الحظوةَ ينذر بتصدّعات عميقة.

كان الألمان مرتبكين. فهم يعتبرون «تشيانو» عميلاً انكليزيّاً، إلاّ أنّ تعيينه في «الفاتيكان»، أرض الحياد، وأرض الاتّصالات، قد أقلقهم بقدر ما أرضاهم رحيله عن الخارجيّة. وهنالك شخص آخر من ألدّ أعدائهم، هو «دينو غراندي»، قد فقد وزارة العدليّة، ولكنّه، مثل «تشيانو»، بقي عضواً في المجلس الفاشيّ الأعلى. وقد شمل «تبديل الحرس» كذلك المارشال «كافاليرو»، ولم يكن هنالك أيّ مجال للارتياب في معتقدات خلَفه، الجنرال «امبروزيو»؛ قال عنه «هتلر»: «إنّ

(١) الحروب الفونية: هي ثلاث حروب نشبت بين «قرطاجة» و «روما».



الجنرال «ديغول» يصافح الجنرال «جيرو».

جلّ مناه هو أن يجعل من «إيطاليا» «دومينيوناً انكليزيّاً». ومنذ أن تسلّم «امبروزيو» سلطاته الجديدة، طلب إعادة الجنود الإيطاليّين المبعثَرين في الخارج، وخصوصاً الفرق الـ ٣٣ — وهي تمثّل ثلث الجيش — التي كانت آنذاك في «البلقان». ورفض «هتلر» هذه الرغبة، وطلب من الإيطاليّين أن يشدّدوا العزم في قمع العصابات الشيوعيّة والوطنيّة «من غير أن يوفّروا النساء ولا الأولاد».

لقد دعّم الحزم الذي بدر عن «الدوتشي» سلطته لمدّة من الزمن. إلاّ أنّ الهزائم في «روسيا»، وانقلابات «أفريقيا»، عادت إلى خلق القلق، وإلى إثارة الرغبة في التخلّص من هذا التشابك المشؤوم. هذا، وقد راحت تنعقد في بنائي الفاشيّة والملكيّة المتداعيين مؤامراتٌ خطيرة وعميقة.

الدار البيضاء والاستسلام غير المشروط

في تلك الأثناء كانت مقابلة بين «تشرتشل» و «روزفلت» قد اختطّت للستراتيجيّة المشتركة هدفاً جديداً، وأضفت على النزاع الفرنسيّ تطوّراً جديداً، وأوجدت صيغة سوف تُصلّب الحرب بإرغام «ألمانيا» على اتّخاذ موقف دفاعيّ يائس.

تكشيرة «تشرتشل» في اجتماع «الدار البيضاء»!



كان «تشرتشل» و «روزفلت» قد حاولا في البدء عقد مؤتمر ثلاثيّ. ولكنّ «ستالين» أعلمهما بأنّه لا يقدر على مغادرة «روسيا» ولو يوماً واحداً، وأنّه، في أيّة حال، لا يرى ضرورة لمثل تلك المقابلة، إذ أنّه لم يكن للحلفاء سوى فتح جبهة ثانية «كما وعدوا». كان غزو «أفريقيا الشماليّة» يُعتبر، ضمناً، كفارة لا عاقبة لها، أو كخدعة يُقصد بها التملّص من الارتباطات.

لم يكن للقاء — و«ستالين» غائب عنه — أيّ معنى. إلاّ أنّ «روزفلت» كان راغباً في استنشاق هواء جديد. فقد كانت السنة السياسيّة سيّئة بالنسبة له، إذ أسفرت التظاهرات العنصريّة في «ديترويت» و «هارلم» عن وقوع ٤٠ قتيلاً. ولم تفز الأكثريّة الديموقراطيّة في انتخابات تشرين الثاني في الكونغرس إلاّ بتفوّق بسيط في الأصوات. وقد كتب إلى «تشرتشل» يقول: «إنّه ليسعدني أن أخرج بضعة أسابيع من جوّ «واشنطن». وهكذا أتى مؤتمر «الدار البيضاء»، وهو أقلّ مؤتمرات الحرب نفعاً، هوى من أهواء رئيس «الولايات المتّحدة». وقد اعترف «هوبكنز» بذلك قائلاً: «لقد أراد أن يقوم برحلة»!

تمّ اختيار «الدار البيضاء» بناء على اقتراح «تشرتشل». ووصل «روزفلت» بعدما قام بعطفة جويّة واسعة: «ميامي — ترينيداس — بيليم — باتورست». وأمّا «تشرتشل» فقد خُيّل له أنّه سيحترق وهو حيّ داخل طائرته، فيما هبط «أيزنهاور» والمظلّة مشدودة إلى ظهره، بعدما تعطّل محرّكان من محرّكات طائرته. وقد أُحيط حيّ «أنفه» بكامله بالأسلاك الشائكة وبخطّ من الحرس شبه متّصل، ووُضعت بتصرّف الرئيس ورئيس الوزراء دارتان كبيرتان، واحتُجزت اثنتان أخريان أصغر منهما، لزائرين اثنين. وباستثناء «ماكميلان» من الجانب البريطانيّ، و «هوبكنز» و «مورفي» من الجانب الأميركيّ، كانت الحاشية عسكريّة برمّتها. كان «روزفلت» قد صرّح بأنّه لن يصطحب أحداً من أعضاء الحكومة، وقد طلب إلى «تشرتشل» ألاّ يصطحب «إيدن».

كان الانكليز قد اتّخذوا للمناقشة الستراتيجيّة عدّتها. فالسفينة التي كانت بمثابة مقرّ للأركان العامّة، وهي من حمولة ٦،٠٠٠ طنّ، قد زُوّدت بمكتبة من المراجع، فإذا «ببروك» و «بورتال» و «تيدر» و «باوند» و «ألكسندر» و «إسمي» و «جاكوبز» يفدون متسلّحين بمذهب ثابت، فراحوا يبرهنون، مستندين إلى الأمثولة التي تلقّنوها في «دييب»، أنّ نزولاً بحريّاً مبكراً في «فرنسا» يوفّر «لهتلر» نصراً سهلاً. فالمتوسّط، والحالة هذه، يبقى، حتى إشعار آخر، المسرح الوحيد الذي يمكن حصر المجازفة فيه. وبعد أن تتمّ استعادة «أفريقيا»، يمكن مهاجمة «إيطاليا» الجنوبيّة والوسطى، من غير أن تقوى «ألمانيا»، التي تحدّها الفجوج الألبيّة، على إقحام قوّاتها التي يتيسّر لها توزيعها في سهول شماليّ غربيّ «أوروبا» المتمتّعة بشبكة واسعة من المواصلات.

وخاض الأميركيّون النقاش بشغف. فحملة «أفريقيا» كانت تزيد من خوفهم المتوسطيّ الجنوبيّ. كانوا يعتقدون أنّها لن تستغرق غير أيّام معدودة، فإذا بهم أمام حرب عنيفة صعبة. وطلب «مارشال»، يسانده «هوبكنز»، إيجاد حلّ سريع لتلك الحرب، بغية الخروج من المأزق والتفرّغ لتحضير غزو «أوروبا» في ١٩٤٣.

في النهاية أثبتت الوقائع التي دافع عنها الانكليز فعاليتها. وسلّم الأميركيّون بتمديد العمليّة المتوسّطيّة بغزو «إيطاليا». ثمّ جرت مشادّة أخيرة موضوعها اختيار موقع الهجوم. كان الأميركيّون يفضّلون جزيرة «سردينيا» لاعتقادهم بأنّها توفّر أسرع منفذ نحو قلب «أوروبا» القاريّة، وكان الانكليز قد اختاروا جزيرة «صقلية»، فكان لهم ما أرادوا، وحُدّد يوم ١٠ تموز موعداً للنزول، شرط أن يكون «المحور» قد طُرد من «تونس».

كان من الممكن اتخاذ هذه المقررات إما في «لندن» وإما في «واشنطن» . إلا أن «الدار البيضاء» ، من جهة أخرى ، كانت بالنسبة «لانكلترا» و «لأميركا» أرضاً مناسبة للمحاولة التي تهدف إلى مصالحة الفرنسيين .

كانت القضايا الفرنسية تغيظ «روزفلت» . لقد سبق له أن تفاوض مع «فيشي» ، واستمال إلى الفلك الأميركي شخصيات وفية للمارشال «بيتان» ، بيد أن ميوله الشخصية كانت تبعده عن عالم العواطف والأفكار المتمثل «بفرنسا» الخاضعة «لبيتان» . كان «روزفلت» يظن أن «بديغول» ميولاً دكتاتورية متقلبة ويعيب فيه زهوه المتطرف . وكان يرى في «ديغول» و «بيتان» عيباً مشتركاً : فكلاهما يبدو له ممثلاً «لفرنسا» الاستعمارية التي يأمل ألا تبقى حية بعد انتصار الأمم المتحدة . وقد لام «مورفي» لكونه قد أعطى الجنرال «جيرو» وعداً خطياً بأن «فرنسا» سوف تستعيد كامل امبراطوريتها ، فقال له : « لا عجب إذا سببت لي رسالتك المتاعب بعد الحرب ... » وتعمد تجاهل المقيم العام الفرنسي في «المغرب» ، وفرض إقامة علاقات مباشرة مع السلطان ، وهو خلال المأدبة التي أقامها على شرفه لم ينفك يبشره باستقلال بلاده . ولم يكن عبوس «تشرتشل» البين إلا انعكاساً لما كان يتوقع من كوارث تنجم عن جهل الأميركي وادعائه واندفاعه .

بعد موت «دارلان» كان «ديغول» قد أبرق إلى «جيرو» يعرض عليه مقابلة ، ولكن «جيرو» ، الذي كان مقتنعاً بأن الديغوليين هم الذين سلحوا قاتل «دارلان» ، قد تمنع عن الإجابة ، فبقي «ديغول» مبعداً عن «أفريقيا» . ولقيت اعتراضاته أصداء رنانة في «أميركا» . وكانت الحكومة البريطانية من جهتها تساند الجنرال . فقد قال «ماكميلان» «لمورفي» : «إن «ديغول» ذو طباع صعبة . ولكنه كلفنا ٧٠ مليوناً من الليرات ، ولا يسعنا أن ننسى أنه وقف إلى جانبنا في أعصب ساعاتنا . فمصلحتنا ، وعنفواننا ، وشرفنا ، تملي علينا دعم نزعاته السياسية » . وأما فكرة إيجاد حل وسط ، وبالتالي سلطة مشتركة «جيرو» — «ديغول» ، واندماج هيئة «لندن» مع هيئة مدينة «الجزائر» . فقد انبثقت من هذه الاعتبارات . وكان مؤتمر «الدار البيضاء» ظرفاً مؤاتياً لترسيخ هذا الاتفاق .

وصل «جيرو» من غير توان أو سوء نية . ورفض «ديغول» القدوم . وأصر «تشرتشل» موضحاً أن الدعوة وجهها رئيس «الولايات المتحدة» ووجهها هو شخصياً . وبقي «ديغول» على رفضه . وراح يشرح باقتناع أن النزاع القائم بينه وبين «جيرو» قضية فرنسية بحتة ، وأن الوساطة الأجنبية فيه لن ينظر إليها بعين الرضى . وقال «مورفي» إن «روزفلت» قد استغرب موقف المنفي الحازم أكثر مما اغتاظ منه . إلا أن «تشرتشل» قد حنق ، وما كان منه إلا أن أرسل إلى «ديغول» برقية ساخطة تنذره وتحذره . قال فيها : «إذا أنت أصررت على رفض هذه السانحة الفريدة التي تعرض عليك ، فسنعمد إلى الاستغناء عنك ... إن الباب ما يزال مفتوحاً أمامك ... » ولان عناد الجنرال أمام هذا الإنذار القاسي .

وفي ٢٢ كانون الثاني ، وهو اليوم التاسع للمؤتمر ، هبطت إحدى قاذفات الطيران الجوي الملكي بالجنرال «ديغول» في مطار «الدار البيضاء» . لقد خضع في النهاية ، إلا أنه جعل الآخرين ينتظرونه . فارتدى بذلك أهمية فائقة ، وغدا في المؤتمر وجهه الذي تشخص إليه الأنظار .

وبقي «ديغول» صعب المراس رغم كل شيء . وقد أشار بمرارة إلى أنه كان على أرض فرنسية تحيط به حراب أجنبية . ولم يتمكن «تشرتشل» من تليين قناته . وهو الذي حمله على الحضور . وقد قال «مورفي» في ذلك : « كأنني الآن أرى رئيس الوزراء البريطاني وهو يشير ببنانه إلى وجه الجنرال ، صائحاً بلكنته الفرنسية ، وأسنانه الاصطناعية تصطك سخطاً : ينبغي ألا تعرقل الحرب ! » وبقي «ديغول» ثابت الجنان . واختار «روزفلت» وسيلة أخرى ، محاولاً التأثير بفتنته : ولكن من غير جدوى . واستبعد «ديغول» الشركة التي حاولوا أن يفرضوها عليه قائلاً إنه أتى لأنهم أصروا على ذلك ، وهو معتزم على الانصراف خلواً من الارتباطات .

وتميز آخر يوم من المؤتمر — الأحد ٢٤ كانون الثاني — بمناقشة عاصفة بين «ديغول» و «تشرتشل» . ثم قصد الاثنان إلى «روزفلت» حيث وجدا «جيرو» . وأخفقت محاولة أخرى لوضع بيان مشترك . عندئذ سأل «روزفلت» «ديغول» إن كان يسمح بالتقاط صورة له برفقة «جيرو» مع «تشرتشل» ومعه ، فقبل «ديغول» . ثم أردف «روزفلت» سائلاً : «أتوافق على مصافحة الجنرال «جيرو» أمام عدسة المصورين» ؟ فرد «ديغول» بالانكليزية : « سأفعل ذلك من أجلك » . وحمل الرئيس إلى صحن الدار المشمس حيث وقف مراسلو الحرب الانكليز والأميركيون ، الذين استدعوا فجأة إلى «الدار البيضاء» ، والذين أصابهم الكدر عندما علموا أن مؤتمر قمة كان منعقداً منذ اسبوعين ، فالتقطوا صوراً من شأنها أن توهم الناس بأن ثمة مصالحة . لم يتخل «ديغول» عن حق من حقوقه ، ولكنه لم ينصرف من غير أن يحصل على حق : فقد قبل «جيرو» بأن يستقبل مبعوثاً من قبل هيئة «فرنسا الحرة» ، وإقامة اتصال بين «لندن» ومدينة «الجزائر» . وهكذا يكون «ديغول» قد أحدث ثغرة في قلعة «جيرو» الضعيفة .

وبعدما انسحب الجنرالان الخصمان بقي المصورون حول «روزفلت» و «تشرتشل» . فدار بين الرجلين حديث ودي لم يبق منه غير شتات من ذكريات شفوية . وبما أن «روزفلت» كان يتوقع نهاية الحرب ، فقد صرح بأن «الأمم المتحدة» لن تقبل من خصومها إلا بالاستسلام «بلا قيد ولا شرط» . وراحت هذه العبارة تجوب العالم في الحال . وأما الجدل الذي انبثق عنها فما يزال ناشباً حتى اليوم .

لم يكن «تشرتشل» يعلم شيئاً عن ذلك . وقد انتفض حنقاً لسماعه عبارة النصر تلك التي كانت تربط «انكلترا» ، من غير موافقتها ، إلى نظرية دكتاتورية للحرب . وفيما بعد حاول أن يخفف من حدتها مصرحاً بأن طلب الاستسلام غير المشروط لم يكن يعني عزماً على الانتقام من الشعب الألماني . ولكنه ، في «الدار البيضاء» ، وجد أن الإدلاء بتحفظات حول هذه النقطة كان من شأنه أن يظهر للملأ نزاعاً علنياً بينه وبين رئيس «الولايات المتحدة» .

وقد صرح الدكتور «بول شميدت» بقوله : « لقد انقبض قلبي حين قمت أترجم «لهتلر» هذه العبارة الحاسمة . ورحت أقيس للحال مقدار ما تدعم به الوضع النازي فقد تلقت المعارضة الألمانية ضربة جد قاسية » . ودخلت عبارة « استسلام غير مشروط » رأسمال «غوبلز» وكأنها أثمن ما لديه من ممتلكات . لم يكن شيء قد تغير حيال «هتلر» والمتعصبين الذين نذروا أنفسهم للقتال حتى الموت . إلا أن كل شيء قد تغير بالنسبة للألمان الذين كانوا يسعون للقضاء عليهم . ومنذ ذلك الحين راح أكثرهم أهمية يحاولون إقامة روابط مع الحلفاء الذين كانوا عالمين بالمؤامرات التي تحاك ضد «هتلر» ، وبالخلافات الحاقدة التي كانت تفصل بين الجيش والحزب القومي الاشتراكي . كان العمل في سبيل توسيع هذه الشقوق ممكناً ، ولكن «الاستسلام غير المشروط» ، الذي ذمه «كورديل هال» و «أيزنهاور» ، قد أسهم في لأمها . فالحرب كانت سائرة لا محالة نحو ما أسمته اللغة الانكليزية : « النهاية المريرة » .

آخر معارك "رومل" الأفريقيّة

أوجد «هتلر» جيشاً خامساً للدبّابات في «تونس» ، رغبة منه في مواجهة النزول الحليف . وعهد بقيادته للجنرال «يورجن فون أرنيم» . وصل «أرنيم» من ناتئة «رجيف» ولمّا يسبق له قطّ أن رأى «أفريقيا» ، وهو على يقين من أنّ الحرب التي طُلب إليه القيام بها لا تعدو أن تكون لعبة بالنسبة لجنديّ قديم آتٍ من الجبهة الروسيّة . لم تنحصر مهمّته في الدفاع عن رأس الجسر التونسيّ : فقد كلّفه «هتلر» بإعادة فتح «أفريقيا الشماليّة» ، وإلقاء الانكليز والأميركيّين في اليمّ . ولكي يمكّنه النهوض بهذا العبء وعده بستّ فرق ألمانيّة ، وأفهمه أنّه سوف يوضع تحت سلطة القيادة الإيطاليّة الاسميّة ، وأنّه في الواقع سيرتبط بالمارشال «كيسلرنغ» وقيادة الجيش العليا .

وصل «أرنيم» إلى مدينة «تونس» في أواسط كانون الأوّل ، فلم يجد هناك غير ثلاث وحدات كبيرة : فرقة «بروبج» المؤلّفة من قطع وأقسام ، وفرقة الدبّابات ١٠ ، والفرقة الإيطاليّة «سوبرغا» . ثمّ وافته فرقتان أخريان في كانون الثاني هما فرقة المشاة الألمانيّة ٣٣٤ ، وفرقة «امبريالي» الإيطاليّة ، وفي آذار لحقت به فرقة «هيرمن غورنغ» . إلاّ أنّ هذه الوحدات كانت تشكو فراغاً : فلا تعدّ الكتائب الألمانيّة غير ٤٠٠ رجل ، ولا تضمّ الفرق الإيطاليّة سوى ٦ كتائب ، ولا يتعدّى أفراد جيش الدبّابات الخامس ، بما فيهم رجال الخدمات ، ٧٦،٠٠٠ ألمانيّ و ٢٧،٠٠٠ إيطاليّ ؛ فبات «أرنيم» ينتظر بفارغ الصبر التتمّة اللازمة لينطلق إلى فتح مدينتي « الجزائر » و «الدار البيضاء» من جديد .

ولسوف ينتظر من غير جدوى ؛ فالآفة التي قضت على انتصارات « رومل» ، وهي أزمة النقل ، قد أصابته هو الآخر . فمع أنّ اجتياز مضيق «صقلية» ما كان يستغرق غير ليلة ، فقد أغرقت فيه ٤٧ سفينة بين كانون الأوّل وكانون الثاني ، واضطرّ ما يقارب العشرين غيرها إلى العودة إلى ورشات التصليح بعدما أصيبت بأضرار بالغة . وكانت البحريّة التجاريّة الإيطاليّة قد بدأت الحرب بـ ٣،٣٠٠،٠٠٠ برميل ، أضيف إليها ٥٦٠،٠٠٠ برميل ممّا صودر في المرافىء اليونانيّة والفرنسيّة ؛ وفي مطلع ١٩٤٣ كاد لا يبقى لها غير الثلث ، وكان عليها ، فضلاً عن «أفريقيا» ، أن تؤمّن تموين «البلقان» وجزر «الدوديكانيز» .

لذلك بادر الجوّ إلى إغاثة البحر ؛ فقدّم الطيران ٢٠٠ طائرة « يو — ٥٢» ، و ١٥ «مسر شميت» من ذوات المحرّكات الستّة التي بإمكانها أن تنقل حمولة ١٠ أطنان . وعمل جسر «تونس» الجويّ أحسن ممّا عمل جسر «ستالينغراد» ، فأمكنه ، مع اعتماده على ثلث الطائرات عدّاً ، أن ينقل ضعفي ما كان ينقله ذاك ، أي ٧،٠٠٠ طنّ شهريّاً . ومع هذا كانت النتيجة ضعيفة بالنظر إلى الحاجة المقدّرة بـ ١٢٠،٠٠٠ طنّ . ولن يتلقّى «أرنيم» في كانون الثاني ، وهو أفضل شهوره ، غير ربع تلك الكميّة .

كانت الخطوط المعادية قد امتدّت شيئاً فشيئاً حتى جنوبيّ «تونس» ، وحتّى بطاح الشّطوط الصحراويّة . أمّا من جانب المحور فكانت فرقة «بروبج» تسيطر على شماليّ «تونس» ، فيما تشرف فرقة الدبّابات ١٠ على الوسط ، وتشرف مفارز ألمانيّة — إيطاليّة على ما تبقّى . وإذ لم يشمل الجيش البريطانيّ الأوّل بعد سوى فيلق واحد ذي فرقتين ، فقد اصطفّ من البحر إلى «جسر الفحص» ؛ وإذ كان الفيلق الفرنسيّ ١٩ يفتقر إلى عتاد مضادّ للدبّابات ، وإذ لم يكن له من سلاح المدفعيّة غير مدافع ٧٥ العائدة إلى الحرب العالميّة الأولى ، فقد وقف بفرقه الثلاث على جبهة تمتدّ مسافة ١٠٠ كلم على طول العمود الفقريّ التونسيّ . وامتدّ قطاع الفيلق الأميركيّ ٢ حتّى «قفصة» . ومع أنّ الأميركيّين قد أنزلوا إلى البر ثماني فرق ، لم يكن لهم بعد في الجبهة إلاّ الفرقة المصفّحة الأولى ، وفرقة المشاة الأولى ؛ ذاك أنّ ضعف شبكة المواصلات ، وخشية تدخّل إسبانيّ ، قد تضافرا للإبقاء على كميّة ضخمة من الجيوش غربيّ «المغرب» .

ومهما يكن من أمر ، فهناك ممثّلان كبيران قد مشيا في طريقهما إلى المسرح التونسيّ : أوّلهما «رومل» ، وثانيهما «مونتغومري» . «فرومل» يعود القهقرى منذ موقعة «العلمين» ، وفي يقينه أنّ «أفريقيا» قد فُقدت ، وأنّ معركة «تونس» لا يمكن أن تكون إلاّ معركة مؤخّرات ، وأنّ الموقف الواقعيّ الوحيد يقوم على إعادة أكبر عدد ممكن من المحاربين إلى «أوروبا» . وكان من نتيجة إعلان هذا الرأي ، الذي وُصف بأنّه انهزاميّ ، أن قيّده «هتلر» وحصره ضمن حدود ضيّقة ؛ فقد طلب إليه بشدّة ألاّ يعود إلى التخلّي عن قوّاته الإيطاليّة « كما فعل بعد العلمين » ، وحظّر عليه كلّ انكفاء لا يحظى بموافقة الجنرال «باستيكو» قائد الجبهات الأفريقيّة الأعلى . فقد ولّى الزمان الذي كان يستطيع فيه أن يسمح لنفسه بمخالفة الأوامر ، وبات لزاماً عليه أن يتوقّف على التوالي في موقع «مرسى بريقه» الذي يقف حاجزاً على مدخل «سدرة طرابلس» ، وفي موقع «بويرات الحسّون» الذي يغطّي «طرابلس الغرب» .

كانت الأوامر القاضية بالتمسّك بتلك المواقع حتّى النهاية تُلغَى كلّ مرّة أمام استحالة تغذية معركة في قعر خليج «سرت» ؛ إلاّ أنّ هذه الوقفات المفروضة ، والافتقار المزمن إلى الوقود ، ما كانت لتدع «لرومل» أيّة فرصة في الوصول إلى «تونس» ، لو أنّ «مونتغومري» تخلّى عن مبادىء الحذر المفرط في تقدّمه البطيء . كان «رومل» يفكّر ليلاً ، وكأنّه في حلم ، أنّه في مكان خصمه ، أو يكلّف مجلس أركانه بدرس الهجوم المعاكس الذي قد يشنّه فيما لو تلقّى ما يكفيه من البنزين . ولكن عبثاً كان يحلم ويفعل !

في أواسط كانون الثاني عادت الحرب فانتعشت في «تونس» «وسدرة طرابلس» في آن معاً ، فوضع «أيزنهاور» عمليّة دُعيت «ساتان» تهدف إلى احتلال «صفاقس» ، أي إلى قطع المواصلات بين جيش «فون أرنيم» وجيش «رومل» . إلاّ أنّ المشروع قد أهمل بسبب بعض العقبات المادية ؛ وبدل أن يهاجَم «أرنيم» هبّ هو إلى الهجوم ، فطرد الفيلق ١٩ من فجّ «القيروان» ، وأفاق «مونتغومري» من سباته أمام موقع «بويرات» الذي قضى فيه «رومل» هدنة ناعمة هانئة ، وراح يهدّد بتطويق جيش الدبّابات الألمانيّ الإيطاليّ ؛ فتحاشى «رومل» الضربة وتخلّى عن «طرابلس الغرب» في ٢٠ كانون الثاني ، وذهب بعد أيّام إلى «تونس» يتفقّد حصون «مارث» التي أمر من جديد بالتوقّف عندها . كان ٣٥،٠٠٠ إيطاليّ يعملون على تزويد خطّ «ماجينو» الصحراويّ المتواضع ذاك ببعض القدرة الدفاعيّة ؛ فوجده «رومل» ضعيفاً ، وودّ لو يتراجع حتّى «قابس» ليتمركز في المختنق الواقع بين البحر والشطوط ؛ إلاّ أنّه لم يبقَ سيّد نفسه ، وفهم أنّ «موسوليني» يطالب باستدعائه ، وأنّه بعد أيّام سيضطرّ إلى التخلّي عن قيادته للجنرال الإيطاليّ «ميسي» .

في ١٦ شباط انسحبت المؤخّرات الألمانيّة وراء خطّ «مارث» بعد ما تركت آخر قطعة من الأمبراطوريّة الرومانيّة الجديدة . أعاد «رومل» ١٢٩ دبّابة ، وقد قُطر نصفها ، كما أعاد فرق الفيلق الافريقيّ الخالدة بعد ما فُقد ثلثاها ، فإذا هي فرقتا الدبّابات ١٥ و ٢١ ، والفرقة الخفيفة ٩٠ والفرقة ١٦٤ التي التحقت بالجيش عشيّة معركة «العلمين» ، فضلاً عن

خمس فرق إيطاليّة صغيرة من حامية «طرابلس الغرب» . وبالإجمال أتى ٣٠،٠٠٠ ألمانيّ و ٤٨،٠٠٠ إيطاليّ يدعمون رأس الجسر الذي أقامه المحور في «تونس» .

وأقبل في أثرهم الجيش الثامن الانكليزيّ وقد «تجمّع فيه كلّ لسن وأمّة» ، فالتقى فيه الانكليز بالسكوتلنديّين والأوستراليّين والنيوزيلنديّين والأفريقيّين الجنوبيّين والكنديّين والهنود والماليزيّين والكاناك والصوماليّين والسنغاليّين والفرنسيّين وغيرهم . كان قوام المقدّمة فيلق الجنرال «فريبرغ» الذي انضمّ إليه رجال «لوكلير» القادمون من «التشاد» عبر الصحراء . وكان معظم القوّات لا يزال حول «طرابلس الغرب» و «بنغازي» ، ولم يكن بوسعها أن تحمل على خطّ «مارث» قبل أن تنقضي أسابيع عدّة . فأملى هذا الوضع على «رومل» محاولةً أخيرة لقلب الوضع العسكريّ ولو موقّتاً، ففكّر بتسديد ضربة شديدة إلى القوّات الانكليزيّة — الفرنسيّة — الأميركيّة النازلة في «تونس» قبل أن تسنح للجيش الثامن فرصة إلقاء وزنه الحاسم في الميزان .

تنقسم سلسلة الجبال الّتي تنطلق من رأس «بون» (رأس آذار) في وسط «تونس» بشكل Y ، فتتّجه الذراع الغربيّة الّتي يقارب علوّها ألف متر نحو الحدود الجزائريّة ، وتنحدر الذراع الشرقيّة ، وهي أقلّ ارتفاعاً من الأولى ، نحو سهل «صفاقس» و «قابس» ؛ ويمتدّ بينهما نجد قاحل موحش يؤنسه قليلاً بعضُ المدن الصغيرة وعدّة طرقات وخطّ حديديّ ضيّق يمضي باتّجاه «توزر» . وتجتاز تينك الذراعين شعابٌ وفجاج : فإلى الشرق شعب «فايد» ، حيث تمرّ طريق «صفاقس» ؛ وإلى الغرب ممرّات «سبيبة» و «القصرين» و «درنايا» ، الّتي تنفتح بشكل مروحة باتّجاه أودية الشمال التونسيّ ونحو مدينة «تبسّة» القديمة الصغيرة ، حاضرة مرتفعات «قسنطينة» ؛ وتسمح «القصرين» خصوصاً بالتوجّه إمّا إلى «تبسّة» وإمّا إلى «سوق الأربعاء» على حدّ سواء ، أي إلى خطوط المواصلات الداخليّة ، أو إلى مؤخّرات «أيزنهاور» .

بدأ الهجوم الألمانيّ في أوّل شباط ، فطردت فرقتا الدبّابات ١٠ و ٢١ ، المجتمعتان تحت قيادة الجنرال «هاينز زيغلر» ، الاميركيّين من ممرّ «فايد» مغلقتين بذلك الشرفة الّتي كانوا قد فتحوها على سهل «قابس» . ثمّ استؤنف الزحف في ١٤ : فنظّم «زيغلر» ، بالاعتماد على ٢٠٠ دبّابة ، مناورةً بشكل كلاّبة حول بلدة «سيدي بو زيد» ، وهي مربّع من البيوت البيضاء قد انبسط عند أسفل الذراع الشرقيّة. أمّا الخصم فكان الفرقة المصفّحة الأميركيّة الأولى الّتي تعادل الفرقتين الأخريين قوّةً ولكنّها تنقصهما خبرة في الحرب إلى حدّ بعيد ؛ قامت بحملة معاكسة فأخفقت ، وطُوّقت كتائبها فاستسلم منها عدد كثير ، فضلاً عن ١١٢ دبّابة دُمّرت أو أُسرت . فترنّح «أيزنهاور» لهول الصدمة ؛ كان إذ ذاك عائداً من جولة في الجبهة ، وقد تقلّد نجمته الرابعة للمرة الأولى ، عندما بلغه انهيار أفضل فرقة لديه ! فارتفعت في «أميركا» نفسها أصوات تقول إنّه لا يجيد غير السياسة ، وإنّ عليه أن يتخلّى عن إدارة العمليّات الحربيّة لمساعده الانكليزي الجنرال «الكسندر» .

أسهم «رومل» في الزحف ؛ فبعدما ترك قوّاته غير الآليّة على خطّ «مارث» ، شكّل ، بواسطة الفيلق الأفريقيّ ، مجموعةً تعادل فرقة مصفّحة سار بها على «قفصة» . لم يضطرّ إلى النزال لأنّ الأميركيّين كانوا قد أخلوا المدينة وانسحبوا بسرعة نحو «تبسّة» ؛ فإذا نحن من جديد أمام تقدّم سريع وسط جمع غفير من السكّان يهلّلون للألمان . ووصلت الدبّابات إلى مطار «تلابت» وسط ألسنة نار تلتهم ٣٠ طائرة أحرقها الأميركيّون بسرعة قبل رحيلهم ، وفي ١٧ شباط وصل «رومل» إلى سفح الذراع الغربيّة أمام ممرّ «القصرين» ، فاتّصل «بأرنيم» الذي كان قد استولى على «سبيطلة» في قلب النجد ؛ فانهار بذلك القسمُ الجنوبيّ من الجبهة الحليفة بكامله .

غير أنّ الشقاق كان سائداً في القيادة الألمانيّة . «فرومل» ، الذي قطع مسافة ١٣٠ كلم في ثلاثة أيّام ، لا يقدر أن يفهم كيف أنّ «فون أرنيم» لم يقطع غير ٣٠ كلم ، ولماذا كان يتريّث في استغلال انتصاره في «سيدي بو زيد» . لقد كان يجهل أنّ «فون أرنيم» إنّما يرغب في تحويل جهوده نحو الشمال بهجوم جبهيّ في وادي «مجردة» ، بينما بقي هو ، «رومل» ، أميناً لخطّته الصحراويّة ، فرأى ضرورة استمرار العمليّات بشكل تحرّك واسع يدور باتّجاه «تبسّة» ونحو «بون» فيما بعد ، بغية الوقوع على مواصلات العدوّ وإرغامه على إخلاء «تونس» بعجلة . وأمّا الحكّام ، وهم «كيسلرنغ» و «القيادة العليا» ، فقد كانوا في «روما» ، فبعث إليهم «رومل» برئيس أركانه «بايرلاين» ، وبات ينتظر قرارهم بفارغ الصبر . فبلغه القرار في الساعة الواحدة من صباح ١٩ شباط ، ينقل إليه رضى وخيبةً في آن معاً : فقد وُضعت تحت إمرته فرق مصفّحة ، إلاّ أنّ «القيادة العليا» كانت ترى في تحرّكه المستدير عبر «تبسّة» أمراً بالغ الجرأة . ولذا وجب على المارشال «رومل» أن يبقى أبعد إلى الشرق ، وأن يسير على «الكاف» فحسب ، كي لا تتّسع المسافة بينه وبين الجيش المصفّح الخامس . وأسف «رومل» لتقلّص مناورته ؛ ولكن لم يكن بالإمكان إطالة النقاش ، فقد كان الوقت حرجاً ، وكان العدوّ يتأهّب . كان ينبغي تسديد الضربة في الحال .

إنطلق الهجوم في اليوم التالي . ولقد قرّر «رومل» مهاجمة فجّي «سبيبة» و «القصرين» في آن معاً ، شرط أن يحوّل مجهوده الرئيس إلى المنطقة الأكثر ملاءمة للاستثمار . وعبر «سبيطلة» زحف الجيش المصفّح ٢١ نحو «سبيبة» ؛ ومن «القصرين» دخل الفيلق الأفريقيّ الألمانيّ «وادي الحطب» الذي ينفذ إلى الفجّ . وبقي الجيش المصفّح العاشر ، وفرقة «سنتورو» ، في الاحتياط ، على أهبة الانطلاق إمّا إلى اليمين أو إلى اليسار . وراحت الطرقات المشبّعة مطراً تشدّ إليها زناجير الدبّابات. وانبثق ضباب شاحب فأخّر الفجر وطغى على أشعّة الشمس الوليد . إنّ «أفريقيا» الجليديّة راحت تحيق مرّة أخرى بالمقاتلين .

في الفجّين كان الحلفاء في غمرة الارتجال . ففي «سبيبة» دُعّمت مفرزة من الفيلق ١٩ وبصورة معجّلة ببعض عناصر الفرقة المصفّحة البريطانيّة ٦ ؛ وفي «القصرين» تسلّم الكولونيل الأميركيّ «ستارك» قيادة القطاع في السادسة صباحاً . لم يكن لديه غير كتيبة واحدة من فوج المشاة ٢٦ ، وكتيبة مضادّة للدبّابات ، وبطاريّة فرنسيّة من عيار ٧٥ القديم . وهرع إليه بعض الأمداد ، إلاّ أنّ القيادة كانت تتردّد في إضعاف القطاعات الأخرى ، لظنّها أنّ الهجوم الرئيس إنّما سيحدث أبعد إلى الشمال ، في ناحية «فندق» أو «جسر الفحص» .

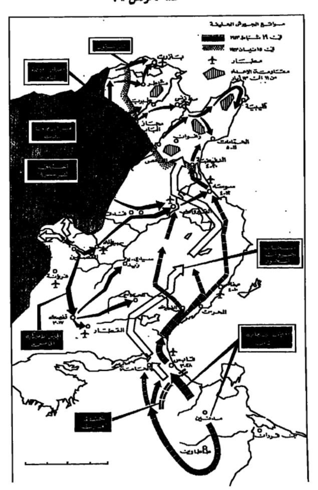
ولحسن حظّ الحلفاء كان الألمان قد انطلقوا من أماكن قاصية . فالجيش المصفّح ٢١ راح يتقدّم باتّجاه «سبيبة» ببطء جعل «رومل» يغلي غلياناً . وكان قد اعتمد على تدخّل مفاجىء لكتيبة الاستطلاع الثالثة في فجّ «القصرين» ، ولكنّ مئتين من راكبي الدرّاجات الناريّة يشكّلون في الواقع مفرزة شديدة الضعف إزاء عدوّ مزوّد بالمدفعيّة . ولم تدر رحى المعركة إلاّ في العشاء . وعند حلول الليل كان الفيلق الأفريقيّ قد احتلّ موقعاً تافهاً ، وهو «برج شامبي» ، على علو ١،٠٠٠ متر في الفجّ . إلاّ أنّ خطوط القمم بقيت في أيدي الحلفاء .

وشهد اليوم التالي سقوط فجّ «القصرين» . وقد قام جنود فرقة «سانتورو» بشنّ الهجوم الأخير ببراعة فائقة . وأمّا الأميركيّون الذين فقدوا ٢،٤٥٠ أسيراً أصحّاء ، و ١٩٢ قتيلاً ، فقد برهنوا على أنّ

حميّتهم القتاليّة لم تكن كما في الحسبان . ولحق «كيسلرنغ» «رومل» في الفجّ ، وراح المارشالان يتنزّهان وسط كميّة هائلة من مخلّفات العتاد . قال «رومل» مشيراً إلى بعض الأجهزة الأميركيّة : «يجدر بنا أن نتعلّم الكثير منهم» . وأجاب «كيسلرنغ» : «أجل ، ولكن يجدر بهم أن يتعلّموا شيئاً منّا ..» .

غير أنّ الانتصارات الألمانيّة قد قاربت أجلها . فالمفرزة التي أطلقت عبر طريق «تبسّة» قد أوقفت قرب فجّ «أبوشبكة» . وعلى طريق «الكاف» تصدّت قرية «تالة» الكبيرة لهجوم شُنّ عليها ، فيما راحت المدفعيّة الأميركيّة ، التي كانت متمركزة على القمم ، تردّ على الدبّابات الألمانيّة بضراوة . وقام «كيسلرنغ» و «رومل» بحسبان كميّات الوقود الباقية لديهما : لم يبقَ بإمكان المصفّحات أن تجتاز أكثر من ٢٥٠ كلم ؛ وأمّا الاحتياط المتوافر في «سوسة» و «صفاقس» و «قابس» فكان يضيف إلى هذا الاعتماد الذاتيّ الضعيف ١٥٠ كلم لا أكثر . فمطاردة العدوّ لن تبقى معقولة إلاّ في حال التزوّد من عند العدوّ ، وهو أمل ضعيف لا يستحقّ إقحام المصفّحات بكاملها في مغامرة قد تقضي عليها . وفي ٢٤ شباط أصدر أمر لقوّات «المحور» بالعودة إلى ما وراء الفجاج ؛ وكان الحلفاء يحمّدون قوّاتهم استعداداً لدفاع مستميت ؛ فإذا الخطر المميت يتلاشى بسرعة عجيبة !

حملة « تونس » .



وبفضل هوى من أهواء «هتلر» تمدّدت خدمة «رومل» بضعة أيّام . فبدلاً من أن يستدعيه ، حسب إرادة «موسوليني» ، سلّمه قيادة مجموعة الجيوش الأفريقيّة ، فكان على «رومل» ، الذي أصبح أعلى رتبة من خصمه ، أن يرأس هجوم «فون أرنيم» شماليّ «تونس» . وعرف هذا الهجوم نجاحاً في مستهلّه ، ولكنّ قوّات العدوّ المتفوّقة قد جمّدته ، فوجب بالتالي إيقافه .

في الجنوب كان «رومل» يُجهّز صولة خارج خطّ «مارث» ، وفي نيّته تفكيك استعدادات الهجوم التي يقوم بها «مونتغومري» . فإذا به للمرّة الأخيرة أمام الصحراء بأبعادها المسطّحة ، المجفّفة ، وضبابها الصباحيّ الشاحب ، وشمسها المحرقة التي أضاءت الجوّ الجليديّ بنور وهّاج . وفي ٦ آذار قامت الجيوش المصفّحة ١٠ ، ١٥ ، و ٢١ ، بشنّ هجوم مركّز على مدينة «مدنين» الصغيرة ، التي كان الفيلق البريطانيّ ٣٠ ، التابع للجنرال السير «أولفر ليس» ، قد أقام حولها حلقة من المدافع ؛ فوقعت المصفّحات الألمانيّة تحت نار بالغة الشدّة أرغمتها على التخلّي عن القتال . وفي اليوم التالي طار «رومل» إلى «أوروبا» حاملاً معه الاستنتاجات التي أراد تقديمها «لهتلر» عن ضرورة التخلّي السريع عن أكبر قسم من «تونس» . كان ينبغي ، حسب رأيه ، إعادة الجبهة الجنوبيّة لرأس الجسر حتّى «النفيضة» على بعد ٨٠ كلم من «تونس» . وأجابه «هتلر» بأنّ تراجعاً كهذا لم يكن وارداً ، ولمّا يمضِ بعدُ على فقدان السطوة في «ستالينغراد» غير وقت قصير . ثمّ قلّده صليب الفرسان بالسيوف والجواهر ، ودعاه إلى العودة إلى الاستجمام الذي قُطع عليه . وهكذا لن ترى «أفريقيا» «لرومل» وجهاً بعد اليوم .

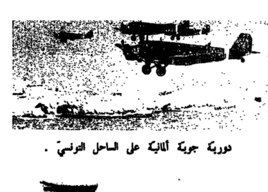
وتدهورت الأوضاع . ففي ٢٠ آذار أطلق «مونتغومري» على خطّ «مارث» هجومه الذي بقي يحضّره طويلاً . فالهجوم الجبهيّ الذي قام به الفيلق ٣٠ قد أوقفته عند حدّه ، عند أحد الأنهار ، فرقتا «تريستي» و «الفاشية الفتيّة» ؛ إلاّ أنّ حركة التفافيّة بلغت ٢٠٠ كلم ، يقودها «فريبرغ» ، قادت الفيلق النيوزيلانديّ ، ورتل «لوكلير» ، حتّى «الحامة» في أعقاب المدافعين . وجابه «ميسي» الخطر بإلقائه قوّاته المتحرّكة على جناحه الأيمن ، ولكنّ «مونتغومري» أقلع عن الهجوم ، وألقى بفيلقه العاشر في آثار «فريبرغ» . وتنفيذاً لأمر وارد من «فون أرنيم» ، تراجع «ميسي» لتوّه نحو موقع جديد . وهكذا أصبح الجنوب التونسيّ في حكم المفقود .

كان التوقّف عند هذا الموقع قصير المدى . وفي ٦ نيسان عاد «مونتغومري» إلى الهجوم . كانت مقاومة مطوّلة من جانب الجيش الإيطاليّ الأوّل أمراً محالاً ، إذ أنّ الأميركيّين قد انبثقوا من وسط «تونس» . واستمرّ التراجع الألمانيّ الإيطاليّ وسط مزارع الزيتون الكبيرة . وفي ١٩ نيسان تراجع الناجون من الفيلق الأفريقيّ ، والإيطاليّون ، حتّى «النفيضة» بعدما تكبّدوا خسائر فادحة . لم يكن رأس الجسر يغطّي سوى الزاوية الشماليّة الشرقيّة من «تونس» . ومن «النفيضة» كانت الجبهة تمتدّ بخطّ شبه مستقيم حتّى جوار «رأس سراط» . وأمّا القوّات الحليفة التي كانت تلقي ثقلها على هذا المعقل ، فكانت قوّات ساحقة تتألّف من أكثر من عشرين فرقة ، مزوّدة بمدفعيّة جبّارة ، وطيران لا يقاوَم ، وتموين وافر . وعلى الرغم من ذلك لم يكن لا «موسوليني» ولا «هتلر» ليسلّما بخسارة مدينة «تونس» !

في ٧ نيسان التقى الديكتاتوران في «سالزبورغ» . وظنّ شهود العيان أنّهم إزاء طيفين . كانت ملامح «موسوليني» قد تبدّلت بتأثير آلام معدته . وكان الحليب المحلّى هو جلّ قوته . وقد بدا منحطّ العزيمة . متقبّض الوجه . وبات أصغر حجماً . وبدا «هتلر» مخيفاً بظهره المقوّس . وحاجبيه الغائرين . وعينه الهائمة . ولم ينتج شيء عن خلوة مريضَي الهزيمة هذين . سوى القرار اللامعقول في الصمود في «تونس» رغم كلّ شيء . قال «هتلر» : «أيّها الدوتشي . لقد فرغت لتوّي من قراءة تاريخ معركة «فردان» . سوف نجعل من مدينة «تونس» «فردان» «أفريقيا» . إنّني لأعدك بذلك» . وقال «موسوليني» : «إنّ النزول الانكليزيّ الأميركيّ في «أفريقيا» هو بالنسبة لنا حدث سعيد . فهو يفسح أمامنا آفاقاً لنصر لم نكن لنطمح بها بغير وجوده ...» .

تصلّف وهراء ! كان وضع رأس الجسر ميؤوساً منه . وعرض «هتلر» تقديم فرق جديدة . إلا أنّ «فون أرنيم» كان أوّل رافضيها . قائلاً إنّه لا يتمكّن من إعالة الفرق التي كانت لديه . وفي أيّة حال لم يكن مصير «تونس» ليوقظ لدى دولتي «المحور» غير اهتمام عاديّ . فقد بات الناس يعلمون أنّ القضيّة لم تبقَ البتّة قضيّة الملحقات أو المخافر الأماميّة الأفريقيّة . فغزو «إيطاليا» كان واضحاً من خلال غزو «المغرب» . لا شيء يمكن أن يخفي عن الفطنة الإيطاليّة أنّ الحرب قد فُقدت . وأنّ الفاشيّة تحتضر .

وأمّا سرد ما تبقّى فمختصَر مفيد : في ١٩ نيسان ابتدأ الهجوم العامّ على رأس الجسر . وقد نقل «ألكسندر» إلى شمال الجبهة الفيلق الأميركيّ الثاني المعزّز بالفيلق الفرنسيّ الحرّ التابع للجنرال «دي مونسابير» . ونَشر الجيش البريطانيّ الأوّل فيالقه الثلاثة ٥،٩ ، و ١٩ الفرنسيّ ،من «مجاز الباب» حتّى «جسر الفحص» ، وقد انبسط الجيش البريطانيّ ٨ من «جسر الفحص» حتّى البحر . وإنّ طوق الحديد هذا لن ينفكّ يضيّق الخناق على وحدات ألمانيّة وإيطاليّة مُبادة . وجرت معارك طاحنة حول «النفيضة» و «ماطر» . وفي وادي «مجردة» . يا لها من تضحيات لا تجدي فتيلاً ! وفي ٧ أيّار دخل الحلفاء إلى «بنزرت» ومدينة «تونس» في آن معاً . وكانت آخر ساعات القتال مجرّدة من طابع العنف ، فكان المحاربون الألمان القدامى ينتظرون بهدوء أن يتمّ أسرهم وهم جالسون على شرفات المقاهي كالسيّاح . واستسلم «فون أرنيم» ومعظم الضبّاط من غير أن يثيروا المتاعب . وأطلق «هتلر» دعوات للقتال حتّى الموت ، وأمر بالتحصّن في رأس «بون» ، إلاّ أنّ كلامه الملهِب لم يثر الحميّة إلاّ في قلوب القلائل من الضحايا . وألقى الفيلق الأفريقيّ سلاحه أمام الفيلق الفرنسيّ ١٩ . وأمّا آخر طلقات الرصاص فقد صدرت عن فرقة «تريستّي» الإيطاليّة التي كان «ميسي» قد التجأ إلى صفوفها . وفي ١٢ أيّار سمح «موسوليني» لهذا الأخير بأن يوقف القتال مقلّداً إيّاه رتبة مارشال «ايطاليا» . في هذا الأمر وجها تشابه وتناقض مع ما حدث لـ «باولوس» : «فالدوتشي» لا يطلب من مارشاله أن يقدم على الانتحار ، إلاّ أنّ هزيمة مدينة «تونس» هذه كانت فادحة فداحة هزيمة «ستالينغراد» . وقد تمكّن نحو من ٦٠٠ رجل لا أكثر من بلوغ «صقليّة» . والتقط الحلفاء ٢٤٨،٠٠٠ أسير ، ثلثهم من الألمان . وبلغت خسائرهم طوال الحملة ٧٠،٣٤١ قتيلاً وجريحاً ومفقوداً ، منهم ٣٦،٠٠٠ بريطانيّ ، و ١٨،٠٠٠ أميركيّ ، و ١٦،٠٠٠ فرنسيّ . بيد أنّهم قد أفنوا جيوشاً عدوّة كانت عدّتها تفوق ٣٥٠،٠٠٠ رجل ، واستعادوا السيادة على «المتوسّط» ، وعجّلوا في إخراج «إيطاليا» من الحرب بصورة نهائيّة .



دوريّة جويّة ألمانيّة على الساحل التونسيّ .



الجنرال «فون أرنيم» يصافح أحد المحاربين في «تونس» .



ثلاث دبّابات ألمانيّة تحترق في إحدى ساحات القتال في «تونس» .



لقاء الدبّابات البريطانيّة التابعة للجيشين الثامن والأوّل قرب «القيروان»



كانت قاذفتا القنابل اليابانيّتان تستعدّان للهبوط في مطار « كابيلي » ، الواقع في رأس جزيرة « بوغنفيل » الجنوبيّ ، يحميهما سرب من طائرات « زيرو » .

طرقات "طوكيو"



وفجأة برزت المطاردات الأميركيّة من عرض البحر . فأسقط الكابتن «توماس ج. لانفاير » أولى القاذفتين ، وأسقط «ريكس ث. باربر » الثانية . هوت الطائرتان واحترقتا في الدغل . فلقي الأميرال الكبير «إيسوروكو ياماموتو » حتفه . ولم يكن ما جرى مجرّد صدفة ، فقد كان الأميركيّون يفكّون دوماً ألغاز الشيفرة اليابانيّة . وفي أول نيسان ١٩٤٣ ، حمل إلى الأميرال «هالسي» رئيس شعبته الثانية نبأ مخطّط جولة تفتيشيّة سيقوم بها القائد اليابانيّ الأعلى في المحيط الهادىء الجنوبيّ . كان «ياماموتو » قد صمّم على زيارة القواعد الجويّة البحريّة في منطقة «بوين» ، انطلاقاً من «رابول» ، وكان مقرّراً أن تصل طائرته فوق «كابيلي» في الساعة ٩،٣٥ من ١٨ نيسان . ففكّر الأميركيّون بأن يكونوا وراءه في الموعد المضروب !

إلاّ أنّ وسواساً جعلهم يتردّدون : أيكون من أصول الحرب استخدام تفوّق سرّيّ للتخلّص من قائد للأعداء كبير ؟ أيكون ذلك كميناً تسمح به قوانين الحرب ، أم تُراه فخّاً ومكيدة ؟ إستشار «هالسي» «نيميتز» ، فسأل «نيميتز» أخصائيّيه ما إذا كانوا يعتبرون أنّ تواري «ياماموتو» يضعف «اليابان» ، فأجابوا بالإيجاب . صحيح أنّ الأميرال الكبير كان قد عارض خوض الحرب ضد «أميركا» ، إلاّ أنّه ، وقد عجز عن الحؤول دونها ، كان يخوض غمارها بمهارة ونشاط ، فهو الذي وضع خطّة الهجوم على «بيرل هاربور» . ولم تكن هزيمة «ميدوي» ، ولا التخلّي عن «غواد الكانال» ، ليضعفا شوكته في مصاولة أعدائه . إلاّ أنّ شهادة التقدير هذه كانت بمثابة حكم بالإعدام عليه .

لم تكن المهمّة سهلة ، فقد كان على الطائرات الـ ١٦ ، التي أقلعت من «غواد الكانال» بقيادة الميجر «ميتشل» ، أن تقطع ٥٠٠ كلم قبل أن تصل إلى سماء «بوغنفيل» في الموعد الدقيق المحدّد . كان عليها أن تطير قرب سواحل جزر «جورجيا الجديدة» التي تئزّ في سمائها أسراب طائرات العدوّ . أفلتت من الرّصد والتحرّي باللجوء إلى طيران مسفّ يكاد يلامس غوارب الأمواج ، ووصلت فوق «كابيلي» وليس بينها وبين الموعد أكثر من دقيقة ، ثمّ عادت جميعها ما عدا واحدة . وحُفظت المأثرة طيّ الكتمان حتى نهاية الحرب . أولاً كي لا ينتبّه اليابانيّون إلى أنّ النقاب قد كُشف عن شيفرتهم . وثانياً لأنّ «لانفاير» كان له أخ أسير في «اليابان» ، فخُشي أن تنزل به أفظع تدابير الثأر .

في مطلع ١٩٤٣ لم يُطرد الأميركيّون نهائيّاً من المحيط الهادىء كما خيّل لليابانيّين عقب الانتصارات التي أحرزوها في ١٩٤٢ ، بل تشبّثوا « بغواد الكانال » وبطرف « غينيا الجديدة » . وها هم اليوم يزحفون إلى « طوكيو » ، قافزين من جزيرة إلى جزيرة .

في الصورة : بعض مشاة البحريّة في جزيرة « بوغنفيل » حيث اصطدم الأميركيّون بمقاومة يابانيّة ضارية .

مظاهر "اليابان" ونقاط ضعفها

لم تغب حرب المحيط الهادىء عن مفاوضات «الدار البيضاء» ؛ فقد استأنف الأميرال «كينغ» مرافعته بشأن المحيط المهمَل ، وتقدّم بمذكّرة تثبت أنّ المحيط الهادىء لا يحظى إلاّ بـ ١٥ بالمئة من المجهود الأميركيّ ، وطالب بمضاعفة هذه النسبة . وأعلن «مارشال» مجدّداً أنّه طالما لم يُتّخذ أيّ قرار بشأن الهجوم على «أوروبا» ، فقد كان على «أميركا» أن تترك «لانكلترا» و «روسيا» وحدهما مهمّة فضّ النزاع مع «ألمانيا» ، لتنصرف هي بكامل قواها المحاربة «اليابان» . فاضطرّ محبّذو الأولويّة الأوروبيّة إلى القبول ببعض التنازلات ، وجرى الاتّفاق على أن تهاجم دول الأمم المتّحدة «اليابان» . فيما تتابع تنفيذ مخطّطها المتوسطيّ ، وتضاعف الغارات الجويّة على «ألمانيا» ، وتزيد من قيمة المساعدات التي تقدّمها «لروسيا» ، فضلاً عن مضيّها في إعداد العدّة للزحف على «أوروبا» .

كانت دائرة الفتوحات اليابانيّة الفسيحة ما تزال سليمة في ذاك الوقت : فساد في «اليابان» اعتقادٌ ثابت بأنّ الحرب بالغة نهايتها الظافرة. وقد غذّت ذاك الاقتناعَ رقابةٌ صارمة جعلت الأنباء كلّها سارّة مفرحة . وعلى سبيل المثال لم تعتزم البحريّة على إعلان وفاة الأميرال «ياماموتو» إلاّ بعد شهرين ، ولكنّها عرضتها على أنّها قد أتت نتيجة لحادث عاديّ . أمّا خسائر «ميدوي» الفادحة ، وأمّا معارك «غوادالكانال» الضارية والتفوّق الأميركيّ الساحق ، فقد كان الشعب اليابانيّ يجهل عنها كلّ شيء . تغذّيه انتصارات «بيرل هاربور» و «سنغافورة» و «جاوا» ، وتهدهده الروايات التي تسرد أخبار جبن الرجل الأبيض وتخنّثه .

كانت نقاط التفوّق اليابانيّ في غاية الضخامة مبدئيّاً ؛ فالبلدان المفتوحة زاخرة بالثروات والموارد ، ووضع «اليابان» الستراتيجيّ يوفّر لها فرصة التحرّك على خطوط مستقيمة قريبة ضد عدوّ مرغَم على اللجوء إلى تحرّكات دائريّة شاسعة ؛ ثمّ لم يكن عمل السلطات المدنيّة والعسكريّة ليلقى معارضة أيّة رقابة برلمانيّة ، أو أيّ مظهر من مظاهر الرأي العامّ ، أو أي استقلال صحفيّ ؛ بل كانت السلطة مركّزة بشكل مطلَق ، طالما أنّ السلطات كلّها كانت تتجمّع في «داي هوني» ، في مقرّ القيادة الأمبراطوريّة العليا : بين يدي الإمبراطور الكليّ القدرة . كان بوسع بلد كهذا ، تخدمه مجموعة ضخمة من السكّان امتازت بالبسالة والتعصّب ، أن يدافع عن انتصاراته بجدوى لا مثيل لها . كان ذلك هو اعتقاد الكثيرين من الأميركيّين الذين قدّروا أنّ الحرب ضدّ «اليابان» ستدوم طويلاً حتّى بعد هزيمة «ألمانيا». غير أنّ ذلك ما كان ليحصل حتّى ولو لم تُخترع القنبلة الذريّة ؛ فالنظام الامبراطوريّ ، كما قد لحظ ذلك بوضوح مؤرّخُ الحرب البحريّة الأميركيّة «صموئيل إليوت موريس» ، لم يُفد من تلك الامتيازات إلاّ قليلاً ، أو بالحريّ لم تكن تلك الامتيازات إلاّ شكليّة . فالإمبراطور المطلق السلطة كان في الواقع عديم السلطة تماماً ، إذ كانت حالة الحرب تُبطل السلطة المدنيّة ؛ ولكنّ السلطة العسكريّة نفسها كانت مقسومة بين مؤسّستين مستقلّتين متنافرتين هما الجيش والبحريّة. ولم يكن الانسجام متوافراً بواسطة أركان موحّدة كما كانت الحال عند الانكليز والأميركيّين ، وإنّما باتّفاقات ، أو بالحريّ بشبه معاهدات تُعقد بين الجنود والبحّارة . كان الأميرال «شيمادا» ، وزير البحريّة، خاضعاً لنفوذ زميله وزير الحربيّة الجنرال «توغو» ، إلاّ أنّ الاحتكاكات كانت تعود إلى الظهور على مستوى درجات السلطة كلّها. أضف إلى ذلك أنّ الجهاز العسكريّ، البريّ والبحريّ، كان مشبَعاً بصلابة تفسد عليه عمله . ربّما بدا «حسام ساموراي» ، وطوق الضبّاط القاطع ، رمزاً للفروسيّة وتدريباً على الجلد وثبات الجنان في مسيرات الظفر الأولى ؛ إلاّ أنّهما كانا في الحقيقة رمزاً لجيش قديم العهد قد فقد أجلى حسناته حين زال وقع المفاجأة التي أحدثها العدوان .

لقد شكا اليابانيّون دوماً نقصاً ووهناً في ما يتعلّق بتخطيط الحرب وإدارة دفّتها ؛ فلم تُحترم المبادىء الكلاسيكيّة لتوفير القوّات ، ولم تجنّد الطاقة الصناعيّة إلاّ جزئيّاً . حاربت «اليابان» كدولة تقوم بتنظيم سلسلة من الحملات البعيدة ، لا كأمّة مقضيّ عليها بالاجتياح والاحتلال والاستعباد في حال انهزامها . وفي أيّة حال ، فإنّ الحكومة قد امتنعت عن التلميح إلى مثل ذاك الاحتمال ، على اعتبار أنّه انتهاك للقدسيّات . فالمجهود الحربيّ تسيّره خرافة المناعة المطلقة ، وعقيدةٌ راسخة في العصمة من الأذى .

أساء مؤتمرو «الدار البيضاء» معرفة نقاط الضعف تلك ، فبدت مشكلة تجريد حملة على «اليابان» عسيرة ؛ فحاملات الطائرات من مرتبة «إيسكس» لم تنخرط بعد في الأساطيل ، وإلى أن يتمّ ذلك لا يسمح ميزان القوى البحريّة باللجوء إلى عمل مباشر ضدّ مركز قوّة العدوّ . ودفعت هذه الأوهام الأميركيّين إلى الدعوة إلى تسليح الجموع الصينيّة وتجنيدها ، وبالتالي إلى إعادة احتلال «برمانيا» وإعادة فتح طريق «ماندالاي» . فلقد أشارت مخطّطات «الدار البيضاء» إلى ذلك ، وبخاصّة تحت ضغط «مارشال» الذي «كان له نحو «الصين» ميل شديد » كما قال «آلان بروك» . بيد أنّ المسرح البرمانيّ كان من اختصاص الانكليز الذين رفضوا ، استناداً إلى واقعيّتهم وحسن اطّلاعهم ، أن يُندفعوا إلى ذلك قسراً .

وبعدما تُركت «برمانيا» غارقة في سباتها ، بدا أنّ الهدف الستراتيجيّ المباشر الأوّل هو إزالة التهديد اليابانيّ الذي تتعرّض له «أوستراليا» . صحيح أنّه لم يبقَ قط كبيراً بعدما أُغرق معظم حاملات الطائرات اليابانيّة الكبيرة ، بيد أنّ أنصار حرب المحيط الهادىء ما فتئوا يلوّحون به لتبرير مواصلة العمليّات النشيطة في المقلب الثاني من الأرض . ولسوف تنشأ عن حملة «غوادالكانال» المعاكسة، التي كانت مجرّد حركة دفاعيّة، سلسلةٌ خارقة من العمليّات الهجوميّة ستبرز ، في جزر بالغة الوحشيّة والضراوة ، قدرةَ «أميركا» وقيمة الأميركيّين . أمّا معرفة ما إذا كانت تلك العمليّات تلعب في مجرى الحرب العامّ دوراً يتناسب ونفقاتها، فذاك ، لعمري ، موضوع آخر !

فتح "جيورجيا الجديدة"

هدفت الحملة الأميركيّة إلى احتلال «رابول» ، ولكنّ أهميّة تلك المحلّة بحدّ ذاتها لم تكن لتتناسب والخسائر التي ارتُضي بذلها في سبيلها . كان يقطن تلك المدينة الصغيرة ، التي عني الألمان بتشييدها خلال فترة استعمارهم القصيرة ، ما يقارب ألفاً من البيض، بين مرسلين وتجّار وموظّفين . أمّا الموقع فخطِر وغير صحيّ ؛ فهنالك أبخرة وبائيّة تفوح من مستنقع قريب ، وهنالك إكليل من البراكين المتفجّرة ، أمثال «الأمّ» ، و «الابنتين» ، و «فولكان» ، و «ماتوبي» ، لا يفتأ يهدّد المنطقة بانقلاب أرضيّ خطير . ولقد حدثت سنة ١٩٣٧ هزّة أرضيّة قضت على بضع مئات من الضحايا ، وحدثت في ١٩٤١ هزّة أخرى كانت سبباً في نقل عاصمة الانتداب الأوستراليّ إلى «لائي» في «غينيا الجديدة» . وفي أيّة حال ، كانت «بريطانيا الجديدة» ،

تلك الجزيرة التي أقيمت فيها «رابول» ، من الوحشيّة بحيث أنّ رجلاً ابيض واحداً لم يكن قد اجتازها بعد حتى أوّل ١٩٤٣ بالرغم من ضيقها . أمّا سكّانها من الماليزيّين ذوي الأبدان المطروشة بالكلس فيحيون حياة آكلي اللحوم البشريّة ، وسط أدغال شديدة الرطوبة .

بيد أنّ الحرب تخضع لاعتبارات غير اعتبارات المتعة والمناخ الصحيّ ؛ فإنّ أهميّة مرفإ «رابول» وموقعها قد دفعا اليابانيّين إلى احتلالها في ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٢ ، ثمّ أرغمت الأميركيّين على بذل الغالي في سبيل استرجاعها . أمّا المرفأ الذي أطلق عليه اسم «الخليج الأبيض» ، وهو اسم سفينة مكتشفه «سيمبسون» ، فهو أحد أفضل مرافىء العالم الطبيعيّة . أمّا الموقع الجغرافيّ فهو أميز بكثير : «فرابول» ، المبنيّة عند نقطة التقاء سلسلتين من الجزر ، تقع عند ضفيرة جنوب شرقيّ الهادىء الستراتيجيّة . فاحتلال «رابول» يعني ، على الصعيد الدفاعيّ ، إبعاد أيّ خطر يهدّد «كاليدونيا الجديدة» و «أوستراليا» ، ويعني ، على الصعيد الهجوميّ ، تحطيم حاجز جزر «بسمارك» والوصول إلى حزام المياه الحرّة الذي يمتدّ على جانبي خطّ الاستواء كليهما ، والالتفاف حول جزر «مارشال» غرباً وحول «الفيليبين» شرقاً ، ثمّ تهديد جزر «الكارولين» والشروع بفتح ثغرة باتّجاه «اليابان» .

ولانتزاع «رابول» قرّر الأميركيّون مهاجمتها بمحاذاة المحورين الجغرافيّين اللذين يتقاطعان عليها : محور «غينيا الجديدة — بريطانيا الجديدة» ، ومحور جزر «سليمان — ايرلندا الجديدة» ؛ والواقع أنّ وضعهم قد توثّق واشتدّ على المحور الأوّل إثر إخفاق الزحف «اليابانيّ» باتّجاه «بورت مورسبي» ، وعلى المحور الثاني عقب انتصاراتهم في «غوادالكانال» . وهكذا أمسكوا بزمام المبادرة بعدما تمّ لهم إيقاف العدوّ .

كانت «غينيا الجديدة» تابعة لمنطقة جنوب غربيّ الهادىء ، أي للجنرال «ماك أرثر» ، فيما ارتبطت «جزر سليمان» بمنطقة غربيّ المحيط الهادىء . أي بالأميرال «نيميتز» ، وعن طريق التفويض بالأميرال



طائرات جوماليّة يابانيّة من طراز «زيرو» في جزر «سليمان» .

«هالسي» . خضع لإمرة «ماك أرثر» الأسطول السابع يقوده الأميرال «كاربنتر» ، وقوّة جويّة قوامها ١،٣٠٠ طائرة يقودها الجنرال «كيني» ، فضلاً عن ثلاثة جيوش بريّة صغيرة جُمعت تحت إمرة الجنرال الأوستراليّ «بلامي» . أمّا «هالسي» فقد تولّى إمرة الأسطول الثالث يقوده الأميرال «تورنر» ، فضلاً عن قوّة جويّة قوامها الطيران البحريّ الذي يقوده الأميرال «فيتش» ، وعن مجموعتين بريّتين تتبع إحداهما «جيش الولايات المتّحدة» وهي خاضعة للجنرال «هارمون» ، وتتبع الأخرى «فيلق مشاة البحريّة الأميركيّ» وهي خاضعة للجنرال «فوجيل» . فعلى صعيد الوحدات الكبرى يشكّل «ماك أرثر» دزّينة من الفرق ويشكّل «هالسي» نصف دزّينة ، وعلى الصعيد البحريّ لا يملك أيّ منهما بوارج ولا حاملات طائرات ، وعلى الصعيد التنظيميّ كلّ من قوّات جنوب غربيّ الهادىء وجنوب الهادىء مشبّع بمبادىء الجيش أو البحريّة الشديدة الاختلاف ، وأمّا على صعيد القيادة ، فلم تفلح المركزيّة قط في أن تتعدّى مبدأ قيادة ستراتيجيّة مسنَدة إلى «ماك أرثر» . كان التعاون هنا أفضل ممّا كان عليه في الجانب اليابانيّ ، إلاّ أنّه ظلّ بعيداً عن الكمال .

حفل تاريخ الحرب الأميركيّ بشكاوى القائمين بحرب المحيط الهادىء . فقد قال «ماك أرثر» : « ما كان لديّ لم يكن يبلغ ٢ بالمئة من مجموع قوّات الجيش الأميركيّ ، ولم يكن يساوي ١٠ بالمئة من القوّات الأميركيّة العاملة في ما وراء البحار » . بيد أنّ عدّة فرق أوستراليّة كانت قد وُضعت بين يديه ؛ ومهما يكن من أمر فقد كانت قوّاته وقوّات «هالسي» ، مجتمعة ، تفوق العدوّ إلى حدّ بعيد .

كانت «رابول» هي مقرّ المنطقة الستراتيجيّة الثامنة الخاضعة لقيادة الأميرال «إيتوشي إمامورا» . وكان أحد الجيشين الموضوعين تحت إمرته ، وهو الثامن عشر الذي يقوده الجنرال «هاتازو أداشي» ، يحتلّ «غينيا الجديدة» والجزر المتاخمة لها ، فيما كان الجيش الثاني ، وهو السابع عشر الذي يقوده الجنرال «هارويوسكي هياكوتاكي» ، يدافع عن جزر «سليمان» . إلاّ أنّ اسم «جيش» كان أشبه ما يكون بثوب فضفاض قد ألقي على جسم قزم مهزول . فلم يكن الجيش ١٧ ، الذي أُتلف في «غوادالكانال» ، ليضمّ أكثر من فرقة واحدة كاملة ، هي السادسة . ولم يشمل الجيش ١٨ سوى ثلاث فرق هي ٢٠ و ٤١ و ٥١ . ولكي لا يستبدّ بنا العجب من ضعف القوّات التي تواجه بها «اليابان» معركةَ الهادىء الجنوبيّ ينبغي أن نذكر دوماً هذا التبعثر الواسع النطاق الذي شتّت القوّات اليابانيّة عبر المحيط ، كما ينبغي أن نذكر أنّ قسماً قليلاً من الرجال الصالحين للجنديّة قد تمّ تجنيده . وعلى سبيل المثال لم تتعدّ قوّات «إماموراً» ما يناهز العشرين ألفاً من الرجال في «جزر سليمان» ، والخمسين ألفاً في «غينيا الجديدة» . وهكذا كان الحلفاء يحاربون بنسبة خمسة مقابل واحد .

وتلك كانت حال القوّات البحريّة والجويّة ؛ فقد كان لليابانيّين ما يقارب ٤٠٠ طائرة عاملة ، أمّا أسطول الأميرال «جينيشي كوساكا» ، التابع للمنطقة الستراتيجيّة الثامنة ، فكان يتألّف من طرّاد واحد و٨ مدمّرات . الواقع أنّ الكبرياء قد سيطر على الستراتيجيّة اليابانيّة ؛ فقد كان من الحكمة ، بعد الجلاء عن «غوادالكانال» الذي طالما أُرجىء موعده ، اختصار خطوط المواصلات سريعة العطب بتقريب الدفاع من مركز «رابول» . بيد أنّه لم يكن بوسع الأركان الأمبراطوريّة أن ترضى بذاك الهوان . فقد تقرّر أن يدافَع عن مجموعة جزر «جيورجيا الجديدة» ، الواقعة وسط «جزر سليمان» ، حتى الموت . وعلى رأس «موندا» فوجئت طائرات الاستكشاف الأميركيّة برؤية قاعدة جويّة كاملة تبرز إلى الوجود بين ليلة وضحاها : كان اليابانيّون يعملون على إنشائها منذ شهور عدّة تحت غطاء من رؤوس أشجار الجوز الهنديّ منصوبة فوق شباك !

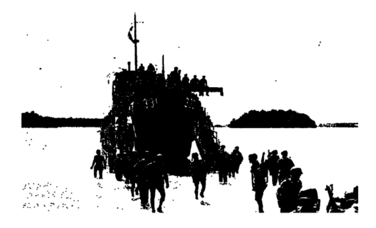
ولم يكن القتال بأقلّ ضراوة في «غينيا الجديدة» ؛ فبعد ما تراجع اليابانيّون من «بابوازيا» تشبّثوا «ببونا» الواقعة على الساحل المقابل . وإذ طُردوا من هناك إثر معارك عسيرة في مستنقعات آسنة ، حشدوا قوّاتهم حول شبه جزيرة «هوون» ، المؤدّية إلى «بريطانيا الجديدة» الواقعة في ما وراء مضيق «فيتياز» . إلاّ أنّ نكبة ألمّت بهم في أيّام آذار الأولى : ففي بحر «بسمارك» دمّرت مجموعة من طائرات «ب—٢٥» موكباً يضمّ ٧ سفن للنقل و٨ مدمّرات كان قد انطلق من «رابول» ، وعلى متنه ٩،٠٠٠ رجل . إذاً فالحرب بالأسلوب اليابانيّ لم تبقَ جولة مشرّفة ؛ بيد أنّ تعجرف



مرحلة نزول «غلوستر» في كانون الأول ١٩٤٣ . ولسوف تكون المعارك دامية ، ولسوف يُحتاج إلى حمالات الجرحى هذه !

مجالس الأركان . وتجلّد المحاربين . قد بقيا كاملين لم ينل منهما أي ضعف .

تكوّن المخطّط الأميركيّ وتبلّر ببطء ، ولم تُصب حرب المحيط الهادىء بحمّى الحرب الأوروبيّة ، فكلّ شيء هنا يحتّم من العطفات ما استطال ومن الفسحات ما اتّسع وانبسط . والسَّنَد الخاصّ بالنقل والتموين ، الذي يتطلّبه كلّ سلاح وكلّ محارب ، يفوق ما يترتّب عليه من خطورة في المنطقة الأطلسيّة أربعةَ أضعاف أو خمسة . ذاك أنّ القتال في جزر المحيط الكبير يؤول في النهاية إلى قتال تشتبك فيه حفنات من الرجال والأسلحة . ففي موقعة «بونا» وضع «إيشلبرجر» ، وهو قائد فيلق أميركيّ ، مدفعاً واحداً من عيار ١٥٥ في خطّ القتال ، وعندما لم يتمكّن من تغذيته بالقذائف لم يرَ فائدة تُرجى في أن يرسَل إليه مدفع آخر ! والوقت نفسه لا يقاس هنا بالمقاييس عينها : فبعد سلسلة من المؤتمرات تدرّجت بين «بريزبان» و «واشنطن» ، بُسطت إعادة احتلال «رابول» على مدار سنة كاملة ، ووُزّعت بدقّة إلى مراحل كثيرة متعدّدة كما يوزّع سيناريو شريط سينمائيّ . وهكذا بدا التناقض بين هذه الخطّة وانطلاق الحرب الصاعق في المحيط الهادىء ، مذهلاً مثيراً للعجب . فقد طلبَ مجلس الأركان الأميركيّ ، في سبيل استرجاع مجموعة جزر «جيورجيا الجديدة» الموحشة ، ضعفَ ما أنفقه اليابانيّون من الوقت لتحقيق فتوحاتهم كلّها من «هونغ كونغ» حتى «بحر المرجان» . لم يُشنّ الهجوم على «جيورجيا الجديدة» إلاّ في ٣٠ حزيران . وإذ لم يكن الاقتراب المباشر من «موندا» ممكناً بسبب الصخور التي تحيط بالرأس ، فقد جرى النزول إلى البرّ في جزيرة «راندوفا» الصغيرة أولاً ، ثمّ على شاطىء «زينانا» الواقع على بعد ١٠ كلم من المطار . كانت المقاومة اليابانيّة معدومة أوّل الأمر . إلاّ أنّ ما نصبته الطبيعة من الحواجز في وجه الأميركيّين يفوق كلّ وصف ؛ فما إن تكفّ الأمطار الاستوائيّة الثقيلة الهطل حتى تنفرج السماء عن شمس محرقة ثقيلة . والأدغال أسوأ من أدغال «غوادالكانال» وأردأ ؛ لم تكن هنالك طريق سالكة ؛ فكان على مشاة الفرقة ٤٣ الأميركيّة أن يشقّوا طريقهم وسط أوحال كثيفة ، وعبر خليط متشابك من الأشجار والنبات . وما تقدّموا مسافة ١٠٠ م في النهار الأوّل ، وقد كساهم الوحل والعرق ؛ حتى استحوذ عليهم ليل مؤذٍ ضارّ ، فعجّت الأدغال بكائنات عجيبة غريبة وأصوات مبهمة غامضة ، وحوّمت في الهواء أنسجة حيّة ، ومزّقت الطنينَ المتصاعدَ من مليارات الحشرات صرخاتٌ منكَرة ساخرة . وأخذت فقاقيع ضخمة من الغاز تتفجّر على سطح المستنقعات فتحدث دويّاً خافتاً أصمّ ، وملأ الوميض الفوسفوريّ ، الناتج عن انحلال النبات ، تلك الآجامَ تألّقاً غريباً بعيداً عن عالم الحسّ والواقع ؛ فاستبدّ الخوف بالجنود ، وخُيّل إليهم أنّهم يسمعون اليابانيّين يطوّفون حولهم ويحدقون بهم ، فراح الكثيرون يتراشقون بالقنابل اليدويّة أو يتبادلون الطعن بالمدى ، ممّا اضطرّ الفوج الأوّل أن يُجلي نحو «غوادالكانال» ٣٣٦ ضحيّة من ضحايا الانهيار



٢٢ تموز ١٩٤٣ : نزول مشاة البحريّة في «جيورجيا الجديدة» .



سفينة إنزال تقذف من جوفها بسيّارات «الجيب» !

العصبي» ! وهكذا كان اللقاء الأوّل بالمحيط الهادىء الجنوبيّ محنة تحطّم الأعصاب بالنسبة لفتيان أميركيّين ترعرعوا في جوّ مشبع بأسباب الرخاء والدعة . زد على ذلك أنّ مقاومة العدوّ في الأيّام التالية قد هبّت تساند مقاومة الطبيعة وتدعمها . ذلك أنّ أساليب اليابانيّين الدفاعيّة كانت تتلاءم وطبيعة الميدان إلى حدّ يثير العجب . فالمحاربون الصفر يكمنون في الجذوع البارزة من الأشجار ، ويندمجون بالنبات فيختفون . وفي قدرتهم أن يلزموا حالة من الجمود تكاد لاتنتهي . إلى أن يبرز أمام بنادقهم هدفٌ أو مرمى . لم يتقدّم الأميركيّون إلاّ مسافة ٥ كلم خلال ١٥ يوماً ، ممّا حمل «هالسي» على إجراء تبديل في القيادة . فأسند إدارة الهجوم إلى «غريزوولد» النشيط وأغدق عليه الأمداد . فبلغ عدد الفرق المقاتلة في الجزيرة الموحشة ثلاثاً هي ٢٥ و ٣٧ و ٤٣ . وهاجم راسَ «موندا» ما لا يقلّ عن ستّة أفواج ضخمة . ولقد صرّح «هالسي» قائلاً : «كان مخطّطنا قد هيّأ ١٥.٠٠٠ رجل لطرد ٥.٠٠٠ يابانيّ من «جيورجيا الجديدة» . بيد أنّ ما أرسلناه بلغ ٥٠.٠٠٠ . وإنّي . إذ أفكّر بذلك الآن ، تتصاعد إلى أنفي رائحةُ الأمجاد التافهة » .



مدفعيّة حرس السواحل تطلق نيرانها على الطائرات اليابانيّة لدى النزول في رأس «غلوستر» .

إلاّ أنّ الكفّة قد مالت مع الوقت ناحية القوّة والعدد ، فاشتدّت أعصاب الجنود الأميركيّين ، وأخذت الجارفات الثقيلة تبقر الأدغال ، وعملت قاذفات اللهب على كشف المناوشين . فسُحقت «موندا» تحت طوفان من القذائف . واستحال تأمين التموين اليابانيّ . وفي أوّل آب أرسل «غريزوولد» إلى «هالسي» برقيّة لاسلكيّة تقول : «لقد استوليت على «موندا» . وها أنا أقدّمها لك تامّة ناجزة» ! أمّا رجال الحامية فقد تفرّقوا في الغابة العذراء . وهلكوا . إلاّ القليل ، وأمّا أميركا فدفعت ثمن «جيورجيا الجديدة» ١.٠٩٤ من القتلى ، و ١.٨٧٣ من الجرحى .

وفي ٣٠ حزيران تحرّكت شعبة الكلاّبة الأخرى المسيّرة ضدّ «رابول» . وقد استولت قوّات منطقة جنوب غربيّ الهادىء على جزر «وودلارك» و «كيريوانا» ، التي جعلت مطاراتُها القاذفات الأميركيّة على بعد ٣٠٠ ميل من «رابول» . ومن ثمّ خُصّصت أسابيعُ طوال لتجهيز انبساط الهجوم إلى «غينيا الجديدة» . وراح الحصار البحريّ والجوّيّ يجوّع الحاميات اليابانيّة ويفقدها معنويّاتها . ولسوف تسهم مئات الجرائد اليابانيّة في وصف آلامهم بصورة مفجعة : «حمّى ... إنّني مرهق عقليّاً وجسديّاً . إنّني أشعر وكأنّني قطعة من قطن . أودّ لو أموت ... كثيرون هم الذين يتلاشون على الطريق ويموتون جوعاً... إنّ الملاريا تفتك بنا بإلحاح . وكذلك البرغش والحشرات السامّة . أمطار مستمرّة . الجيش يتقدّم في السيّارات والدرّاجات البخاريّة ، يالها من مهزلة ... لم يبقَ لحصص الإعاشة وجود . نحن نأكل الجذور والقشور . إنّ المعنويّات منخفضة جدّاً » .

في الجانب الأوستراليّ – الأميركيّ كانت الحسابات الدقيقة تجري . ففي سبيل الهجوم على «لائي» كانوا يريدون أحوالاً جويّة تقتضي ضباباً على «بريطانيا الجديدة» لتجميد الطيران اليابانيّ ، وسماءً صافية في الناحية الأخرى من مضيق «فيتياز» ، لتسهيل إنزال المظلّيين الحلفاء . فهذه المطالب . مضافة إلى الصعوبات في الميادين كافّة ، قد قادت إلى تأجيل «يوم النزول» من ١ إلى ٧ آب ، ثمّ إلى ١٤ أيلول . ولكنّ الهجوم أصاب نجاحاً باهراً عند شروعه . فالفرقة الأوستراليّة ، التي انبثقت من البحر ، قد نزلت شرقيّ «لائي» ، وبعد ما هبط فوج المظلّيين الأميركيّين ٥٠٣ من السماء – وكانت السماء صافية – نزلوا إلى الغرب في وادي «مارخام» العريض . وتقدّمت القوّتان باتّجاه واحد نحو مرفأ المستعمرة الذي أُنشىء لاستثمار مناجم الذهب في «بولولو» . فتمّت السيطرة عليه في ١٤ أيلول بعد مقاومة يابانيّة ضعيفة . كانت تلك هي المرّة الأولى التي يتدخّل فيها مظلّيون في حرب المحيط الهادىء . وأمّا «ماك أرثر» ، الذي كان يعتمر قبّعته المذهّبة البرّاقة . فقد أشرف على العمليّة من فوق ، من داخل طائرة «ب – ١٧» .

وبعدما طُرد اليابانيّون من «لائي» حاولوا الاستقرار في شبه جزيرة «هوون» ، التي كان مرفأها «فينشهافن» بالنسبة لـ «بريطانيا الجديدة» «ككالي» بالنسبة «لانكلترا» .فتراجعت الفرقة ٥١ عبر ممرّات «راولنسون رانج» الوعرة . فلحقت بها الفرقة الأوستراليّة ٢٩ المنقولة جوّاً وراحت ترهقها . كانت المسيرة صعبة للغاية . فتخلّى اليابانيّون عن معدّاتهم بكاملها . وألقوا أحياناً ببنادقهم جانباً . وأبحرت الفرقة الأوستراليّة ٧ بعد احتلال «لائي» فسبقت اليابانيّين إلى «فينشهافن» واحتلّتها في ٢ تشرين الأوّل . وهكذا أوشك اليابانيّون أن يُطردوا تماماً من «غينيا الجديدة» التي كانوا ما يزالون يسيطرون على قسمها الغربيّ كلّه . إلاّ أنّ الحلفاء نفذوا إلى مضيق «فيتياز» ولاحت بشائر غزو «بريطانيا الجديدة» في الأفق ؛ وقد أثبت نهائيّاً أنّ عدم انهزاميّة غزاة «سنغافورة» كان خرافة سببها ضرب من ضروب المفاجأة الصاعقة .

في الطرف الآخر من جنوبيّ المحيط الهادىء لحقت الجيوشَ الامبراطوريّةَ انقلاباتٌ مماثلة . كان الكسب الوحيد الذي نتج عن مجهود «ميدوي» الجبّار هو غزو جزيرتي «أتو» و «كيسكا» . وفي ٢٤ آذار ١٩٤٣ ، وافقت لجنة روساء الأركان العامّة على استعادة هاتين الجزيرتين . وفي ١١ أيّار نزلت الفرقة الأميركيّة ٧ إلى «أتو» وسط إعصار ثلجيّ ، ودامت المعركة في غمرة ضباب جليديّ ثمانية عشر يوماً . وفي سبيل استعادة مطار «هولز باي» شنّ اليابانيّون هجوماً انتحاريّاً فرش الأرض ببساط من الجثث . وبعدما انتصر الأميركيّون عمدوا إلى الإحصاء فإذا بالعدوّ قد خلّف وراءه ٢،٥٣١ قتيلاً و ٢٨ أسيراً ، وإذا بخسائرهم قد بلغت ٦٠٠ رجل . وبما أنّهم كانوا موقنين من وجود مقاومة ضارية

كهذه في «كيسكا» عمدوا إلى سحق الجزيرة بألف قذيفة بحريّة من أكبر العيارات . واكتشفوا بعد نزولهم أنّهم قد بذلوا نيرانهم سدى ، إذ أنّ اليابانيّين كانوا قد أخلوا «كيسكا» تحت ستار الضباب . فرقعتا الأرض الأميركيّتان الوحيدتان . اللتان وطئتهما قدم غريبة منذ حرب ١٨١٣ . قد حُرّرتا .

في الشمال . كما في الجنوب . أصابت انقلابات الأوضاع هذه أراضي لا أهميّة لها ولو طفيفة . ولكنّ هذا لم يحُل دون تسرّب القلق إلى المقرّ العامّ الإمبراطوريّ . فأجري تغيير في الستراتيجيّة اليابانيّة : تُخلّي عن كلّ رغبة تهدف إلى غزوات جديدة . ورُسم على الخارطة موقع جديد رئيس للمقاومة هو «خطّ مطلق للدفاع الوطنيّ يجب الاحتفاظ به مهما بلغ الثمن » . كان هذا الموقع يمرّ غربيّ «غينيا الجديدة» و «الكارولين» و «ماريان» . وأمّا «رابول» ومواطنها في «سليمان» و «بريطانيا الجديدة» فلم تكن مشمولة في هذه الدائرة الحيويّة . وهذا لا يعني أنّه قد ترتّب التخلّي عنها . فالقيادة اليابانيّة تعتبر أنّه من الضروريّ أن يجري فيها قتال مؤخّر إلى أطول مدى ممكن .

بعد غزو «جيورجيا الجديدة» تقدّم الزحف النظاميّ الأميركيّ على «رابول» عبر أبعد جزر «سليمان» إلى الجنوب ، وأكبرها ، وأكثرها وحشيّة ، وهي «بوغنفيل» . إنّها أرض ذات جمال قاس : ففيها بركان قويّ . يحدق به الدخان واللهيب على الدوام ، هو جبل «باغانا» الذي كان منتصباً فوق أدغال غضّة . وقد أعطت «ألمانيا» الجزيرة التي استعمرتها تسميةً خاصّة بها ، فسمّت جبال الشمال سلسلة «القيصر» ، وأمّا جبال الجنوب . التي كانت أقلّ ارتفاعاً . فقد سمّتها «وليّ العهد» . غير أن المنطقة الوحيدة التي كان يمكن العيش فيها نسبيّاً ، والتي كان اليابانيّون قد حشدوا فيها دفاعهم . وبنوا مدارجهم الجويّة . فقد كانت سهل «بوين» ، عند قدم السلسلة الأخيرة . وفي الوسط . بعكس ذلك . لم تكن تحمي خليج «الامبراطورة أوغوستا» ، الذي كان عرضة للرياح المسيطرة . غير مفارز ضعيفة . ففي هذا المكان بالذات ألقى الأميركيّون في ١ تشرين الثاني برجال فرقة المشاة البحريّة الثالثة الـ ١٤،٠٠٠ . توآزرهم دوريّة من ٢٤ كلباً مدرّبين على اقتناص المناوشين اليابانيّين المختبئين . لم يكن مخطّطهم يستهدف غزو «بوغنفيل» بكاملها ، وهي مهمّة صعبة للغاية نظراً لطبيعة النباتات والأرض ، بل مجرّد الحصول على دائرة كافية لبناء قاعدة للقاذفات الثقيلة التي ستبقي «رابول» تحت نيران حامية .

لقد أصابت عمليّة النزول التي قادها الأميرال «ولكنسون» نجاحاً باهراً . وأمّا اليابانيّون الذين حاولوا التصدّي لهذه العمليّة ، وعددهم بضع مئات ، فقد أبيدوا عن بكرة أبيهم . وكان ٣٥،٠٠٠ من اليابانيّين في طرفَي الجزيرة ، إلاّ أنّ المواصلات كانت مريعة لدرجة أنّهم كانوا بحاجة لشهرين أو ثلاثة للتركيز على المنطقة المهاجَمة التي تبعد نحواً من ستّين كيلومتراً . وهذا لا يعني أنّ الأميركيّين قد باتوا من غير خصوم . فهنالك سبع قواعد جويّة يابانيّة في «بوغنفيل» أو في الجزر المتاخمة ، و «رابول» نفسها لم تكن إلاّ على بعد ٢٦٥ ميلاً . ووقعت معارك ضارية متعاقبة في البحر وفي الجوّ على السواء . وفي محاولة لتكرار ضربة «سافو» اقتاد الأميرال «أوموري» إلى خليج «الإمبراطورة أوغوستا» طرّاديه الثقيلين «ميوكو» و «هاغونو» ، يرافقهما طرّادان خفيفان وعشر مدمّرات. ولكنّ القوّة الأميركيّة ، بقيادة الأميرال « ميريل» ، صدّت هذه القوّات وأشبعتها ضرباً قبل أن تتمكّن من الاقتراب من الناقلات . وكانت حاملتا الطائرات اليابانيّتان الكبيرتان الباقيتان ، «شوكاكو» و «زويكاكو» ، موجودتين في «الكارولين» على مدى يمكّنهما من التدخّل، إلاّ أنّ الأميرال «كوغا» ، وهو خليفة «ياماموتو» ، لم يجروْ على المخاطرة بهما للدفاع عن مخفر أماميّ «كبوغنفيل» . وعلى النقيض من ذلك فإنّ الأميرال «نيميتز» قد أفرز حاملات طائراته الجديدة «إيسكس» و «بونكر» و«هل» و «انديبيندنس» لسحق «رابول» . فالجرأة قد انتقلت كذلك من معسكر إلى آخر . وأمّا المقاتلات الأميركيّة ، التي انطلقت من جزر «راسل» و «غوادالكانال» و «وودلارك» و «بورت مورسبي» ، فقد جعلت من السماء جحيماً للطيران اليابانيّ . ففي ذلك كلّه ما يثير التأثّر ، وفيه ، في الوقت نفسه ، عدالة جليلة ، لأنّه العقاب المطّرد الذي راح يلحق بعدوّ كان جدّ مزهوّ في سكرة انتصاراته ، وجدّ قاس في غزواته .

في «بوغنفيل» تمكّن بعض الوحدات اليابانيّة من إنشاء شبه جبهة حول رأس الجسر الأميركيّ . ولقد دعّم هذه الوحدات في ٧ تشرين الثاني نزولٌ مضادّ في رأس «توروكينا» ، كما دعّمتها كذلك بالتدريج عناصر قادمة من «بوكا» و «كيتيا» و «بوين» . ولكنّ الأميركيّين أعادوا توازناً راجحاً بإرسالهم الفرقة ٣٧ ، ومن بعدها فرقة «أميركال» ، ومن ثمّ الفرقة ٤٠ ، وأخيراً الفيلق ١٤ . وراحت كميّات هائلة من العتاد تتكدّس فوق ضفاف المرجان وفي جزيرة «بورناتا» الصغيرة التي قال «غريزوولد» عنها «إنّه كان ينتظر رزوحها تحت عبء الثقل الذي ألقي عليها ». وقد أعاد «غريزوولد» بفضل كفاءته وهدوئه بعضَ النظام إلى الفوضى ، وأعدّ ، فضلاً عن القتال ضدّ اليابانيّين ، القتالَ ضدّ «بوغنفيل» . إنّ الأميركيّين لم يعرفوا ولن يعرفوا قطّ خصماً مخيفاً كهذا .

بعد «غوادالكانال» و «جيورجيا الجديدة» ظنّ المقاتلون أنّهم قد تعرّفوا إلى الوهن الحقيقيّ ، ولكنّهم كانوا يجهلونه في الواقع . كان سفح «بوغنفيل» الغربيّ غارقاً في غمرة الأمطار الساحقة التي كانت تنحدر من الجبال العالية ، جارفة معها تراب الأراضي البركانيّة ، مكوّنة مستنقعات آسنة لاتوصف . فإن نسي المقاتلون لم ينسوا غرق جرّار في الوحل كما تغرق سفينة في البحر ، من غير أن يخلّف وراءه أيّ أثر . كان مشاة البحريّة يتقدّمون وقد غاصوا حتّى ركابهم ، وحتّى أفخاذهم ، وحتّى آباطهم ، في خضمّ من الوحل السائل . وفي المساء كانوا يعلّقون أسلحتهم إلى جذوع الأشجار وينامون قعوداً ، دافعين للحمّى وللأمراض الاستوائيّة ضريبةً سرّت دوائر الصحّة لكونها وقفت عند حدّ معقول من الخسائر .

ولحسن الحظّ أتى التحقيق الجيولوجيّ، الذي ركّز عليه الأميركيّون مشروعهم . صادقاً أميناً . فهنالك ، في المستنقع الساحليّ ، بعض رقع من الأرض صلبة تمكّن من إقامة بعض المدارج الجويّة . فأنشىء مدرج أوّل على الساحل نفسه ، مخصّص للمقاتلات ، وشُرع في بناء مدرجين آخرين للقاذفات ما بين «البيفا» ونهر «كوروموكينا» ، وكانت ثماني



صورة التقطتها في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٣ قاذفة من القاذفات الأميركيّة التي أغرقت ٢٦ سفينة يابانيّة في خليج «رابول» .



سفن الإنزال الراسية في «بوغنفيل» تحمي نفسها من هجمات الطيران الانقضاضية بشبكة من المناطيد المطاطية .



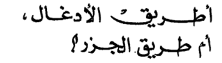
أوّل دفعة من الجنود النازلين في جزيرة «بوغنفيل» .



مشاة البحرية يقفزون من قواربهم في «بوغنفيل» .

كتائب من العمّال تعمل فيهما . وشُقّ عبر غابة أشجار جوز الهند الكثيفةبعضُ الطرقات،وكان عتاد الآليّات الذي يحرّك التربة ويسطّحها يهدر ويخار ؛ وبعد ذلك رُكِّز تلبيس المدارج المعدنيّ بواسطة الجرّارات الضخمة . ففي تعاقب المطر والشمس والقنابل ، كانت ورشة جبّارة للأشغال العامّة تنبض نشاطاً في إحدى أكثر جزر «سليمان» وحشيّة .

كان أحد المدارج جاهزاً في عيد الميلاد . ولأيّام خلت كان جزء من قوّات «ماك أرثر» قد اجتاز مضيق «فيتياز» وانتقل من «غينيا الجديدة» إلى «بريطانيا الجديدة» . وبذلك تكون الجزيرة التي تحمل «رابول» قد اجتيحت . فقد كان خطّان من القوى يتّجهان نحو نقطة واحدة بصورة بطيئة لاتُصدّ ، نحوقاعدة «اليابان» الجوّية البحريّة الكبيرة في بحار الجنوب.



كانت الستراتيجية الأميركيّة ترمي منذ ذلك الحين إلى أبعد من استعادة مركز متوغّل من مراكز الغزو اليابانيّ . فالأمر الذي كان يبدو في مستهلّ السنة في مؤتمر «الدار البيضاء» وكأنّه هدف ضائع في غياهب البعيد ، أي بالتالي احتلال «اليابان» ذاتها ، قد بات الآن مشروعاً واضحاً جليّاً . وفي سبيل بلوغ هذه الغاية كانت هنالك نظريّتان متضاربتان .

إحدى هاتين النظريّتين هي نظريّة البحريّة . فالعهد الذي كانت البحريّة تقاتل فيه بحفنة سفنها الناجية من «بيرل هاربور» قد انقضى ؛ فقد نزلت إلى الساح بوارجُ كبيرة من مرتبة «واشنطن» ، وحاملات طائرات من مرتبة «إسكس» . وقد مكّن فنّ تزويد الجيوش بالمؤن والعتاد من خلق سلسلة قواعد في المحيط الهادىء . فيها مخازن شاسعة . ومستودعات للسلاح والذخيرة : «بريزبين» و «سيدني» في «أوستراليا» ؛ «ويلنغتون» في «زيلاندا الجديدة» ، «توميا» في «كاليدونيا الجديدة» ، «تولاغي» في «جزر سليمان» ، «تاندي» و «سوفا» في جزر «فيلجي» . جزيرة «كانتون» في أرخبيل «سوسييتي» ، الخ ... فالبحريّة ، تلك العملاقة الفتيّة ، قد اقترحت ستراتيجية مواتية لطبيعتها . وخطّ التقرّب الذي تقترحه كان يمرّ عبر الهادىء المتوسّط ، من خلال أنصاف الجزر ، وهي حفنة من ذرّات المرجان تحمل اسم «ميكرونيزيا» ، ومنها جزر «جيلبرت» و «مارشال» و «كارولين» و «ماريان» و «بونان» . كان اليابانيّون قد امتلكوا قسماً من هذه الجزر بموجب التفويض الذي حصلوا عليه من «هيئة الأمم» بعد الحرب العالميّة الأولى . وقد قاموا بغزو الجزر الأخرى . وبنوا فيها المطارات ؛ وأقاموا الحاميات.وكانت البحريّة الأميركيّة عازمة على استعادة هذه الجزر واحدة بعد الأخرى حتّى تبلغ مدى يمكّنها من



وها هم مشاة البحريّة ، وقد استقرّوا في مواقعهم . يا لها من مواقع !

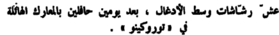


« بوغنفيل » ، ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٣ :
الكشافون يجوبون الآفاق تصحبهم كلابهم .

القصف . ومن ثمّ . إذا كان الأمر ضرورياً ،حتى تبلغ مدى يمكنها من غزو «اليابان» ...

كانت نظريّة «ماك أرثر» مماثلة . إلاّ أنّ مراحلها كانت مختلفة . فالطريق التي يوصي بها . بعد الإجهاز على «رابول» . كانت تمرّ بشماليّ «غينيا الجديدة» وتصل إلى «الفيليبين» من خلال «مينداناو». كانت هذه الجزر جبليّة ، كبيرة ، كثّة ، موبوءة ، متوحّشة ، وكان على المشاة أن يذوقوا فيها ما ذاقوا من الآلام في «بابوازيا» و «غوادالكانال» و «جيورجيا الجديدة» . ولكنّ «ماك أرثر» ، الجنرال البرّيّ . راح يدافع عن نظريّته ببراعته في الإقناع وحزمه اللذين يجعلان منه شخصيّة فذّة تنعم بالعناية الإلهيّة . وخطيرة في آن معاً .

وأمّا اللجنة المشتركة لرؤساء الأركان العامّة ، وهي منسّقة الستراتيجيّة الأميركيّة . فقد كانت تؤثر طريق الجزر . وقد أعربت عن ذلك جهاراً . على الرغم من اعتراضات «ماك أرثر» الطنّانة ، بتخويلها الأميرال «نيميتز» غزو جزر «جلبرت» . وبوضعها فيلق مشاة البحريّة تحت



عشّ رشّاشات وسط الأدغال ، بعد يومين حافلين بالمعارك الهائلة في « توروكينو » .



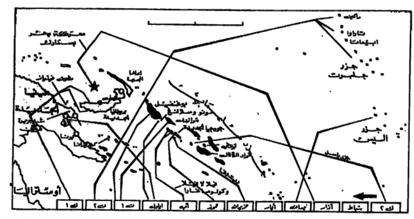


إنّه «ستيوارت فولر» ، أحد مشاة البحريّة . ما مضت ثوان على نزوله في «بوغنفيل» حتى أطلق رصاصة استقرّت بين عيني أحد اليابانيّين.

تصرّفه . ولكنّ «ماك أرثر» يشكّل قوّة كبيرة لا يمكن إقصاؤها و إسناد دور ثانويّ إليها ، ولذلك تمّ الاتّفاق في النهاية على أن لا يكون هنالك خيار : فلسوف يتقدّم الانتقام نحو «طوكيو» في طريقين بدلاً من طريق واحدة ، فقوّة «الولايات المتّحدة» تتحمّل ، من غير عواقب وخيمة. ثنويّة الجهود هذه .

إبتدأت حرب الجزر بعد غزو «بوغنفيل» بأيّام وكان الهدفان الأوّلان المعيّنان مجموعتين من جزر أرخبيل «جلبرت» هما «ماكين» . حيث أنشأ اليابانيّون قاعدة للطائرات البحريّة ، و «تاراوا» حيث بنوا مطاراً برّيّاً . فهاتان البقعتان كانتا متشابهتين مشابهتهما البقاع التي سيقتحمها الأميركيّون

الزحف الحليف في جنوب غربيّ المحيط الهادىء ، شهراً شهراً، سنة ١٩٤٣.



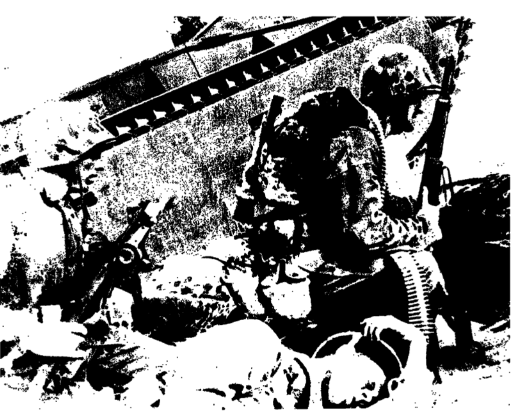
في كلّ مكان من «ميلانيزيا» . فهناك شطّ من المرجان ينبثق من المحيط فيكوّن بحيرة كاملة أو تكاد تكون كاملة . وعلى مساحات تبدو شاسعة ، وهي في الواقع جدّ تافهة إذا ما قيست «بالمحيط الكبير» ، يكتسب البحر لون حجر اليشب . وتكسب الصخور الأمواج بياضاً ناصعاً . وأمّا أكثر الجزر ارتفاعاً . وعلوّها متران أو ثلاثة أمتار عن سطح الماء ، فهي تحمل ، أو لا تحمل . هالة أشجار جوز الهند التي تتميّز بها الصور الشعبيّة لتلك الجزر . والحرارة هناك معقولة بفضل اللهاث البحريّ . والبحر فيها على الدوام روعة من الهدوء البرّاق . ويعصف إعصار من وقت لآخر ، ولكنّه قلّما يودي بأشجار الجوز وبالرجال جميعاً في آن .

إن الحملة الأميركيّة على جزر «جلبرت» شديدة الشبه بحملة اليابانيّين على «ميدوي» ، باستثناء النتائج . كانت جسور السفن المشتركة فيها تتعدّى بمساحتها مساحة الجزر التي يستهدف غزوها ، فكان ذلك أشبه باستعراض للباليه ضخم وصارم راح يقود إلى أراضٍ تافهة قوّة تدمير لم تحمل الأمواج لها مثيلةً قبل ذلك اليوم .

من الشمال أقبلت القوّات «ت.ف. ٥٠–١» و «ت.ف. ٥٠–٢» و «ت.ف. ٥٢» . وكانت تؤلّف نواةَ القوّتين الأوليين حاملاتُ الطائرات «يورك تاون» و «لكسنغتون» و «كوبنز» و «انتربريز» و «بيلوورد» و «مونتيري» . ترافقها البارجتان «ساوث داكوتا» و «مساتشوستس» . وكانت «ت.ف.٥٢» هي قوّة الهجوم المكرّسة «لماكين» ، وتضمّ بالتالي مجموعة من الناقلات ومن ناقلات الإنزال إلى الشاطىء . توآزرها تشكيلة منوّعة من سفن القتال ، نخصّ منها بالذكر البوارج «ايداهو» و «ميسيسيبي» و «نيومكسيكو» و «بنسيلفانيا» . وكانت ترفرف على هذه البارجة الأخيرة رايةُ الأميرال «تيرنر» . وفي الجنوب كان التنظيم مماثلاً ، فكانت الـ «ت.ف.٥٠–٣ و ٥٠–٤» تضمّان حاملات الطائرات «إسكس» و «بونكرهل» و «انديبندنس» و «ساراتوغا» و «برنستون» ، بتغطيتها المعتادة المكوّنة من طرّادات ومدمّرات . وأمّا الـ «ت.ف.٥٣» التي ستقوم بالانقضاض على «تاراوا» فقد كانت تدعّمها البوارج «ميريلند» و «تينيسي» و «كولورادو» ، وحاملات الطائرات المواكبة «سانغامون» و «سوويني» و «شينانغو» و «بارنز» و «ناسّو» . ومن على متن الطرّاد الثقيل «انديانابوليس» كان منتصر «ميدوي» ، الأميرال «ريموند أ.سبروونس» ، يقود هذا الأسطول الذي يضمّ ٢٠٠ قطعة ، والذي يحمل ٥٠،٠٠٠ بحّار . في ذلك الحين لم تكن قد انقضت سنتان على واقعة «بيرل هاربور» التي ظنّت «اليابان» بعدها أنّها قد محت من الوجود ، لسنين عديدة ، قوّة «الولايات المتّحدة» البحريّة . وأمّا موضع هذا الحشد الهائل فقد كان المحيط الهادىء الذي احتجّ بصدده «كينغ» و «نيميتز» و «ماك أرثر» ، والشيوخ الانعزاليّون السابقون ، والولايات الغربيّة بكاملها ، مدّعين أنّه مسرح مهجور . وكانت مهمّة هذه القوّة البحريّة الفائقة أن تُنزل في «ماكين» ٦،٥٠٧ رجال من فرقة المشاة ٢٧– وبصورة أصحّ إلى جزيرة «بوتاريتاري» الصغيرة – و١٥،٥٤٥ رجلاً من فرقة مشاة البحريّة الثانية في «تاراوا» – وبصورة أصحّ في جزيرة «بيتيو» الصغيرة. وكانت الصور الجويّة التي تعين على تمهيد الهجوم واضحة لدرجة أنّه أمكن إحصاء حفر المراحيض الموجودة على ضفّة البحرة ، ممّا مكّن

مشاة البحريّة يطأون الأرض وهم غائصون في غوارب الموج !





مشاة البحرية ينطلقون من أحد شواطىء «تاراوا» في هجوم على المطار . ولقد كلّفهم هذا الهجوم غالياً ، إذ سقط منهم ألف قتيل و ٢،١٠٠ جريح !

رشّاشان ينتظران أمراً بالانطلاق إلى ساحة القتال من هذا المخبإ المدرّع ، فيما غاب ثالث عن والعهما في عالم آخر .

من تقدير عدّة الحاميات بفارق لا يتجاوز مئة رجل زيادة أو نقصاناً . كان لليابانيّين في «ماكين» ٨٠٠ رجل ، نصفهم من العمّال الكوريّين ، وفي «تاراوا» ٤،٨٠٠ جنديّ . وقد صرّح قائد هذه القاعدة الأخيرة ، الأميرال «كيجي شيباشي» ، بأنّ الأميركيّين لن يستولوا على «تاراوا» بمليون من رجالهم حتى بعد مئة عام .

وتمّت عمليّتا النزول معاً في ١٨ تشرين الثاني. وفي «ماكين» لم تُعتبر المقاومة ضارية : فلم يكن على الأميركيّين غير قتل ٦٩٥ مدافعاً ، بينما رضي مئة منهم ، ومعظمهم من الكوريّين ، بعار الأسر . وفي «تاراوا» كان القتال ، بعكس ذلك ، بلا رحمة . كان الإعداد البحريّ والجويّ قد قتل نصف المدافعين ، إلاّ أنّ هوى طارئاً من أهواء حركة الجزر أدّى إلى جنوح مبكر للقوارب البرمائيّة على الصخور العائمة على مستوى البحرة ؛ فكان على البحّارة أن يترجّلوا في قلب الأمواج تحت نيران حامية . ولكنّهم تمكّنوا من التشبّث بالشاطىء وبلوغ الليل ؛ وفي اليوم التالي تقدّموا مسافة ٥٠٠ متر قاطعين جزيرة «بيتيو» من جهة إلى جهة ، وأجهز على جيوب المقاومة بقاذفات اللهب . وعندما توقّف القتال في ٢١، كان ٤،٦٥٤، من مجموع رجال الحامية الـ٤،٨٠٠، قد قُتلوا ، ولم يكن هنالك من أسرى غير الجرحى . وقد فقد الأميركيّون نحواً من ألف قتيل . وبعدما غدوا أسياد «بيتيو» بات سهلاً عليهم احتلال ما بقي من الجزر الصغيرة في الحلقة الجزيريّة ، فوجدوا فيها بعثة مرسلين تضمّ كهنة بلجيكيّين وفرنسيّين كانوا قد عُزلوا عن العالم منذ بداية حرب المحيط الهادىء ؛ ولقد ذهل الكهنة لعلمهم أنّ «أميركا» قد استطاعت العيش والصمود في غمرة الانتصارات اليابانيّة .

في ١٩٤٢ كان الأميركيّون قد غامروا، بما خلّفته لهم «بيرل هاربور» من قوّة بحريّة ، لإنقاذ «ميدوي» . وبعكس ذلك كانت ردّة الفعل اليابانيّة في وجه غزو جزر «جلبرت» ضعيفة جداً . وفجّر طوربيد سعيد الحظّ انطلق من الغوّاصة «إ-١٧٥» حاملة الطائرات «لسكوم بي» - وهي سفينة حرب مرتجلة - بيد أنّ أسطول الأميرال «سبروونس» الجبّار كان يسيطر بزهو على البحار . وكانت البارجتان القويّتان «ياماتو» و «موشاشي» في «تروك» ، فبقيتا فيها ! وقامت حفنة من القاذفات «بيتي» من قواعدها في الجزر بشنّ بعض الهجمات ، ولكنّ حاملات الطائرات كانت خالية من الطائرات . إنّ المعركة في سبيل «رابول» قد أنهكت «اليابان» . وهكذا كانت حملة جزر «جلبرت» العظيمة مقدّمة لغزو جزر «مارشال» ، ومن بعدها الأرخبيلات الأخرى ، وهي تعبّر عن القوّة الخارقة التي كانت «أميركا» تتمتّع بها. وذلك فضلاً عن الجهود الخارقة التي كانت تفردها في «أوروبا» ، والاستعدادات الهائلة التي كانت تحشدها فيها . وإنّه ، لعمري ، وقت العودة إلى ذلك المسرح الهامّ .

قضى الأميركيّون ٧٦ ساعة بعد هجومهم الجماعيّ الكثيف وهم يطهّرون الأدغال من بقايا اليابانيّين بقاذفات اللهب وبالقنابل اليدويّة .





فرقة من مشاة البحرية تهاجم «تاراوا» الحصينة التي قال فيها الأميرال «كيجي شياشي»: «لن يستولي الأميركيّون على «تاراوا» ولا بمليون من رجالهم حتى بعد مئة عام». ولكنّ «تاراوا» سقطت أخيراً، ولكنّ ثمنها كان باهظاً!



مخلّفات العاصفة الهوجاء، عاصفة القتال. لم يبقَ ذاك الفردوس الشاعريّ سوى حطام، وقيح، بعد ما قطعت رؤوس نخيله، وامتلأت غاباته بالجثث، وتناثرت في مياهه بقايا السفن. ولقد خيّم سكون الظفر الرهيب بعد لعلعة جحيم الصخب!

سقوط

في ٢ و ٣ أيار ١٩٤٣ ، أي قبل سقوط مدينة «تونس» بستة أيام ، انعقد حول «الفوهرر» مؤتمر عسكريّ خطير .

ليسقط «الدوتشي»



ولقد حضر هذا المؤتمرَ المارشال «كيتل» . والمارشالان «فون كلوغي» و «فون مانشتاين» قائدا مجموعتي الجيوش الوسطى والجنوبيّة . ووزير التسليح «سبير» . والجنرالان «زيتزلر» و «جيشونيك» رئيسا أركان الجيش والطيران ، والكولونيل — جنرال «مودل» قائد الجيش التاسع . وأخيراً أحد العائدين من عالم النسيان . وهو الكولونيل — جنرال «غوديريان» الذي صفح عنه «هتلر» فجأة بعدما كان قد نقم عليه ورذله في كانون الأوّل ١٩٤١ . فعيّنه مفتّشاً عامّاً لجيش المصفّحات . وقد أتى بهذه الصفة يُسهم في اتّخاذ قرار حيويّ رئيس : ترى . أينبغي أن تعود «ألمانيا» ، في الصيف الثالث التالي ، إلى الإمساك بزمام المبادرة في «روسيا»؟ أم أنّ عليها أن تلتزم موقف الدفاع فتوفّر قواها لمواجهة حرب قد غدت بعد اليوم مفتوحة على جبهتين ؟

إتّفق «هتلر» ومستشاروه جميعهم . والأسى يحزّ في نفوسهم . على نقطة واحدة : لن يكون هجوم ١٩٤٣ شبيهاً بزحفَي الصيفين السابقين ؛ فقد سعى زحف ١٩٤١ إلى إبادة الجيش الروسيّ . وهدف زحف ١٩٤٢ إلى تحقيق فتوحات كان من شأنها أن تؤمّن مناعة «ألمانيا» على الصعيدين الاقتصاديّ والستراتيجيّ ؛ وبات أقصى ما يمكن رجاؤه من هجوم ١٩٤٣ إعادة التوازن إلى الجبهة الشرقيّة . فالجيش السوفياتيّ دفع غالياً ثمن انتصاره في «ستالينغراد» ، وانتهت موقعة الشتاء أمام «الدنيبير» بانتصار ألمانيّ . وقد يكون بوسع انتصار جديد ، ولو محدوداً ، أن يعوق «روسيا» عن استئناف الزحف طوال شهور . فيوفّر للجيش الألمانيّ الاستراحة التي يحتاج إليها لتصفية الخطر البارز في الغرب .

منذ أن حلّت هدنة الأوحال . والخطوط الروسيّة ترسم حول «كورسك» ناتئة ذات قاعدة رباعيّة الزوايا تبلغ ضلعها ٢٠٠ كلم تقريباً . وما ألقيت أوّل نظرة على الخارطة حتى نشأت فكرة محاولة خنق الناتئة وتدمير ما فيها من القوّات أو أسرها . كان «زيتزلر» قد أعدّ خطّة تقوم على تنظيم هجومين متلاقيين . هجوم ينطلق من الشمال وتشنّه مجموعة جيوش «فون كلوغي» . وآخر في الجنوب تشنّه مجموعة جيوش «فون مانشتاين» . كانت تلك المحاولة نسخة مصغّرة لمعارك التطويق التي عرفتها سنة ١٩٤١ . والتي حقّقت «لألمانيا» حصادها الخارق من الأسرى. ولكي يتمكّن «زيتزلر» من إنشاء ذراعَي ملزمته عمد إلى تجريد القطاعات الأخرى . فالذراع الشماليّة يشكّلها الجيش التاسع بقيادة «مودل» النشيط الذي لم يمضِ زمن على برئه من جرح أصابته به رصاصة أطلقها عليه أحد الأنصار : فقد عهد إليه «زيتزلر» بخمس فرق مصفّحة . وفرقتين من قوى النخبة (وهي التسمية الجديدة التي أطلقت على الفرق الآليّة) و ٧ فرق من المشاة . ويشكّل القوّات المهاجمة في الجنوب مفرزةُ جيش «كيمبف» ، وجيش الدبّابات الرابع التابع للكولونيل — جنرال «هوث» . فإذا هناك ١١ فرقة مصفّحة و ٧ فرق من المشاة . بذلك يبلغ مجموع القوّات المخصّصة للخطّة ٣٣ فرقة ، منها ١٦ مصفّحة ، ويكاد

نزول الانكليز في «صقلّية» في ١٠ تموز ١٩٤٣ .

ذلك يكون أقصى ما يستطيع الجيش الألمانيّ توفيره .

لم يتحمّس «هتلر» للفكرة ، فوضع لها شرطاً يقضي بألاّ يعرّض الزحف «أوكرانيا» الصناعيّة للخطر ، وبالتالي بألاّ يضعف الجيشين الأوّل المصفّح والسادس الذي أعيد تشكيله ، المكلّفين بحماية حوض «الدونيتز» . ثمّ إنّه فرض بعض المهلات : أوّلاً ليفسح أمام الدبّابات «بانتير» فرصة دخول الميدان ، ثمّ لأنّه أراد أن يتبيّن حقيقة الوضع في «أفريقيا الشماليّة» قبل أن يندفع بكلّ قواه في «روسيا» . ولذا شهدناه في «مونيخ» يصغي خصوصاً إلى أصحاب الاعتراضات «كمودل» الذي زعم أنّ الفرصة المؤاتية قد فاتت، و «سبير» و «غوديريان» اللذين كانا يخشيان التعرّض لخسائر لا تتناسب والنتائج التكتيكيّة المرجوّة . وهكذا انتهى المؤتمر بإرجاء جديد . وأعلن «هتلر» أنّه ما يزال بحاجة إلى التفكير .

عبثاً حاول الجنرالات المدعوّون إلى «مونيخ» أن يحصلوا على بعض الإيضاحات المتعلّقة بالوضع في المتوسّط ؛ فإنّ «هتلر» قد طبّق على منفّذي الجبهة الروسيّة البسيطين أولئك المبدأ الهتلريّ القائل بألاّ يطّلع أحد إلاّ على ما يخصّه مباشرة . واكتفى بإعلان عزمه على المحافظة على رأس الجسر التونسيّ . وما انقضى أسبوع حتّى أتى الواقع يكذّب ذاك التأكيد : فلقد سقطت مدينة «تونس» ، وأسر الجيش الألمانيّ الإيطاليّ برمّته . وباتت المشكلة محصورة في تحديد النقطة التي سيوجّه الحلفاء إليها جهودهم وضرباتهم المقبلة . الواقع أنّ حركة المدّ البحريّ كانت قد أجابت عن هذا السؤال في ٣٠ نيسان إذ دفعت إلى شاطىء «هويلفا» جثّة ضابط بريطانيّ هو الميجر «مارتن» التابع لمشاة البحريّة الملكيّة . وضعت السلطات الإسبانيّة يدها على أوراقه ، وبعد تردّد قصير سلّمتها إلى الملحق العسكريّ الألمانيّ . كان «وليم مارتن» العاثر الحظّ عضواً في مجلس أركان اللورد «لويس مونتباتن» ، وكان قد زوّد برسالة شخصيّة وجّهها «أرشيبالد ني» ، نائب رئيس الأركان الامبراطوريّة ، إلى القائد البريطانيّ الأعلى في المتوسّط السير «هارولد ر.ل .ج. ألكسندر» الموقّر . إستخلص من تلك الرسالة أنّ الانكليز والأميركيّين ، وقد حقّقوا انتصارهم في «تونس» ، يعتزمون النزول في «اليونان» ؛ أمّا الإعدادات الجارية ضد «صقلّية» فلا تعدو أن تكون عمليّة تمويه وإلهاء .

وجد «هتلر» في تلك الوثيقة التي حملتها غوارب الأمواج وغمرات الموت ما يثبت وجهات نظره ؛ فهو لم يفتأ يؤكّد ، مخالفاً في ذلك رأي «موسوليني» ، أنّ الحلفاء لن ينزلوا في «صقلّية» ، ولن يتجشّموا مشقّة الارتقاء الطويل عبر الجزمة الإيطاليّة ، بل إنّهم سيصبّون جام غضبهم على «البلقان» ؛ فمنه تستخرج «ألمانيا» و «إيطاليا» ما يلزمهما من نحاس وألومينيوم وكروم ونفط ، والسكّان هناك في شبه ثورة ينتظرون وصول المجتاحين ، وعن تلك الطريق قد يتمّ تطويق ميمنة الجيوش الألمانيّة في «روسيا» ، وقد يحصل الانكليز على الغرض الذي ما انفكّوا يسعون إليه منذ أمد بعيد ، ألا وهو تدخّل «تركيا» . أثبتت الرسالة المسلّمة إلى الميجر «مارتن» أنّ القيادة الانكلو سكسونيّة تفكّر كما يفكّر «هتلر» ، وها هي الجثّة تثبت صحّة ذلك .

في ١٤ أيّار أعطت مذكّرات قيادة الجيش الألمانيّ العليا حقّ الأولويّة «للبيلوبونيز» ؛ فوُجّهت الأمداد الألمانيّة الرئيسة شطر «البلقان» ، بما في ذلك أفضل الفرق المصفّحة على الإطلاق ، أي الفرقة الأولى . وعبثاً حاول «غوديريان» ، رئيسها القديم ، أن يحتفظ بها . وكُلّف «رومل» بإعداد شبه الجزيرة للدفاع . ولم يبقَ من الأجناد الألمانيّة في «صقلّية» سوى فرقتين هزيلتين ، وبعض الأنساق الخلفيّة المتبقّية من الوحدات الكبيرة التي دُمّرت في «أفريقيا» . ومع أنّ الإيطاليّين كانوا يتوقّعون اجتياح الجزيرة — ولقد حيل بينهم وبين الاطّلاع على أوراق الميجر «مارتن» — فإنّ ما تمّ اتّخاذه من التدابير لم يكن كافياً قطعاً. ولقد وصف قائد فرقة الصاعقة «قسطنطين فون نوراث» نجل وزير الخارجيّة القديم ، «لهتلر» ، إفلاس معنويّات الجند ، والروح المعادية «لألمانيا» المتفشّية بين السكّان ، وأمنيّات الخيانة التي كانت تراود الجنرالات ؛ فما كان من «هتلر» ، عقب هذه المقابلة ، إلاّ أن كتب إلى «موسوليني» رسالة عنيفة شديدة اللّهجة ؛ إلاّ أنّه ، وفي ذلك ما يدلّ على الاتّجاه الذي تميّز به تفكيره ، لم يندّد بحليفه إلاّ في ما له علاقة «بالبلقان» : فالجنرالات الإيطاليّون ، بتشجيعهم الاتّجاهات القوميّة ، وتهاونهم في قمع نشاط الأنصار ، يعرّضون للخطر منطقة ذات أهميّة أولى بالنسبة لإدارة العمليّات الحربيّة . ومهما يكن من أمر ، فإنّ مرحلة اللوم والتقريع قد انقضت ؛ فلقد أصدر «هتلر» أمره بإعداد خطّة لاحتلال «إيطاليا» عسكريّاً ، كما أعدّ مخطّط آخر مماثل لاحتلال «البلقان» .

أمّا الميجر «مارتن» فقد كان وليد الدهاء البريطانيّ : فهو لم يسقط من طائرة ذهبت ضحيّة حادث ، بل أودع الماء ، في تيّار ملائم ، على يد الغوّاصة «سيراف» — وهي نفسها التي أنزلت «كلارك» في «شرتشل» ، وأقلّت «جيرو» في «لافندو» . أمّا الميت فقد قدّمه أحد مستشفيات «لندن» ، ثمّ زوّد بهويّة مقنعة . أمّا رسالة الجنرال «ني» ، وهي صحيحة باعتبار أنّ موقّعها نفسه قد كتبها ، فكانت شَرَكاً . الواقع أنّه لم يطرأ أيّ تعديل على اتّفاقات «الدار البيضاء» : فبعد تحرير «أفريقيا» الكامل ، سينزل الحلفاء في «صقلّية» . أمّا المرحلة التالية فلم تقرّر بعد ، والمشادّة الستراتيجيّة بين الانكليز والأميركيّين كانت أعنف منها في أيّ وقت مضى .

وفي ١٢ أيّار انتقلت المشادّة إلى «واشنطن» . وصل «تشرتشل» في طريقه إلى المؤتمر على متن «الكوين ماري» تحفّ به هيئة أركانه الرائعة ، فإذا بالأميركيّين قد التزموا جانب التحفّظ والحذر ، وتدرّعوا بالريبة ، وقد اقتنعوا ، أكثر منهم في أيّ وقت مضى ، بأنّ الحرب المتوسّطيّة ليست إلاّ عمليّة تحاول فيها «بريطانيا العظمى» استخدام قوّتهم لتحقيق مآربها الاستعماريّة . وثبّت «ألان بروك» الأميركيّين في ظنونهم إذ قال إنّه لا يعتقد أنّ الزحف على «أوروبا» الغربيّة ممكن قبل ١٩٤٥ . وربّما ١٩٤٦ . اضطرّ «تشرتشل» إلى الإذعان للضغط الأميركيّ بالرغم من رأي مستشاره العسكريّ ذاك ، فقبل بتحديد أوّل أيّار ١٩٤٤ موعداً للنزول في «فرنسا» ، كما اضطرّ إلى القبول بسحب سبع فرق من المتوسّط لإضافتها إلى القوّات المحتشدة في «انكلترا» . إلاّ أنّه بقي يصرّ بكلّ



في هذه الشاحنة نُقلت جثّة «الماجور مارتن» إلى الغوّاصة «سيراف» .

ما لديه من قوّة على أن يكون هدف الحلفاء التالي هو «طرد «إيطاليا» من الحرب» . فينبغي ألاّ تُعتبر «صقلّية» مقعداً وثيراً تنطرح عليه الجيوش الظافرة في «أفريقيا» ، بل «مقفزاً» يمكّنها من الوثوب إلى شبه الجزيرة الإيطاليّة لإرغام«موسوليني » على الاستسلام .

وأخيراً وُفّق «أيزنهاور» إلى حلّ وسط ، سوف يتوقّف نطاق العمليّات في «إيطاليا» على سير معركة «صقلّية» . فإن بدت المقاومة ضعيفة ، وأمكن فتح الجزيرة قبل ١٥ آب مثلاً . فستعبر الجيوش الحليفة مضيق «مسينا» لمواصلة تفوّقها في «إيطاليا» القاريّة . أمّا إذا بدت المعركة كأداء مترجّحة . فلسوف تُتّخذ التدابير الكفيلة بالحدّ من النفقات .

إفلاس حرب الغوّاصات

في الوقت الذي كان فيه المؤتمر منعقداً خطا الحلفاء خطوة جبّارة نحو النصر . فالعبء الأكبر الذي كان يثقل كاهل ستراتيجيّتهم قد تلاشى : إنّ حرب الغوّاصات كانت في سبيلها إلى الإخفاق .

فمن جملة انقلابات الأوضاع التي نتجت عن الحرب ، يمكننا أن نضاهي المزائم الألمانيّة أمام «موسكو» و «ستالينغراد» ، دون سواها ، بطابع العنف الذي اتّسم به إفلاس الغوّاصات . فقد كانت الغوّاصات تشرف على النصر في مطلع الربيع ، فإذا بها تُطرد من البحار في مطلع الصيف !

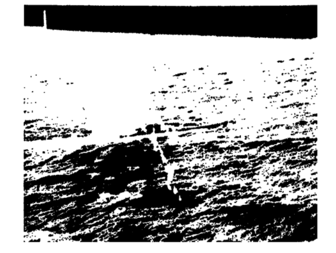
كانت خطّة الذئاب على ما يرام . فقد راحت مئة غوّاصة تنشط في «الأطلسيّ» ،في آن معاً ، زمراً مؤلّفة من ١٢ إلى ٢٠ غوّاصة . وفي آذار أغرقت ٨٥ سفينة تجاريّة ، ومنها ٢١ من جملة ٣٥ سفينة كانت تؤلّف القافلتين «هـ ك ٢٢٩» و «س ل ١٢٢» . وفي نيسان ، وعلى الرغم من بعض الرحلات التي نعمت بقسط أوفر من الحظّ ، ذهب ٣٥٠،٠٠٠ طنّ إلى القاع . وأمّا خسارة الغوّاصات نفسها ، وهي ٥ في الشهر الواحد . فكانت لا تتجاوز في الأكثر خُمس العمارات الجديدة التي تنزل إلى الميدان . وفي الجانب الحليف بقي التوازن بين نسبة الأطنان المبنيّة والأطنان المدمّرة يشكو عجزاً أكيداً . وفي الجانب الألمانيّ كان أسطول الغوّاصات في ازدهار مطّرد . وإزاء هذين الواقعين بقي غزو «أوروبا» أمراً محالاً .

وفجأة تغيّر كلّ شيء . راحت الغوّاصات تتلاشى بالجملة وهي في طريق عودتها في معظم الأحيان، في الوقت الذي كانت فيه القيادة العامّة تعتبرها بعيدة عن الخطر . وأمّا التقارير البحريّة التي وضعها القوّاد الناجون من هذا النوع الهجوميّ الجديد . فقد مكّنت من إماطة اللثام عن هذه الكارثة الغامضة : كانت الغوّاصة تسبح على سطح الماء ليلاً لتعبئة بطّاريّاتها وتجديد مؤونتها من الأوكسيجين ، معوّضة بذلك بطأها القاتل في حالات الغوص . وفجأة كانت منائر تُضاء في السماء ثمّ تهطل القنابل . فزيادة حاملات الطائرات المواكبة ، وهي سفن نقل محوّلة . واستخدام رادار من عيار ١٠ سم ، قد مكّنا الحلفاء من هذه المطاردة الشرسة . كان الليل صديقاً لبحّارة الغوّاصات وملاذاً لهم ، فإذا به يخونهم ويفضحهم !

كان أيّار شهراً جلَلاً . فـ ٣٨ غوّاصة ، أي واحدة من أصل كلّ ٣ ، لم تعد إلى قواعدها . وطلب «دونتز» أن يختلي بالفوهرر ، وصعد إلى «أوبير سالزبرغ» ليصف له الكارثة ويشرحها . فمقابل تدمير ٢٤٠،٠٠٠ طنّ من السفن التجاريّة ، كان فقدان ٢،٠٠٠ ضابط وبحّار من رجال النخبة ثمناً ساحقاً . وأمّا القادة فقد أعربوا عن عزمهم على التضحية ، وهم أكثر الضبّاط خبرة ، ويحملون صلبان الفرسان مع أوراق السنديان والسيوف ، أمثال «روسكيل» ، و«ليمان – فيليربوك» ، و «شولز» : إلاّ أنّهم كانوا يرون أنّه من المحال متابعة القتال بسفن تقطع ٩ عقد أثناء غوصها ، مرغمة على الصعود إلى وجه الماء للتنفّس كلّ ٢٤ ساعة . ولذلك اعتزم «دونتز» سحب غوّاصاته من الأطلسيّ الشماليّ ريثما يأتي إلى حلّ وقائيّ . فهذه الغوّاصات لن تعمل موقّتاً إلاّ في البحار النائية ، هذا إذا وصلت إلى هناك .

كانت ردّة فعل «هتلر» غاية في الحدّة ؛ فقد راح يذرع مقصورته الفسيحة وهو يزأر : إنّه لا يقدر على قبول الحلّ الذي انتهى إليه أميراله الكبير ! ولا يمكن أن يقتنع بأنّه في حوزة الانكليز – وهو لا يأتي على ذكر الأميركيّين مطلقاً – العدد الكافي من حاملات الطائرات ومن الطائرات للإشراف على الأطلسيّ الشماليّ بكامله . ولذلك فهو لا يقدر أبداً على التخلّي عن حرب الغوّاصات . قال : «إنّ الأطلسيّ هو حفرتي الدفاعيّة . فإن تخلّينا عن حرب الغوّاصات ، بات غزو «أوروبا» أمراً ثابتاً » . وأصدرت للحال أوامر تقضي بأن تحقّق رغبات «دونتز» من غير تأخير ، وبأن يضع «غورنغ» نفسُه الطيرانَ الألمانيّ تحت تصرّف أميرال بحريّته . ولسوف يقيم «دونتز» فوق سفنه منشآت مضادّة للرادار ، وبطّاريّات مضادّة للطائرات . وسيحثّ على إنجاز «الشنوركل» ، وهي الأنابيب التي تمكّن الغوّاصات من ضخّ الهواء إلى سطح الماء ، وتتيح السير غوصاً بواسطة الديزل فتوفّر عليها الصعود إلى السطح في فترات متعدّدة . ولكنّ «الشنوركل»لم يكن غير حلّ موقّت في أيّ حال . ولم يبقَ وارداً، لسوء الحظّ ، بناء الغوّاصات من طراز الدارة المغلقه الذي كان البروفسور «فالتر» يعرضها منذ سنوات عديدة . ولكنّ العمل سيسير حثيثاً لبناء الغوّاصات من طراز ٢١ التي ستبلغ سرعتها ١٧ عقدة ونصف أثناء غوصها . فبفضلها بات يرتجى أن تعود حرب الغوّاصات إلى الازدهار في أوائل ١٩٤٤ .

في حزيران تدنّت زنة السفن التي أغرقت في الأطلسيّ إلى ٢٧.٠٠٠ طنّ . وفي البحار كافّة إلى ١٥٧،٠٠٠ طنّ ، وفي تموز ، وعلى أثر الأوامر التي أصدرها «هتلر» . ارتفعت أرقام التدمير إلى ١٣٦.٠٠٠ طنّ وإلى ٣٨٩.٠٠٠ طنّ . إلاّ أنّ خسارة٢٥ غوّاصة أتت تعاضد«دونتز» . ممّا أدّى إلى تخفيف العمليّات . وفي آب لم يفقد الحلفاء في الأطلسيّ غير سفن أربع زنتها ٢٧،٩٤١ طنّاً . وهذه أوّل مرّة منذ بداية الحرب تتفوّق فيها زنة السفن المصنوعة على زنة السفن المدمّرة في المحيطات جمعاء ، بما



الطائرات الأميركيّة تهاجم إحدى الغوّاصات الألمانيّة .



فيها المحيط الهادئ . وهكذا ربح الحلفاء هذه الجولة الرئيسة ، فباتت طريق المشاريع الكبرى مفتوحة .

«كورسك» ، مرحلة جديدة من مراحل الهزيمة

بين «أفريقيا» و «أوروبا» ينتصب هرم بركانيّ ذاعت شهرة مناعته . يبلغ ارتفاعه ٨٥٠م ، هو جزيرة «بنتلّيريا» . رغب «أيزنهاور» في وضع يده عليها ليؤمّن لنفسه مدرجاً للطائرات قريباً من شواطئ «صقلّية» . كان بإمرة الحاكم ، الأميرال «جينو بافيزي» ، حامية تتألّف من ١١،٠٠٠ إيطاليّ و ٨٧ ألمانياً ، فكُلّف بإخضاعها مجموعتان من طائرات «ب ــ ٢٥» ، وثلاث مجموعات من طراز «ب ــ ٢٦» ، وأربع مجموعات من طراز «ب ــ ١٧» ، وكُلّفت بالنزول فيها الفرقةُ البريطانيّة الأولى يقودها الميجر جنرال «كلوترباك» .

في ١١ حزيران، وبعد قصف دام ١٢ يوماً ، أخذت الجزيرة تنفث الدخان كأنّ بركانها قد استيقظ من سباته، واتّجهت زوارق الإنزال نحو شواطئها الرمليّة النادرة . وما لبثت المدمّرة «لافوري» أن أشارت إلى أنّها ترى علماً أبيض يخفق فوق مركز الإشارة الساحليّ ؛ واستُقبل الجنود البريطانيّون بعلم أبيض مماثل . فوقّع الأميرال «بافيزي» على وثيقة الاستسلام زاعماً أنّ الماء قد نفد لديه ، مع العلم أنّ المجتاحين قد وقعوا على صهاريج كثيرة مترَعة ! لم تفقد الحامية إلاّ ١٠٠ من رجالها ، وذلك بفضل الملاجئ الممتازة المحفورة في الجبل . أمّا التقرير البريطانيّ فسوف يذكر ما يلي : « جريحنا الوحيد في تلك العمليّة هو جنديّ قد عضّه ابن آوى» !

لم تمضِ على ذلك ٢٤ ساعة حتى استسلمت جزيرة «لمبادوزا» المزوّدة هي الأخرى ، بمدرج للطائرات ، لرقيب أميركيّ اضطرّ إلى الهبوط فيها اضطراراً !

إقتنع «هتلر» أخيراً ، إثر ذينك الفتحين اليسيرين ، بالتخاذل

الهجوم على ناتئة « كورسك » . منذ ٥ تموز سمّرت الهجمات الروسيّة المعاكسة الزحف الألمانيّ إلى الحضيض .

الإيطاليّ ، إلاّ أنّ اقتناعه بأنّ النزول الحليف المقبل سيتّخذ «البلقان» مسرحاً له لم يتغيّر في شيء . وأخذ «موسوليني» يئنّ شأن رجل مُصاب ويقول : «ما سقوط «بنتلّيريا» إلاّ ناقوس الخطر ؛ أجل ، لقد قرع ناقوس القدر ... »

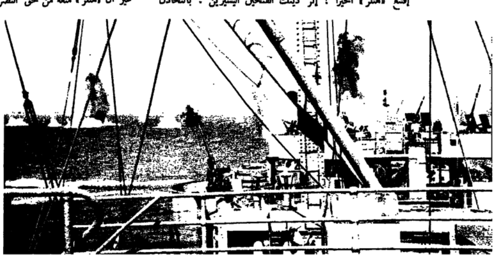
واستفاقت الجبهة الروسيّة بدورها ؛ فبعد تردّد طويل أصدر «هتلر» أمره بالهجوم ؛ فشنّت في ٥ تموز كلّ من مجموعتَي جيوش «فون كلوغي» و «فون مانشتاين» هجومها باتّجاه الأخرى . كان الجوّ والأرض أصلح ما يكونان ملاءمة لهجوم مصفّح . ولقد وُضعت تحت تصرّف «كيمبف» و «هوث» و «مودل» معاً ١،٠٨١ دبّابة ، منها ٢٠٠ «بانتير» من زنة ٤٥ طنّاً ، و ٩٠ «تيغر» من زنة ٥٥ طنّاً ، يضاف إليها بعض نماذج عن أحدث الأجهزة المصفّحة صنعاً ، عَنيتُ الدبّابة «فرديناند» ذات الأطنان السبعين ، التامّة المناعة تقريباً ، ولكن البطيئة ، والسيّئة التسليح بالنسبة لقتال قريب المدى .

في مقرّ قيادة الفوهرر أمسك كلٌّ أنفاسه ؛ كان «هتلر» قد قبل مبدئيّاً بموقعة ذات هدف محدود ، إلاّ أنّ بصيصاً من الأمل قد انبعث في نفسه واستأثر بها ، فشرع يكرّر ادّعاءه بأنّ «روسيا» قد فقدت ١١ مليوناً من المحاربين ، وأنّها لا تقف الآن إلاّ بمجهود خارق من التعصّب والتصلّب . وربّما قُيّض لهذه العمليّات أن تكون هي الصدمة التي ستقضي على البناء بالانهيار .

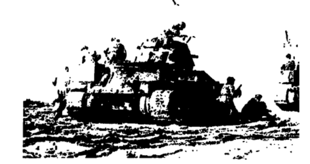
زحف «مودل» على الجانب الشماليّ من ناتئة «كورسك» ، بفيالقه المصفّحة الثلاثة ٤٦ و ٤٧ و ٤١ ، الموزّعة بشكل مثلّث رأسُه إلى الأمام . كان خصمه هو المارشال «روكوسوفسكي» قائد الجبهة الوسطى ، ولكن سرعان ما أدرك الإعياء الألمان وهم يتخبّطون وسط شبكة متراصّة من التحصينات الدفاعيّة . وبعدما تمكّن الفوج المصفّح ٤٧ من بلوغ «أولغوفاتكا» الواقعة على ٢٥ كلم من قاعدة انطلاقه ، أرغمته على التراجع هجماتٌ معاكسة عنيفة ؛ وإذا بالزحف الشماليّ يتوقّف منذ ٧ تموز .

وانقضّ «مانشتاين» على الجناح الآخر من الناتئة ضاغطاً على جانبَي «بييلغورود» كليهما ؛ وفيما أخفقت مفرزة «كيمبف» ، المشتملة على الفيلق المصفّح ٣ والفيلق ١١ ، أمام الموقع السوفياتيّ الرئيس ، تمكّن الجيش المصفّح الرابع ، المشتمل على فيلق الدبّابات ٤٨ والفيلق المصفّح الصاعق والفيلق ١١ ، من فتح ثغرة باتّجاه «أوبويان» .

حاول «مانشتاين» تغذية نجاحه بزجّ أجناد حديثة طازجة في تلك الثغرة ، غير أن «هتلر» منعه من حقّ التصرّف بفيلق الدبّابات ٢٤ الذي كان



من مشاهد عمليّات النزول في « صقلّية »: السفن الحليفة تتعرّض لنيران طائرات المحور بعدما أنزلت جنودها .



الهجوم الروسيّ المعاكس في ناتئة «أوريل» . وقد أحدث المشاة ثغرة عميقة تساندهم الدبّابات .

عليه أن يؤمّن عصمة «الدونيتز» .

وشنّت جبهة السهوب في ١١ تموز هجوماً معاكساً ما عتّم أن استحال مبارزة هائلة شاسعة للدبّابات . فقد الروس عدّة مئات من الأجهزة إلاّ أنّ اندفاع المدّ الألمانيّ قد تحطّم . تقدّم «مانشتاين» مسافة ٥٠ كلم ، ولكنّه لم يكد يجتاز نصف طريق «كورسك» .

في اليوم التالي ، في ١٢ تموز ، استدعي «فون كلوغي» و «فون مانشتاين» إلى «رستنبورغ» ، حيث أطلعهما «هتلر» على تطوّرات الموقف الأخيرة . كان الانكليز والأميركيّون قد نزلوا في «صقلّية» منذ ٢٤ ساعة؛ فالإيطاليّون هناك لا يقاتلون ، وقد بات لزاماً سحب بعض القوّات من الجبهة الروسيّة لمواجهة الخطر المتفاقم في المتوسّط ، وبالتالي كان لا بدّ من التوقّف عن الهجوم في الجبهة الروسيّة. وأردف «هتلر» يقول إنّه يأسف لكونه قد قبل به على الرغم من حدسه ، وأنّ المضيّ فيه سخف وخرق .

فاحتجّ «مانشتاين» قائلاً إنّ التضحيات الجسيمة التي ارتضيناها من أجل الهجوم ستذهب أدراج الرياح ، إذا نحن أقدمنا على إيقاف معركة قد يكتب لها التوفيق والنجاح. أمّا «كلوغي» فقد سلّم بالأمر معلناً أنّ جيشه التاسع غدا أعجز ما يكون عن مواصلة الزحف، وأنّه قد بات عليه أن يعود إلى مواقع انطلاقه . لأنّ الوضع قد انقلب رأساً على عقب . فمشكلة المجموعة الوسطى لم تبقَ بتر ناتئة «كورسك» ، بل منع الروس من بتر ناتئة «أوريل» وإيقاع الجيوش الألمانيّة المقيمة داخلها في التهلكة .

كانت ناتئة «أوريل» هذه نقيضة ناتئة «كورسك» : فالخطوط الألمانيّة تتوغّل بعيداً ضمن الخطوط الروسيّة . وكانت الاستعدادات لبتر هذه الناتئة قائمة على قدم وساق حين شُنّ الهجوم الألمانيّ . وقد رفض «ستالين» إيقافها . فلم تنحرف الأمداد الموجّهة إلى جبهة «بريانسك» عن أهدافها، واستمرّ الإعداد للحملة السوفياتيّة وفقاً للمبادىء التي حقّقت نجاحها الباهر على «الدون» وعلى «التشير» : تمهيد هائل رهيب تقوم به المدفعيّة . تفتح بعده دبّابات المواكبة ثغرة ضيّقة في الجبهة . فتعمد الوحدات الآليّة الكبيرة إلى استغلالها أبعد استغلال . كان الوضع التكتيكيّ ممتازاً . فناتئة «أوريل» لا يرويها غير خطّ حديدي واحد . إذا وُفّق الروس إلى قطعه توافرت لديهم مادّة «لستالينغراد» جديدة !

بدأ قصف الإبادة فجر ١٢ تموز . ولم تمضِ عليه ساعتان حتى تمكّنت أربعة أسنّة من خرق التؤلول الألمانيّ : «بغراميان» في الشمال ، و «بيلوف» في الشمال الشرقيّ ، و «غورباتوف» في الشرق ، و «بوخوف» في الجنوب الشرقيّ . إتّجهت هذه الحملات نحو نقطة مركزيّة واحدة هي «أوريل» ، ما عدا الأولى التي مضت باتّجاه الخطّ الحديديّ بين «أوريل» و «بريانسك» . كانت فترة من الاستقرار دامت ٢٢ شهراً قد مكّنت الألمان من إقامة موقع محصّن ، بيد أنّ القطاعات بدت بالغة الاتّساع فيما ظهرت نسبة الاحتلال ضئيلة جداً . ما كان الوضع ليستقيم إلاّ بمناورة تقوم بها قوّات الاحتياط ، غير أنّ جيش الدبّابات الثاني ، الذي وقعت عليه الصدمة ، كان قد جُرّد تماماً لتغذية الهجوم . ثُقب الموقع الرئيس منذ المساء الأوّل ، وتجاوز تقدّم «بغراميان» البالغ الخطر مسافة ٢٥ كلم . لم يكن بوسع الألمان إلاّ أن يقاوموا قدماً قدماً ، فيما بادرت القيادة إلى تجريد أجزاء أخرى من الجبهة لإقامة سدّ يحول دون استمرار الفيضان . ولسوف نمضي في سرد أخبار هذه المعارك الرهيبة في الفصول التالية . إلاّ أنّه يجدر بنا ، قبل العودة إلى معركة المتوسّط ، أن نسجّل أنّ الحملة الروسيّة قد أدركت منعطفاً يساوي بخطورته منعطفي «موسكو» و «ستالينغراد» . فبينا حطّمت أولى هذه المواقع المناعة الألمانيّة المعهودة ، وضعت الثانية حدّاً للهجمات ذات الأهداف العامّة. أمّا موقعة «كورسك» ، وهي أقلّ اتّساعاً وشهرة ، فقد عنت بالنسبة «لألمانيا» فقدان زمام المبادرة على الجبهة الشرقيّة فقداناً شاملاً نهائيّاً . حتى إنّ الخطّة الدفاعيّة الهجوميّة نفسها لم تبقَ بمتناول الجيش الألمانيّ ، الذي أمسى أشبه ما يكون بملاكم مهزوم يواجه عاصفة من الضربات المحكمة بضربات قد انتابها الخور والضعف المتزايدان .

فقدان «صقلّية» يطيح الفاشستيّة

إنّ الشاطىء الجنوبيّ الشرقيّ من «صقلّية» هو سهل ينفرج ويتقلّص تبعاً للواجهة الجبليّة التي تشرف عليه في ابتعادها عن البحر ودنوّها منه . وهنالك أودية منفتحة كالأقماع ، في تخوم الأقسام التي تفصل بينها تقدّمات الجبل . وهنالك طريق وخطّ للسكّة الحديديّة يمرّان بين قسم وآخر ، متعرّجين بين هُدُب الأمواج وأقدام المرتفعات . وكانت طرقات أخرى ترتقي نحو الداخل . وكان العطش سيّداً في التلال . فيما تعيث الملاريا في الأراضي المنخفضة خراباً . وأمّا المرافىء فعاديّة . وأمّا المدن فصغيرة . وكانت «جيلا» أكثرها أهميّة . وتاريخها يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد . وكان وجه العصريّة فيها ممثّلاً بالفقر والإهمال ؛ إنّها تقوم على خليج واسع الانفتاح . من غير حماية في وجه ثلاثة أرباع دائرة الرياح

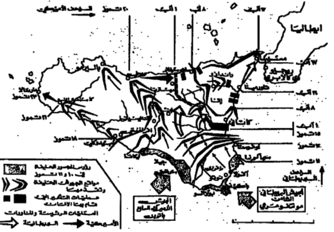


حطّت هذه الطائرة الروسيّة في إحدى الغابات بصورة اضطراريّة ، فاستولى عليها الألمان .



طائرات المحور تغير على قوافل التموين الحليفة . إلاّ أنّ هذه الردّة أتت متأخّرة لأنّ المفاجأة وضعت العدوّ أمام الأمر الواقع .

إنّ «جيلا» التافهة هذه كانت تعوق قلب الجيش الأميركيّ السابع الموضوع تحت إمرة «جورج باتون» . وقد كُلّف فريق بأن يستولي عليها عنوة في الوقت الذي تطأ فيه الفرقة الأميركيّة الأولى الشواطىء المجاورة . وكان على الفرقة الثالثة أن تنزل إلى الشاطىء إلى الشمال ، بالقرب من مرفإ «ليكاتا» الصغير ؛ وعلى الفرقة ٤٥ أن تنزل إلى اليمين ، من جانبَي دسكرة «سكوليتي» . وكان هنالك خوف من نزوات البحر غير المرتقبَة .



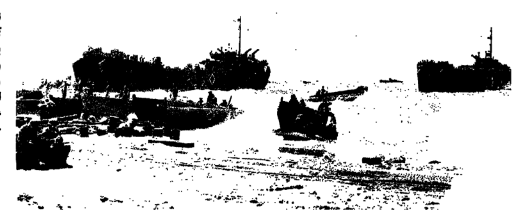
الحلفاء يغزون «صقلّية» (تموز — آب ١٩٤٣) .

وأمّا قطاع الجيش البريطانيّ الثامن الذي كان يغطّي الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة من المثلّث الصقلّي ، ابتداء من شبه جزيرة «بيكينو» حتى أبواب «سيراكوزا» ، فقد كان في وضع أقلّ حرجاً من الوضع المذكور آنفاً . كان على جنود «مونتغومري» أن ينزلوا على الشواطىء، فكان على الفيلق ١٣ ، المؤلّف من الفرقتين ٥ و ٥٠ ، أن يقيم رأس جسر على خليج «نوتو» ؛ وأمّا الفرقة السكوتلانديّة ٥١ ، والفرقة الكنديّة الأولى ، فكان عليهما أن تهاجما شرقيّ «بيكينو» وغربيّها . ولسوف يقيم البريطانيّون والأميركيّون اتّصالهم في سهل «راغوز» قبل بسط عمليّاتهم باتّجاه الداخل .

قبل ذلك بأيّام قليلة كانت الصحف الإيطاليّة قد نشرت خطبة مملّة ألقاها «موسوليني» في مجلس الحزب الفاشيّ ، قال فيها : « إذا قُدّر للعدوّ أن ينزل بشواطىء «إيطاليا» فلسوف يباد عن بكرة أبيه على خطّ الرمل عند حدود الماء . وإن هو احتلّ رقعة من الوطن ، فسيكون ذلك في وضع أفقيّ ، لا عموديّ ، وذلك إلى الأبد ! »

كان «ألفريدو غوتزوني» هو قائد الجيش السادس، وحاكم «صقلّية» العسكريّ ، وقد آلت اليه مهمّة الحفاظ على كلام «الدوتشي» الخُلّب . فهذا القائد الذي كان في السادسة والستين ، وهو أحد منهزمي «ألبانيا» . قد تخلّى عن كلّ رجاء باطل منذ زمان بعيد ؛ ففرق دفاعه الساحليّة الستّ ، السيّئة التسليح ، كانت منتشرة فوق قطاعات من مئة كيلومتر . ومن جملة فرق التحرّش الأربع كانت واحدة فحسب ، وهي «ليفورنو» . حائزة على نواة من الدبّابات الفرنسيّة القديمة وهي من المغانم الألمانيّة سنة ١٩٤٠ . وأمّا فرقتا الجيش الألمانيّ الموجودتان في «صقلّية» فلم تكونا إلاّ اسمياً تحت إمرته ، إذ كان رؤساؤهما يتلقّون الأوامر مباشرة من «كيسلرنغ» ، أو من ضابط اتّصاله الجنرال «فون سنجر» . وكانتا ، على كلّ حال ، ضعيفتين نوعاً ؛ ففرقة المصفّحات ١٥ لا تملك سوى ٤٦ دبّابة خفيفة ،وفرقة «هيرمان غورنغ» ، التي ضُحّي بأكبر قسط منها في «تونس» . كانت تعدّ ٩٠ دبّابة ، منها ١٧ «تيغر» ، ولا تضمّ أكثر من كتيبتين من المشاة .

لم يكن الحلفاء مطمئنّين إلى الوضع بتاتاً . فهم لأوّل مرّة يقتربون من «أوروبا» الحصينة ، وهم ، على الرغم من انتصارهم في «تونس» ، يدركون تماماً سطوة «ألمانيا» العسكريّة . والاقتراب من الشاطىء في ليل ٩ إلى ١٠ تموز لم يلقَ أيّة مقاومة ، إلاّ أنّ البحر كان مائجاً ، وأمّا إنزال فرق سبع إلى اليابسة في الوقت نفسه ، فقد كان مغامرة صعبة . وكانت أوّل عمليّة للجيوش المنقولة جوّاً محبطة للعزائم ، بسبب الرياح العاصفة



نزل الحلفاء في « جيلا » في ٩ تموز . « عند الظهر هبّت ريح باردة نوعاً من الشمال الغربيّ ، وهذا أمر نادر في ذلك الفصل . واشتدّ الهواء بعد الظهر ، وما لبث أن عصف في المساء محوّلاً عمليّات النزول إلى مغامرات خطرة ...»

(« تشرتشل » في مذكّراته)

التي بعثرت المظليّين جميعاً في كافة أنحاء «صقلّية» . وعلى الشواطئ أخفقت زوارق هجوم كثيرة في إنزالها ، وفي ظروف معيّنة كان بعض الطلقات الضعيفة كفيلاً بردع جنود المشاة عن مغادرة زوارقهم . فلو كانت هنالك مقاومة ثابتة لجعلت من الهجوم الأوّل إخفاقاً تاماً .

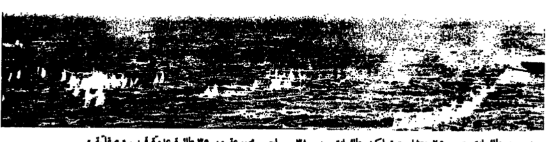
بيد أنّ القصف المتكرّر الذي كان المدافعون يتعرّضون له منذ ستّة أسابيع قد انتزع منهم نهائياً البقيّة الباقية من معنويّاتهم . ففرّت الفرقتان الساحليّتان ٢٠٦ و٢٠٧ وكأنّهما رجل واحد . وهكذا استولي على «جيلا» وتمّ تدعيم رأس الجسر الأميركيّ منذ الليلة الأولى .

كان النجاح أكثر وهجاً عند الإنكليز . فقد نُسب لموقع «أوغوستا سيراكوزا» البحريّ طاقة من المقاومة لا حدّ لها ، وهو معسكر برمائيّ محصّن بإمرة الأميرال «ليوناردي». وكان على ١٢٧ طائرة أن تُنزل في شبه جزيرة «مادّالينا» لواءً منقولاً جوّاً مكلّفاً بهجوم مفاجئ . ولم تتمكّن من الهبوط غير ١٢ طائرة منها ، إلاّ أنّ الضبّاط الثمانية وجنودهم الستّين الذين استولوا على الجسر فوق «الأنابو» ، وهي طريق النفوذ إلى «بواز» . والمدمّرات «شوبريك» و «جيفر» و «باتلر» و «غلينون» مدمّرة عدّة دبّابات «تيغر» على الطرق الساحليّة . وظهرت المقاتلات — القاذفات ، التي كان الضباب الصباحيّ قد شلّها ، فبدّدت كلّ مظهر من مظاهر الخطر .

في ١٥ تموز بات السهل الساحليّ بكامله في أيدي الحلفاء . من «أمبيدوكل» حتّى «أوغوستا» . « فخطّ الرمل عند حدود الماء » لم يكن للغزاة قبراً كما تنبّأ «موسوليني» !

في «إيطاليا» ، أطاح غزو «صقلّية» الفاشيّةَ المترجرجة . وأمّا الملك الصغير ، الذي اجتاحت الدموع وجهه الهرم ، فقد استمرّ في مؤامرته المراوغة مع المارشال «بادوليو» ورئيس الوزارة السابق «بونوني» ، وحتّى مع بعض الموسولينيّين الذين فقدوا حظوتهم ، أمثال رئيس الشرطة السابق «كارمين تشينيزي» . وأمّا أعيان النظام فكانوا منقسمين بين تيّارين اثنين : أولئك الذين كانوا مع «غراندي» و «بوتّاي» و «تشيانو» يرغبون في إخراج «إيطاليا» من الحرب مهما بلغ الثمن ، وأولئك الذين





سرب من طائرات « ب ٢٥ متشل » تواكبه طائرات «ب ٣٨» يهاجم مجموعة من ٣٥ طائرة عدوّة قرب « صقلّية » .

«سيراكوزا» . تمكّنوا من الاحتفاظ بموقعهم ١٢ ساعة متيحين بذلك أمام الفرقة الخامسة مجال التدخّل . وقام «ليوناردي» بنسف بعض المنشآت ثمّ تراجع نحو «أوغوستا» . وفي عشيّة النزول نفسه كان الانكليز قد سيطروا على مدينة فيها ٥٠.٠٠٠ من السكّان ، وعلى مرفإ جيّد .

وقامت فرقة «هيرمان غورنغ» بهجوم معاكس في اليوم التالي ، وقد تأخّرت أثناء اجتيازها القرى الطويلة ذات الطرقات الضيّقة . وقد أحدث انبثاقها في السهل الساحليّ ، عبر طرقات «نيميسكي» و «بيسكاري» ، لدى الأميركيّين بدايةَ ذعر وبعض عمليّات إجلاء . ولكنّ الطرّاد «سافانا» أنقذ الموقف بأن قصف بمدافعه من عيار ٥ بوصات حشداً من دبّابات « ب ز.ك ف٤ » في مطار «بونتي أوليفو» ؛ وانضمّ إليه الطرّاد كانوا مع «فاريناتشي» » يرغبون في توثيقها اتّحاداً مع «ألمانيا» في السرّاء والضرّاء . وأمّا «سكورتزا» ، وهو السكرتير الجديد للحزب الفاشيّ ، فقد وعد السفير «فون ماكنسن» بوثبة وطنيّة «شبيهة بوثبة «فرنسا» في سنة ١٧٩٣» . وهكذا راح الطبقيّون يجوبون مقاطعات «إيطاليا» ، ويعلنون أنّ الوطن في خطر ، مطلقين كلمة السرّ : « النصر أو الموت » . وقبل بعضهم ورفض البعض الآخر . وكان «رينوغراندي» من جملة الرافضين ، وكان يأبى مغادرة قلعته السياسيّة في مدينة «بولونيا» ؛ وصهر «الدوتشي» . «غالياتزو تشيانو» ، الذي اعتذر متذرّعاً بحالته الصحيّة . والذين قبلوا كانوا حزنين منقسمين ؛ فقد اعربوا ، قبل أن يقوموا بحملتهم الصليبيّة الوطنيّة ، عن عزمهم على مناقشة «الدوتشي» ، وتمكّنوا في ١٦ تموز من



في أواخر تموز ١٩٤٣ . جنود كنديّون يهاجمون محطّة صغيرة في «صقلّية» . حقّاً إنّ حملة « ايطاليا » لقاسية . ولقد ابرق الجنرال « ألكسندر » إلى « تشرتشل » يقول : « حارب الجيش الأميركيّ السابع ببسالة وأنجز مهمّة جليلة . وذلك كان شأن الكنديّين الذين استهلّوا القتال بأعمال مجيدة . قد يكون التقدّم بطيئاً ، ولكنّ وعورة المسالك تحول دون السرعة » !

فرض وجودهم في قصر «البندقيّة» ، وكانوا ١٩ . كان كثيرون منهم في ثياب مدنيّة ممّا جعل الدوتشي يقول بلهجة عنيفة : « ما هذه الثياب التي يرتديها هؤلاء؟ » كان النقاش عاصفاً . وراح «فاريناتشي» يهاجم الجنرالات ، طالباً رأس «امبروزيو» و «رروواتا » و «غوتزوني» ، داعياً إلى انعقاد«المجلس الكبير »لكي تعصف في قلب الحرب روح ثوريّة . وطالب «بوتاي» كذلك «بالمجلس الكبير » ، ولكنّ النيّات كانت مختلفة. قال : «ليس ذلك لتجزئة سلطتك أو الانتقاص منها ، أيّها الدوتشي ، بل للإسهام في تحمّل أعباء مسؤوليّاتك» . وبعدما وقع «موسوليني » في نصف غيبوبة من الألم ، رضخ وقال : «إنّكم تريدون «المجلس الكبير » ؟ فليكن لكم ما شئتم . فسيقول أعداؤنا إنّنا فعلنا ذلك للاستسلام . انتم وحدكم المسؤولون» . وحدّد موعد الجلسة في ٢٤ تموز ، ممّا ترك أمام المؤامرات ثمانية أيّام كاملة للانعقاد .

إنّ تشتّت «صقلّية» قد شحن صدر «ألمانيا» سخطاً ؛ فطلب «هتلر» مقاضاة الأميرال «ليوناردي» ، الذي لم يبد بعد «سيراكوزا» أيّة مقاومة في وجه احتلال «أوغوستا» .. وكانت فرقة المصفّحات ٢٩ ، وفرقة المظليّين الأولى ، الموجودتان في « كالابريا» ، قد انتقلتا إلى «صقلّية» ؛ إلاّ أنّ «جودل» مانع في إرسال أمداد جديدة ، قائلاً إنّ «الإيطاليّين الخونة» إنّما كانوا يستدرجون إلى الجزيرة اكبر عدد من الجنود الألمان «ليقضوا نحبهم فيها » . ودُعي « رومل » للاستشارة ، وسئل ما إذا كان يعرف زعيماً فاشياً كفيلاً بإنعاش المقاومة ، وبإنقاذ التحالف الإيطاليّ الألمانيّ ، فلم يتردّد في جوابه لحظة واحدة ، قال : « لا وجود لمثل هذا الإيطاليّ ... » .

وهنا بذل «هتلر» مجهوداً اخيراً ؛ ففي ١٨ تموز قام السفير «فون ماكنسن» بدعوة الدوتشي إلى مقابلة سيتجاهل الفوهرر في سبيلها احتياطات أمنه الشخصيّة جمعاء ، وقال إنّ «هتلر» مستعدّ لاجتياز «الألب» ؛ فحُدّد موعد اللقاء في «فيلتري» ، عند مواطىء «الدولوميت» . كان الديكتاتوران قد تقابلا لأوّل مرّة منذ عشر سنوات في «البندقيّة» التي لا تبعد كثيراً عن مكان الاجتماع هذا ، وكان «أدولف هتلر» يرتدي آنذاك معطفاً يرتديه الموظّفون الفقراء ، فيما كان «بينيتو موسوليني» قد ألف فخامة السلطة . وأمّا مقابلة تموز ١٩٤٣ فهي الثالثة عشرة . وقد بدا «موسوليني» ، عشيّة ميلاده الستّين ، عجوزاً قد عاث فيه المرض والهزيمة خراباً . وكان يشدّ أزر «هتلر» بلدٌ قويّ باسل ، إلاّ أنّ زمام المبادرة في الحرب قد أفلت من يديه ، وقد طغت عليه أمواج الضيق . وفي الوقت الذي اتّجه فيه شطر «فيلتري» كان الهجوم الروسيّ في «أوريل» قد انبسط حتّى بحر «آزوف» ، وباتت الجبهة الشرقيّة بكاملها في خطر مميت .

كان الإيطاليّون قد استعدّوا لمؤتمر يدوم ثلاثة أيّام ، ولكنّهم أبلغوا في مطار «تريفيزي» أنّ الفوهرر كان مضطرّاً إلى العودة إلى مقرّه العامّ في العشيّة نفسها .

وقُطعت المسافة بين «تريفيزي» و «فيلتري» ، البالغة ٨٥ كلم ، بمدّة ساعتين تقريباً في القطار الحديديّ .. فجرت في هذه الفترة مناقشتان منفصلتان : اشترك بالأولى «موسوليني» و «هتلر» ، وبالثانية «امبروزيو» ضدّ «كيتل» . هاجم الجنرال الإيطاليّ القاسي زميله الألمانيّ ودفعه إلى الاعتراف بأنّ الجيش الألمانيّ قد بات مقتصراً على دور دفاعيّ ، وأنّ حملة ١٩٤٣ قد مُنيت بالهزيمة . وأمّا موضوع القيادة الموحّدة في «إيطاليا» ، وهي هدف الرحلة الألمانيّة ، فلم يجرِ التطرّق إليه ؛ وبعد ذلك لم يبقَ الإيطاليّون والألمان في مكان الاجتماع أمام «هتلر» غير مستمعين صامتين . إسترسل الفوهرر في خطبة اقتصاديّة عسكريّة ، مبرهناً أنّ وضع « المحور » ما زال مؤاتياً أساساً. والنقطة الجديدة الوحيدة في هذا العرض الدقيق كانت التالية : لسوف تسخّر «ألمانيا» قبل نهاية السنة اثنين من اختراعاتها ليُعملا في «لندن» الخراب والتدمير .

كان «هتلر» ما يزال يتكلّم ، حين دخل أحد المساعدين وسلّم «موسوليني» مذكرة : لقد قُصفت «روما» !

لم يكن الهجوم على «روما» قد تقرّر بسهولة . إلاّ أنّ مطارَي «ليتوريو» و «كيامبينو» ، ومراكز فرز القطارات في «ليتوريو» وفي «سان لورنزو» ، التي كان النقل الحديديّ الخاصّ بجنوبيّ «إيطاليا» يمرّ عبرها ، كانت مرامي عسكريّة أساسيّة . فقامت ١٤ مجموعة من سلاح الجوّ الأميركيّ بقصفها بـ ١،٠٠٠ طنّ من القنابل . ولكنّ النصائح

التي أسديت للطيّارين . والإنذارات التي تبلّغها السكّان في الليلة السابقة ، لم تحافظ لا على المباني المقدّسة ولا على الأرواح البشريّة . فكانت النتيجة أن سقط ٢٠٠٠٠ قتيل . وتدمّر نصف كاتدرائيّة «سان لوران هو–لي–مور» .

صُعق «موسوليني» لأنّه كان غائباً في مثل ذلك الظرف ، أكثر ممّا صعق من القصف ذاته . قال : « فما عسى سكّان «روما» يقولون حين يعلمون أنّ الدوتشي لم يكن في عاصمته أثناء تساقط القنابل عليها ؟ ... »

وأمّا «هتلر» فلم يبدِ غير تململ لكونه قد قوطع في كلامه ، وعجّل في العودة إلى حبال تأمّلاته . فراح يلقي على «إيطاليا» درساً طويلاً في البسالة مصرّحاً بأنّ «ألمانيا» لن تثابر في الدفاع عن «صقلّية» طالما أنّ التخاذل الإيطاليّ لم يُقمع بالصرامة البالغة .

وحلّ موعد الغداء ، فتوقّف «هتلر» وانصرف . واستغلّ «أمبروزيو» السانحة لمهاجمة «موسوليني» : لماذا لم يقطع على «هتلر» حديثه ؟ لماذا لم يسأله ما إذا كانت «ألمانيا» قادرة أم لا على تدعيم الجبهة الإيطاليّة ؟ لماذا لم يخبره بأنّ «إيطاليا» كانت تفكّر بالانسحاب من الحرب في غضون ١٥ يوماً ؟ وأعفي «موسوليني» من الجواب ، إذ أنّ ضابطاً أتى يخبره بأنّ الفوهرر كان ينتظره للجلوس إلى المائدة . وتناول الديكتاتوران الطعام معاً من غير رفيق ، ثمّ قاما برحلة العودة معاً في القطار من «فيلتري» إلى «تريفيزي» . لم يكن قد تمّ الوصول إلى أيّ قرار قطّ ، لا بواسطتهما ولا بواسطة مرؤوسيهما .

أقلعت طائرة «هتلر» في الساعة ١٧ . كان الوجوم مخيّماً على البعثة الايطاليّة ، إلاّ أنّ «موسوليني» كان يبدو منتعشاً ؛ فصرّح بأنّه بات يعرف سرّ «هتلر» ، وأنّه يعرف عن يقين كيف أنّ «ألمانيا» ستخرج من النزاع منتصرة .

في ذلك النهار نفسه ، ٢٠ تموز ، شنّ الحلفاء هجومهم في «صقلّية» . كان الانكليز يجهدون في سهل «كاتانيا» الذي تعجّ فيه الملاريا ، ولكنّ الأميركيّين كانوا يتقدّمون بسرعة في القطاعات الأخرى . وفي ٢٠ استولت الفرقة الأولى على «إنّا» ؛ وفي ٢١ جاوزت الفرقة ٣ «أغريجنتي» ، وفي ٢٢ قام «باتون» على رأس رتل مصفّح عبر سلسلة من القرى الطويلة . فدخل «باليرمو» وسط جموع كانت تصرخ : «فليسقط «موسوليني»» ! وفي ٢٣ أنجزت فرقة «إيربورن» ٨٢ غزو غربيّ «صقلّية» باستيلائها على مرفإ «تراباني» الحربيّ من غير أن تفقد رجلاً واحداً . لم يبقَ لدى «المحور» ، والحالة هذه ، غير زاوية واحدة من المثلّث الصقلّي ، محصّن ببركان «إتنا» الجبّار .

وفي الساعة ٥ من بعد ظهر اليوم التالي ، ٢٤ تموز ، اجتمع «المجلس الكبير» للثورة الوطنيّة الفاشيّة في قصر «البندقيّة» .

سقوط «موسوليني» واعتقاله

إنّ هذه السلطة ، التي برزت على المسرح في فترة حرجة من فترات التاريخ الإيطاليّ ، لأشبه ما تكون بصندوق حوى ما تبقّى من مقدّسات الفاشيّة . فقد جمع هذا «المجلس الكبير» ، الذي يضمّ ٢٨ عضواً برئاسة الدوتشي ، اثنين من «المجلس الرباعيّ» المعروف بمجلس «المسيرة على «روما»» . هما المارشالان القديمان «دي بونو» و «دي فيتشي» . فضلاً عن بعض الشخصيّات السياسيّة أمثال «فاريناتشي» و «تشيانو» و «غراندي» . وبعض الوزراء المعروفين بطاعتهم المزمنة أمثال «بولفاريلّي» و «تشيانيتي» . وأقطاب المنظّمات المهنيّة والنقابيّة أمثال «غرتاردي» و «فراتاري» و «باليلا» ، وأعيان الحزب الكبار أمثال أمين السرّ «سكورزا» ونقيب «القمصان السود» «غالبياتي» ، وسفير «إيطاليا» في «برلين» «ألفييري» ، و «فيدرزوني» رئيس الأكاديميّة الإيطاليّة ، وأخيراً بعض الموظّفين العاديين . لم تلتئم هذه الفسيفساء منذ ١٩٣٩ ، على اعتبار أنّ مبدأ السلطة والعصمة السياسيّة المعترف بهما للدوتشي قد جرّدها من كلّ معنى أو هدف . أمّا الآن فهي تلتئم لتُسقط الدوتشي ، وقد حدّد كلّ من المجتمعين موقفه . حرّر «غراندي» إثر وصوله من «بولونيا» مشروع قرار يطالب «بإحياء فوريّ يشمل وظائف الدولة كافّة» ، ويدعو رئيس الحكومة –«موسوليني»– إلى أن يسأل الملك أن يتحمّل «شؤون المبادرة العليا بتسلّمه قيادة القوّات المسلحة كلّها» . ولم يتضمّن القرار أي ذكر للتحالف مع «ألمانيا» ، أو لمتابعة الحرب ، أو للحزب الفاشيّ ، كما أنّه لم يتضمّن كلمة ثقة أو شكر واحدة بالنسبة «لموسوليني» .

عارض «فاريناتشي» «غراندي» ، فبينا طالب مشروع قراره أيضاً بإعادة القيادة العليا إلى الملك «ليشهد العالم كلّه أنّ الأمّة مجمعة على القتال» ، أعلن بالنسبة للعهد القائم وفاء لا يتزعزع وإخلاصاً حازماً للمعاهدات التي ارتبطت بها «ايطاليا» .

كان ذلك اليوم أشدّ أيّام الصيف قيظاً ، ورائحة النار المنبعثة من الأحياء المنكوبة لخمسة أيّام خلت لم تكن بعد قد تبدّدت . كان بعض الجموع قد فرّ من «روما» بالرغم من احتجاج الأب الأقدس الشديد اللهجة حيث قال إنّه يودّ أن يأمل بأنّ انتهاك القدسيّات الذي شهده يوم ١٩ تموز لن يتكرّر . لم ينمّ عن اجتماع «المجلس الكبير» أي احتفاء خارجيّ ، فكلّ ما تبقّى من مظاهر الفاشيّة ، من جزمات وخناجر وقلنسوات مهدّبة ، قد بقي داخل قصر «البندقيّة» . أمّا «موسوليني» فقد ارتدى بزّة عريف من عرفاء الجيش ، أي قميصاً أسود وسترة بيضاء تحمل على ذراعها الأيسر شارة كبيرة بشكل مثلّث . دخل إلى غرفة المجلس أمام صفّ من التحيّات الرومانيّة ، وأجاب بحركة امبراطوريّة على الهتافات . ثمّ أوعز بإجراء المناداة ، وكأنّ شيئاً من مظاهر سلطته المطلقة لم يتبدّل .

ساد الاضطراب صفوف المتآمرين ، لم يكن أيّ منهم واثقاً من أنّه سيخرج من قصر «البندقيّة» حيّاً وحرّاً . فكثيرون قد اعترفوا ، وآخرون قد أخفوا في جيوبهم مسدّسات أو بعض القنابل اليدويّة .

تكلّم «موسوليني» سحابة ساعتين ، فرسم الوضع العسكريّ ، ودفع عن «ألمانيا» ما اتُّهمت به من أنّها قد تخلّت عن «ايطاليا» ، وأثبت أنّه ليس ثمّة خلاص خارج الوفاء اللا مشروط بالمحالفة . أمّا اللجوء إلى الملك ، الذي يقترحه «غراندي» ، فلن ينتهي إلاّ بأحد أمرين ، واحدهما غير مجد ، وثانيهما سيّء مشؤوم . فإمّا أن يقرّر الملك الاحتفاظ به ، هو «موسوليني» ، في مهامّه ، وإمّا أن يصفّي العهد القائم ، وهذا ما يدفعه اليه أصدقاء «انكلترا» والرجعيّون .

لم تلن «لغراندي» قناة ، فبين قوّة بيانه وثقل لسان الدوتشي بون شاسع . أمّا ما يجري الآن فتصفية لحساب قديم يتناول بالتهمة توجيه العهد برمّته منذ عشرين سنة ، قال : «ولقد ماتت الفاشيّة يوم استبدلنا على راياتنا ذاك الشعار القديم « الحريّة والوطن» بالشعار الجديد « إيمان ، طاعة ، نضال » . ليست الفاشيّة هي التي فقدت الحرب ، بل إنّها الديكتاتوريّة ...»

إستمرّ النقاش طوال الليلة القائظة . ثمّ انفرد «موسوليني» برهة في مكتبه وقد أصابه الإعياء ، فاجتمع إليه «فاريناتشي» و «غالبياتي» واقترحا عليه أن يوقف المتآمرين . بيد أنّ سطوة الطاغية كانت قد تحطّمت . وما لبث أن عاد إلى مكانه في غرفة المجلس حيث استؤنفت

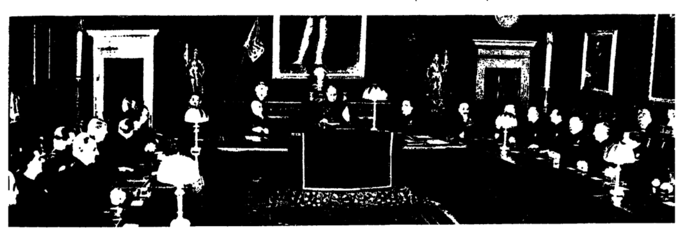
المناقشة سائرة على النهج ذاته سير عربة على بلاطة بالية . كان «الفييري»، سفير «إيطاليا» في «برلين» ، الخطيب الوحيد الذي أثار اهتماماً أخيراً ، إذ قال : «كل ما تبغيه «المانيا» إنّما هو تحويل «إيطاليا» إلى ميدان قتال يُقصد منه تأخير اجتياح أراضيها ، ليس إلاّ » . كان الرجل أحد كبار المتعصّبين للمحور ، وأداة طيّعة في يد «الرايخ» الثالث ؛ إلاّ أنّ الحقيقة قد سقطت من فمه .

نال الإعياء من الجميع ، فوضع «غراندي» أمام «موسوليني» مشروع قراره مذيّلاً بتسعة عشر توقيعاً . فناوله «موسوليني» إلى «سكورزا» بازدراء طالباً منه أن يعرضه للتصويت . قرأ «سكورزا» الأسماء التسعة عشر . فتتالت الإجابات «بنعم» . صادق الأعضاء التسعة عشر على صحّة توقيعهم ، وأعلنوا سقوط العهد وسقوط «موسوليني» . والواقع أنّ الكثيرين قد لفظوا بذلك حكم الإعدام على أنفسهم . ومع هذا لم يكن للاقتراع أيّ طابع دستوريّ . ذاك أنّ «موسوليني» ، يوم كان يسنّ للفاشيّة الظافرة قوانينها منذ عشرين سنة ، كان قد قرّر بوضوح أنّ «المجلس الكبير» «ليس برلماناً صغيراً» ، وأنّ التصويت فيه لن يكون وارداً . وهكذا ، فيما هبّت نفحة من النسيم باردة تعلن الفجر القريب ، وفيما مضى المتآمرون إلى سيّاراتهم لا يصدّقون أنّهم ما زالوا أحراراً وكلّ إلى «برلين» ، يقول إنّ الدوتشي قد اختلى بالملك منذ العاشرة صباحاً ، وإنّ البحث جارٍ في أمر اللجوء إلى «أورلاندو» ، سياسيّ الحرب العالميّة الأولى ، البالغ من العمر ثلاثاً وثمانين سنة » .

كان من عادة «موسوليني» أن يجتمع بالملك مرّتين كلّ اسبوع : يومي الاثنين والخميس ؛ وقد طلب أن يقابله بشكل استثنائيّ في الساعة الخامسة من مساء اليوم ذاته ، بغية إطلاعه على تمرّد المجلس والحصول على تأكيد جديد للثقة الملكيّة .

وفيما كان القلق يستبدّ «براشيل» ، لم يخامر بال زوجها أيّ اضطراب ، بل لقد عمد إلى تهدئة روع «غالبياتي» ، جنرال الميليشيا ، قائلاً إنّه لا يرى ضرورة في اللجوء إلى عمليّة زجريّة طنّانة ، لأنّ الملك سيعيد كلّ شيء إلى مجراه . قال : «إنّني لأثق به كلّ الثقة : فمنذ عشرين سنة لم أقم بعمل إلاّ بالاتّفاق معه ؛ سيقف حتماً إلى جانبي يعضدني بقوّة وينصرني ...» وعندما استقبل «موسوليني» السفير اليابانيّ الجديد حدّثه بفكرته المحبّبة ، ألا وهي إيقاف الحرب الألمانيّة الروسيّة ؛ ولسوف يقول السفير : « لم اعتقد لحظة أنّ الرجل الذي يخاطبني لم يكن واثقاً من سلطته » .

إنّ في إفلاس الأنظمة البوليسيّة المزمن لمعيناً للعجب معزّياً مشجّعاً .



إحدى أواخر جلسات المجلس الفاشيّ الكبير برئاسة الدوتشي .

منهم يفكّر بالاحتياطات الواجب اتّخاذها للإبقاء على حريّته . عمد الرجال المخلصون للدوتشي إلى النصوص يستشهدونها ويثبتون بطلان ما جرى منذ لحظات . أمّا «موسوليني» فلم يبدِ أيّ اضطراب ، بل عاد إلى فيلاّ «تورلونيا» حيث راحت الدونا «راشيل» ، التي كانت ما تزال ساهرة ، تصبّ جام غضبتها الرومانيّة على الصهر الخائن «غاليازو» الذي طالما قالت عنه إنّه يحمل إلى الأسرة سوء الطالع والنكد . نام الدوتشي قليلاً ، ثمّ عاد إلى كرسيّه في تمام الثامنة على ما اعتاد أن يفعل كلّ صباح منذ عشرين سنة . وبدا قصر «البندقيّة» وكأنّه قد تنقّى من أبخرة الشقاق الوبيئة التي عبق بها ليلاً .

بدا يوم الأحد الموافق ٢٥ تموز ١٩٤٣ حارّاً كاليوم السابق . وبدت «روما» قفراً خلاء : فلجأ «تشيانو» وغالبيّة الذين صوّتوا «بنعم» إلى جحور يلتهمون فيها القلق والاضطراب . ولم يكن لدى السفارة الألمانيّة غير فكرة غامضة عمّا جرى في المجلس ؛ فأبرق «ماكنسن» فزعيم الفاشيّة يجهل أنّ «غراندي» قد ذهب حال خروجه من المجلس ، أي منذ اثنتي عشرة ساعة ، إلى رئاسة مجلس النوّاب حيث كان بانتظاره «دوق اكوارون» ، وزير البلاط ولولب المؤامرة النشيط . وقصد الرجلان معاً إلى أحد منازل شارع «جيوليا» حيث تابعا حديثهما حتّى أولى ساعات الصباح . كان في لقاء التاج وزعيم الفاشيّين الثائرين إشارة بليغة ، إلاّ أنّ «موسوليني» قد جهلها تمام الجهل . كانت إمكانات الدولة ما تزال كلّها تحت تصرّفه ، وكان «هتلر» قد نظّم له ، بقصد الحفاظ على سلامته الشخصيّة ، فرقة كاملة من رجال الحرس ، ووضع تحت تصرّفها ٣٦ دبّابة من طراز «تيغر» تستطيع الوصول إلى «روما» في ظرف ساعتين . ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحل دون وقوعه في الشرك ؛ ففي تمام الخامسة وصل إلى قصر «الكويرينال» مرتدياً لباسه العاديّ ، فأوقفت سيّارة مرافقيه عند السور الخارجيّ ، ودخل هو لمواجهة الملك .

لم يستطع السامع الوحيد لما يلي . الجنرال «بونتوني» . أن يلتقط إلا شذرات من الحديث الذي دار بين الرجلين . لأنّه كان يسترق إليه السمع من وراء باب مشقوق . تناول «موسوليني» الكلام ، فما لبث «فيكتور عمانوئيل» أن قطعه عليه ومضى يتحدّث عن الكارثة التي ألمّت بالجيش وبالأمّة، بجمل متقطّعة . فقال: « إنّك لأبغض من نقمت عليهم «ايطاليا» . أمّا أنا فما زلت أحبّك . ولقد برهنت على ذلك بالدفاع عنك مرّات كثيرة ؛ أمّا الآن فعليّ أن أطلب منك أن تستقيل ... »

لم يكن أحد من الرجال يوحي بما يوحي به «موسوليني» من قوّة وعزيمة ، بيد أنّ تراكماً غير معهود من النكبات والإهانات كان قد أتلف قلب السنديانة العتيّة . فإذا به ينهار أمام الملك القصير القدّ وقد هبّ يثأر لنفسه ثأراً مريراً . ترامى إلى سمع «بونتوني» إذ ذاك أنين أشبه بأنين موظّف مسرح قد وقف له البوس بالمرصاد . قال «موسوليني» : « إذاً فقد انتهى كلّ شيء ؟ وأيّ مصير ينتظرني أنا وعائلتي ؟ » ثمّ اختلط الصوتان في مشادّة حامية اتّخذ فيها الملك موقف الاتّهام فيما لزم الدوتشي جانب الردّ والاعتراض . وإذا باسم «بادوليو» يبرز في غمرة النقاش . وإذا «بفيكتور عمانوئيل» يقول : «لقد تسلّم زمام الحكم من قبل » وسمع «بونتوني» الملك يردف قائلاً : « أمّا سلامتك الشخصيّة . فإنّني آخذ على نفسي عهداً بالحفاظ عليها » . بعد ذلك شيّع «فكتور عمانوئيل» الرجل الذي حطّمه حتى الشرفة الخارجيّة . ولسوف يعلّق «موسوليني» على هذا الحدث الحاسم بقوله : « لقد بدا لي الملك أقصر ممّا كان عليه في العادة ، بدا أقرب ما يكون إلى القزم ، ولقد صافحني بحرارة بالغة » . كان «أركولو باتولو» ، سائق الدوتشي ، قد اعتُقل خفية أثناء المقابلة ؛ وإذ كان «موسوليني» في طريقه إلى سيّارته تقدّم منه نقيب قنّاص وقال له : « لقد كلّفني صاحب الجلالة بالسهر عليك . إصعد هنا » . وأشار إلى سيّارة إسعاف ما لبث أن جلس فيها النقيب إلى جوار ملازم . وثلاثة جنود ، وشرطيّين في يد كلّ منهما رشيش . مع «موسوليني» وأمين سرّه . وانطلقت السيّارة بأقصى سرعتها باتّجاه ثكنة شارع «ليغنانو» حيث قضى مؤسس الفاشيّة ليلة قائظة على سرير ميدان .

وفي الساعة ١٠:٤٥ حملت أمواج الأثير إلى المدينة وإلى العالم بلاغات متتالية ثلاثاً تعلن سقوط «موسوليني» . لم يثر ذلك أيّ ارتعاش . كانت قوّات الجيش والشرطة قد احتلّت مراكز الإذاعة والهاتف والحرس القوميّ . أمّا مدبّر الانقلاب فكان رئيس الشرطة الموسولينيّة المغضوب عليه «كارميني سينيزي» . وفي اليوم التالي دفع كانسو الشوارع الرومانيّة بآلاف من شارات الحزب القوميّ الفاشيّ إلى فوهات المجارير .

لمّا عرف «هتلر» ما آلت إليه جلسة «المجلس الكبير» حوّل غضبه ناحية أشدّ مناصري السياسة الألمانيّة اندفاعاً ، وصبّ جامه على من سبّب انعقاده ، قال : « من حظّ «فاريناتشي» هذا أن يكون إيطالياً . ولو أنّه قد فعل ما فعله بي أنا لأسلمته إلى «هملر» ... » لم يُخطئ «هتلر» تفسير استبدال «موسوليني» «ببادوليو» ، قال : «سيقول لي الايطاليّون إنّهم ماضون في الحرب ، وبالطبع لن يكون ذلك غير كذب ، لأنّهم سيتفاوضون مع الانكليز ... »

بُحثت في يومي ٢٦ و ٢٧ مخطّطات شديدة حازمة ؛ كانت فرقة الدبّابات ٣ شماليّ «روما» ؛ ففكّر «هتلر» بإلقائها على العاصمة لكنس النظام الجديد ؛ قال : « يجب أن تأتوني بالزمرة كلّها :



لم يعبر الألمان قط خطّ البلاط الفاصل بين « الفاتيكان » و « روما » .



رتل إيطاليّ مصفّح يحتلّ موقعه في « روما » قرب بوّابة « القديس بولس » .

وعلى رأسها وليّ العهد...» ثمّ انخفضت اللهجة انخفاضاً ملحوظاً . فلم تسفر أربع من المؤتمرات الطويلة إلاّ عن نتيجة واحدة اتّخذ بموجبها قرارٌ بسحب «الفرقة النموذجيّة» من الجبهة الشرقيّة لإرسالها إلى «ايطاليا» ؛ قال «هتلر» : « إنّ رجال الصاعقة . رجالي : دعاة ومروّجون صالحون . ولا بدّ أن ينعشوا حميّة الفاشيّين الذين خارت عزائمهم موقّتاً » . ما كان «الفوهرر» ليصدّق أنّ «القمصان السود» قد تواروا تحت الأرض ، وأنّ الحزب الفاشيّ قد تلاشى ؛ وعندما سرد له «جودل» حكاية الشارات الفاشيّة المكنوسة إلى المجارير شال بكتفيه وقال ساخراً : « لا بدّ أن يكون الواحد منّا جنرالاً ليصدّق مزاعم كهذه !..»

أمّا سبب هذه الطفرة المصطنعة من الأوهام فواضح ؛ كانت القوّات الألمانيّة رازحة تحت ضغط لا هوادة فيه ولا رحمة ، فبات كلّ ضغط إضافيّ ينذر بالتصدّع والتداعي ؛ ولذا غدا تخاذل «ايطاليا» ، بالغاً ما بلغ ضعفها ، يهدّد بفتح ثغرة هدّامة قاضية في المواقع الألمانيّة . ومهما كان احتمال رؤيتها صامدة في خطّ النار ضئيلاً ، لم يكن إغفاله ممكناً .

في «روسيا» كان «مانشتاين» قد أعاد تنظيم جبهة «الميوس» ببراعة لامعة ؛ إلاّ أنّ شيئاً عجيباً خارقاً كان يكمن في قدرة الروس على النهوض من عثارهم ؛ ففيما راحت «راستنبورغ» في ٣ آب تهنّىء نفسها بنجاح «مانشتاين» ، كانت جبهتا «فورونيج» والسهب قد شنّتا على «خاركوف» هجوماً في منتهى العنف ؛ وفي نقطة أبعد إلى الشمال سقطت «أوريل» بدورها ، وكان جيش الدبّابات الثاني ، الذي تمّ تدميره عملياً ، في طريقه إلى الزوال من خطّ القتال الألمانيّ . كان الصيف خلال السنتين المنصرمتين فصل انتصارات ألمانيّة ، يعوّض عنها الجيش الروسيّ خلال الشتاء ، أمّا عام ١٩٤٣ فقد أبطل هذه القاعدة وجعل من السنة كلّها مقرعة تكيل للجيش الألمانيّ ضربة إثر ضربة .

وفيما بلغت الحرب الروسيّة تلك الدرجة من العنف ، ارتدت الحرب الجويّة طابعاً هائلاً مخيفاً ؛ فقد تابع الحلفاء عمليّة تدمير المدن المعادية تدميراً شاملاً . في آذار قُصفت «برلين» بالقنابل المحرقة . للمرّة الأولى ؛ وفي نيسان دُمّرت مدينة «دوسيلدورف» نصف تدمير ؛ وفي أيّار نسفت ١٩ طائرة من طراز «لانكاستر» تابعة للطيران الملكيّ البريطانيّ سدود «الإيدر» و «الموهر» و «السورب» ، محدثة فيضانات كبيرة أغرقت ٢٠٠٠ شخص وشلّت حركة «الرور» بإضعاف قوّة مياهه الصناعيّة ؛ أمّا «هامبورغ» ، التي سُرّ سكّانها برحمة التوفير نظراً لميولهم الانكليزيّة : فكانت ضحيّة الصيف ، فقد تمكّنت قنابل الفوسفور المنهالة عليها من إضرام النار في أسفلت الشوارع ، وجعل انخفاض الضغط الجوّيّ ، الناتج عن الحريق ، من المدينة مركزاً لزوبعة حملت إليها المطر لحسن الحظّ . فتشرّد ٧٠ بالمئة من سكّانها البالغ عددهم ١٬٤٠٠٬٠٠٠ نسمة ؛ وإذا بموكب الفارّين ، وقد أصيب الكثيرون من أفراده بالحروق أو الجنون أو العمى ، مشهد مريع قلّ أن يُعرف له نظير في تاريخ التنكيل بالبشريّة . إرتعدت «برلين» القريبة ، ووزّع «غوبلز» حاكمها العسكريّ في البيوت إرشادات تدعو من يصحّ الاستغناء عنهم من البرلينيّين إلى الابتعاد عن العاصمة ؛ فاحتلّ الناس المحطّات عنوة ، وغطّت الطرقات جموعٌ غفيرة يسوقها الذعر ويلسعها بسياطه. ولقد قال شاهد عيان : « كان تنّين ضخم يجثم ليلاً على المدينة الصامتة ، ألا وهو الخوف» . هذا وقد سجّلت الحرب الجوّية حدثاً آخر كان له في نفس «هتلر» أبلغ الأثر . ففي اليوم التالي لقصف «روما» سُحبت مجموعات «ب-٢٤» الخمس التي اشتركت فيه ، من ميدان القتال الإيطاليّ ، وأُرسلت إلى «ليبيا» حيث دُرّبت على القصف الشديد الانخفاض . وفي أوّل آب أقلعت مجموعة من ١٧٧ طائرة . تقلّ ١٬٧٢٥ أميركياً وانكليزياً واحداً . و ٣١١ طنّاً من القنابل . و ٣٣٠ صندوقاً من الموادّ المحرقة ، فحلّقت فوق «كورفو» و «ألبانيا» و «يوغوسلافيا» ، و «بلغاريا» ، ثمّ عبرت «الدانوب» في نقطة تقع تحت «أبواب الحديد» ، ساعية إلى «بلويستي» ، مدينة المصافي وعاصمة النفط الرومانيّ . عمل بعض أخطاء الملاحة على تشويش تنفيذ المخطّط ، إلاّ أنّ الملاّحين أحلّوا الحميّة والغلواء محلّ الأسلوب والمنهج ، فانقضّوا تباعاً عبر سحب كثيفة من الدخان . هازئين بالخطر الناجم عن حواجز البالونات والمداخن السامقة واندفاع ألسنة اللهيب . مُني الأسطول الجوّيّ بخسائر فادحة بلغت ٤٤ طائرة و ٥٣٢ طيّاراً ، إلاّ أنّ الأضرار التي نجمت عن القصف تعدّت ٤٠ بالمئة من طاقة التصفية في «بلويستي» التي يمرّ فيها ٦٠ بالمئة من ملايين الأطنان التسعة من النفط الرومانيّ الخام !

إذاً لا بدّ من تقدير انفعال «هتلر» ، عقب سقوط «موسوليني» . على ضوء شلاّل النكبات والكوارث ذاك . كان قد قال في اللحظة الأولى : «إنّ الضربة التي حلّت «بروما» تكرار لما حلّ «ببلغراد» ، وسوف أعالجها بالطريقة عينها » . إلاّ أنّ إشارة منه عام ١٩٤١ كانت كافية لقذف «البلقان» بجيش رائع كامل العدّة مستريح لا يُقهر ؛ أمّا الآن. عام ١٩٤٣ ؛ فلا يسعه أن يجابه التطوّرات الإيطاليّة بغير الحلول السريعة الموقّتة . ولسوف يقول «جودل» : « كان وضعنا فاجعاً مريعاً . فالتدابير الواجب اتّخاذها في حال الخيانة السافرة كانت قد وُضعت بأدقّ حذافيرها ، غير أنّ الخونة كانوا يغدقون من وعود الوفاء الحارّة ما كان يفوز بتصديق بعض الضبّاط الألمان الذين لم يكن بقدرتهم أن يتصوّروا غوراً من الرجس كذاك ... كان واجبنا يقضي بأن نضع يدنا على اقصى ما نستطيع من الأراضي بغية إبعاد خطر النزول شماليّ «إيطاليا» . وكان لزاماً علينا ، فضلاً عن ذلك ، ألاّ ندع للإيطاليّين ذريعة توفّر لهم فرصة إنجاز خيانتهم ...»

تمكّن «المحور» إذاً ، عقب سقوط «موسوليني» ، من الإبقاء على رمقه الأخير ولو موقّتاً ، فأوفد «بادوليو» إلى «هتلر» الجنرال «ماراس» ، الملحق العسكريّ في «برلين» ، يرافقه «ميشيل لانزا» الوزير المستشار للسفارة . جرت المقابلة بحضور «جودل» و «شموندت» والسفير «هيفل» اللذين ظلّوا واقفين ، على حدّ قول «لانزا» ، «وأيديهم اليمنى في جيوب سترّاتهم ، وعيونهم متيقّظة وهم على استعداد للوثوب » . ومع هذا فقد أبدى «هتلر» لياقة وظرفاً في معاملة الإيطاليّين ، وتقبّل الإعراب عن ولائهم للمحالفة تقبّل النقد الصحيح ، واعتذر لعدم تمكّنه من قبول الدعوة التي وجهّها إليه الملك لزيارة «إيطاليا» . ثمّ أغدق تحريضاته المعهودة على التسلّح بالبطولة ، وأعلن : « لا بدّ ليوم انتصارنا من أن يحين ، ولو اضطُررنا إلى انتظاره ثلاث مئة سنة ، ولسوف ننتقم لأنفسنا يومذاك » . أمّا بشأن تبديل العهد ، فقد اكتفى بالقول إنّه كان يفضّل أن يطّلع على ذلك مسبقاً ، وأنّه يرغب في الحصول على بعض المعلومات عن الدوتشي . فأجاب «ماراس» ببعض الجفاء : « هو بصحّة جيدة » . أمّا «هتلر» فقد ربت على كتف «ماراس» بيد مخمليّة ناعمة !

وتمّ الاتّفاق على ترتيب لقاء ألمانيّ - إيطاليّ جديد بتاريخ ٦ آب ، وذلك في محطّة «ترفيس» ، بغية توضيح العلاقات الألمانيّة الإيطاليّة «توضيحاً نهائياً» . كان الوفد مزدوجاً في كلا الطرفين ، نصفه عسكريّ ونصفه ديبلوماسيّ : فمن جهة «كيتل» و «امبروزيو» ، ومن جهة أخرى «ريبنتروب» و «رافايلو» وزير الخارجيّة الإيطاليّة الجديد . صُعق البارون «لانزا» القادم من «برلين» بجوّ العطلة الكبرى ، وبالرخاء الهانىء السائد في «ألمانيا» الجنوبيّة والمناقض للمأساة التي تحياها «ألمانيا»

الشماليّة . يقابل ذلك تناقضٌ جديد في «إيطاليا» المحمومة الخليعة المليئة بالرجال المسلّحين والحافلة بعناصر الفوضى . كانت شعاب الجبل ترجّع صدى الطلقات الناريّة الأولى التي تبادلتها القوّات المسلّحة وجماعات الأنصار . وفي «أرنولد شتاين» القريبة أغلقت الحدود ، بأمر من «أمبر» وزيو ، في وجه فرقة القنّاصة التيروليّين ٤٤ التي كان عليها أن تحتلّ «البرينير» ، وفي وجه فرقة المشاة ٣٠٥ المرسَلة إلى منطقة «ليفورنو». فإن صحّ أنّ الألمان قد أدركوا كنه اللعبة الإيطاليّة . فالعكس قد صحّ كذلك ، إذ أدرك «أمبروزيو» أنّ الجيش الألمانيّ ينوي احتلال «إيطاليا» حيث كانت عشر من فرقه قد حلّت فيما مضى .

وصل «رينتروب» و «كيتل» وكأنّهما يفدان إلى بلد معاد ؛ فقد أمر الوزير بترك الشيفرات والوثائق السريّة كلّها في الأراضي الألمانيّة ؛ على اعتبار أنّه كان من المحتمَل « أن يحاول هؤلاء السفلة اختطافنا لتسليمنا إلى الانكليز » . وما وصل القطار حتى احتلّ المحطّة سحابةٌ من رجال الصاعقة . فضرب هؤلاء نطاقاً حول العربة — السرير الخاصّة «بريبنتروب» حيث دخل المتفاوضون في نقاش متأنّق اللهجة باردها .

بُحثت قضيّة القوّات الألمانيّة بين «كيتل» و «أمبروزيو» ، فأعلن الألمانيّ أنّه لا يفهم أن تصطدم تلك القوّات بعقبات تعترض دخولها إلى بلد أتت لحمايته ، فأجاب الإيطاليّ بأنّ حماية الأرض الإيطاليّة ستؤمَّن بشكل أفضل بعودة القوّات الإيطاليّة المرابطة في «فرنسا و «البلقان» .

أمّا المباحثة التي جرت بين «غواريغليا» و «ريبنتروب» فكانت أمرّ وألذع ، فقد سأل وزير «هتلر» وزيرَ «فيكتور عمانوئيل» ما إذا كان بوسعه أن يثبت له أنّه لم تقم أيّة مفاوضة بين «إيطاليا» والحلفاء . فأجاب «غواريغليا» اللّبِق بأنّ لجوء بعض الشخصيّات إلى مبادرات وتصرّفات شخصيّة يستحيل مراقبتها ، وهو أمر ممكن دائماً ، وأنّه حتى ذلك الحين لم تجرِ أيّة مفاوضات ذات صبغة رسميّة، وأنّ «ايطاليا»؛ فيما لو فكّرت بالإقدام عليها . سوف تطلع الحكومة الألمانيّة على ذلك مسبّقاً، فحدّق «ريبنتروب» إلى «غواريغليا» وقال : « أهذه هي كلمة الحكومة الإيطاليّة ؟ » فصمد «غواريغليا» أمام النظرة وأجاب : «أجل . إنّها لكلمة الحكومة الإيطاليّة » .

وحالما انتهت المباحثات استقلّ «كيتل» و «ريبنتروب» وجماعة من الضبّاط سيّارات كانوا قد استقدموها من «ألمانيا» ، وانتصب إثر ذلك على الطريق حاجزٌ وقف في وجه الإيطاليّين الذين حاولوا اللحاق بهم . واضطرّ ممثّلو «بادوليو» طوال ساعتين إلى أن يقوموا بنزهة أسرى، بين رشّاشات رجال الصاعقة . وما لبث «كيتل» و «ريبنتروب» أن ظهرا من جديد فقالا إنّهما قد ذهبا بأنفسهما لفتح الحدود ، وإنّ جنودهم قد دخلوا «إيطاليا» . وجرى الفراق في جو من الحنين والحقد معاً ، وعندما تحرّك القطار الألمانيّ بقي الإيطاليّون واقفين وأذرعهم لاصقة بأجسامهم بدلاً من أن يحيّوا على الطريقة الرومانيّة .

لم يكذب «غواريغليا» الكذب كلّه عندما أكّد أنّه لم تكن ثمّة بين «إيطاليا» والحلفاء أيّة مفاوضات ؛ فإنّ المركيز «أجيتا» ، رئيس غرفة «تشيانو» سابقاً ، الذي اتّصل في «ليشبونه» بالسفير البريطانيّ «كامبل». لم يكن مفاوضاً رسميّاً بالمعنى الصحيح ؛ لم يكن غير موفَد حكومة «بادوليو» شبه الرسميّ ، مع أنّ الوزير «غواريغليا» كان على علم بما يقوم به . إلاّ أنّ «غواريغليا» قد كذب مسبّقاً حين أردف أنّ «إيطاليا» ، في حال إقدامها على فتح باب المفاوضات . ستعلم بذلك «ألمانيا» . والحقيقة أنّ النيّة والهدف والسبب التي من أجلها أُقيم النظام الجديد إنّما كانت عقد صلح منفصل مع الحلفاء يُرجى منه أن ينقل «إيطاليا» من العدوان إلى التحالف ، فيبعد عنها أثقل نتائج الهزيمة . وأخشى ما يخشاه العهد هو التعرّض للثأر الألمانيّ ؛ أمّا هدفه الأسمى فهو بالتالي اللجوء إلى الحماية الانكليزيّة الأميركيّة في اللحظة التي يقدم فيها على قفزته الخطرة بالذات . فالعمليّة إذاً معقّدة عسيرة ، تفرض توقيتاً صعباً خطراً ، وتتطلّب سريّة شديدة مطبقة .

بيد أنّ الأنغام الانكليزيّة الأميركيّة الناشزة لم تكن لتساعد على التملّص الإيطاليّ ؛ فلم يمرّ وزير الحربيّة «هنري ستيمسن» ، ذاك الكهل المحتدم الطباع ، «بلندن» ومدينة «الجزائر» إلاّ ليقع على ما يثبت مخاوفه كل الإثبات : «فانكلترا» — و «تشرتشل» خصوصاً — وقد أحرقتهما الرغبة في الاثّار للإخفاق الذي مُنيا به في «الدردنيل» عام ١٩١٥ ، يودّان التضحية بغزو «فرنسا» في سبيل تحقيق سياستهما المتوسّطيّة . وكشف «ستيمسن» «لروزفلت» حقيقة الدوّامة التي تحاول «بريطانيا» الخبيثة أن تجرّ إليها «أميركا» : أولاً النزول في «أفريقيا الشماليّة » وفتحها بكامها ، ثمّ اجتياح «صقلّية»، والآن عبور مضيق «مسينا» الذي قبلت به القيادة الأميركيّة . أمّا سقوط «موسوليني» والاحتمالات المتزايدة المتعلّقة بدفع «إيطاليا» خارج حلبة الحرب ، فإنّها توفّر «لبريطانيا العظمى » ذرائع جديدة ، وترغم «أميركا» على التزام مقاومة أشدّ عناداً .

قوبل ، والحالة هذه ، إعلان «بادوليو» بأنّ «إيطاليا» ستواصل الكفاح إلى جانب «ألمانيا» بارتياح في «واشنطن» ، لأنّه قضى على المشكلة التي كانت تنذر بإحداث خضّات أعنف من التي أثارتها مشكلة «دارلان» : أينبغي التفاوض مع ملكيّة «سافوا» التي ارتضت النظام الفاشيّ ودعمته ، أم مع المارشال «بادوليو» الذي كان أكبر أداة عسكريّة في يد «موسوليني» ، والذي فتح «الحبشة» واجتاح «اليونان» ؟ كان «روزفلت» و «تشرتشل» قد طلبا من الشعب الإيطاليّ ، قبل غزو «صقلّية» ، أن يتنكرّ للقضيّة الفاشيّة ويعود إلى تقاليده الديمقراطيّة ؛ أمّا الآن فقد بادر «روزفلت» إلى التأكيد بأنّ البند المتعلّق بالاستسلام دون قيد ولا شرط لم يزل نافذاً في حقّ «إيطاليا» بكلّ ما فيه من شدّة وصرامة . فالنظام الذي قلب «موسوليني» لا تحقّ له أيّة رحمة . ولقد كتب المستشار الخاصّ «هوبكنز» يقول : « لا تستطيع مخيّلتي ، بالغة ما بلغت من القدرة على التمطّط والتساهل ، أن تصوّر لي «فيكتور عمانوئيل» و «بادوليو» ممثّلين لأيّ شكل من أشكال الحكم الديمقراطيّ ... »

بلغت رغبة «إيطاليا» في المحافظة على نفسها ، لحسن الحظّ ، حدّاً لم يكن ليسمح لها بالانسياق إلى نزاع يائس . ولم تحطّم قساوة الاستقبال منافذ السلام كلّها ؛ فدخل مسرح التفاوض ، بعد «أجيتا» ، وبعد «بيريو» القنصلِ الايطاليّ العامّ في «طنجة» ، رسول أجلّ خطراً من الاثنين السابقين ، هو الجنرال «جيو زيبّي كاستلاّنو» الذي انتقاه «بادوليو» رئيساً لأركانه . فقد سافر منتحلاً جواز سفر مزوّراً ، وفي ١٥ آب قدّم نفسه للسير «صموئيل هور» السفير البريطانيّ في «مدريد» ؛ أمّا ما عرضه عليه فلم يكن إلاّ قلب التحالف الإيطاليّ رأساً على عقب !

ولكنّ شيئاً لم يمنع اللعبة الألمانيّة الإيطاليّة المزدوجة من الاستمرار في كلا الجانبين ؛ ففي اليوم ذاته الذي تقدّم فيه الجنرال «كاستلانو» من السير «صموئيل هور» عُقد في «بولونيا» مؤتمر عسكريّ ، أوفد إليه «هتلر» «جودل» النفيس ، فيما أوفد «امبروزيو» «روانا» ساعده الأيمن ، وحضر كذلك «رومل» و «كيسلرنغ» و «رنتلين» . بدت عمليّات القصف التي نشرت الدمار في المدن الإيطاليّة (وقد هوجمت «ميلانو» أربع مرّات ؛ و «تورينو» ثلاث مرّات ، و «جنوى» و «روما» مرّة واحدة خلال الأسبوع) وكأنّها تكذّب وجود أيّة مفاوضة مع العدوّ ، ومع هذا حضر الألمان ، كما في «ترفيس» ، يحفّ بهم رجال الصاعقة ، وتناولوا طعام

الغداء مع الإيطاليّين وسدّ ساتهم أمامهم على المائدة . واشترك الجميع بعد ذلك في وضع خطّة للقتال تقضي بأن تتراجع القوّات الايطاليّة الألمانيّة خطوة خطوة حتى خطّ يمتدّ من «بيزا» إلى «فلورنسا» إلى «رافين» حيث تصمد في مقاومة مستميتة . وهكذا قبل الإيطاليّون ، ببرودة قلب ، بمخطّط يسلّم الجزء الأكبر من بلادهم إلى أهوال الأرض المحرقة .

ولكن ماذا بشأن «صقلّية» ! لقد قُضي الأمر ، فضحّى المحور بالجزيرة ليوفّر على نفسه «تونس» ثانية . لم يُتّخذ القرار من غير ألم ، فقد عارض الأميرال «دونتز» انسحاباً يمنح الحلفاء السيطرة الكاملة على المتوسّط. أوفد إلى «صقلّية» الجنرال الأقطع «هانس هوبي» الذي كان أوّل الواصلين إلى «ستالينغراد» . ثمّ واتاه حظّ خارق فخرج منها قبل استسلامها بأيّام ، وتلقّى أمراً بالدفاع عن الجزيرة شبراً شبراً . ولذا لقي الحلفاء مقاومة شديدة في ٣ آب عندما شنّوا هجومهم باتّجاهات ثلاثة تلتقي في «مسينا» ، فأكره جبل «الإتنا» . وسلسلة جبال «نيرودينتي» المهاجمين عن الانسياب في شعاب هجوميّة ضيّقة ، وعلى السواحل . دار القتال وسط أزيز الجداجد الحادّ ، وفي حرارة بلغت ٤٠ درجة مئويّة في الظلّ . وفي جفاف شديد جداً ، فبرّح الظمأ بالمحاربين ، إلاّ أنّ التفوّق الانكليزيّ الأميركيّ في البحر والجوّ كان كبيراً ساحقاً ، فلم يدع كبير أمل «لغوزوني» و «هوبي» . إحتلّ الجيش البريطانيّ الثامن ، بين ٦ و ١٤ آب ، سفح «الإتنا» الجنوبيّ من «كاتانيا» إلى «تاورمينا» ؛ وعلى السفح الشماليّ من البركان انتزع الجيش الأميركيّ السابع على التوالي مدن «نيكوسيا» و «تروانا» و «راندازو» ، وأخضعت «مسينا» لحظر جويّ متواصل هدّد العبور في مضيقها بالتعطيل الشامل ، لأنّ ثلاثة من سفن العبور الأربعة قد أغرقت فيه .

أخيراً أخذ «هوبي» و «غوزوني» على مسؤوليتهما إصدار الأمر بالجلاء . فبدأ في ١٩ آب وجرى بشكل رائع . وعندما دخل «باتون» «مسينا» في ١٧ آب كان ٤٠٠,٠٠٠ من الجنود الألمان ، و ٦٢٠,٠٠٠ من الجنود الإيطاليّين . قد عبروا المضيق من غير أن يُصابوا بخسائر هامّة ، ذلك أنّ الحلفاء لم يفعلوا شيئاً تقريباً لينتهي انتصارهم في «صقلّية» بأسر العدوّ . كما انتهى في مدينة «تونس» .

كان فتح «أفريقيا الشماليّة» قد استغرق ستّة أشهر ، أمّا انتزاع «صقلية» فقد استغرق ثمانية وثلاثين يوماً . أفيكون الحلفاء إذاً قد بلغوا المنحدر المؤدّي إلى النصر ؟

«إنكلترا» تفقد قيادة غزو «أوروبا»

أثناء هذه البواكير المشجّعة انعقدت جلسات حليفة جديدة . وأمّا مكان الجلسات في هذه المرّة فقد كان «كيبيك» في «كندا» . وهذا بمثابة امتياز للحساسية البريطانيّة دونما حاجة إلى تكبيد رئيس «الولايات المتّحدة» مشقّة السفر إلى «بريطانيا العظمى» ، الأمر الذي كان يعكّر صفو أنصاره من الناخبين الإيرلنديّين . وقد جُهّزت القلعة القديمة ، التي شهدت تقرير مصير «كندا» الفرنسيّة ، لاستقبال «تشرتشل» و «روزفلت» . في حين أنّ أعضاء أركانهما العامّة قد أقاموا في فندق «قصر فرونتوناك» الفخم القائم عمودياً فوق نهر «سان لوران» الشاسع .

أحدثت جلسات «كيبيك» هذه مشادّة انكليزيّة أميركيّة جديدة . والحادث التالي يبيّن لنا مقدار العصبيّة التي تسلّطت على الألباب . فخلال مؤتمر لرؤساء الأركان شديد التكتّم دُعي المداولون إلى الانتظار في الردهة . وإذ بهم يسمعون صدمة وصيحة وعياراً نارياً . كان «مونتباتن» قد أتى بنموذج من الزجاج الجليديّ المجمّد بواسطة الحرارة الكثيرة الانخفاض ، الذي كان مخترعه «بايك» يقترح أن تُقام بواسطته مطارات عائمة لغزو «أوروبا» ؛ وقد حاول «أرنولد» ، وهو أقوى رؤساء الأركان العامّة بنية ، أن يشقّ الكتلة بضربة فأس ، وكانت الصدمة ؛ وكانت الكتلة صلبة لدرجة أنّها فكّت كتفه ، فكانت الصيحة ؛ وفي سبيل إكمال هذا العرض ، أطلق «مونتباتن» من مسدّسه على الزجاج رصاصة انزلقت على سطحه ، فكان العيار الناريّ ! بيد أنّ فكرة مشتركة خامرت الضبّاط في الردهة : « ياإلهي ! إنّهم يقتتلون ! »

كانت موضوعات الجدال هي إيّاها كالمعتاد : المتوسّط ضدّ «أوروبا» الغربيّة ، والمذهب الأميركيّ ضدّ الاستعمار البريطانيّ . وكان دنوّ النصر المبين يزيد من حدّة التوتّر والصدام . وقد باتت مشكلة عالم الغد تبرز من خلال نصوص «شرعة الأطلسيّ» المفخّمة . فاحتلال «روسيا» مكانة جديدة في العالم ، ومستقبل النظام الاستعماريّ ، كانا الموضوعين الكبيرين اللذين يسيّران تموّج الستراتيجيّة .

وقد أثار آخر هذين الموضوعين في «كيبيك» أزمة غريبة . كان الأميركيّون يرغبون إلى الانكليز في شنّ هجوم في «برمانيا» لفكّ الحصار عن «تشانغ كاي تشك» ؛ ولكنّهم كانوا يريدون كذلك ألاّ تجني «انكلترا» من جرّاء هذه العمليّة أيّة فائدة سياسيّة . وأثار «تشرتشل» ريبتهم ، ووجد نفسه متّهماً بالرغبة في إعادة الاستعمار إلى جنوبيّ



« تشرتشل » يستقبل « روزفلت » في « كيبيك » .

شرقيّ «آسيا» ، بعدما اقترح بسط العمليّة إلى «سومطرة» . كان ضروريّاً أن يصفّي حساب «اليابان» بعد هزيمة «ألمانيا» ، ولكنّ «أميركا» لم تكن تقبل بتدخّل الانكليز في هذا الشأن . وأمّا «تشرتشل» ، وهو رئيس دولة كانت تخوض الحرب منذ أربع سنوات ، وكان قد أنهك نفسه بردّ العنف الألمانيّ بمفرده ، فقد كان عليه أن يفرض وجوده وأن يوضح معالمه في قلب معارك الهادىء الأخيرة .

في الجدال القائم حول موضوع «المانش» ضدّ «المتوسّط» كان «تشرتشل» كثير الصراحة . فقد عارض سنة ١٩٤٢ وعارض في ١٩٤٣ ، وهو ، في ١٩٤٤ ، يوافق على غزو «أوروبا» . ولكنّه كان يصرّ على أنّ مواصلة العمليّات الناشطة في «المتوسّط» ، بدلاً من أن تكون مناقضة للنزول في «نورماندیا» ، كانت بالعكس تشكّل تحضيراً له . كانت أشهر عشرة تفصل الساعة عن أقرب تاريخ للقيام بغزو «أوروبا» .



أعضاء مؤتمر «كيبيك» على شرفة تطلّ على المدينة . وهم ، قعوداً ، من اليسار إلى اليمين : «ماكنزي كينغ»، «روزفلت»، «تشرتشل» ؛ ووقوفاً : الجنرال «أرنولد» قائد القوّات الجوية الأميركيّة ، وسير «تشارلز بورتال» قائد القوّات الجوية البريطانيّة ، والجنرال سير «ألان بروك» رئيس الأركان البريطانيّة الامبراطورية ، والأميرال «كينغ» قائد القوّات البحريّة الأميركيّة ، وسير «جون ديل» رئيس البعثة البريطانيّة في «واشنطن» ، والجنرال «مارشال» ممثّل «أميركا» لدى لجنة رؤساء الأركان العامّة الانكلو ساكسونيّة في «واشنطن» ، وسير «دادلي باوند» أميرال البحريّة الأعلى ، والأميرال «ليهي» رئيس لجنة رؤساء الأركان الانكليزيّة والأميركيّة للقوّات البريّة والبحريّة .

وإغلاق المسرح المتوسطيّ يمنح «ألمانيا» استراحة طوال هذه المدّة ، فيما أنّ حملة على «إيطاليا» تشتّت قواها ، وتذيب احتياطاتها ، وتحكم طوق الحديد الذي كان يطبق على أنفاسها ، وتضعفها في وجه الضربة الحاسمة .

أتت اقتراحات «بادوليو» الأوّليّة تدعّم النظريّة التشرتشليّة . وأقرّ «مارشال» بأنّه من الحكمة بمكان أن تُستأنف في «إيطاليا» حملة «صقلّية» المظفّرة ، وحيال هذه الرغبة وضع «أيزنهاور» عمليّتين : غزو «كالابريا» ، ونزول على مقربة من «نابولي» . وقد واجهوا احتمال الاستيلاء على «روما» وإرغام «إيطاليا» على الخروج من الحرب . وبلوغ خطّ «ليفورنو–أنكون» قبل الشتاء . إذا ما تعذّر الوصول إلى «الألب» وإلى «البو» .

وعاد الجدال إلى التوقّد حول موضوع استثمار هذه المسيرة المقترَحة . قال «تشرتشل» : «لسوف نتمكّن من أن نمدّ يدنا خلال «الأدرياتيك» لوطنيّي «البلقان» الثائرين». وكما كانت الحال بالنسبة لكلمة «سومطرة»، أيقظت كلمة «البلقان» تحفّظ «روزفلت» . فهو يفهم – ولكنّه يُنكر – دوافع «تشرتشل» الباطنة . وقد نقل إلينا التاريخ الأميركيّ الرسميّ ما يلي : «لم يكن الرئيس مقتنعاً بأنّ «روسيا» كانت مزمعة على أن تضع يدها على «البلقان» . فرغبة «تشرتشل» في الوصول إليها قبل سواه لم تكن إذاً ضرباً من الاحتياط الشرعيّ في وجه تفشّي الشيوعيّة والسلافيّة ، بل ظاهرة جديدة لا تلين من مظاهر الاستعمار الانكليزيّ».

واستعداداً لتنفيذ مخطّط غزو «أوروبا» كان على سبع فرق أن تغادر المتوسّط للانضمام إلى القوّات المحتشدة في «انكلترا» . فطالب «تشرتشل» باستبدال هذه الفرق بفرق سبع مرسلة من «الولايات المتّحدة». وعلى الرغم من فيض القوّات ، ومن التغلّب على أزمة السفن بصورة نهائيّة ، قابل الأميركيّون هذا الاقتراح بالرفض . وقال تقرير من «مارشال» موجّه إلى «روزفلت» : «إنّ استبدال الفرق السبع يعني تشجيع المستر «تشرتشل» على استخدامها لغزو «البلقان» ...»

كانت هنالك قضيّة أخرى تثقل كاهل العلاقات الانكليزيّة الأميركيّة ، ألا وهي قيادة الغزو . وإذ أنّ «أميركا» كانت قد تسلّمت قيادة العمليّات في المتوسّط ، اتُّفق على أن يقوم انكليزيّ بقيادة غزو «أوروبا» الغربيّة . وقد أبلغ «تشرتشل» «ألان بروك» أنّ ذلك المعطف الثقيل المظفّر سوف يقع على عاتقه . إلاّ أنّ اعتراضات ما لبثت أن قامت في الأوساط الأميركيّة العسكريّة والحكوميّة . وكان «ستيمسون» هو الناطق بلسان هذه الأوساط على أثر عودته من مدينة «الجزائر» و «لندن» ، فكتب إلى «روزفلت» يقول : «لا نستطيع منطقياً أن نتعلّل بأمل عبور «المانش» تحت قيادة بريطانيّة . فرئيس الوزارة ورئيس أركانه العامّة ينكران هذا المشروع بصراحة ... وهما قد وعدا بمساندته غير راضيين ، ومن غير حماسة . ففي سبيل التغلّب على مشقّات العمليّة ينبغي إيجاد حزم واستقلال وإيمان أكثر ممّا يجدر توقّعه من قيادة بريطانيّة عليا» . وقال «ستيمسون» إنّ «روزفلت» قد وافق على كلّ بند من بنود الرسالة ، كما وافق على الاقتراح القاضي بمنح الجنرال «مارشال» قيادة العمليّات .

ورأى «تشرتشل» أنّه من المستحسَن استباق المطلب الذي وجد أن لا مجال لردّه البتّة . قال : «في «كيبيك» بادرت الرئيس باقتراح تعيين أميركيّ لقيادة غزو «أوروبا» ... فكان راضياً كلّ الرضى عن هذا العرض الذي كان يوافق نظريّاته . وتلقّى الجنرال «بروك» الخيبة بوقار الجنديّ» . وفي الواقع أُصيب «بروك» بصدمة أليمة . قال : «لقد كانت الصدمة بالنسبة لي فتّاكة ، إلاّ أنّ «ونستون» لم يكترث لذلك ولو لحظة واحدة . فهو لم يظهر لي أيّة بادرة من الأسف أو العطف ، وقد تصرّف بالقضيّة وكأنّها تفصيل ثانويّ» .

بقي تعيين صاحب اللقب معلّقاً — «أمارشال» أم «أيزنهاور»؟ — وبعكس ذلك تمّ الاتفاق على أن تعود القيادتان الحليفتان الثانويّتان للانكليز : وهو حلّ ترضية . كُلّف «مونتباتن» بجنوبيّ شرقيّ «آسيا» . وأمّا المتوسّط فلسوف يكون من نصيب «ألكسندر» . وقد رأى «تشرتشل» في هذا المنصب الأخير امتيازات يمكن بواسطتها تفسير خضوعه إزاء فقدان قيادة غزو «أوروبا» . وبقي النزول في «نورماندي» عمليّة ذات أمد بعيد ما زالت في طور التخطيط ، في الوقت الذي كانت فيه الأحداث تتدهور في «إيطاليا» .

"إيطاليا" تستسلم بلا قيد ولا شرط

كان «بادوليو» يتصرّف تصرّفاً يائساً . وأمام الممثّل الألمانيّ الجديد . «رودولف راهن» ، راح يدلّل اسمه ولقبه وماضيه . قال : «أنا المارشال «بادوليو» . وأنا ، مع «ماكنسن» و «بيتان» ، أقدم جنرالات «أوروبا» . إنّ تحفّظ الحكومة الألمانيّة بصددي أمر غير مقبول . فلقد قطعت لكم وعد شرف ، وما عليكم إلاّ أن تؤمنوا به ... يا له من نكث مؤثّر !» وفيما كان «بادوليو» يتلفّظ بهذه الكلمات المفعمة تأثّراً . كان رسوله الجديد : الجنرال «جياكومو زانوسي» ، يصل إلى «لشبونه» يرافقه كعربون أشهر أسرى الحرب الانكليز إطلاقاً ، وهو الجنرال «أدريان كارتون دي وايارت» . كان يحمل اقتراحاً يقضي بوضع مخطّط للاستيلاء على «روما» عنوة بعمليّة مفاجئة مشتركة بين الإيطاليّين والحلفاء .

قال «زانوسي» : «ليس هنالك في جوار «روما» غير فرقة ألمانيّة واحدة . وهنالك ستّ فرق إيطاليّة حسنة التجهيز تحتلّ العاصمة وضواحيها . فليطلق الحلفاء على «روما» فرقة منقولة جوّاً ، ولسوف ينضمّ جندنا إليها ، ولسوف تثور «إيطاليا» عند سماع صوت مليكها في وجه الألمانيّ الممقوت . وأمّا الحشود الألمانيّة النازلة في جنوب «روما» فستُقطع وتؤسر . ففي غضون أيّام يمكن أن تجد «إيطاليا» نفسها محرّرة حتّى «الألب» ، كما يمكن بلوغ الحدود الألمانيّة...»

وحتّى هذا اليوم ، وعلى الرغم من مجموعة كبيرة من التصريحات ، لا نستطيع القول إنّ الحقيقة قد انجلت كاملة عن هذه المرحلة الطريفة من الحرب . فقد تبنّى «أيزنهاور» الفكرة وعيّن لها فرقة «إيربورن» ٨٢ . ومن «كيبيك» طيّر إليه «روزفلت» و «تشرتشل» برقيّة موافقة مشتركة . ومن جهة أخرى لم يكن وارداً أمر التخفيض من شروط الاستسلام غير المشروط . وتلقّى القائد العامّ وثيقتين ، الأولى «لأجل قصير» وهي متعلّقة بالاستسلام العسكريّ ، والثانية «لأجل طويل» ،



المارشال «بادوليو» رئيس الحكومة الإيطاليّة الجديدة بعد الاستسلام .

يُشترط تسليمها للإيطاليّين بعد التوقيع على الأولى لا قبل . ولم يخفِ «أيزنهاور» النزيه إنكاره لهذا الاتّفاق غير المستقيم ، وحيال الوضع القاسي الذي كان مهيّأً للمنهزمين . قال : «إنّ هذه الوثيقة لن تنشر ولو حتّى بعد انقضاء عشر سنوات على نهاية الحرب» . وقد قال «مورفي» معلّقاً على ذلك إنّه قد أخطأ تقدير مدى بقاء الوثيقة المشينة ، فالحرب قد وضعت أوزارها لعشرين سنة خلت ولما تُذَع بعد على الملإ الشروطُ السياسيّةُ التي أمليت على «إيطاليا» .

ومع ذلك أكبّ العسكريّون على تحضير غزو «روما» بمعونة أولئك الإيطاليّين الذين حطّموا شكيمتهم . وطار الجنرال «ماكسويل تيلر» ، وهو القائد المساعد لفرقة «إيربورن» ٨٢ ، يرافقه الكولونيل «وليم غاردنير» ، بطائرة جوماتيّة هبطت به في جزيرة «ايسكيا» ، من حيث أقلّته سفينة إيطاليّة إلى «غايتي» . ووصل الضابطان إلى «روما» وهما في ثياب مدنيّة متعرّضين بذلك لخطر الموت رمياً بالرصاص ، ومعهما في حقيبة جهاز إرسال . إلاّ أنّ المعلومات التي أعطاهما إيّاها الجنرال «كاربوني» قائد الحامية لم تكن مطابقة للمعطيّات المتفائلة التي تكلّم عليها «زانوسي» . فقد كان للألمان ١٢٠٠٠٠ رجل في الجوار المباشر ، و ٣٥٠٠٠٠ في دائرة ١٠٠ كلم . وكان الإيطاليّون يفتقرون إلى الذخيرة ، غير قادرين على أن يقطعوا وعداً بالسيطرة على المطارات . وطلب «تيلر» مقابلة «بادوليو» ، فثبّت هذا الأخير أقوال «كاربوني» ، وطالب بتأجيل النزول .

كانت الساعة تشير إلى الثانية من صباح ٨ أيلول ، وكان «بادوليو» بثياب النوم في غرفته . كان النهار الطالع بالنسبة له حافلاً بالأحداث المؤثّرة .

فبتاريخ ٨ أيلول هذا كان غزو الجزمة الإيطاليّة قد بدأ منذ أسبوع . وفي ١٢ ، وبعدما أنفق «مونتغومري» ثروة في إعداد للمدفعيّة لم يجدِ فتيلاً ، قرّر اجتياز مضيق «مسينا» ، وكان «أيزنهاور» يحثّه على ذلك منذ ١٧ آب . كانت المقاومة منعدمة . وأمّا الفوج الألمانيّ



توقيع معاهدة الهدنة في «سيراكوزا» بعد سقوط «موسوليني» بستّة أسابيع . ويبدو من اليسار إلى اليمين : الجنرال «سميث» (الولايات المتّحدة) ، الكومودور «ديك» (بريطانيا) ، الجنرال «روكس» (الولايات المتّحدة) ، الكابتن «هان» ، والجنرال الإيطاليّ «كاستلانو» ، والجنرال «سترونغ» (بريطانيا) ، و «مونتيراني» ممثّل وزارة الخارجيّة الإيطاليّة .

الوحيد الذي كان على الساحل فقد توغّل في الجبل وأركن إلى الفرار بقدر ما توفّره الطرقات الكالابريّة من مجال للسرعة . وتمّ احتلال «كالابريا» في ثلاثة أيّام بواسطة الفيلق البريطانيّ ١٣ . وكانت الجرأة سهلة لدرجة أنّ الأميرال «كانينغهام» قد ارتجل حملة ضدّ «تارنتو» . وأنّ السفن الانكليزيّة دخلت كأسطول يقوم بزيارة إلى المرفإ الحربيّ الذي طالما قال عنه «موسوليني» إنّه يسيطر على المتوسّط . وكان مفروضاً أن تُحتلّ «برينديزي» و «باري» في الأيّام المقبلة وفي الظروف نفسها . ففي هذا الوقت من ٨ أيلول . في الساعة الثانية صباحاً . كانت «إيطاليا» قد استسلمت منذ أسبوع . ولكنّ العالم و «ألمانيا» لم يكونا يعرفان عن ذلك شيئاً .

في ٣١ آب كان «زانوسي» و «كاستلاّنو» قد التقيا في مقرّ «ألكسندر» العامّ في «كاسيبيلي» قرب «باليرمو» . وكان الأوّل قادماً من مدينة «الجزائر» والثاني من «روما» . كانا قد حاولا إخضاع الاستسلام الإيطاليّ لعمليّة «روما» المنقولة جوّاً . وحجّتهما أنّ نزولاً مقتصراً على جنوبيّ «إيطاليا» من شأنه أن يعرّض الملك والحكومة الإيطاليّة للانتقام الألمانيّ . وبما أنّه لم يُقطع لهما عهد بهذا الصدد . كانا قد عادا إلى «روما» . ثم أقبلا منها في ٢ أيلول مصرّحين بأنّ لا سلطة لهما في التوقيع إذا لم تقم بين الاستسلام والغزو رفقة ومعيّة . وهنا باشر الإذلال عمله . وقد قال «مورفي» إنّ «ألكسندر» ظهر أمام الإيطاليّين وجزمته لمّاعة . وقد غطّت صدرَه أوسمتُه كلّها . وبعد ما تظاهر بمعرفة تأجيل القرار الإيطاليّ اصطنع سخطاً شديداً . ذاكراً الخيانة والمكر . وصرّح بأنّه سيجري قصف «روما» ما لم يوقَّع على الاستسلام في الـ ٢٤ ساعة المقبلة . وقضى «زانوسي» و «كاستلاّنو» هذه الساعات في غمرة القلق بانتظار جواب من حكومتهما . ويبدو مستَبعداً ألاّ يكون الألمان قد وقفوا على تحرّكات هؤلاء الرجال والموجات التي كانت تجري . لخمسة عشر يوماً خلت . على طول دائرة «روما — مدريد — لشبونة — كيبيك — الجزائر — باليرمو — روما» . إلاّ أنّ هذا الاستبعاد يبدو حقيقياً . اشتمّ الألمان رائحة الخيانة ولكنّهم لم يفضحوها . وقال «كيسلرنغ» «مؤكّداً» : «وحتى آخر لحظة كنت أقيم مع القيادة الإيطاليّة علاقات ممتازة ....».

وبلغ السماح بالاستسلام «كاستلاّنو» في صبيحة ٣ . وقدم «أيزنهاور» من مدينة «تونس» لحضور التوقيع على الوثيقة الموضوعة «لأجل قصير» . وهي الوحيدة التي كان الإيطاليّون عالمين بها في ذلك الوقت . جرى الاحتفال في الساعة ١٥.١٥ . وانصرف «أيزنهاور» على الأثر وهو متضايق ومقطّب الوجه . تاركاً «لبيديل سميث» أمر مهمّة مقيتة ألا وهي أن يسلّم الإيطاليّين الوثيقة التي كانت تزيل وجود دولتهم شرعياً إلى أجل غير مسمّىً . أصغى «كاستلاّنو» إلى قراءة نصّها بذهول . ولكنّه تمالك أعصابه . وصرّح بصوت خافت بأنّه يتكفّل بعدم نقل شروط الاستسلام «لأجل طويل» للمارشال والملك .

لقد جاء استسلام «إيطاليا» بعد أربع سنوات من دقّ أوّل ناقوس للحرب . وبهذا يكون أحد الأخصام الثلاثة قد هزم على أمره . ولكنّ النبأ بقي سرياً مؤقّتاً . وقد احتفظ «أيزنهاور» بحقّ اختيار الوقت للإعلان عنه . فيما تعهّد «بادوليو» بتثبيته مباشرة على أثر ذلك . كان الحلفاء يعتزمون تنسيق الاستسلام الإيطاليّ مع عمليّة النزول في خليج «ساليرنو» الصغير . وقد رُفض إعطاء «كاستلاّنو» أيّ تعهّد أو أيّة معلومات قط . بيد أنّ المحادثات بشأن عمليّة «روما» المنقولة جوّاً قد استمرّت . فبقي للإيطاليّين أمل في أن يروها قائمة يوماً .

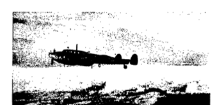
في «روما» كانت الحكومة الملكيّة قد عاشت حقبة الاستسلام السريّ الغريبة في قلق قاتل . وقد بلغت الساعات الإخيرة مرحلة الكوابيس والهواجس . وعلى أثر المعلومات المثيرة التي أعطاها «كاربوني» «لتيلر» . تأجّل إنزال فرقة «إيربورن» ٨٢ قبل ساعة واحدة من الموعد الذي كان فيه المظليّون سيركبون متن الطائرات . ولم يكن الإيطاليّون عالمين بأنّ «كيتل» قد أطلق لتوّه الكلمة الاصطلاحيّة «محور» ، وهي تعني نزع السلاح من الوحدات الإيطاليّة كافّة ؛ غير أنّ تحرّكات القوّات الألمانيّة كانت تنذر بالتهديد . وأمّا الذين وقفوا على هذا السرّ فكانوا يرونه وكأنّه يطير ويتفشّى . وطلب السفير «راهن» أن تدبَّر له مقابلة مع الملك ، فقال الملك بعدما طلب منه الإيضاح ، وبكثير من التطمين المفخّم : «إنّ «إيطاليا» منوطة «بألمانيا» في الحياة وفي الموت . وهي ستواصل قتالها حتى النهاية ولن تستسلم إطلاقاً...» .

كان الوقت ظهر ٨ أيلول . وكانت الشمس تغمر «روما» بأشعّتها الذهبيّة ، وتضفي على حجارتها الأثريّة بريقاً زاهياً ؛ ولكنّ العاصمة كانت تضجّ كذلك بجلبة الحرب . وقامت القاذفات الأميركيّة بسحق «فراسكاتي» ، وهي مقرّ «كيسلرنغ» العامّ . وفي الساعة ١٨،٣٠ ، قبل القيام بالعمليّات في «ساليرنو» بساعتين ، هزّ أمواج الأثير صوتٌ لاسلكيّ يقول : «أنا «دوايت أيزنهاور» القائد الأعلى للقوّات الحليفة . إنّ الحكومة الايطاليّة قد سلّمت قوّاتها المسلّحة بلا قيد ولا شرط . وبالتالي فالحرب القائمة بين قوّات الأمم المتّحدة المسلّحة وقوّات «إيطاليا» المسلّحة قد انتهت لتوّها . وأمّا الايطاليّون الذين سيحاولون الآن طرد الألمانيّ المعتدي من الأرض الإيطاليّة فسينعمون بإسهام الأمم المتّحدة ومؤازرتها» . وقد سُجّلت هذه الرسالة على اسطوانة مع ترجمتها الإيطاليّة ، وتناقلتها محطّات الإذاعة الحليفة جميعها .

وفي مقرّ «أيزنهاور» العامّ بات يترقّب حدوث الصدى ، ألا وهو تصريح «بادوليو» المماثل . إلاّ أنّه تأخّر . وأجاب الرسميّون الإيطاليّون عن أسئلة الألمان بأنّ الرسالة كانت خدعة لبذر الاضطراب في «إيطاليا» ، في عشيّة نزول جديد . وتمكّن «راهن» أخيراً من الاتّصال «بغواريغليا» هاتفياً . وأجاب وزير الخارجيّة بتمهّل قائلا : «هذا صحيح ؛ فنظراً لطابع الوضع اليائس طلب المارشال «بادوليو» هدنة ، وحصل عليها» . وقال «راهن»: «ولكنّ المارشال قد قطع عهداً بشرفه العسكريّ في ٣ أيلول ...» وقاطعه «غواريغليا» قائلاً : «إنّه اليوم الذي وُقّعت فيه الهدنة» . وغاصت المكالمة في أفق من الشتائم . وفي أعقاب تلك المكالمة ، في الساعة ١٩،٤٥ ، كانت الإذاعة الإيطاليّة تثبّت رسالة «أيزنهاور» .

لم يبقَ أمام الذين قاموا بهذا الانقلاب المسرحيّ غير إنقاذ أرواحهم . فغادر الملك والملكة والعائلة المالكة قصورهم بعجلة مفرطة ، وكذلك المارشال والوزراء والجنرالات وأصحاب المليارات . وفي الليل جرى تبادل إطلاق النار بين بعض الوحدات الإيطاليّة والأرتال الألمانيّة الزاحفة على «روما» . وسار الهاربون عبر طريق «الأدرياتيك» ، واجتازوا بصعوبة مسالك «أبروتزي» الوعرة ، ووصلوا صباحاً إلى «بيسكارا» حيث أقلّت سفينتان حربيّتان الملك وأهمّ الشخصيّات إلى «برنديزي» . وأمّا «مورفي» ، الذي وصل إليها بعد أيّام ، فقد وجد تلك الحكومة وذلك البلاط المندحرين مقيمين في أبنية الأميراليّة الكئيبة ، وتحت نوافذهم سفينة .

لقد كان مصير ملكيّة «سافوا» قاتماً . وقال «مورفي» إنّه لم يكن لدى الملك غير البزّة التي كان يرتديها ، وإنّ الملكة كانت محرومة من البيض الطازج . إنّه لحرمان قاسٍ يلحق بالعظام في حرب تسحق الأجساد الفتيّة من غير حساب !

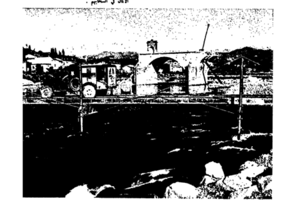


طائرات ألمانية تحلق فوق جبال «صقلية» الجرداء في طريقها إلى «مالطة».

في بطن "أوروبا" الرخو" (تشرتشل)

صورة من صور الشقاء التي ترسمها الحروب عبر الدهور. في مكان ما في «صقلية» جلست هذه العجوز، وقد نامت تحت نير القدر، أمام أنقاض منزلها. ولكم تهدّم منزل في العالم، ولكم نامت، مثل هذه العجوز، عجوز!

أقامت شعبة الهندسة الأميركية هذا الجسر المرتجل فوق أحد أنهار «صقلية». ويبدو في أقصى الصورة الجسر القديم وقد نسفه الألمان في انسحابهم.



ألفصل الثالث والعشرون
أيلول - كانون الأول ١٩٤٣



أطلق المارشال «كيسلرنغ» لفظة «محور» الاصطلاحيّة القاضية بتجريد القوّات الإيطاليّة من السلاح، يوم ٩ أيلول، في تمام الساعة ١٩،٣٠، قبل أن يؤكّد «بادوليو» خبر إعلان الهدنة بدقائق.

ولقد سهّلت تنفيذ العمليّة التدابيرُ التي كان الجيش الألمانيّ قد اتّخذها مسبقاً. ففي «فرنسا» لم يبدِ الجيش الرابع أيّة مقاومة، وفي «كرواتيا» و «الجبل الأسود» التحقت مجموعات من الجند الإيطاليّ بالأنصار. أمّا في «سردينيا» وفي شماليّ «إيطاليا» فقد آثر بعض الوحدات أن يمضي في القتال إلى جانب رفقائه في السلاح الألمانيّة. ولقد أتت الغنائم على مستوى ما يوفّره جيش مقهور وبلد محتلّ، فحوّل رجال ٨٠ فرقة معاملة أسرى حرب، وذكر جدول الإحصاء المعتادّ الذي سلبه الألمان على الوجه التالي: ١،٢٥٠،٠٠٠ بندقيّة، و ٣٨،٣٨٣ رشّاشاً، و ٩،٩٨٨ مدفعاً، و ٩٧٠ دبّابة، و٤،٥٥٣ طائرة، و٢٨٧،٥٠٢ من أطنان الذخيرة، و١٥،٥٠٠ شاحنة، و٦٧،٦٠٠ جواد وبغل، و١٩٦،٠٠٠ طنّ من الحديد الخام، و ٣،٤٠٠ طنّ من الزئبق، و١،١٣٩،٠٠٠ قميص، و٣٥٢،٠٠٠ متر من الكتّان، الخ. فعلّق «جودل» على ذلك قائلاً: «عادت البحبوحة إلى الجيش الألمانيّ ولو إلى حين. وكانت تلك هي الخدمة الوحيدة التي أسدتها إلينا «إيطاليا»....»

لم يلقَ الألمان مقاومة فعليّة إلاّ في ضواحي «روما»، إلاّ أنّ فرقة النخبة المصفّحة الثالثة، وفرقة القنّاصة المظليّين الثانية، تغلّبتا على بعض أعمال المقاومة المحليّة. وكانت مقاومة الجنرال «روانا» في مقرّ القيادة العامّ في «مونتي ريدونتو» أشدّها عنفاً، ووفّر استسلام الجنرال «كالفي دي برغولو» - صهر الملك - على القوّات الألمانيّة مشقّة اقتحام المدينة الخالدة عنوة. فترك له «كيسلرنغ» فرقته «بيافي» السهر على النظام في العاصمة، وكلّفه بتسريح جنود التشكيلات الأخرى وإعادتهم إلى بيوتهم.

كانت القيادة الألمانيّة في «إيطاليا»، يوم بدأ اجتياحها، مقسومة ومنقسمة على نفسها في آن معاً، ففيما كان الشمال حتى خطّ «أنكونا - بيومبينو» يشكّل منطقة مجموعة الجيوش «ب» الخاضعة «لرومل»، انتمى ما تبقّى لمجموعة الجنوب خاضعاً لإمرة «كيسلرنغ». واستقرّت بين المارشالين كراهية متبادلة، ووقفت نظريّاتهما على طرفَي نقيض. ففيما يودّ «رومل» التخلّي عن «روما» ونقل الدفاع إلى مستوى «فلورنسا»، يرى «كيسلرنغ» المقاتل وجوب ردّ الغزاة على الشواطئ، أمّا «هتلر»، الذي كانت قضايا المتوسّط كلّها تضايقه، فلم يحكم بينهما. حاول «رومل» فرض نفسه بمعاملة «كيسلرنغ» معاملة المرؤوس، غير أنّ قيادة الجيش العليا لم تدعم ادّعاءه. فبقيت «إيطاليا» مقسومة بين خصمين عنيدين.

كانت تحت إمرة «رومل» سبعٌ من فرق المشاة، وفرقتان مصفّحتان إحداهما هي فرقة الصاعقة «أدولف هتلر». فضلاً عن لواء جبليّ. وكانت هذه الوحدات العشر المنتشرة من «البرينير» إلى «الأرنو» معرضة عن المعركة الدائرة رحاها جنوبيّ «روما». ولذا لم تثر طلبات «كيسلرنغ» وشكاواه، على كثرتها، أيّ صدى.

خلال مباحثات «رستنبورغ» في ٢٨ آب سأل «كلوغي» «هتلر»: «كيف أستطيع، والحالة هذه، أن أعرّي لأكسو «مالشتاين»؟»



في ليل ٨ – ٩ أيلول ١٩٤٣ نزل الانكليز والأميركيّون على شاطىء «باستوم» .

كانت مجموعة الجنوب تشمل فرقتين مصفّحتين . وثلاث فرق من قوى النخبة المصفّحة ، وفرقتين من المظلّيّين ، وكانت موزّعة إلى فيالق ثلاثة : الفيلق ٧٢ الذي أخّر تقدّم «مونتغومري» الحذر في «البازيليكات» و «البويل» ؛ والفيلق المصفّح ١٤ المرابط في منطقة «نابولي» ؛ والفيلق ٢ المرابط في منطقة «روما» . أمّا في «سردينيا» فقد تلقّت مجموعة الدبّابات ٩٠ الأمر بالجلاء عن الجزيرة ، وبناء على ذلك كان عليها أن تنتقل أوّلاً إلى «كورسيكا» حيث ستنضمّ إلى الحامية المحليّة وقوامها لواء الصاعقة «رايخ فوهرر» . ومن ثمّ تنسحب إلى القارّة مارّة بجزيرة «إلبا» .

لم تأخذ العمليّات «كيسلرنغ» على حين غرّة ؛ ففيما كان خليج «نابولي» منيعاً بفضل نيران مدفعيّة متشابكة ، انفتح خليج «ساليرنو» واسعاً . ولمّا تزل مجموعات المطاردة المرابطة في «صقلّية» خارج نطاق التدخّل . حلّت فرقة الدبّابات ١٦ في القطاع في مطلع أيلول ، وحالما شاع خبر التخاذل الإيطاليّ الأوّل استولت على المنشآت كلّها ، من أعشاش الرشّاشات إلى متاريس المدفعيّة وغيرها من منشآت فرقة الدفاع الساحليّ ٢٢٢ ، رامية بالرصاص الجنرال «فرّانتي غونزالغوا» الذي حاول أن يقاوم . ثمّ وُزّع فوجا النخبة المصفّحة على طول الشاطىء ، أمّا فوج الدبّابات المجموع في الوسط في «باتيباليا» فقد احتُفظ به للهجمات المعاكسة .

كان الجيش الحليف ، الذي انطلق لفتح «إيطاليا» ليل ٨–٩ أيلول ، يتألّف . بالرغم ممّا يشير إليه اسمه (الجيش الخامس الأميركيّ) وبالرغم من هويّة قائده (الجنرال «مارك وين كلارك») من ١٠٠،٠٠٠ بريطانيّ ؛ مقابل ٦٩،٠٠٠ أميركيّ . كان نسق الانقضاض يشمل الفرقتين الانكليزيّتين ٤٦ و ٥٦ اللتين تشكّلان الفيلق ١٠ بقيادة الجنرال «ماك كريري» ، والفرقة الأميركيّة ٣٦ المنتمية إلى الفيلق ٦ الأميركيّ . نزلت هذه الأخيرة في «باستوم» على الشواطىء التالية : «الأزرق» و «الأصفر» و «الأخضر» و «الأحمر» ؛ ونزل الانكليز جنوبيّ «ساليرنو» على شواطىء «روجر» و «شوغر» و «أنكل» تفصل ما بينهم وبين الأميركيّين منطقة من المستنقعات يبلغ طولها ١٥ كلم تقريباً ، يولّفها مصبّ جدول صغير هو «السيلي». هذا وعمدت كتيبتان من الفدائيّين البريطانيّين ، وثلاث كتائب من «الرنجرز» الأميركيّين ، إلى تمديد العمل ما وراء «ساليرنو» حتّى ضواحي «أمالفي» .

سهل الوصول إلى الشواطىء نسبيّاً فيما صعُب التوغّل في البلاد الداخليّة ؛ فمخروط «مونتي سوتيني» وزاوية «مونتي سوبرانو» ، يشرفان على جنوبيّ ميدان القتال ؛ أي على القطاع الأميركيّ ؛ وينحصر السهل الساحليّ ، الذي تغطّيه مزروعات وافرة ، في وادي «السيلي» الضيّق . الذي يتفرّع ، ناحيةّ الضفّة اليسرى منه ، رافده «الكالوري» الذي ينساب بشكل نصف دائرة . وتمعن الجبال في الارتفاع فوق «ساليرنو» ناحية «إيبولي» حتّى تتجاوز ١،٦٠٠ م ، فتلتحم بشبه جزيرة «سورنتي» الرائعة التي ينبسط وراءها خليج «نابولي» . لم يتوافر للمعارك البشريّة قطّ فيما مضى ما توافر لهذه من نعومة وتاريخ !

قامت فكرة المناورة على التمركز في قعر الخليج من «مايوري» إلى «أغروبولي» ، ثمّ على الالتفاف حول «ساليرنو» بغية الانبساط والاستيلاء على «نابولي» ، هذا فيما يصطفّ الجيش البريطانيّ الثامن القادم من الجنوب بموازاة الجيش الأميركيّ الخامس ويمدّده حتّى «الأدرياتيك» . كانت الخطط جاهزة حتّى خطّ «فولتورنو» ، غير أنّ الجدل الانكليزيّ – الأميركيّ الدائر حول أهميّة مسرح العمليّات الإيطاليّ ، وحول استخدامه اللاحق ، كان ما يزال قائماً .

كانت تلك الليلة جديرة بأن تسمّى سماويّة ؛ فقد اضطرّت الناقلات وسفن الحرب الكبيرة إلى أن ترسو على بعد ١٢ ميلاً من الشاطىء بسبب حقول الألغام ، بيد أنّ البحر كان من الهدوء بحيث لم تلقَ عمليّة الكسح وعمليّة اقتراب زوارق الإنزال عقبات تُذكر . كان يسود جيشَ الغزو تفاؤلٌ عارم تغذّيه سوابق «جيلا» و «سيراكوزا» و «ريجيو» ، ويذكيه نبأ الاستسلام الإيطاليّ . حتّى إنّ «كلارك» راح يتساءل ما إذا كانت الحكمة الفضلى تقتضي الدخول المباشر إلى خليج «نابولي» والنزول المباشر في المرفأ . أصرّ قائد الفيلق البريطانيّ ١٠ على أن تقوم المدفعيّة بقصف تمهيديّ ، إلاّ أنّ «ارنست ج. دولي» ، قائد الفيلق الأميركيّ ٦ ، قرّر أن يقذف بالفرقة ٣٦ على رمال «باستوم» من غير أن تمهّد المدفعيّة لذلك بطلقة واحدة ؛ هذا مع العلم بأنّ الفرقة ، وقد أتت من «وهران» ، لم تكن قد شهدت النار بعد .

السّاعة تشير إلى الثالثة والنصف ، والظلمة حالكة . خرج صيّادو «أمالفي» على عادتهم في كلّ ليلة ، وانزلقت أضواء زوارقهم الشاحبة على مياه قد غصّت بـ ٤٥٠ سفينة تقلّ ٥٥،٠٠٠ جنديّ وما يعود إليهم من معدّات كثيرة ضخمة . أخذت مئات من زوارق الإنزال ومن الشاحنات البرمائيّة تقترب من شاطىء كان يبدو نائماً. وانهالت مدافع السفن تقصف الأرض الخرساء ناحية «ساليرنو» ، أمّا ناحية «باستوم» فأوّل صوت مزّق حجاب الصمت أرسله مكبّر للصوت يقول بنبرة : «إنّكم لسالمون ! تقدّموا وسلّموا !» وفجأة أضاءت الشاطىء قنابلُ منيرة وأخذت الأسلحة تتكلّم . لم يكن للنزول المعجزة في «كالابريا» ، ولا للنزول السهل في «صقلّية» ، أن يتكرّرا هنا . فثمّة جنود ألمان قد

أمروا بالصمود بقوّة .

ردّ الأميركيّون على التهديد الوقح بنشاط واندفاع ، فألقوا بأنفسهم في الكثبان وانتزعوا «باستوم» ، ثمّ الطريقَ والخطّ الحديديّ ، فبلغوا الأهداف المعيّنة لذاك اليوم ، وشقّوا لأنفسهم رأس جسر يبلغ عمقه ٥ كلم سرعان ما تكدّس عليه جبل من العتاد . لم يحرز الانكليز من النجاح ، وأكثرهم من قدامى حرب الصحراء ، ما أحرزه مبتدئو الفرقة الأميركيّة ٣٦ . فلم ينتزعوا مدينة «تاتيباليا» الصغيرة ، ولا مطار «مونتيكورفينو» الصغير ؛ إلاّ أنّ رأس جسرهم ، وقد أرساه عن اليسار نزولُ المغاوير ، قد توطّد منذ المساء الأوّل .

وتكبّد الانكليز مشقّة كبيرة في اليومين التاليين للاستيلاء على «ساليرنو» و «مونتي كورفينو» و «باتيباليا» ، وشعر الأميركيّون بالمقاومة الألمانيّة تلين أمامهم . فانتزعت إحدى الفرق بلدة «ألتافيلا» المرتفعة المشرفة على وادي «كالوري» ، وأنزل «كلارك» احتياطيّه العائم ، أي الفرقة الأميركيّة ٤٥ . فتقدّمت في رتلين اثنين ميمّمة شطر «بونتي سيلي» حيث تمرّ الطريق والخطّ الحديديّ اللذان يجتازان «إيبولي» ثمّ يتوغّلان في منطقة «ميتزوجيورنو» ذات الفقر المدقع الظاهر . فبدا أنّ اللقاء «بمونتغومري» وشيك ، وأنّ الغزو قد نجح .

بيد أنّ التدابير التي اتّخذها «كيسلرنغ» أتت بارعة سريعة ؛ فقد أفاد من حذر «مونتغومري» المفرط ، فسحب فرقة الدبّابات ٢٦ والفرقة المصفّحة الممتازة ٢٩ ليقذف بهما على جانب رأس الجسر الأيمن ، فيما قذف الجانب الأيسر بالفرقة المصفّحة الممتازة ٣، وفرقة القنّاصة المظليّين، اللتين وضعتا حدّاً لمشكلة «روما» . ووجّه ما تبقّى من فرقة «هرمان غورنغ» ، وفرقة الدبّابات الممتازة ١٥، ناحيةَ القلب ، حيث كانت الجبهة الألمانيّة تهدّد بالتصدّع . وفيما خُيّل «لكلارك» أنّه يمسك بزمام النصر . انهالت على جنوده العديمي الخبرة هجماتٌ معاكسة عنيفة ، فنال الإصبعين اللتين مدّهما نحو «بونتي سيلي» ضيمٌ شديد ، وانتُزعت «ألتافيلا» التي كانت قد سقطت بسهولة ، بعد عراك مرير ، وشهد مصنع «برسانو» للتبغ ، الواقع في وادي «سيلي» ، مجزرة الدبّابات الأميركيّة . ممّا جعل الكولونيل –جنرال «فون فيتنغوف» قائد جبهة «ساليرنو» . يعلن «لكيسلرنغ» في ١٣ أيلول أنّه يأمل إلقاء الغزاة في اليمّ مساء اليوم ذاته . وبلغ استعداد «كلارك» للتسليم بذلك حدّاً بات معه

جنود بريطانيّون من سلاح الإشارة يتعرّضون لنيران العدوّ .



يفكّر بإحراق كميّات المؤن الكبيرة التي أنزلت على الشاطئ .

بيد أنّ مصير رجل عسكريّ كبير كان رهناً بذاك النزاع ؛ فلقد أعلم «أيزنهاور» أنّ قيادة غزو «أوروبا» الغربيّة ستؤول إلى أميركيّ ، وما كان ليجهل أنّه في طليعة المرشّحين . كان إخفاق النزول هنا . والحالة هذه، يقضي على حظّه هناك. ولقد عبّر عن ذلك إذ قال متفلسفاً: «إن أخفقت عمليّة «ساليرنو» احترقتُ أنا وقُضي عليّ ...»

إستحال الغبار في ميدان القتال سحاباً خانقاً ، فتكمّم الرجال بمناديلهم كأشقياء «الوسترن» ، وضغط الألمان بكلّ قواهم . وفي الساعة ٦،٣٠ من يوم ١٣ أيلول تمكّنت ١٥ دبّابة من طراز «ب ز.كف ٤» من بلوغ الجسر المحروق الذي يعبر نهر «كالوري» بالقرب من نقطة التقائه «بالسيلي» التي يبلغ بعدها عن البحر ٧،٠٠٠ متر . فعمد «كلارك» نفسه إلى تشغيل مجموعتي مدفعيّة الميدان ١٥٨ و١٧٩ ، فأغرقتا الوادي بالقنابل وأوقفتا الدبّابات . وما مرّت ساعتان حتّى سقط من الجو ٢،٥٠٠ مظلّي من رجال فرقة «إيربورن» ٨٢ ، التي غدت شاغرة بعد التخلّي عن الهبوط في «روما» ، تماماً قرب مصبّ «السيلي» ، على أكثر نقاط رأس الجسر تعرّضاً بالذات .

أعاد الألمان الكرّة يومَي ١٤ و١٥ ، بيد أنّ حيويّة المعركة وقوّتها قد انقلبتا ، وبدا تفوّق الطيران الحليف مرهقاً ساحقاً ، واعترضت السفن الكبيرة في الخليج بعد تنظيفه من ألغامه. أُعطب الطرّاد الأميركيّ «سافانه» و «الوارسبايت» العتيق بما أصابهما من قنابل موجّهة بالراديو ، وهو سلاح ألمانيّ جديد . غير أنّ نيران المدفعيّة البحريّة ، التي أخذت تعطّل الطرقات وترمي الدبّابات على مرمى النظر ، قد انتزعت من الألمان كلّ فرصة في سحق رأس جسر «ساليرنو» قبل أن يدركهم الجيش الثامن من خلف . فأذعن «كيسلرنغ» للواقع ، وأمر بالانكفاء إلى خطّ الصمود الأوّل الذي يساير مجرى «الفولتورنو» ويبلغ «الأدرياتيك» عن طريق «كامبوباسّو» و «تيرمولي» . جرى التراجع بانتظام ، ترافقه في المؤخّرة عمليّات نشيطة وأعمال تدمير أخّرت تقدّم الظافرين .

دخلت قوّات «حرس التنّين الملكيّة» «نابولي» في أوّل تشرين الأوّل . فإذا المدينة في حالة مريعة مخيفة ؛ فلقد خرّب الألمان المرفأ . وأحرقوا الأحياء السفلى ، وفجّروا أقنية الماء والكهرباء ، ودمّروا حتّى معامل «السباغيتي» . مضيفين بذلك إلى قسوة الواجبات العسكريّة غضبةَ الثأر والانتقام . فاضطرّ الأميركيّون والانكليز إلى إعالة مليون من المدنيّين أمسوا فريسة الجوع والوباء .

في ٦ تشرين الأوّل احتلّ الحلفاء مدينة «كابو». وأدركوا نهر «فولتورنو» . فتمّ بذلك فتح ربع الأراضي الإيطاليّة .

أسر الدوتشي وتحريره

أوجد «موسوليني» بعد سقوطه معضلةً عويصة . كان قد نُقل إلى جزيرة «بونزا» في عرض «نابولي». ومن ثمّ إلى جزيرة «مادالينا» شماليّ «سردينيا» في ٨ آب . كانت حكومة «بادوليو» عالمة بأنّ الألمان يفكّرون باختطاف الدوتشي . كما كانت عالمة بأنّ الدوائر السريّة الحليفة كانت تسعى للعثور على موضع احتجازه للغرض نفسه . فسواء أسر «تشرتشل» «موسوليني». أم حرّره «هتلر» . فالعواقب لن تكون مرضية بتاتاً . بل قد تكون وخيمة على المارشال والملك على السواء .

وفي «بونزا» ،حيث كان الأسير قد وصل على متن السفينة «برسيفوني». بقي أسابيع طوالاً يعاني الشدّة والشقاء . فالجزيرة قد استُخدمت لإيواء المعادين للفاشيّة المنفيّين . وكان أحدهم . وهو «زانيبوني». ما يزال فيها.

وأمّا ميلاد الدوتشي الستّون ، الذي كان «هتلر» يريد جعله احتفالاً باهراً لصداقة بطوليّة ، فقد انقضى في الوحدة . وبعد انقضائه بأيّام وصلت إلى الدوتشي هديّة «هتلر» . وهي مؤلّفات «نيتشي» . وأمّا «راشيل» فقد بعثت إلى زوجها بهديّة أكثر تواضعاً . وهي عبارة عن بعض البياضات ، و ١٠٠.٠٠٠ لير . وكتاب «حياة يسوع» .

كانت «بونزا» معرّضة لهجوم انكليزيّ مفاجيء. وكانت «مادالينا» . وهي أرخبيل صغير محوّل إلى قاعدة بحريّة ، تشكّل الخطر المعاكس . إذ أنّ فرقة من الفرق الألمانيّة كانت ما تزال تحتلّ «سردينيا» . وفي ١٨ حلّقت فوق الجزيرة طائرة ألمانيّة أثارت ريبة «روما» . وفي ٢٨ هبطت طائرة إسعاف لنقل «موسوليني» الذي كان مقيماً في منزل مريح وسط أشجار السرو ، وقد شرع في قراءة «نيتشي» وهو راضٍ كلّ الرضى عن إقامته . فرضخ لعمليّة نقله الجديدة بكثير من التململ .

وهبطت طائرة الإسعاف الجوماثيّة على بحيرة «براتشيانو» في الريف الرومانيّ . واستؤنفت الرحلة في عربة إسعاف ، وانتهت بخطّ تيليفيريك «غران ساسّو ديتاليا» . لم يكن هنالك أيّ دليل يشير إلى أنّ ذروة جبال «الأبينان» تلك ، وهي ناتئة طويلة جلحاء ، بين «أكيلا» و «بيسكارا» ، كانت تقوم مقام السجن . فمركز الرياضة الشتويّة هذا ، الذي يبلغ ارتفاعه ١،٢٢٦ متراً . يحمل اسم «المخيّم الأمبراطوريّ» ، وهو تنويه مرير بالنسبة للدوتشي المخلوع . وأقام الدوتشي في الفندق الذي يحمل الاسم نفسه . وسط مئتين من رجال الشرطة .

كاد اختطاف «موسوليني» أن ينجح في «المادالينا» . فطائرة ١٨ آب كانت تقلّ «الشتورمبانفوهرر شكورزيني» ، وقد كان الاختطاف وشيكاً في الوقت الذي تمّ فيه نقل الأسير إلى القارّة . وأمّا «أدولف هتلر» ، الذي كان تعلّقه بالصداقة هو شعوره الإنسانيّ الوحيد، فقد تعهّد بإنقاذ ذلك الرجل من مصيره المشؤوم . ذلك الرجل الذي لم تبعده عنه أيّة خيبة قطّ . وقد حدّدت دوائر الاستخبارات الألمانيّة سريعاً موقعَ الاحتجاز الجديد . فأكبّ الفوهرر على وضع تفاصيل الاختطاف بنفسه .

في ١٢ أيلول . وفي الساعة ٢ بعد الظهر ، راح بعض الطائرات يرعد على سفوح «الغران ساسّو» . ومن جملة الطائرات الشراعيّة الـ ١٢ التي أطلقت . هبطت ٨ على أرض فندق «المخيم الأمبراطوريّ» الخضراء . وسارع «موسوليني» إلى النافذة فأبصر منقذيه ينقضّون كالصاعقة في الوقت الذي أركن فيه سجّانوه إلى الفرار . وفي نقطة سفلى من ذلك المكان ، وعلى علوّ ألف متر . كانت مفرزة أخرى من المفارز الصاعقة تسيطر على خطّ التيليفيريك . بعد وصولها بطريق البرّ . وكان «كارمين تشينيزي» . الذي أعيد تعيينه رئيساً للشرطة . قد شهد مرور هذه المجموعة الأخيرة في «أكيلا» . ولكنّه لم يأتِ حراكاً . فالهدنة كانت قد عُمّمت منذ أربعة أيّام . ولو أنّ «بادوليو» قد احتفظ «بموسوليني» لوجب عليه تسليمه للحلفاء . وها إنّ «هتلر» قد وفّر عليه هذا الصنيع المُخزي .

وبعدما تحرّر «موسوليني» لم يعرب عن غبطته مطلقاً . بل طالب بالعودة إلى «روكادلي كاميناتي» ، ولكنّ «شكورزيني» أعلمه بأنّ لديه تعليمات للذهاب به إلى قاعدة «باتريشيا دي ماري» الألمانيّة قرب «روما» . وكانت طائرة صغيرة ذات مقعدين قد حطّت لتوّها بصعوبة فائقة قرب الفندق ، فصعد «موسوليني» إليها وفي نفسه خوف مبهم . وهو لمّا يحلق ذقنه ، يرتدي معطفاً ثقيلاً واسع الأطراف ، ويعتمر قبّعة مجعّدة . وكأنّه مهاجر هرم . وجلس «شكورزيني» البدين كيفما تيسّر ذلك بالقرب منه على مقعد الركّاب الوحيد . وما إن أقلعت الطائرة الصغيرة حتى ظنّ الحاضرون أنّها ستهوي وتتحطّم .

كانت تلك المخاطرة باطلة . فقد كان بميسور «موسوليني» أن ينصرف عبر الطريق البرّيّة كما فعل الجنرال الإيطاليّ «سوليتي» الذي وصل على متن إحدى الطائرات الشراعيّة ، أو كما فعل مفوّض الشرطة «غوالي» الذي كلّفه «بادوليو» بحراسة الدوتشي المخلوع ، والذي كان قد قيّد نفسه بمصيره. وبلغ الرجلان «باتريشيا دي ماري» من غير تأخير فأمكنهما ركوب طائرة «هاينكل» كانت متّجهة إلى «فيينا» حيث وصل «موسوليني» عند منتصف الليل وهو يكاد يموت لشدّة وهنه . وأجاب «موسوليني» «هتلر» الذي اتّصل به هاتفياً مرحّباً ، بأنّه مريض ، وبأنّه بحاجة إلى النوم . وفي اليوم التالي توجّه إلى «مونيخ» حيث كانت «دونّا راشيل» في انتظاره برفقة ولديهما الأصغرين «رومانو» و «أنّا ماريّا» . وكان عضوان آخران من أفراد العائلة موجودين في «مونيخ» هما «إدّا وغالياتزو تشيانو» . كانا قد غادرا «روما» بمساعدة الجيش الألمانيّ ، مزوّدين بتأشيرة إسبانيّة ، وهما مقتنعان من تمكّنهما من الذهاب إلى «مدريد» جوّاً منذ اليوم التالي . ولكنّ انتظارهما قد طال !

وكانت المقابلة الجديدة بين «هتلر» و «موسوليني» في «راستنبورغ» في ١٥ أيلول. وقد حضر المقابلة مؤرّخٌ متوقّد الذكاء هو الدكتور «غوبلز». فبصفته وزيراً للدعاية كان قد ألحق بمأثرة «غران ساسّو» إطناباً رنّاناً ، ولكنّه ، بصفته رجل دولة ، أبدى الكثير من التحفّظ . وقال «غوبلز» في مذكّراته : «يجب أن تضمّ حدودنا «فينيسيا» ، فضلاً عن «التيرول» الجنوبيّ . ولسوف نجد صعوبة في الحصول على ذلك إذا ما عاد الدوتشي إلى الظهور على المسرح السياسيّ» . وكان «كيتل» و «رومل» يعتقدان كذلك أنّ حكومة فاشيّة عاجزة تعقّد المهمّة الألمانيّة ، وأنّ احتلالاً عسكريّاً صرفاً كان الأفضل . «فموسوليني» قد بات يزعج محرّريه بعدما عملوا على تحريره . وكان إلى ذلك يخيّب آمالهم . قال «هتلر» «لغوبلز» : «لقد كنت أتوقّع أن أجد لدى «موسوليني» ، قبل أيّ شيء آخر ، إرادة وطيدة في الانتقام من الذين خانوه جميعاً . ولكنّ هذا الأمر ليس بمتناول يده ، وهذا ، لعمري ، يشير إلى إمكاناته المحدودة. فإيطاليّته مثاليّة لدرجة لا تخوّله أن يكون ثوريّاً ومتمرّداً مثل «ستالين» ومثلي أنا . ولقد لقيت صعوبة ما بعدها صعوبة في دفعه إلى الاعتراف بأنّ «غراندي» كان خائناً حقّاً... إنّ تأثير ابنته «إدّا» تأثير مقيت . فلقد أتت لزيارتي منذ أيّام تعرب لي عن رغبتها في السفر مع زوجها إلى «أميركا» الجنوبيّة ، طالبة السماح في تحويل ٦ ملايين لير إلى بيزيتاس .

الويلات تتوالى على «نابولي» ؛ فقد أحرقها الألمان ، وها هم الحلفاء يقذفونها بالقنابل !

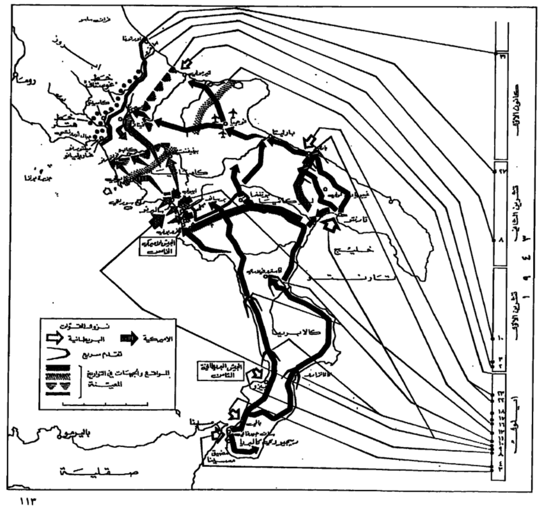


«هتلر» يستقبل «موسوليني» في «ألمانيا» .





مصفّحات «حرس التنين الملكي» في شوارع «نابولي» .



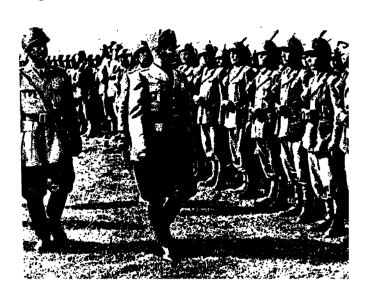
نزول الحلفاء وتقدّمهم في «إيطاليا» الجنوبيّة.

وقد بلغت بها الوقاحة أن عرضت عليّ عمولة مقابل ذلك ! وفي «مونيخ» كانت قد بدأت تعمل على مصالحة «تشيانو» مع أبيها . فجليّ إذاً أنّ الدوتشي لن يستطيع معاقبة الخونة إن هو أراد أن يستثني صهره الخاصّ . وهذا ما يجعل أملي به يخيب » .

كان أمر إبعاد ذلك الرجل الذي سبّب تلك الخيبة رهناً «بهتلر» دون سواه . لم يكن «موسوليني» المتحطّم ينزع لغير الراحة . وإذ عارض «هتلر» عودته المباشرة إلى «إيطاليا» ، قضى اسبوعاً في قصر وسط غابة بافاريّة ، وهو يتساءل عمّا إذا كان قد انتقل من أسر إلى آخر . وفي تلك الأثناء كان الألمان يعيدون تنظيم «إيطاليا» ، فوُضع «أديج» الأعلى و «فينيسيا» الجوليّة تحت سلطة الحاكميّن «هوفر» و «راينر» ؛ وقُسّم ما تبقّى من البلد إلى منطقة عمليّات خاضعة لقادة الجيوش ، وإلى منطقة احتلال. وأمّا الفاشيّة فقد بدا وكأنّها لم تجد لها مكاناً على هذه اللوحة .

ومع ذلك كانت الفاشيّة تعود إلى الانبثاق بصورة ضعيفة . عاد بعض الدوائر إلى فتح أبوابه . وأُعيد إنشاء بعض الفرق ، وراح القادة الذين أوقفوا بعد ٢٥ تمّوز يغادرون السجون في حين حلّ الديموقراطيّون محلّهم في زنزاناتهم . وحصل الحزب على نعت «جمهوريّ» وهو يفضح «خيانة الملكيّة الكاملة والمتعمّدة» . وعيّن «بافوليني» أميناً عامّاً ، وكان في «روما» حيث راحت السلطات الألمانيّة تسعى لمعاكسة جهوده . وقد جرى التساؤل في ذلك الوقت عمّا إذا كان بلاغ ١٥ أيلول ، الذي أعلن أنّ «موسوليني» سيعود إلى تسلّم مهامّ منصبه ، سيبقى لغواً باطلاً ؛ إلاّ أنّ انضمام المارشال «غرازياني» ، الذي قبل وزارة الدفاع لكرهه «بادوليو» ، أعاد الحياة إلى الآلة الحكوميّة . وفي ٢٣ أيلول ، وبعدما قوي «موسوليني» بفضل هذا الانضمام المفاجىء ، غادر «مونيخ» ووصل إلى «روكّا دلي كاميناتي» . وطوال ثلاثة أسابيع بقي منزله الخاصّ مقرّاً لحكومته ، فاستعاد فيه بعض قواه ، وعادت إليه قابليّته للطعام ، وكان يبدو من وقت لآخر أنّه قد استعاد الصفات التي كانت له قبل مدّة .

إنّ دليل عودة «موسوليني» إلى الحكم كان في إمكانيّة عودته إلى «روما» . وصرّح الألمان بأنّ مثل هذا الأمر لم يكن بالحسبان . وقد أتى اختلاق مبدإ «روما» ، مدينة مفتوحة» يعلّل نقل الفاشيّة الجديدة إلى عاصمة تافهة ، وهي مدينة «سالو» الصغيرة على الضفّة الغربيّة من بحيرة «غاردي» ؛ فوصل «موسوليني» إليها في ١٠ تشرين الأوّل برفقة «دونّا راشيل» . وقد وُزّعت الوزارات على المدن الكبيرة في شمال «إيطاليا» ؛ ولقد قيس مستوى الحكومة على الصعيد الدوليّ في مذكّرة إسبانيّة ردّاً على طلب ألمانيّ ، تقول : «إنّه ليس بالإمكان الاعتراف بشبح » .



وكانت مفرزة من المفارز الصاعقة تحرس مقرّ الفاشيّة الجديدة . وكان ضابط ألمانيّ يراقب مجالس الدوتشي ، ويقدّم يوميّاً لرؤسائه تقريراً عمّا يقوم به في كلّ لحظة . ولقد أعاد الألمان «لإيطاليا» إيطاليّاً آخر : فقد وُضع الكونت «تشيانو» في طائرة أقلّته تحت الحراسة إلى «فيروني» حيث سلّم إلى الشرطة الإيطاليّة التي سجنته في سجن «سكالتزي» ؛ فدخل إليها واللامبالاة بادية عليه ، وهو يرتدي معطفاً فاتح اللون ، مصرّحاً بأنّه سعيد لكونه قد تخلّص من سجّانيه الألمان . وبعد أيّام لاحظ أن اثنين من جنود الصاعقة كانا يقومان بالحراسة خارج بابه ، فاجتاحه الخوف من جرّاء ذلك .

نضال ضدّ أفعى ذات رؤوس سبعة

كان الهجوم السوفياتيّ على ناتئة «أوريل» قد أرغم الجيش الألمانيّ على التخلّي عن هجومه على ناتئة «كورسك» . وفي اليوم الذي اتّخذ فيه ذلك القرار ، أي في ١٧ تمّوز ، شنّ الروس هجومين آخرين على ميمنة مجموعة جيوش «مانشتاين» ، الأوّل على «الميوس» شماليّ «تاغنروغ» . والثاني على «الدونيتز» شرقيّ «إزجوم» ، فحقّقا نجاحاً باهراً ، وفتحا في الخطوط الألمانيّة ثُغَراً يتراوح عمقها بين ٢٠ و ٣٠ كلم ، وعرّضا للخطر منطقةَ «ستالينو—فوروشيلوفغراد» الصناعيّة، وهدّدا «خاركوف» .

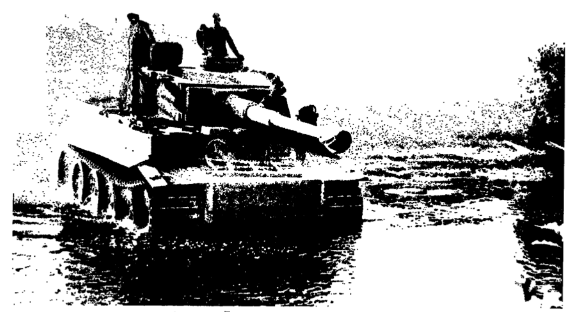
إستمرّ القتال في أتّون تمّوز اللاهب ، وإذا بالحاصل الذي وضعته القيادة الألمانيّة في أوّل آب مُرضٍ موافق ؛ فبعدما سحب «مانشتاين» من ميسرته فيلق الدبّابات ٣ ، وفيلقَ الصاعقة المصفّح ، تمكّن من إيقاف الروس وأعاد جبهته إلى النهرين ، آسراً ١٨،٠٠٠ رجل ومدمّراً ٧٠٠ دبّابة و ٩٠٠ مدفع . وسارت المعركة الدفاعيّة في ناتئة «أوريل» كذلك سيراً ملائماً نسبيّاً ؛ فأوقف تقدّم «غورباتوف» على ٦ كلم من «أوريل» ، وسدّت فرقة «ألمانيا الكبرى» الثغرة المخيفة التي فتحها «بغراميان» في اتّجاه الخطّ الحديديّ الوحيد في القطاع . هذا ، وكان «هتلر» قد سمح أخيراً بالجلاء عن الناتئة ؛ ذاك أنّ «فون كلوغي» كان يحسب أنّ اختصار الجبهة سيمكّنه من أن يسحب من المعركة ١٧ فرقة يعيد بها تشكيل كتلة الاحتياط التي أعوزته حتّى ذاك الحين .

بدت أزمة الصيف على الجبهة الشرقيّة وكأنّها قد أبعدت ، فأعلن «هتلر» «لزيتزلر» أنّ البحر المتوسّط في عام ١٩٤٣ «أهمّ من روسيا» ، فتسلّم بعضَ النجدات ، لاسيّما فرق الصاعقة التي كانت معارك تمّوز قد أرجأت ترحيلها ، وثاتقَ سيره إلى «إيطاليا» .

دامت فترة الاستراحة الثمينة هذه ثلاثة أيّام ؛ فما حلّ يوم ٣ آب حتّى أخذت ٣،٠٠٠ قطعة من قطع المدفعيّة تنفث حممها حول ناتئة «خاركوف» . لم تكن معارك تمّوز غير مقدّمة ، أمّا الهجوم السوفياتيّ الصيفيّ الحقيقيّ فقد بدأ الآن .

إذ ذاك تملّك قادةَ «ألمانيا» ، المدنيّين منهم والعسكريّين . ذهولٌ كاد يبلغ حدود الذعر ، وتجسّد ذلك الشعور في صورة هي صورة الأفعى ذات الرؤوس السبعة.فخلع «غوبلز» لحظةً قناعَ تفاؤله العنيد ، وأسرّ إلى «غوديريان» بأنّه قد بات من الضروريّ الاستعدادُ لوصول الروس إلى «برلين» ، والتفكيرُ «بتسميم نسائنا وأولادنا » . ولقد باتت الانتصارات ذاتها لا تجدي في وجه تنّين يمتاز بقدرة على التمالك والتجدّد تبدو غير محدودة . ففي العام المنصرم اعتقد أقلّ الجنرالات ميلاً إلى الأخذ بأوهام «هتلر» أنّ التلف قد أدرك الجيش الأحمر ، فإذا بموجة ثالثة ، أضخم

«موسوليني» يعود إلى الإمساك بزمام وظيفته . يا لها من أوهام !



دبّابة «تيغر» تقطع نهراً في الجبهة الشرقيّة . نحن الآن في جحيم تموز .

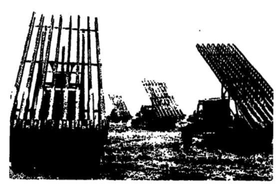
وأعتى من الموجتين السابقتين . تنبجس عام ١٩٤٣ من الأبعاد السوفياتيّة وتغرق الجيش الألمانيّ .

ففي وجه فرق المشاة الـ ٢٩ . والفرق المصفّحة الـ ١٣ . التي تتألّف منها مجموعة جيوش «مانشتاين» . انتصبت في تمّوز ١٠٩ فرق و ٩ ألوية من المناوشين . و ٧ فيالق من الخيّالة . و٧ فيالق آليّة . فضلاً عن ١٠ فيالق و ٢٠ لواء و ١٦ فوجاً مستقلاً من الدبّابات . ومهما بولغ في التقديرات فإنّها تتّفق وجدول الجيش السوفياتيّ العامّ لعام ١٩٤٣ الذي يحصي : ٥١٣ فرقة أو لواء من المشاة . و ٤١ فرقة من الخيّالة . و ٢٩٠ لواء آليّاً أو مصفّحاً . كانت التشكيلات الروسيّة أقلّ عدداً على الصعيد الداخليّ من الوحدات الألمانيّة المماثلة . إلاّ أنّ هذه الأخيرة كانت تشكو فراغاً كبيراً ، فمجموعة الجنوب مثلاً فقدت ١٣٣٠٠٠ رجل بين تمّوز وآب . ولم تتلقّ مقابل ذلك غير ٣٣٠٠٠ بديل . ولشدّ ما نزفت «روسيا» ! ولكنّها ما فتئت تغذّي طاقتها البشريّة بطبقات من العمر تفوق الطبقات الألمانيّة أربعة أضعاف . هذا مع العلم أنّها لا تحارب إلاّ عدوّاً واحداً .



في ١٦ تموز ١٩٤٣ كانت استعدادات الجيش السوفياتيّ المصفّح الثالث للهجوم في جبهة «فورونيج» قائمة على قدم وساق . في الصورة عدد من كبار الضباط في مقرّهم العامّ . ويبدو بينهم «نيكيتا خروشتشيف» يتكلّم بالهاتف .

أمّا على الصعيد الماديّ فقد حقّقت «ألمانيا» انتفاضة رائعة ؛ فقد عيّن «هتلر» لخلافة وزير التسليح «تودت» . الذي قُتل في حادثة جويّة بتاريخ ٨ شباط . مهندساً معماريّاً له من العمر ٣٦ سنة . كان قد بنى مسارح «نورمبرغ» وميادينها النازيّة الرائعة . ووضع تصاميم «برلين» المستقبل . ألا وهو «ألبير سبير» . كان الرهان جريئاً . ولكنّ «سبير» كان عبقريّاً فذّاً . ففي مدى أشهر ألفي نفسه مسؤولاً عن الإنتاج الحربيّ بكامله . وانتقل جيش العمل المتعدّد الجنسيّات الموضوع تحت إمرته من ٢٠٦٠٠٠٠ رجل إلى ١٤ مليون رجل . كانت الغارات الحليفة تشوّه المصانع . وتعرقل حركات النقل . وتفسد نظام العمل . وتستنفد قوى العمّال . ومع هذا تضاعف الإنتاج الألمانيّ للأسلحة وتضاعف . فانتقل وزن ما وُضع من الدبّابات في الخدمة من ٣٦٠٠٠



إحدى بطاريّات الهاون التابعة للحرس ، في جبهة «بيلوروسيا» الثالثة .

طنّ عام ١٩٤٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ طنّ عام ١٩٤٢ . وإلى ٥٩٠:٠٠٠ طنّ عام ١٩٤٤ !

أحيا «سبير» كذلك الطيرانَ . وكان قد تدنّى لدرجة أقدم معها «جيشونيك» . رئيس أركان سلاح الطيران الألمانيّ : على الانتحار مقتفياً في ذلك أثر «أوديت» في الاستسلام لليأس . فبين ١٩٤٠ و ١٩٤٢ لم يرتفع عدد الأجهزة المصنوعة في «ألمانيا» إلاّ من ١٠،٢٤٧إلى١٥،٤٠٩. أمّا «سبير» فقد رفعه إلى ٢٤:٨٠٧ عام ١٩٤٣ . وإلى ٤٠:٥٩٣ عام ١٩٤٤ .

ثمّ إنّه لم يهمل وسائل الإبادة الجديدة ، فقد كانت «ألمانيا» تعدّ



في «ستالينو» قام الألمان يعدّون العدّة لهجوم معاكس يائس . ولقد صرّح الجنرال «هالدر» ، رئيس أركان الجيش الألماني العامّة السابق، بأنّ مثل هذه الأعمال لم يكن من شأنها إلاّ سفك الدم الألمانيّ وتعريض «ألمانيا» للغارات الجوية الحليفة .



في الغابات الروسيّة كمن عدوّ كان الألمان يخافونه ويكرهونه أكثر من الجنديّ السوفياتيّ : إنّه النّصير .

قنبلة طائرة دُعيت «أ ١»، وهي جهاز بسيط . خفيف (٢،٢٠٠ كلغ) بطيء (١٦٦ م. في الثانية) سهل البناء (٢٨٦ ساعة عامل) بخس الثمن (٣،٥٠٠ مارك ألمانيّ) أعاره «هتلر» الكثيرَ من اهتمامه . أمّا بصدد مشروع «أ ٤» فقد كان الفوهرر مشكّكاً مرتاباً . فالسلاح المقصود هذه المرّة ثوريّ ذو صاروخ طويل ثقيل (١٤ م و١٢،٦ طنّاً) تفوق سرعته سرعة الصوت (١،٥٢٠ م في الثانية) يجوب الجوّ على ارتفاع ٩٠ كلم ، إنّه لسلاح مخيف لا يمكن اتّقاء فتكه وشرّه ، ولكنّ ما يكلّفه من عمل ومال أخاف «هتلر» من مغبّة تبذير الجهود في سبيل نتيجة ما زالت غير مضمونة . بيد أنّ الشكوك تبدّدت إثر زيارة إلى «مضلّع بينموندي» دبّرها «سبير» ، وعاد منها «هتلر» وهو في حالة من الاختطاف والذهول. فأمر بأن يُمنح «أ ٤» في الحال أسمى الأفضليّات . وتحت تأثير هذا الوحي باح «هتلر» «لموسوليني» في «فيلتري» بسرّه الكبير من أجل كسب الحرب ، ألا وهو «دكّ «لندن» حتى الحضيض » .

هكذا نرى «ألمانيا» تستخرج من امبراطوريّة آخذة في الانكماش والتقلّص ، ومن أراضٍ عاث فيها التلف والدمار فأخذت مواردها تنقص وتشحّ ، قوى وإمكاناتٍ لم تتوافر لها في فترة توسّعها الأرحب . ومع هذا فقد حقّق الروس ما هو أفضل وأروع ! فإنتاج الدبّابات الشهريّ بلغ ٢،٠٠٠ دبّابة ، أي ما يساوي ضعف الإنتاج الألمانيّ . وعرف المدفع ، وهو السلاح الروسيّ المفضّل ، انطلاقة تفوق تلك سرعةً : ٣٠،٠٠٠ مدفع يفوق عيارها ١٠٠ مم عام ١٩٤٣ ، مكّنت من تشكيل فرق وفيالق من المدفعيّة أعادت إلى الحرب «جحيم النار» الذي عُرف في ١٩١٦–١٩١٨ . وبلغت كثافة المدافع في القطاعات الهجوميّة ٣٠٠ مدفع في الكيلومتر الواحد غالباً ، ولم يساند مهاجمةَ «بيلغورود» ما يقلّ عن ٦،٠٠٠ فوهة من فوهات النار .

على الصعيد التكتيكيّ لم يبتدع الروس إلاّ القليل . فموقعة «خاركوف» نسخة عن المواقع السابقة ، ولكنّها تفوقها قوّة وشدّة . ووُجّه المجهود الرئيس إلى التحام جيش الدبّابات الرابع بالجيش الثامن (مفرزة «كيمبف» سابقاً) ، وفُتحت بينهما في ٨ آب ثغرة بلغ اتّساعها ٥٠ كلم . فبدلاً من أن يُقحم الروس أنفسهم فيها ، على طريقة الجيش الألمانيّ ، آثروا خطّة المارشال «فوش» القديمة ، فبسطوا هجومهم ونوّعوه بغية تسمير قوّات الاحتياط المعادية وإتلافها . حملوا في الوسط باتّجاه «سمولنسك» ، وفي الجنوب أعادوا الكرّة على «الميوس» و «الدونيتز» ، أمّا في أقصى الجنوب فوجّهوا ضغطهم على رأس جسر «الكوبان» . كان الثمن دامياً ، لأنّ هجمات التمركز ، وقد أعوزها الدعم والسند ، قد سبّبت الكثير من المجازر ، إلاّ أنّ النتيجة قد تحقّقت . ففي ١٣ آب طغت جبهة السهوب ، التي يقودها الجنرال «هاجن» على «خاركوف» . وعبثاً تقطّعت أنفاس «مانشتاين» ، الذي كانت مجموعة جيوشه تتحمّل وطأة الصراع الرئيس ، في المطالبة بالعون والمدد ، فلقد اضطرّ في ٢٢ إلى إصدار أمره بالجلاء عن

المدينة العظيمة . وانهار حزام التحصينات المبني حولها دونما قتال .

عاد «هتلر» في ٢٧ آب لقضاء يوم واحد في مقرّ قيادته القديم في «فينيتزا»، وليتدارس الوضع مع «مانشتاين»؛ فطلب المارشال التخلّي عن «الدونيتز» باعتباره موقعاً لا يمكن الدفاع عنه . فأجاب «هتلر» بوجوب الصمود في كلّ مكان «إلى أن يقتنع العدوّ بعدم جدوى هجماته» . إلاّ أنّه ، نزولاً عند إلحاح «زيتزلر» ، ومع نفوره من كلّ تدبير قد يخفي نيّةً ما في الانكفاء ، أمر بإقامة موقع دفاعيّ أطلقت عليه تسمية «بنتير»، ينطلق من «البلطيق» إلى «نارفا» . ثمّ يمتدّ إلى «الدنيبير» ماراً «بفيتبسك» و «غوميل»، فيسير ومجرى النهر الكبير حتى «زوبوروجي»، ويمضي ماراً «بميليتوبول» حتى ينتهي إلى بحر «آزوف»، هذا على أن يجري التراجع ، إذا غدا واجباً ، بهدوء ونظام ، بحيث يمكّن من إنقاذ العتاد وإضعاف العدوّ بمعارك خلفيّة . وإلى أن يحين ذلك يجب على «مانشتاين» أن يقاتل بقوّة على خطوطه الحاضرة . ووعده «هتلر» بنجدات يسحبها من مجموعات جيوش الشمال والوسط . فبادر المارشال «فون كلوغي» بالحضور إلى «رستنبورغ» في اليوم التالي ، وأعلن أنّه لا يستطيع التخلّي عن فرقة واحدة من فرقه ؛ فالروس يشنّون هجوماً عنيفاً أمام «سمولنسك» وأمام «جيلنا»، ولا يزال لديهم في الاحتياط ، استناداً إلى جداول قيادة جيش البرّ الألمانيّة العليا ، ١٣٤ من فرق المشاة و ١٨٧ من ألوية الدبّابات. وقال «كلوغي»: «كيف أستطيع ، والحالة هذه ، أن أتعرّى لأكسو «مانشتاين»، طالما أنّ قوّات ضخمة كهذه تستطيع الانقضاض عليّ بين لحظة وأخرى؟»

واستمرّ القتال في هذه الأوضاع ، فالحلول كلّها مستعصية ، والمصالح كلّها متضاربة . هذا وقد اشتدّ عمل الأنصار مع حلول الصيف . فشهد يوما ٢ و ٣ آب ، الموافقان لانطلاق الهجوم السوفياتيّ ، ٨،٤٢٢ قطعاً للخطوط الحديديّة ، و ١،٤٧٨ كميناً ؛ فتلكّأت بذلك تحرّكاتُ الجيوش، وساد القلق والاضطراب في المؤخّرات ، فغدا تطهير الغابات من الأنصار يستوجب عشرات الفرق ، والفرق ناقصة حتى في أشدّ قطاعات الجبهة احتداماً . أراد «هتلر» الاحتفاظ بكلّ شيء . فجمّد قوّات له على ضفاف المحيط الشماليّ . وعلى أبواب «لينينغراد». وفي النقاط الأماميّة من «القفقاس» . وفي جزر بحر «إيجه» ، إلاّ أنّ كلّ شيء أفلت منه في التفصيل . فسقطت «ستالينو» في ٨ أيلول . وطُوّق ، على شاطئ بحر «آزوف» . فيلقان تابعان للجيش السادس (الذي بُعث بعد «ستالينغراد») وكاد يُقضى عليهما . وفي «الكوبان» نزلت قوّات «القفقاس» الشماليّ في «نوفوروسيسك» في ظهر الجيش السابع عشر . وفي نقطة أبعد إلى الشمال تخلّى الجيش التاسع عن «بريانسك» . وفقد الجيش الرابع «جيلنا» بالرغم من تشبّثه بها . وفقد الجيش الثالث «فيليش» . فكتب «هتلر» إلى «فون كلوغي» يقول إنّ المعركة لم تبقَ قضيّة مهارة تكتيكيّة . بل قضيّة جلد فحسب : فعلى الجيوش أن تستلهم سابقة شتاء ٤١–٤٢ . فتغرز أقدامها في الأرض وتموت حيث هي . فتجاسرت أركان مجموعة الوسط . التي كانت تسودها روحُ تمرّد شديدة . وأجابت الفوهرر بأنّ الظروف ليست ذاتها . وأنّ المقارنة خالية من كلّ قيمة .

إسم واحد استحوذ على الجنرالات الألمان المرهقين . هو «الدنيبير» ؛ فخلف حفرته الرحبة كانوا يأملون استعادة أنفاسهم . وإعادة تنظيم فرقهم . ثمّ إرساء خطّ للدفاع يعودون خلفه إلى إنشاء قوّاتهم الاحتياطيّة وتحريكها.

الأسرى الألمان في شوارع «موسكو» ، وهم يبتسمون ويلوّحون بأيديهم للجماهير . هؤلاء انتهت حربهم !

تكبّد «هتلر» مشقّة الانتقال مرّة أخرى في ٨ أيلول . فوصل إلى مقرّ قيادة «مانشتاين» في «زابوروجي» حيث استمع إلى مرافعة المارشال بشأن التراجع إلى ما وراء النهر ؛ فأجاب أنّ اعتبارات اقتصاديّة وأسباباً وجاهيّة تتضافر لتحرّم عليه ذاك التراجع .

ما حلّ يوم ١٤ أيلول حتى أطلق «مانشتاين» صيحة استغاثة جديدة ؛ فاستدعاه «هتلر» إلى «رستنبورغ» وحاول إقناعه بأنّ الوضع العسكريّ سينقلب عمّا قليل رأساً على عقب ، وذلك بدخول مدفع هجوميّ جديد إلى نطاق الخدمة . فأجاب «مانشتاين» معتمداً على خرائطه وعلى محاضر معاونيه . وأخيراً تنازل «هتلر» ورضي بأن تعبر مجموعة الوسط إلى ما وراء «الدنيبير» على أن تمدّدها مجموعة جيوش الوسط على «السوه» رافد النهر الكبير ، ثمّ تتّصل ، عن طريق «فيتبسك» ، بمجموعة جيوش الشمال التي تحتفظ بمواقعها . لم يشأ «هتلر» أن يضحّي «بكاريليا» ومواقع «لينينغراد» الأماميّة ، خشية ما قد ينشأ عن ذلك من ذيول سياسيّة في «فنلندا» ، ورفض كذلك التضحية «بالقرم» الذي قد يزعزع فقدانه «رومانيا» ، وفصل عن مجموعة «مانشتاين» الجيشَ السادس الذي كان عليه ، بعد إلحاقه بمجموعة «كلايست» ، أن يقف ستراً عبر السهب النوغاشيّ ، وهو مسطّح أفقيّ يبلغ ١٥٠ كلم عرضاً ، فيمنع الدخول إلى برزخ «بيريكوف» .

الواقع أنّ التراجع الكبير قد بدأ ، وراحت قوافل نقل ثقيلة تعقد فوق «أوكرانيا» سحباً كثيفة من الغبار . وحملت الخطوط الحديديّة الأربعة الوحيدة مواكبَ من القُطُر قد استحالت متاريس متحرّكة اتّقاء لشرّ الأنصار . وخشي المسؤولون ، حتى اللحظة الأخيرة ، فقدان جيش الدبّابات الرابع الذي كانت تطارده جبهة «فورونيج» ، فلم يتمكّن من الانسياب بين جسور «كييف» و «تشركاسّي» إلاّ وقد بلغ الرمق الأخير .

في ٢٥ أيلول أدركت الطلائع الروسيّة نهر «دنيبير» بين «زابوروجي» و «دنيبيروبتروفسك» . يا لها من ساعة مؤثّرة ! كانت غمرة من التأثّر كادت تبلغ حدود الدوار ، قد استبدّت بالجنود الألمان لسنتين خلتا . عندما وقعت أنظارهم على رحابة النهر المترامية الأطراف ، وعلى السهل





في مؤتمر «القاهرة» ، ويبدو في الصفّ الأوّل قعوداً : «تشانغ كاي تشك» ، و «روزفلت» ، و «تشرتشل» .

اللامتناهي الغارق في خضمّ من الضباب اللاهب ، وراء مجراه المزدحم بالجزر . وها هم الجنود الروس يعودون إلى العملاق الذي كانوا قد عبروه تحت وطأة شعور مرهق بالهزيمة والتخلّف . بيد أنّه لم يوقف اندفاعهم . فقد أرسى لواء من المظليّين رأس جسر له بالقرب من «كريمنتشوغ» ، وثبّتت وحدة من وحدات المشاة أقدامها في حلقة «بريجيسلاف» جنوبيّ «كييف» . وسهّل الأنصار شماليّ المدينة تسلّل الجيوش السوفياتيّة إلى منطقة المستنقعات القريبة من مصبّ «البريبيت» . وهكذا لم يظلّ حاجز «الدنيبير» سليماً . وعلى العكس من ذلك ، وبأمر جازم من «هتلر» ، أبقي على رؤوس جسور ألمانيّة على الضفّة الشماليّة ، أمام «زابوروجي» و «دنيبروبتروفسك» ، و «كريمنتشوغ» و «كييف» ؛ فاعترضت القيادة المحليّة على ذلك بحجّة أنّ تلك الرؤوس تتطلّب جيوشاً كثيرة وتوهن الدفاع عن خطّ الماء .

في الوسط استعادت جبهة «كالينين» مدينة «سمولنسك» في ٢٤ أيلول ، فكان إنقاذها ، وفيه ما فيه من مغزى ورمز ، أوّل حدث هلّلت له «موسكو» بإطلاق مدفع الغلبة . بدا سقوط «سمولنسك» عام ١٩٤١ وكأنّه يقرع جرس الحزن معلناً قرب سقوط العاصمة ؛ أمّا تحريرها اليوم فيعني أنّ «موسكو» قد غدت بمأمن من كلّ خطر !

طريق «طهران»

في شهر تشرين الأوّل اجتمع وزراء خارجيّة الحلف في هذه العاصمة التي زال الخطر عنها ، والتي بقيت ، مع ذلك ، خاضعة لتقنين قاس . وكان هدف اجتماعهم هو تحضير لقاء لرؤساء الحكومات . وكان شاغل «روزفلت» عندئذ أن يجري مع «ستالين» اتّصالاً مباشراً. لم يكن سير الحرب في نظره هو القضيّة الأهمّ ، بل وجه المستقبل خصوصاً . ومع أنّ النصر كان ما يزال بعيد المنال في تلك الآونة ، فقد كان طابع العجلة يوجّه خطاه . وقد كتب إلى «ستالين» يقول : «يجدر بالأمم المتّحدة ألاّ تنتظر نهاية القتال لإرساء أسس عالم الغد ، وإلا فروابط الصداقة القائمة فيما بيننا ستؤول في هذه الأثناء إلى ارتخاء ، أو أنّها قد تنحلّ . ولسوف يعود كلّ منّا إلى الانهماك بمصالحه الخاصّة ، ولن تقدر جهودنا المتفرّقة آنذاك على بناء السلام الذي يموت من أجله رجال كثيرون ...»

لم يتردّد «روزفلت» البتّة إزاء الوسيلة : فلسوف تتّخذ القرارات الرئيسة بينه وبين «ستالين» دون سواهما . وأمّا «تشرتشل» فعنصر في غير موضعه ، ذلك أنّ طابعه المحافظ ، وتعلّقه بالملكيّة ، وكراهيته للشيوعيّة ، وسياسته الاستعماريّة ، وملبسه ، وأسلوبه ، أمور كانت تبدو باطلة في رأي «روزفلت» . «فانكلترا» ، التي أصرّ رئيس «الولايات المتّحدة» على عدم منحها شرف زيارته ، لم تكن غير جزيرة صغيرة في طرف القارّة المقضيّ عليها ، والامبراطوريّة التي تعتزّ بها لم تكن غير بناء للطغيان يجب أن يزول في غد انتصار «أميركا» . وأمّا «ستالين» و «الاتّحاد السوفياتيّ» فهما ، على نقيض ذلك ، في تطوّر مع مجرى الأحداث التاريخيّة . واستبعد «روزفلت» بسخط تعليلَ القائلين — ومنهم «دين» ملحقه العسكريّ في «موسكو» — بأنّ تحالف «أميركا» مع البولشفيّة «تحالف غريب» مصيره إلى زوال بعد سحق العدوّ المشترك .

لقد كان مشروع «روزفلت» إذاً اجتماع فرد إلى فرد ؛ فاقترح أن يجري في جزيرة من مضيق «بيرنغ» في وسط الطريق بين الامبراطوريّة الأميركيّة والامبراطوريّة السوفياتيّة ؛ وكتب إلى «ستالين» يقول : «لن أصطحب معي غير «هاري هوبكنز» ، ومترجم واحد ، ومختزل ، وأرجو أن يكون عدد مرافقيك مماثلاً» . واستبعد فكرة اللقاء في «إيسلندا» أو في «أفريقيا» ، معلّلاً ذلك بقوله : «لأنّه سيبدو لي صعباً عندئذ عدم توجيه دعوة إلى «تشرتشل» ...»

كان تاريخ رسالته ٥ أيّار ١٩٤٣ . وأهمل «ستالين» سانحة دقّ إزميل في التحالف الانكليزيّ — الأميركيّ ، وربّما عاد ذلك إلى خوفه من ركوب الطائرة ، إذ لم تكن هنالك غير وسيلة النقل هذه للانتقال من «موسكو» إلى مضيق «بيرنغ» . وبعدما اطّلع «تشرتشل» على نيّات «روزفلت» بواسطة «هاريمان» اعترض في ٢٥ حزيران . وعلى الرغم من أنّ الاعتراض كان ضعيف اللهجة ، إذ ورد فيه : «سأبذل جهدي في تعليل موقفكم ههنا ، كائنة ما كانت قراراتكم ...» ، فلسوف تكون المقابلة مقابلة ثلاثيّة ، يسبقها اجتماع لوزراء الخارجيّة لتمهيد الطريق. وإذ كان «كورديل هال» هرماً ومريضاً ، حاول الأميركيّون استدراج «مولوتوف» إلى «واشنطن» ، أو على الأقلّ إلى «لندن» ؛ ولكنّ الروس أبدوا عناداً لا يلين : فلسوف يلتقي وزراء الخارجيّة في «موسكو» ، وليس في مكان آخر !

كان هذا العناد مجرّد مناوشة . وأمّا المعركة فكانت تدور في الموضع الذي سيعقد فيه الكبار مؤتمرهم .

أجاب «ستالين» بأنّ قيادة العمليّات كانت تحظّر عليه مغادرة «روسيا» ولو لأسبوع واحد ؛ وأجاب «روزفلت» بدوره بأنّه ، هو الآخر ، الرئيس الأعلى لأمّة كبيرة ، وأنّ دستور «الولايات المتّحدة» يحتّم عليه أن يوقّع رسمياً ، في غضون عشرة أيّام ، القوانينَ التي يوافق عليها الكونغرس كيما تصبح نافذة . لقد قبل بالقيام بأكبر جزء من الرحلة ، فهو لذلك يرجو «ستالين» ألاّ يفرض عليه الرحلة بكاملها .

في ٢٥ تشرين الأوّل استقبل «كورديل هال» في «الكرملين» ؛

بدأ الحديث مع «ستالين» بمقارنة بين طريقة زرع القمح في «الاتّحاد السوفياتيّ» و «التنيسي» . ثمّ راح «هال» يعرض الأسباب ذات المرمى التاريخيّ البعيد ، التي ارتأى رئيس «الولايات المتّحدة» بموجبها أن يلتقي الرئيس الأعلى «للاتّحاد السوفياتيّ» . وأجاب هذا الأخير بأنّه سيذهب إلى «طهران» لإرضاء الرئيس «روزفلت» . فهنالك اتّصال هاتفيّ بين هذه العاصمة و «موسكو» ، وهنالك أيضاً — وهذا ما لم يفصح عنه المارشال قطّ — خطّ للسكّة الحديديّة يقود إلى «طهران» !

كان «روزفلت» قد رفض «طهران» مسبقاً ، فالجبال تجعل الاقتراب الجوّيّ خطراً . والاتّصالات غير ثابتة . وبعدما رفض «ستالين» الاجتماع في «فيربانكس» و «سكابا فلو» و «أسمرة» و «أنقرة» و «بيروت» و «قبرص» و «القاهرة» ، أو في عرض البحر ، راح «هال» يناضل لكي يقنعه بفكرة الاجتماع في «بغداد» . ولكنّ جهوده باءت بالإخفاق . كان «روزفلت» قد كتب إلى «ستالين» يقول : «إنّ الأجيال الآتية ستنظر إلى هذه القضيّة وكأنّها كارثة إذ لا يعقل أن تقف بضع مئات من الأميال حاجزاً في وجه مقابلة سوف تقرّر مصيرها ...» ولكنّ هذا التحريض لم يؤثّر في «ستالين» إطلاقاً . قال «ستالين» لكورديل هال» : «إذا تعذّر على الرئيس «روزفلت» القدوم إلى «طهران» . ينبغي تأجيل مقابلتنا إلى العام المقبل . وسأذهب عندئذ إلى حيث يشاء — وحتى إلى «فيربانكس» .

وغادر «هال» «موسكو» مقتنعاً بأنّ المقابلة لن تكون . ولكنّ تقديره قد بطل وهو في طريق عودته . وعندما وصل إلى «واشنطن» كان «روزفلت» في انتظاره على أرض المطار . وقد عيل صبره . وقد أخبر «هال» فيما بعد: «لقد كان يترقّب فرصة لقائه مع «ستالين» بحماسة طفل صغير ..»

كانت «الصين» تشوّش العلاقات بين المتحالفين . «فروسيا» ، التي تزرع بذور السلم مع «اليابان» ، كانت تجهد في تجاهل «تشانغ كاي تشك» . وكان «تشرتشل» — وهو متّفق في هذه النقطة مع «ستالين» — يرى أنّ قيمة التحالف العسكريّ الصينيّ فائقة الضعف . وبالعكس كان «روزفلت» يرى في «الصين» ، مع «الهند» على السواء ، قوّة المستقبل الكبرى ، والعضو الثالث في الثالوث الذي سوف يمسك بزمام العالم ، مع «الولايات المتّحدة» و «الاتّحاد السوفياتيّ» . وبعدما أيقن «روزفلت» أنّه لا يمكن إبعاد «انكلترا» عن المقابلة الروسيّة الأميركيّة ، أبدى رغبة في أن تشترك «الصين» فيها ، ولكنّ «موسكو» رفضتها . وتمّ القرار على إجراء مؤتمر ثنائيّ . أو حتى ثلاثيّ : فلسوف يقابل «روزفلت» و «تشرتشل» «تشانغ» وزوجته ، في طريق الذهاب إلى «طهران» ، وبعد ذلك ، في طريق العودة ، سوف تجري مناقشة حول إمكان تطبيق الخطط المتّخذة مع سيّد «روسيا» بشأن الشرق الأقصى .

في ١١ تشرين الثاني ركب «روزفلت» البحر على متن البارجة «إيووا» ، وخلال الرحلة ، كاد طوربيد انطلق عفواً من مدمّرة المواكبة «وليم د. بورتر» أن يصيب السفينة الرئاسيّة . إلاّ أنّ هذا السفر البحريّ انتهى في «وهران» في ٢٠ تشرين الثاني من غير أيّ حادث آخر . وحلّت طائرة «البيت الأبيض» ، المسمّاة «البقرة المقدّسة» ، وهي من ذوات الأربعة محرّكات ، محلّ «الإيووا» ، مواصلة الرحلة إلى مدينة «تونس» ، ثمّ إلى «القاهرة» حيث هبط «روزفلت» في ٢٢ ، في الساعة ٩،٣٥ ؛ فوجد «تشرتشل» مع السيّد والسيّدة «تشانغ» في انتظاره . ولسوف يستغرق المؤتمر أربعة أيّام تتخلّلها الاحتفالات.

من الصعب أن نجد لهذا المؤتمر مغزى . فلقد أجرى «روزفلت» مع آل «تشانغ» محادثات سرّيّة جدّاً ، نوّه خلالها بمساعدة جبّارة «للصين» وبتحرير عامّ «لآسيا» . وأمّا «تشرتشل» ، الذي كان يظنّ أنّ القضايا الصينيّة إنّما كانت قضايا «معقّدة وثانويّة» . والذي لاحظ أنّ حقّ الإمبراطوريّة البريطانيّة كان مغبوناً ، فقد أظهر تبرّماً كان «روزفلت» يعالجه بوسائل شخصيّة ناجعة . واستمرّ الخصام بين الأركان العامّة . فكاد «بروك» و «كينغ» يشتبكان بالأيدي حين قدّم الأميركيّ مخطّطاً من شأنه أن يفرغ المتوسّط لتحضير عمليّة برمائيّة في «برمانيا» لصالح «الصين» . ولكن تمّ الاتّفاق في النهاية على أن لا يتّخذ أيّ قرار قبل العودة من «موسكو» .

وحتى آخر لحظة بقيت إمكانيّة الذهاب إلى «طهران» بالقطار محتملة ، لتلافي المهالك الجويّة التي كان أتباع «روزفلت» يبالغون في تضخيمها بصورة مضحكة . إلاّ أنّهم رضخوا أخيراً وراحوا يستعدّون لمجابهة هذه المهالك . وفي ٢٧ تشرين الثاني ، في الساعة ٧،٠٧ صباحاً ، أقلعت «البقرة المقدّسة» من مطار «القاهرة» ، تحمل على متنها «روزفلت» إلى مقابلته الأولى مع الرجل الذي كان يرى فيه المهندس المعمار الآخر لعالم المستقبل .

تقلّبات في "أوكرانيا"

بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني هذا، وفيما كان المنتصرون المرتقبون في طريقهم إلى لقائهم الأوّل ، عرف الوضع العسكريّ في «روسيا» تقلّبات كبيرة عنيفة . كانت معركة «الدنيبير» تعصف بشدّة ؛ فمن «سمولنسك» إلى «خرسون» ، أي من جوار منبع «الدنيبير» حتى مصبّه ، كان هذا النهر الكبير هدفاً أساسيّاً لمعارك ضارية .

ثمّ إنّ موسم الوحول كان قصيراً بصورة غير مرتقبة، وذلك من جرّاء الجفاف ، وبهذا وجد الألمان أنّ الاستراحة التي كانوا يرتجون الحصول عليها قد قصرت هي الأخرى. ومنذ ٧ تشرين الأوّل أعلن محضر للعمليّات صادر عن المارشال «ستالين» أنّ الهجوم التحريريّ قد أطلق من «فيتبسك» إلى «الكوبان» . وأعيد توزيع الجيوش الروسيّة ، وتغيّرت تسميات «الجبهات» : جبهة «فولخوف» ؛ جبهتا «البلطيق» الأولى والثانية ؛ جبهات «روسيا البيضاء» الأولى والثانية والثالثة ؛ جبهات «أوكرانيا» الأولى والثانية والثالثة والرابعة ؛ هكذا كانت مجموعات الجيوش التي سوف تخوض القتال منذ ذلك الحين . وبصرف النظر عن وجود احتياطات ستراتيجيّة غزيرة ، كانت هذه المجموعات تشمل ٦٩ جيشاً ، مؤلّفة من ٣٣٠ فرقة ، مقابل ١٩٧ فرقة ألمانيّة يضاف إليها بعض الحصص الحليفة .

كانت القيادة السوفياتيّة كثيرة التفاؤل ، فلقد فاقت انتصارات المعركة الصيفيّة آمالها . ولسوف يقول «ستالين» نفسه «لروزفلت» إنّ الجيش الهتلريّ «أضعف بكثير» ممّا كان يظنّه . فبفضل الثلاثة ملايين ألمانيّ اللذين كانوا مجمّدين في الغرب في وجه التهديد الانكليزيّ الأميركيّ ، كان «لروسيا» هامش من التفوّق لا يمكن أن يزيله أيّ انقلاب في مجرى الحرب .

ولقد أحرز الروس انتصارهم الأوّل في الجنوب ؛ ففي ١٤ تشرين الأوّل أرغم جيش المصفّحات الأوّل على إخلاء رأس جسره في «زابوروجي» ؛ وفي اليوم التالي شنّت جبهتا «أوكرانيا» الثانية والثالثة الهجوم بـ ٦١ فرقة مشاة و ٣٧ لواء مصفّحاً ، فاجتاحت هذه القوّات عقدة «الدنيبير» ، وبلغت «كريفوي روغ» ، مهدّدة الجيش المصفّح الأوّل بالتطويق . ولكنّ «مانشتاين» أنقذها بالجيشين المصفّحين ١٤ و ٢٤ المستقدمين من «فرنسا» . عندئذ نقل الروس مجهودهم الرئيس على طول بحر «آزوف» ، فسقطت «ميليتوبول» في ٢٢ تشرين الأوّل ، وتمّ بلوغ برزخ «بيريكوف» في أوّل تشرين الثاني ، فتحصّن الجيش ١٧ في

«القرم». فيما عاد الجيش السادس إلى اجتياز «الدنيبير» بدوره ، غير محتفظ إلاّ برأس جسر صغير شرقيّ «خرسون» .

في أوائل تشرين الثاني انتقلت تقلّبات المعركة إلى الشمال . وكان هدف العمليّات هناك يحمل اسماً رنّاناً : «كييف». ففي ١٩٤٢ ضحّى الروس في سبيل الدفاع عنها بمجموعة جيوش كاملة ، وبأكثر من نصف مليون أسير . وإذا بهم الآن يخوضون معركة ضارية لاستعادتها .

إنّ «كييف» المواجهة لنهرها ، والّتي تسيّجها التلال ، لا تخلو من بعض الشبه «بستالينغراد». كان يهدّدها رأسا جسر : أحدهما في الشمال ، قبالة ملتقى شعبتيّ «الدزنا» ، والثاني في الجنوب ، حول عقدة «بيريجاسلاف» . وبسبب الأرض الّتي كانت أكثر صلابة قرّر «فاتوتين» ، قائد جبهة «أوكرانيا» الأولى ، أن يشنّ الهجوم من الجنوب . غير أنّ جهود جيش الحرس المصفّح الثالث كافّة قد أحبطها الجيش المصفّح الألمانيّ الرابع .

وقام «فاتوتين» بعكس إعداداته بصورة باهرة . فعادت كتلة صدامه إلى مجاوزة «الدنيبير» ، منتقلة من الجناح الجنوبيّ إلى الجناح الشماليّ ، وعادت مرّة ثانية إلى اجتياز النهر لمواصلة الهجوم من الناحية المقابلة . وفي ٣ تشرين الثاني أطبقت ٣٠ فرقة للمشاة و ٣٤ لواء آليّاً على الفيلق الألمانيّ ١٩ بمفرده. وأمّا الثغرة الهائلة الّتي حدثت فقد كانت تقطع طريق «جيتومير» الكبيرة. وواصل جيش الحرس المصفّح الثالث هجوم الجنوب ، فقطع في اليوم التالي عقدة مواصلات السكّة الحديديّة في «فاستوف» . وكان أمر الجلاء قد أُصدر في الوقت المناسب كي يتسنّى لأكثر القوّات الألمانيّة أن تفلت من الفخّ . وأبدى بعض العناصر المطوّقة مقاومة طفيفة . وفي ٦ تشرين الثاني كانت «كييف» قد انتُزعت من يد الغزاة .

لقد دوّن «غوبلز» في مذكّراته ما يلي : «إنّ استعادة «كييف» قد أحدثت بالطبع شعوراً عميقاً لدى البلاشفة ولدى المعسكر العدوّ بكامله . بيد أنّ رجالنا وضبّاطنا يتساءلون بسخط لماذا لم يجرِ بناء «حائط شرقيّ» على طول «الدنيبير»...» كان وزير الدعاية يجهل مبادىء الفوهرر العسكريّة والنفسانيّة ؛ فقد قال «هتلر» : «إذا شعر الجنرالات بوجود مواقع للتراجع وراءهم ، فلن تتبادر إلى أذهانهم غير فكرة واحدة : التخلّي عن كلّ شيء للجوء إليها» . هذا وقد حكم مناور «سيدان» على المناورة بالذات ، بقوله : «إذا قال أحد الجنرالات إنّه سيقوم بمناورة فهذا يعني شيئاً أكيداً : التراجع...»

في ٧ وصل «مانشتاين» مرّة أخرى إلى «رستنبورغ» . كان وضعه مفجعاً ؛ فالجيش المصفّح الرابع ، وهو الجناح الأيسر لمجموعته ، قد انفصم إلى قطع ثلاث ؛ وقد أُلقي الفيلق ٥٩ شمالاً ؛ وكان الفيلق ٧ يحاول أن يصدّ العدوّ في جنوب «فاستوف» ؛ وأمّا الفيلق ١٣ ففي غمرة التراجع نحو الغرب . وكانت الأرتال السوفياتيّة تتقدّم بسرعة نحو «جيتومير» الّتي تنصبّ فيها طرقات أربع وخطوط أربعة للسكّة الحديديّة . فحلّ «راوس» محلّ «هوث» في قيادة الجيش ، إلاّ أنّ تبديل القادة أسهل من تبديل تقلّبات القتال . وكان في نيّة «مانشتاين» أن يطلب إخلاء عقدة «الدنيبير» وضمّ شمل الجيوش . ولكنّه أُصيب بدهشة كبيرة حين وجد أنّ «هتلر» لم يكن يعتريه غير قلق عاديّ . إعترف الفوهرر بأنّ الثغرة الروسيّة نحو «جيتومير» كانت تشكّل تهديداً أكيداً ، ولكنّه أعلن عن استعداده لتحمّل مسؤوليّته . قال باقتناع وطيد إنّ الأهداف الرئيسة إنّما كانت في الجنوب الأقصى من «روسيا»: «القرم» ، وهي حاملة الطائرات البريّة الّتي يمكن للروس منها إحراق البترول الرومانيّ ، و «نيكوبول» الّتي لا يمكن لصناعة «الرايخ» الحربيّة الاستغناء عن مناجم المانغانيز فيها . وفي الوقت اللذي استبعد فيه «هتلر» فكرة التخلّي عن «الدنيبير» الأسفل ، راح يحضّر هجوماً يشنّه الجيش السادس لإعادة فتح برزخ «بيريكوب» .

دام النقاش طويلاً . «فمانشتاين» ، يدعمه «غوديريان» مفتّش القوّات المصفّحة ، كان يودّ أن تُجمع القوّات السيّارة بكاملها لشنّ هجوم معاكس عامّ ناحية الجناح الشماليّ من مجموعة جيوشه . ولكنّ «هتلر» رفض أن يسمح له بالتصرّف بالفيلقين المدرّعين ٤٠ و٥٧ . مانحاً إيّاه فرقاً مصفّحة ثلاثاً ، لا غير : الأولى ، والـ ٢٥ . والـ «ليبستاندارتي» القادمة من الغرب . فهذه الفرق ، مضافة إلى ثلاث فرق مصفّحة أُخرى ، قد جُمعت في الفيلق المصفّح ٤٨ ، بقيادة الجنرال «بالك» ، وحُشدت جنوبيّ خطّ «كييف– جيتومير» الحديديّ . وأمّا الروس ، الذين استولوا على هذه المدينة الأخيرة في ١٢ تشرين الثاني ، فلم يبصروا تلك الغمامة الّتي راحت تتكوّن إلى جنبهم .

هاجم الألمان في ١٥ . كان الطقس معتدل البرودة ، ولم يكن الثلج كثيفاً لدرجة تشكّل عائقاً جديّاً . كان «بلاك» يودّ لو أنّه يسير مباشرة على «كييف» لمعالجة الجرح الذي انفتح في الجبهة الألمانيّة وهو في طوره البدائيّ . ولكنّ «راوس» أرغمه على أن يبدأ «بجيتومير» . وفي ٢٠ تشرين الثاني عاد الجيش المصفّح ٧ إلى الاستيلاء على المدينة العتيقة . وباستدارة نحو الشرق قطّع «بلاك» الجيش السوفياتيّ ٦٠ إرباً ، وأعاد بسط اتّصال الجبهة الألمانيّة ، ومن ثمّ حاول الزحف إلى «كييف» ، ولكنّ ذوباناً للثلوج مفاجئاً غمر الدبّابات حتّى أبراجها ، كما أنّ تدعيماً لقوّات العدوّ

سمولنسك تحترق . لقد عفّت عليها الحرب فباتت قاعاً صفصفاً !



أعاد الهجوم إلى نقطة موات . «فكييف» ، وهي حصّة الغزو الرئيسة ، بقيت في أيدي الروس ، ولكنّ الوضع الألمانيّ قد تحسّن بالإجمال . وستشهد نهاية ١٩٤٣ تشبّث الجيش الألمانيّ بقطاعات طويلة على «الدنيبير» و «نيكوبول» و «كريفوي روغ» ، والمانغانيز والحديد في قبضته . وعلى نقيض ذلك سوف يكون فكّ الحصار عن «القرم» محالاً ؛ فالجيش١٧ ، الذي كان يموَّن من البحر والجوّ بصعوبة فائقة،سوف يذوق على الشاطىء السوفياتيّ اللازورديّ شتاء مرّاً .

"طهران": "ستالين" و"روزفلت" ضد "تشرتشل"

وافق انعقادَ مؤتمر «طهران» ترجّحٌ عسكريّ لغير صالح الحلفاء : في كلتا الجبهتين المتوسطيّة والروسيّة . فمن جهة بقي انتصار «ساليرنو» واحتلال «نابولي» بلا أعقاب مباشرة ، ومن جهة أخرى أعيد توحيد القيادة الألمانيّة تحت إمرة «كيسلرنغ» ، وصرف النظر عن الجلاء عن «روما». أمّا في الحوض الشرقيّ فقد أثار الاستسلام الإيطاليّ رغبة «تشرتشل» في الاستيلاء على «رودس» و «الدوديكانيز» ، يحدوه الأمل في استدراج «تركيا» إلى الحرب ، بيد أنّ «روزفلت» رفض بجفاء أن يقدّم له ما طلبه من مدد زهيد ، وهو على اقتناع من أنّه أمام حيلة جديدة ترمي إلى إرجاء النزول في «فرنسا» ، فتسنّى بذلك للألمان أن يمسكوا بزمام الجُزُر ، ولمّا أراد «تشرتشل» تنفيذ مخطّطه بالاعتماد على القوّات البريطانيّة وحدها ، مُني بهزيمة قليلة الخطورة ، ولكن تامّة ، فاضطُرّ اللواء الانكليزيّ الذي أنزل في «ليروس» إلى الاستسلام ، بعدما كلّفت المحاولة التي بُذلت لإجلائه البحريّةَ الملكيّة ستّاً من مدمّراتها الثمينة .

ولكنّ تلك لم تكن غير سحب خفيفة عبرت في سماء «طهران» بأيّامها الخمسة الممتدّة من الأحد ٢٨ تشرين الثاني إلى الخميس ٢ كانون الأوّل، والتي أثارتها شمس النصر الشارقة . إلاّ أنّ تلك الأيّام قد تضمّنت نواة الخلافات التي ستجعل من ذاك النصر عينه منطلقاً لنزاع جديد .

لم يكن الثلاثة الكبار متساوين إلاّ بالنظر للبروتوكول ؛ فقد عومل «تشرتشل» ، ولم يكن مرغوباً فيه ، ككمّيّة ثانويّة . بادر «ستالين» قبل كلّ شيء فدعا «روزفلت» إلى النزول في السفارة السوفياتيّة ، بحجّة أنّ «طهران» تغصّ بالعملاء الأعداء ، وأنّ الخطر يحفّ بكلّ تنقّل فيها . فهم «تشرتشل» ، الذي لم تشمله الدعوة ، وربّما على اعتبار أنّ حياته قد بدت أبخس ثمناً ، مغزى هذا النزول في بيت واحد ، وأدرك ما يوفّره من تسهيلات لعزله ، بيد أنّ اعتبارات الأمن التي جرى التذرّع بها منعته من أن يثير أيّ اعتراض . وعندما طلب من «روزفلت» أن يتناول معه وجبة الإفطار على حدة ، رفض الرئيس طلبه بحجّة أنّه لا يريد أن يخيّل «لستالين» أنّ الانكليز والأميركيّين يتواطأون من أجل عمل مشترك ؛ هذا مع العلم بأنّ حديثاً يوميّاً كان يدور بينه وبين «ستالين» لا يحضره من الناس غير الترجمان . واتّسمت العلاقات الشخصيّة نفسها بطابع الحدّة والتّلذع . فقد جعل «ستالين» من «تشرتشل» هدفاً لسخريته، يشجّعه على التمادي في ذلك ما يبديه «روزفلت» من سرور وسلوى . إلى أن احتدم الجوّ إثر مشادّة هي غاية في العنف كان أحد المسؤولين عنها نجل الرئيس ، الكولونيل «إليوت روزفلت» ؛ فقد أعلن «ستالين» في إحدى وجبات العشاء عن وجوب تصفية الـ ٥٠،٠٠٠ أو الـ ١٠٠،٠٠٠ رأس التي تقوم عليها قوّة «ألمانيا» الاقتصاديّة والفنيّة تصفية سريعة ، فأجاب «تشرتشل» بأنّ المفاهيم البريطانيّة تستنكر كلّ إجراء متسرّع ، وأنّه يؤثر أن يُرمى بالرصاص في الحديقة لتوّه على أن يقبل بذلك . فما كان من «روزفلت» الابن إلاّ أن تدخّل ليدعم الرئيس السوفياتيّ بعنف وجلبة ، فيما لم يضمّ «روزفلت» الأب ، وهو رئيس أعظم الديمقراطيّات في العالم ، احتجاجه إلى احتجاج الانكليزيّ ؛ فاستشاط «تشرتشل» غيظاً وغادر المائدة وانصرف ، فما كان من «ستالين» إلاّ أن عدا خلفه وأعاده قائلاً إنّ الموضوع دعابة ومزاح .

تناولت خلوات «روزفلت» و «ستالين» بالبحث قضيّة «فرنسا» . «فستالين» ، الذي سبق تحسّنَ اوضاعه العسكريّة تراجعٌ بلغ ١،٥٠٠ كلم ، وأسرٌ ذهب ضحيّته أربعة ملايين من الأسرى ، لا يشعر بأيّة رحمة إزاء هزيمة يُضطرّ إليها بلد يعجز عن بذل الثمن نفسه أرضاً وبشراً. «ففرنسا» في نظر «ستالين» قد «أشرعت حدودها للعدوّ» ، وهي ما تزال تقدّم له العون ؛ إذاً فلا بدّ من أن «ينزل بها العقاب الشديد لقاء ذاك التعاون المجرم» . فأعلن «روزفلت» أنّه «يوافق على ذلك مئة بالمئة» ، وقال : «إنّ السيّد «تشرتشل» يصرّ على وجوب بعث «فرنسا» كدولة كبيرة ، وليس ذلك رأيي. فلا بدّ من أن تمرّ على «فرنسا» سنوات عمل طويلة قبل أن تستحقّ انبعاثاً جديداً ؛ فما ينبغي أولاً هو النهوض بالفرنسيّين لجعلهم شعباً من المواطنين المخلصين ». وأردف «ستالين» يقول إنّ «بيتان»، لا «ديغول» ، هو الذي يمثّل «فرنسا» الحقيقيّة ، وإنّه لا يعقل أن يستعيد بلد بلغ هذا الحدّ من الذنب امبراطوريّته وخطورته السياسيّة ، بعد انتهاء الحرب . فأعاد «روزفلت» موقفه وأعلن أنّه موافق كلّ الموافقة .

خُصّصت خلوة أخرى لتنظيم السلام ؛ أصغى «ستالين» بارتياب وصبر إلى المشاريع التي أعارها «روزفلت» زهو المؤلّف الواضع : فمن مجلس عامّ لأمم يعتبرها القانون متساوية ، إلى فرقة من «شرطيّين أربعة» تضمّ «أميركا» و «روسيا» و «بريطانيا العظمى» «الصين» ، مهمّتُها السهر على احترام النظام العالميّ . فما يهمّ العمّ «جو ستالين» هو اتّخاذ الترتيبات اللازمة القابلة للاستمرار والبقاء لمنع «ألمانيا» من أن تديم الإساءة . هو لا يؤمن بتبدّل عقليّة الشعب الألمانيّ ، ويتنبأ بأنّ هذا الشعب «سيثير حرباً جديدة بعد عشرين سنة» ما لم يخضع لأشدّ الإلزامات قساوة وصلابة . وعندما عُرضت قضيّة معاملة «ألمانيا» مجدّداً في المباحثات الثلاثيّة ، أثارت اصطداماً جديداً مع «تشرتشل» ؛ فسجّل «ستالين» ملاحظته التالية : «لا يستطيع رئيس الوزراء البريطانيّ أن يتخلّص من ذلك العطف الذي يكنّه للألمان ...»

وتناول المؤتمرون بشيء من البحث السريع المقتضب مصير الأمم المتاخمة لحدود «الاتّحاد السوفياتيّ» ، فقُبل من غير نقاش مبدأ إعادة المقاطعات الشرقيّة من «بولونيا» إلى «روسيا» ، والتعويض على «بولونيا» بإلحاق بعض المقاطعات الألمانيّة بها . أمّا «فنلندا» ، التي تناضل في الصفوف الألمانيّة ، فقد أعلن «ستالين» أنّه لا ينوي ضمّها ، ولكنّه سرعان ما بادر إلى وضع حدّ للمحاولات الأميركيّة الحييّة التي رمت إلى الإبقاء على البلدان البلطيقيّة الثلاثة «ليتوانيا» ، و «لتّونيا» و«إستونيا» . وعشيّة الفراق طلب منه «روزفلت» مقابلة أخيرة ، وقال إنّه سيعرض عليه قضيّته بصراحة ؛ فما من شكّ في أنّه سيرشّح مجدّداً عام ١٩٤٤ ، وهو لا يريد أن يفقد أصوات عدّة ملايين من المواطنين الأميركيّين ذوي الأصل البولونيّ أو البلطيقيّ ؛ فهو بالتالي يودّ الحصول على وعد يُقطع «للشعب في أن يُعبّر عن إرادته بطريقة ما» قبل إجراء أيّ ضمّ إلى «الاتّحاد السوفياتيّ»؛ فاكتفى «ستالين» بأن أجاب أنّ الجمهوريّات البلطيقيّة الثلاث لم تكن على شيء من الاستقلال الذاتيّ قبل عام ١٩١٤ ، وأنّه لا يرى السبب الذي من أجله يعترف لها بما لم يمنحها إيّاه القياصرة . استُعرضت تلك المسائل كلّها دونما جدول للأعمال أو تصميم ، ولم



«ستالين» ، و «روزفلت» ، و «الشرتشل» في مؤتمر «طهران» ، في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٣ .

يعرها «ستالين» إلاّ القليل من اهتمامه . أمّا ما طالب به — وبأقلّ ممّا عرفه العام المنصرم من إصرار — فهو فتح سريع للجبهة الثانية الحقّة، بالنزول في «أوروبا» الغربيّة . وأيّة عمليّة عسكريّة غير تلك لم تكن في نظره إلاّ عمليّة مضلّلة ثانويّة ، وإذا بهذا الميدان الجديد يوفّر للاتّصال السوفياتيّ الأميركيّ ضدّ «تشرتشل» حلقة جديدة .

وفي جلسة ٢٨ تشرين الثاني العامّة رسم «تشرتشل» ببراعة لوحةّ الوضع السراتيجيّ في الغرب : ستشترك بالنزول في «فرنسا» ١٩ فرقة أميركيّة و ١٦ فرقة بريطانيّة تشكّل كلٌّ منها ضعف ما تشكّله من الرجال فرقة ألمانيّة عاديّة ؛ وستنضمّ إليها قوّات تصل مباشرة من «الولايات المتّحدة» لترفع قوّات الحملة كلّها إلى ما يقارب خمسين فرقة . وتبقى في المتوسّط ٢٢ فرقة أكثرها بريطانيّة ، ويعتقد «تشرتشل» أنّ عمليّاتها ينبغي أن تستمرّ بلا هوادة ، وبمعزل عن عمليّة غزو «أوروبا» الغربيّة . ويجب أن يُستخدم بعض الفرق لفتح جزر بحر «إيجه»، ممّا سيحمل «تركيا» على دخول الحرب ، حتّى ولو كلّف ذلك إرجاء غزو «أوروبا» لفترة قصيرة « لا تتعدّى الشهر أو الشهرين » ؛ إذ ذاك ينضمّ إلى قوّات الحلف جيشٌ متين ، فيتدفّق العون الأميركيّ على «روسيا» عبر «الدردنيل» بدل أن يمرّ بالطريق القطبيّة المخيفة ، أو بالطريق الإيرانيّة الوعرة .

بيد أنّ «ستالين» لا يرغب في فتح «الدردنيل» ، لأنّ ذلك قد يضع «روسيا» ، التي يعتبر إنقاذها حاصلاً بعد الآن ، على اتّصال مباشر بالغرب . فألحّ وكرّر إلحاحه من أجل أن يقتصر النشاط الحليف على اجتياح «فرنسا»، وطلب وقف الهجوم في «إيطاليا» عارضاً أن تُنزل الفرق الشاغرة في المتوسّط ، على الفور، في «بروفنسا» في «فرنسا» . ثمّ أثار قضيّة قيادة غزو «أوروبا» قائلاً : «لن أؤمن بالعمليّة ما لم أعرف أيّ جنرال قد كُلّف بتنفيذها» . وأخيراً استجوب «تشرتشل» فقال : «أودّ أن أطرح عليك سؤالاً مباشراً: أتؤمن حقّاً بغزو «أوروبا»؟ فأتى الجواب مطنباً وشرطيّاً معاً : «إذا ما تيسّر للشروط المتّفق عليها أن تتحقّق في الوقت المناسب ، أجل ، أجل ، ثمّ أجل ! » .

لم تبتّ «طهران» في شيء ، وكلّ ما أسفرت عنه هو بلاغ أعلن فيه «الثلاثة الكبار» أنّهم يفترقون «أصدقاء في الروح وأصدقاء في الهدف» . وأخذ «البروتوكول» العسكريّ علماً بأنّ غزو «أوروبا» سيتمّ في شهر أيّار من عام ١٩٤٤ ، في الوقت الذي يتمّ فيه نزول آخر جنوبيّ «فرنسا»، وأنّ المارشال «ستالين» سيشنّ في الوقت عينه هجوماً يمنع نقل القوّات الألمانيّة من الشرق إلى الغرب .

مرّ طريق العودة بالنسبة «لتشرتشل» و «روزفلت» بالقاهرة ، حيث التقيا «أبا الهول» من جديد . وذهبا ، عند غياب الشمس ، يدرسان معنى ابتسامه . أمّا «تشانغ» وعقيلته فقد حلّ محلّهما الجنرالُ الهزيل الأشيب الأصمّ «عصمت إينونو» الذي بذل عهود الصداقة دونما حساب . ولكنّه أعرب بوضوح عن إرادة «تركيا» في التزام موقف الحياد . خاب فأل «تشرتشل» ، وإذ أدركته الشيخوخة فجأة رحل إلى «مراكش» يعالج التهاب الرئة الخطير الذي عاد به من «طهران» .

أوضاع "فرنسا" عام ١٩٤٣

بالنسبة «لفرنسا» التي اعتبرها «ستالين» ، من غير تمويه ، تابعة «لهتلر» ، كانت السنة الماضية سوداء مفجعة . فتكفير الهزيمة كان مستمرّاً.

إلاّ أنّه يجدر إنعاش بعض الظلال التي حاولت البلاغة والبراهين إزالتها فيما بعد . إنّ صورة «فرنسا» ، حتّى في سنة الاحتلال الثالثة ، ليست صورة مطلقة للشدّة والعبوديّة . كان بعض الفرنسيّين يموتون . ولكنّ الفرنسيّين كانوا يحيون — من غير أن يبيعوا أنفسهم للعدوّ دائماً . فهنالك شخصيّات مرموقة كانت تعيش بأمان كلّي وتتمتّع بحريّة الرأي والعمل بشيء من الحذر . قام «سارتر» يعرض مسرحيّة «الذباب» ، وهي ، مع «حذاء الأطلس» «لبول كلوديل» (مؤلّف «نشيد إلى المارشال») ، و «سادوما» «لجيرودو» ، قد أغدقت على الموسم المسرحيّ في ١٩٤٣ نجاحاً باهراً . وأمّا الأزياء فقد كانت تتحدّى أزمة النسيج لخلق الأشكال الغريبة، ممّا أثار هذا السؤال الذي طرحه ضابط ألمانيّ على إحدى الباريسيّات : «ما هي القبّعات التي كنتنّ ستعتمرنها لو أنّ «فرنسا» ربحت الحرب؟» ومن نواحٍ عديدة كان وضع الفرنسيّين المنهزمين أفضل من وضع هازميهم . فهم لا يذوقون غير جزء ضئيل من القصف الذي يجتاح «ألمانيا» ، وهم لا تنزف دماؤهم بقدر ما تنزف دماء الشعب الألمانيّ على الجبهة الشرقيّة.

وأمّا الحياة المادية نفسها ، على الرغم من قساوتها ، فقد كانت أقلّ فجاعة ممّا ينبغي أن تكون عليه إذا ما اعتبرنا الأرقام الجماعيّة ، وأرقام الموت بسبب الخور ، والتقنين الغذائيّ . فقد نجت مقاطعات كاملة من الحرمان ، وبغضّ النظر عن السوق السوداء ، كانت حلقات التموين ، التي اتّصفت بطابع الحذق المبدع ، تخفّف المجاعة الرسميّة . فمقابل ٨٠ طناً من الشحنات القانونيّة ، وأكثرها من الخبز والملفوف ، كانت مدينة «ليون» مثلاً تتلقّى ٥٠ طناً من الطرود العائليّة التي تحمل الزاد الوافر . وعلى الرغم من تفشّي السلّ بقيت الصحّة العامّة جيّدة نوعاً ، وبفضل تضاؤل إدمان الخمرة بقي عدد المرضى في المستشفيات أقلّ ممّا كان عليه قبل الحرب . فهذا الوضع الذي كان مرضياً نسبيّاً ، والذي كان ولا ريب أقلّ الأوضاع سوءاً في «أوروبا» المستعبدة ، ما كان ممكناً لو أنّ أمر «فرنسا» تُرك لحكّام من الألمان طغاة ، ولو أنّ الإدارة الفرنسيّة لم تتوسّط بين المحتلّين والذين كانوا تحت نير الاحتلال . ومع ذلك ، فقد كانت صفحات «فيشي» الأخيرة جارحة ؛ فهي تفضح التعلّق المتزايد بالقضيّة الهتلريّة . ففي شباط ١٩٤٣ أنشئت خدمة العمل الإجباريّ التي كانت تزوّد «ألمانيا» باليد العاملة . وأمّا الحرس الوطنيّ ، المنتقى من فرقة المحاربين الفرنسيّة ، فقد اتّخذت الطابع الرسميّ لشرطة معاونة . وأمّا اليهود فقد التُقطوا كالماشية وأسلموا إلى مصير مجهول . واجتاح الهتلريّون الفرنسيّون العاصمةَ الموقّتة واحتلّوها ، بعدما أرهقوها بأذيّاتهم ؛ «فبرينون»، و «بونّار»، و «غابولد»، و «هنريو» ، و «ماريون»، و «دارنان»، و «ديا»، كانوا الوزراء الجدد وسكرتيري الدولة، وسكرتيرين ومفوّضين عامّين لحكومة لم تبقَ غير فلك «للرايخ» الثالث. وكان رئيسها هو «بيار لافال» الذي راح يحاول الحدّ من المتطلّبات الألمانيّة ، وأمّا مبدأه : «إنّني أتمنّى انتصار «ألمانيا» فقد اعتبرته الأكثريّة الفرنسيّة

الساحقة كتحدٍّ سافر .

إنّ ١٩٤٣ ، وهي سنة انحطاط «فيشي» ، كانت سنة تطوّر المقاومة. وإنّه لباطل حتّى في يومنا هذا أن نحاول رسم لوحة حقيقيّة لهذا الحدث الحسّي الرحب . فهنالك كتمان تامّ ، يحمي بعض الانفعالات السياسيّة والتبعات الشخصيّة ، يحيق بالمراجع الأكثر بدائيّة . وسأذكر على سبيل البرهان مثالاً واحداً ؛ فلقد حاولت الحصول على ما يبدو وكأنّ له علاقة إيجابيّة بنشاط المقاومة العسكريّ ، أي الـ ١،٥٠٠ صفحة التي تتضمّن التقرير عن القوّات الفرنسيّة الداخليّة ، الذي وضعه الماجور الأميركيّ «ر.أ. بورن ــ باترسون» بمعونة الكثيرين من الضبّاط الفرنسيّين ، فعدتُ بخفّي حنين . ولقد أُعطي هذا التقرير في «واشنطن» طابع السريّة الكاملة بإيعاز من الحكومة الفرنسيّة ؛ وفي «باريس» يصرّح المجلس الرسميّ لتاريخ الحرب العالميّة الثانية بأنّه لم يحصل على هذا التقرير قطّ . ففي هذه الظروف إذاً لا يمكننا إلاّ أن نترك لمستقبل أكثر معرفة أمر تحرير فصل تاريخيّ مفجع ومبهم .

ولكنّ الأمر الذي هو أكثر وضوحاً هو الحرب الأهليّة المختلطة بالقتال ضدّ المحتلّ . فالحزب الشيوعيّ ، وهو العنصر الراجح في المقاومة ، والذي تعرّض لأكثر العقابات وحشيّة متحمّلاً أذاها ببطولة ، كان يسمو إلى ما وراء الانتصار على «ألمانيا» . وأمّا انضمام جزء هامّ من البورجوازيّة إلى المارشال فقد مكّن من أعمال تصفية . وقد تضخّمت شراسة القتال بإشراك الحرس الوطنيّ في القمع ، بأبنائه الضالّين ومجرميه المحترفين . فتعاقبت الجرائم والجرائم المعاكسة على «فرنسا» تثخن فيها الجراح من شمالها إلى جنوبها .

ولقد فتحت الاعتداءات على أعضاء الجيش الألمانيّ سلسلة أخرى من أعمال الثأر . وحاول بعض قادة المقاطعات الحدّ منها ، وأتّبع آخرون سياسة الإرهاب . وقد بدأت المرحلة الكبرى لإعدام الرهائن في ١٩٤٢ ، بالخمسين الذين أُعدموا في «شاتوبريان» رمياً بالرصاص . في البدء حاولت حكومة «فيشي» مقاومة هذا التطبيق المفجع لمبدإ الإدانة الجماعيّة ، إلاّ أنّ تطوّر المقاومة ، والخطر المتزايد المحيق بالعسكريّين المنعزلين وبالقوافل وبالمراكز الألمانيّة ، قد زاد من شدّة القمع . وكانت دوائر الشرطة والمباحث كافّة في «الرايخ» الهتلريّ تعمل في البلدان المحتلّة على أن تمسك ، بأيّة وسيلة ، وفي مقدّمتها وسيلة التعذيب ، بخيوط المؤامرات الوطنيّة على المنتصر الذي كان ظفره يتلاشى شيئاً بعد شيء . والواقع أنّهم كانوا يحظون بمساعدة السكّان المحليّين في كلّ مكان ، ويدعمون الغستابو الألمانيّة بالغستابو الفرنسيّة والبولونيّة والنروجيّة ، الخ ، ويجنّدون الخونة في حركات المقاومة كافّة ، ويجمعون من الوشايات عدداً طائلاً يفقد قيمته كالعملة في طور تضخّمها ؛ فأولئك الذين نذروا أنفسهم للعمل السرّي ، في أشكاله المختلفة ، كانوا يعيشون في غمرة المهالك الشنيعة ، وينتهون في غالب الأحيان فوق أعواد المشانق يموتونموت الأبطال.

وهنالك واقع آخر في ١٩٤٣ ، ألا وهو ظهور مجموعات من الثوّار عُرفوا باسم «ماكي» أو «المقاومة السرّية» . ونحن نفتقر هنا كذلك إلى لوحة حقيقيّة عن هذه التجمّعات التي تتراوح بين الوحدات العسكريّة المنضبطة وجماعات السارقين المجلّبيين بالإجرام . وفي بداية ١٩٤٣ أصبح جبل «فيركور» ، بين «إيزير» و «دروم» ، معسكراً حقيقيّاً للتدريب ، حيث كان ضبّاط من جيش الهدنة يقومون ، تحت إمرة الجنرال «دوليستران» ، الذي يحمل اسم «فيدال» الاصطلاحيّ ، بتدريب المتطوّعين القادمين من «غرونوبل» و «ليون» . واكتظّ «الماسيف سنترال» و «الجورا» و «الألب» و «البيرينيه» و «بروتانيا» بالشبّان الذين لجأوا إليها هرباً من خدمة العمل الإجباريّ . وفي سبيل تطهير هذه المناطق الوعرة كان ينبغي الحصول على عون السكّان الذين كانوا يسعون وراء الحياد لا أكثر ، أو على أجهزة لم يكن الألمان حاصلين عليها .

ومنذ ١٩٤٠ أنشأ الانكليز ، تحت اسم «سبشال أوبيريشن اكزيكيوتيف» ، جهازاً يهدف إلى إعادة تنظيم دوائر استخباراتهم في «أوروبا» . وكانت السلطات الديغوليّة قد أنشأت من جهتها «المكتب المركزيّ للاستخبارات والعمليّات» الهادف إلى إنعاش المقاومة الفرنسيّة الداخليّة واستثمارها . ولقد كانت الخلافات كثيرة بين هاتين المنظّمتين . وكانت هذه الخلافات أكثر بكثير بين حركات منطلقة من مختلف نقاط الأفق السياسيّ وعائدة إليها . وقامت «لجنة لندن» ، ومن بعدها حكومة مدينة «الجزائر» الموقّتة ، بتنسيق هذه القوى الصاخبة وللمة شملها .

في ليلة رأس سنة ١٩٤٢ هبط «جان مولان» ، وهو حاكم «شارتر» السابق ، بالمظلّة في «بروفانسا» . وقد كان يحمل معه تفويضاً بالسلطة من الجنرال «ديغول» مصوّراً على فيلم مصغّر ، ومخبّأ في قعر مزدوج في علبة كبريت. وفي ٢٧ أيّار ١٩٤٣ تمكّن من جمع ممثّلي المنظّمات الرئيسة في «فرنسا الجنوب» و «فرنسا الشمال» ، وذلك داخل قاعة للطعام في أحد شوارع «باريس». وهكذا يكون «مجلس المقاومة الوطنيّ» قد وُلد . ومع ذلك فقد كان «جان مولان» ، الذي ترأس هذه المؤسّسة ، كثير التشاؤم بشأن نجاحه الركيك . فقد سارت مهمّته تحفّ بها المشادّات والخصامات التي وضعته وجهاً لوجه خاصّة مع الرئيس الأوّل للمقاومة الداخليّة «هنري فريني» ، وحتّى مع اثنين من مبعوثي «لندن» هما «دوافران» و «بروسوليت» . وانتهت هذه المهمّة بعد ستّة أسابيع في «كالوير وكوير» على أبواب «ليون» بإلقاء القبض عليه بنتيجة الخيانة . ولقد فاضت روح «جان مولان» بعد تعذيبه وهو في طريقه منقولاً إلى «ألمانيا» . وخلفه على رأس «مجلس المقاومة الوطنيّ» الأستاذ الصحافيّ الكاثوليكيّ «جورج بيدو» . وبقيت الوحدة سطحيّة أو مصطنعة ، وبقيت المنظّمات محتفظة باستقلالها الذاتيّ بشدّة ، واقفة في الغالب بعضها في وجه بعض . وأمّا نقطة التقاء الآراء جميعاً ــ مع بعض النيّات الخفيّة ــ فقد كان وجه الجنرال «ديغول» الذي راح يبرز باستمرار كرئيس للأمّة .

وعلى نقيض ذلك كان غسق «بيتان» قد آذن . فقد أصبح الرئيس الهرم غريباً بالنسبة لشعب أحبّه واحترمه . وقد شهد خريف ١٩٤٣ آخر مجهود للإفلات من الأزمة المميتة ، فقرّر إعفاء «لافال» مرّة ثانية ، وفكّر بالعودة إلى طريق الجمهوريّة الثالثة بإنشاء مؤسّسة كاملة للشخصيّات تدعو إلى انعقاد الجمعيّة الوطنيّة حول «لوسيان روميه» و «ليون نوويل» . وأمّا «لافال» ، الذي علم بالأمر ، فقد أبلغ «كروغ فون نيدا» ، ممثّل «ألمانيا» في «فيشي» . وكانت رسالة المارشال قد سُجّلت على أسطوانة ، فمنع «نيدا» إذاعتها . وردّ «بيتان» على ذلك بأنّه سوف يكفّ عن ممارسة سلطاته كرئيس للدولة ؛ إلاّ أنّ هذا العصيان الشيخوخيّ لم يزعزع «هتلر» الذي قال : «لن أقبل أبداً بإعادة ظهور جمعيّة أعلنت الحرب على «ألمانيا» . وكانت الديغوليّة قد وسمت هذه الجمعيّة نفسها كطريدة للعدالة بسبب السلطات المطلقة التي منحتها للمارشال . فشرعيّة الجمهوريّة الثالثة ، والحالة هذه ، قد تعطّلت في كلا الجانبين .

وانتهى الأمر بخضوع المارشال أمام السفير «أبتز» الذي رافقه «سكورزيني» وفرقتان مصفّحتان صاعقتان . وبقي «لافال» في منصبه . وهذه الحادثة قد ختمت عهد «فيشي» كعاصمة ، فراحت تموت خلال الشتاء ، تهجرها تدريجيّاً الدوائر العامّة التي كانت تنحلّ أو تعود إلى «باريس» . وكانت أوكار المقاومة تحيط بها من كلّ صوب ، تهدّدها وتزرع فيها القلق والخوف .



في حين كانت القوّات الحليفة تجتاح «صقلّية» ، راحت القوّات الجوية تدكّ طرق المواصلات .

رجلان من رجال الإسعاف ينقلان أحد الجرحى في خرائب «كاسينو» .



سيّارات وشاحنات على أهبة مغادرة سفينة الإنزال في «إيطاليا» . أمّا الطائرة المحطّمة فهي طائرة أميركية أسقطتها المدفعية الحليفة خطأ ! ولم يُصب ملاّحها إلاّ بخدش في يده .



أحد رجال الشرطة العسكرية يحيّي الجنرال «الكسندر» . وقد قدّم «لأيزنهاور» تقريراً عن الجبهات في ٢٤ تشرين الأوّل ، فبدا له الوضع «مقلقاً جداً» .





الجنود الانكليز يسوقون الأسرى الألمان إلى المؤخرة .



مدينة «فورمياء» الستراتيجية التي دافع عنها الألمان دفاعاً مستميتاً . وقد احتلها الحلفاء في ١٩ أيار ١٩٤٤ .

«إيطاليا» الغارقة في النار والدم

مدينة «كاموتشيني» التي احتلها الألمان غير مرة . ◄





الجنرال «كلارك» داخلاً إلى «نابولي» وقد جلا عنها الألمان .



الفصل الرابع والعشرون

كانون الأول ١٩٤٣ - حزيران ١٩٤٤

ربيع

إنّ فترة الاستراحة التي وفّرها للجيش الألمانيّ هجومُ «كييف» المعاكس لم تدُم طويلاً. فقد هبّ «فاتوتين» يشنّ هجومه ليلة الميلاد، قاطعاً بعنفٍ حبلَ الاحتفالات الدائرة في الخنادق والمعسكرات الألمانيّة.

الطريق إلى «روما»

أسرع «مانشتاين»، الذي كان يقضي سهرة العيد مع جنود الفرقة ٢٠، بالعودة إلى قيادته في «فينيتزا». فإذا بالأنباء التي تنتظره هناك تتعدّى حدود مخاوفه. فالجيوش الخمسة المرابطة على جبهة «أوكرانيا» الأول قد شنّت هجوماً أوسع ما يكون نطاقاً على جانبي طريق «كييف - جيتومير» كليهما. أمّا جيش الدبّابات الألمانيّ الرابع، ولمّا يُدعم الدعم اللائق إثر المعارك العنيفة التي شهدتها الأسابيع المنصرمة، فقد تلقّى صدمة لم يكن يتوقّع مثلها مداهمةً وعنفاً.

وشهد الأسبوع الأخير من عام ١٩٤٣ انهيار الجبهة الألمانيّة، فإذا «جيتومير»، التي أعيد احتلالها في ٢٠ تشرين الثاني، تعود إلى الروس في أوّل كانون الثاني. وتضعضع جيش الدبّابات الألمانيّ الرابع فغدا القتال عسيراً للغاية. تلطّفت حالة الجوّ. ولكنّ مطراً غزيراً من الثلج الذائب قد اكتنف «أوكرانيا» من كلّ جهة، وحيال أخطار التطويق ضُرب بالأوامر التي تحتّم على القوّات الصمود والمقاومة عرض الحائط. واستحال التراجع أحياناً إلى فرار. فسبّب خسارة فادحة في العتاد.

هذا ولم يكن وضع المهاجم لامعاً في كلّ مكان، ففيما احتفظت فرق «الحرس» والتشكيلات المصفّحة بمستواها، غصّت مجموعة الفرق السوفياتيّة بجمهور يزيد غرابة يوماً بعد يوم. فقد أشارت فرقة الدبّابات الأولى إلى أنّ نصف الأسرى لا يبلغون الثامنة عشرة، وإلى أنّ بينهم غلماناً لا تتعدّى سنّهم الثالثة عشرة. ووصف الجنرال «فون فورمان»، قائد الفيلق المصفّح ٤٧، «حشوداً قد جُمعت بسرعة تكاد لا تعرف لها بزّة، تشمل كتائب من النساء كنّ، لأسابيع خلت، يطهون طعامنا ويغسلن ثيابنا في «روستوف». فمن أصل ألف أسير اعتقلهم فيلقه كان واحد من عشرين يحمل سلاحاً، وكان أكثر من النصف حفاة. وأضاف: «وإذا اصطدمت هذه الجماهير بجيوش سليمة منيت بخسائر عنيفة. إلّا أنّها تتجدّد تجدُّد أمواج البحر».

عاد «مانشتاين» في ٤ كانون الثاني إلى مقرّ القيادة العليا متسلّحاً بقرار ظنّه عاتياً ماضياً. فطلب مقابلة مع «هتلر» لا يشهدها غيرُ «زيتزلر» رئيس الأركان. كان مطلع خطابه ما يلي: «يا زعيمي. علينا أن ندرك بوضوح أنّ هزائمنا لا تعود إلى تفوّق العدوّ المادّيّ فحسب، بل إنّها تعود كذلك إلى الطريقة التي نُدير بها دفّة الحرب...» تغيّرت ملامح وجه «هتلر» عند سماعه هذه الكلمات، وسقط جوابه بعنف لاهث: «فما من أحد غيره، هو «هتلر»، يقدر على قيادة الجيوش الألمانيّة، وما من أحد غيره يستطيع أن يحمل عبء الحرب». وقال: «أتعتقد مثلاً أنّك تستطيع أنت، يا «مانشتاين»، أن تفرض الطاعة التي أفرضها أنا، «هتلر»؟...»

عاد «مانشتاين» إلى معركته بخفّي حُنين. كانت سرعة التقدّم



جبل «كاسينو» كما بدا بعد وقف إطلاق النار.

الروسيّ تضاهي سرعة الحرب الصاعقة . إذ تراوحت بين ٣٠ و ٤٠ كلم في اليوم . وامتاز الزحف الروسيّ بإقدام لم يُعهد له مثيل ، فانفتح بشكل مروحة ، واتّجه الفرع الشماليّ نحو «كوروستين» فانتزع «نوفغورود» ، ومضى لاحتلال «سارني» الواقعة على تخوم مستنقعات «البريبت» ؛ واجتاز الفرع الأوسط حدود ١٩٣٨ ومضى يستولي على «لاك» و «رونو» وقد ظلّتا طويلاً مدينتين بولونيّتين عسكرت فيهما الحامية المكلّفة بمراقبة «الاتّحاد السوفياتيّ» ، أمّا الفرع الجنوبيّ فانتزع «برديتشيف» ومضى باتّجاه نهر «بوغ» في «أوكرانيا» . شنّ «مانشتاين» هجومه المعاكس معتمداً على فيلقين . وتمكّن من تحطيم هذا الرأس من الخُطّاف الثلاثيّ الشوكات في الوقت الذي كادت تبلغ فيه «فينيتزا» وتقترب من «أمان» . وأوقف التقدّمَ الروسيَّ في الاتّجاهات الأخرى امتدادُ المواصلات وحالةُ الأرض . إلاّ أنّ إسفيناً واسعاً ، بلغ من العمق ٥٠٠ كلم ، قد دُقّ في الجبهة الألمانيّة ، ففصل مجموعة جيوش الوسط عن مجموعة جيوش الجنوب.



دبّابات «نمر» الألمانيّة تشنّ هجوماً معاكساً لصدّ الثغرة التي تحدثها الدبّابات السوفياتيّة . وتبدو إلى اليمين دبّابة ألمانيّة وهي تشتعل .

أكثر ما كان يثير الإعجاب أنّ زحفاً واسع النطاق كهذا لم يستنفد القوّة السوفياتيّة . ففيما هزم الروس الألمان أمام «كييف» أخلوا يردّونهم أمام «لينينغراد» . لم تكن مجموعة الشمال ، التي يقودها المارشال «فون كوخلر» ، قد عرفت منذ سنتين غير ترجّحات طفيفة ، فقد اضطرّ الجيش السادس عشر إلى الفرار من حصار «لينينغراد» ، والتخلّي عن «شلوسلبورغ» ، والإقلاع عن تقليص رأس الجسر السوفياتيّ في «أورانينبوم» ، غير أنّه ظلّ محتفظاً لنفسه بنافذة تطلّ على «النيفا» وممسكاً بقسم من «الفولخوف» و «نوفغورود» وبحيرة «إلمن» . وكان الجيش الثامن عشر قد جلا عن جيب «ديميانسك» ، ولكنّه ظلّ متشبّثاً «بستارايا روسا» و «شولم» . كان القتال قتال خنادق تتعاقب فيه على التوالي برودةٌ قطبيّة وحرارةٌ مستنقعيّة في قلب طبيعة فظّة عاتية . كان «كوخلر» قد اضطرّ إلى التخلّي عن قسم من قوّاته لمجموعات الجيوش الأخرى ، فيما مدّد قطاعه عدّة مرّات، إلاّ أنّه ظلّ محتفظاً بـ ٤٨ فرقة لم تكن ، والحقّ يقال ، واحدة منها مصفّحة . وهكذا ، ومع إجراء حساب «فنلندا» ، كان ثلث القوّات الألمانيّة في «روسيا» مجمّداً شماليّ «فيتبسك» .

كانت مثل هذه النسبة منافية لما هو معقول ؛ فمنذ أن أقلع الألمان عن فتح «لينينغراد» لم يبقَ للجناح الأيمن من الجبهة الشرقيّة سوى أهميّة ستراتيجيّة ضئيلة ، وكان التراجع إلى «النارفا» ، وحتّى إلى «الدونا» ، الذي طالب به الجنرالات كلّهم بغية تقصير الجبهة، وتقليص خطوط المراحل، وإعادة تشكيل قوى الاحتياط ، موافقاً للوقائع الجديدة . بيد أنّ «هتلر» كان يقول: «لا ، ثمّ لا». كان يخشى تخاذل «فنلندا» من جهة ، ويخشى من جهة أخرى أن يوفّر التراجع المقترَح للروس مواقعَ تهدّد حركة نقل الحديد الأسوجيّ .

كُشفت دلائل الحملة منذ الخريف ، وأخذت تتضاعف ابتداء من أوّل كانون الثاني وبرز من فجوة «أورانينبوم» في ١٤ منه جيشا صدام سوفياتيّان هما الثاني والأربعون والثاني ، فحملا باتّجاه «تسارسكويي سيلو». وفي اليوم عينه زحف الجيش التاسع والخمسون على «الفولخوف» من كلا جانبَي «نوفغورود» ، كانت نقطة التقاء ذينك الزحفين «لوغا» على نهر «اللوغا» ، وهي قلب المؤخّرات الألمانيّة . أمّا الهدف فتطويق الجيش الثامن عشر وأسره .

خفّت وطأة الشتاء عمّا هو مألوف ، وضوعف انهمار الثلج ، غير أنّ قلّة الطرقات، وعمق الغابات، وضراوة الأنصار ، قد أضرّت بالأجناد الألمانيّة. نقم «هتلر» على «كوخلر» فأحلّ محلّه رجلَ الأيّام العصيبة، «مودل» ؛ فعزيمته المأثورة كانت ضروريّة لإنقاذ الجيوش الألمانيّة في الشمال.

فكّ الروس الحصار عن رأس جسر «أورانينبوم» في ٢٠ كانون الثاني . وفي ليل ٢١–٢٢ ركنت القوّات الألمانيّة ، التي كانت متمركزة كالسهم بين «النيفا» و «الفولخوف» ، إلى الفرار مخلّفة مدفعيّتها . حاول «مودل» تثبيت الجبهة على «اللوغا» ، إلاّ أنّ النهر لم يكن موقعاً دفاعياً . وفي ١٢ شباط اتّصلت الجيوش السوفياتيّة المنطلقة من «لينينغراد» بالجيوش السوفياتيّة المنطلقة من «نوفغورود» ، ولكنّ فرصة إيقاع الجيش الثامن عشر في الأسر كانت قد فاتت ، فانساب باتّجاه طرفَي بحيرة «بيبوس». أي «نارفا» و «بليسكو» ، لقد لاقى من العنت شيئاً كثيراً ، ولكنّه نجا .

إنتقل الخطر إذ ذاك إلى الجيش السادس عشر ؛ تعرّضت ميسرته لخطر التطويق ، فعمد مرغماً إلى تراجع سريع باتّجاه الجنوب الغربيّ ، عبر غابات شاسعة خلو من الدروب؛ فأخليت مدينتان طالما أطنبت الدعاية الألمانيّة زهواً بهما على اعتبار انّهما الدعامتان اللتان أوقفتا الزحف السوفياتيّ في شتاء ١٩٤١–١٩٤٢ ، وهما «ستارايا روسا» الواقعة على مقربة من بحيرة «إلمن» ، و«شولم» ، آخر موقع ألمانيّ على «اللوفا». واستدار الجيش السادس عشر على ميمنته وتراجع مسافة ٢٠٠ كلم ليلتحم بجاره الشماليّ .

حقّقت الجيوش الروسيّة في أوّل آذار ما طالب به الجنرالات الألمان «هتلر» عبثاً : فأعيدت جبهة مجموعات جيوش الشمال إلى موقع «بنتير» الدفاعيّ. غاب دويّ المدفع عن «لينينغراد» ، وعاد «الاتّحاد السوفياتيّ» إلى حدود ١٩٣٨ .

لم تحمل هزيمة «كييف» في «أوكرانيا» «هتلر» على تعديل ستراتيجيّته أو خطّته . فقد الجيش الألمانيّ الجزء الأكبر من خطّ «الدنيبير» ، ولكنّه تشبّث بالنهر بواسطة جيب يبلغ عرضه ٥٠ كلم يقع ناحية النبع من «تشيركاسي» . وترسم الجبهة بعد ذلك انعطافاً عميقاً أمام «كيروفوغراد» و «كريفوي روغ» ، ثمّ تلتقي «الدنيبير» قبالة «زابوروجي» وتعبره لتغطّي برأس جسرٍ مناجمَ النيكل في «نيكوبول» ؛ وبعد أن تعود إلى ما وراء «الدنيبير» ، تسير بمحاذاته حتّى مصبّه في «خرسون» . هذه الخطوط المتعرّجة الخطرة ، أصرّت أوامر قيادة جيش البرّ على وجوب الدفاع عنها من غير تنازل !

تقاسمت تلك المهمّةَ ثلاثةُ جيوش ، ينتمي أحدها إلى المجموعة «أ» («فون كلايست») وينتمي الاثنان الآخران إلى مجموعة الجنوب



لقد تحطّم الجليد تحت وطأة إحدى الشاحنات في مستنقعات «البريبت» .

(«فون مانشتاين») . ففيما غطّى جيش الجنوب السادس . بقيادة الكولونيل-جنرال «هوليدت» . مدينةَ «نيكوبول» . حفظ جيش الشمال . وهو جيش الدبّابات الأوّل . بقيادة «هوبي» جنرال القوّات المصفّحة . اتّصالاً واهياً بجيش الدبّابات الرابع . واندسّ بينهما . داخل الجيب الذي يمتدّ قعره حتّى «الدنيبير» . الجيشُ الثامن بقيادة «فوهلر» جنرال المدفعيّة . وعبثاً بُذلت الجهود الرامية إلى إقناع «هتلر» بحماقة تلك الناتئة ذات الجنبات المشّة ، فكما كان قد رفض التخلّي عن «الفولغا» في «ستالينغراد» . رفض التخلّي عن «الدنيبير» في «تشيركاسّي» .

أتى احتلال «كيروفوغراد» ، في مطلع كانون الثاني ، يزيد الوضع الألمانيّ تأزّماً وخطورة ، أربى محيط الجيب على ٤٠٠ كلم . وكست داخلَ ذاك الثؤلول الضخم أربعةُ فيالق هي ٧ و ٤٢ و ١١ و ٤٧ المصفّح . إلاّ أنّ تهوّرُ ميدان القتال . وتفكّك الوحدات . قد حدّا من قوّتها .

فالفوج المصفّح التابع لفرقة الدبّابات ١٤ ، مثلاً ، قوامُه ٧ دبّابات من طراز «ب ز . ك ف . ٤» ، و ٤ مدافع هجوم ، و ٤ دبّابات من قاذفات اللهب ، أي ما يعادل عتاد سريّة . أمّا أفواج رماة القنابل ، التي خُفّض عدد رجالها القانونيّ إلى ١،١٠٠ ، فما كانت تضمّ أكثر من ٥٠٠ رجل إلاّ نادراً . كُلّفت الفرق بحماية قطاعات يتراوح اتّساعها بين ١٨ و ٢٥ كلم ، بالاعتماد على ٣،٠٠٠ محارب على خطّ النار ، وذاك ، لعمري ، ستار من الرجال رقيق ، لا تستطيع أيّة قوّة احتياطيّة خليقة بهذا الاسم أن ترفأ خروقه . هذا وقد حُظّر إجراء أيّ تصحيح في الجبهة ؛ كما حُظّر اللجوء إلى أيّ تراجع متعمّد ، بالغاً ما بلغت تفاهته ، من غير موافقة الفوهرر السابقة .

في ٢٥ كانون الثاني شنّت جبهتا «أوكرانيا» الأولى والثانية هجومهما على جانبَي الناتئة ، وفي ٢٨ منه التقتا في «سفينيغوروغكا» الواقعة على

ممرّضون ألمان يحاولون حماية جرحاهم من أذى النيران جنوبيّ «خاركوف» .





العمليات في الجبهة الروسية (تموز ١٩٤٣ – نيسان ١٩٤٤)

ضفة نهر صغير ذي مجرى ضيّق هو «غويلوي تيكيتش»، فطُوِّق بذلك فيلقان ألمانيّان هما الـ ١١ والـ ٤٢، وقد شملا ٥ فرق من المشاة، وفرقة «فيكينغ» المصفّحة الصاعقة، ولواء «فلّوني» المصفّح الصاعق.

ما كان «هتلر» ليعود عن غيّه وضلاله. فإذا بانفعاله إزاء هذه الكارثة الجديدة هو انفعاله إزاء «ستالينغراد» سابقاً. فتلقّى الجنرال «ستيمرمان»، قائد القوّات المحاصَرة، أمراً بالمحافظة على الجيب بكامله. أمّا الفيلقان فسيزوَّدان بالمؤن عن طريق مطار «كورسون»، ويُرجى إنقاذهما بعمليّة كبرى ينوي الفوهرر أن يُشرك فيها ٨ فرق مصفّحة: ففيما تزحف الـ ١٦ والـ ١٧ والفرقة النموذجيّة، وفرقة الدبّابات الأولى، من الغرب إلى الشرق، ضمن إطار جيش الدبّابات الأوّل، تهاجم الفرق ١١ و ١٣ و ١٤، وفرقة الدبّابات ٢٤، من الشرق إلى الغرب ضمن إطار الجيش الثامن، ولسوف يُسحق العدوّ سحقاً. ولكنّ الأمور لا تجري في حومة الوغى بمثل ما تجري به من سهولة على الخارطة؛ فقد اصطدم حشد الفرق المصفّحة بعقبات هائلة؛ فالأرض تميع نهاراً وتعود إلى التجمّد ليلاً، فتغرق العربات في هوّات من الوحول تارة، وطوراً تحبسها ضمن غلاف كالإسمنت المسلّح صلابة. أتى يوم ٣ شباط ولم يبلغ من القوّات المعنيّة مكانه غيرُ قسم ضئيل، بيد أنّ إرجاء الهجوم لم يبقَ ممكناً، فالقوّات تستنفد قواها داخل الجيب، ولا يأتي التموين الجويّ إلاّ بقسم ممّا لا بدّ منه، ومطار «كورسون» بات مهدّداً. سعت المجموعتان المصفّحتان ببسالة، طوال أيام عشرة، في التقدّم من الرفقاء المطوّقين. فاصطدمت المجموعة اليمنى، أي فيلق الدبّابات ٤٧، الذي يقوده الجنرال «فون فورمان»، بمقاومة الجيش الخامس السوفياتيّ العنيدة. واضطرّت إلى التوقّف على بعد ٣٠ كلم من الجيب. وتمكّنت المجموعة اليسرى، أي فيلق الدبّابات الثالث، بقيادة الجنرال «برايث»، من الوصول إلى مسافة ١٣ كلم من المحاصَرين، وأوقفت بدورها.

وإذا بمأساة «ستالينغراد» تُمثَّل من جديد. بيد أنّ «ستيمرمان»، وقد كان أقلّ انصياعاً من «باولوس»، تخطّى أوامر «هتلر» فترك «الدنيبير»، ودفع بقوّاته نحو الغرب باتّجاه المنقذين. إلاّ أنّ رجاله كانوا يموتون جوعاً، وذخائره كانت في طريقها إلى النفاد، فطلب الروس منه أن يستسلم. فتسلّم الكولونيل «فوكيه» الرسالةَ وأمر بإعادة المفاوض إلى خطوطه. وعلم بأنّ «هتلر» قد أحاله إلى المجلس الحربيّ بتهمة التفاوض مع العدوّ. ودعا الجنرال «فون سيدليتز»، وحفيد «بسمارك» الكونت «فون أيسيدل»، رفقاءهما إلى الاستسلام باسم «اللجنة القوميّة لتحرير ألمانيا». فسدّ المحاصَرون آذانهم دون ذاك النداء، ولكنّ قواهم كانت قد بلغت آخر حدود التلف. ففقد الجيب ثلاثة أرباعه. كما فُقد مطار «كورسون». إذ ذاك قام «مانشتاين» بما لم يجرؤ على القيام به في «ستالينغراد»: فأمر «ستيمرمان» بثقب ثغرة ينفذ منها مهما كان الثمن.

أطلقت المدافع الألمانيّة آخر قذائفها مساء ١٧ شباط، وانتظم الرجال الأصحّاء كلّهم ثلاثة أرتال وراء الدبّابات الأخيرة. كان الليل حالك السواد صفيقاً. وقد ثبّت التجمّد الليليّ الأرض. أمّا سلاح الثقب فكان الحربة. فوجئ الروس بتلك الشراذم اليائسة التي انقضّت عليهم. ومرّت عبر معارك بلغت من التفكّك حدّاً عجز معه الناجون عن الوصول إلى سرد متماسك. سقط الجنرال «ستيمرمان» والكولونيل «فوكيه» أثناء الخروج. ولكنّ ٣٠،٠٠٠ رجل، من أصل ٥٤،٠٠٠ كانوا في الجيب، تمكّنوا من الوصول إلى فيلق الدبّابات الثالث. إحتفت الدعاية الهتلريّة بتلك الليلة احتفاءها بمآثر البطولة. وقال الجنرال «فون فورمان» بلهجة ساخرة لاذعة: «لقد ذهل رجالنا عندما علموا أنّهم قد أحرزوا نصراً كبيراً ...» ألواقع أنّ فيلقين آخرين قد سُحقا. وأنّ موقعة «تشيركاسّي» ضاعفت نجاح الفرصة التي ما فتئ الروس يتمتّعون بها منذ «ستالينغراد»، ألا وهي عزل جيوش الجنوب الألمانيّة. ودفعها نحو البحر الأسود لإبادتها.

فمن مصابّ «الدنيبير» إلى «الكربات» رسمت جبهاتٌ سوفياتيّة أربع خطّاً منحنياً يُحدق بمجموعات جيوش «مانشتاين» و «كلايست». أسندت جبهة «أوكرانيا» الأولى ظهرها إلى مستنقعات «البريبيت» التي لا يمكن اجتيازها، وكان «جوكوف» قد حلّ على رأسها محلّ «فاتوتين» الذي أصيب بجرح بليغ، واستدارت نحو الجنوب ضدّ جيش الدبّابات الرابع المستطيل المتفكّك الأوصال، وضدّ جيش الدبّابات الأوّل الذي استبدّ به العياء. وناءت جبهتا «أوكرانيا» الثانية والثالثة، يقودهما «كونييف» و «مالينوفسكي»، بكلكلهما على الجيش الثامن النازف الأقطع. وأخيراً، فيما استمرّت جبهة «أوكرانيا» الرابعة في محاصرة «القرم» بقيادة «توليوخين»، طوّقت الجيش السادس في المواقع اللامعقولة التي فرضت أوامرُ «هتلر» الصارمة التمسّكَ بها على «الدنيبير» الأسفل وما وراءه.

ما كادت موقعة «تشيركاسّي» تنتهي حتى مُني الجيش السادس هذا بالهزيمة، فانتُزعت منه مدينة «نيكوبول» التي طالما بُذلت من أجلها الضحايا في ٨ شباط. كان فيلق الدبّابات الـ ٢٤ (فرقة الخيّالة الأولى سابقاً) في طريقه نحو الشمال للإسهام في فكّ الحصار عن فيلقي «ستيمرمان»، فأعيد على جناح السرعة نحو الجنوب، إلاّ أنّه، وقد تخبّط في الوحل طويلاً، وصل بعد فوات الأوان؛ فلم يتمكّن من إنقاذ مدينة «النيكل»، ولم يوفّق كذلك في إنقاذ «كريفوي روغ» مدينة الحديد التي سقطت في ٢٢ شباط بعد صدع الخطوط الألمانيّة في «أبوستولوفو»؛ وانحرف الروس نحو الجنوب فحصروا الجيش السادس على «الدنيبير» بالقرب من «خرسون»، إلاّ أنّه تملّص وكافح على نهرين متوازيين هما «إنغوليز» و «إنغول»، فلم يفلح في تركيز الجبهة؛ فأخذ الروس، وليس ما يستطيع صدّهم، يقتربون من «أوديسا» التي لجأ إلى سراديبها الشاسعة ١٠،٠٠٠ من الأنصار يُحبطون، منذ سنتين، كلّ المحاولات الألمانيّة التي بُذلت لخنقهم بالدخان أو لتجويعهم.

ودارت شماليّ «أوكرانيا» رحى معركة أخرى؛ ففي ٤ آذار حمل «جوكوف» على جانبيّ «شيبيتوفكا» كليهما، ووجهته «شيرنوفيتز» عاصمة «بوكوفين» التي كانت رومانيّة من ١٩١٩ إلى ١٩٣٩. توغّل الروس على عادتهم، وراحوا منذ الغد يهدّدون خطّ «ليمبرغ – أوديسا» الذي يؤمّن وحده الاتّصال المباشر بمقاطعات البحر الأسود. وحمل الألمان حملة معاكسة بفرق مصفّحة ثلاث، بيد أنّهم لم يفلحوا في الحؤول دون قطع الروس الخطّ الحديديّ الأول بالقرب من «تارنوبول». ولن يكون تموين مجموعة «فون كلايست» ممكناً بعد اليوم إلاّ باللجوء إلى التفافات طويلة تمرّ «بسلوفاكيا» و «المجر».

وحلّت فترة الوحول. ولو تقيّد الروس بالسابقة التي أرساها الربيعان السابقان لتوقّفت العمليّات طوال أسابيع. ولكنّها، بدل أن تتوقّف، انطلقت انطلاقاً جديداً، فأثارت بذلك ذهول القيادة الألمانيّة التي كانت تحسب حساب الهدنة الموسميّة. لن يصف المحاربون حملةً بعبارات أكثر إثارة للرعب والجزع من التي وصفوا بها هذه الحملة؛ وسيكون لذكرى تراجعهم القلق، وهم غارقون في الوحل حتى الأفخاذ، وعرباتهم تغرق كلّما دارت لها عجلة؛ وقد أثقل كواهلهم خوفُ الوقوع في الأسر وطأة كابوس ثقيل مخيف. بديهيّ أنّ تحركات الروس أخذت تتباطأ؛ وأنّ مدى عمليّاتهم غدا محدوداً، وأنّ دبيب الإعياء الذي نال من

قوّاتهم قد تضاعفت سرعته ، إلاّ أنّ التفوّق النسبيّ كان لصالحهم . فهم أوفر من خصومهم استعداداً لتحمّل مضايقات الوحول ، كما أنّهم أوفر استعداداً لتحمّل الثلج . فعربات التموين عندهم أخفّ ، وأجهزتهم المزنجرة ، التي تعتمد على زناجير أعرض وأوسع ، تفوق الدبّابات الجيش الألمانيّ وجرّاراته قدرة على التحرّك .

تتالت الضربات ، فدحرت جبهة «أوكرانيا» الثانية الجيش الثامن في ٦ آذار . وزحفت على «أومان» ، سقطت المدينة واستمرّ الزحف باتّجاه «البوغ» . فبلغه ، وعبره في ٢٠ منه . وما لبث «جوكوف» أن استأنف حملته فأغرق جيش الدبّابات الرابع . وعبر «الدنييستر» ، واحتلّ «شيرنوفيتز» في ٢٤ منه . وهكذا ، خلال ثلاثة أسابيع ، وبالرغم من الوحول ، حقّقت جبهتا «أوكرانيا» الأولى والثالثة تقدّماً يزيد على ٢٠٠ كلم . فاجتيحت «رومانيا» ، وهُدِّدت «المجر» ، بل حدث ما هو أدهى من ذلك إذ طُوِّق جيش الدبّابات الأوّل ! أمّا تبعة الويلات فتقع هذه المرّة أيضاً على كاهل «هتلر» ، فهو لم يرضَ بالتخلّي عن الناتئة التي كان جيش الدبّابات الأوّل يرسمها وراء «البوغ» إلاّ في اللحظة الأخيرة ، وأمر بأن تنظّم «فينيتزا» تنظيم قلعة ، وبأن يدافع عنها حتّى الموت . إلاّ أنّ هذا الأمر الأخير قد خُرِق . فأضرمت النيران بمقرّ قيادة الفوهرر وبالقرية الريفيّة الأنيقة التي بُنيت «لغورنغ» ، بيد أنّ التراجع من «البوغ» إلى «الدنييستر» ، في غمرة الذوبان ، كان بمثابة الهزيمة بالنسبة لجيش الدبّابات الأوّل . فقد أخذ المشاة ، وقد أرهقهم الوحل ، يلقون بأمتعتهم ، وبأسلحتهم أحياناً ، وأهمل السائقون عرباتهم العالقة في الوحل . وغدا عبور الأنهار ، بعدما استحالت بحيرات ، عسيراً على جسور مزدحمة متداعية . وما لبث تقدّم العدوّ أن سبق جيش الدبّابات الأوّل فأدرك ضفّتي «الدنييستر» قبل أن يدركهما . وفي ٢٣ آذار تصافح الجيشان السوفياتيّان ، الأوّل والرابع ، خلف ظهره ، جنوبيّ «كامينيتز – بودولسك» ، فإذا بفرق عشر تجد نفسها في الطوق ، وإذا بقائدها «هوبي» ، الذي أسعفه حظّ خارق في الخروج من «ستالينغراد» ، يُلفي نفسه من جديد في فم الذئب . وأعاد التاريخ الرتيب الكئيب سيرته ، فأقامت طائرات «يو–٥٢» جسراً جوّياً ، فالطوق الروسيّ طفيف خفيف ، ومقاومة المدفعيّة المضادّة للطائرات ما زالت ضعيفة ، ومع هذا ما كانت الكمّيات المنقولة لتفي بالحاجة الأوّليّة لا من قريب ولا من بعيد . طلب «هوبي» أن يشقّ لنفسه ثغرة مباشرة باتّجاه الجنوب ، مع ما يحفّ باقتحام مجرى «الدنييستر» من عقبات ، بيد أنّ «هتلر» فعل ما فعله في «ستالينغراد» ، فحظّر عليه التخلّي عن مواقعه الأماميّة . فبادر «مانشتاين» إلى «أوبرسالزبرغ» ، وهناك صبّ «هتلر» جام لومه وتقريعه ، فذكّر بأنّ «مانشتاين» كان قد طلب منه انسحاباً إلى ما وراء «الدون» ، و«الدونيتز» ، و«الدنيبير» ، و«البوغ» ، واعداً في كلّ مرّة بصدّ العدوّ على جبهة فُضلى ، وكان العدوّ في كلّ مرّة يقتحم الحاجز الجديد . ولكنّه قبل أخيراً بالموافقة على اقتراحات المارشال : فسيؤمّن «فون كلايست» أمر الدفاع عن «رومانيا» بعد أن يضمّ الجيش الثامن إلى قيادته ، أما جيش الدبّابات الأوّل ، بدل أن يشقّ لنفسه طريقاً نحو الجنوب ، كما طلب ذلك «هوبي» ، فسيتّجه نحو الغرب بغية الالتحام بجيش الدبّابات الرابع والحؤول دون التدفّق السوفياتيّ على السهل المجريّ . احتُلّت «المجر» زيادة في التحفّظ ، وفرض «هتلر» على الوصيّ «هورثي» رئيس وزارة محبّذاً للهتلريّة هو «ستوجاي» السفير السابق في «برلين» ، الذي حاول تغطية البلاد المهدّدة .

إتّجه جيب جيش الدبّابات الأوّل بصعوبة نحو الغرب ، سائراً على خطّ موازٍ «للدنييستر» . كانت انهيارات الثلوج الغزيرة المتأخّرة تكسو



قنّاصان ألمانيّان خرجا من «نيكوبول» سالمين ، ولكن مرهقين .

السهل بطبقة رخوة تذوب فتغذّي بذوبانها بحر الوحل ، وكان اجتياز الأودية المحرّجة الوعرة ، كوادي «سيريث» ، يشكّل عقبات هائلة ويفرض معارك ضارية . هذا ، والطيران الروسيّ يمطر الألمان منشورات كهذه تقول : «أنتم مطوّقون تماماً ، ليس لتمديد مقاومتكم أيّ معنى . أترك لكم فرصة للاستسلام تنتهي في ٢ نيسان ، ومتى مرّ هذا التاريخ رُمي بالرصاص أسير من أصل ثلاثة . الإمضاء : «جوكوف» ، مارشال «الاتّحاد السوفياتيّ» . ألواقع أنّ حلقة الحصار كانت ما تزال ضعيفة . وأنّ القوّات التي تؤلّفها كانت عرضة لهجوم يشنّه في ظهرها الفيلق المصفّح الصاعق الثاني ، السائر لنجدة الجيش الأوّل . جرى الاتّصال في ٦ نيسان في «بوكزيكز» على «الستريبا» ، فاستُدعي الجنرال «هوبي» إلى «برشتسغادن» ليقلّد وسام الفارس ذا أوراق السنديان المرصّعة ، ولكنّ الطائرة التي أعادته إلى جيشه تحطّمت وقضت عليه .

قبل ذلك بأيّام ، أي في ٣٠ آذار ، أوقظ المارشال «فون مانشتاين» من رقاده ، وأعلم بأنّ طائرة «هتلر» الشخصيّة قد وصلت إلى «ليمبرغ» لتقلّه إلى «برشتسغادن» . وكان المارشال «فون كلايست» قد نُقل في اليوم السابق في الشروط المفاجئة عينها . فأعلن «هتلر» للمارشالين أنّهما لم يبقيا صالحين لشكل الحرب السائد بعد اليوم على الجبهة الشرقيّة ، فقد انصرم عهد المناورين ، وأمست الفضيلة العسكريّة الرئيسة إرادة في الصمود لا تعرف اللين والتساهل ، تغذّيها عزيمة لا تعرف الشفقة . ولذا فقد عمد «هتلر» إلى أن يستبدل بالارستوقراطيّين اثنين من أبناء الشعب : «مودل» الذي يتسلّم قيادة مجموعة جيوش الجنوب ، وقد دُعيت من جديد مجموعة «شمال أوكرانيا» ، و«فرديناند شورنر» الذي تسلّم قيادة مجموعة الجيوش «أ» ، التي غدت تُعرف بمجموعة «جنوب أوكرانيا» . وقبل ذلك بقليل كان نبيل آخر ، هو المارشال «فون كلوغي» ، وقد جُرح في حادث سيّارة ، قد استُبدل به على رأس مجموعة الوسط نازيّ آخر هو «إرنست بوخ» .



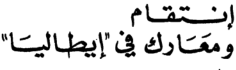
ما دامت جيوب الجنديّ الألمانيّ قد حشيت قنابل ونحوها ، لم يبق له إلاّ أن يحمل زاده من الخبز والشاي بهذه الطريقة .

في ٢ نيسان تناول الفوهرر القلم ليقرّر النتيجة التالية التي سجّلها في مذكّرته رقم ٧ : «لقد أدرك الزحف الروسيّ نهايته ، وأنهك الروسيّ قواه . فحان وقت إيقافه بشكل نهائيّ» . كان خطّ هذا التوقّف النهائيّ ، الممتدّ من مستنقعات «البريبت» إلى البحر الأسود ، يرتسم على النهج التالي : «كوفيل — برودي — تارنوبول — أسفل «الكربات» بين «كولوميا» و «ترغول — نيمبت — جاسي — كيشينيف» . ستتحرّك الجبهة إلى الأمام وراء هذه المدينة الأخيرة ، فتسير بمحاذاة النهر الساحليّ «تيليغوث» ، بغية تغطية «أوديسا» ، مرفأ تموين الجيش السابع عشر المحاصر في «القرم».

الجنود الألمان المحاصَرون في «تشيركاسي» يتلقّون المدد من طعام وعتاد .

بعد «مانشتاين» و «كلايست» ، وحتى بعد «مودل» ، طلب «أنطونيسكو» الجلاء عن شبه الجزيرة ، حيث تشترك في القتال ٧ فرق رومانيّة هي الآن ضروريّة لحماية أرض الوطن ، فرفض «هتلر» ، زاعماً أنّه لا يليق به أن ينفح العدوّ هبات مجانيّة في الوقت الذي توقّف فيه وكاد النزف يتلفه .

إنّها ، لعمري ، لرؤيا جديرة برؤى الأنبياء ! فما مضت ستة أيّام ، وحلّ الثامن من نيسان ، حتى شُنّت على خطوط «بيريكوف» حملة روسيّة شعواء ... لقد حان دور «القرم» !.



أثيرت قضيّة «تشيانو» . فصهر الدوتشي ما زال تحت حراسة ألمانيّة في سجن «فيروني» . وقد ألحقت به امرأة اسمها السيّدة «بيتز» ، وهي عميلة من عميلات الغستابو . فكانت تلعب دوراً مزدوجاً . ولقد قال «تشيانو» لقاضي التحقيق الإيطاليّ : «إنّها تلتصق بي كطابع بريديّ على غلاف رسالة ! بيد أنّي أعرف مبتغى الألمان: إنّهم يرغبون في الحصول على مذكّراتي . وهم لن يحصلوا عليها أبداً» . ومن ناحية أخرى كانت السيّدة «بيتز» قد تعلّقت بالسجين في الوقت الذي كانت تمارس فيه مهمّتها كجاسوسة . فراحت تحاول إنقاذ حياته .

وقع خمسة من أعضاء المجلس الأعلى الذي صوّت في ٢٥ تموز ضدّ «موسوليني» في أيدي الفاشيّين الجدد ، فباتوا يشاطرون «تشيانو» مصيره ، وهم : المارشال «دي بونو» ، والوزيران السابقان «باريسكي» و«تشيانيتي» ، ورئيس اتّحاد العمل «غوتاردي» ، وأخيراً «مارينيلي» . وفي مؤتمر الفاشيّين الجدد ، المنعقد في «فيروني» لبضعة أسابيع خلت ، كان بعض الأصوات العنيفة قد طالب برؤوسهم . وحاولت «الكونتيسة تشيانو» أن تأتي لتتشفع لهم لدى والدها ؛ ولكنّ الألمان أغلقوا الباب في وجهها . وقد أعلن «موسوليني» عن عجزه . وقد اختارت حكومة «سالو» القضاة التسعة من بين المجاهدين الفاشيّين ذوي الخبرة الطويلة ، فبدأت المحاكمة في «كاستيلفيكيو» في ٨ كانون الثاني . كان برد قارس يعذّب المتّهمين ، وكان المارشال «دي بونو» ، البالغ من العمر ٧٦ عاماً ، قد استُقدم من المستشفى ، فيما سيق الآخرون من سجن «سكالتري» . كان لهم محامون ؛ إلاّ أنّه لم يكن يحقّ لهم استدعاء الشهود .

إنتهت المحاكمة في غضون ٤٨ ساعة . وقد حاول المتّهمون أن يثبتوا أنّ اقتراع ٢٥ تموز لم يكن في رأيهم وسيلة للقضاء على «الدوتشي» . وحافظ «تشيانو» و «دي بونو» على كرامتهما . ولكنّ «مارينيلي» ، راح يبكي ويتوسّل قائلاً إنّه كان ضحيّة صممه وغباوته . وفي غرفة التداول كانت المحكمة قد بدأت تميل إلى الرأفة حين روّع القاضي «فيتزاليني» القضاة

الآخرين بتدخّله العنيف . فأُعيد سحب الظروف المخفّفة التي كانت قد تقرّرت للمارشال الهرم : ولم ينجُ من العقاب غير «تشيانيني» وحده . وكتبت «إدّا تشيانو» إلى «موسوليني» ، وكتبت كذلك إلى «هتلر» مهدّدة بإفشاء أسرار رهيبة ، عارضة مذكّرات زوجها مقابل حياته ، إلاّ أنّ عباراتها المؤثّرة لم تجد نفعاً . حتّى إنّ التماس العفو الذي وقّعه المحكوم عليهم بالإعدام لم يُنقَل إلى «موسوليني» ، وذلك بسبب تدخّل «بافوليني» الذي قال إنّه من القسوة والوحشيّة أن يُطلب من رجل أن يثبّت شرعاً حكمَ الإعدام بحقّ والد أحفاده . وقد أعدم «تشيانو» و «دي بونو» و «باريسكي» و «غوتاردي» و «مارينيلي» رمياً بالرصاص من الخلف ، على يد جنود لا كفاءة لهم ، حتّى إنّه كان عليهم أن يطلقوا الرصاص مجدّداً للإجهاز على الضحايا المولولين ! وفي الوقت نفسه كانت «إدّا» تنتقل إلى «سويسرا» حيث أصبحت المذكّرات في مأمن ، وفيها ما يدين زوجها و «موسوليني» و «ريبنتروب» على السواء .

إنّ هذه الكارثة الأهليّة والسياسيّة هي الصفحة الوحيدة التي تجدر الإشارة إليها في نظام لم يستطع الخروج من العدم . وأمّا «موسوليني» فقد بالغ في التنحّي لدرجة أنّه لم يحضر مؤتمر «فيروني» . وتكاثرت جماعات الأنصار ، وكذلك اغتيالات أعيان الفاشيّة الجديدة . ولكن ، في الإجمال ، كانت المقاومة التي جابهت حكومة «سالو» وأسيادها الألمان ضعيفة نوعاً .

وقد قام الشيوعيّون بتحريك الإضراب في مصانع «فيات» ، إلاّ أنّه قُمع بسهولة ، مع أنّه لم يكن هنالك في «تورينو» حيث نشب غير مئتي ألمانيّ . ففي الشمال الذي كان في أيدي الألمان ، كما في الجنوب الذي احتلّه الحلفاء ، كانت كتلة الشعب الإيطاليّ لا تحلم إلاّ بالسلم . ولم يتوصّل أيّ من المارشالين الخصمين «غرازياني» و «بادوليو» إلى إنشاء ما يشبه الجيش لا من قريب ولا من بعيد . وراحت «روما» تتخبّط في النزاع ، ولم يتمكّن غير حفنة جنود إيطاليّين من تقرير مصيرها .

إنّ ساحة القتال لشهيرة هي . فطريق الساحل ، التي أُطلق عليها اسم الطريق رقم ٧ ، هي طريق «آبيا» . وأمّا طريق الداخل ، وهي التي حملت الرقم ٦ ، فهي طريق «لاتينا» أو «كاسيلينا» . ومن الناحية العسكريّة لم تكن أيّة طريق من الطريقين ميسورة ؛ فطريق الساحل تجتاز ممرّات عديدة وتعبر سهولاً قابلة للفيضانات . وأمّا طريق الداخل فهي تقطع «الفولتورنو» في «كابو» و «الرابيدو» في «كاسينو» ، مجتازة ، على طول المدى ، أرضاً بالغة الخشونة . وما وراء «كاسينو» ينفتح رواق «روما» و «الوادي اللاتينيّ» ، أو وادي «الليري» ، الذي يشرف على أمّ الأديرة البنديكتيّة الرائعة في بنائها القائم فوق قلعة جبيل «كاسينو» الطبيعيّة .

وبعد انتصار «ساليرنو» ، والاستيلاء على «نابولي» ، جُهّزت العدّة لغزو «روما» في النصف الثاني من شهر تشرين الأوّل . ولكنّ



فرقة المشاة الثانية تبحر من «وهران» في طريقها إلى ساحات الوغى في «إيطاليا» .

الأوهام زالت سريعاً ؛ فالنعومة الإيطاليّة لم تكن غير قناع . والبلد في طبيعته الحقيقيّة ليس إلاّ جبلاً متّصلاً مفتقراً إلى الطرقات يتزل عليه الخريف المبكر سيولاً من الأمطار عرمة ، ثمّ يحلّ الشتاء من بعده فيواريه تحت ثلوجه . وأمّا الجيش الأميركيّ فهو كثير الثقل يتلاءم مع الطبيعة المتوسّطيّة : طرقات مقطوعة ، وحدات غائصة ، تموين معرقل ، الخ . ثمّ إنّ العدوّ لم يكن يطلق ساقيه للريح كما توطّد الوهم بعد سقوط «نابولي» . بل كان يخوض قتالاً عنيفاً مؤخّراً ، بغية كسب الوقت لبناء حاجز قويّ .

وأمّا المخطّط الذي انتقاه «كيسلرنغ» لهذا الحاجز ، فأصله مصبّ «الغاريليانو» ، على خليج «غاييتي» ، ونهايته على «الأدرياتيك» ، على مصبّ «السانغرو» ، ومن الضفّة إلى الأخرى كان الموقع (موقع غوستاف) ملاصقاً لجبال يبلغ علوّها ١،٥٥٩ و ١،٦٦٩ و ٢،٠٧٠ و ٢،٢٥٢ متراً ، توفّر رؤية حسنة ، وتسهيلات للرماية على شواطىء «الغاريليانو» و «الرابيدو» و «السانغرو» الجنوبيّة الأكثر انخفاضاً . وكانت منظّمة «تودت» تدير الأعمال ، وكانت كتائب العمّال التي جنّدتها الحكومة الفاشيّة الجديدة تزوّد هذا العمل باليد العاملة . وقد استُخدمت كافّة موارد التحصين شبه الدائم ، وخصوصاً لإقامة سدّ منيع أمام مدخل وادي «الليري» في «كاسينو» .

وفيما راح العمّال الإيطاليّون يشيّدون «خطّ غوستاف» . كان المقاتلون الألمان يفرضون على مداخله أثماناً باهظة ؛ فاحتلال المواقع المتقدّمة . وهي خطّ الشتاء ، قد فرض على الجيش الخامس الأميركيّ ، وعلى الجيش البريطانيّ الثامن ، قتالاً طويلاً بطيء التقدّم . ومن ١٥ تشرين الثاني إلى ١٥ كانون الثاني لم تتعدّ الأرض التي احتلّها الأميركيّون الـ ١٥ كلم . وأمّا الانكليز فكانوا أكثر بطءاً من ذلك . وكان رؤساؤهم يبدون تعبّساً حيال ثمن الدماء المبذول . وشرحوا للجنرالات الأميركيّين أنّ «بريطانيا العظمى» قد استهلكت طاقتها البشريّة ، وأنّهم كانوا يحاولون الحدّ من الخسائر . لا لأنّ الاستبدال قد غدا صعباً فحسب ، بل كذلك لأنّه كان عليهم أن يفكّروا بمستقبل بلدهم الاقتصاديّ والإحصائيّ .

كان الأخصام متساوين بالنسبة للوحدات الكبرى . وعلى الرغم من أنّ المارشال «كيسلرنغ» قد جمع تحت إمرته في ذلك الوقت مجمل القوّات الألمانيّة في «إيطاليا» ، أي المجموعة «ج» ، فإنّه لم يتمكّن من التصرّف بحريّة بالجيش الرابع عشر ، إذ أنّ «هتلر» كان ما يزال متخوّفاً من نزول في خليج «جنوا» . فالجيش العاشر كان يقوم بالقتال بمفرده . بإمرة «فون فيتنغوف» ، وقد أصبح يضمّ ١٢ فرقة بعدما أُمدّ بثلاث فرق ، منها الفرقة الجبليّة الخامسة القادمة من الأصقاع الفنلنديّة . ولكنّ الفرق الألمانيّة قد تدنّت إلى ستّ كتائب للمشاة ، أو حتّى إلى أربع . لا تتعدّى عدّتها الـ ٤٠٠ رجل . وقد قدّر «كيسلرنغ» تفوّق العدوّ بنسبة ١٣ إلى ١ من ناحية العدد ، وبـ ١٠ إلى ١ بالنسبة لقوّة النيران .

ومن الجهة الحليفة كان الجيش الثامن يعدّ ٤ فرق بريطانيّة وفرقة كنديّة . وكان الجيش الخامس مؤلّفاً من ٤ فرق أميركيّة و٣ فرق انكليزيّة . وكان الجيشان مجتمعَين في مجموعة الجيوش ١٥ وبإمرة السير «هارولد ألكسندر» ، الذي كان خاضعاً للقائد الانكليزيّ الأعلى في الشرق الأوسط السير «هنري ميتلاند ولسون» الملقّب بـ «جامبو» . وأمّا «ايزنهاور» ، الذي عُيّن لعمليّة غزو «أوروبا» الغربيّة ، فقد غادر المتوسّط . وكان «مونتغومري» ، الذي عُيّن مساعداً له ، على وشك اللحاق به .

في أواسط تشرين الثاني نزلت في «نابولي» مقدّمة دعم قويّة مؤلّفة من فرقة المشاة المغربيّة الثانية . وفي «تونس» كان الجيش الفرنسيّ قد قاتل في نطاق نظام أيّام الهدنة بعتاده البالي الناقص ، وها هو يعود إلى الظهور في «إيطاليا» بالحلّة الجديدة التي أغدقها عليه الحلفاء .

ألجيش الفرنسيّ يعاني ولادة جديدة عسيرة

أتى هذا الظهور الجديد ثمرة متأخّرة لاتّفاقات «أنفة» التي جرى التوقيع عليها لسنتين خلتا بين الجنرال «جيرو» وحكومة «الولايات المتّحدة». وقد رمت إلى تشكيل جيش من ٣ فرق مصفّحة . و٨ من فرق المشاة الآليّة . كما رمت إلى تشكيل سلاح للطيران يشمل ٥٠٠ مطاردة . و ٣٠٠ قاذفة قنابل . و ٢٠٠ طائرة من طائرات النقل. إلخ. أمّا عدد أفراد هذا الجيش العتيد فكان بمنزلة ٤٠٠،٠٠٠ رجل . على أمل أن تبلغ نسبة الرجال أوروبيّاً واحداً مقابل اثنين من أهل «أفريقيا الشماليّة» .

ألحّ «جيرو» في تنفيذ هذا البرنامج بعزيمة ماضية عمياء . وقد اتّخذ لنفسه الشعار التالي : «هدفنا واحد هو النصر» . وجعل مثله الأعلى واحداً فرداً . وهو العودة إلى القتال . ولكنّه تجاوز اتّفاقات «أنفة» بتشكيل وحدات نخبة . كفيلق «أفريقيا» الحرّ . وكتيبة الصدام ، وخصوصاً المشاة المغاربة الذين كانوا يعادلون فرقة قويّة . ولكنّ الخلافات الفرنسيّة الجافية أخّرت انبعاث «فرنسا» العسكريّ وعرقلته .

إنتهت ازدواجيّة «فرنسا» الخارجيّة مبدئيّاً في ٣ حزيران ١٩٤٣ ؛ ذاك أنّ الجنرال «ديغول». الذي وصل إلى مدينة «الجزائر» لأربعة أيّام خلت . قد اقتسم مع الجنرال «جيرو» رئاسة لجنة التحرير القوميّ. والواقع أنّ ما جرى . حتى على الصعيد العسكريّ . كان تلاصقاً لا انصهاراً ؛ فهناك جيشان فرنسيّان متنازعان . متقاربان تحت أنظار الأميركيّين المتعبين المتبرّمين . يعتمر أحدهما أكاليل غار «بير حكيم»، ويزهو بالاختيار البطوليّ الذي عمد إليه يوم بدا كلّ شيء ضائعاً مفقوداً . أمّا الآخر . وقد ولده جيش الهدنة واتّسم بطابع العهد الذي قطعه للمارشال «بيتان»، فمفعم بالضغينة التي خلّفتها مآسي «المرسى الكبير» و «دكار» و «عكّا». كان جيش «ديغول». وهو أقلّ الجيشين عدداً ، أكثرهما تهجّماً واستفزازاً؛ فقد انصرف إلى حملة تشنيع داعياً إلى الإزراء بالضبّاط الذين كانوا جنود«فيشي»،وما لبثت الخصومة أن انتقلت إلى «نيويورك» حيث فقدت البارجة ««ريشوليو». المرسلة للترميم في أحواض«بروكلين»: ١٢٠ رجلاً من رجالها غرّر بهم عملاء ديغوليّون، فألحقوهم بأسطول «فرنسا» الحرّة . وأخيراً قرّر صهر الجيشين الفرنسيّين في ٢٢ حزيران . إلاّ أنّ نتيجة ذاك الصهر لن تظهر إلاّ رويداً رويداً .

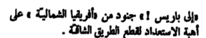
تتبّع «روزفلت» مراحل النزاع الفرنسيّ بسخط شديد . ونبّه «تشرتشل» إلى أنّه«لن يسمح«لديغول»لا شخصيّاً. ولا بواسطة مناصريه. بأن يفرض سلطته على الجيش الفرنسيّ». ثمّ دعا «جيرو» إلى «أميركا» واستقبله استقبال الملوك . «فديغول». في نظره. يسعى بهمّة لا تعرف التواني . إلى أن يصبح السيّد الأوحد . فإذا هو في رأيه طيف طاغية جديد يبرز على لوحة المستقبل . في قارّة أوروبيّة لم تتخلّص بعد من طغاتها القدماء . لذا فكّر الرئيس غير مرّة بوضع حدّ نهائيّ لتسليح الفرنسيّين . اعتقاداً منه بأنّ بعض الفرق الإضافيّة في نظام الميدان الحليف لا يساوي إقامة جيش تهيمن عليه سلطة دكتاتوريّة لا تزال في طور الحمل .

طرأ. والحالة هذه. حادث خطير وتافه معاً دفع بعجلة التطوّرات الجارية، ألا وهو تحرير «كورسيكا». فقد أصدر «هتلر» أمره بالجلاء عن الجزيرة في ١٢ أيلول . نتيجة للاستسلام الإيطاليّ . فانكفأت حامية «كورسيكا». وقوامها الفرقة الآليّة المصفّحة ٩٠ المنسحبة من «سردينيا». واللواء الصاعق «رايخفوهرر». إلى «باستيا»: مرفإ الإقلاع نحو جزيرة «إلبا» والقارّة . راحت فرق المقاومة . على اعتبار أنّها في بيتها في «كورسيكا» ، تشبع الأرتال الألمانيّة تحرّشاً ومناوشة ، وتطلب العون والنجدة . فأعلن الأميركيّون والانكليز ، المنصرفون كلّ الانصراف إلى النزول في «ساليرنو»، أنّهم عاجزون عن التدخّل ؛ إلاّ أنّ «جيرو» ، الذي كان يدبّر منذ زمن بعيد نزولاً في «كورسيكا»، دفع عجلة الأحداث بقوّاته الخاصّة . ففي الساعة الواحدة من صباح ١٣ أيلول أنزلت الغوّاصة «كازابيانكا» ، الهاربة من «تولون»، على رصيف «أجاكسيو» الذي تمّ تحريره ، ١٠٠ رجل من كتيبة الصدام ، كطليعة لحملة صغيرة تضمّ ١٥،٠٠٠ رجل ، أتى بهم في الأيّام التالية الطرّادان «مونكالم» و «جان دارك»، والمدمّرتان «فانتاسك» و «تريبل». سبق هذا التدخّل نشاطٌ خفيّ اشتبكت حباله بالمنازعات السياسيّة الكورسيكيّة، وتبادلت فيه الأجهزة الديغوليّة والجيروديّة بوادر التجاهل والمضايقة . أمّا «ديغول» ، وقد وُضع أمام أمر الحملة الواقع ، فقد أعرب عن «استيائه وامتعاضه»، ونبّه إلى أنّه سيستخلص من ذلك «النتائج الواجبة».

جرت الأمور في «كورسيكا» بشكل لائق ؛ فحضر «جيرو» إليها شخصيّاً، ورتّب نظاماً للتعاون الفرنسيّ الإيطاليّ ، بين الجنرال «مارتان» قائد الحملة ، والجنرال الإيطاليّ «موغلي»؛ فاضطرّ الألمان إلى القتال حول «باستيا» لتغطية إبحارهم . وفي ٤ تشرين الأوّل دخل الخيّالة الأفريقيّون الشماليّون المدينة بعد رحيل آخر جنديّ ألمانيّ بأربع ساعات . بلغت الخسائر التي تكبّدها الفرنسيّون، من أجل تحرير أوّل محافظة من البلد الأمّ، ٧٢ قتيلاً و ٢٧٠ جريحاً . وسيعرب «هتلر» في تقرير قيادة الجيش العليا ، للجنرال «فريدولين فون سنجر أوند اترلين»، عن «أسمى تقديره» للطريقة البارعة التي نُظّم فيها الجلاء . والواقع أنّ البحريّة والطيران الحليفين قد أفسحا مجال عبور ذراع البحر مجّاناً لـ ٣٠،٠٠٠ رجل قد اصطحبوا القسم الأكبر من عتادهم .

وسرعان ما استُخلصت تلك «النتائج» التي أعلن عنها «ديغول» ؛ فمنذ مطلع تشرين الأوّل عمدت لجنة التحرير القوميّ ، التي أعيد تنظيمها ، إلى إبعاد «جيرو» عن الرئاسة المزدوجة ، فلم يُبد «جيرو» ممانعة، وقد عقد النيّة على الاكتفاء بالمهامّ العسكريّة التي تُركت له ؛ فتمّت بذلك الخطوةُ الحاسمة التي ستُفضي إلى سقوطه .

كان برنامج «أنفة» في تلك الأثناء يخوض أزمة بعد أزمة . فمن جهة أعرب الفرنسيّون عن أنّ التنظيم الأميركيّ المترف الطامي يغرقهم، فإذا هم ذاهلون مصعوقون أمام أجهزة تضمّنت حتى مصابغ خاصّة بالميدان ، فغدت موضوع تفكهة وسخرية ! ولام الأميركيّون الفرنسيّين من جهة أخرى لكونهم قد طلبوا من الفرق أكثر ممّا كانوا يستطيعون ملأه، من حيث الطاقة البشريّة التي يملكونها عدداً ونوعاً . هذا والنزاعات الفرنسيّة تتجدّد لدى كلّ خطوة . وكانت إعادة تجهيز الفرقة الفرنسيّة الحرّة


«إلى باريس !» جنود من «أفريقيا الشماليّة» على أهبة الاستعداد لقطع الطريق الشاقّة .





مدافع من عيار ١٥٠ مم تابعة للكتيبة ١٩١ تقذف حممها في «أنزيو».

الأولى سبباً لنشوب النزاع الأوّل بين «جيرو» واللجنة ، ووفّر «بلجيرو» فرصةً سبر فيها بُطلان لقب «القائد الأعلى» الذي سوف يجرّد منه عمّا قليل.

أتى تشرين الثاني ولمّا يتمّ إنشاء فرقة واحدة من الفرق المصفّحة التي ذكرها مشروع «أنفة»، وبقيت عدّة فرق أخرى في عالم الغيب ، لافتقارها إلى الأجهزة المناسبة . أمّا الفرقتان الوحيدتان الجاهزتان فهما فرقة المشاة المراكشيّة الثانية ، وفرقة المشاة الجزائريّة الثالثة ؛ فبعد ما جُمعتا تحت قيادة الجنرال «جوان»، وساندهما فريق من رجال المشاة المغاربة ، أرسلتا إلى «إيطاليا» ووُضعتا إلى يمين الجيش الخامس في قلب الجزمة الإيطاليّة في «الأبروز»، وهي أشدّ مناطق الجبهة وعورة .

إخفاق في "أنزيو" ، وانتصار في "كاسينو"

في الوقت الذي برز فيه الجيش الفرنسيّ على المسرح الإيطاليّ ، أنجز الأميركيّون والانكليز بعناء شديد احتلال الخطّ الشتويّ . فقد عمل الفيلق البريطانيّ العاشر ، والفيلق الأميركيّ الثاني ،طوال عشرة أيّام ، وتحت وابل من الأمطار ، للاستيلاء على «كامينو»، وهو تلّة تعلو ٩٠٠ م عن سطح البحر وتشرف على «غاريليانو». وكذلك تطلّب احتلال جبل «سمّوكرو» (١٠٠٢٥م) وقرية «سان بييترو»، قتالاً دام عشرة أيّام . وآلاف الأطنان من القنابل . وفي نقطة أبعد إلى الشرق خاضت الفرقة الأميركيّة ٤٥، ثمّ الفيلق الفرنسيّ ، غمار معارك ضارية على الطريقين المتعرّجين اللذين يقودان إلى وادي «الرابيدو» الأعلى ، مروراً بأصل الجبلين «مايو» (١٠٢٥٩م) و «ماري» (٢٠٠٢١م).وفي ١٥ كانون الثاني ، وبعد تقدّم سريع قام به المراكشيّون في الميمنة ، وبعدما استولى الأميركيّون على جبل «تروكيو»،تمّ الوصول إلى خطّ «غوستاف». وهكذا أنجزت مقدمّات المسيرة إلى «روما» بعد شهور ثلاثة من التاريخ المعيّن لإتمامها . كانت تلك إماتة مؤلمة بالنسبة «لتشرتشل» الذي أوهمته مخيّلته أنّ قلب المحور في المتوسط «بطن رخو»، فإذا البطن صلب من حديد !

إذ ذاك انتقل الأمل إلى العمليّة البرمائيّة التي كان من شأنها أن تختصر الطريق المريعة ، أي إلى النزول في «أنزيو—نتّونو»، الذي كان قد قرّر في مدينة «تونس» بتاريخ ٢٥ كانون الأوّل . وأثبت في «مراكش» بتاريخ٨ كانون الثاني. كان في الأصل قد اعتُبر حركة ثانويّة. ترافق المرحلة الثانية من المسيرة على «روما»؛ فعاد التفكير به على أنّه الوسيلة الفضلى لإسقاط خطّ «غوستاف» العاتي بتجاوزه. كان النزول إلى البرّ يرمي إلى الوصول إلى «الجبال الألبيّة» التي يوفّر احتلالها قطع الطريقين ٦ و ٧ ، وهما وريدا الجيش الألمانيّ العاشر .

أعيد تنظيم المخطّطات ، وعُمد إلى توسيعها . وقد انتقل عدد

في ليل ٢٢ كانون الثاني نزل الجيش الخامس في «أنزيو». وتبدو في الصورة مصفّحات برمائيّة .



المشتركين من ٢٤٠٠٠ إلى ١١٠٠٠٠. وبدلاً من فرقة واحدة . سوف ينزل الفيلق السادس بكامله على شاطىء «أنزيو» وفي مرفإ صيد «نتّونو»، وهو مؤلّف من الفرقة البريطانيّة الأولى ومن الفرقة الأميركيّة الثالثة . كانت طبيعة الأرض موّاتية ؛ فهنالك سهل شاسع يسير العبور ، يرتفع بصورة منتظمة حتى منحدرات الجبال الألبيّة المعتدلة . وأمّا قنال «موسوليني»، وهو مصرف المياه الرئيس للمستنقعات البونتيّة السابقة ، فقد وفّر حفرة مضادّة للدبّابات عريضة تحمي ميمنة النزول . وأمّا المعلومات فقد أبلغت أنّ العدوّ كان يملك ٣ فرق في منطقة «روما» ، وبقايا الجيش ١٤ في اتّجاه «ليفورنو». فضلاً عن أنّ القيادة الألمانيّة كانت قادرة على استدعاء جزء من قوّاتها التي كانت تحتلّ جنوبيّ «فرنسا» و«البلقان». ولكنّ الطيران كان مقتنعاً بمقدرته على الحؤول دون وصول هذه الأمداد إلى ساحة القتال بإتلافه شبكات المواصلات بعنف .

وبدأ إعداد النزول في ١٧ كانون الثاني بسلسلة من الهجمات تهدف إلى الإطباق على قوّات خطّ «غوستاف» الألمانيّة ، فاجتاز الفيلق البريطانيّ العاشر «غاريليانو». وبعد ما تلقّى هجوماً معاكساً حامي الوطيس تمكّن من الاحتفاظ بجزء من رأس الجسر الذي احتلّه عند أقدام جبل «فايتو» وأمام قرية «كاستلفورتي». وبعد ثلاثة أيّام، وفي غمرة الضباب الكثيف . عبرت فرقة من «تكساس»، وهي الفرقة الأميركيّة ٣٦: «الرابيدو» في منحدر «كاسينو»، ولكنّ كان عليها أن تعود إلى اجتيازه رجوعاً بعد ٣٦ ساعة مخلّفة على الضفّة العدوّة ٨٧٥ أسيراً . وشماليّ «كاسينو» كان مصير الفرقة الأميركيّة ٣٤ أسعد بقليل من مصير رفيقتها: فبعد ما اجتازت «الرابيدو» هي الأخرى تمكّنت من البقاء من غير حاجة إلى العودة عن طريقه . إلاّ أنّ انشقاق السدود قد غمر الوادي بالمياه . ممّا جعل تقدّم الأميركيّين صعباً ؛ فاستولوا على ثكنات «كاسينو» ولكنّهم عجزوا عن الاستيلاء على المدينة نفسها . وأمّا الفرنسيّون فقد سجّلوا نتائج أكثر أهميّة . بفضل جنودهم الذين كانوا أفضل تدريباً من غيرهم على القتال الجبليّ . واستولى فوج المناوشين التونسيّين الرابع على «البيلفيدير» «والأباتي» بصورة رائعة ، واستعاد الألمان الثاني ، واحتفظ التونسيّون بالأوّل . ولكنّ «جوان» لم يكن حاصلاً على القوّات اللازمة لأخذ «سيفالكو» الذي كان مهيمناً على جانبه الأيمن بكتلته الجبّارة المحكمة الحماية . هذا فضلاً عن أنّ «كلارك» لم يكترث لاقتراحه القاضي بالسير على «أتينا» بغية الإمعان في خرق خطّ «غوستاف»؛ فأكبّ بعناد على حاجز «كاسينو» المنيع . وهو مقتنع بأنّ الدخول إلى وادي «الليري» يفتح أمامه طريق «روما» .

كانت خسائر الجيش الخامس فادحة في الوقت الذي لم تلحق بخطّ «غوستاف» إلاّ أضرار طفيفة . ولكن ، من ناحية أخرى ، جاءت أخبار غير مرتقبة تشدّ العزائم: لقد لقي نزول «أنزيو— نتّونو» نجاحاً من غير نزاع . وكانت مناورة إعداديّة قد تحوّلت إلى فوضى لأيّام خلت ، وأدّت إلى خسارة كميّة من العتاد أنذرت بوقوع كارثة ، فإذا بالواقع أقلّ ثمناً من الخيال .

كان ليل ٢٢ كانون الثاني حالك السواد . وطئت موجات الهجوم الشاطىء بدقّة حسابيّة ، فوقعت المفاجأة على الألمان وقوع الصاعقة . وأوّل جنود وقعوا في الأسر كانوا أربعة مدفعيّين في دوريّة في سيّارة للأركان العامة . وقام بعض سريّات المشاة المرتاحة بمباشرة المقاومة تساندها المدافع الإيطاليّة أو الفرنسيّة القديمة ، ولكنّ المقاومة سُحقت من غير توان . فاستُولي على مرفإ «نتّونو» من غير أن يمسّه سوء ، ومنذ اليوم الأوّل تمّ إنزال ٣٦،٤٠٠ رجل و ٣،٠٦٧ سيّارة ؛ وسارع الجنرال «كلارك» والجنرال «ألكسندر» والجنرال «دونوفان» في أحد القوارب فلحقوا في مستهلّ النهار بالجنرال «جون ب. لوكاس» قائد الفيلق السادس للتمتّع بالمشهد . وعند الظهر كان الجند قد بلغوا الدائرة المرسومة لآخر النهار . وهبط على «روما» مليونا منشور تعلن عن مقدم الحلفاء .

وعادت الطمأنينة إلى الألمان منذ اليوم التالي؛ فيوميّات القيادة الحربيّة العليا قد لاحظت أنّ العدوّ كان «هادئاً على رأس الجسر»، بدلاً من أن ينقضّ على الطرقات وعلى سكّة الحديد التي تنقل المدد إلى المدافعين عن «كاسينو» . وأمر «هتلر» الجيش العاشر بالبقاء على خطّ «غوستاف»، والجيش الرابع عشر بإزالة ثؤلول «أنزيو» . وأمّا الإعدادات الرامية إلى



إحدى الدوريّات الأميركيّة تهاجم بمدافع البازوكا موقعاً ألمانياً قرب «أنزيو».



نزول فرقة المشاة المغربيّة الثانية في «نابولي» وسط الثلج والهواء الجليديّ والأنقاض .

النزول في منطقة «روما» فقد دخلت في طور التطبيق ، فسارعت تسع فرق نحو ساحة القتال الجديدة . كان بعضها قادماً من «كارينثي» أو من «بروفانسا»، إلاّ أنّ الطيران الأميركي قد بالغ في تقدير الأضرار التي ألحقت بالطرقات وبالخطوط الحديديّة. فعمليّات النقل كانت تؤخّر في بعض الأحيان ، ولكنّها لم تُقطع أبداً . لقد أفلتت من يد «لوكاس» سانحة ممتازة ، إذ واصل تنظيم رأس جسره من وراء مكتبه . فيما غدت طريق «روما» مُشرّعة . وأمّا «باتون» ، الذي قام بزيارته . فقد نصحه بأن «يقتل نفسه أو على الأقلّ ، أن يصيب نفسه بجروح . لأنّ النقد لا يلحق بجنرال جريح !» وكتب «تشرتشل» يقول إنّه ظنّ



سقوط «كاستيلفورتي» في أيدي الكنديّين .

أنه قد أطلق على شاطئ «أنزيو» قطّاً متوحّشاً لا حوتاً جانحاً ! وقال «ألكسندر» باعتدال إنّ «لوكاس» قد «ترك الفرصة تفوته» . وعلى نقيض ذلك قال «كلارك»، بعد ما استبدل «تراسكوت» «بلوكاس»، إنّ احتلال الجبال الألبيّة ، أو الزحف إلى «روما»، كانا ضربين من ضروب الهوس والجنون . وقد حكم بقساوة على الحملة نفسها ، فقال إنّها باطلة ما لم تكن مزوّدة بالوسائل الملائمة لبلوغ الهدف .

في أوّل شباط كانت عمليّة «أنزيو» قد أخفقت . فالهجمات الباردة التي أطلقت على «سيسترنا» و «كامبوليوني» قد أوقفت بأوّل دفق من القوّات الألمانيّة . وراحت المدفعيّة تقصف رأس الجسر، ومنها خصوصاً قطعتان مركّبتان على سكّة حديديّة جعلتا مرفأ «نتّونو» عديم الاستعمال . تكبّد الفيلق السادس ٦،٤٨٧ قتيلاً وجريحاً ومفقوداً . وعاد فتلقّى مساندة الفرقة المصفّحة الأميركيّة الأولى ، وفرقة المشاة الأميركيّة ٤٥، ثمّ فرقة المشاة الانكليزيّة ٥٦؛ ولكنّ أوامره منذ ذلك الوقت قد غدت تحتّم عليه القيام بأعمال دفاعيّة ، ألا وهي التحصّن للحفاظ على رأس الجسر . فعمقه يبلغ ٧ أميال ، في ١٥ ميلاً عرضاً . وكان ١٥٠،٠٠٠ رجل مكدّسين فيه .

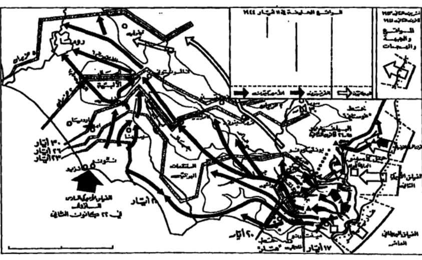
بدأ الهجوم الألمانيّ المعاكس في ٣ شباط . بإدارة قائد الجيش الرابع عشر «إيبرهارد فون ماكنسن». وفي ١٠ انتزع فيلق المظلّيّين الأوّل . والفيلق المصفّح ٧٦ . من الانكليز محطّة «كاروتشيتو» ومركز «أبريليا» الزراعيّ النموذجيّ . وفي ١٦ أنزل «ماكنسن» إلى الميدان قوّاته كافّة . أي ٦١ كتيبة تساندها ٢٧٠ دبّابة منها ٧٥ «تيغر». وراح «هتلر» يتتبّع سير المعركة ساعة ساعة مشيراً مع كلّ تقرير من تقارير القيادة الحربيّة العليا إلى الحاجة العسكريّة والسياسيّة لانتصار كامل . وهجم فوج التدريب من غير أن يسبقه إعداد المدفعيّة . فتمكّن من قطع خطوط الحلفاء من ناحيتَي طريق «ألبانو»، في نقطة التحام الفرقة البريطانيّة الأولى والفرقة الأميركيّة الثالثة . وضحّت كتيبة «لويالز» بنفسها للحؤول دون استغلال العدوّ هذه الثغرة . وفي ١٩ . في الساعة ١٤،٣٠. وجد الجنرال «فيستفال»، وهو رئيس الأركان العامّة لدى المارشال «كيسلرنغ». أن لا مفرّ من إبلاغ القيادة الحربيّة العليا أنّ ضراوة المقاومة . وتفوّق طيران العدوّ . وقصف السفن الحربيّة ؛ لا تسمح بإلقاء العدوّ في البحر . وقد تأجّل الهجوم على هذا الأساس .

استؤنف الهجوم في ٢٩ . ثمّ عاد إلى التوقّف في أوّل أيّار . فأصبح مثلّث «أنزيو — نتّونو» شبيهاً بقطاعات الحرب العالميّة الأولى . بالخنادق التي تعترضه ، والأسلاك الشائكة التي تغطّيه . وعبّر «هتلر» عن خيبته بحدّة ؛ فقد كانت نتيجة مباراة «أنزيو» التعادل . فأفلتت الساحة من أيدي الحلفاء، غير أنّ الألمان لم يحوزوا النصر الذي كانوا يرتجون .

كان القتال مستمرّاً على خطّ «غوستاف» . وبقي «كلارك» على عناده مصرّاً على ضرورة نسف سدّ «كاسينو» لفتح طريق «روما». وقد مكّنه تجميع قوّاته مجدّداً من الحصول على فيلق جديد ؛ هو الفيلق النيوزيلنديّ الثاني ، بقيادة «برنارد فريبرغ» ، وعلى ٣ فرق نيوزيلنديّة وهنديّة وانكليزيّة ؛ فقرّر «كلارك» الإلقاء بهذه القوّات على «كاسينو» في هجوم جبهي .

وقبل أن يحين الموعد المقرّر للهجوم بثلاثة أيّام، وضع «فريبرغ» شرطاً وأثار معضلة: فهو يفرض وجوب قصف جبل «كاسينو» وتدمير الدير .

وأمّا الدير الذي كان قائماً فوق صخرة كبيرة، والذي لم يكن لديه من منفذ غير طريق واحدة صعبة ، فقد بقي مواظباً على الصلاة من غير انقطاع . وبقي الآباء مجتمعين حول رئيسهم الثمانينيّ، الأسقف



تصديع الجبهة الألمانيّة والزحف إلى «روما» .

«غريغوريو دياماري» . وكان الجيش الألماني قد عني بنقل الكنوز التاريخيّة والفنيّة إلى حاضرة «الفاتيكان» . وكان اللاجئون قد صعدوا زرافات إلى ذلك المكان العالي الذي يحيق به عصف الحرب من كلّ صوب . والذي كان . إلى ذلك . معلّقاً فوقها بعيداً عن أذيتها وكأنه المدنة الإلهيّة . ونزولاً عند رغبة السدّة الرسوليّة كان «كيسلرنغ» قد أمر بأن تخطّط حول الدير دائرة محيطها ٣٠٠ متر . تحظّر مجاوزتها على الجنود الألمان . وحتّى أولئك المصابين منهم بجروح . وهنالك رجل واحد قد خرق هذه الأوامر هو الجنرال «فريدولين فون سنجر أوند إيترلين» التقيّ . الذي رغب في حضور قدّاس الميلاد في السرداب الذي يرقد فيه القدّيس «بينوا» . ولقد أثبتت التصريحات الخطيّة التي وضعها كهنة الدير أنّه لم يكن قطّ في حرم الدير لا حاميات ألمانيّة ولا مخازن ألمانيّة في أيّ وقت من الأوقات .

في ذلك الوقت أتت شهادة فريدة ، ولكن ذات قيمة كبيرة ، تثبت عكس ذلك . فقد بلغت الجرأة بالقائد الأعلى في المتوسّط ، السير «هنري ميتلاند ولسون» ، أن حلّق على علوّ ٧٥ متراً فوق جبل «كاسينو» بطائرته الصغيرة ، وقد أكّد أنّه أبصر جسّاسات (أنتينات) تعلو الدير ، وجنوداً من الألمان في ردهاته . وقد طالب «فريبرغ» بقصف الدير استناداً إلى تصريح القائد الكبير .

واستشار «كلارك» قائدّ الطيران «رايدر» ، وقائدّ الفيلق الأميركيّ الثاني «كايس» ، فكان رأي الأوّل أنّ شهادة «ولسون» موضع جدال . وأمّا الثاني فقد أكّد أنّ جنوده لم يتلقّوا البتّة طلقة بندقية واحدة صادرة عن الدير . وبالنتيجة عارض «كلارك» القصف ، ولكنّ «فريبرغ» لم يكن مرؤوساً عادياً ، فهو ، بكونه قائد فيلق الحملة النيوزيلنديّ ، مسؤول أمام حكومته التي كانت تقدر سحب حصّتها متى شاءت . وعلى هذا الأساس كان حازماً في موقفه . وقد أعلم «كلارك» بما يلي : «إذا تمنّعت عن قصف الدير ، فإنّ المسؤوليّة تقع كاملة على عاتقك في حال إخفاق الهجوم ...» وصرّح «كلارك» بأنّه ما كان إلاّ ليصرّ على قراره لو أنّ الأمر يتعلّق بجنرال أميركيّ ، ولكنّه الآن مرغم على إعادة النظر في وضع «فريبرغ» الاستثنائيّ ، ومراجعة «ألكسندر» بشأنه . وقام «ألكسندر» بدوره بمراجعة «ولسون» الذي صرّح ، على ذمّة الاستطلاع الخطير الذي قام به ، بأنّه وجد «الدليل القاطع» على دخول «دير جبل كاسينو» ضمن الموقع الألمانيّ المحصّن . ومهما يكن من أمر فإنّ الحفاظ على الدير لم يكن ليضاهي إسهام «دومينيون» «نيوزيلاندا» في الحرب ، فتقرّر القصف . وقد نُفّذ في ١٥ شباط .

إنّ الذين شهدوا القصف . كالجنرال «جوان» قد شعروا بأنّ هذا العمل أتى تدنيساً للقدسيّات . فلقد برز الدير من خلال سحب الدخان واللهب وكأنّه بركان متأجّج . بعد ما صبّت عليه القلاع الطائرة الـ ١٤٢ بدقّة نادرة ٢٤٧ طنّاً من القنابل . وعلى أثر مرور القاذفات الكبيرة صبّت المدفعيّة الثقيلة نيران قطعها جميعاً . ثمّ قامت موجة جويّة ثانية مؤلّفة من طائرات «ب٢٥-٨٢» و «ب٢٦» بصبّ وابل من قنابل المئة كيلو على جبل «كاسينو» . وعادت القمّة إلى الظهور تغطّيها كتلة من أطلال . ولقد نجا السرداب المحتوي على رفات القدّيس «بينوا» من الدمار . وكذلك البنديكتيّون الذين التجأوا إليه . ولكنّ رئيس الدير الوقور . الذي قصد إلى الوادي على ظهر رجل . فارق الحياة بعد أيّام قليلة . هذا . وقد أصاب الألمان وحدهم فائدةً من جرّاء قصف جبل «كاسينو» : فمن أطلال الدير ، الذي دُكّ في الليلة البارحة . أقاموا قلعة منيعة يشرف على حمايتها الفوج ٣ بقيادة الكولونيل «هايلمان» . وأمّا فرقة المظلّيّين الأولى ، التي كان هذا الفوج أحد عناصرها . وهي بإمرة الجنرال «ريتشارد هايدرخ» . فقد دُعمت بقوّة بمدفعيّة الجيش . وراحت تسيطر على قطاع «كاسينو» بكامله . وكانت هذه الفرقة مشتقّة من فرقة المظلّيّين السابعة التي اشتهرت في ١٩ أيّار ١٩٤٠ فوق منشآت حصن «إبين-إماييل» . ولكنّ «هتلر» بات لا يؤمن بالمظلّيّين بعد «كريت» . ولذا قد كانت هذه الفرقة تقاتل كوحدة مشاة عاديّة . ولكنّ روح الانضباط فيها ، وتعطّشها للمآثر . قد بقيا مخيّمين على أفرادها .

وحتى شهر نيسان كان القتال في سبيل «كاسينو» معركة مصغّرة عن «فردان» يتنازع فيها الخصمان كلّ شبر محصّن ، وكلّ ذيل من أذيال الجدران بصورة عنيفة ضارية . وكان بإمكان الحلفاء أن يبذّروا الذخيرة كما فعلوا في آخر أسبوع من آذار حين أطلقوا خلاله ما لا يقلّ عن ٥٨٨،٠٩٤ قذيفة ، ومع ذلك كان فيلق «فريبرغ» يقوم بجهود دامية وهو منهوك القوى . وقد باءت بالإخفاق الهجمات التي شنّها باتّجاه جبل «كاسينو» . وفي «كاسينو» استولى على نصف المحطّة ، وعلى زاوية من الحيّ الشماليّ ، وعلى تلّة القصر . ولكنّ هذه الانتصارات الضعيفة لم تضعضع موقع الألمان ، فبقي منفذ وادي «الليري» مسدوداً . وبقيت طريق «روما» مقفلة .

وخيّم الهدوء في نهاية نيسان . وكما كانت الحال بالنسبة لجيب «أنزيو» ، لم تبقَ جبهة «رابيدو-غاريليانو» تشهد تحرّشات في المقدّمات . بيد أنّ الألمان لم يكونوا مؤمنين بتوقّف العمليّات لزمن طويل . فراحوا يحاولون الوقوف على نيّات العدوّ .

وهنالك سؤال قد تصدّر مخطّط الاستخبارات الألمانيّ وهو : أين كان فيلق الحملة الفرنسيّ ؟ فهو قد تلقّى فرقتين جديدتين ، الفرقة الآليّة الأولى بقيادة «دييغوبروسي» ، والفرقة الجبلية المغربيّة الرابعة بقيادة «سيفيز» . وكانت مجموعات المشاة المغربيّة الثلاث التي تعادل فرقة خامسة ، فضلاً عن لواء مصفّح ، قد رفعت عدّته إلى ٩٩،٠٠٠ رجل . واعتقد «كيسلرنغ» و «فستفال» رئيس أركانه العامّة أنّ تحديد موضع هذه القوّة المتينة سوف يشير إلى القطاع الرئيس للهجوم . ولكن ، حتى ذلك الوقت ، كانت الفرقة المغربيّة الآليّة الرابعة وحدها قد اتّخذت مواقعها على جبهة بالغة العرض في رأس جسر «غاريليانو» ، وكان يبدو أنّ عناصر فيلق الحملة الفرنسيّ كانت موجودة حول «نابولي» ، ربّما في استراحة ، أو ربّما كذلك على أهبة الإبحار نحو العمليّة البرمائيّة الثانية التي كان الألمان يتوقّعون حدوثها في اتّجاه «روما» و «غاييتي» . وبذل «كيسلرنغ» وسعه لدرء المخاطرات كافّة فراح يسخّر ، في سبيل مواقع دفاعيّة جديدة : الخطّ الأزرق أو «القوطيّ» الذي يقطع «إيطاليا» على مستوى «فلورنسا» ؛ والخطّ «قيصر» جنوبيّ «روما» ، ومباشرة ، إلى ما وراء الجبهة ، خطّ «أدولف هتلر» الذي غيّر «هتلر» تسميته فأصبح يحمل اسم «القفل سنغر» . وعاد إلى إنشاء بعض الاحتياط : الفرقتان المصفّحتان رقم ٢٦ و «هرمان غورنغ» ، وفرق النخبة ١٥ و ٢٩ و ٩٠ . ولكنّ الأركان العامّة الألمانيّة لم تكن تتوقّع الهجوم إلاّ بعد ٢٥ أيّار . ولهذا السبب انطلق قائد الجيش الرابع عشر «فون فيتنغوف» ، وقائد الفيلق المصفّح ١٤ «فون سنغر» ، إلى «ألمانيا» لتلقّي أوراق السنديان التي استحقّوها في الدفاع عن «كاسينو» .

وخلال ليل ١٠ إلى ١١ تسلّل هارب مغربيّ عبر الخطوط وأبلغ عن هجوم كبير سوف يحدث في الليلة المقبلة . ولكنّه لم يحسن التعبير . فلم يفهم الألمان قصده ، وأهملوا أقواله .

وبدأت الليلة التالية على نسق الليالي السابقة . وخلال النهار كانت السماء قد أمطرت بعدما بقيت متلبّدة بالغيوم . وساد الجبهةَ هدوءٌ شبه تامّ . ولسوف يطلّ القمر في الساعة ٢٣،٣١ . وفي الساعة ٢٣ ، وعلى

ألطيران يمهد للجبهة الثانية

ابتداء من ١٩٤٣ راح الانكليز والأميركيون يكيلون «لألمانيا» الضربات بطريق الجو. أما الأهداف الرئيسة فهي مصانع الطيران والوقود، والمصانع البحرية، وطرق المواصلات. وقد بلغ معدل الغارات اليومي ٨٠٠ غارة، ٥٠٠ ليلية و ٣٠٠ نهارية.



قلاع طائرة أميركية تطير فوق بساط من غيوم، في منطقة «مولان» الفرنسية حيث أقام الألمان مركزاً لإصلاح طائراتهم.

حشد مارشال الجو «تيدر» قواته الجوية في «أفريقيا الشمالية» وراح يبطش بها على المطارات العدوة في عمليات جماعية مكثفة مكبداً الطيران الألماني خسائر فادحة. وقد أسهمت «فرنسا» في هذا المجهود بالطائرات التي زودتها بها «أميركا»، وجلّها من طراز «كورتيس».



ضابط طيار بريطاني أمام خارطة جبارة يصدر إلى الطيارين تعليمات حول المهمة المنوطة بغاراتهم المقبلة عبر «المانش».



في مدينة «الجزائر»: القوات الجوية الفرنسية تستلم المطاردات الاميركية من طراز «كورتيس».



أبناء «الأطلس» المغاربة في جبال «الأبنان» الإيطاليّة : ما أشبه هذه الدروب الوعرة بدروب جبالهم !

أثر إشارة أعطيت مباشرة من «لندن» بواسطة الإذاعة البريطانيّة . اتّقد الأفق مشتعلاً . وراحت ٢٠٠٠ فوهة نار تُرعد: فقد استبق الهجوم نحو «روما» تكهّنات «كيسلرنغ» .

إنّ هذا الهجوم الذي كان يستهدف «روما» قد أوشك ألاّ يحدث إطلاقاً . فإخفاق «أنزيو» . والترف الباطل في «كاسينو» قد احبطا عزيمة القيادة الحليفة . وكان تاريخ غزو «أوروبا» يقترب . والإجراءات المتّفق عليها في «طهران» كانت تنصّ على أنّ النزول في «بروفانسا» يتمّ مع النزول في «نورماندیا» في آن معاً . وقد أصرّ الأميركيّون على مراعاة هذا البرنامج . ولكن بات لزاماً تأجيل عمليّة «بروفانسا» بسبب الافتقار إلى الإمكانات البحريّة اللازمة . وفي ١٩ نيسان أوكلت اللجنة المشتركة لرؤساء الأركان العامّة إلى جيوش «ولسون» مهمّة الاشتراك بغزو «أوروبا» بأن «تدمّر أو تجمّد في المتوسّط أكبر عدد ممكن من القوّات» . فلقد غدت المسيرة على «روما» إسهاماً مسبّقاً للمسيرة على «باريس» .

أجري تعديل تنسيق جيوش «إيطاليا» على ضوء اتّجاه الهجوم الجديد. فهنالك فيلق مستقلّ قد أخذ على عاتقه العناية بجبهة «الأدرياتيك» . والفيلق البريطانيّ العاشر . الذي كان يحتلّ ميسرة الجهاز الحليف . قد نُقل إلى الوسط من «الغاريليانو» الأسفل إلى «سانغرو» الأعلى . وحُوّل إلى الجيش الثامن الذي أصبح بإمرة الجنرال «ليس». وبسط «ليس» جناحه الأيسر إلى مصبّ «الليري» بواسطة الفيلق البولونيّ الثاني والفيلق البريطانيّ ١٣ . ولم يترك «لكلارك» ولجيشه الخامس غير جبهة ضيّقة على «الغاريليانو» . وأمّا فيلق الحملة الفرنسيّ . الذي ظنّت دوائر الاستخبارات الألمانيّة أنّه كان في «نابولي» . فقد احتشد إلى ما وراء النهر الصغير قبالة جبل «ماجو» و «كاستيلفورتي» . وأمّا الفيلق الأميركيّ الثاني . الذي لم تكن فرقتاه الجديدتان ٨٥ و ٨٨ قد شهدتا معركة حقيقيّة بعد . فقد اتّصل بالفيلق الفرنسيّ حتى البحر .

الفيلق البولونيّ الثاني . الفيلق البريطانيّ ١٣ . فيلق الحملة الفرنسيّ . الفيلق الأميركيّ الثاني . فضلاً عن الفيلق الأميركيّ السادس في جيب «أنزيو» . تلك كانت عناصر المعركة الكبيرة المشتركة . وفي المعسكر الألمانيّ : الفيلق الجبليّ ٥١ على «الرابيدو»، والفيلق المصفّح ١٤ على «الغاريليانو» . وفيلق «فال ك» الأوّل، والفيلق المصفّح ٧٦ حول «أنزيو» . في المجموع : ٢٢ فرقة حليفة مقابل ١٨ .

كان مخطّط «كلارك» متعدّد العناصر ؛ فالجيش الثامن قد تكفّل بفتح وادي «الليري» مباشرة . وأمّا الفرقتان البولونيّتان الصغيرتان . التابعتان للجنرال «أندرز» ، وهو أسير سياسيّ سابق في «الاتّحاد السوفياتيّ» . فقد كان عليهما أن تقوما بما عجز الأميركيّون والنيوزلنديّون عن القيام به . ألا وهو الاستيلاء على جبل «كاسينو». وكان على الفيلق البريطانيّ ١٣ أن يجتاز «الرابيدو» . وأن يمدّ يده للبولونيّين على «طريق كاسيلينا» بعد الاستيلاء على «كاسينو» أو الالتفاف حولها . وإزاء الجيش الخامس . وفي الوقت الذي سوف يتقدّم فيه الفيلق الأميركيّ على طول الشاطىء باتّجاه «أنزيو» ، كان على الفيلق الفرنسيّ إنجاز مهمّتين ؛ أوّلاً : احتلال جبل «ماجو»، وهو الركيزة الجنوبيّة لموقع «كاسينو» الألمانيّ ؛ وثانياً : إحداث



الجنرال «هيوم» منظّم فرق المغاربة الذين ناضلوا ببسالة في حملة «إيطاليا» .

الجنود المغاربة يقطعون «الغاريليانو» في زورق من مطّاط .

ثغرة عميقة تطغى على منشآت «الليري» الدفاعيّة . مارّة بجبال «أورونشي» و «بيتريلا» . وكان «جوان» قد أصرّ على هذه النظريّة المتناسقة مع تلك التي دافع عنها عبثاً خلال شهر شباط . حين أراد أن يسير على «أتينا» بدلاً من الانعطاف نحو «كاسينو» . وذلك بعد الاستيلاء على «بيلفيدير» .

لم يعطِ استهلال الهجوم الانكليزيّ البولونيّ ثماراً كثيرة ؛ فبعد قتال دام ثلاثة أيّام لم تتمكّن الفرقة البريطانيّة الرابعة . والفرقة الهنديّة الثامنة . إلاّ من بلوغ ما وراء «الرابيدو» . وعلى الرغم من الإفراط في إهراق الدم . أخفقت الفرقتان البولونيّتان ٣ و ٥ إخفاقاً كاملاً أمام المرتفع ٥٩٣ الذي كان عليهما الاستيلاء عليه للوصول إلى مقربة من جبل «كاسينو» . كان الهجوم والدفاع رائعين . ولكنّ النجاح كان حليف المدافعين .

في القطاع الفرنسيّ كان فيلق الحملة محتشداً غربيّ «الغاريليانو» . في سهل «سوجو» الصغير . فأكداس العتاد . والبطّاريّات ، ومراكز القيادة ، كانت متشابكة مع المخيّمات التي تضيق بقامات الرجال . وراحت غشاوة غبراء ، تولّدها مئات من الأطباق المدخّنة ، تلوّث البزّات وتهيج الحلوق . ولكنّها قدسمحت بهذا التجمّع الجريء لذلك الجيش الذي كان عند أقدام مدفعيّة العدوّ . وقد نُصبت ستّة جسور ميدان إضافيّة . فلم يرَ الألمان شيئاً . وبقيت مدافعهم صامتة ؛ ولو قام في الوادي إعداد معاكس لسبّب خسائر مفجعة ، ولفكّك أوصال العمليّة .

وبعد انقضاء ٤٠ دقيقة على بدء عاصفة الفولاذ ، انطلق المشاة يشنّون الهجوم . إلاّ أنّ المفاجأة ، وعنف القصف ، وشلّ نشاط البطاريّات ، وعزل مراكز القيادة ، وقطع الاتصالات ، لم تمنع مشاة الفرقتين الألمانيّتين ٧١ و ٩٤ من المقاومة بشدّة . وأمّا الفرقة الأولى ، التي هاجمت من اليمين ، فقد صدّتها قاذفات اللهب الأوتوماتيكيّة ، والنيران المنطلقة من سفح جبل «جيروفانو» ؛ وأمّا فرقة المشاة الجزائريّة



قدم «جوان» ليشاهد العمليّات بأمّ عينه ، فصعد حتّى قمّة «الأورونيتو» تحت وابل القذائف التي كانت تصبّها مدافع الهاون .

الثالثة ، التي كانت تهاجم من اليسار ، فقد تقدّمت بعض الشيء أمام «كاستيلفورتي» ، وأمّا فرقة المشاة المغربيّة الثانية ، بقيادة الجنرال «أندره ماري دودي» . فقد مثّلت الدور الرئيس : فبعدما انطلق مناوشوها في جبل «أورونيتو» ، على علوّ ٧٥٠ متراً ، توغّلوا في المنحدرات الكثيرة الحصى والتي تغطّيها النباتات . وراحوا يتسلّقونها دبّاً على أيديهم وركابهم . إلاّ أنّ مناوشي الفوج المغربيّ الرابع تحطّموا أمام تحصينات جبل «تشيراسولا» . وانطلق مناوشو الفوج المغربيّ الثامن على ناتئة جبل «فاييتو» الطويلة فبلغوا القمّة واستقرّوا عليها . وفي فجر ١٢ ، كان أهمّ كسب حصل عليه فيلق الحملة الفرنسيّ والجيش الخامس هو إصبع من كفّ يبلغ طولها حوالي ١.٥٠٠ متر ، تشرف على منخفض «ماس رودجيرو» . ولكنّ جبل «ماجو» وهو الموقع



في ١٧ أيّار ١٩٤٤ جرت مقابلة بين الجنرال «ديغول» والجنرال «كلارك» قائد الجيش الأميركيّ الخامس .

الأساسيّ ، فقد بقي في يد العدوّ .

في أوّل الصبيحة قدم «جوان» ليشاهد العمليّات بأمّ عينه . فصعد حتّى قمّة «الأورونيتو» تحت وابل القذائف التي كانت تصبّها مدافع الهاون . وكان قلقاً ، ينتابه الخوف من أن يرى اندفاع المغربيّين يتحطّم ؛ وقال إنّ القضيّة قد انطلقت على غير ما يرام ، وإنّه يجب إعادتها من جديد .

وفي الساعة ٣،٢٠ من ليل ١٣ ، عادت ١٨ مجموعة مدفعيّة إلى قصف المواقع الألمانيّة . وفي الساعة الرابعة ، ثمّ في الساعة الثامنة ، قام الفوج المغربيّ الخامس ، وهو فوج احتياطيّ لدى الفرقة المغربيّة الثانية ، بشنّ الهجوم على محوري الليلة السابقة . وإلى الجبهة اليمنى طفت الكتيبة الثالثة على العدوّ ، فاستولت على «تشيراسولا» ، وأطفأت الأضواء التي كانت تجمّد تقدّم الفرقة الأولى نحو «الليري» . وإلى الجبهة اليسرى ، على «الفاييتو» ، شنّ العدوّ هجوماً مضاداً عنيداً أخّر تدخّل الكتيبة الثانية إلى الساعة ١٠،٤٥ ، إلاّ أنّها تحرّكت في النهاية . ومن «الأورونيتو» كانت أرتالها الصغيرة واضحة للعيان وهي تغادر «الفاييتو» وتتسنّم منحدرات «الفوتشي» ثمّ تعتمره . وتغيب بعد ذلك في المنخفض الذي يفصل «الفوتشي» عن «الماجو» . ثمّ تعود إلى الظهور من ثمّ وسط الانفجارات على سفح «الماجو» . وكانت ردّة فعل العدوّ مرتقبة بين لحظة وأخرى ...

الجنرال «ديغول» يتفقّد الرماة الفرنسيّين في الجبهة الإيطاليّة ، وقد ظهر وراءه عدد من القوّاد منهم الجنرال «جوان» ، والجنرال «دودي» ، والجنرال «مونسابير» .





كان «جبل كاسينو» (٣،٧٠٠ م)، وهو عماد الدفاع الألماني، يتحكّم بوادي «الليري» وبطريق «روما». وقد رأى الأميركيّون في هذا الجبل حاجزاً يجب إزالته لزحزحة فرقة المظليّين الألمانيّة الأولى التي كانت تتشبّث به. وقد عهد بهذه المهمّة إلى فوج بولوني، فاستطاع أن يحتلّه في ١١ أيار.

ولكنْ لم يحدث شيء. فالهجوم المعاكس على «الفايتو»، الذي أوقفه الفوج المغربيّ الثامن، كان آخر مجهود قام به الألمان. ولقد لحق بهذا المجهود المخفق أمرٌ بالتراجع العامّ، فجلا الألمان شتاتاً من حُويض «ماس رودجيرو»، ولم يدافعوا عن «الماجو» إلاّ بإطلاق النار من بعيد. وفي الساعة ١٥ تمّ بلوغ القمّة على علوّ ٩٤٠ متراً. وبعد ذلك بقليل دوّى في الوادي تهليل بلغ مسامع المقاتلين في الخطوط الأماميّة: فقد قام المساعد الأوّل «بوميس»، يعاونه بعض الأسرى الألمان، برفع علم كبير مثلّث الألوان يمكن رؤيته من كل صوب في المنطقة، وهو يجسّد الاستيلاء الحاسم على جبل «ماجو».

ومنذ ذلك الحين اتّخذت المعركة في سبيل «روما» نمطاً سريعاً. في ١٣ وصلت فرقة المشاة المغربيّة الأولى إلى «الليري»، وفي ١٤ واصلت تقدّمها على الضفّة اليمنى حتّى «سان جيورجيو». وفي الجناح الآخر من فيلق الحملة استولت فرقة المشاة الثالثة، بقيادة الجنرال «دي مونسابير»، على «كاستيلفورتي»، فاتحة الطريق أمام الفيلق الجبليّ الذي كان يضمّ، تحت إمرة الجنرال «غيوم»، المشاة المغربيّين وفوجاً من الفرقة الجبليّة المغربيّة الرابعة، أي ما مجموعه ١٢٠،٠٠٠ رجل و ٤،٠٠٠ بغل. فهؤلاء هم الذين يشكّلون القوّة المكلّفة بإحداث الثغرة العميقة التي استشفّها «جوان».

هكذا كان عود الرجال والبهائم إلى الجبل. وكلّهم جبليّون؛ فبلغوا سلسلة «الأورونشي» عبر مسالك ضيّقة، وتسلّقوا جبل «روتوندو»، ثمّ نزلوا إلى وادي «أوسنتي». وهناك توقّفت إحدى مجموعاتهم الثانويّة أمام حاجز أقامته الفرقة المصفّحة الألمانيّة ١٥، ولكنّها عادت فاستدارت حوله، وبموازاة فرقة المشاة الثانية واصلت تقدّمها نحو طريق «كاسيلينا» في خطّ منحرف. وقطعت المجموعتان الثانويّتان الأخريان «الأوسنتي»، وعادتا إلى الصعود إلى جبل «بيتريلا». فاستولتا على جبل «ريفولي» في ١٥. وفي ١٨ قطعتا خطّ مواصلات الجيش الألمانيّ العاشر الرئيس، وهو الطريق من «بيكو» إلى «إتري». كان المناوشون قد قطعوا مسافة ٦٠ كلم صدّاً؛ ومسافة تبلغ ضعفيّ هذا الرقم أو ثلاثة أضعافه فوق الجبل.

لقد كانت مفاجأة القيادة الألمانيّة كاملة. «فسنجر أوند إيترلين»، الذي كان يعتبر أنّ «الأورونشي» لا يمكن اجتيازه، قد كلّف بحمايته بعض المفارز الضعيفة التي سدّت ممرّاته؛ فاستدار المهاجمون حول هذه المفارز من القمم وعمدوا إلى تطويقها وأسرها. لم تسهم المحرّكات في هذه العمليّة إلاّ في التموين الجويّ الذي أخفق جزئيّاً. ففي خضمّ الحرب الآليّة المنسّقة تبرز صفحة من الحرب الراجلة؛ وبسبب انقلاب غريب في الأوضاع بات هذا الأسلوب القديم هو نفسه باعثاً للنشاط. فخطّ «غوستاف» قد صدّ الهجمات الجبهيّة المدعومة بكميّات العتاد طوال أربعة أشهر، فإذا به يسقط أمام غارة في غضون أربعة أيّام!

ومن ناحيتي الثغرة الفرنسيّة كلتيهما انهار كلّ شيء؛ وراح الفيلق الأميركيّ الثاني يتقدّم بسرعة على طول الشاطىء، فاستولى على «إتري» وعلى «غاييتي»، وفي ٢٥ أجرى اتّصاله بالفيلق السادس الذي بقر قعر جيب «أنزيو». وفي «كاسينو»، التي تمّ تجاوزها بسهولة، أطلق البولونيّون على الدير هجوماً دمويّاً جديداً وباطلاً، ولكنّ المظليّين الألمان لم يتراجعوا إلاّ أمام أمر شخصيّ من «كيسلرنغ» يحتّم عليهم أن يغادروا «كاسينو» للإفلات بأقصى السرعة عبر طريق «كاسيلينا» التي كانت ما تزال سالكة. وإذ استهلكت القيادة الألمانيّة موارد احتياطها كافة، لم يبقَ بميسورها غير القيام بأعمال مؤخّرة. دارت معارك حامية في غير ما مكان، ولكنّ المصير كان قد تقرّر؛ فجلا الألمان عن «روما» التي راح الفيلقان الأميركيّان ٦ و١٣ يقتربان منها من خلال طرقات الجنوب الغربيّ، في الوقت الذي كان فيه فيلق الحملة الفرنسيّ، والجيش البريطانيّ الثامن، يجاوزان المدينة من الشرق.

وفي ٤ حزيران، في الساعة ١٨، عبرت مجموعة القتال «أ»، وهي من الفرقة المصفّحة الأميركيّة الأولى، جسر «سان جيوفاني» وسط حشد من الناس غفير استطاع، حسب قول ضابط أميركيّ، «ما لم يستطعه الألمان قطّ: إيقاف دبّاباتنا».

كانت جدران «أوروبا» المحتلّة قد غُطّيت بمنشورات الدعاية التي تمثّل المسيرة على «روما» بشكل حلزونة نُصب فوق قرنيها علمٌ أميركي وآخر انكليزيّ. وفجأة راح بعض المجموعات المسخّرة ينتزع المنشورات على جناح السرعة؛ لقد وصلت الحلزونة!



طوفان النار يجتاح «كاسينو»

صورة لجبل «كاسينو» التقطتها إحدى القاذفات . ←

الأسقف «غريغوريو دياماري» أسقف «جبل كاسينو» في حديث مع ضابط ألماني على عتبة الدير .

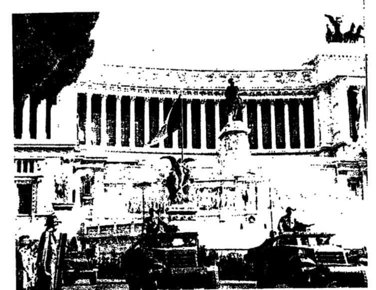






الحلفاء يحتلون "روما" و"سيينّي"

في ساحة «البندقيّة» ، أمام نصب «فكتور عمانوئيل» الفخم ، جرت آليّات هذا الفوج الأفريقيّ الشماليّ في عرض يزهو بأبّهة الظفر .





قافلة من دبّابات «شيرمان» تجتاز وادي «الليري» في طريقها إلى «روما» .

المدافع الأميركيّة تطلق نيرانها في «بونزاكو» .





في ٤ حزيران ١٩٤٢ بدأت أرتال الحلفاء تزحف إلى «روما» بعد معارك ضارية نشبت في «سيسترنا» و «فيليتري» و «فالمونتوني» . وكان الألمان قد أعلنوها «مدينة مفتوحة» وجلوا عنها من غير أن يمسّوها بأذى . وفي الصورة يبدو عدد من جنود الحلفاء يدخلون إلى «روما» دخول الحذر والريبة ، إذ كثيرة هي المدن المفتوحة التي أطبقت على الداخلين إليها !
➤

دبّابات كنديّة تحتلّ مدينة «سان بانكرازيو» الصغيرة في الزحف إلى ما وراء «روما» . ➤

في ٤ تموز ١٩٤٤ دخلت القوّات الفرنسيّة إلى «سيني» بقيادة الجنرال «مونسابير» . ▼

تحفة

إنّ تلك الديمقراطيّات الموصوفة بالثرثرة ، والمُصابة بصحافة كثيرة الفضول مذياع ، وبمجالس نيابيّـــة ممحّصة محرجة ، لهي أقدر على إخفاء أسرارها العسكريّة مما تستطيع أن تفعل دولة « كالرايخ » الثالث ، قاعدتُهـــا الذهبيّة ألاّ يطّلع أحد إلاّ على ما يخصّه مباشرة .

يوم نورماندي الأكبر

كان اجتياح «أوروبا» أكيداً وشيكاً . ومع هذا ظلّ الظلام الشامل يكتنف نيّات الحلفاء . أمّا ما عرفه الألمان معرفة اليقين فهو أنّ حملة هائلة تدبّر في «بريطانيا العظمى» . ولكنّ موعدها وغايتها وعناصرها بقيت مجهولة .

أعوزت الألمانَ المعرفةُ فلجأوا إلى التكهّن والاستنتاج . ففي شهر نيسان وصل التدبير الرامي إلى الحدّ من سفر المدنيّين في «انكلترا» ، واشتداد الغارات الجويّة ، كما وفّرت جداول التقويم القمريّ وحركات المدّ والجزر ، القيادة الألمانيّة الغربيّة العليا من عناصر الدرس ما سمح لها بتعيين ١٨ أيار موعداً أكيداً للنزول إلى البرّ الأوروبيّ . ولمّا انقضى ١٨ أيار ، أكّد الأخصّائيّون أنّ الحلفاء تركوا الموعد المؤاتي يفوتهم لسبب ما ، وأنّ خطر الاجتياح قد تأجّل حتى شهر آب .

كان لمعرفة مكان الغزو من الخطورة ما يفوق معرفة التاريخ . لأنّ تدابير الدفاع العامّة ترتكز عليها . لم تعوز الأجهزةَ الخاصّةَ المعلومات . بل لقد جمعت منها الكثير ، إلاّ أنّها كانت واهية متضاربة متنافرة . فقد عيّنت الشواطىء الأوروبيّة كلّها من «اليونان» إلى «النروج» ، مروراً بشواطىء «اسبانيا» و«البرتغال» ، واحداً بعد واحد . كأبواب سينبثق منها الزحف . وفي مطلع ١٩٤٤ أعلنت قيادة جيش البرّ الغربيّة العليا عن يقينها بأنّ الإعدادات الحثيثة القائمة في «المانش» هي مجرّد خدعة ، وأنّ النزول الحقيقيّ سيجري في مكان آخر . وأتت عمليّة «أنزيو» توهم بأنّ ذاك المكان الآخر هو البحر المتوسّط ؛ ثمّ تطوّرت الأفكار . وفي ٢٧ نيسان عيّن المكتب الثاني الألمانيّ «النروج» ؛ وبعد شهر حصر النيّات المعادية في بحر «المانش» ، فقالت خلاصة ٢٣ أيار : «تُختبر جزيرة «وايت» مركزاً لإعداد الغزو ، وعلى هذا الأساس ينبغي اعتبار الشاطىء من «الإيسكو» إلى «نورماندي» ، وكذلك شاطىء «بروتانيا» الشماليّ ، كأكثر القطاعات تعرّضاً للخطر ... »

كانت المروحة بين «أنفير» و«بريست» فسيحة رحبة . فحاولت القيادة الألمانيّة إغلاقها . وبعدما فكّر «هتلر» طويلاً «بالبلقان» ، ثمّ «بالنروج» ، ظنّ فجأة أنّ شبهي الجزيرة الفرنسيّين ، «بروتانيا» و«الكوتنتان» ، اللذين ينتهي كلّ منهما بمرفإ كبير ، هما أبطر القطاعات إغراء في نظر المجتاح . غير أنّ هذه النظريّة اصطدمت بمثاليّة معارضة : فاستبعدت البحريّة «كالفادوس» بسبب صخوره ، واعتقد الجيش أنّ اختيار الحلفاء سيقع على أقصر الطرق البحريّة عبوراً وأقوم السبل المؤدّية إلى «الرور» ؛ أمّا الطيران فاعتقد أنّهم سيتقيّدون بالمدى الزمنيّ الذي يمكن أن يتوافر لتدخّل المطاردات المرابطة في «انكلترا» . وبناء على ذلك اعتبرت

في جوّ عاصف مريع ، وفي يمّ جائش الغوارب ، مخر العباب إلى الشواطىء النورماندية أسطول ضخم ، في ٦ حزيران ١٩٤٤ .

«كاليه». أو، بشكل أعمّ، اعتُبر الساحل من «أوستاند» إلى «السوم»، أكثر الطرقات احتمالاً لغزو «أوروبا» الحصن.

أمّا الدفاع عن «أوروبا» الحصن هذه، أمّا حاميتها، فقد جعلت منهما معاركُ الجبهة الشرقيّة الهائلة مشكلةً مثيرة بغيضة. وعزّ على «ألمانيا» أن يتعرّض جيشها لأحوال المناخ والحرب الروسيّتين من ناحية، وأن يكون لها في «فرنسا» الطيّبة، من ناحية أخرى، جيش لا يعرف غير مهامّ الاحتلال الهانئة. كان الحلّ العادل المنصف يفرض ترتيب حركة تبديل دوريّة منتظمة، باهظة النفقات نظراً لاتّساع المسافات. ولذا لم يُلجأ إلى إجراء التنقّلات من الغرب إلى الشرق، أو من الشرق إلى الغرب، إلّا تحت ضغط الأزمات وتلبيةً لحاجات الجبهة الشرقيّة الملحّة. وهكذا كان الشرق يمتصّ من الغرب أقوى عناصره ويرسل إليه نفاياته. فمن شُوّه من الرجال، ومن أصابه التجمّد من الدرجة الثالثة، أو اضطرابات تتناول البصر أو السمع أو التنفّس أو الحركة الدموية، وُجّه إلى الغرب. وهكذا تألّفت فرقة كاملة، هي فرقة المشاة السبعون، من رجال أصيبوا بعسر الهضم بحيث كان ينبغي تزويدهم بطعام وخبز خاصّين! وتجاوز معدّل السنّ في فرق المرابطة حدود الأربعين، فيما بلغت نسبة الضبّاط العور والقُطع، وذوي الساق الواحدة، والذين بلغوا العقد الخامس أو السادس من العمر، درجة عالية. وخلاصة القول أنّ ما أصيب به الجيش الألمانيّ من نزف مريع هائل على الجبهة الشرقيّة قد أسفر عن انحطاط بليغ في المستوى الصحيّ والعسكريّ في الغرب.

ورافق هذا الانحطاطَ في النوعيّة اختلاطٌ شديد في العناصر؛ وهنا تبدو لنا تناقضات «هتلر» مثيرة مذهلة. كان قد انطلق من المبدإ القائل «بأنّ من حقّ الألمان وحدهم أن يحملوا السلاح»؛ فإذا به الآن على رأس أكثر الجيوش تنوّعاً في اللون والعنصر.

كانت فرق الصاعقة، وهي في الأساس التجسيد الأمثل للجرمانيّة العنصريّة، الأداة الأولى التي عملت على تلوين الجيش الألمانيّ بمختلف القوميّات. فقد أشرع الجيش الألمانيّ أبوابه للمتطوّعين الغربيّين منذ عام ١٩٤٠، بناء لفكرة خاصّة «بهملر»، عن طريق فوج «جرمانيا» الذي عُرف بالفرقة «فايكينغ»، وحملت بعد ذلك فرقٌ عديدة روافدَ الإسهام الفرنسيّة والبلجيكيّة والهولنديّة والسكاندينافيّة وغيرها، من غير أن يضرّ ذلك بوحدات قوى الصاعقة الخاصّة، كالفرقة الإسبانيّة «آزول» وفرقة المتطوّعين الفرنسيّة. ومهما يكن من أمر فلا يحقّ للأسماء أن تخدعنا؛ فإمّا أن تكون الفرق الأجنبيّة شراذم هزيلة (كفرقة «فلونّي» التابعة «لليون ديغريل» التي كانت تشمل ٧٠٠ رجل عام ١٩٤٤)، وإمّا أن تكمَّل بأجناد ألمانيّة صرفة. وعلى كلّ حال لم تكن هذه الفرق، التي تشكّل من حيث العدد مكسباً وضيعاً دعت إليه العقيدة أو روح المغامرة، لتثير أيّة مشكلة، فقد كانت تحارب على الجبهة الشرقيّة، وستستمرّ في كفاحها اليائس حتّى النهاية.

أمّا مشكلة الشرق فكانت أكثر تعقيداً. فقد أخفق مشروع «فلاسوف» إخفاقاً تامّاً. صحيح أنّ ما يقارب المليون من الرجال قد تطوّعوا، إلّا أنّ معارضة «هتلر» في إقامة جيش قوميّ روسيّ لم تلِن لها قناة، وفاتت الفرصة السانحة لتشكيله مع انقلاب دولاب الحظّ العسكريّ. وبقي «فلاسوف» في الدارة الخاصّة به في «برلين» تتأكّله الحسرة وتحدق به جماعة من الألمان الخائبين. كان قد نال لقب «جنرال قوّات الشرق»، ولكنّ «الرايخ» الثالث سيستعين بغيره لمحاولة استخدام الطاقة البشريّة في الشرق.

هناك أولاً مَعين الأقليّات المعادية للبلشفيّة والمعادية للروس؛ فهذه قد قدّمت «أجناد الشرق» الحقيقيّة، وهي وحدات كوزاكيّة وأوكرانيّة وجيورجيّة وأذربيجانيّة ومغوليّة وغيرها، قد جُمعت في بلادها في مواسم الفتوحات، أو في معسكرات الأسرى. وهناك ثانياً مَعين الشعوب الألمانيّة الأصل، وهي مجموعة أفراد فُرض أنّهم من أصل ألمانيّ، إنّما فقدوا جرمانيّتهم. هؤلاء مُنحوا فرصة استعادة جنسيّتهم الألمانيّة، بعد فترة امتحان تدوم عشر سنين؛ وريثما يتمّ ذلك مُنحوا شرف الانخراط بالقوّة في الجيش الألمانيّ حيث يخدمون في الوحدات العاديّة ولا تتعدّى نسبتهم ٨٪؛ إلّا أنّ مجال ترقيتهم لا يتعدّى رتبة جنديّ من الدرجة الأولى.

ولكنّ هؤلاء الأعوان أخذوا في الزوال تدريجيّاً من الجبهة الشرقيّة، حيث عملت الهزائم المتلاحقة على إفقادهم الثقة التي كانوا يتمتّعون بها، وعادوا إلى الظهور في جيش الغرب الألمانيّ. ففي مطلع ١٩٤٤ كانت ٧٦ كتيبة، أي ما يعادل سدس جيش المشاة، من الأجناد الشرقيّة؛ فتوافر بذلك للشعوب المستغربة الذاهلة مشهدٌ فريد بدت فيه أسوار «الرايخ» الآريّ تلك موسومة بالملامح الأسيويّة، ناطقة بما أمكن من اللغات، ما عدا الألمانيّة! ولقد أحصى المؤرّخ الأميركيّ الرسميّ «ج.ا. هاريسون» في «برج بابل» ذاك، الذي وقف يترقّب الصدمة الكبرى، مجموعةَ الشعوب التالية: الفرنسيّين، والإيطاليّين، والكروات، والمجر، والرومان، والبولونيّين، والفنلنديّين، والليتونيّين، والليتوانيّين، والأفريقيّين الشماليّين، والزنوج، والروس، والأوكرانيّين، والبازاخس، والقفقاسيّين الشماليّين، والجيورجيّين، والأذربيجانيّين، والأرمن، والتركمان، والتتار، وفنلنديّي «الفولغا»، وتتار «القرم»، والكاموك، وحتّى الهنود. ويجدر بنا أن نضيف، ونحن في هذا العرض، أنّ جيش الغزو، بما ضمّ من أجناد الامبراطوريّة البريطانيّة كلّها وممثّلي البلدان الأوروبيّة جمعاء، لم يكن أقلّ تنوّعاً في الجنسيّات.

منذ عام ١٩٤٢ لفت المارشال «فون روندشتاد» نظر قيادة الجيش العليا إلى نقاط الضعف التي تشوب الدفاع؛ لكنّ إنذاراته ما بدأت تثير اهتمام «هتلر» إلّا ابتداء من خريف ١٩٤٣. وقد قالت المذكّرة العامّة رقم ٥١ الصادرة بتاريخ ٣ تشرين الثاني: «يمكننا أن نسلّم بخسارة بعض المقاطعات في الشرق، ولكنّ الأمر يختلف فيما يتعلّق بالغرب حيث قد يكون لتوغّل معادٍ واسع النطاق نتائجُ لا تحدّ في مدى قصير ... إذاً فلا يمكن القبول، بعدّ اليوم، بأن نستمرّ في إضعاف الغرب على حساب الميادين الأخرى، ولذا فقد قرّرت عكس ذلك: «لقد عزمت على تقويته». وغدا «الجدار الأطلسيّ»، أو «الجدار الغربيّ»، موضوعَ دعاية فعّالاً، فأيقن ملايين الأوروبيّين الأسرى أنّ أيّة محاولة لغزو «أوروبا» يقوم بها الانكليز والأميركيّون ستصطدم حتماً بحاجز لا يمكن عبوره، فتؤول إلى كارثة.

ويعود دخول «رومل» إلى تقنيّة الدفاع الغربيّ وجوهره إلى ذلك التاريخ؛ فبعد ما أزاحه «كيسلرنغ» في «إيطاليا»، أسندت إليه مهمّة الإشراف على تدابير الدفاع الأطلسيّ، ثمّ قيادة مجموعة الجيوش «ب» التي يمتدّ قطاعها من الحدود الألمانيّة الهولنديّة إلى مصبّ «اللوار». وشكّل اسمه السلاحَ الثاني الذي اعتمدت عليه الدعاية النازية، لتثبت أنّ مجتاحي «أوروبا» سيُلقى بهم في اليمّ. ولقد اختمرت في فكر «رومل» حول أشكال الحرب في الغرب مبادىءُ تكتيكيّةٌ أملتها عليه خبرته الأفريقيّة؛ فالتفوّق الجويّ الانكليزيّ الأميركيّ الساحق هو الذي سيفرض أشكال القتال كلّها، ويحدّ من إمكانات الدفاع كلّها. إذاً فكلّ مناورة واسعة المدى، وكلّ تحرّك نهاريّ، وكلّ معركة عامّة ضدّ عدوّ يتمكّن من النزول إلى البرّ، قد باتت غير واردة؛ فلو نجح النزول لتمّ الغزو حتماً. أمّا الفرصة الوحيدة المتبقّية فتقوم على إحباطه ساعةَ يغادر الجنود السفن، ويتمّ ذلك بحشد الأسلحة والحواجز على الشاطىء

ذاته. وبترتيب قوى الاحتياط على مسافات قصيرة . وبجعل الهجوم المعاكس الآليّ السريع أداة الردّ على كلّ اعتداء .

وهكذا ارتدّ «رومل»، جنرال التحرّك، عن أسلوبه ، متأثراً باختلاف أوضاع القتال ، واعتنق أسلوب الدفاع الجبهيّ . غير أنّه لم يلقّ لدى زملائه من الضبّاط نفوذاً يعادل ما كان يتمتّع به من نفوذ لدى الجماهير . فشكّ «روندشتاد» في أن «يكون «رومل» صالحاً حقّاً لقيادة كبرى». أشار بعضهم إلى أنّه يفتقر إلى ثقافة الأركان . ورأوا فيه جنديّ جبهة عمل بعض الظروف الخاصّة على إحاطته بهالة من الشهرة ،وأفسدت خلقه التبجّحاتُ المتكرّرة . وحاول «غوديريان»، الذي جعل دونه مرتبة ومجداً، أن يناقشه نظريّاته، فسبّب لنفسه «ردّة فعل غاية في العنف والكراهية» . وحارب «شفيينبورغ»، قائد المجموعة المصفّحة الموضوعة في الاحتياط العامّ ، هو الآخر أفكار «رومل»، واعتبر أنّ المرحلة الحاسمة في معركة «فرنسا» ستكون في لقاء المصفّحات الكبير الذي



مركز مراقبة ألمانيّ على الشاطىء الأطلسيّ .

ما كانت هذه التحصينات لتقف سدّاً منيعاً في وجه الأعداء .



في ٢ أيّار : «رومل» يتفقّد أجهزة الدفاع على الشواطىء النورماندية .



سيعقب النزول، وألحّ بالتالي للإبقاء على حفنة من فرق الدبّابات مجموعةً في قبضته ، جنوبيّ «باريس» وشرقيّها . وعبثاً حاول «رومل» أن يضع هذا القائد تحت إمرته . فقد أصرّ «هتلر»، بعدما عقد نيّته على إدارة معركة الغرب بذاته . على المحافظة على نظام القيادة المعقّد المنفصم الذي وضعه .

إلتقت أوامر «هتلر» ومبادىء «رومل» عند نقطة ، وهي خطر التخلّي عن أيّ متر من الأرض ، وبالتالي ضرورة القتال بكلّ قوّة على الساحل. ذلك لأنّ سبباً خاصّاً كان يملي هذه الخطّة : فبعد أجل طويل سببه الغارات الجويّة الحليفة ، ستكون أجهزة «الثأر»، أي القنبلة الطائرة «ف ١» والصاروخ «ف ٢»، جاهزة للعمل عمّا قريب ؛ فينبغي الحفاظ على مراكز إطلاقها القريبة من شواطىء «المانش» أيّاً كان الثمن .

لم يكن «جدار الأطلسيّ» مجرّد وهم ؛ ولكنّه لم يكن كذلك ذاك الجهاز الدفاعيّ الذي لا يعرف التفسّخ الذي وصفه «غوبلز» . نُظّم

الدفاع عن مدينة «بولونيا» و «الهافر» و «شيربور» تنظيماً متيناً. وأقيمت على مضيق «كاليه» الحصون الضخمة ؛ أمّا ما تبقّى فقد كان مجرّد رسم أوّلي. كان «هتلر» قد طلب من «منظّمة تود» ١٥،٠٠٠ من المكعّبات المصنوعة من الإسمنت المسلّح، بحيث تكون جاهزة في أوّل أيّار ١٩٤٣، فلم يكد يتمّ منها غير الثلث بتاريخ أوّل أيّار ١٩٤٤ ؛ ولم يُركّز في مراكز الدفاع غير ٢٩٩ مدفعاً ساحليّاً من أصل ٥٤٧ ؛ ذاك أنّ إنجاز البرنامج كان يفتقر إلى الوقت وإلى الموادّ ؛ فلقد وقع «الرايخ» الثالث مرّة أخرى ضحيّة المظاهر والبلاغة والغرور. شاء «رومل» أن يعوّض عن إفلاس الإسمنت المسلّح، فراح يبذل المدهش الخارق من النشاط والخيال والعزيمة. ولقد روى لنا الأميرال «روغي»، مساعده البحريّ، يوماً يوماً تنقّلاته المحمومة من «الدانمارك» إلى «بروفانسا» حيث كان يمرّ كالعاصفة فينشّط الهمم المتراخية بصواعق من السخط العنيف أو بتحريضات لاهبة، فينسى مأكله ومشربه، ويصرّ على أن تُدفع الوحدات المقاتلة جميعها، بما في ذلك هيئات الأركان العائدة للفرق، حتى متكسّر الأمواج. ويقول: «إنّ موقع المقاومة الرئيس هو الساحل عينه. فحصّنوه دونما هوادة وكافحوا عليه حتى الرمق الأخير».

كان «رومل» ينوي التوصّل إلى تغطية سواحل الغرب بغابة من الحواجز تحطّم اندفاع الغزاة، بعضها غائص في الماء، وبعضها على حدود الشاطئ أو في القطاعات الخلفيّة الملائمة لنزول القوّات المنقولة جوّاً. أخذ يرتجل مستخدماً كلّ ما استطاع الوصول إليه من الموارد. «فالشباك البلجيكيّة» المغروسة عند حدود القطاع الذي ينكشف عنه الجزر، لم تكن غير عناصر «دي كوانتيه» التي أثبتت عدم جدواها ضدّ دبّاباته عينها عام ١٩٤٠ ؛ «والقنافذ التشيكيّة» صُنعت من الخطوط الحديديّة الملحومة ؛ أمّا «الأهرام» فقد صُنعت في أماكنها بواسطة جابلات للإسمنت أمكن الوقوع عليها ؛ أمّا «الجياد المحدّدة الاوتاد»، المزوّدة بالألغام أو النصال، أو غير المزوّدة، والتي من شأنها أن تبقر زوارق الإنزال، فقد اقتُطعت من الغابة النورمانديّة. ولكي يسلّح «قضبان هليونه» - وهي الأوتاد المغروسة في المروج منعاً لهبوط الطائرات، اكتشف كميّات هائلة من القنابل الفرنسيّة القديمة التي أثبت العارفون أنّها قد أتلفت منذ زمن بعيد. وفوق هذا كلّه رغب في الحصول على ألغام أرضيّة. ١٠٠ أو ٢٠٠ مليون من الألغام الأرضيّة، بغية إنشاء قطاع موت يبلغ ١٠ كلم عرضاً. على طول الساحل الفرنسيّ ؛ إلّا أنّ الافتقار إلى الصلب والمتفجّرات لم يُتح له منها أكثر من مليونين او ثلاثة.

يا لانحلال المنطق! يا للجنون الغريب! فهذا المارشال الألمانيّ - الذي يبذل أقصى جهوده من أجل ردّ الغزو الغربيّ. يعرف حقّ المعرفة أنّ الحرب خاسرة، وأنّ الطريقة الوحيدة الكفيلة بوضع حدّ للكارثة هي في عزل «هتلر»، قبل الوصول إلى نهاية الهزيمة.

لا يرقى تاريخ الاتّصال الأوّل بين «رومل» وأعضاء المؤامرة المناهضة الهتلريّة إلى أبعد من شهر نيسان ١٩٤٤. تردّد المتآمرون طويلاً قبل أن يتّصلوا بجنديّ طالما أشادت الدعاية باسمه وبمناقبه القوميّة الاشتراكيّة ؛ ولكنّ أحد رفقاء الحرب الأولى، وهو «كارل سترولين» محافظ «شتوتغارت»، جازف بذلك نزولاً عند رغبة «غوردلر». فطلب «رومل» أن يتاح له مجال التفكير في الأمر ؛ وبعد أيّام عمد بنفسه إلى ترتيب لقاء ثانٍ. فجرى ذلك بتاريخ ٢٤ أيّار في «فرويدنشتاد»، في «الغابة السوداء»، في منزل رئيس أركان مجموعة «ب» الأعلى الجديد، الجنرال-ليوتنان الدكتور «هانز شبايدل». وافق «رومل» على تنحية «هتلر»، وعلى قلب النظام القائم، على أن يجري بعد ذلك الجلاء عن البلدان الغربيّة كلّها، وإعادة الجيش إلى خطّ «سيغفريد». ثمّ تحاول السلطة أن تتّفق مع الغربيّين وأن تقرّر، بالاتّفاق معهم إذا أمكن، سبل إبقاء الروس خارج الحدود الغربيّة «لألمانيا». أمّا بشأن المستقبل فقد فكّر «رومل» بإنشاء اتّحاد أوروبيّ يُبنى على المبادئ المسيحيّة.

إشتركت بالمؤامرة الأركانُ الغربيّة العليا كلّها ؛ كان «شبايدل» هو أحد عناصرها العاملين ؛ ووافق عليها «غيرفون شفيبنبورغ»، والجنرالان «ألكسندر فون فالكنهاوزن» و «هنريك — كارل فون شتولبناغل» القائدان المحلّيان في «بلجيكا» و «فرنسا»، وكانا قد انتسبا إلى العصبة العسكريّة التي حاولت، عام ١٩٣٨، أن تضع حدّاً لمفاسد «هتلر» ومضارّه. ولم يلزم الحيادَ من الضبّاط الأعلين غير «روندشتاد». كان يمقت «هتلر»، ويشبع ذلك «الكابورال البوهيميّ» ازدراء وسخرية ؛ ولكنّه، مع علمه بكلّ ما يحيط بالمؤامرة: كان يرفض أن يأخذ بها علماً. كان موقفه، على حدّ قول «شبايدل»، «نوعاً من التسليم الساخر بالأمور»: ولم يكن ليخطر بباله أنّ بوسع مارشال بروسيّ أن يتنكّر للعهد الذي قطعه، فيثور على رئيس الجيش الأعلى، أمام خطر العدوّ ؛ حتى ولو كان هذا القائد هو «هتلر».

ولقد أعرب «رومل»، من جهته، عن شيء من التحفّظ حيال مشاريع المتآمرين: كان يرفض اغتيال «هتلر»، ويصرّ على وجوب إحالته على محكمة ألمانيّة، ويذهب، مدفوعاً بنوع من التفاؤل الغريب، إلى حدّ التفكير بحمله على القبول بالاستقالة عن طريق إقناعه بأنّ الحرب قد فُقدت ؛ ويضيف: «لا يحقّ لنا أن ننتقل إلى التنفيذ إلّا بعد أن نستنفد هذه الوسائل كلّها».

في ٥ حزيران غادر «رومل» مقرّ قيادته بالسيّارة. كان يريد قضاء السهرة في منزله في «هرلنجن»، محتفلاً بذكرى ميلاد زوجه، على أن يذهب في غده إلى «أوبرسالزبورغ»، لحضور المقابلة التي حصل عليها من «الفوهرر». وتشير اليوميّات التي كان يسجّلها له الملازم «ألدينجر» إلى أنّ «حركات المدّ والجزر ستكون سيّئة جدّاً في الأيّام المقبلة، وأنّ نزولاً إلى البرّ لا يبدو وشيكاً». واستناداً إلى الوثيقة عينها، كان «رومل» ينوي إطلاع «هتلر» على نقاط الضعف في مجموعة جيوشه، وينوي أن يطلب منه فرقتين جديدتين من الدبّابات، وفيلقاً من المدفعيّة المضادّة للطائرات، وفوجاً من قاذفات الصواريخ.

هل كان يفكّر بشيء آخر يا ترى؟ هل كان ينوي الإفادة من اجتماعه «بهتلر» على انفراد، ليقول له بجفاء إنّ كلّ شيء قد فُقد، وإنّه لا بدّ من الوصول إلى نهاية؟ لا ندري.

مشاة على الدرّاجات
سماء وبحر خواء

في مساء ٥ حزيران نفسه كانت القوّات التي تنتظر الغزو، وتوزيعها وقيمتها على الوجه التالي: — مجموعتا جيوش هما: «غ» بقيادة «بلاسكوفتش»، و «ب» بقيادة «رومل». أمّا القائد الأعلى فكان «روندشتاد».

— المجموعة «غ»: الجيش الأوّل بقيادة «فون در شوفالري»، من «اللوار» إلى «البيرينيه»؛ والجيش ١٩ بقيادة الجنرال «فون سودنشترن»، من «بور-بو» إلى «مونتون». في المجموع: ٢١ فرقة للمشاة، واحتياط سيّار مكوّن من الفرق المصفّحة ٢٩ و١١، و٢ الصاعقة، والآليّة الصاعقة١٧.

— المجموعة «ب»: الفيلق ٨٨، «هولندا»، والجيش ١٥ بقيادة الجنرال «فون سالموث»، من «الإيسكو» حتى «الديف»، والجنرال «دولمان» من «الديف» إلى «اللوار». ٢٥ فرقة للمشاة، ٣ فرق مظليّين، واحتياط

سيّار مؤلّف من الفرق المصفّحة ٢ و٢١ و١١ .
— الاحتياط العامّ : الجنرال «غيرفون شفيينبورغ» يقودفرقالمصفّحات الصاعقة رقم ١ و١٢ و١٧ ، وفرقة التدريب المصفّحة . وهذه الوحدات الكبرى كانت تحت سلطة القيادة الحربيّة العليا المباشرة ، أي تحت سلطة «هتلر». واحتفظ «هتلر» كذلك لنفسه بحقّ نقل أيّة قوّة من جيش إلى آخر ، حتّى ولو كان ذلك في قلب مجموعة الجيوش الواحدة .

وبفضل الآليّات «ف» كانت جيوش الغرب في ربيع ١٩٤٤ تشكّل أمل الفوهرر الأكبر . فلقد ظنّ أنّها ستحوّل النزول إلى دمار ، مزيلة الخطر الانكلو سكسونيّ إلى زمان طويل . عندئذ سوف يقدر على سحب ٥٠ فرقة من «الأطلسيّ» للإلقاء بها على الجبهة الشرقيّة ، ممّا سوف يبدّل الأوضاع تماماً ويعيد إليه النصر . وفي سبيل القيام بهذا الدور الرئيس ، واستناداً إلى وعود «هتلر» ، دُعّمت جيوش الغرب . فعدد وحدات «روندشتاد» الكبرى الذي كان قد تدنّى إلى ٤٦ في آذار :

وتشيكيّة وبولونيّة وإيطاليّة وروسيّة وغيرها . وقد أشار أحد الجنرالات إلى أنّ سيّاراته الـ ٥٧ كانت من ٥٠ نوعاً مختلفاً ! وكان أكثر من نصف الفرق ، أي ٣٢ من ٥٩ ، جامداً تكدّس فيها رجال مرهقون . وفيها كتيبة واحدة من العناصر الشرقيّة من جملة كلّ ثلاث كتائب .

ثمّ إنّ هذه الجماعات المتشتّتة كانت تحرس قطاعات دفاعيّة شاسعة : من ٣٠ إلى ٥٠ كلم على «المانش» ؛ أمّا الأطلسيّ فلم تكن تسهر على شواطئه من «سان نازير» إلى «بايون» غير فرقتين . ولم يكن يسيطر على الساحل من «هونفلور» إلى «بارفلور» غير الفرق ٧٠٩ و ٧١١ و ٧١٦ ، وقد تدنّت عدّة هذه الأخيرة إلى ستّ كتائب . وأمّا الفرقة ٧٠٩ فلم يكن لديها في قطاعها ، الذي يشمل «كوتنتان» الشرقيّ كلّه ، غير نقطة ارتكاز من الإسمنت وحيدة ، بدلاً من الـ ٤٢ التي كان مفروضاً أن تحصل عليها .

ومع ذلك فالعجز الألمانيّ الأكبر لم يكن ليتجلّى في قلّة الجيوش

جنود ألمان يلغمون شجرة بالمتفجّرات .

حواجز مضادّة للدبّابات .

إبّان أزمة الجبهة الأوكرانيّة ، قد عاد وارتفع إلى ٥٩ . ومع ذلك كانت حاجات الشرق ملحّة لدرجة أنّ سياسة تدعيم الغرب قد اجتاحتها تيّارات معاكسة . ففي ٥ حزيران وجّه الجنرال «بايرلين» نحو «روسيا» عناصر عديدة من فرقته المصفّحة الممتازة. ولسوف تلحق بها عناصرُ أخرى في الأيّام التالية . وكان بعض وحدات «روندشتاد» في حالة جيّدة جدّاً. أمّا الفرق الصاعقة فكانت في الغالب مفرطة العدد : ٢١،٣٨٦ رجلاً في الفرقة المصفّحة الصاعقة الأولى ، و ١٧،٩٥٠ في التاسعة ، إلخ ... وعلى نقيض ذلك كان هنالك بعض الفرق في طور التنظيم ، أو كذلك في طور الإنشاء . وقد بُذلت جهود لتحسين فرق الاحتلال القديمة . بمنحها صفة الحركة وبتجديد أسلحتها .

بيد أنّ «ألمانيا» كانت مرهقة في الواقع . فالدرّاجة أمست الأداة السيّارة الوحيدة التي توافرت لديها لنقل بضعة آلاف من المشاة . وكانت المدفعيّة تجرّها الخيول إجمالاً ، وإنّ هذا المظهر مفجع في حرب اتّسمت بسؤدد الطيران وصولته . وكان العتاد خليطاً من مصادر ألمانيّة وفرنسيّة

البريّة ، بل خصوصاً في وهن البحريّة والطيران .

كانت حال الأسطول الألمانيّ العائم كما يلي ؛ إنّ آخر سفينة من سفنه الكبيرة السليمة ، وهي «الشارنهورست» ، قد أحرقت وأغرقت في ٢٦ كانون الأوّل ١٩٤٣ في خضمّ الليل القطبيّ ، خلال غارة على قوافل المحيط الشماليّ . وكانت شقيقتها «غنايزناو» حطاماً مسجّى في مرفإ «غدينيا»؛ وكانت «تيربيتز» مجمّدة في «كاتفيور» بعدما أصيبت بأضرار بالغة . كان للأميرال «كرانكي» ٥ مدمّرات غير متأهّبة جزئيّاً ، وحوالي ١٥ من الزوارق النسّافة . يا لها من قوّة ضئيلة تتصدّى للأسطول الحليف الضخم الذي سيساند الغزو !

وأمّا أسطول الغوّاصات فهو لا يكاد يفوق الأسطول العائم سطوة . كان لدى «كرانكي» ٢٢ سفينة في المرافىء النروجيّة ، و ١٥ في «برست» ، و ١١ سفينة موزّعة بين «لوريان» و «سان نازير» و «لاباليس» ، ولكنّ سفناً كثيرة منها كانت معطبة ، وكانت ٧ منها فحسب مزوّدة بالأنابيب التي تمدّ السفينة بالأوكسجين . وما كان منها قادراً على الإبحار

فقد بقي في حالة تأهّب، بعدما أُلغيت الإجازات ، وكانت الطوربيدات قد رُكِّزت في أماكنها ، والآبار والخزّانات ممتلئة . كان بوسع هذه السفن ، إذا حالفها الحظّ ، أن تكبّد الغزاة بعض الخسائر ، ولكن لم يكن بالإمكان أن تتعاضد بطريقة مرموقة للإلقاء بهم في البحر .

ومن ناحية الطيران كان تقدير التفوّق الانكليزيّ الأميركيّ بنسبة ٥٠ إلى ٠١ ولم يكن في هذا التقدير مبالغة . فالمقاتلات النفّاثة الألف «دوسنجاغر»، التي وعد بها «هتلر» المدافعين عن الغرب ، لم تكن قد خرجت بعد من المصانع ، والأسطول الجوّيّ الثالث ، بإمرة المارشال «هوغو شبيرل» والذي كان شديد العنف إبّان الانتصارات ، لم يبقَ لديه بتاريخ ٣١ أيّار ١٩٤٤ غير ٨٩١ طائرة من كلّ نوع ، منها ٤٩٧ فحسب قابلة للاشتراك في العمليّات . وكان عدد القاذفات ١٥٠ طائرة ، وعدد المطاردات ٢٦٦ . وكانت المطاردة الخامسة ، التي تضمّ نصف هذه الطائرات الأخيرة ، محتجزة في «متز» لاعتراض الطريق أمام أساطيل القاذفات الحليفة التي تعيث الخراب في «ألمانيا» ، وهي لن تقصد إلى الغرب إلاّ عند نزول الحلفاء بالذات .

في الواقع كان سلاح الطيران الألمانيّ شبه فانٍ شأنه شأن البحريّة نفسها . وقد أبقت جهود «ألبير شبير» على إنتاج المصانع الجويّة ، وزاد أيضاً في كثافته ؛ ولكنّ الطائرات وحدها لا تستطيع أن تخلق سلاحاً للطيران ؛ فقلّة الوقود قد فرضت تقصير مدّة تدريب الطيّارين من ٢٦٠ ساعة إلى ١١٠ ساعات ، أو ٥٠ ساعة أحياناً . وبالنتيجة أوشكت الخسائر الناتجة عن الحوادث أن تضاهي الخسائر في القتال . وكان هجوم متواصل يسحق المطارات : «نانسي» ، «ديجون»، «أفورد» ، «سان ديزيي» ، «إفرو»، «كوربي» ، إلخ... وقد أصرّ أكثر الجنرالات الألمان تفاؤلاً ، «كفير» و «روندشتاد»، على الاعتقاد بأنّ تفوّق العدوّ الجويّ لن يكفي لأن يسمّر جيش البرّ أرضاً . ولكن لم يكن أحد يظنّ أنّ الطيران الألمانيّ سيقدر على منازعة العدوّ سيطرته على السماء .

منذ شهر آذار كانت هذه السيطرة على السماء متجلّية بعمليّات بالغة الحدّة فوق «فرنسا» و «بلجيكا» . فالهجوم — وهو التمهيد الواضح للغزو المحدق — كان يرمي إلى تعطيل شبكة المواصلات ، وخصوصاً الخطوط الحديديّة . وراحت القيادة الألمانيّة تسعى إلى أن تقف على مخطّط العدوّ من خلال خريطة القصف ، إلاّ أنّ القصف كان غزيراً وموزّعاً لدرجة بات صعباً معها الوصول إلى أيّ استنتاج . ففي أوّل أيّار ، على سبيل المثال ، كانت منشآت الخطّ الحديديّ التي نال منها القصف هي منشآت «مانت» و «مونتينيي — سور—سامبر» و «دووي» و «مونسو» و«فالانسيين» و«شارلروا» و«هين—سان بيير» و «سان غيسلان» و«أميانس» و«آراس» و«تروا» و«رانس» و«بروكسيل» و«لياج» و «سارغيمين» و«متز» . وفي غضون ذلك الشهر لم يتوقّف القصف برهة واحدة عن «بلجيكا» بكاملها ، وعن شماليّ «فرنسا» ، ولكنّه قد تطرّق إلى «تيونفيل» و«مولوز» و«بلفور» و«إيبينال» و«شومون» و«إيتامب» و«تونير» و«كريل» و«واسيل» و«فرنون» و«جوفيزي» و«ميزون —لافيت» و «رووان» و«مولان» و«كونفلان» و«لومينيل» و«بواتيي» و«نيور» و«سانت إتيين» و«نيس» و«أنتيب» و«ليون» و«شيربور» و«غرونوبل» و«أفينيون» و«مارسيليا» و«نيم» ، إلخ ... فماذا تستنتج من خريطة مثل هذه ، اللهم غير إسراف عدوّ كان وافر الغنى ، فراح يوزّع غاراته مموّهاً نيّاته خلف ستار من القنابل تنهمر على «أوروبا» من المتوسّط حتى البحر الشماليّ ؟ وكانت اللوحة الإجماليّة لشهر أيّار تشير إلى وقوع ٤٩٥ هجوماً جويّاً على خطّ السكّة الحديديّة شماليّ «اللوار» ، وأتت المقاومة الفرنسيّة البلجيكيّة تضيف إلى الخراب خراباً.

في ٢٤ أيّار بدأ الهجوم على معابر «السين»، وقد قامت به طائرات «ب—٢٦» . كانت تحلّق على ارتفاع منخفض ، وتلقي قنابل من زنة ٢،٠٠٠ ليبرة . وقد أحرز الهجوم نجاحاً كاملاً في الوقت الذي كان فيه بذل القذائف ضئيلاً نسبيّاً . وفي أواخر الشهر لم تكن الجسور في سافلة «مانت» قد دُمّرت فحسب ، بل كانت كذلك عرضة لتدمير متجدّد تقوم به دورات جويّة منتظمة كانتظام دورات ساعي البريد ! وهذا دليل جديد على دنوّ الغزو. فالحلفاء إنّما يحاولون عزل ساحة القتال بحؤولهم دون أيّة حركة للأمداد من ضفّة النهر الواحدة إلى الأخرى . ولو أنّهم كانوا خاضعين لمنطق الحرب الصارم لعمدوا آنذاك إلى تدمير جسور «باريس»،ولجعلوا من المنطقة الباريسيّة حاجزاً من ركام مبانيها في عرض الشوارع . ولكنّهم تمنّعوا عن ذلك . ولسوف ينسى الكثيرون من الفرنسيّين أن يكونوا لهم من الشاكرين .

الاثنين في ٥ حزيران أعلنت النشرة الجويّة التي وضعها الطيران الألمانيّ أنّ البحر سيكون مضطرباً ، والرؤية منخفضة ، والرياح بسرعة ٥ إلى ٦ أمتار في الثانية ، وتوقّعت هطل أمطار غزيرة ، وهذه، لعمري ، ظروف تستبعد إمكانيّة النزول . ولقد نُظّم اجتماع حربيّ لليوم التالي في «رين» يخصّ الجيش السابع بكامله ، فوافق عليه الجنرال «دولمان»؛ وطلب رئيس أركانه العامّة ، الجنرال — ماجور «بمسل» ، إلى المشتركين ألاّ يغادروا مراكز قيادتهم قبل الساعة العاشرة صباحاً ، ولكنّ الكثيرين منهم قد انصرفوا منذ العصر لما يعهدونه من صعوبات في الطرقات ، وبعدما اطمأنّوا لتنبّؤات النشرة الجويّة .

وفي الساعة ٢٢ أطلق إنذار معجّل للجيش ١٥ الذي كان مركز قيادته في «توركوان» . فلأيّام خلت أصدر الدفاع الألمانيّ مذكّرات عديدة كانت ستبلّغ للمقاومة الفرنسيّة السريّة في غضون الـ ٤٨ ساعة التي تسبق الغزو، وذلك بعدما تلقّى معلوماته من خائن بقي مجهول الهويّة . والتقطت دائرة المراقبة الإذاعيّة هذه المذكّرات ، وخصوصاً آخر ثلاثة أبيات من مقطوعة شعريّة «لفرلين» مؤلّفة من ستّة أبيات كانت أوّل ثلاثة منها قد أذيعت في ١ و٢ و٣ حزيران ، وهي تشكّل ، بنظر الدفاع الألمانيّ ، أمراً تمهيديّاً . فمن «الإيسكو» إلى «الفير» كان على حاميات المنشآت الساحليّة أن تبقى تحت السلاح . ولكنّ الجيش السابع ، الذي كان أقلّ تيقّظاً ، أو أقلّ ارتياباً، لم يبدِ أيّة ردّة فعل ؛ وأمّا فيلق الميمنة في هذا الجيش السابع ، وهو الفيلق ٨٤ ، فقد كان يسيطر على المنطقة الواقعة بين «الفير» وجبل «سان ميشال» ، وهو يضمّ الفرق ٧١٦ و٧٠٩ و٢٤٣ ، وفرقة المشاة ٣٥٢ ، وفرقة المظليّين ٩١ . وكان قائده هو الجنرال «إريك ماركس» الصارم العالم ، الذي كان «هتلر» قد تغاضى عن مخطّط الحملة الذي وضعه ضدّ «روسيا» . ومنذ ذلك الحين فقد «ماركس» في الأرض الروسيّة ساقاً من ساقيه وعيناً من عينيه .

وعند تمام منتصف الليل فوجئ «ماركس» بدخول ثلاثة من ضبّاطه عليه في مكتبه في «سان‌لو»، وكانوا يحملون زجاجة نبيذ أبيض . لقد قدموا إليه طالبين من رئيس قاس ، ولكنّ محترم ، السماح بالاحتفال بميلاده الثالث والخمسين . كان الاحتفال وجيزاً ، فالعمل يدعو إلى السرعة ، وكان على «ماركس»أن يغادر مقرّه عند خيوط الفجر الأولى للاجتماع الحربيّ الذي سينعقد في «رين»، وكان موضوعه نزول مظليّين أعداء في «نورمانديا».

إحتشدت في «ساوثمبتون» مئات السفن بانتظار إشارة الانطلاق . ولقد داهم هذا الهجوم الجبّار الألمان فأخذهم على حين غرّة .

إعداد جبّار لعمليّة "غزو" أوروبا" الغربيّة

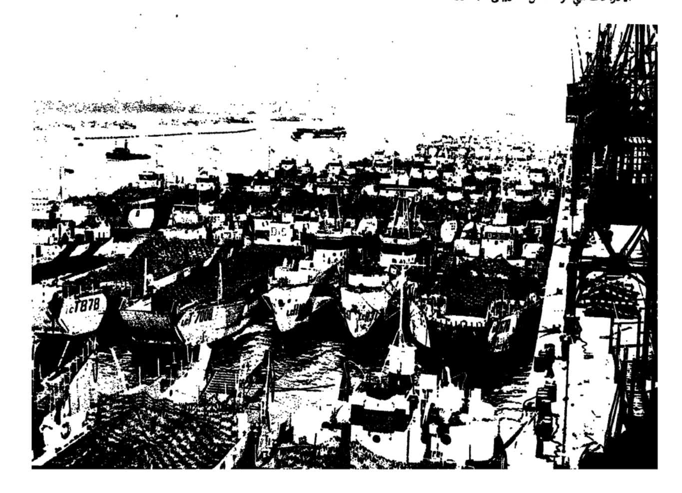
ذاك كان الجانب الألمانيّ من اللوحة ؛ ولننظر الآن في الجانب الحليف منها .

أسند الإعداد الفنيّ لغزو «أوروبا» في كانون الأوّل ١٩٤٢ إلى الجنرال الانكليزيّ «فريديريك ا. مورغان»، وتسمّت هيئة الأركان التي أنشئت لمساعدته باسم «كوساك» . وترمز حروف هذه التسمية إلى المهمّة المنوطة بها . وتفسيرها : «الرئاسة العليا للقيادة الحليفة»؛ ولكنّ هذه القيادة بقيت طوال سنة – أي حتى تعيين «أيزنهاور» – تمثالاً لا رأس له : «فمورغان» لا يعرف لمن يعمل ، ولم يكن ذلك إلاّ أحد أوجه الغرابة والشذوذ في مهمّته. فالفرق التي يضعها على المسرح ما فتىء أكثرها في طور الإعداد الأوليّ . والسيطرة على البحر . وهي الشرط الذي لا بدّ منه ؛ ما برحت تنازعه إيّاها عدّة مئات من الغوّاصات الألمانيّة ، والسفن والزوارق التي يستخدمها للإنزال ما زالت تنتظر البناء ؛ وحتى الرسم . أضف إلى ذلك كلّه أنّ تباين وجهات النظر الستراتيجيّة البريطانيّة والأميركيّة جعل مشروع النزول في «أوروبا» الغربيّة أمراً مشكوكاً فيه . وهكذا كان يخيّل «لمورغان» ولضبّاطه أنّهم يعملون في عالم الخيال لا في عالم الواقع .

ومع هذا فقد كانوا يعملون . أمّا النهج فهو التالي: تُعلِم لجنة رؤساء الأركان المختلطة: المقيمة في «واشنطن»، «كوساك» بالوسائل التي ينبغي أن تأخذها بعين الاعتبار ؛ واستناداً إلى هذه المعطيات تقدّم «كوساك» الاقتراحات التي تراها للحلّ . ويبقى للجنة رؤساء الأركان المختلطة أن تقبلها أو ترفضها أو تعدّلها. أمّا تفصيل هذا العمل الدائب فقد يُعتبر ذا أهميّة مثيرة أو غاية في الجفاء ، وذلك تبعاً لاختلاف وجهات النظر . ولكنّه ، وقد حُفظ في ملفّات لا سبر لغورها ، يشكّل أضخم أثر خلّفته هيئة للأركان حتى ذاك التاريخ .

كانت أسهل المسائل حلاّ مسألة تعيين منطقة النزول ؛ «فهولندا» لا يمكن التفكير بها بسبب الفيضانات؛ والشواطىء البلجيكيّة مستبعَدة نظراً لعنف التيّارات الساحليّة ؛ و«بروتانيا» توفّر من التسهيلات ما يغري . ولكنّها بعيدة نوعاً عن الشواطىء الانكليزيّة ، وطرق اتّصالها بداخل «فرنسا» سيّئة فاسدة؛ ويمتاز «با دو كاليه» بالكثير من الحسنات، ولكنّه قويّ التحصين ويفتقر إلى الشواطىء الملائمة . إذاً فلا يبقى في حلبة السباق غير «نورماندیا» العليا و«نورماندیا» السفلى، أي «لوهافر–دييب» مقابل «كين–شيربور». فعمد «مورغان» إلى إنشاء فريقين أخذا يتناقشان حول وضع الشواطىء ، وإمكان الوصول إليها ، وما تفضي إليه ، وحول مناعة التنظيمات والتحصينات الألمانيّة ، وما إلى ذلك ؛ فربح الجولة فريق «نورماندیا» السُّفلى .

عرف مطلع ١٩٤٤ بروز مخطّط عامّ ؛ سيقوم بعمليّة النزول إلى البرّ ، بين مصبّ «الأورن» ورأس «هوك» ، ثلاث فرق يُضاف إليها فرقة واحدة تُنقل جوّاً . ويصل بعد ذلك إلى الشواطىء والمرافىء المحتلّة ١٦ فرقة بريطانيّة و٢٠ فرقة أميركيّة يُنقل نصفها من «الولايات المتّحدة» مباشرة . ويكون الهدف الستراتيجيّ الأوّل إنشاء «مسكن» بين «السين» و «اللوار» ينطلق منه الزحف العامّ باتّجاه «الرين» . وفيما يجري النزول في



«نورماندیا» یجري نزول آخر في «بروفانسا» تقیّداً بالتدابیر التي تم الاتّفاق علیها في «طهران». وعیّن أوّل أیّار موعداً لتنفیذ العملیّة المزدوجة . ولم یُخف «مورغان» رأیه في مشروعه، فقد وجده غیر واف بالمهمّة؛ إلاّ أنّه اضطرّ إلى أن یلزم حدود الإمكانات التي فُرضت علیه .

في ١٤ كانون الثاني تسلّم «أیزنهاور» قیادته واستقرّ في «لندن»، وبدأ تشكیل هیئة أركان انكلیزیّة أمیركیّة تحمل اسم «شیف» (هیئة الأركان العلیا لقوّات الحملة الحلیفة) ، فامتصّت هذه الهیئة الجبّارة هیئة «كوساك»، وأمسى المخطّط «مورغان»، وقد أسقط إلى رتبة نائب رئیس الهیئة ، في مرتبة تلي مرتبة «بیدل سمیث» مساعد «أیزنهاور» الأوّل .

لم یقوَ مشروع «كوساك» على الصمود في وجه الانتقادات . كان «مونتغومري»،وقد أسندت إلیه قیادة مجمل القوّات البریّة أثناء مرحلة النزول ، واحداً من الذین بادروا إلى القول بأنّ جبهة الهجوم هي غایة في الضیق . وكان لقوّة تدخّله ، ولطریقته في تسلّم زمام المساومة ، إذ قال : «غیّروا مشروعكم أو غیّروني أنا ...»، الفضلُ الأكبر في حمل المسؤولین على إجراء تعدیلات جذریّة . فرُفع عدد فرق المداهمة من ثلاث إلى خمس ، وعدد الفرق المنقولة جوّاً من واحدة إلى ثلاث .

أعاد توسیع نطاق غزو «أوروبا» الغربیّة مسألة النزول في جنوب «فرنسا» إلى بساط البحث ، فقال «أیزنهاور» : «كنت والجنرال «مارشال» نرى في الهجوم جنوبيّ «فرنسا» جزءاً ضروریّاً لا یتجزّأ من الزحف الرئیس عبر «المانش» . بید أنّ السفن والطائرات المخصّصة لذاك الهجوم غدت لازمة لتأمین نزول «نورماندي» موسّع . وقبل الأمیركیّون ، بعد مناقشات حادّة، بأن یرجئوا عملیّة جنوبيّ «فرنسا» إلى أجل غیر مسمّى. ثم أرجىء موعد النزول الكبیر من أوّل أیّار إلى أوّل حزیران، طمعاً في تدعیم غزو «أوروبا» بحصیلة شهر من الإنتاج الصناعيّ ؛ فظنّت «موسكو» بالطبع أنّ الحجّة ذریعة ، وأنّ جبهة ثانیة لن تُفتح إطلاقاً .

أخذت قوّات ضخمة جبّارة تحتشد في «انكلترا»؛ فقد غدا الأطلسيّ، بعد تطهیره من غوّاصات «دونیتز» ، جادّة لتحریر «أوروبا» . كانت السفینتان الملكیّتان «الكوین ماري» و«الكوین الیزابیت» تعبران المحیط من غیر مواكبة بسرعة تبلغ ٢٨ عقدة ، فتحملان رجال فرقة كاملة مرّتین في الشهر الواحد ، فیما تصل الجیوش الأخرى والأعتدة والموّن في قوافل منیعة فعلاً لا یمكن النیل منها . وغدا إیواء هذه الحشود البشریّة الضخمة . وما یعود لها من عتاد هائل ، في «انكلترا» الضیّقة ، مشكلةً جدیدة خطیرة . كان من الصعوبة بمكان أن یُعثر على المطارات الـ ١٣٣ التي طالب بها سلاح الجوّ الأمیركيّ ، وخصوصاً على الأراضي الرحبة الضروریّة لإتمام تدریب الوحدات . فلو جمعنا ١،٧٥٠،٠٠٠ جنديّ بریطانيّ . و١،٥٠٠،٠٠٠ جنديّ أمیركيّ ؛ و١٧٥،٠٠٠ جنديّ من جنود الامبراطوریّة . و٤٤،٠٠٠ متطوّع من مختلف الجنسیّات ، لتبیّن لنا أنّ جیشاً من ٣،٥٠٠،٠٠٠ رجل و٢٠ ملیوناً من الأطنان قد ناء بكلكله على الأرض البریطانیّة . ولقد قیل في ذلك : «إذا لم تغرق «إنكلترا» فذلك یعود فقط إلى أنّ آلافاً من البالونات التي ارتفعت حواجز في وجه الغارات الجویّة كانت تمسك بها ! »

كان عبور جیش بمثل هذه الضخامة عدداً وعتاداً، إلى القارّة ، یشكّل عملیّة هائلة غیر معهودة ، لا توفّر إزاءها سابقاتُ «أفریقیا الشمالیّة» و «صقلیّة» و «إیطالیا» و«غوادالكانال» و«بوغنفیل» و«كواجالیم» سوى دروس محدودة القیمة . فما نحن بصدده الآن هو إنزال ما یزید على ذلك بنسبة تتراوح بین الأضعاف العشرة أو العشرین ، وفي وجه عدوّ أقوى كثیراً . وینبغي بعد ذلك تغذیة العملیّات الرحبة السریعة التي ستعقب النزول. ولذا فقد اكتسب ذاك الفرع من الفنّ العسكريّ، الذي خصّه الأمیركیّون بتسمیة مستحدثة هي «فن اللودجستیك»، ــ والكلمة مشتقّة من فعل «تولودج» أي «أسكن» ــ خطورة لم یحلم بها أحد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الانكلیز ، وقد اتّهموا بأنّهم لم یرغبوا بدراسة مسألة النزول إلى البرّ ، قد فكّروا بها منذ أمد بعید . فمنذ تشرین الأوّل ١٩٤٠ استعرض «تشرتشل»، بناء لطلبه ، أوّل نموذج لسفینة الإنزال الصهریج ، وهي عبارة عن سفینة مسطّحة ، مستطیلة الشكل ، مزوّدة بباب كبیر یسمح ، لدى انفتاحه ، بإنزال الدبّابات إلى الشاطىء. وهكذا كانت «انكلترا» تعدّ فتح القارّة من جدید یوم كانت وحدها صامدة في وجه «ألمانیا» التي كان یبدو انتصارها مضموناً لا مردّ له.

منذ ذلك الحین تسنّى لأسرة كبیرة أن تكبر وتنمو؛ فقد انقسمت سفن الإنزال نوعین كبیرین : سفن إنزال وزوارق إنزال . «فزورق الإنزال» (لاندینغ كرافت) یُنقل أو یُجرّ إلى جوار الشاطىء عموماً ، أمّا «سفینة الإنزال»(لاندینغ شیب) فقادرة على عبور البحر بوسائلها الذاتیّة . وتتفرّع عن ذینك النوعین فروعٌ كثیرة تناسب أوجه استعمالها الخاصّة : فمنها ما هو خاصّ بهیئات الأركان ، أو بالمشاة، أو بالدبّابات، ومنها ما هو خاصّ بالمدافع ، أو العربات ، أو الرجال ، إلى ما هنالك؛ یضاف إلى ذلك كلّه أنواعُ الشاحنات والدبّابات البرمائیّة .

ولكنّ سفن الإنزال وزوارقه على اختلافها لم تلغ مشكلة المرافىء؛ كان لا بدّ من أن تُقام ، في أمد قصیر ، منشآت محمیّة قادرة على خدمة جیش عامل ضخم . كان أحد الحلول یقضي بالاستیلاء على أحد المرافىء الكبیرة منذ الأیّام الأولى ، غیر أنّه كان من الواجب أن یُحسب حساب العدوّ على صعید المقاومة وعلى صعید التدمیر اللذین لا بدّ أن یلجأ إلیهما . أمّا الجواب ، وأمّا الحلّ الموقّت ، ففي المرفئین الاصطناعیّین الآخذین في النموّ في أحواض «المملكة المتّحدة» ، ومصابّ أنهرها ، تحت اسم «مالبیري» الاصطلاحيّ ؛ وقد خُصّ أحدهما بمنطقة النزول البریطانیّة، وخُصّ الثاني بالمنطقة الأمیركیّة .

كانت الفكرة من بنات أفكار «تشرتشل»؛ فیومّ أوصى بها لجنة رؤساء الأركان المختلطة في رسالة ٣٠ أیّار ١٩٤٢ كتب ما یلي : «لا تناقشوا الموضوع ، فستتولّى العقبات مناقشته بنفسها» . ولقد كانت في الواقع ضخمة للغایة ؛ «فالمانش» بحر صعب المراس ، حافل بتیّارات متناقضة ، وبحركات من المدّ والجزر غیر متساویة ، وبتقلّبات نزقة عنیفة ؛ ولقد تطلّبت إقامة مرفئي «دوفر» و«شیربور» الاصطناعیّین ، اللذین فُرضا على «المانش» فرضاً ، أجیالاً من الأعمال الشاقّة . إلاّ أنّ الحرب تفتّق عند الإنسان فیضاً من الطاقات الرائعة العجیبة .

یمتاز مرفآ «مالبیري» البسیطان من حیث المبدأ بتعقید فنيّ یستحوذ على الألباب . یبدأ التمهید للعمل بطریقة كلاسیكیّة تقوم على إغراق سفن تجاریّة قدیمة ، تدعى «غوز بریز»، مثقلة بالإسمنت السریع التصلّب، أمام الشواطىء؛ وتُدعّم مكاسر الأمواج البسیطة هذه بصفوف من الاسطوانات العائمة المصنوعة من الفولاذ والباطون، تُدعى «البمباردون»، وتوضع بعد ذلك القطعُ الأساسیّة ، وهي صنادیق من الباطون المسلّح أو «فینیكس» ، یضاهي علوّها علوّ أبنیة من خمس طبقات ، تُجرّ عبر «المانش» ، فتُرتجل منها سدود تمتدّ مسافة كیلومترات لتحمي منبسطات من الماء تبلغ مساحتها ما یقارب ألف هكتار ، تُنشأ فیها أرصفة جرّارة تدعى «حیتاناً» ، وتتّصل هذه بالشاطىء ، بواسطة جسور معدنیّة عائمة، بحیث تستوعب سبع سفن وما یقارب ٣٠ قارب إنزال في آن معاً . فیغدو بوسع مرفإ اصطناعيّ كهذا أن یستوعب ما یستوعبه مرفأ «دوفر» مثلا . أمّا المدّة التي یتمّ بها إنشاؤه فهي خمسة عشر یوماً .

٤١٢٦ سفينة تهاجم «أوروبا»

هنالك عنصر ذو أهميّة كبيرة قد أثّر على الاعتبارات الانكليزيّة الأميركيّة ، ألا وهو وضع «فرنسا» . إلاّ أنّ التقدير الملموس لهذا العامل أمر صعب للغاية . فالعوامل التي تختلج بصدد «فرنسا» كثيرة متضاربة : إنّها حليفة لكونها قد دخلت الحرب في آن معاً مع الأمبراطوريّة البريطانيّة ، ولكونها قد حاربت إلى جانبها حتّى سُحقت سحقاً . وهي عدوّة لكونها قد تفاوضت مع «هتلر» ، ولكون رئيس حكومتها «لافال» يصرّح بأنّه يتمنّى أن يتحقّق انتصار «ألمانيا» . وهنالك في «فرنسا» مقاومة نشيطة ضدّ المحتلّ ، ولكنّ فيها أيضاً أشكالاً ساطعة للتعاون معه . والمقاومة نفسها عرضة لتقديرات كثيرة التناقض ؛ فالمعلومات التي ترد بشأنها يترجّح فحواها تارة باتّجاه ، وطوراً باتّجاه آخر . ولكنّ المظهر الإجماليّ لا يوحي إلاّ بفوضى عارمة . فما هو الأساس الذي يمكن أن يبنيه الحلفاء على وضع متفكّك كهذا ؟ وما هو السند الذي يمكن أن يرتجوه منه في تحضير عمليّتهم العسكريّة وإنجازها ، تلك التي كانت بالنسبة للفرنسيّين تحريراً وغزواً على السواء ؟

كان الارتياب ينتاب القوّاد الحلفاء الكبار عامّة ؛ فمارشال الجوّ سير «أرثرو. تيدر» ، المساعد الأوّل «لأيزنهاور» ، قد اعترض بشدّة عندما طُلب إليه ، قبل النزول بأيّام ، أن يتخلّى عن ٢٥ طائرة من طائراته الـ ١٥،٠٠٠ للإكثار من تموين رجال المقاومة الفرنسيّة بالأسلحة بواسطة المظلاّت . وأمّا أعمال تخريب القاطرات الـ ٨٠٨ ، التي ادّعت المقاومة أنّها قامت بها خلال أشهر ١٩٤٤ الثلاثة الأولى ، فلم تُتّخذ قط موضع جدّ ؛ وأمّا حقيقة «المخطّط الأخضر» ، الذي يدّعي القيام بـ ٥٧١ هجوماً على الخطوط الحديديّة إبّان النزول ، فقد وُضعت موضع شكّ . وكان الأمر سيّان بالنسبة للقوّات الفرنسيّة الداخليّة التي نُصب الجنرال «كونيغ» لتوّه قائداً عامّاً لها . وبعد تبادل النقاش قرّرت القيادة العليا الحليفة لقوّات الحملة أن تعتبر المقاومة الفرنسيّة كـ «فائض» . فلسوف تقابَل الخدمات ، التي يمكن أن تسديها ، بالجميل ، ولكن أن يكون لها مكانة ونصيب في حساب العمليّات فذلك أمر لم تجرِ الموافقة عليه.

وزاد «ديغول» المعضلة تعقيداً . فلا ريب أنّ «روزفلت» كان يفضّل اجتياح «فرنسا» الأمّ كما فعل في «أفريقيا الشماليّة» الفرنسيّة ، من غير أن يُبلغ الجنرال الذي غدا رئيساً لحكومة موقّتة ؛ ولكنّ الإلحاح الانكليزيّ جعله يتفادى إرتكاب هذا الخطإ . إلاّ أنّ «ديغول» ، الذي استُدعي إلى «لندن» في ٤ حزيران ، شرع بإثارة المصاعب . وكتب «تشرتشل» إلى «روزفلت» يقول : «لقد دمدم وتذمّر ، إلاّ أنّ «ما سيغلي» وآخرين غيره قد هدّدوا بالاستقالة إن هو رفض تلبية دعوتي . وإن هو أتى فلسوف يقابله «أيزنهاور» مدّة نصف ساعة ليعرض له الوضع من وجهة نظر عسكريّة بحتة . وأنا لا أعتقد أنّنا نستطيع أن نعلّق عليه كبير أمل...» ولم تكد الرسالة تنطلق إلى هدفها حتّى أقبل الجنرال غاضباً يرافقه «إيدن» الذي ذهب إلى مدينة «الجزائر» لاصطحابه ؛ فقال إنّه ، على الرغم من إنذاراته ، علم أنّ قوّات الحملة سوف تنزل في «فرنسا» مزوّدة بعملة مسكوكة في الخارج لا تعترف بها حكومة الجمهوريّة بتاتاً . وكان يتوقّع أن يضع الجنرال «أيزنهاور» «فرنسا» تحت سلطته ليخضعها لـ «المقاطعات التي تحتلّها حكومات الحلفاء العسكريّة» . وأمّا هو ، «ديغول» ، فكان يناهض هذا الأمر بكامل قواه : فهو يمثّل الشرعيّة ، ولسوف يطأ الأرض الفرنسيّة بكونه السلطة التي تعترف بها أكثريّة الأمّة ، وسيؤول إليه ، دون سواه ، أن يحدّد ، بسيادة شاملة ، الشروطَ التي ستتعاون السلطات الفرنسيّة والشعب الفرنسيّ بموجبها مع الحلفاء .

لقد كانت المقابلة جافية . وأمّا «تشرتشل» و «ديغول» ، وهما كاتبا مذكّرات كبيران ، فقد وصفها كلّ منهما بطريقته الخاصّة ؛ ولكنّ أحداً منهما لم يترك مجالاً للشكّ في عنف الصدام . وهدّد «تشرتشل» «ديغول» بإعادته إلى مدينة «الجزائر» ، وصرّح من غير تمويه بأنّ «بريطانيا العظمى» ، لو خُيّرت بينه وبين «أميركا» ، لانحازت إلى جانب هذه الأخيرة . وأجاب «ديغول» بأنّه يعلم سبب ذلك خير العلم ؛ وبهذه الملاحظة القاسية ارفضّت المقابلة .

كان «أيزنهاور» في «ساوثويك» قرب «برايتون» ، فذهب «تشرتشل» إليه «بديغول» في قطاره الخاصّ . وكان قلق ساحق ومسؤوليّة مروّعة يثقلان كاهل القائد الأعلى ؛ فاليوم التالي ، أي الاثنين في ٥ حزيران ، سوف يكون «اليوم المقرّر» . في الليلة البارحة كانت مئات من السفن قد أبحرت ، ولكنّ الأحوال والتكهّنات الجوّية أتت في الساعة ٤:٣٠ صباحاً تحدو «آيك» (على الرغم من معارضة «مونتغومري») إلى تقرير تأجيل النزول لمدة ٢٤ ساعة . وأمّا الخلل الذي نتج من جرّاء ذلك في جهاز النزول الدقيق فقد كان مخيفاً . وأمّا الخلل الذي قد يحدث بسبب تأجيل جديد فقد يكون مفجعاً . فبعد يوم ٧ لن يكون أوّل تاريخ مناسب غير يوم ١٩ حزيران . إذ ذاك سوف ينبغي إنزال الجند ، الذين كان بعض حشودهم قد أمضى على متون الناقلات أيّاماً عديدة ، في أوضاع مزعجة للغاية . ولسوف يغدو محالاً الحفاظُ على تدابير العزل القاسية المتّخذة منذ آخر أسبوع من أيّار للإبقاء على السرّ . فتأجيل جديد كان من شأنه فرض إعادة تنظيم النزول بصورة تامّة ، وأن يقود إلى إمكانيّة التخلّي عن العمليّة.ومن ناحية أخرى يمكن أن يتحوّل النزول وسط العاصفة إلى كارثة.

وفي غمرة هذه الحيرة أظهر «أيزنهاور» حزماً خلقيّاً أكيداً في استقباله الجنرال الفرنسيّ بأدب وصبر أثارا ثائرة «تشرتشل» . ولكنّ كلّ رونق يؤول إلى بهتان في وجه السخط الديغوليّ . أصغى «ديغول» ببرودة إلى عرض مخطّط الغزو ، ثمّ ، وبعد ما أخذ علماً برسالة «أيزنهاور» إلى الأمّة الفرنسيّة ، صرّح بأنّ ما سيسميه «الأمر الراهن» في كتابه «مذكّرات حرب» لا يمكن القبول به . وأمّا الوثيقة التي كانت مفعمة بالمديح الطنّان للجيش والشعب الفرنسيّين فقد تضمّنت جملتين منتهكتين لحرمة «ديغول» ؛ وهما : «إنّ الطاعة السريعة ، والمبادرة إلى الاستجابة للأوامر التي سوف أصدرها ، أمر أساسيّ» ، و : «بعد تحرير «فرنسا» ستختارون بأنفسكم الحكومة التي يطيب لكم التعاون معها ...» .

وكان قد تمّ الاتّفاق على أن يتعاقب على الكلام في الإذاعة ملك «نروج» وملكة «هولندا» ودوقة «لوكسمبورغ» الكبيرة ، على أن يقرأ «أيزنهاور» بعد ذلك نصّ إعلانه ، ثمّ يليه «ديغول» مختتماً ركب بلاغات الإعتاق . ولكنّ «ديغول» رفض ضمّ صوته إلى أصوات رؤساء الدول والحكومات الذين يرحّبون بالنزول الانكليزيّ الأميركيّ على أرض «أوروبا» المستعبَدة ، وقرّر أن يبقى ضبّاط الاتّصال الفرنسيّون الـ ٢٠٠ ، الملحقون بقيادة الحملة الحليفة العليا ، في «انكلترا» . وأضاف «ديغول» إلى هذا الرفض المتعدّد مسحةً معبّرة رمزيّة على استيائه ، فرفض دعوة العشاء ، ورفض أن يعود إلى «لندن» بقطار «تشرتشل» .

وبعد انصراف «ديغول» كان عَود إلى الانتظار . كان «أيزنهاور» قائماً في حرج غارق في الرطوبة ، على قيد ميل من ولاية «ساوثويك» البحريّة . وكان الطقس مطابقاً للنشرة التي وضعها علماء الأحوال الجويّة: مطر لاذع ، ورياح سرعتها بين ٢٥ و٣١ عقدة . وكانت المرافىء جميعاً ، من «بليموث» إلى «نيوهيفن» ، مكتظّة بسفن كثيرة تتراقص فوق المياه الصاخبة . وفي العرض كان البحر هائجاً . وقد بعثت الأميراليّة إلى

البحّارة إنذاراً عاصفاً .

في الساعة ٢١،٣٠ انعقد مؤتمر آخر في مكتبة «ساوثويك» . وأمّا رئيس الأحوال الجويّة ، الكابتن «ج.م. ستاغ» ، من الطيران الجويّ الملكيّ . فقد بدأ تقريره مسجّلاً أنّ الإبقاء على النزول في ٥ — أي بعد ساعات — قد يجرّ إلى كارثة . في الوقت الراهن كانت خارطة الطقس تميل إلى التحسّن بعض الشيء : فالمفروض أن تعتدل الرياح ، وأن تتقشع السماء جزئياً. وبعد ما انهالت الأسئلة على «ستاغ» من كلّ صوب . امتنع عن الوعد بأكثر من ذلك . قال : « إذا أجبت عن أسئلتكم فلن أكون عالماً بالأحوال الجويّة ، بل عرّافاً ! .. » لقد قال العلم كلمته . وكان على الستراتيجية أن تصل إلى قرار .

كان الجوّ متقلباً . وأمّا المارشالان «لي مالوري» ، قائد القوّات الجويّة ، و «تيدر» ، مساعد «أيزنهاور» ، فكانا يشكّكان في أن يلعب القصف الثقيل والقصف المتوسّط دوراً والسماء على ما هي عليه من حال .
وكانت البحريّة قلقة ؛ فقد أشار الأميرال «رامسي» إلى أنّه ينبغي إصدار أمر بالإبحار في غضون نصف ساعة ، وإلاّ تعذّر على القوافل أن تسير حسب التوقيت الموضوع . ولكنّ البرّ كان أكثر ثقة ؛ فقد أشار «بيدل سميث» بإلحاح إلى الخطر الذي يكمن في التأجيل إلى ١٩ حزيران. وصرّح «مونتغومري» مجدّداً بأنّه يؤثر تنفيذ الخطّة للحال . وبعدما أدلى الجميع بآرائهم . عاد العبء المشؤوم يقع على كاهل «أيزنهاور» . ولقد أوجز ببضع كلمات ذكرَ الحسنات والسيّئات ، ثمّ قال : «إنّني أصدر هذا الأمر مكرهاً . ولكنّ هذا الأمر واجب ...»

إنّ الساعة ٢٢ سوف تأزف بعد دقائق ، وهي المهلة القصوى لاتّخاذ قرار إيجابيّ . ولكن كان ما يزال ممكناً ، كما حدث في الليلة البارحة ، العدولُ عن التنفيذ في ساعات الفجر الباكرة . وقد تقرّر إجراء مداولة نهائيّة في الساعة ٣،٣٠ ، في مكتبة «ساوثويك» .

حين شدّ «آيك» رحله كانت ريح عاصفة تهزّ أوصال مخيمه الصغير في الأحراج . كان الطريق موحلاً ، وتحت ضوء مصابيح السيّارة المصفّحة كان المطر القادم من جهة البحر يبدو وكأنّه يهطل بصورة أفقيّة . ولكنّ الكابتن «ستاغ» أصرّ على الاعتصام بالاستنتاجات التي توصّل إليها في الليلة السابقة : كان منتظراً أن يتحسّن الطقس خلال النهار والليالي الآتية ، ولم يكن بالإمكان أن يدلي بغير هذه المعلومات .

لقد اشترك في النزول جيشان . في الغرب الجيش الأميركيّ الأوّل ، بقيادة الجنرال «عمر برادلي» ، الذي أنزل إلى الساحل فيلقيه ٥ و٧ ومع كلّ منهما فرقة مدعومة . وإلى الشرق الجيش البريطانيّ الثاني ، بقيادة الجنرال السير «مايلز دمبسي» ، الذي أنزل فيلقيه ١ و ٣ ، الأوّل بفرقتين والثاني بفرقة واحدة . ركب الأميركيّون البحر في المرافىء القائمة بين «سالكومب» و «بول» ، والبريطانيّون في المرافىء الواقعة بين «سولنت» و «نيوهيفن» .

كانت عشر فرق «للموازرة» تلحق مباشرة بوحدات الإغارة . فنزلت إلى البحر من الجناحين ، أبحر الأميركيّون في «بليموث» و«فالموث»، والبريطانيّون في مصبّ «التاميز» في «شيرنس» و«ساوث إند» و «هارويتش» .

لقد تطلّب عبور «المانش» مخطّطاً أسمي «نبتون» بلغ من التعقيد حدّاً بعيداً . فقد كان يترتّب أن تجتاز بحراً صاخباً ٤،١٢٥ سفينة إنزال موزّعة إلى ٢٦ فئة ، يتّسم معظمها برداءة إمكاناته البحريّة ، وكان بحّارتها جميعاً عديمي الخبرة . وكان الأمل يداعب البحّارة بأن تقوم مراكبهم بالمغامرة في ليلة من ليالي الصيف الجميلة . ولكنّهم سوف يجتازون وهاداً مائيّة عمقُها متران ، ورياحاً زوزاء سرعتها ٢٨ عقدة ، ترتعد إزاءها فرائص البحّارة المحترفين وجلاً ! ..

كان على كتلة سفن الإنزال هذه ، وعلى أكثريّة سفن الحرب الـ ١،٢١٣ التي تواكبها أوتساندها ، أن تمرّ بمحطّة منظّمة حقيقيّة هي منطقة «ز» ، أطلق عليها اسم «بيكاديللي سيركوس» . وكان قياس قطر دائرتها يبلغ عشرة أميال ، وأمّا قلب المحطّة هذه فكان يبعد ١٨ ميلاً إلى الجنوب الشرقيّ من «وايت» . وقد سُلِّمت كلّ تشكيلة أو قافلة جداولَ إبحار صارمة أسميت «رسوم ميكي ماوس» .

من «بيكاديللي سيركوس» انطلق «المجمّع» الذي ينفتح بصورة مفلطحة حتى يبلغ خطّاً أمامياً في رأس «بارفلور—أنتيفير» . وكان «المجمّع» يمرّ بالحقل الكبير للألغام الألمانيّة المزروعة في قلب «المانش» ، من خلال خمسة أزواج من الممرّات المائيّة الضيّقة . فقد بدا وكأنّ العمليّة التي بدأت بعد ظهر ٥ ، والتي كانت مستمرّة ، لم تثر انتباه العدوّ .

وكان على القوافل، بعد خروجها من «المجمّع» ، أن تتوجّه بشكل مروحة نحو مناطق النزول الخمس التي خُصِّصت كلّ واحدة منها لفرقة واحدة ، وكانت تحمل التسميات الاصطلاحيّة التالية ، من الغرب إلى الشرق : «يوتا» (الفرقة الأميركيّة الرابعة)،«أوماها» (الفرقة الأميركيّة الأولى)،«غولد» (الفرقة البريطانيّة الخمسون)،«جونو» (الفرقة الكنديّة الثالثة) ، «سورد» (الفرقة البريطانيّة الثالثة) .

وأمّا الأساطيل المشتركة في هذا العبور الأسطوريّ «للمانش» فقد وُزّعت بين «قوّة غربيّة» بإمرة الأميرال «ألن ك . كيرك» ، تعمل مع الجيش الأميركيّ الأوّل ، و«قوّة شرقيّة» بإمرة الأميرال سير «فيليب فايان» ، تعمل مع الجيش البريطانيّ الثاني . وكانت هاتان القوّتان تضمّان قائمة طويلة مؤلّفة من ٢١٣ سفينة على رأسها ٧ بوارج (٤ انكليزيّة و٣ أميركيّة) ، و ٢٣ طرّاداً (١٦ انكليزيّاً ، ٣ أميركيّة ، و٢ فرنسيّان، و١ بولونيّ) و١٦٨ مدمّرة (٧٩ انكليزيّة ، و٣٦ أميركيّة ، و٣ فرنسيّة ، و٣ نروجيّة ، و٢ بولونيّتان) . إذاً فثلثا هذا الأسطول الذي لا مثيل له ، انكليزيّان ، وذلك بعد انقضاء خمسة أعوام من الحرب وفقدان ٣ بوارج ، وطرّادَي قتال ، و٨ حاملات طائرات ، و٤٥ طرّاداً وطرّاداً مساعداً ، و١٣٦ مدمّرة ، الخ. وإنّ في هذا الواقع لبرهاناً على الحيويّة والفاعليّة قاطعاً مهيباً .

كان على معظم عمارات القتال أن تساند النزول بإطلاق النار على الأهداف البريّة . وأمّا العمارات الأخرى فمهمّتها مراقبة منافذ «المانش» ونصب شاشات مضادّة لغوّاصات العدوّ وزوارقه الحربيّة . ومع أنّ الألمان كانوا فاقدي الضعف في البحر ، فقد كانوا يشكّلون بعض الخطر . ففي أيّار تدخّلت مجموعة من السفن الألمانيّة أثناء تدريب النزول ، فأغرقت ٣ سفن حربيّة للإنزال ثمينة ، مع ٧٠٠ من جنودها وبحّارتها . فبتوافر المرامي التي ملأت جنبات «المانش» كان بميسور بعض القوّاد الهمام أن يتزلوا بالحلفاء الكوارث ولو كانوا بنسبة ١ لـ ١٠٠ .

لم تكن المساندة الجويّة أقلّ ضخامة من المساندة البحريّة . فقد كانت بإمرة مارشال الجوّ سير «ترافورد ل. لي—مالوري» ١٣،٠٠٠ طائرة قابلة لخوض العمليّات ، منها ١١،٥٩٠ طائرة كانت على أهبة الاستعداد. وأمّا الطيران الجويّ الملكيّ ، والتشكيلات الأخرى الخاضعة له كالطيران الجويّ الكنديّ والأوستراليّ والنيوزيلانديّ ، والقوّات الجويّة البولونيّة والفرنسيّة والبلجيكيّة والهولنديّة والنروجيّة ، فقد أسهمت في هذا المجموع بـ ٥،٥١٠ طائرات . وأمّا القوّة الجويّة الأميركيّة الثامنة ، التي

يقودها الجنرال «دوليتل». فقد كان نصيبها ٦.٠٨٠ طائرة . وكانت قاذفات النهار والليل الثقيلة الـ ٣.٤٤٠ من صنع «هاليفاكس» و«لانكستر». و«ب-١٧» أو «القلاع الطائرة» . و«ب-٢٤» أو «ليبيريتور»، تنقل من ٤.٠٠٠ ليبرة إلى ١٤.٠٠٠ ليبرة من القنابل. وأمّا القاذفات الـ ٩٣٠ الخفيفة فقد كانت كلّها من صنع «ميتشل» و«بوستون» و«موسكيتو». و «ب-٢٦» أو «مارودر». و «أ-٢٠» أو «هافوك». وكانت أكثر من ٥٠٠،١ طائرة. منتمية إلى نحو من عشر فئات . تشكّل الاستطلاع . والتنسيق. والحراسة الساحليّة . والقتال المضادّ للغوّاصات . والدائرة الصحيّة، الخ . وكانت ١.٣٦٠ طائرة. يضاف إليها ٣.٥٠٠ طائرة شراعيّة . تشكّل أسطول النقل . وهي من طراز «هاميلكار» و«سترلنغ» من صنع انكليزيّ، و«ك-٤٧» أو «داكوتا» من صنع أميركيّ . وأخيراً حشد المطاردات والمطاردات القاذفات الـ ٤.١٩٠ . وهي من طراز «سبيتفاير» و«تايفون» . و«ب-٣٨» أو «لايتننغ». و«ب-٤٧» أو «ثاندربولت». و«ب-٥١» أو «موستانغ». وقد قدّرت القيادة الحليفة العليا تفوّقها الجويّ بنسبة ١٥ إلى ١. وأمّا التقدير الألمانيّ ، الذي جاء بنسبة ٥٠ إلى ١ ، فهو أقرب إلى الحقيقة.

كان هذا الطيران الجبّار قد فتح مسبّقاً ثغراً في جدار الأطلسيّ . معطّلاً الرادارات الـ ٦٤ التي كانت تقوم بحراسة الشواطئ من «تيكسيل» إلى رأس «فريبيل». وكان عليه في اليوم المعهود أن يسخّر كامل قواه لسحق الدفاع الساحليّ . ولكن. لسوء الطالع . وبسبب رداءة الطقس ، سوف تُنجز عمليّات كثيرة من عمليّات القصف بواسطة الآلات الموجّهة. وقد بات يُخشى أن تحدث أخطاء قد تبيد قوّات من القوّات الحليفة .

لقد أدّى تحديد ساعة الهجوم إلى التحكيم بين الحسنات والسيّئات . فالنزول المسائيّ كان مناسباً لأسباب عديدة ، ولكنّ النزول الصباحيّ قد أوثر خوفاً من الفوضى التي قد تنتج من جرّاء الظلمة . وكان من المنطق أن يفاد من حركة المدّ والجزر للاقتراب من الشاطئ بقدر المستطاع ، ولكنّ القوّاد آثروا حركة الجزر . محبطين بذلك استعداد «رومل» . لأنّ الجزر يكشف عن الصخور الاصطناعيّة التي زرعها العدوّ . وتحسّباً للتغييرات المحليّة بالنسبة لوقت الجزر . فقد حُدّد موعد النزول للساعة ٦.٣٠ بالنسبة «ليوتاه» و«أوماها». و٧.٢٥ بالنسبة «لغولد» و«سورد». و٧،٣٥ و٧،٤٥ على التوالي لميمنة «جونو» وميسرته .

لم تكن مناطق النزول الخمس متّصلة ولا متشابهة . فكلّ منطقة منها مشكلة قائمة بحدّ ذاتها . وقد تطلّبت مخطّطاً خاصّاً .

يمتدّ «سورد» من مصبّ «الأورن» إلى «ليون - سور - مير». وهي محطّة استجمام صغيرة . والساحل هناك مسطّح ورمليّ . ويحدّ الطريق الساحليّة رقم ٨١٤ منازل ودارات متّصلة تتكاثف في دساكر «ريفا بيلا» و «ويستريهام» الصغيرة . وهي نهاية خطّ ترعة «كين» البحريّة. وكانت طبيعة الشاطئ المغلّفة تسهّل تركيز الأضواء على السفن. ولهذا السبب ركّزت هناك مساندة بحريّة ثقيلة مؤلّفة خصوصاً من «الوورسبايت» و«الراميليز». والمدرّعة الحربيّة المتوسّطة الحجم «روبرتس». وكانت مكلّفة بخنق بطّاريّات «فيليرفيل» و«بيرفيل» و «هولغات». وفي سبيل إرشاد نزول الفرقة البريطانيّة الثالثة، واللواء المصفّح ٢٧ . أرسلت غوّاصة الجيب «إكس ٢٣» إلى مصبّ «الأورن» وفي قلبها ضابطان. كان عليها أن تصعد إلى سطح الماء في صباح ٥ لتوجيه القوافل . إلاّ أنّ النزول قد أجّل، فتلقّت الغوّاصة أمراً بالانتظار أربعاً وعشرين ساعة إضافيّة وهي مستقرّة في القاع. فراحت تنتظر.

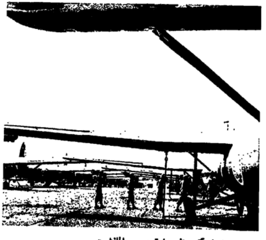
إنّ أهميّة منطقة «سورد» تعود لكونها قريبة من «كين» . وكان ينبغي منذ اليوم المعهود الاستيلاء على المدينة، التي تُعتبر كمخرج «النورماندي» نحو «باريس». كانت هذه مهمّة صعبة؛ وفي سبيل تحقيقها



جنود كنديّون يركبون سفنهم في طريقهم إلى المغامرة الكبرى .



كانت توصية الجنرال «أيزنهاور» الأخيرة لهؤلاء المظليّين : «لا أرضى منكم إلاّ بالنصر التامّ الناجز !» .



طائرات شراعيّة تنتظر ساعة عبور «المانش» .

تمّ تحضير نزول جويّ متّصل بالنزول البحريّ. وقد كُلّفت الفرقة البريطانيّة السادسة المنقولة جوّاً بهذه العمليّة؛ وهي بإمرة الماجور جنرال «غيل»، وكانت مهمّتها أن تسيطر على ضفّة «الأورن» اليمنى لحماية جانب الغزو الأيسر. وأمّا لواءا المظليّين ٣ و ٥ فلسوف يهبطان بالمظلاّت، أو بواسطة الطائرات الشراعيّة، في مناطق نزول ثلاث: «ف» بالقرب من «فارافيل»، و«ك» بالقرب من «توفريفيل»، و «ن» بالقرب من «أمفريفيل»؛ وكان عليهما أن يستوليا عنوة على الجسور فوق «الأورن» والترعة البحريّة في «بينوفيل» وفي «رينيفيل»، وأن ينسفا الجسور على «الديف» في «بيرييه» و «روبوم» و «تروارن»، وأخيراً أن يدمّرا بطاريّة «ميرفيل» في مصبّ «الأورن». وأمّا مجموعتا الطيران الجوي الملكي ٣٨ و٤٦ فقد جرّتا قُطُرهما الجويّة وأقلعتا والسماء عاصفة مكفهرّة؛ وكان عليهما أن تجتازا الساحل الفرنسيّ عند منتصف الليل.

وعلى بعد ٨ كلم غربيّ «ليون–سور–مير» تبدأ المنطقة «جونو». وفي تلك المنطقة صخور ناتئة تتقدّم الشاطئ يتعذّر النزول بسببها في وقت الجزر الكامل. وهذا ما أدّى إلى تأخير ساعة الهجوم قليلاً. وكانت غوّاصة أخرى، هي «إكس ٢٠»، تنتظر القافلة التي تحمل الفرقة الكنديّة الثالثة. التي كان قطاعها يمتدّ من «سانت أوبان» إلى «كورسوي–سور–مير». وكان عليها خلال اليوم الأوّل أن تجاوز طريق «بايو» إلى «كين»، وأن تستولي على مطار «كاربيكي».

وفي منطقة «غولد» كان على الفرقة البريطانيّة الخامسة، والكتيبة المصفّحة الثامنة، أن توطّدا أقدامهما ابتداء من قرية «لاريفيير» حتى قرية «هاميل». والساحل هناك موحش، وهو أقلّ سكنى منه حول «ريفا بيلا». وإلى ما وراء الشطآن تمتدّ مستنقعات تلتفّ حولها الطريق رقم ٨١٤. وكان المخطّط يتوقّع أن تنتشر القوّات نحو الغرب للاستيلاء على «أرومانش–لي–بان» حيث كان مفروضاً أن يُشرع ببناء مرفإ من مرافئ «ماليبري». وكان على جناح الهجوم الآخر أن يحرّر، منذ العشيّة الأولى، «بايو» الصغيرة.

كانت ٢٥ كلم تفصل بين القطاع البريطانيّ والقطاع الأميركيّ. وكان الساحل وباطن المنطقة يختلفان، فراحت مشاكل الإنزال، ومرحلة ما بعد النزول، تزداد صعوبة وتعقيداً.

كان «أوماها بيتش» يمتدّ من «بور–أون–بوسان» إلى الطرف، وعلى مستوى ارتفاع الثغرة. وكانت الجروف تحيط بها من جانبيها، وهي تعلو نحواً من ثلاثين متراً. وأمّا المنافذ التي كانت تقود إلى الشاطئ المزنّر بنطاق كثيف من التلال؛ فكانت معابر ضيّقة تنتهي إلى قرى «غران–هامو» و«كولفيل–سور–مير» و«سان–لوران–سور–مير» و«فيير فيل–سور–مير». فهذه المسالك المستترة كانت منافذ «أوماها بيتش» الوحيدة بالنسبة لفرقة المشاة الأميركيّة الأولى، ولعناصر الجيش التي تشكّل موجة الانقضاض الأولى.

وإلى الوراء لم يكن الميدان مؤاتياً لعمليّات جيش قويّ آليّاً. فالسهل المنقشع في جوار «كين» يتحوّل إلى غابة صغيرة مزروعة بحقول التفّاح فيها المسالك أخاديد عميقة، مجزّأة إلى بقع صغيرة تسيّجها سدود من الأرض وسياجات من الدغل كثيفة. وهناك عثرة أخرى في خضمّ هذه الورطة: إنّها حفرة «الأور» الذي يجري ابتداء من «بايو» بموازاة البحر. فواديه، الذي كان مستنقعاً بطبيعته، والذي غمره الألمان بالمياه، لم يكن عبوره ممكناً بين بلدة «تريفيير» ومدينة «إيزينيي» الصغيرة. وكان المخطّط قد تكهّن بأنْ سيتمّ بلوغ هاتين العسكرتين في عشيّة النزول. ومن «تريفيير» سوف يتمّ الالتفاف حول المنطقة المغمورة. ومن خلال «إيزينيي» سوف يُقحم مصبّ «الفير» ولسوف تتقدّم القوّات نحو «كارنتان» لإقامة الاتّصال مع القوّات التي تنزل في «كوتنتان».

كانت ناتئة «هوك» موضعاً لعناية خاصّة. فالبطاريّة المركّزة على هذا الجرف العالي المثلّث الزوايا كانت تعتبر «أكثر البطاريّات خطورة في «المانش» كلّه». فقطعه الستّ من عيار ١٥٥، التي يبلغ مدى مرماها ٢٠،٠٠٠ متر، كانت تسيطر بنيرانها على «أوماها بيتش» وعلى «يوتاه بيتش» على ساحل «كوتنتان». وعلى هذا الأساس احتفظ المهاجمون لها بقذائف «التكساس» من عيار ١٤ بوصة، وبهجوم بواسطة التسلّق أسند إلى الليوتنان – كولونيل «جيمس إ. رادّر» التكساسيّ. ففي الساعة المعيّنة كان على كتيبته، التي تضمّ جنود الـ «رينجرز»، أن تنزل عند أقدام الناتئة التي تنكشف بفضل الجزر. وسوف يُطلق سلالمَ الحبال مدفعٌ خاصّ فتعلّق على الجدار العموديّ، وسوف يحاول الجنود كذلك تركيز سلّمين بمزلاق قدّمهما إطفائيّو «لندن». وكانت المحاولات التي أجريت على جروف جزيرة «وايت» الكلسيّة قد أثبتت أنّ التسلّق البحريّ هذا لم يكن أمراً محالاً – اللهمّ إذا حدث بعيداً عن مرمى نيران العدوّ.

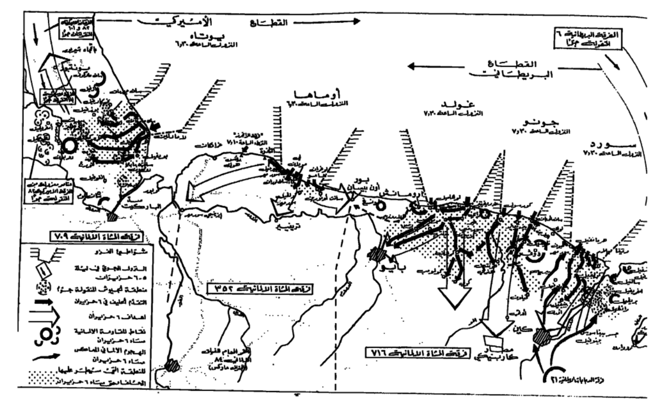
ولقد أثارت «يوتاه بيتش» مشاكل أصعب من هذه. فالشاطئ كان «بائساً»؛ إنّه عريض ولكن وحل. يحدق به نطاقٌ من المستنقعات لا يمكن عبورها إلاّ من خلال الطرقات الضيّقة التي تقود إلى القرى المنتشرة على طول الطريق رقم ١٤. وكانت أربع من هذه الطرقات، وهي طرقات «بوبفيل» و «هوديانفيل» و «أودوفيل» و «سان–مارتان–دي–فارفيل». قد حُدّدت كمخارج رقم ١، ٢، ٣، ٤. كانت تنفذ إلى غابة مترامية ومن ثمّ، وإلى ما وراء نجد «سانت–مير–إغليز»، كانت فيضانات «الدوف» و «الميردوري» الكبيرة تنصب حاجزاً من أصعب الحواجز أمام جيش يحاول الدخول إلى قلب «الكوتنتان».

كان هدف القوّة الأميركيّة المنقولة جوّاً، وهي مؤلّفة من فرقتين. أي ١٣،٢٠٠ مظليّ، و٨٢٢ طائرة نقل، و ٩٠٠ طائرة شراعيّة، أن تذلّل هذه الصعوبة المزدوجة.

وكانت مهمّة فرقة «إيربورن» ١٠١، بقيادة الجنرال «ماكسويل تيلر»، أن تسيطر على المخارج المتّجهة من «يوتاه بيتش» لكي تحول دون ردع فرقة المشاة الأميركيّة الرابعة التي نزلت إلى الشاطئ، والتي كانت حفنة من الرجال والأسلحة قادرة على تجميدها بقطع تلك الطرقات الفريدة من نوعها. وكانت مهمّة فرقة «إيربورن» ٨٢، بقيادة الجنرال «ماتيو ريدجوي»، أن تتمركز على نجد «سانت–مير–إغليز»، وأن تحتلّ، فضلاً عن ذلك، رأسَ جسر كبيراً على «الدوف» و «الميردوري».

بالنسبة للمظليّين كانت الساعة المحدّدة هي منتصف الليل. ولقد نزلوا إلى «كوتنتان»، لا من الشرق، بل من الغرب. كما لو كانوا قد انطلقوا نحو «بروتانيا» ثمّ عدلوا عن وجهتهم فجأة في وسط «المانش». وأمّا طائراتهم التي انطلقت من تسع قواعد في «ديفون» و «ميدلاندز» و «بيركشاير» و «ويلتشاير» وغيرها فقد مرّت جميعها بنقطة «إلكو» شماليّ «ساوثمبتون»، واتّجهت بعد ذلك نحو نقطة «هوبوكن». ثمّ انحرفت بنسبة ٩٠ درجة، وغيّرت اتّجاهها قبل أن تصل إلى الساحل. في نقطتي «بيوريا» و «رينو»، وبعد ذلك بعشر دقائق كان عليها أن تكون فوق مناطق الهبوط الستّ، وكان أربع منها في الشرق، واثنتان إلى غربيّ «الميردوري». وكانت كلّ منطقة من هذه المناطق ذات شكل بيضيّ، وطولها ميل وعرضها ٥٠٠ ياردة. وأمّا الكشّافون، الذين هبطوا قبل قوّة الفرق الأساسيّة بعشرين دقيقة، فقد حاولوا وسعهم أن يتعرّفوا إلى هذه المناطق، وأن يشيروا إليها بواسطة المصابيح التي زُوّدوا بها.

هذا رسم سريع ومجمل لعمليّة «نبتون» الجبّارة، وهي المرحلة الأولى لغزو «أوروبا». فلنحاول أن نتتبّع مجراها ساعةً ساعة.

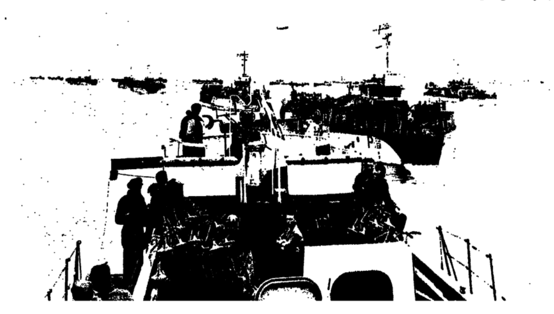


نقاط النزول على الشاطىء.

الساعة الأولى من النزول

ما انتصف الليل حتى اجتازت الساحل الفرنسي فوق «هولغات» ستُّ طائرات شراعيّة ضخمة من طراز «هورسا». تابعة للفرقة البريطانيّة السادسة المنقولة جوّاً . حطّت إحداها في الأسلاك الشائكة التي تحدق بجسر «بينوفيل» على قنال «كين». وحطّت اثنتان أخريان على مقربة من

حمولة غير مرتقبة تكدّست على ظهر هذه السفينة الميمّمة شطر «فرنسا» : إنّها الدرّاجات !





إنهم من الجنود الأميركيّين، دهنوا وجوههم بلون الليل، وقد تكدّسوا في إحدى الطائرات الشراعيّة .

جسر «رانفيل» على «الأورن»، فإذا المفاجأة تامّة : ففي أقلّ من ربع ساعة انتقلت ملكيّة الجسرين إلى فرقة المشاة الخفيفة «أوكسفورد شاير» و«باكينغهام شاير» الثانية . في أثناء ذلك هبط الكشّافون في مناطق الهبوط المعيّنة ، وأضاءت مصابيحهم الصغيرة أديم الأرض . وما حانت الساعة الواحدة من الصباح حتّى شرعت الفرقة البريطانيّة السادسة المنقولة جوّاً تهبط أو تزلق من السماء .

وفي الطرف الآخر من جبهة الهجوم ، أي في «الكوتنتان» ، بدأت العمليّة الأميركيّة المنقولة جوّاً في الوقت عينه ؛ فما انقضت ١٥ دقيقة على انتصاف الليل حتّى قفز كشّافو الفرقة «إيربورن» ١٠١ إلى الأرض أوّل الكلّ . كان الجوّ غائماً ، والأرض غارقة في الضباب ، والقمر يبين ويختفي. وفي الدقيقة الخمسين بعد منتصف الليل لمح الليوتنان—كولونيل «هوفمان»، قائد أحد أفواج فرقة المشاة الألمانيّة ٧٠٩، في شعاع من النور، بعض التّويجات البيضاء تقترب من الأرض . أطلق رجال حرسه النار . فردّ عليهم مسدّس أميركيّ رشّاش .

من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة من النزول

في الساعة ١،١١ تلقّى الفيلق الألمانيّ ٨٤ في «سان—لو» من «كين» رسالة من فرقة مشاته ٧١٦ تقول : «مظلّيّون شرقيّ مصبّ «الأورن» ، منطقة «رانفيل—بريفيل» ، والحاشية الشماليّة من غابة «بافان» . وفي الساعة ١،٤٥ تلقّى من فرقة مشاته ٧٠٩ في «فالون» الرسالة التالية : «مظلّيّون أعداء جنوبيّ «سان جرمان—دي—فارفيل» وقرب «سانت ماري دومون». المجموعة الثانية غربيّ طريق «كارانتان—فالون» إلى جانبيّ «الميردوري».»

كانت المنطقتان المشار إليهما إلى كلا جناحَي الفيلق. فالعمليّة إذاً هامّة ، لذلك ألغى الجنرال «ماركس» سفره إلى «رين». لقد حلّ الواقع محلّ الخيال .

في الخارج كانت السماء مروّعة. إنطلقت في الفضاء سحب رحبة من الدخان المحمرّ تضرّج الأفق. واهتزّ الليل تحت ضجيج آلاف من محرّكات العدوّ .

في الساعة ٢ وصلت معلومات جديدة من «كين» ومن «فالون» : لقد أُلقي القبض على بعض المظلّيّين. كانوا ينتمون إلى اللواء البريطانيّ الثالث المنقول جوّاً ، وإلى أفواج المظلّيّين الأميركيّين ٥٠١، ٥٠٥، ٥٠٦ . إذاً كانت هناك ثلاث فرق من فرق المشاة الجويّة الأربع ، التي كان الألمان يعلمون بها، تشترك في الهجوم . ولقد أُوقظ القوّاد الكبار للحال . من «دولمان» إلى «سالموث» ، إلى «روندشتاد». وفي «روش—غويون» تريّث «شبيدل» قليلاً قبل أن ينذر «رومل» في منزله .

شرقيّ «الأورن» كانت المهامّ الرئيسة لفرقة «إيربورن» السادسة على وشك الإنجاز . فقد راح رأس جسر «رانفيل» يتوطّد، وأخذت جسور «الديف» تتفجّر، بما فيها جسر «تروارن» الذي قام الماجور «روزفير» بتدميره بمفرده تقريباً في أعقاب حاميته ؛ واستُولي على قصر «فارافيل»؛ وسقطت بطّاريّة «ميرفيل» إذ هاجمتها في الساعة ٢،٤٥ كتيبة المظلّيّين التاسعة التي كانت تحفظ أمثولتها عن ظهر قلب. وفي الساعة ٣،٤٥ ، وبعد قتال عنيف، أطلق الليوتنان—كولونيل «اوتوي» سراح الحمامة الزاجلة التي تحمل نبأ سقوط البطاريّة. ولكن لوحظ عندئذ أنّ البطّاريّة لم تكن تحتوي إلاّ على قطع من عيار ٧٥ التي لا تشكّل إلاّ خطراً قليلاً ، بدلاً من قطع الـ ١٥٠ المرعبة التي كان المهاجمون يبغون لجمها .

في الساعة ٣،٣٠ هبط الجنرال «غيل» مع الموجة الثالثة التي أتت بالعتاد الثقيل؛ فسيطرت فرقتها على «الأورن» محملة الفوضى بين «الأورن» و«الفير»، وأسرت جنوداً من فرقة المشاة الألمانيّة ٧١٦ ومن الفرقة المصفّحة ٢١. وكانت خسائرها من القتلى طفيفة، إلاّ أنّ أكثر من نصف رجالها الـ ٤،٨٠٠ فُقدوا بسبب أخطاء الهبوط.

صادفت العمليّة الأميركيّة المنقولة جوّاً صعوبات أكثر تعقيداً. وقد اعترف المؤرّخون الرسميّون بعجزهم عن استعادة مراحلها بدقّة. فلقد برزت الحواجز والضباب تعزل مجموعات المظليّين الصغيرة، وتُحلّ الأشباح في الريف الغريب الذي هبط فيه فتيان قادمون من «العالم الجديد». وقد ذهب البعض ضحايا للمستنقعات والفيضانات. ولا يصحّ تماماً تصديق ما قيل من أنّ أفواجاً كاملة قد غرقت في متاه «الميردوري» كما تصوّره الشائعات، ولكن لا مجال للريب في أنّ مظليّين عديدين قد لاقوا صعوبات فائقة في الخلاص من الوحل، وأنّ بعضهم قد غرق تحت وطأة المعدّات.

ومن مجموع الـ ١٣،٢٠٠ رجل المنتمين إلى الفرقتين المنقولتين جوّاً لم يستطع غير ٢،٥٠٠ منهم التجمّع للحال. وكأداة للتجمّع زُوّدوا بنواقيس خشبيّة كانت تملأ الليل النورماندي المشبّع بالرطوبة أنغاماً غريبة شبيهة بأصوات الزيزان. إلاّ أنّ صرير النواقيس كان يختنق في خضّم الغابات الكثّة.

كان على الفوج ٥٠٢، من فرقة «إيربورن» ١٠١، أن يستولي على منافذ «بوتاه بيتش» الشماليّة، وكان على الفوج ٥٠٦ أن يستولي على المنافذ الجنوبيّة، وكان على الفوج ٥٠١ أن يتمركز على «الدوف» شماليّ «كارانتان». ولكنّ الضباب والرياح والمدفعيّة المضادّة للطائرات قد شوّشت تنسيقاته التي دُرست مطوّلاً على الخارطة، فكان الرجال ينضمّون إلى أوّل ضابط يلتقونه. وقد وقعت اشتباكات في غمرة الظلام مع بعض المفارز العدوّة النازلة في القرى، وكذلك بعض المجموعات الصديقة التي وقعت ضحيّة للخطإ. وعند الفجر كانت عناصر قليلة من فرقة «إيربورن» ١٠١ قد اتّخذت أماكنها وفقاً للمنهاج المخطّط، ولكنّ



في تلك المروج النورمانديّة لم يكن هبوط الطائرات الشراعيّة يسيراً.

إغارة هذا العدد الكبير من جنود الجوّ على مؤخّرات الدفاع الألمانيّ الساحليّ قد فكّكت وحدتها.

كانت فرقة «إيربورن» ٨٢ مؤلّفة من أفواج المظليّين ٥٠٥، و٥٠٧، و٥٠٨. كانت مهمّة الفوج ٥٠٥ أن يستولي على «سانت ـ مير ـ إغليز» ويسيطر على ممرّات «الميردوري» في «شيف دوبون» و «لافيير»؛ وكان على الفوجين الآخرين أن ينشئا إلى الغرب رأس الجسر بين «الدوف» و «الميردوري».

وما إن توشّحت السماء بلونها الورديّ حتّى كان قسم من الفوجين ٥٠٧ و٥٠٨ ما يزال يتخبّط في وحول المروج المغمورة. وكان قسم آخر قد رسّخ خطاه في أرض أصلب، بالقرب من «أمفروفيل»، ولكنّ الحواجز كانت كثيفة، فكان التجمّع بالتالي بطيئاً جداً. ولم يكن ليسجّل آنذاك أيّ حدث لو لم تدخل مجموعة صغيرة من المظليّين إلى ساحة قصر صغير بالقرب من «بيكوفيل». وإذا بسيّارة «ميرسيدس» تظهر فجأة:



هبط بعض الطائرات الشراعيّة في شبه جزيرة «كوتنتان» جنوبيّ «شيربور». إلاّ أنّ عدداً منها أصيب بأضرار في حقول مزنّرة بالسياجات.

فالجنرال قائد فرقة القنّاصة ٩١ . «فلهلم فولي» ، الذي كان منطلقاً نحو «رين»، قد قرّر أن يعود إلى مقرّه العامّ حين أقنعه دويّ القصف الجويّ بأنّ أحداثاً هامّة ستبرز في النهار الوليد . وكان مقتله أحد هذه الأحداث: فقد استقبلت سيّارته نيرانٌ حامية، فخرج منها والمسدّس في قبضته. فانطلقت دفعة أخرى من الرصاص أصابته فخرّ على الأرض صريعاً . وهكذا فقدت الفرقة التي تقوم بحماية قلب «الكوتنتان» قائدها في مستهلّ القتال .

وعلى ضفّة «الميردوري» الأخرى ابتسم الحظّ للفوج ٥٠٥ . فمرحلة الاستيلاء على «سانت–مير–إغليز» هي أبرز مراحل النزول. لقد شاهد العالم بأسره على الشاشة احتراق منزل «م. هيرون»، والإطفائيّين ذوي الخوذات النحاسيّة يكافحون الحريق بحراسة الجنود الألمان ، والمظليّين الأميركيّين ينزلون وسط النيران، والجنديّ «ستيل» مكبّلاً في محازم مظلّته وهو عالق إلى قبّة الجرس. من الوجهة العسكريّة وقعت الأحداث على الوجه التالي: فعلى الرغم من أنّ الكتيبة الثالثة من الفوج ٥٠٥ قد تعرّضت لنيران المدفعيّة المضادّة للطائرات، تمكّنت من الهبوط بدقّة عجيبة في منطقة الهبوط «صفر» على بعد ١،٥٠٠م. من شمالي غربي «سانت مير»، في الموضع المسمّى «وادي الشقاء». وعمد الليوتنان – كولونيل «ك. دروز» إلى جمع جنوده بعجلة، وفي سبيل الانقضاض على الدسكرة أصدر أمراً باستخدام القنابل اليدويّة والخناجر دون أيّ سلاح آخر. كان عدد الألمان نحواً من ثلاثين ، فضلاً عن رجال قافلة قد توقّفت هناك برهة، فقُتلوا جميعاً أو اعتُقلوا بسرعة .

وخلال هذه المناوشات انتشر نذير الخطر في القيادة الألمانيّة . ففي «سانلو» وجّه «ماركس» نحو «كوتنتان» فوجه الاحتياطيّ الوحيد ؛ وفي «المانش» أصدر «دولمان» أمراً بإبادة المظليّين الذين هبطوا حول «سانت مير إغليز» بعمليّة مركّزة؛ وفي «روش غويون» أوعز «شبيدل» لفرقة المصفّحات ٢١، وهي احتياط المجموعة ب ، بتنظيف ضفّة «الأورن» اليمنى ؛ وفي «سان جيرمان» أطلق «روندشتاد» فرقة التدريب المصفّحة ، والفرقة المصفّحة الصاعقة ١٢، منبّهاً إيّاهما إلى أنّ عليهما التقدّم باتّجاه «كين». وقبل الساعة السادسة بقليل استدعى رئيس الأركان العامّة، «بلومنتريت» مساعدَ «جودل»، «فارليمونت»، إلى «برشتسغادن»، وأطلعه على قرارات مارشاله ، وأكّد له أنّ الغزو قد انطلق . لم يكن أحد ليجرؤ على تعكير صفو «هتلر» في رقاده، ولكنّ «فارليمونت» اتّصل «بجودل» هاتفياً ، فأيقظه ؛ وإذا به إزاء رجل مرتاب يظنّ أنّ هبوط المظليّين يشكّل خدعة، لأنّ النزول الحقيقيّ لن يحدث في «نورماندِيا» السفلى .

على «المانش» كانت الريح تصفر بقوّة ٥، واكتسبت الأمواج لوناً أبيض، وقد أثّر دوار البحر على معظم ركّاب «الرحلة الكبرى» . وفي الأفق كان الرعد والبرق يشيران إلى المعاملة الرهيبة التي تلقّاها الساحل النورمانديّ. وراحت ١،٠٥٦طائرة «لانكستر» من السلاح الجويّ الملكيّ تهاجم البطاريّات الألمانيّة العشر الأساسيّة . وعلى متون السفن كان الصمت سائداً، أمّا على الأرض فطوفان من نار!

في الساعة ٢،٢٩ رست السفينة «بيفيلد»، التي تحمل الجنرال «لوتون كولنز» قائد الفيلق الأميركيّ ٧، على عمق ١٧ باعاً، وعلى بعد ١١ ميلاً من «يوتاه بيتش» ؛ وبعد انقضاء عشرين دقيقة رست سفينة «أنكون» ، التي تحمل الجنرال «جيرو» قائد الفيلق الخامس، في الظروف نفسها . أمام «أوماها». وحول المقرّين العامّين العائمين توقّفت السفن كافّة من غير حراك. وبعد مرور سبع دقائق بدأت زوارق الإنزال تتراقص فوق الأمواج. كان القمر يضيء الدياجير بنوره الخافت ، إلاّ أنّ الشاطىء لم يكن مرئياً . إنّه لأمر غير معقول، مفعم بالقلق الشديد، أن تجري إعدادات أكبر نزول في التاريخ أمام ذلك الشاطىء الذي لم تكن تعكّر سكونَه الشامل غيرُ أكداس القنابل التي كانت تتساقط عليه في فترات منتظمة. وفوق أديم المياه الهائجة، وفي وسط رشق الزبد الشاحب، راحت صفوف قوافل الهجوم تنتظم . ففي الطليعة انطلقت سفن الإرشاد، وعلى أعقابها نافثات الدخان. وقد لحقت بها، بشكل أرتال جماعيّة، سفنُ الاختصاص، وسفن القيادة أو الكشّافة، ومراكب الإنزال الحربيّة المكلفة بإطلاق الدبّابات البرمائيّة في الماء، ومراكب من النوع ذاته مثقلة بالدبّابات العاديّة؛ وقد حمل بعض قوارب الإنزال الانكليزيّة، وسفن الإنزال الأميركيّة، فصيلةً من المشاة، وأتت سفن إنزال المدافع بالمدفعيّة، وأتت سفن إنزال المدفعيّة المضادّة للطائرات بحمولتها، وكانت سفن إنزال الجنود مثقلة بالرجال والعتاد، وكانت مراكب أخرى تنقل بطّاريّات إطلاق الصواريخ ؛ أمّا المدمّرات المواكبة فكانت تحتلّ مراكزها على الجوانب . فلقد خرج أسطول كامل من بطن أسطول آخر . وتوغّل في الليل متّجهاً نحو أرض المجهول والأخطار .

كانت المسافة التي تفصل المهاجمين عن الشاطىء تفرض عليهم رحلة فوق الأمواج الطامية تستغرق ثلاث ساعات ، بأسطولهم ذي القعر المسطّح، الصعب المراس، الذي كان يتأثّر تأثّراً بالغاً بالارتجاج. وقد أثّر دوار البحر في البحّارة ، وهم مبتدئون في حرفتهم. ومخرت القوّة «أ و» العباب شطر «يوتاه بيتش» محتمية بلسان «كوتنتان»، فدخلت تدريجياً في مياه أكثر هدوءاً. ولكنّ القوّة «و»، على نقيض ذلك، استمرّت في تحرّكها القاسي. فيما راح النهار ينبلج ببطء وكأنّ لا رغبة له في الطلوع .

على الشواطىء المسندة إلى الانكليز اعترض التقدّمَ تأخيرٌ أطول . فالناقلات قد اقتربت حتى غدت على بعد ٧ أميال من الساحل؛ وفي الساعة ٥،٠٥، في الوقت الذي بدأ الليل فيه ينحلّ، برزت الأضواء الخضراء تنبىء بأنّ الغوّاصتين «إكس ٢٠» و «إكس ٢٣» كانتا في مركزيهما للإرشاد. وبعد لحظات كانت السفن، وفي جملتها «الوورسبايت» و«الراميليز»، تلقي مراسيها، وراحت طائرات السلاح الجويّ تنصب ستاراً من الدخان لكي تحجب الأسطول عن بطّاريّات «هافر» الثقيلة. وللحال بدأ تجمّع قوافل الهجوم ينتظم .

ولكن، من خلال الضباب الاصطناعيّ، انبثقت سهام ثلاثة؛ فقد انقضّت زوارق ألمانيّة نسّافة ثلاثة تهاجم أسياد البحر، وهي كدبّابات صغيرة ثلاث، وعلى متونها نحو ثلاثين رجلاً و١٠٠ طنّ من الذخيرة، فتصدّت لها نار حامية، فعادت أدراجها متستّرة بجنح الدخان بعدما أطلقت طوربيداتها. وأصاب أحد هذه الطوربيدات المدمّرة النروجيّة «سفينتي» في غرفة وقودها فغرقت على الأثر .

هذا الهجوم الألمانيّ التافه والجريء قد أظهر أنّ اقتراب أسطول الغزو لم يكن مجهولاً . ففي الساعة ٣،٠٩ تمكّن رادار من الرادارات الألمانيّة الأخيرة الباقية من اكتشاف وجود سفن عديدة في عرض «بور–أون–بيسان»؛ فأصدر الأميرال «كرانكي» لأساطيل «شيربور» و«هافر» الصغيرة أمراً بالتدخّل ، ولكنّ أسطيل «شيربور» بقي في مرفئه بعدما شلّ الطيران حركته ؛ وأمّا أسطيل «هافر» فقد أحرز انتصاراً إذ أغرق سفينة حربيّة واحدة من جملة الـ ١،٢٠٠ سفينة !

وانطلق من البرّ بعض قذائف المدفعيّة. وفي الجوّ أقبلت موجة مؤلّفة من ١،٦٣٠ طائرة «ليبيريتور» تابعة لسلاح الجوّ الأميركيّ تحلّ محلّ طائرات «لانكستر» من سلاح الجوّ الملكيّ. وفي اليمّ وصلت البوارج والطرّادات منطقة المساندة على حدود الأعماق التي تبلغ عشر باعات ، وبدأت مدافعها تطلق نيرانها في الساعة ٥،٣٠ على «سورد» و «جونو»

وغولد». ولم يبدأ القصف على «أوماها» و«يوتاه» إلاّ في الساعة ٥.٥٠ : إذ أنّ الأميركيّين قد آثروا المفاجأة على الإعداد الطويل. كانت سفن النزول على بعد ٣،٠٠٠ متر من الشاطىء، وكان الجزر في ذروة انخفاضه. ولم تكن الشمس قد بزغت بعد .



تقدّمت الطائرات السفنّ فأغارت على التحصينات الساحليّة الألمانيّة ممهّدة سبيل النزول أمام القوّات الحليفة .

من الساعة السابعة إلى الساعة الثانية عشرة من النزول

«يوتاه بيتش». كان البريغادير-جنرال «تيودور روزفلت جونيور» واحداً من أوائل الأميركيّين الذين وطئوا الأرض الفرنسيّة في تمام الساعة ٦،٣٩، محافظاً بذلك على البسالة التقليديّة التي عُرف بها آل «روزفلت» في «أويستر بي»، خصوم آل «روزفلت» المقيمين في «هايدبارك» و«ونيوديل». كانت الصواريخ أمامه وفوقه وخلفه تحدث جلبة هائلة. كان «روزفلت» قد أشبع الميدان درساً، فإذا هو لا يتعرّف إليه الآن، فأدرك أنّ تيّاراً قد طوّح بالسفن ناحية الجنوب حتّى قرية «لامادلين»، حيث تنتهي طريق «سانت ماري دي‌مون» . هناك متراس ألمانيّ مزوّد بقطعة ميدان وببرج دبّابة قديم، يشكّل نقطة الإرتكاز رقم ٥ . أمّا رجال الحامية، المنتمون إلى الكتيبة الثالثة من فوج المشاة ٩١٩، فقد دفنهم القصف تحت الأنقاض . فانتشلهم الأميركيّون، وأُخذت للضابط الألمانيّ، الليوتنان «يانكي»، صورة وقف فيها بينهم أمام المتراس .



الهدوء بعد العاصفة . لقد أشرقت الشمس ، وهدأ البحر ، بعد يوم هائج مائج .

جرى النزول بترتيب رائع على هذا الشاطىء المغلوط فيه، والذي تمّ احتلاله بسرعة. غرق بعض السفن، بينها قارب إنزال خاصّ بالدبّابات، إثر اصطدامها بالألغام، غير أنّ الفرق الخاصّة، «فرق التدمير العاملة تحت الماء»، عمدت بسرعة إلى تدمير الحواجز ونزع فتيل الألغام. لم تكن حركة البحر غير اصطفاق خفيف، فولج الرجال في الماء بنشاط وخفّة، تضايقهم حركة المدّ السريعة، أكثر ممّا يضايقهم بعض القنابل التي كانت تطلقها بطّاريّات «سان ماركوف». وتتالت موجات الهجوم . وسارت طلائع فرقة المشاة الأميركيّة ٤ الأماميّة على طرقات «أودوفيل» و«سانت ماري» و«بوبفيل» ، عاملة على الاتّصال بمظليّي «تيلر» . أمّا أمام «أوماها بيتش» فقد بقي البحر على قوّته، يقذف الشاطىء بأمواج جرّارة من الزبد . تقيّدت سفن الإنزال بالبرنامج الموضوع ، إلاّ أنّ مكاسر الموج كانت تعنّفها، وطبقة الدخان الكثيف التي غطّت الشاطىء جعلت القيادة صعبة . أُلقيت في الشمال ٣٢ دبّابة برمائيّة على بعد ٥،٠٠٠ متر من الشاطىء. فما لبثت أن غرقت كلّها ما عدا اثنتين، لأنّ عوّاماتها المصنوعة لمياه هادئة لم تتحمّل هياج البحر. وإلى اليمين كانت ٢٨ دبّابة أخرى من طراز «د.د.» على وشك النزول إلى الماء في الأوضاع ذاتها، إلاّ أنّ الليوتنان - كومندور «روكول»، وقد أحسن تفهّم وضع البحر، فضّل الجنوح بزوارقه على الإلقاء ببطّاطه الثقيلة في الماء وتكليفها السباحة بنفسها. خرجت الدبّابات من الماء جاهدة، ولكنّها استُقبلت بوابل من القذائف، وانهالت عليها قنابل من عيار ٨٨ فبقرتها، كما أصابت الزوارق في عودتها إلى البحر .



جنود أميركيّون يقتربون من الشاطىء في سفن الإنزال تحميهم مدفعيّة السفن.

« البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ! » .



لم يكن المدفع هو المُدافع الوحيد؛ فقد راح وابل من رصاص الأسلحة الأوتوماتيكيّة يكنس المنحدر الذي كشف عنه الجزر. كان الرجال ينزلون من القوارب ويسقطون في الأمواج ، أو يحاولون الاختباء في الرمال إذا وُفّقوا إلى الخروج من الماء. وتمكّن أوفرهم حظّاً من بلوغ السدّ الذي يحدّ الشاطىء ؛ فأخذ رجال الرشّاشات والمدافع يطلقون النار على «بساط من الرجال». واتّصل الضابط المسؤول عن رأس الثغرة هاتفيّاً بكولونيله ليقول له إنّه يرى الشاطىء غاصّاً بالدبّابات والعربات والسفن المشتعلة ، مفروشاً بالقتلى والجرحى .

كان «رومل» قد مرّ في القطاع في آذار. ففعلت غضبته مفعول السحر؛ ففيما عدا الألغام التي كانت موادّ صنعها مفقودة، كُدّست على الشاطئ كميّات ضخمة من مختلف الأجهزة التي روّج لها: فمن حاجز العناصر «ك» أو «الشباك البلجيكيّة»، إلى صفوف عدّة من «الجياد المحدّدة الأوتاد»، إلى صفوف عدّة من «الأهرام» و«القنافذ». كانت الصور الشمسيّة قد كشفت عن هذه الأعمال، فظُنّ إحباطها ممكناً بالنزول في وقت الجزر؛ ولكنّ تلك الصور الجويّة، نظراً لاتّجاه النوافذ التي أُخذت منها، لم تكشف عن الأسلحة الجانبيّة المعشّشة في الجرف. ولم يعلم أيّ جهاز من أجهزة الاستخبارات بأخطر النتائج التي أسفرت عنها زيارة «رومل» التفتيشيّة. فانطلاقاً من اعتقاد «رومل» الدائم، القائل بأنّ القوّات الاحتياطيّة لن تصلح لشيء، أمر بدفع فرقة المشاة ٣٥٢ إلى الخطّ الأماميّ؛ فإذا بالأميركيّين، الذين كانوا يعتقدون أنّهم سيقعون على فوج قديم من فرقة المرابطة ٧١٩، يقعون على فرقة جيّدة قد تحصّنت باعتناء.

أضف إلى ذلك أنّ حذراً أميركيّاً مشؤوماً قد أسعف الدفاع؛ فقد أخّر خوف الضربات القصيرة عمليّة إرخاء القنابل التي قذفتها طائرات «ليبيريتور» ثانيتين أو ثلاثاً، فسقط أكثرها على بعد ٣ أو ٤ كلم داخل الأراضي. ثم إنّ المساندة البحريّة التي وفّرتها البارجتان «تكساس» و«أركنساس»، والطرّاد الانكليزيّ «غلاسكو»، والطرّادان الفرنسيّان «مونكالم» و«جورج ليغ»، لم تدم الوقت الكافي لتعطيل الدفاع الألمانيّ: فبقيت التحصينات الساحليّة سليمة عموماً، ولم يُمسّ رجالها بأذى.

حصل بشأن التعرّف إلى رأس «هوك» خطأ أخّر موعد المداهمة، فقد اتّجهت الشاحنات البرمائيّة، وقوارب الإنزال الخاصّة بالجنود والعربات، التي كانت تنقل كتيبة «الرينجرز»، ناحية رأس الثغرة، إلاّ أنّ الكولونيل «رادر» قد تنبّه للخطإ فصحّحه. تسلّق «الرينجرز» الجرف تحت الرصاص وإذ بلغوا القمّة لم يجدوا في مكان المدافع غير بعض الجذوع. ذاك أنّ الألمان كانوا قد سحبوا المدافع الستّة من عيار ١٥٥، فيما كانوا يتموّن بناء سراديبها. وما لبث الحلفاء أن اكتشفوا أربعة منها تحت شباك التمويه، على مقربة من طريق «فييرفيل — غرانكان»، فدمّروها.

كان وضع «أوماها بيتش» مقلقاً قرب الظهيرة؛ فبعد الدبّابات البرمائيّة غرقت الشاحنات البرمائيّة بما كانت تقلّه من أعتدة المدفعيّة. وازدحم الشاطئ بالعتاد المتلف، وأغرق المدّ الجرحى. هذا، وما زالت أمواج المهاجمين تفد، فينزل الرجال في ماء يغمرهم حتّى أعناقهم، ثمّ يقفون معتصمين بجدار السدّ. لم يفلح في الخروج من «أوماها بيتش» من الأميركيّين غير الكولونيل «كانهام» قائد فوج المشاة ١١٦، والبريغادير جنرال «كوتا» قائد فرقة المشاة الأولى المناوب، وبعض الجنود الذين نجحوا في استدراجهم؛ فنسفوا شبكة الأسلاك الشائكة التي كانت تصدّ مدخل طريق «سان لوران» المنخفض، وفتحوا فيها ثغرة. كان العشب فوقهم يحترق مثيراً دخاناً. تلبّد القائدان في السفح الرمليّ من الشعب الصغير، في انتظار فرصة ملائمة، فيما أخذت قنابل المدمّرات، التي أفادت من المدّ فاقتربت إلى ١٠٠٠ ياردة، تمرّ فوق رأسيهما في طريقها لتدمير أعشاش المقاومة الألمانيّة.

عاث البحر فساداً عند البريطانيّين كذلك، فأغرق ما يقارب ٥٠ دبّابة قديمة من طراز «سانتور» مزوّدة بمدافع من عيار ٩٥، كان عليها أن توفّر لموجات الكرّ سنداً متحرّكاً. إلاّ أنّ هياج البحر أمام «سورد» و«جونو» و«غولد» كان أقلّ عنفاً منه أمام «أوماها»، ولم يكن جنود فرقة المشاة الألمانيّة ٧١٦ ليعدلوا جنود الفرقة ٣٥٢؛ وهكذا لم يسلم النزول البريطانيّ من الخسائر، إلاّ أنّه لم يتعرّض لأزمة خطيرة.

كان مرتكز «هامل» في قطاع «غولد» ما يزال صامداً عند الظهيرة، إلاّ أنّ الفرقة ٥٠ قد امتدّت نحو «أرومانش» و«فير — سور — مير». صمد مُرتكز «كورسول» كذلك في قطاع «جونو»، إلا أنّ الكنديّين استداروا حوله وتسنّموا التلال. أمّا في قطاع «سورد» فقد سقط مرتكز «لابريش»، وهاجم فريق الكومندوس رقم ٤، الذي يضمّ فصيلتين فرنسيّتين من فريق الكومندوس رقم ١٠، موقع «ويستْرهام». وأخيراً انتظمت فرقة «إيربورن» ٦ المنقولة جوّاً، وقد دعمها هبوط بعض الطائرات الشراعيّة، في دائرة «رنفيل — بينوفيل».

أمّا في الجانب الألمانيّ فقد نقل «جودل» إلى «روندشتاد» بالهاتف رفضاً قاطعاً: فالفرقتان اللتان اعتقد «روندشتاد» أنّ له الحقّ في تحريكهما مباشرة، لا يمكن تحريكهما إلاّ بإذن الفوهرر، والفوهرر نائم. إنصاع «روندشتاد» ولم يطلب حتّى إيقاظ النائم. إنّه لانصياع هازئ ساخر على حدّ قول «شبيدل». يريد الكابورال «البوهيميّ»، أن يقود جيوشه بنفسه: إذاً فليقدها. أمّا الجنرال فيلد مارشال «غير فون روندشتاد» فقد تبرّأ منها!

كان «رومل» على الطرقات عندما نُقل إليه نبأ الزحف في الساعة ٦،٣٠، فتخلّى عن مقابلة «هتلر» وقفل راجعاً لتسلّم قيادته. إلاّ أنّه لم يكن قط مقتنعاً من حقيقة الزحف، بل كان يميل إلى الاعتقاد بأنّها عمليّة تمويه وإلهاء يُقصد منها اجتذاب قوّات الاحتياط الألمانيّة إلى «نورماندیا» السفلى. أمّا الضربة الكبرى فسيوجّهها العدوّ، على حدّ ظنّه، ناحية مصبّ «السوم».

من الساعة الثالثة عشرة إلى الساعة الثامنة عشرة من النزول

وقف «تشرتشل» في مجلس العموم ظهراً، وأثار الفضول بالتحدّث عن احتلال «روما» طوال عشرين دقيقة، ولم تكن «روما» إذ ذاك لتثير اهتمام أحد؛ ثمّ وصف عمليّة النزول الجارية بكثير من التعظيم والإطناب، وقال: «لقد جرى كلّ شيء حتى الآن وفقاً للخطط المرسومة».

واستفاق «هتلر» في «أوبرسالزبورغ»؛ أمّا ردّة فعله الأولى، لدى إعلان النزول، فلم تدوّن. كان التقرير المسهب سيقدّم في قصر «كليسهايم»، على مسافة ساعة ونصف بالسيّارة، خلال الاحتفال الذي سيقام هناك على شرف الضيف الرسميّ، الجنرال «ستوجاي» رئيس الوزارة المجريّة الجديد.

لم يتغيّر في البرنامج شيء؛ وأمام خارطة «نورماندیا» أخذ «هتلر» يتظارف ساخراً بلهجته النمساويّة، ويقول: «ميام ميام! لقد سقطوا لقمة سائغة في فم «الذئب الأكبر». آه ما أطيب طعمها!» فأغرب الحاضرون جميعهم في الضحك. ثمّ أيّد «هتلر» «جودل» في رفضه الصباحيّ: فهو كذلك لم يكن يعتقد أنّ ما يجري هو الغزو الحقيقيّ!

إستمرّ النزاع بطيئاً في «الكوتنتان»؛ واستُدعي الماجور بارون «فون درهايدت» من «بيرييه» لتطهير منطقة «كارنتان» بكتيبة مظلّيّة. فصعد إلى قبّة جرس «سان — كوم دومون»، الواقعة على طريق «سانت مير إغليز». كانت السفن تغطّي البحر في البعيد، فيما انصرفت مئات من السفن الصغيرة إلى إنزال القوّات والعتاد؛ قال: «ومع هذا لم أشعر بأنّ معركة كبيرة قد دارت رحاها. كانت الشمس ساطعة، ولا يعكّر هدوء الجوّ غير طلقات متقطّعة، وكانت المراكب في ذهابها وإيابها تذكّرني بأحد من آحاد الصيف على بحيرة «فانسي»...» إزدحمت «يوتاه بيتش» وسُدّت منافذها، وحاول فوج المشاة ٨ أن يعبر المستنقع فغرز فيه وعاد عن عزمه. في الساعة ١٢،١٥ تمّ الاتّصال بفرقة المظلّيّين ٥٠١ التي فتحت «بوبفيل» في وجه مقاومة ضارية. وفي الساعة ١٢ تمّ الاتّصال



«ما أروع منظر السفن وقد تعطّت إلى الشاطىء بطول ٨٠ كيلومتراً ! »
(وتشرتشل في مذكراته).

بالفوج ٥٠٢ في «أودوفيل لاهوبير». فتمّ بذلك اجتياز المستنقعات الساحليّة. وأنجزت الفرقة ١٠١ المنقولة جوّاً مهمّتها.

كانت الفرقة ٨٢ تقاتل في الداخل، فاحتلال «سانت ماري إغليز» قطع طريق «شيربور» الكبيرة. ومكّن الأميركيّين من الإشراف على الناحية العليا الممتدّة بين المستنقعات الساحليّة ومنخفضات «المردوري». هدف العمل المركّز. الذي أوعز به الجنرال «دوللان»، إلى استعادة البلدة. فهاجم الفوج ١٠٠٥٨، التابع لفرقة المشاة ٧٠٩، قادماً من الشمال، فأوقف عند قرية «نوفيل أوبلان». كما صُدّ هجوم آخر قدم من الجنوب. ولكنّ فوج المشاة ١٠٠٥٧ استعاد ممرّات «شيف-دو-بون» و«لافيار». هذا. وقد وقع مظليّون كثيرون في الأسر جنوبيّ «المردوري»؛ فيما أخذ غيرهم يتجمّعون حول قرية «أمفريفيل»، وعلى هضبة انتشرت عليها المزارع التي تطلّ على الفيضان، مقابل «شيف-دو-بون».

أمّا في قطاع «أوماها بيتش» فأعلن الليوتنان-جنرال «ديتريخ كرايس»، قائد فرقة المشاة ٣٥٢، أنّه قد أوقف الغزو على الشاطىء عينه، فانتقل هذا الاقتناع إلى محضر الساعة الثالثة عشرة الذي نظّمه الفيلق ٨٤، إذ ورد فيه: «يمكن اعتبار النزول مدفوعاً في «فيرفيل»؛ ولكنّ «كرايس» قلق على ميمنته التي كان التقدّم الانكليزيّ يهدّدها، فوجّه فوج المشاة ٩١٥ ناحية الشرق، بقيادة الكولونيل «ماير»، بعدما أصدر إليه الأمر بالالتفاف حول «بايو»، وبشّ هجوم معاكس بين «بازينفيل» و«كريبون»، فلم يبقَ أمام «أوماها بيتش» شيء من قوى الاحتياط.

والحال أن الأميركيّين قد نهضوا من كبوتهم؛ فالنار الألمانيّة، مع ما اتّصفت به من شدّة، كانت تعوزها الكثافة والمثابرة، لأنّ كتيبة مدعومة واحدة تابعة لفوج المشاة ٩١٤ كانت تحمي الشاطىء. عبّر السدّ بعضُ ذوي الرتب النشيطين، فاجتذبوا أبسل الجنود؛ وأفاد قارب إنزال الدبّابات ٣٠، وقارب إنزال المشاة ٥٤، من المدّ الأقصى فاندفعا على جرف الحصى وجنحا على مدخل طريق «كولفيل» الأجوف، فاندفع الرجال إليه. وأصابت ضربة مباشرة، أطلقتها إحدى المدمّرات، متراس «دي مولان» فقطّعته إرباً، وأرغمت حاميته على الاستسلام. وراحت الجارفات المصفّحة تفتح في الكثبان ثغرتها، وشرع الرتل الأميركيّ يرتفع ببطء على الهضبة حيث كانت السياجات، مع هزالها، توفّر حماية وتغطية.

وجّهت القيادة الألمانيّة اهتمامها ناحية اليمين خصوصاً، ناحية «كين»، فتحرّك جهاز حرب جبّار: الفرقة المصفّحة ٢١ برجالها الـ ١٦،٠٠٠، ودبّاباتها الـ ١٢٧ من طراز «ب ز. كف. ٤»، ومدافعها الهجوميّة الـ ٤٠، وقطعها الـ ٢٨ من عيار ٨٨، وما إليها. تلقّت أوّلاً أمراً بتطهير ضفّة «الأورن» اليمنى من المظليّين الذين هبطوا خلال الليل؛ ولمّا وصل الجنرال «ماركس» إلى ميدان القتال تبيّن له من نظرة واحدة أنّ هذه المهمّة لم تبقَ مناسبة للوضع. واتّصل بالكولونيل «أوبلن برونيكوفسكي»، قائد فوج الدبّابات ٢٢، وهو في خطّ النار، فأعطاه تعليماته. بات على «أوبلن» أن يعبر بفوجه إلى ضفّة «الأورن» اليسرى، وأن يحمل حملة معاكسة قويّة باتّجاه «لوك-سور-مير». وقال ماركس: «إنّ مسؤوليّة صدّ الغزو تقع على عاتقك». وبعدما ترك الجنرال الكولونيل ينفّذ مهمّته راح يبحث عن أجناد أخرى، فوقع على كتيبة من الفوج الآليّ ١٩٢، فوجّهها كذلك شطر «لوك-سور-مير». كان عليهم أن يجترحوا المستحيل لشطر الحملة الانكليزيّة شطرين، ولتعطيل عمليّة النزول، ريثما تتدخّل قوّات الاحتياط العامّة فتقضي عليه.

بادر «أوبلن»، وكانت مهمّته عسيرة. لم يبقَ على «الأورن» من معابر «كين» إلاّ معبر واحد صالح، فقطع فوج الدبّابات ٢٢ الألمانيّ المدينة المشتعلة، وما كاد يخرج منها حتى بادرت المطاردات القاذفة إلى ملاحقته، فتسلّق هضبة «ليبيزي» بما أمكنه من سرعة، واجتاز القرية، ثمّ نزل إلى وادٍ صغير كثير الأشجار. ولمّا وصل إلى «بيافيل» كانت

كتيبتا «نورفولك» و«واريكشاير» قد انتزعتا المحلّة. وغدت «كين»، هدف النهار الرئيس، على بعد ٧ كلم، ولم تكن الساعة قد بلغت بعد السادسة مساء.

كان اللقاء قاسياً. صُدّت الدبّابات فحاولت أن تلتفّ حول «بيافيل» مروراً بوهدة «بيريه». فما كان من بعض مفارز «شروبشاير» المشاة و«ستافورد شاير» إلاّ أن دمّرت ستّة منها. وهبطت من السماء ٨ قاذفات انقضاضيّة من طراز «تيفون» فأحرقت بضع دبّابات أخرى. فعاد الفوج أدراجه واجتمع في تخوم «كين». لقد حال تدخّله دون فتح المدينة منذ المساء الأول، إلاّ أنّه لم ينجح في إيقاف الغزو.

توغّلت حملة الفوج الآليّ ١٩٢ إلى ما هو أبعد، فبلغت البحر. لكنّها قد وقعت في الفرجة الفاصلة بين منطقتي «سورد» و «جونو»، وتمكّن رجالها من الإفراج عن مراكز المقاومة في «سان أوبان»، و«ليوك»، و«دوفر-لا-ديليفراند»، ثمّ اتّخذوا موقف الدفاع بانتظار وصول الدبّابات... وعبثاً طال انتظارهم.

• كانت الحالة مرضية في ما تبقّى من القطاع البريطانيّ، فقطعت الفرقة الكنديّة الثالثة بضعة كيلومترات، ودنت الفرقة ٥٠ من «بايو» تدعمها أولى عناصر الفرقة المصفّحة ٧ التي تمّ إنزالها.

وصل «رومل» إلى «لا روش-غويون» بعد الظهر، فوجد قرارات «هتلر» في انتظاره. وضعت تحت تصرّفه فرقة الدبّابات الصاعقة ١٢ المرابطة جنوبيّ «روان»، وفرقة الدبّابات الموجودة في ناحية «درو». بيد أنّ الفوهرر حظّر اللجوء إلى أيّ سحب على حساب الجيش الخامس عشر، حتّى انّه قد ألغى أمراً أصدره «دولمان» باستدعاء قسم من الأجناد المرابطة في «بريتانيا» إلى «نورماندي». ثمّ إنّه قد جزم جزماً باتّاً بأنّ ٦ حزيران مجرّد خدعة، وأنّ الغزو الحقيقيّ لم يبدأ بعد.

ألساعات الأخيرة من النزول

توقّف القتال باكراً. فقد تعبت القوّات المهاجمة، ولم تتوافر لدى الألمان أسباب شنّ هجوم ليليّ معاكس. فتوقّف إطلاق النار من «رانفيل» إلى «سانت-مير-إغليز» مع غياب الشمس.

إلاّ أنّ طيران الليل قد عاد إلى العمل، وكانت مهمّته إقفال ميدان القتال بغية قطع الطريق على احتياطيّ العدوّ. ألقيت القنابل المضيئة التي دعاها الألمان «أشجار الميلاد»، فراحت تكشف عن الأرتال السارية. وضاعف القصف المطّرد، المنهال على نقاط المرور الإلزاميّة، الخسائر والتأخير. ولقد روى «بايرلين» «لبول كاريل» خبر تلك الليلة التي سرت فيها فرقة المصفّحات نحو «كين» فاجتازت «سيز» تحت القنابل، ثمّ «أرجنتان» في الثانية صباحاً، فإذا المدينة كلّها فريسة النيران، مضاءة كأنّها في وضح النهار، أتّون هائل تحت قصف لا ينقطع، وإذا الأنقاض قد سدّت الشوارع، وإذا جسر «الأورن» قد تهدّم. أصلح الروّاد أحد المعابر؛ ولكنّ «بايرلين» عمد إلى الحقول مضطرّاً، بغية الوصول إلى «فلير» و«كوندي-سور-نوارو»، فإذا هما أنقاض قد ألقيت على الطريق. ذرّ النهار قرنه، ولمّا يجتز واحد من الأرتال الخمسة، التي انقسمت إليها الفرقة، «فاليز» الواقعة على بعد ٢٥ كلم من ميدان القتال. وعادت الطائرات تسمّر في الأرض كلّ ما يتحرّك. كان على فرقة المصفّحات أن تشنّ هجومها المعاكس مع الفجر، فإذا بها تختبئ حتى المساء!

أمّا موقف الحلفاء فكان على نقيض ذلك تماماً، فقبل أن يرخي الليل سدوله ذهب الميجر «هاين»، رئيس المكتب الثاني التابع للفيلق الألماني ٨٤، إلى «كابورغ» ليشاهد النزول بأمّ عينه. فإذا «النشاط، على حدّ قوله، نشاط مرفإ كبير في زمن السلم». أمّا سلاح الطيران الألمانيّ فقد تغيّب طوال النهار؛ ذلك أنّ فرقة المطاردة، المنتظر قدومها من «متز»، كانت قد دُمّرت بكاملها؛ وباستثناء ٣ طائرات سرعان ما أركنت إلى الفرار، لم تظهر فوق حومة الوغى النورماندية أيّة طائرة ألمانيّة.

عند انتصاف الليل كان ٧٥،٢١٥ بريطانيّاً و ٥٧،٥٠٠ أميركيّ. يضاف إليهم ١٥،٥٠٠ أميركيّ و ٧،٩٠٠ بريطانيّ ينتمون إلى التشكيلات المنقولة جوّاً، أي ما يزيد مجموعه على ١٥٥،٠٠٠ رجل، قد وطئوا أرض «فرنسا». أمّا «فرق الموجة الثانية» ٢٩ و ٩٠ الأميركيّتان، و ٥١ و٧ البريطانيّتان المصفّحتان، فكانت في أوج مرحلة النزول. لقد كان «رومل» محقّاً إذ قال إنّ خسارة معركة الشواطئ تعني أنّ «أوروبا» قد غدت مشرعة أمام الغزو. كان بحر «المانش» يشكّل بالنسبة للانكليز والأميركيّين مكبحاً أقلّ شأناً من الحاجز الذي يشكّله بالنسبة للألمان هذا الطيران الحليف الجهنّمي المسيطر!

على الصعيد التكتيكيّ لم يتحقّق أيّ من الأهداف المعيّنة ليوم ٦ حزيران في أيّ مكان. ففي «الكوتنتان» كانت الأرض المفتوحة أصغر مرّتين ممّا قُدّر سابقاً، وأخفقت العمليّة الرامية إلى إنشاء رأس جسر على «المردوري»؛ وإلى الجنوب من «سانت-مير-إغليز» ما زالت كتيبة جيورجيّة تقطع طريق «شيربور»؛ وأمام «أوماها بيتش» انتهى الألمان بالتخلّي عن «كولفيل» و «سان-لوران-سور-مير». غير أنّ التوغّل لم يصل إلى أبعد من ١،٥٠٠ م. في أيّ مكان. مع أنّ الرغبة كانت في إدراك «الأور» الذي يبعد ٥ أميال عن الشاطئ، منذ المساء!

وفي القطاع الغربيّ أعوزت المسؤولين ومضةٌ من الإلهام والجرأة لتستحيل إنجازات الصباح الباهرة أهدافاً يُختتم بها النهار. لم يحصل الاتّصال بالأميركيّين. ولم يتحقّق تماسك رأس الجسر. ولم يتمّ الاستيلاء على «كين» ولا على «كاربيكي» ومطارها؛ وأوقف الفوج ٥٦ تقدّمه أمام «بايو» في الساعة ٢٠،٣٠. وقد كادت تدرك المدينة سالمة خالية من الأعداء.

ولكنّ النهار كان نصراً رائعاً بالرغم من تلك الخيبات، فاهتزّت «أميركا» و «انكلترا» عزّة وكبراً. واهتزّت «أوروبا» الأسير رجاء وأملاً. وفي «فرنسا» بادر الثوّار إلى أسلحتهم وراحوا يقطعون خطوط الهاتف. ويتمركزون على امتداد الطرقات لمداهمة الأرتال الألمانيّة. وهجر عمّال الخطوط الحديديّة قُطر الجنود. معطّلين القاطرات والمقاطع. وبعدما كان «ديغول» قد أصرّ على عدم الاشتراك بتوجيه رسالة أسوة برؤساء الدول الأوروبيّة، عاد في المساء فأذاع بلاغاً ظُنّ معه أنّ القوّات الفرنسيّة تكافح وحدها لتحرير أرض الوطن. قال: «بديهيّ أنّ هذه هي معركة «فرنسا». كما أنّها المعركة التي تنهض بها «فرنسا»... ولسوف تقودها «فرنسا»، معركة حامية الوطيس، إنّما بنظام. على هذا النحو حقّقنا كلاّ من انتصاراتنا منذ ١،٥٠٠ سنة...» أمّا الشرط الأول ففي الامتثال الدقيق للتعليمات التي تصدرها الحكومة الفرنسيّة والقادة الفرنسيّون... وها قد عادت شمس أمجادنا إلى الظهور...» لم يشر إلى الانكليز والأميركيّين إلاّ في عبارة واحدة كادت لا تذكر اسماً، هي «القوّات المسلّحة الحليفة والفرنسيّة». هذا مع العلم بأنّ القوّات الفرنسيّة قامت، في ذلك النهار الموعود، على ٢٥٦ فدائيّاً من رجال ملازم السفينة «فيليب كيفر».

إكتفى البلاغ النسائيّ الألمانيّ بأن يعلن أنّ معارك عنيفة تدور رحاها على الشاطئ المهاجَم. أمّا «هتلر» فقد أعرب عن ضيق صدره وخيبة أمله، بإصداره الأمر تلو الأمر، بغية صدّ النزول وردّه «حتّى اللية في أقصى حدّ». وأخذ يرتاب من تخاذل متعمّد مسؤول، وحتّى من أعمال خيانة.



جنود بريطانيّون يستريحون قليلاً بعد نزولهم، قبل صدور الأوامر بالزحف. ولكم سعى بتهم، في ذلك اليوم، إلى الموت ساعٍ!

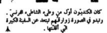
بعض أوائل الأسرى الألمان.

جرحى أميركيّون يتلقّون العناية الطبيّة على رقعة الشاطئ التي احتلّوها.

كما في الجو كذلك في البحر
ألوف من أثلام النصر تسعى!

كان الطيران أوفى نصيب في تحقيق عمليّة النزول إلى الشاطىء النورمانديّ، وذلك بغاراته العنيفة التي بدأت في كانون الثاني ١٩٤٤. ويبدو في الصورة طائرات «سبيتفاير» تحلّق فوق الشاطىء الأطلسيّ.





كان الكنديّون أوّل من وطىء الشاطىء الفرنسيّ. ويبدو في الصورة زوارقهم تبتعد عن السفينة الكبيرة التي أقلّتها.





« لقد تمّ التحميل والتجميع والنقل بطريقة جبّارة رائعة » (وتشرتشل في مذكراته).

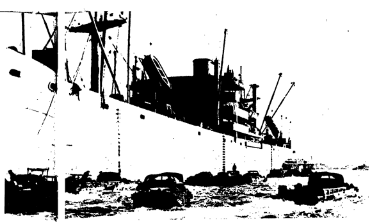


على أرصفة «بليموث» : كاهن أميركيّ يقيم للجنود شعائر القدّاس الإلهيّ يوم ٦ حزيران المشهود.

«كأنه العرض العسكري...» (تشرتشل)

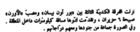
جنود أميركيون يغلقهم زورق إنزال في المرحلة الأخيرة من مراحل النزول .



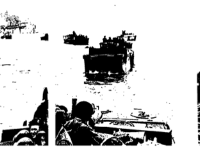


«ما إن بزغ الفجر والتحقت السفن ، كبيرة وصغيرة ، بالمراكز التي عينت لها في عملية الهجوم ، حتى جرت الأمور وكأنّ الأمر لا يعدو كونه عرضاً عسكرياً »
(ونشرتشل في مذكراته) .

«ولقد شاقني مرأى الآليات وهي تنطلق في مياه المرفأ ، وقارب الشاطىء ، وتسلّق الجروف بسرعة ...»
(ونشرتشل في مذكراته) .



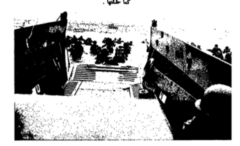
نزلت الفرقة الكندية الثالثة بين «بور أون بيسان» ومصبّ «الأورن» صبيحة ٦ حزيران ، وتقدّمت قواتها مسافة كيلومترات داخل المنطقة . وفي الصورة جماعة من جنودها ومعهم درّاجاتهم .





كانت
الكلمة الفصل لفن الحرب...

لم يسبق لعملية عسكرية أن تعرّضت لما تعرّضت له هذه العملية من أهوال وأخطار ، وأن بلغت ما بلغته من طاقات مادية وبشرية ، وأن حققت الأهداف التي من أجلها كانت كما حققتها .



جنود بريطانيّون يزحفون إلى الشاطىء إثر نزولهم من الزوارق وهم يخوضون في الماء حتى الرُكَب ، فيما راحت مدفعية العدو تكنس الأرض .

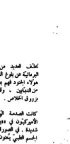
جنود أميركيّون يتقدّمون في الجزر «في «أوماها بيتش» وقد أثقلهم العتاد .



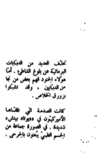
إنها لتحفة التنظيم والتموين

لقد عرفت الحرب الأخيرة فناً جديداً : إنه فنّ تجميع الجيوش ، وتوجيهها ، وتزويدها بالمؤن والأسلحة والأعتدة . ومتى علمنا أنّ عملية النزول في «نورمانديا» قد قدّرت ٢٦ طناً من الموادّ لكلّ جنديّ أدركنا أنّ ما رافقها من تنظيم وتموين أتى تحفة التحف .



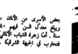


بعض الجرحى يلقون العناية الطبيّة على الشاطىء الذي احتلّوه.



تخلّف العديد من الدبّابات البرمائيّة عن بلوغ الشاطىء . أمّا هؤلاء الجنود فهم بعض من نجا من الدبّابين ، وقد تشبّثوا بزورق الخلاص .

كانت الصدمة التي تلقّاها الأميركيّون في «أوماها بيتش» شديدة . في الصورة جماعة من الجسم الطبيّ يُعنون بالجرحى .



بعض الأسرى من الألمان ، ويبلغ معدّل السنّ فيهم ٤٠ سنة . أمّا زهرة الشباب الألماني فتحارب في الجبهة الشرقيّة .

لقد بزغت شمس ٧ حزيران وعادت المعركة إلى الاحتدام . وبات لزاماً على الحلفاء أن يدعّموا رؤوس جسورهم ، وأن يلحموها ، ومن ثمّ أن يصلوا بأسرع وقت ممكن إلى الخطّ الذي كانوا يعتزمون بلوغه في الليلة السابقة .



وقد بات لزاماً على الألمان أن يصدّوا الغزاة قبل أن يتسنّى لهم توسيع الخرق الذي أحدثوه لساعتهم في منشآت القارّة الدفاعية . وفي «الكوتنتان» وُجّه مجهود جديد نحو «سانت مير إغليز». ولكنّ الاحتياطيّين المرمين في فوج المشاة الألمانيّ ١٠٠٥٨ تشتّتوا لدى رؤيتهم نحواً من ٦٠ دبّابة أميركيّة؛ فكان على الجنرال «فون شليبن» أن يهرع بنفسه للحؤول دون فرارهم. وفي جنوبيّ «سانت مير» استجابت الكتيبة ٧٩٥ من قوّات الشرق إلى كولونيل قيصريّ سابق وعد رجالها بأسر هانئ ، فاستسلمت للحال وكأنّها رجل واحد . وأسرت وحدة من النخبة بكاملها، وهي كتيبة من فوج القنّاصة السادس. باستثناء ٢٥ من رجالها تمكّنوا من بلوغ «كارانتان». فنوعيّة القوّات الألمانيّة السيّئة، أو معنويّاتها الفاسدة . البارزة من خلال هذا الضعف المبين، قد أوقدت الغيظ والحنق في صدر «هتلر» .

هذا، وكانت مقاومة فرقة المشاة الألمانيّة ٣٥٢ قد تلاشت منذ عشيّة ٦، في وجه الفيلق الأميركيّ الخامس ، وقد عصى الجنرال «كرايس» تعليمات «هتلر» فسحب بقايا فرقته إلى الوراء كي يجنّبها الإبادة الكاملة . وكان الحلفاء يحرزون أيسر قسط من التقدّم في القطاع الذي ظنّ الألمان أنّهم يدفعون فيه الغزو. وفي ٨ تمّ الاتّصال في «بورآن بيسان»، وفي اليوم ذاته استُولي على «إزينيي»، وفي اليوم التالي تقدّمت إحدى طلائع فرقة المشاة الأميركيّة، التي نزلت مؤخّراً إلى الشاطئ، حتى بلغت محطّة «إيزون» الصغيرة على بعد ١٢ كلم من «سان لو». وارتحل مركز قيادة الفيلق الألمانيّ ٨٤ بعجلة، وحطّ رحله في معهد إكليريكيّ قديم - على طريق «كوتانس»، وهو على أهبة الاستعداد للانهزام ثانية .

ومع ذلك كانت القيادة الأميركيّة قلقة، لأنّ الغزو وجد نفسه في مأزق حرج منذ خطوته الأولى. فأربعة أخماس ١٠٧،٠٠٠ رجل، ونصف الآليّات الـ ١٤،٠٠٠، وأقلّ من ربع الـ ١٤،٥٠٠ طنّ من المؤن . التي كان مفروضاً أن تنزل إلى الشواطئ ، قد وصلت في اليومين الأوّلين . ولم يكن للعدوّ يد في إخفاق هذه الترتيبات ؛ فبعض الغارات الليليّة قد أحدث أضراراً طفيفة . وخرجت بيسالة من «الجيروند» ثلاثُ مدمّرات بائسة لمهاجمة أسطول الغزو ، فقُطّعت إرباً، وأُبقيت الغوّاصات والزوارق السافة بعيدة عن ساحة القتال؛ ولكنّ تحويل الشواطئ إلى أرصفة إنزال ، وهي من قبل لم تُستخدم إلاّ للسباحة، قد أوجد من المصاعب أكثر ممّا كان في الحسبان . وبوشر بعجلة بناء مرافئ من طراز «ماليري» في «أروماتش» و «أوماها» .

دبّابات أميركيّة تجتاز «كوتانس» في ٣٠ تموز ١٩٤٤ .

في ٧ كان «أيك» يقوم بزيارة أولى للشواطىء . فأصدر أمراً بأن تُعطَى الأفضليّة لإقامة الاتّصال بين الفيلقين ٧ و ٥، أي بالتالي احتلال «كارانتان». ولم يجد الألمان أيّة صعوبة في التنبّوء بهدف النشاط الأميركيّ في تلك المنطقة : ففي «فونتوني–سور–مير» وجدت الكتيبة الشرقيّة الألمانيّة رقم ٧٣٩ مخطّط عمليّات الفيلق السابع ، على جثّة القائد الحبريّ في «يوتاه»، بعدما قُتل في زورق النزول، وهو: عزل «الكونتنتان» وغزو «شيربور». وكنتيجة لذلك قرّر «رومل» أن يقاتل في سبيل «كارنتان»؛ وبعد حصوله على صلاحيّات شرعيّة من «هتلر» نفسه، استدعى من «أنجو» و«بروتانيا» الفرقةَ المصفّحة الصاعقة ١٧ ، وفرقةَ المظليّين الثالثة، وفرقتَي المشاة ٧٧، و٣٦٥، وكذلك مجموعة مختلطة السلاح من الفرقة ٣٧٥. وبعدما انضمّت هذه القوّات إلى لواء فيلق المظليّين الثاني ، نزلت إلى ساحة القتال شرقيّ «سان لو» .

وعلى نقيض ذلك لم يُسمح إطلاقاً بأن يُقتطع شيء من الجيش ١٥ . ومانع «هتلر» كذلك بأن ترجع إلى القارّة حامية الجزر الانغلونورمانديّة، حيث كانت فرقة المشاة ٣١٩، ولواء مدفعيّة مضادّة للطائرات، وفوج دبّابات، أي ما مجموعه ٣٥،٠٠٠ رجل ، يعيشون في سكينة آمنة. وبعد ما ملّ إصرار «رومل» أمر بألاّ يؤتى على ذكر تلك القضيّة على الإطلاق.

لقد لعب الطيران الحليف دوراً حاسماً في عرقلة الأمداد الألمانيّة . فقد عطّلت ٥٠٠ قاذفة خطّ السكّة الحديديّة بعدما دمّرت شُعَب «ألونسون» و«مايين» و«رين» و«فوجير» و«بونتوبو» وغيرها، وبعدما سدّت نفق «سومور». وأسهمت المقاومة البروتانيّة بهذه العمليّة بأعمال تخريب هامّة في كلتا ناحيتَي «رين». وعلى سبيل المثال إليك قصّة مجموعة القتال الألمانيّة «هاينتز» من فرقة المشاة ٢٧٥: لقد رحلت هذه المجموعة من «ريدون» في ٦، في ١٤ قطاراً، فتوجّب تفريغ ١٢ قاطرة منها بين «ريدون» و«فوجير» نتيجة لقطع الخطوط ، وأُفرغ القطار الثالث عشر في «بونتورسون»، ولم يكد القطار الرابع عشر يصل إلى «فولينيي» حتى تعرّض لهجوم جويّ سحقه سحقاً. ولسوف تشقّ الأمداد طريقاً لها نحو «نورماندیا» برحلات ليليّة شاقّة، ولسوف تصل إليها متأخّرة أيّاماً عديدة .

حين نزل فيلق المظليّين الثاني خطّ النار كان قد فات الأوان للدفاع عن «كارنتان»؛ ففرقة «إيربورن» قد استولت عليها في ١١ حزيران. وبعدما عصى الماجور «فون دير هايدت» الأوامر التي تفرض الدفاع عن المدينة حتى الموت، لم ينجُ من انتقام «هتلر» إلاّ بفضل الظفر الذي كلّله في «كاسينو» .

وفي سبيل استعادة «كارنتان» قرّر الجنرال «ماركس» أن يتولّى بنفسه خطّة هجوم معاكس. وما كاد يغادر مركز قيادته حتى بادره رئيس أركانه العامّة الكولونيل «فون كريغرن» باللوم المتأدّب لكونه يبالغ في تعريض نفسه للخطر. فأجابه «ماركس» بأنّ الموت في الجنديّة بات أكرم مصير يمكن التفكير به في الوضع الذي تردّت فيه «ألمانيا». ولم تنقضِ دقائق قليلة حتى سمع «كريغرن» وضبّاطه صلية من طائرة «تايفون». وهكذا قُتل واحد من أكثر الجنرالات الألمان كفاءة ، وأحد أولئك الذين كان «هتلر» يخصّهم بكره خاصّ. وحاول خلفه «فارمباخر» (الذي استُبدل به «فون شولتز» بعد أيّام) أن يستعيد «كارنتان»، فلم يفلح .

في القطاعات البريطانيّة شهدت أيّام ٧ و٨ و٩ حزيران دمج رؤوس الجسور ، وإخضاع مجموعات المقاومة — باستثناء مجموعة «دوفر لاديليفراند» التي بقيت ثابتة — واحتلال «بايو» التي لم تُمسّ بسوء. وعلى نقيض ذلك كان التقدّم حول «كين»، وهي مفتاح «نورماندیا» الستراتيجيّ ، صعباً للغاية . إنّ القطاع الواقع بين «الديف» و «السول» قد سُحب من الجيش الألمانيّ الرابع . وأُلحق بمجموعة الغرب المصفّحة : بإمرة «غيرفون شفيينبرغ». وقد أمره «هتلر» بإلقاء الانكليز في البحر .

إلاّ أنّ «غير» قد عرف بداية سيّئة. فلقد هبط على قيادته العامّة وابل من القنابل ساعة قدم للإقامة في قصر «الكين» على بعد ٣٠ كلم من «كين». إلاّ أنّه لم يصب من جرّاء ذلك بغير تأثّر شديد. ولكنّ رئيس أركانه العامّة «ريتر أوند إدلر فون ديفنز» قد قُتل مع ضبّاطه أجمعين. وبعدما أصاب التفكّك المجموعة المصفّحة من رأسها، تسرّب كذلك إلى أوصالها ؛ فالدبّابات كانت تصل إلى ساح القتال متأخّرة جدّاً وقد تكبّدت خسائر فادحة، فخاضت المعركة وهي متجزّئة بدلاً من أن تشنّ الهجوم المضادّ الكبير الذي أمر به «هتلر»؛ وكان عليها أن تتفرّغ لمهامّ دفاعيّة مقيتة، في وجه عدوّ كان، وهو في يوم غزوه الخامس، قد تغلّب على خطر الإفناء الذي تسلّط عليه لأوّل وهلة .

وفي سبيل الاستيلاء على «كين» وضع «مونتغومري» مناورة شاملة ; فلسوف يتقدّم الفيلق الأوّل حتى «كانيي» جنوبيّ شرقيّ المدينة. وذلك من ضفّة «الأورن» اليمنى. ولسوف ينطلق الفيلق ٣٠. برفقة الفرقة المصفّحة السابعة، من منطقة «بايو»، فيستولي على «تيلي–سور–سول» و«فيلير» و«نوايي بوكاج». ومن ثمّ ينحرف شمالاً فيحتلّ مرتفعات «آفريسي» جنوبيّ غربيّ «كين». وأمّا آخر فصل من عمليّة التطويق فكان قوامه أن يُلقى في المسافة بين «كانيي» و «إفريسي» بالفرقة الوحيدة المنقولة جوّاً، وهي فرقة «إيربورن» البريطانيّة الأولى . وكانت تنتظر في «انكلترا» على أتمّ الاستعداد. وفي ١٠ انطلق هجوم ألمانيّ وهجوم انكليزيّ في آن معاً جنوبيّ «بايو»؛ وأمّا الهجوم الألمانيّ فقد أخفق . وكان الهجوم الانكليزيّ ما يزال ينعم بمساندة بطّاريّات السفينة «نلسون» من عيار ١٦ بوصة ، فكانت هذه السفينة قادرة على إطلاق قذائفها على مدى ٣٣،٠٠٠ ياردة. وكانت تلك المنطقة الحرجيّة الوعرة ساحة غير مألوفة بالنسبة لرجال الفرقة المصفّحة السابقة ، أي فرقة «جرذان الصحراء»، التي اكتسبت خبرتها في الحرب فوق الأراضي الليبيّة المنبسطة. ومع ذلك راحوا يتقدّمون بسرعة على طريق «بايو» إلى «تيلي»، وهم لم يفقدوا غير أربع دبّابات في اليوم الأوّل. وفي اليوم التالي تبدّلت ملامح المعركة. فالفرقة الألمانيّة المصفّحة. بإمرة الأفريقيّ العتيق «بايرلين»، كانت متخفّية في المنطقة الحرجيّة، من شرقيّ «تيلي» إلى شماليّ «فيلير». وكان رماة القنابل اليدويّة يتحصّنون بسياج الأشجار وراء الحواجز المضادّة للدبّابات. واتّخذت الدبّابات مظهر الدغل وقبعت ساهرة متحفّزة لإطلاق نيرانها أو للانقضاض. وهكذا اتبنّت أفضل الفرق الألمانيّة المصفّحة خطّة الثوّار في التريّث والتحفّز والانتظار. وراحت الطائرات الحليفة التي تحوّم فوق ساح القتال تبحث لها عن بعض المرامي. فوجدت بعضها وجعلت في المسالك أحياناً مجازر. ولكن، في معظم الأحيان، كانت الخضرة النورمانديّة الكثيفة تحجب الطريدة عن أبصار الطيّارين .

وتخلّلت نهار ١١ بكامله معاركُ متفتّقة. ولم تكد الفرقة المصفّحة السابعة تدخل إلى «تيلي» حتى طُردت منها بعد ما شنّ العدوّ هجوماً معاكساً. وشرقيّ «الأورن» كان الوضع أسوأ. فساحات قتال ليلة ٥...٦ الكبرى ، وهي «بريفيل» و«أمفرفيل» و«رانفيل»، قد عادت تشهد وجود جنود ألمان يدفعون الانكليز نحو البحر. ولكنّ نيران السفن المسدّدة بدقّة قد أحبطت هذه الردّات الهجوميّة .

وفيما كانت هذه الأحداث آخذة مجراها في المنطقة البريطانيّة، لم يلقَ أميركيّو «أوماها بيتش» في وجههم غير منهزمي ٦ حزيران. فحطام الفرقة ٣٥٢ قد لازم الميسرة لحماية «سان لو» مخلّفاً في ميمنته فراغاً شاغراً. وفكّر «رومل» بأن يسدّه بالأمداد التي استُدعيت من «بروتانيا». ولكنّ أحداث «كارنتان» قد احتكرت هذه الأمداد في «كوتنتان». ولم يكن على



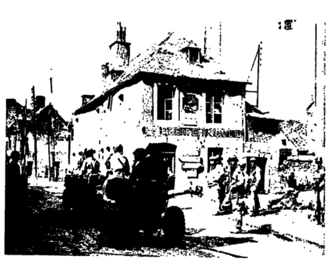
مدفع مضادّ للدبّابات صُوِّب إلى منزل تمركز فيه الألمان .

«جيروي» إلاّ أن ينقضّ على الفجوة للإطباق على «سان لو» و«كين» في آن معاً . ولكنّ ساعة الجرأة الأميركيّة لم تكن قد أزفت بعد . فاكتفى الفيلق الخامس باحتلال غابة «سيريزي» وبالتقدّم بحذر نحو «بالروا» و«غومون ليفانّي».

والرجل الذي فكّر باستخدام الثغرة لكي يستدير من الغرب حول حاجز السكّة الحديديّة في «تيلي». هو الجنرال «بوشول» قائد الفيلق البريطانيّ ٣٠ . وخرجت الفرقة المصفّحة السابعة إلى الجهة اليمنى، فعبرت «الأور» والتفّت حول كلاّب الدفاع الألمانيّ؛ وفي ١٣ انبثقت على ذرى «فيلير ـبوكاج»، فدخلت الدسكرة واجتازتها. وبدأت في التقدّم عبر طريق «كين»؛ ففوجىء «بايرلين»، والحالة هذه، من الوراء؛

وفي تلك الأثناء حدث انقلاب مفجع في الأوضاع . فمقدّمة الفرقة المصفّحة السابعة، التي تضمّ سريّة القنّاصة اللندنيّين. قد توقّفت برهة للاستراحة على المرتفع ٢١٣. على طريق «كين». فوق وادي «الأودون» الوعر؛ فإذا بخمس دبّابات «تيغر» تبرز فجأة وتكرّ على الرتل المذهول تحرق آليّاته كافّة: ٢٥ دبّابة؛ ١٤ شاحنة مصفّحة، الخ... وقامت دبّابات ألمانيّة أخرى بمهاجمة حاشية «فيلير ـبوكاج» الشرقيّة . ترهق فرقتي الخيّالة ٨ و١١. فهؤلاء الدخلاء الذين قدموا ليحجبوا نصر «جرذان الصحراء» الباهر كانوا من جنود الفرقة المصفّحة الثانية: التي وُضعت تحت تصرّف مجموعة «غير» بموجب قرار متأخّر صدر عن «هتلر». ولقد قدمت هذه الفرقة من منطقة «بوفي» فلم تتحرّك إلاّ أثناء الليل مجتازة «السين» فوق جسور «باريس»، مراوغة يقظة الطيران الحليف. وكان عليها في ١٣ حزيران أن تعنى بأمر عتادها، ولكنّ قوّادها اكتشفوا وجود الانكليز في موضع غير منتظر فشنّوا هجومهم تلقائيّاً؛ وقام الجنرال «فون لوتفتز» بموازرتها بما تيسّر لديه من العناصر الجاهزة في فرقته .

لم تبقَ «فيلير ـبوكاج» طوع البنان. واحتمى «إرسكين»، قائد الفرقة المصفّحة السابعة، بجنح الليل، فحدّ من الأضرار بتراجعه نحو مرتفعات «تريسيي ـبوكاج». وفي اليوم التالي استقرّ الوضع نسبيّاً بفضل نشاط الطيران، ومساندة فرقة المشاة الأميركيّة الأولى، وهجمات فرقة المشاة البريطانيّة ٥٠ على «تولي». ولكنّ أدلّة جديدة على تجمّعات ألمانيّة وطّدت عزم «مونتغومري» على سحب الفرقة المصفّحة السابعة من وضعها المغامر، فانسحبت في ليل ١٤ـ١٥، وتراجعت نحو «ليفري» وضجيج ٣٠٠ قاذفة ثقيلة يحمي تراجعها . فلقد تمّ التخلّي عن هجوم «كين» غربيّ «الأورن» وشرقيّه على السواء .



«كارنتان» ، إحدى المدن الفرنسيّة المحرّرة .

بين الأشجار والسياجات ، في المروج التي تناثر في أرجائها القتلى والجرحى.



قنابل طائرة تنهمر على «لندن»

يوم وقعت معركة البراز في «فيلير–بوكاج» عجزت «ألمانيا» عن إطلاق هجوم صواريخها «ف ١» . فقد كان متوقّعاً أن تجري أولى عمليات الإشعال في ١٢. قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة. ولكنّ التقارير عن مراكز الإطلاق كانت تشير إلى صعوبات جمّة. حتّى إنّ الضابط المسؤول. وهو الكولونيل «فاتشل»، قد أجّل الساعة الحاسمة. وفي الساعة ٣٫٣٠ من ١٣ حزيران. لم يجرؤ على أن يؤخّر . أكثر ممّا فعل. دخولَ هذا السلاح. الذي كان «هتلر» ينتظره بفارغ صبر . في مجرى التاريخ : كانت ٥٠٠ صاروخ تربض في مراكز إطلاقها. وكانت ٥٤ من المزالق قد أُنجزت. ولكنْ لم تنطلق منها غير ١٠. وتفجّرت خمسة صواريخ إبّان الإقلاع. ووقع صاروخ سادس في «المانش»؛ ومن مجموع الصواريخ الأربعة التي اجتازت الساحل الانكليزيّ، أصاب واحد منها «لندن» فقتل ستّة أشخاص. وأمّا «فاتشل». ورئيسه الجنرال «هاينمان». فقد نجَوا من عاقبة خيبة «هتلر» بأعجوبة .

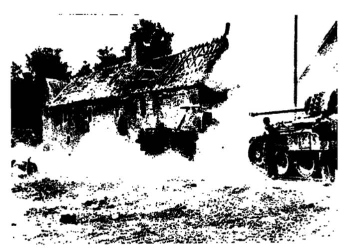
ولكنّ المهلة التي نعم بها اللندنيّون لم تدم طويلاً. فلقد استونف الإطلاق في ١٥. وفي ١٦ ظهراً أطلق ٢٤٤ صاروخاً. فسقط ١٤٤ منها على «انكلترا». ومن جملتها ٧٣ على «لندن الكبرى». كانت طريقة القيادة الآليّة بدائيّة، وقلّة الدقّة تفوق الوصف. وتاه بعض هذه الصواريخ حتّى بلغ «النورفولك». ولكنّ الانفجارات المدوّية كانت قويّة للغاية. والأضرار فادحة . منذ ١٩٤٢ كانت «لندن» قد خرجت عمليّاً من نطاق الحرب الجويّة؛ وأمّا الحدّة. وروح التحدّي. اللتان أحبطتا نفسيّاً خطط الحرب الألمانيّة الصاعقة في ١٩٤٠. لم تبقيا تلعبان دورهما في هذه التجربة الجديدة؛ فلقد أصاب «انكلترا» الإرهاق. وأحدثت طبيعة هذا السلاح المبهَمة. على حدّ قول «تشرتشل». تأثيراً خانقاً .

في «نورماندیا» همدت الحركة في قطاع «كين». ولكنّ الهجوم على «شيربور» كان في أوج تطوّره، ولقد اتّخذ له شكلين: انقضاض مباشر نحو الشمال. وتحرّك من الشرق إلى الغرب بغية شطر شبه جزيرة «كوتنتان» قسمين .

وأمّا الانقضاض المباشر فقد اصطدم بموقع «مونتبور». وهو مقدّمة دفاع «شيربور» البريّ. وقد مكّنت بسالة جنديّ عاديّ. هو «رالف رايلي»، ومبادرته، من الاستيلاء على بطّاريّة «أزفيل»؛ ولكنّ بطّاريّات «كريسبيك» و«كوينفيل» صمدتا لهجمات متتالية. ولم يتمّ بلوغ أهداف يوم ٦ إلاّ في ١٣ حزيران .

وصادفت الاندفاعَ نحو الغرب فيضاناتُ «الميردوري». فهذا النهر التافه قد تحوّل إلى حاجز مائيّ موحل يتراوح عرضه بين ١٠٠٠ متر و٣٠٠٠ متر. ولم يبقَ من محاولة فرقة «إيربورن» ٨٢، في سبيل إقامة رأس جسر في ليل ٥–٦. غير ثلاث بقع من الأرض داخل المنطقة. يقوم بحمايتها الكولونيلات «ميلّي» و«تيمز» و«شانلي». وراح مظليّون من الفوجين ٥٠٧ و٥٠٨، وعددهم بضع مئات. وهم منبسطون بشكل قنفذ، ينتظرون ريثما يأتي مجمل الفيلق الخامس لرفع الحصار عنهم بعد أن يطهّر منطقة «سانت–مير–إغليز» .

في مساء ٨ اكتشف جنديّان إمكانيّة عبور الفيضان بواسطة ممرّ مغمور قرب قرية «لافيير». ومن خلال هذا المنفذ الموقّت انضمّت كتيبة من فوج الطيران الشراعيّ ٣٢٥ إلى مفرزة «تيمز». ولكنْ في الوقت الذي دخل فيه هذا المدد إلى خطّ النار استسلمت مفرزة «شانلي». وأخفقت بذلك العمليّةُ التي كانت ترمي إلى غزو ضفّة «الميردوري» الغربيّة. فقرّر «ريلجوي» عندئذ شقّ طريقه بشنّ الهجوم على الطريق



معركة دبّابات قرب «تيلي». إلى اليمين دبّابة ألمانيّة ، وإلى اليسار ، خلف البيت ، دبّابة أميركيّة .



الألمان يركّزون بطّاريّات الهاون جنوبيّ شرقيّ «كين» .

الألمان يلغمون الطريق في ضواحي «بايو» .



رقم ١٥ التي كانت متلاصقة بمستوى الفيضان. وأمّا ساحة القتال هذه . ويبلغ عرضها ٥ أمتار، فقد شهدت نشاطاً حامياً للدبّابات وللمشاة يقوده معاون «ريدجوي» البريغادير جنرال «جيمس أ. غافين». سقط على أثره عددٌ من القرى. وأمّا «الميردوري»، الذي امتزج اسمه بإحدى معارك التاريخ الحاسمة . فقد زال ذكره من تقارير العمليّات. وكان الهدف التالي هو «سان سوفور—لو—فيكونت». وهي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكّانها نحواً من ألفي نسمة، على ضفّة «الدوف» اليمنى. فأنزل «كولتز» إلى الميدان فرقة نضرة هي الفرقة ٩٠، ولكنّ خيبة مريرة كانت له بالمرصاد. فالفرقة ٩٠، وهي «فرقة معضلة» على حدّ قول «برادلي»، لا تستطيع الصمود في وجه النار! وأوّل كتيبة نزلت للقتال أركنت إلى الفرار، وأمّا أولئك الذين قدموا ليحلّوا محلّ الهاربين فقد ظلّوا مسمّرين إلى الأرض! وأقال «كولتز» من القيادة الجنرالَ «ماك كلفي» واثنين من الكولونيلات، ولكنّ هذا العقاب لم يكن كفيلاً بإعادة الروح القتاليّة إلى تلك الوحدة الكبيرة الوجلة. فتوجّب بالتالي إحلال فرقة المشاة ٩ محلّها، ممّا أدّى إلى تأخير كبير. وفي ١٢ لم يكن الفيلق ٧ قد بلغ بعد الخطّ الذي كان مفروضاً أن يحتلّه في ٦ .

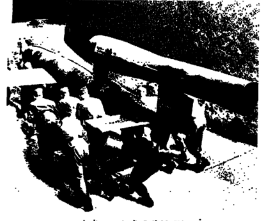
ومن جهة أخرى انهار طرف من المقاومة الألمانيّة في ١٣ أمام فرقة «إير بورن» ٨٢. وهي الجناح الأيسر للهجوم. فاستولى المظلّيون على «بون—لابي» التي قُوِّضت تماماً، وفي ١٦ دخلوا إلى «سان—سوفور» ففرّ الألمان منها هائمين على وجوههم. وإلى يمينهم كانت فرقة المشاة ٩ تتقدّم بسرعة . فاجتازت «الدوف» في «نيهو». وفي ١٧ أطلقت . عبر طريق «كارتوري». رتلاً بلغ ساحل «الكوتنتان» الغربيّ في «بارنفيل—سور—مير». وبذلك تمّ عزل «شيربور» .

كان «روميل» قد اقترح إخلاء شبه الجزيرة . ولكنّ «هتلر» مانع. فكان على الفيلق الألمانيّ ٨٤ أن ينقسم قسمين. فلسوف تدافع عن قاعدة «الكوتنتان» مجموعةُ «هيلمخ». وأمّا مجموعة «فون شليبن»، التي تتضمّن فرق المشاة ٧٠٩ و٩١ و٢٤٣ و٧٧. فقد كانت مكلّفة بحماية القمّة. بذلك تكون فرق أربع قد بُذلت للفناء في سبيل تأخير سقوط «شيربور» لمدّة أسبوع واحد !

وفي هذه المرحلة من المعركة استُدعي «روندشتاد» و«روميل» فجأة إلى «مارجيفال» بالقرب من «سواسون»، برفقة رؤساء أركانهما العامّة . ففي سنة ١٩٤٠ بُني في ذلك المكان مركز قيادة من الإسمنت كان الفوهرر يعتزم أن يقوم بإدارة غزو «انكلترا» من داخله . وها هو الآن يأتي إليه لأوّل مرّة ليعالج مع مارشاليه المشاكل التي أوجدها غزاة آخَر! وهناك وجده «روندشتاد» و«روميل» و«بلومنترت» و«شبيدل» شاحب اللون، بالغ الجرم، مرتبكاً في اللعب بمجموعة كاملة من أقلام التلوين. كان وحده جالساً، فترك المارشالين واقفين أمامه وكأنّهما في قفص الاتّهام . ثمّ صرّح لهما بأنّ جيش الغرب «قد سمح بأن يفاجئه العدوّ وهو في سباته»، وأنّه كان بالإمكان إلقاء العدوّ في تلك اللحظة لولا ميوعة القوّاد وجبن الجنود. فما هو جواب المارشالين المسؤولين يا ترى، وما هي الاقتراحات التي يقدّمانها ؟

تكلّم «روميل»، فدافع عن جنوده، مشيراً إلى بسالتهم في قتالهم المتفاوت القوى، وعاد يطلب إخلاء «الكوتنتان» والتخلّي عن «كين»، مصرّحاً بأنّه قد بات مقتنعاً بأنّ النزول النورمانديّ إنّما كان يشكّل المجهود الحليف الرئيس، واقترح بموجب ذلك تدعيم جبهة «نورماندیا» بأكبر قسم من الجيش الخامس عشر. وخالفه «هتلر» الرأي متهوراً، فأمر بأن يجري الدفاع عن «شيربور» إلى أقصى حدّ ممكن. ولفت النظر إلى أنّ ٨٠ فرقة انكليزيّة وأميركيّة كانت موجودة في «انكلترا» (وهو تقدير مغلوط)، وأنّ عشرين فرقة لا أكثر قد نزلت إلى «نورماندیا». وأنّه يجب بالتالي توقّع انبثاق الفرق الأخرى من ناحية «بادوكاليه». فلم يكن بالإمكان مسّ الجيش الخامس عشر: فعلى القوّات التي كانت تخوض معركة رأس الجسر أن تصمد بإمكاناتها الخاصّة. فالوقت الذي ستطلب فيه «انكلترا» السلم، بعدما روّعتها الصواريخ، قد دنا . ولذلك يجب أن ينعش جنودَ الغرب إيمانٌ متعصّب بالنصر الوثيق .

وعلى أثر ذلك انطلقت صفّارة الإنذار، فهبط «هتلر» إلى ملجئه ولم يصطحب إليه غير مارشاليه ومساعده الجنرال «شموندت». واغتنم «روميل» الفرصة التي أتاحتها تلك الخلوة الغريبة، فراح يعترض على مجزرة سكّان «أورادور—سور—غلان» التي قامت بها فرقة «الرايخ» لخمسة أيّام خلت، قائلاً إنّ هذا الشطط لا يمكن إلاّ أن يسبّب عنفاً شديداً في الانتقام، وأن يجعل من أيّ تعاون مع الفرنسيّين أمراً مستحيلاً إلى الأبد ؛ ولكنّ «هتلر» قطع عليه كلامه قائلاً : «ليست أمور السياسة من شأنك. فهي من اختصاصي أنا. وأمّا أنت فعليك بجبهة نضالك» .



مزلاق لإطلاق الصاروخ «ف ١» .

وأعقبت هذه المقابلةَ، التي لم تسفر عن أيّة نتيجة، دعوةٌ إلى الطعام تخلّلها، كالمعتاد، مشهدُ «هتلر» وهو يزدرد بطريقة حمقاء نصيبَه الضخم من الأرزّ والخضار. وفي الساعة ١٦ قفل «روميل» و«روندشتاد» في طريق العودة. والشيء الوحيد الذي كانا قد حصلا عليه هو أن يغامر «هتلر» بالذهاب إلى «لاروش» — غويون» بعد يومين، علّ اتّصاله بضبّاط الجبهة يبرز له الأوضاع الحقيقيّة لمعركة الغرب .

وفي صبيحة اليوم التالي اتّصل «بلومنترت» هاتفياً «بمارجيفال» للتحرّي عن تنظيم جولة الفوهرر، فأُبلغ بأنّ هذا الأخير قد غادر «فرنسا» خلال الليل؛ فقد سقط أحد الصواريخ من طراز «ف ١» على بعد ٣ كلم من مقرّ قيادة «هتلر» نتيجة لخطإ في الجهاز، فظنّ أنّ هنالك محاولة لاغتياله، فانصرف للحال قائلاً إنّه لا يريد أن يوفّر لمجرمين «سانحة طعنه في الظهر» .

كان حصار «شيربور» قائماً. وقد تلقّى «فون شليبن» أوامر صارمة تقضي بعدم التراجع إلاّ خطوة خطوة، وبالحفاظ على خطّ «سان—فاست—لاهوغ—فوفيل» مهما بلغ الثمن بالاستناد إلى جبهة «شيربور» البريّة. ولكنّ قتالاً بطيئاً أثناء التراجع كان أمراً محالاً نظراً لوجود وحدات تجرّها الخيول، يرهقها طيران العدوّ بلا هوادة، وكان الدفاع المستمرّ عن خطوط «شيربور» سراباً بسراب. فالمرفأ الحربيّ، المحصّن من جهة البحر، كان

منفتحاً من الجبهة البريّة شأن «سنغافوره» في الماضي. وطالب الجنرال «ماركس» ببعض الإسمنت لبناء حزام من المنشآت، ولكنّ الإسمنت قد احتكرته مزالق إطلاق الصواريخ «ف١». وأمّا الخنادق التي حُفرت بعجلة فلم تكن مزوّدة بالأسلاك الشائكة؛ ولم تكن مواقع كثيرة من مواقع القتال غير ملاجيء بسيطة تحت قطع الحطب المستديرة. ولم يبقَ للقوّات فعالية لا من ناحية الجودة ولا من ناحية العدد. وكانت ثلاث من فرق «شلبين» الأربع هياكل عظميّة، فألبسها بعضاً من لحم سيكون طعماً للمدفع بإدخاله إلى كتائب المشاة رجالَ الدوائر؛ وفتيانَ منظّمة «تودت»، وجنود المدفعيّة المضادّة للطائرات القدامى، الخ. وبعث «شلبين» يخبر الفرقة الرابعة: وهي فرقة المشاة ٧٧؛ بأنّها كانت عثرة في الدفاع عن «شيربور» نظراً لموارد الموقع المحدودة. إذ ذاك حاول الجنرال «ستغمان» أن يلحق بالفيلق ٨٤. متسلّلاً عبر الخطوط الأميركيّة الواقعة بين المروج المستنقعة والبحر. فلم تنجح المحاولة إلاّ جزئياً، فتمكّن قسم من المشاة من الفرار على طول الساحل. ولكنّ المدفعيّة والقوافل دُمّرت. وقد قُتل «ستغمان» نفسه بعدما أصابته مطاردة قاذفة. وإذ كان «هيلمخ» قد لقي المصير نفسه في الليلة السابقة، يكون «ستغمان» خامس جنرال يسقط في الجبهة الغربيّة في غضون اثني عشر يوماً.

عندما شنّ الأميركيّون الهجوم في ١٩ لم يصادفوا أيّة مقاومة، ولو رمزيّة: إلاّ في «مونتيبور». وفي كلّ مكان آخر كانوا يتقدّمون بشكل أرتال حتّى يتمّ اتّصالهم بجبهة «شيربور» البريّة. وتأهّبت ثلاث فرق للانقضاض: الفرقة ٩ إلى اليسار، والفرقة ٧٩ في الوسط، والفرقة ٤ إلى اليمين؛ وتُركت الفرقة ٩٠ إلى الوراء. واقترحت القيادة الحليفة العليا حلّ هذه الفرقة: إلاّ أنّ «أيك» أنقذها من هذا العار بعزمه على إعادة تنظيمها.

تقويم التحرير يتلكأ ويتأخّر

ساء الطقس من جديد، وتدنّت فعالية الطيران. ووفدت من «بروتانيا» بأعجوبة فرقةٌ ألمانيّة كاملة، هي فرقة المشاة ٣٥٥، من غير أن تفقد رجلاً واحداً من رجالها، فزوّدت الفيلق الـ ٨٤ المبتور، من أجل الدفاع عن «شيربور»، بعمود فقريّ جديد. وفي ليل ١٨–١٩ هبّت ريح شماليّة غربيّة عاتية، ترافقها أمطار غزيرة. كادت عمليّات الشواطيء تغدو مرضية بعد التغلّب على الصعوبات الأولى، وكان بناء المرفئين الاصطناعيّين يسير سيراً حثيثاً، فإذا العاصفة تعيد كلّ شيء إلى وضعه الأوّل؛ حطّمت الأمواج مئات قوارب الإنزال، وسحقتها على الصخور، أوقذفت بها بعيداً داخل اليابسة، بحيث بات لزاماً انتظار حركة مدّ واسعة لإعادتها إلى اليمّ. دُفع بمكسر الأمواج في «أوماها بيتش» إلى الشاطيء، وتحطّم الرصيف الذي لم يكن قد أُنجز بعد، واضطرّ العاملون على جرّ عشرة من صناديق الباطون الثقيلة «فينكس» إلى التخلّي عنها، والتوت الطريق العائمة وكأنّها قضيب في يد مارد جبّار. هدأت العاصفة صبيحة ٢٢، فإذا مرفأ «مالبيري» الأميركيّ خراب كامل محزن. أمّا «مالبيري» البريطانيّ، وقد تلقّى العاصفة من زاوية أخرى، فلم يتأذّ كأخيه.

لم تدرك هذه العاصفة، بالغاً ما بلغ هولها وأذاها، حدود الإعصار اللولبيّ. فالريح لم تتجاوز ٢٧ عقدة، أي ما يساوي القوّة ٦ التي يدعونها «نسيماً قويّاً»؛ ولم تتوقّف العمليّات الجارية على الشواطيء، مع أنّ المعدّل اليوميّ لما أُنزل من الرجال والعربات قد هبط من ٣٤،٧١٢ إلى ٩،٩٤٥ ومن ٥،٦٢٤ إلى ٢،٤٢٦. ولكنّ الفكرة التشرتشليّة الباهرة، الخاصّة بإنشاء المرافيء الاصطناعيّة، كانت تفرض شروطاً خاصّة نادرة. وتشكّل، حتّى في الصيف، تحدياً لتقلّبات الطقس. عمد الانكليز إلى إصلاح «أرومانش»، وقرّر الأميركيّون التخلّي عن مرفئهم «مالبيري» بناء لتقرير الأميرال «هال».

أرجأت العاصفة موعد الزحف البريطانيّ الجديد على مدينة «كين». إلاّ أنّها أعطت الزحف على «شيربور» مزيداً من الضرورة والإلحاح. وفي ٢١ أنذر «كولنز» الحامية باللغات الألمانيّة والروسيّة والبولونيّة والفرنسيّة. وإذ لم يستجب «شلبين» للإنذار بدأ الهجوم في اليوم التالي بقصف جويّ عنيف، وأخذت الفرق الأميركيّة الثلاث تتقدّم بانتظام على أرض وعرة كثيرة النواتيء، وفي وجه مقاومة ضارية حيناً وحيناً متخاذلة مستسلمة. أخطر «شلبين» رؤساءه في ٢٤ بأنّ أجناده تفقد بسرعة قيمتها القتاليّة. وأنّه يشكّ في قدرته على الصمود في وجه هجوم جديد. وفي ٢٥ انتزع فوج المشاة الأميركيّ ٢٥ عنوة حصنّ «الرول» القديم المشرف على «شيربور»، فوصفت إذاعة «شلبين» المسائيّة الوضع بالعبارات التالية: «القوّات مرهقة عاجزة... خسارة المدينة وشيكة لا مفرّ منها... ألفا جريح لا وسيلة لإسعافهم. أفيكون استشهاد الباقين ضروريّاً بعد؟! جواب ملحّ». فاكتفى «رومل» بهذا الجواب: «بناء لأمر الفوهرر عليكم أن تقاوموا حتّى الطلقة الأخيرة».

في ٢٦ استولى فوج المشاة ٣٧ على «أوكتفيل» وطوّق مركز قيادة «شلبين» في ضاحية «سان سوفور». إعتصم بالملجإ ألفٌ من الرجال اليائسين، وتوقّف جهاز التهوية عن العمل، وبات الاختناق يهدّد اللاجئين. وشرعت آلات الثقب الأميركيّة تحفر الأرض ممهّدة للّغم الذي سينسف المعقل المبنيّ تحت الأرض؛ فأذعن «شلبين». وأمر برفع العلم الأبيض. ثمّ خرج وسط جنوده الفرحين بالاستسلام. سئل «برادلي» ما إذا كان يريد دعوة الرئيس المقهور إلى مائدته. فأجاب: «لو استسلم ابن الحرام منذ أربعة أيّام لدعوته. أمّا الآن فقد فات الأوان. قدّموا له وجبة من نوع ك». ولكنّ «شلبين» رفض أن يصدر أمراً عاماً بإلقاء السلاح. فانكفأ الألمان ناحية مستودع الذخائر. فيما مضى روّادهم يواصلون تدمير المرفإ، بنسف المحطّة البحريّة التي ملأت أنقاضها حوض عابرات الأطلسيّ. إستسلم مستودع الذخائر في ٢٧؛ أمّا ملازم السفينة «فيت»، رئيس الميناء، فعمد إلى يخت شراعيّ صغير ولجأ إلى «الحصن الغربيّ» الواقع في طرف المكسر الكبير، حيث اعتصم مدة ٤٨ ساعة. وسقط عشّ المقاومة الأخير في شبه جزيرة «لاهاغ» في أوّل تموز.

ما كان «هتلر» يحبّ الأسرى، ولكنّه، بتدبير شاذّ نادر للغاية: منح الأميرال «هينيكي»، الذي استسلم و«شلبين» في آن معاً، وسام الفروسيّة تقديراً «لتدمير مرفإ«شيربور» تدميراً شاملاً، لم يعرف الدفاع الساحليّ له مثيلاً في التاريخ». إعتقد الأميركيّون، استناداً إلى ترميم «نابولي»، أنّهم سيتمكّنون من استخدام «شيربور» في غضون أربعة أيّام، ولكنّ الترميم تطلّب عدّة أسابيع.

لم يكن ترميم مرفإ «شيربور» هو العامل الوحيد على تأخير التقويم الموضوع لتحرير «أوروبا». إنطلقت الحملة البريطانيّة الجديدة المعروفة بعمليّة «إبسوم»، في ٢٥ حزيران، فعبرت «الأودون» وبلغت المرتفعات المنتصبة جنوبيّ شرقيّ «كين»، إلاّ أنّها لم تفلح في انتزاع المدينة. كان مخطّط غزو «أوروبا» قد جعل من أوّل تموز موعداً يبلغ فيه محيط رأس الجسر خطّاً يمرّ «بتورفيل» «فليزيو» «فالانسون» «فرين» «فجبل سان ميشال»، والواقع أنّ ما فتحه الحلفاء يكاد لا يبلغ خمس تيك الأراضي.

كان واضحاً، مع هذا: أنّ احتلال «شيربور» ينهي المرحلة الأولى



مظليّون أميركيّون في «سان ماركوف» ، في منطقة «يوتاه بيتش» .



المارشال «روميل» يتحدّث إلى الجنرال «مايندل» في الجبهة النورماندية.

في «سان ماركوف» : مظليّون أميركيّون يحملون علماً ألمانياً وقع في أيديهم.



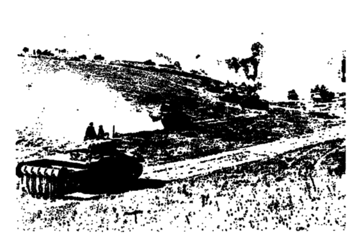
من حملة «أوروبا». ولم ينصَدّ الزحف الراهن كما صُدّ غزو «دييب». في أوّل تموز كان الحلفاء قد أنزلوا في «نورمانديا» ٩٢٠.٠٠٠ رجل. و٥٨٦.٠٠٠ طنّ من العتاد. و١٧٧.٠٠٠ عربة. فوضع كلّ من الجيشين البريطانيّ والأميركيّ. المتساويين تقريباً، ١٥ أو ١٦ فرقة على خطّ القتال . ولم تزل قيد الإبحار في «بريطانيا العظمى» ٩ فرق أميركيّة و٦ فرق انكليزيّة وكنديّة. وبالرغم من ضيق المدى. فقد زوّد رأس الجسر بـ ٣٣ مدرجاً ضاعفت فعالية طيران حقّق منذ ٦ حزيران عدداً خيالياً من الغارات. فبلغ ١٦٠.٤٠٣ غارات. أمّا الخسائر، وقد بلغت ٦١،٧٣٢ رجلاً بين قتيل وجريح ومفقود، فكانت أقلّ ممّا سبق التكهّن به، وقد عُوّض عنها بأكثر منها فظلّت الوحدات كاملة العدد. أمّا «ألمانيا» المستضعَفة فكانت أعجز من أن تستطيع كنس قوّة بلغت هذا الحدّ من الضخامة والكثافة والحِدّة. كانت ستراتيجيّة «هتلر» قد اعتمدت على هزيمة الاجتياح السريعة. فإذا بها مرغَمة على التمسّك بآمال أخرى .

في ٢٩ حزيران سافر المارشالان «فون روندشتاد» و«روميل» من جديد إلى «برشتسغادن» تلبية لدعوة الفوهرر الذي حظّر عليهما استخدام الطائرة أو القطار. وبعدما سارت بهما السيّارة ٢٤ ساعة متتالية كي يتمكّنا من الوصول في الموعد المحدّد. وقفا ينتظران أمام مكتب الفوهرر طوال ٦ ساعات؛ فأعلن «روندشتاد» المسنّ. وقد استبدّ به الغيظ والعياء، لضابط الخدمة. أنّه يوشك أن ينهار . كالجنرال «دولمان» قائد الجيش السابع الذي صعقته بالأمس نوبة قلبية. ولم يكن المؤتمر غير خطاب طويل ألقاه «هتلر» أمام عدد كبير من المستمعين المتملّقين . أعلن فيه أنّه يلغي مخطّط الهجوم المعاكس العامّ الذي وُضع في ٢٠ حزيران، والقاضي بأن توجّه ثلاثة فيالق مصفّحة هجومها على نقطة التحام الجيوش الأميركيّة والانكليزيّة. فقد أخطأ جيش الغرب وروساؤه فرصة إلقاء الغزاة في البحر. أمّا ما يترتّب عليهم الآن فحصر الغزو في رأس جسره الحرجيّ. والحؤول دون وصوله إلى السهول المفتوحة شماليّ «فرنسا». فيما تقضي أجهزة «ف١» و«ف ٢» على «انكلترا». وهكذا ينبغي الدفاع عن كلّ سياج نورمانديّ وكأنّه آخر سور للأرض الألمانيّة!

ولمّا وصل «روميل» إلى «لاروش غويون» عند انتصاف ليل ٣٠ حزيران وجد على مكتبه اقتراحين متوافقين: فمن جهة يطلب «غير فون شفيينبورغ» إخلاء ناتئة «كين». ومن جهة أخرى يطلب خليفة «دولمان» «بول هاوسر». وهو أوّل جنرال لفرق الصاعقة يتسلّم قيادة جيش . تراجع الجبهة حتى «فيلير—بوكاج» و«سان لو»؛ فبادر «روميل» إلى تبنّي هذين الاقتراحين ونقلهما إلى «روندشتاد» الذي كان أسرع منه في المبادرة إلى تبنّيهما. فنقلا إلى قيادة الجيش الألمانيّ العليا منذ الساعة ٣،٣٠ صباحاً. فحُمل هذا التحدّي إلى «هتلر» مع وجبة الصباح .

طلب «كيتل» «روندشتاد» في الساعة ١٧،٣٠. ليقول له إنّ اقتراحيه قد رُفضا. وإنّ الفوهرر ما زال يحظّر كلّ تخلّ عن الأرض. فطلب «روندشتاد» أن يُعفى من قيادة حُظّرت عليه فيها كلّ مبادرة . فسأله إذ ذاك «كيتل» الثقيل متأنّقاً مجاملاً : «وأيّ عمل ترتئي يا هير جنرال فيلد مارشال؟» فأجاب «روندشتاد» : «السلام أيّها الأبله!». وقطع «روندشتاد» المكالمة .

في اليوم التالي. الموافق ٢ تموز. حمل الليوتنان—كولونيل «بورغمان» إلى «سان—جرمان» أوراق السنديان ليتوّج بها صليب الفروسيّة الذي كان يتقلّده المارشال «فون روندشتاد» . فقد لبّى الفوهرر طلبه في الإخلاد إلى الراحة . واستبدل به المارشال «فون كلوغي». أمّا «شفيينبورغ» الذي كان . في طلب الجلاء عن «كين»، قد انتقد ستراتيجيّة «هتلر» بوجه



الدبّابات الأميركيّة تطارد الجيش الالمانيّ السابع .



لم تكن الحرب في الجبهة الغربيّة بساطاً من حرير ...

عامّ. فقد استُبدل به «إيبرباخ»، وإذ علم «رومل» بقرارات «الإعدام» تلك شال بكتفيه وقال : «أمّا التالي ، فأنا ...» .

هكذا ظهر «كلوغي» على المسرح الغربيّ. كان جنديّاً قديراً، شجاعاً، متقشّفاً . ومع هذا كان ذا خلق غريب مترجّح ، ملتوٍ، ورع . قاسٍ ، متقلّب. قال بضرورة قتل «هتلر» «ذاك الخنزير»، إلاّ أنّ «ذاكَ الخنزير» قد دعاه لقضاء ثمانية أيّام في «برشتسغادن» وأقنعه بأنّ التمرّد والتخاذل يحولان وحدهما دون تصفية جيوش الغرب المحاربين الانكليزَ والأميركيّين الهواة . وصل «كلوغي»، الذي عركته مبادىء الجبهة الشرقيّة القاسية، وفي نيّته تطويع جنود الغرب البرمين وحملهم على البطولة قهراً .

كان اتّصاله «برومل» عنيفاً فظّاً. إستجوب «كلوغي» مرؤوسه في قاعة الحرس في «لاروش غويون» بحضور رئيس أركان مجموعة الجيوش وضابطها الأوّل قائلا: «عليك بالطاعة بعد اليوم أيّها المارشال «رومل»، ونصيحتي إليك ألاّ تنسى ذلك !» وعقب هذه الكلمات شجارٌ عنيف . ثمّ تحدّى «رومل» خطّياً القائدَ الأعلى الجديد، في أن يثبت صحّة اتّهاماته بالحجّة والدليل، فلم يلقَ جواباً .

إتّصف «كلوغي» بحسنة واحدة على الأقلّ، وهي شجاعة خارقة نادرة. ففي غد تسلّمه القيادة ذهب يتفقّد المواقع الأماميّة ويصحّح ما علق في ذهنه من طابع معركة الغرب. فلو نُظر إليها من الجبهة الروسيّة لبدت حرباً أنيقة ترفة، ترتفع من أجلها الأيدي كلّها لدى فتح باب التطوّع . أمّا هنا فقد اكتشف «كلوغي» ما يعانيه المحاربون تحت سماء تنقضّ على رؤوسهم في كل لحظة. وإذا به، كغيره من الرجال، يأمر بنزع أبواب سيّارته ليتمكّن من إلقاء نفسه إلى جانب الطريق عندما تدوّي صرخة «طائرات». كان الجيش يفتقر إلى العربات، والأجهزة، والمؤن، والعتاد الصحيّ، والقنابل، وحتّى إلى الخرطوش، وهو أمام خصم يستطيع أن يسترسل في مختلف أبواب التبذير. لقد عُرف من غير شكّ بعضُ أعمال التخاذل في أجناد بالغة الفتوّة أو بالغة الشيخوخة، محشوّة بروس يُطلب منهم أن يستميتوا في «فرنسا» دفاعاً عن «ألمانيا» ضدّ الأميركيّين ! ولكنّ جنود الغرب عموماً يحاربون ببسالة ونكران ذات. تبيّن «الكلوغي» ذلك، واعترف بأخطائه من غير أن يعتذر، آخذاً برأي «رومل»: لقد اقترب الوقت الذي ستنفجر فيه جبهة «نورماندیا» انفجار مطّاط زيد شدُّه.

وما كان ذاك الانفجار ليتأخّر لولا طبيعة ميدان القتال . ولقد قال أحد ضبّاط أركان الفيلق ٨٤ : «سلاحنا السريّ هو أشجار التفّاح». ففي ما عدا «كين» كان الحلفاء كلّما تقدّموا توغّلوا في نسيج الخضرة الذي فاجأهم بكثافته وتراصّه منذ اليوم الأوّل: ألا وهو السياجات! وفي ما خلا «ألان بروك» لم يفكّر أحد بأنّ السياجات النورمانديّة ليست مجرّد أشواك، بل هي مرتفعات من الأرض عالية متينة تكلّلها الأشجار وتحدق بها طرقات منخفضة . ولم يُعر أحد تلك المستنقعات، التي تتخلّل الهضاب المشجّرة، أهميّة كافية . فحول خليج «كين» تنبسط أربع مناطق كبيرة، هي أودية «الدوف» و«التوت» و«الفير» ، وأخيراً ذاك الحوض الذي لا يرتفع عن سطح البحر والمعروف «بمراعي جورج المستنقعيّة»؛ فلا يصل إلى هذه البطاح الإسفنجيّة إلاّ الراجلون العارفون بدروبها الثابتة النادرة. فهي تفرض القتال على برازخ فتسعف بذلك خصماً أقلّ عدداً وأضعف قوّة . حلمت «أميركا» بحرب متحرّكة يوفّر لها فيها عددُ محرّكاتها اللامتناهي تفوّقاً أكيداً، فإذا هي أمام حرب ينازعها فيها العدوّ الأرضَ قدماً قدماً .

حمل الجيش الأميركيّ في ٣ و٤ تموز من على جانبَي المروج المستنقعيّة، بغية الخروج من «الكوتنتان» والالتفاف حول زاوية «بروتانيا» للوصول «بمتزل» الجيوش الحليفة إلى الحدود المعيّنة له . كان انتصار «شيربور» قد قوّى المعنويّات الأميركيّة ، وما توافر من معلومات عن العدوّ كان يسمح بالتفاؤل؛ فالقوّات الألمانيّة الحسنة محتجزة في منطقة «كين»، وليس أمام الجيش الأميركيّ الأوّل غير الفيلق ٨٤ وقد أعيد إنشاؤه حديثاً، وعلى ضفّة «الفير» اليسرى فيلق المظلّيّين الثاني الضعيف؛ وكان الأميركيّون يعتقدون بإمكان دحرهم منذ اليوم الأوّل .

وَضع الفيلق ٨ ، الذي يقوده الجنرال «تروي هـ. ميدلتون»، على خطّ القتال غربيّ «المروج»، ثلاثَ فرق هي ٧٩ و٨٢ و٩٠ . ووافق انطلاقَ الزحف مطرٌ لم ينقطع سحابةَ اسبوع موسّعاً حدود المستنقعات، موحلاً الدروب المنخفضة، مروّياً السياجات، مضعفاً السند الجويّ، مثبّطاً عزائم الجنود. وُضعت فرقة المشاة ٩٠ على الجبهة شرقيّ الفيلق، وكُلِّفت بفتح جبل «كاستر» الصغير ، ولكنّها لم تستطع أن ترفع عنها عار التخاذل الذي جعلها غير صالحة للقتال في معركة «الميردوري». وكانت الفرقة ٧٩ لا تتقدّم في الجناح الآخر أمام مرتفعات «مونغاردون». كان مظلّيو



«كين» المحرَّرة . باللمسكينة !

الفرقة ٨٢ المنقولة جوّاً وبشاتها أمتن عنصراً، إلاّ أنّها سُحبت منذ بدء الهجوم لتعاد إلى «انكلترا» حيث كان من الواجب تجديد بنائها. أمّا بيان المعارك الرسميّ فشريط يسرد أنباء وحدات متخاذلة متقهقرة، تعاد بصعوبة إلى خطّ النار ، توقفها حفنة من الأعداء أيّاماً كاملة، مالئة مراكز الإسعاف بمن وأوهن القتال أعصابهم ، أي بضحايا الخوف والجبن! ذلك أنّ الجنود الذين نزلوا في مطلع تموز كانوا في غالبيّتهم ينتمون إلى الفرق الحديثة العهد التي لم يكن لها خبرة ولا نظام كافيان يعوّضان حداثة سنّها . مرّ على الهجوم أسبوع ولم يسقط جبل «كاستر» ، وبلدة «لاهي—دي—بوي» عند أسفل الجبل ما زالت كذلك في يد العدوّ . أمّا معدّل التقدّم اليوميّ فيعدل أسوأ تحرّكات الحرب العالمية الأولى، إذ بلغ ٥٠٠ م في اليوم.

ويعيد التاريخ نفسه شرقيّ المروج المستنقعيّة؛ فقد سعى الفيلق السابع ، الذي يقوده «لوتون كولنز» ، والمشتمل على فرق المشاة الأميركيّة ٨٣ و٤ و٩ ، إلى الاستيلاء على قرية «ستنيني» منذ النهار الأوّل، وعلى بلدة «بيرييه» منذ اليوم الثاني، ثمّ قطع طريق «كوتانس—سان—لو». ولكنّ «كولنز» لم يستطع أن يزجّ بأكثر من فرقة واحدة على البرزخ الذي لايزيد عرضه على ٣ كلم والممتدّ بين «المروج» ومستنقعات «توت». فتلقّت الفرقة ٨٣ التي عيّنها معموديّة النار تحت مطر غزير ، ولم تفلح عزيمة «كولنز» العسكريّة في دفعها قُدُماً . وأتى ٧ تموز ولمّا تزل «بيرييه» بين يدي الفرقة الآليّة الصاعقة ١٧ .

إمتدّ الزحف في ٧ تموز ذاته إلى فيلقّي الميسرة ١٩ و٥ التابعين للجيش الأميركيّ الأوّل . بين «الفير» و«غومون» ، واحتدم القتال حول «كين» خصوصاً .

ما فتىء «مونتغومري» يلقى من ينتقده لإبطائه في احتلال مدينة عيّنت بين أهداف اليوم الأوّل، ولن ينفكّ يدّعي أنّ فكرة مناورته، التي لم يفهمها «ايزنهاور» ، قامت دائماً على تركيز القوّات الألمانيّة في ميسرة جبهة الاجتياح ، ليمكّن الأميركيّين من النفاذ إلى مجرى «اللوار» الأسفل في الميمنة . لم يكن لـ«كين» ، والحالة هذه، أيّة قيمة خاصّة ، وكانت مع ذلك تقاسي آلام الاستشهاد ؛ فالمدفعيّة البحريّة، والمدفعيّة البريّة ، والمدفعيّة الجويّة، توسعها قصفاً وتحرثها حراثة . أمرت القيادة الألمانيّة السكّان بالفرار ، إلاّ أنّ «كاكو» ، محافظ «الكالفادوس» ، تجنّب هذا الأمر بمهارة بحجّة أنّ حظّ رعاياه من الحماية في الأقبية أوفر منه على الطرقات المعرّضة لقصف المدافع والرشّاشات. سعى الحلفاء جهدهم للإبقاء على «جزيرة صحيّة» حول كاتدرائيّة «سانت—إيتيان» . بيد أنّ القنابل تصيب ولا ترى، وظلّ عدد الضحايا البريئة مرتفعاً . في هذا الجوّ من الهلع والعدم كانت «كين» ترقّب خلاصها ؛ بيد أنّ «مونتغومري» كان يعتبر أنّ تشبّث الألمان بها يخدم خطّته . أمّا «هتلر» . وقد رأى في «كين» باب «باريس»؛ وفي «باريس» مفتاح «فرنسا» . فكان يتلف في رأس جسر «الأورن» زهرة جيشه في الغرب .

بدأت الحملة الجديدة في ٤ تموز بالاستيلاء على مطار «كاربيكي» ؛ وبدأ الإعداد الجويّ في أوّل ليل ٧ بقصف سحق تخوم «كين» الشماليّة. قاطعاً صلة القوّات المقاتلة بمؤخّراتها . نشّطت المدفعيّة كلّها إلى العمل في الساعة ٤.٣٠ . بما فيها مدافع السفينة «رودني» ذات الـ ١٦ بوصة، والتي تحمل قنابلها إلى بعد ٣٢،٠٠٠ باردة . وفي السابعة . والصباح بارد قليل الغيوم . أخذ الأسطول الجويّ الأميركيّ التاسع على عاتقه أمر تعطيل الجسور ومقاطع الطرق ومراكز الأركان وما إليها . وما أزفت الساعة ٧،٣٠ حتى تحرّك الفيلق الأوّل، وراحت فرقه الثلاث ٣ و٥٩ البريطانيّتان . و٣ الكنديّة . تحكم ضغطها المركّز على فرقة الدبّابات الصاعقة ١٢ .

إستحالت قرى الأرباض الشماليّة الغربيّة كلّها مراكز مقاومة بات على الانكليز والكنديّين أن يسحقوها واحدة واحدة . ولم يمرّ يومان حتّى أقدم رئيس فرقة «بنزر مير» الممتازة على ما يجروُ رؤساء فرق الصاعقة على فعله أكثر من رؤساء الجيش : رفض أن يضحّي بفرقته .

أنقاض «كين» قرب كنيسة «سان إيتيان» .



وعاد بها إلى ضفّة «الأورن» اليمنى . ولمّا يبقَ من مشاتها إلاّ ما يعادل كتيبة .

وهكذا حُرّرت «كين» ، ولكنْ جزئيّاً . إذ بقيت الأحياء الشرقيّة في أيدي الألمان . فانتهى بذلك شهرٌ من الكفاح يدعمه طيران هائل ، ونزول مليون رجل كانت حصيلته فتح مدينة ، وتحرير جزء من مئة من الأراضي الفرنسيّة !

ثمّ ركدت الحرب وغفت . وراح المتخاصمون يستعيدون قواهم تمهيداً لمجازر أخرى . لم يكن من الغرابة في شيء أن يظهر بعض المهاترات في الصحافة الانكليزيّة والأميركيّة ، فينتقد الأميركيّون «مونتغومري» ، وينتقد الانكليز «أيزنهاور» . بل كان من المنتظر أن يثير بطء تقدّم الغزو بعض الغبطة في هيئات الأركان الألمانيّة ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحصل . فقد كانت وطأة الكفاح من الثقل بحيث لم تسمح بتفتّق أيّة زهرة من زهور التفاؤل . فالضبّاط المطّلعون كلّهم يعلمون أنّ الجبهة الغربيّة مقضيّ عليها ، وأنّ كلّ ما تستطيع الإنجازات الدفاعيّة فعله هو تأخير انهيار تلك الجبهة . ولقد كانت حتميّة

العريقة ـ قد طلب أن يحملها في البزّة الجديدة التي كان عليه أن يقدّمها للفوهرر في ١١ شباط ١٩٤٤ ، مضحّياً بنفسه لتستعيد «ألمانيا» حرمتها ؛ ولكنّ قصفاً غير ملائم أتلف النماذج فلم يبقَ بالإمكان تقديمها . أمّا المادّة المتفجّرة فكانت دائماً من البلاستيك الانكليزيّ ، الذي كان يقدّمه الكولونيل بارون « فون فريتاغ ـ لوثر نجن » ، وكان يحصل عليه بحكم مهامّه في مكافحة الجاسوسيّة . ولقد جرى التحقّق من حساسية الكبسولة كي لا يتعرّض التنفيذ لخيبة كتلك التي عرفها يوم ١٣ آذار .

أمّا المنفّذ فهو الكولونيل كونت «كلاوس شينك فون شتاوفنبرغ» . كان في مطلع عام ١٩٤٣ قد ترك مهامّه في قيادة جيش البرّ العليا ليخدم في «تونس» . ولقد أطاح لغم ذراعه اليمنى وعينه اليسرى وإصبعين من أصابع يده اليسرى ، فسنحت له ، وهو على سرير المستشفى يعاني عمى موقّتاً ، فرصة التأمّل بواجب الفتى النبيل ، وواجب المسيحيّ . كان كثيرون من رفقائه أعداء الهتلريّة يتخبّطون بحبائل القسَم المشؤوم الذي قطعوه على أنفسهم يوم تعهّدوا قائلين : « أتعهّد أمام الله بأن أمحض الفوهرر ولاء غير مشروط ... ولسوف أكون على استعداد







ظنّ الأميركيّون باديء ذي بدء أنّ الحرب في الجبهة الغربيّة ستكون حرب حركة واسعة سريعة . ولكنّهم ما لبثوا أن أدركوا أنّ عليهم أن يخوضوا حرب عصابات في الطرقات الوعرة ، وبين السياجات الكثيفة ، حيث سقط عدد كبير منهم .

ذاك المصير ، بالنسبة لأعضاء المؤامرة المناهضة للهتلريّة ، تزيد ضرورة القضاء على «هتلر» إلحاحاً . لقد وجب أن يسقط الطاغية ، وأن تسقط النازيّة ، ما دام جيش الغرب واقفاً . وبات الوقت ضيّقاً . ففي ٩ تموز ، يوم احتلال «كين» ، حضر أحد عملاء الاتّصال في المؤامرة ، وهو الليوتنان ـ كولونيل الاحتياطيّ «كازار فون هوفاكر» ، إلى «لاروش ـ غويون» ليسأل «رومل» عن المدّة التي يقدّر أنّه سيصمد فيها في وجه الغزو . فأجاب «رومل» : « أسبوعان أو ثلاثة في أقصى حدّ » .

تمّ صنع القنبلة التي كانت ستقضي على «هتلر» ؛ أمّا الرجل الذي تعهّد بوضعها عند قدميّ الفوهرر فكان صاحب أحد أطهر القلوب وأشجعها على الإطلاق .

صُنعت القنبلة على غرار تلك التي كان «فابيان فون شلابرندورف» قد وضعها في طائرة «هتلر» يوم ١٣ آذار ١٩٤٣ ، وتلك التي أراد المتآمرون تفجيرها ، بعد ذلك بأيّام ، في «برلين» خلال حفلة خيريّة خُصّص ريعها لجنود الجبهة ؛ وهي كذلك شبيهة بتلك التي كان الليوتنان «إيفالد هنريك فون كلايست» ، وهو سليل إحدى الأسر البوميرانيّة

لأن أبذل حياتي في أيّة لحظة حفاظاً على هذا العهد المقدّس ... » فخشي البعض أن يجعلوا من «هتلر» شهيداً ، وارتجف آخرون من الإقدام على طعن «ألمانيا» في الظهر وهي أمام خصم لا يرضى أن تنتهي الحرب بغير الاستسلام لرحمة الظافر . ولكنّ «شتاوفنبرغ» أبعد تلك الوساوس الثقيلة مبرّراً موقفه بأنّ قتل «هتلر» كان ضروريّاً ، لا لأنّ في تواريه الفرصة الوحيدة لتلافي الوقوع في أعمق دركات الكارثة فحسب ، بل لأنّ القضاء على ذاك التنّين الذي أنتجته «ألمانيا» قد غدا بالنسبة للفتى الألمانيّ واجباً يفرضه الضمير . «فألمانيا» النازفة الدّنفة لا تستعيد غير حطام ميادين القتال . هذا ، وتردّد المسؤولون في الاستجابة للاستدعاء الذي قدّمه الكونت «شتاوفنبرغ» طالباً البقاء في الجيش مع ما أصابه من بتر وتشويه ، محتجّاً بأنّه قد استعاد بصره جزئيّاً ، وبأنّه قد تعلّم الكتابة بأصابعه الثلاث المتبقّية ، وبأنّه قد يستطيع الحلول محلّ ضابط يُفاد منه في الجبهة . ولمّا أجيب إلى طلبه جعل يسعى للحصول على مركز يفتح له مجال المثول أمام الفوهرر . أمّا المركز الذي تمكّن من الحصول عليه في كانون الأوّل ١٩٤٣ فكان ، من هذا القبيل ،



الانكليز والأميركيّون يدخلون إلى «سان ـــ لو».

قد بات من الواجب المبادرة إلى التفاوض مع الغربيّين على الأقلّ.

أتراه كان يعلّل النفس بالأوهام؟ أكان يعتقد أنّ بإمكان «هتلر» أن يضحّي بنفسه، بعد التحقّق من الإخفاق، لينقذ «ألمانيا»؟ وإليك السؤال الذي طرحه عليه الأميرال «روغي»: «أتراه يقدم على الانتحار؟» فأجاب «رومل»: «كلا. أنا أعرف الرجل. سوف يتابع الحرب، ولن يشعر تجاه الشعب الألمانيّ بأيّة شفقة. حتى لا يبقى في «ألمانيا» بيت واحد». ومع هذا، وفي الأمر ما فيه من التناقض، ظلّ «رومل» يرفض الموافقة على الاغتيال، قائلاً «لشبيدل»: «أنا أعطيه فرصته الأخيرة. فإذا لم يفعل شيئاً، سأنتقل إلى العمل...» كان «رومل» يفكّر بالتفاوض بشأن الهدنة مع القيادة الحليفة العليا، وقد أعدّ في ذهنه أسماء أعضاء الوفد الذي ينوي إرساله إلى «أيزنهاور».

ولكنْ، هل سيقتفي الآخرون أثره؟ شكّلت الجولات التي أخذ يقوم بها عمليّات جسّ نبض واستفتاء. لم يتردّد بضعة جنرالات في تقديم أنفسهم، وتجاسر الكونت «شفيرن»، قائد فرقة الدبّابات ١١٦، فوقّع مذكّرة أعلن فيها أنّه يتكلّم باسم جنوده، وطالب بوضع حدّ للحرب وقلب النظام القائم. وصادق البارون «فون لوتفيتز»، قائد فرقة الدبّابات ٢. على قول زميله. وانتصب أولئك الذين يدعوهم «هتلر» بحقد «أشراف التقويم» في وجه مغامر نصف سلافيّ، ولقيط من غير شكّ، يجرّ «ألمانيا» إلى الهاوية. فأنكر «أدولف هتلر»، أحدُ أحفاد «بيسمارك»، وأحدُ أحفاد «مولتكي»، وسليلو «يورك فارتيمبورغ» الأكبر و«سايد ليتز» العظيم، وأسماء لا تُحصى قد اشتركت في صنع

سيّارة «رومل» تحترق تحت أنظار «ديتريش»، قائد وحدات الصاعقة في «أوروبا»، بعدما أصابتها المطاردات القاذفات الحليفة.



مجد «بروسيا ـــ ألمانيا» وعظمتها.

وهناك الآخرون، وبخاصّة جنرالات فرق الصاعقة، فهم أيضاً قد فقدوا ثقتهم. في ١٧ تموز تفقّد «رومل» الفيلق الصاعق الأوّل، وكان رئيسه. «جوزف ديتريش». هو سائق «هتلر» القديم، ومرافقه القديم. وصفيّه القديم. فأعلن هذا بحنق أنّ الوضع بات لا يطاق. وأنّه قد بات غير معقول، وأنّه لا يمكن الاستمرار في الحرب بلا تموين ولا استبدال. وخاصّة بلا طيران، وأنّ الوصول إلى نهاية، أيّاً كانت. قد أمسى ضروريّاً. وقد عبّر قائدا فرقتيه عن رأيهما بالقوّة عينها. وهكذا فقد رجال الحرس أنفُسهم تعصّبَهم، وأخذوا يرتابون من الفوهرر.

سافر «رومل» نحو الساعة ١٦ عائداً إلى «لاروش ـــ غويون». وكان الجوّ حارّاً صافياً كأجمل ما يكون الطقس القاتل. كان السائق «دانيلز» يقود السيّارة وإلى جانبه الرقيب «هولكي» يراقب السماء، وقد جلس مع «رومل» في المقعد الخلفيّ الميجر «نويهاوس» والكابتن «لانغ». إستدارت السيّارة في طريق فرعيّة حول «ليفارو» التي يعمل في سمائها بعضُ الطائرات المعادية، ولكنّها أفضت إلى الطريق رقم ١٧٩ بين «ليفارو» و«فيرموتييه»، على مقربة من قرية «مونتغومري». صرخ «هولكي»: «طائرات»! وحاول «دانيلز» أن يقذف بعربته في طريق منخفض، بيد أنّ المطاردتين القاذفتين برزتا بسرعة هائلة مخيفة وأسلحتهما تقذف الرصاص ما أمكنها، فأصيب «دانيلز» بجرح مميت، وانحرفت السيّارة فجأة نحو اليسار، ثمّ عادت فقفزت واجتازت الطريق وتحطّمت في الحفرة اليمنى؛ فانطرح «رومل» من غير وعي على بعد عشرين خطوة وقد أصيبت جمجمته بكسر مزدوج. ولن يستعيد وعيه إلاّ في مستشفى «برني» حيث عبّر الأطبّاء عن يأسهم من شفائه.

في اليوم التالي لإصابة «رومل» شنّ الجيش البريطانيّ هجومه شرقيّ «الأورن» لإتمام فتح «كين» وتحطيم مفصّلة الجبهة الألمانيّة. وفي اليوم التالي، ١٩ تموز، تمّ تحرير محافظة فرنسيّة ثانية هي «سان ـــ لو». كانت «سان ـــ لو» قد قُصفت بقوّة خارقة، فوفّرت أنقاضها الشاملة، التي دُفن تحتها ١،٢٠٠ ضحيّة مدنيّة، للصحف الهتلريّة في «باريس» صوراً مريعة عن «كيفيّة تحرير فرنسا». دخلها الأميركيّون حاملين جثّة الميجر «توماس د. هووي» الذي قُتل في الهجوم الأخير، فعرضوه في أنقاض الكتدرائيّة قائلين إنّ الأموات ينبغي أن يحضروا أفراح النصر مع الأحياء. إنّه لنصر، ولكنْ طالما أرجئ. فنحن في اليوم الـ ٤٤ من معركة «نورماندیا»، وكان على الحلفاء أن يحتلّوا «سان ـــ لو» في اليوم السادس.

في ٢٠ تموز: "هتلر" معافى
لقد أخفقت المؤامرة العسكريّة

لقد بدأ يوم العشرين من تموز مشعاً على «أوروبا» بكاملها. وبصورة استثنائيّة لم تُقصَف «برلين» خلال الليل. وفي الساعة ٧ أقلعت طائرة اتّصال من مطار «رانغسدورف»، وعلى متنها الكولونيل «فون شتاوفنبرغ» ومساعده الملازم «فرنر فون هافتن»، وقد حمل كلّ منهما في يده حقيبة ثقيلة، وكانت كلّ حقيبة تحتوي على قنبلة. إنّهما القنبلتان اللتان قامتا بالسفر ذهاباً وإياباً إلى «برشتسغادن» في ١١، وبعد مضيّ أربعة أيّام قامتا برحلة مماثلة ذهاباً وإياباً إلى «رستنبورغ» التي عاد إليها «هتلر» لتوّه؛ إلاّ أنّ مؤتمر الفوهرر قد أُلغي في آخر لحظة. كانت تلك هي المرّة الثالثة التي يطير «شتاوفنبرغ» فيها في غضون

عشرة أيام لقتل «هتلر» .

كان يعلم أنّ تلك المحاولة كانت الأخيرة ، لأنّ الخناق قد بدأ يضيق : فلقد أوقف أحد أهمّ المتآمرين وهو «يوليوس ليبير» النائب الاشتراكيّ السابق في البرلمان . فلم يبقَ ممكناً أن تدوم مؤامرة واسعة ومكشوفة كتلك وقتاً طويلاً .

واجتمعت الحكومة المؤقّتة في «برلين» . وقد تشكّلت على الوجه التالي : للرئاسة «بيك» ، للمستشاريّة «غوردلر» ، للشؤون الخارجيّة «فون هاسل» ، للقيادة العليا المارشال «فون فيتزليبن» ، الخ . وأمّا «شتاوفنبرغ» فكان من المفروض أن يلحق بهم كسكرتير دولة لشؤون الحرب ، وذلك بعد الظهر ، بعد إنجاز مهمّته . وأمّا قائد موقع «برلين» وضواحيها ، الجنرال «فون هاسي» ، ومدير البوليس الكونت «هيلدورف» ، وهو أحد متآمري ١٩٣٨ ، فكانا قد انضمّا إليهم . وكان «هاسي» يأمل أن ينال المتآمرون موآزرة مدرسة المشاة في «دوبنتز» ، ومدرسة جنود المصفّحات في «كرامبنتز» وكتيبة فرقة «ألمانيا الكبرى» المصفّحة . لم يكن انضمام «فروم» أمراً مشبوهاً به ، على الرغم من أنّه كان يجهل النيّات التي حدت رئيس أركانه العامّة إلى الطيران إلى «بروسيا الشرقيّة» . وفي حال تهرّبه سوف يحلّ محلّه على رأس الجيش الداخليّ واحدٌ من الذين ضحّى بهم «هتلر» ، الكولونيل جنرال «هوبنر» .

إستغرق الطيران فوق «براندبورغ» و «بروسيا» ثلاث ساعات في جوّ مشمس . وكانت أوّل زيارة قام بها «شتاوفنبرغ» بعد هبوطه هي زيارة للجنرال «إريك فيلغيبل» رئيس الاتّصالات في القيادة الحربيّة العليا ، وهو حلقة هامّة في المؤامرة ، إذ أنّه كان عليه أن يعزل المقرّ العامّ للفوهرر القتيل بعد نجاح المحاولة . ومن خلال مراكز للمراقبة عديدة راحت تدقّق في الهويّات غير مبالية للحمولة ، تقدّمت السيّارة المرسلة إلى المطار وأنزلت «شتاوفنبرغ» أمام مقرّ «كيتل» ، فترجّل من السيّارة وهو يحمل حقيبته بصعوبة بالأصابع الثلاث الباقية في يده الوحيدة ، فيما بقيت القنبلة الأخرى في السيّارة مع «هافتن» ، وكانت بمثابة نسخة عديمة الجدوى . إذ أنّ «شتاوفنبرغ» كان عاجزاً من الناحية البدنيّة عن الدخول إلى «هتلر» حاملاً حقيبتين بيد واحدة . هذا فضلاً عن أنّ صانعي المتفجّرات في المؤامرة قد أكّدوا أنّ قنبلة واحدة ، تنفجر في مكان مغلق . كانت كفيلة بالقضاء على الحاضرين أجمعين ... وراح «شتاوفنبرغ» يموّه أمام «كيتل» حقيقة الموضوع الذي أتى به إلى «رستنبورغ» ، فيتحدّث عن الفرق الجديدة التي أنشأها الاحتياط الحربيّ . وعن غيرها من الموضوعات . وحين تناول «كيتل» قبّعته وهو يهمّ بالخروج انتقل «شتاوفنبرغ» إلى غرفة الملابس فاختلى بنفسه ، وبواسطة كلاّبته حطّم الكبسولة المحتوية على الحامض الذي كان من شأنه أن يحرّر القادح . لم يكن هنالك أيّ عامل يمكن أن يحول دون انفجار القنبلة بعد عشر دقائق .

وفي الخارج عيل صبر الفيلد مارشال «كيتل» . فقد كان جدول الأعمال مرهقاً بسبب زيارة يقوم بها «موسوليني» الذي سوف يصل إلى محطّة «رستنبورغ» في مستهلّ فترة بعد الظهر ، بعد عرضه أربع فرق إيطاليّة كانت قيد الإعداد في «ألمانيا» . وخرج «شتاوفنبرغ» معتذراً ، فعرض عليه «كيتل» أن يحمل له حقيبته ، فرفض وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة .

وجرى الاجتماع في «لاغيباراك» ، كما في كلّ مرّة لا تكون فيه المنطقة في وضع إنذار جويّ . إنه منبر خشبيّ يحميه بعض حواجز الإسمنت الخفيفة يتسرّب الضوء إليه من خلال عشر نوافذ ، يتقدّمه مركز للهاتف يقوم بالحراسة أمامه ضابطُ صفّ . قال له «شتاوفنبرغ» بصوت واضح هادىء إنّه ينتظر مكالمة هاتفيّة مستعجلة من «برلين» . ثمّ دخل إلى قاعة المحاضرات وراء «كيتل» والجنرال «بوهلي» . وفي الساعة ١٢،٣٠ كانت الجلسة قد افتُتحت منذ دقائق قليلة ، وكان الجنرال «هويزنغر» يعرض آخر الأحداث على الجبهة الشرقيّة ، فقاطعه «كيتل» موضحاً سبب وجود «شتاوفنبرغ» ؛ فما كان من «هتلر» ، الذي كان جالساً بمفرده وسط عشرين شخصاً واقفين من حوله ، إلاّ أن وجّه إلى الكولونيل تحيّة سريعة ، ثمّ طلب إلى «هويزنغر» أن ينهي عرضه . وأسند «شتاوفنبرغ» حقيبته إلى إحدى الدعائم الخشبيّة المتينة التي تحمل الطاولة . من الجهة الداخليّة ، أي في اتّجاه الفوهرر . وبعد ذلك خطا خطوة إلى الوراء ، ثمّ انتظر بضع ثوانٍ وخرج .

لم يتمكّن «كيتل» من رؤيته إبّان خروجه ، ولكنّه تنبّه إلى غيابه . فخرج بدوره وهو يعتزم أن يخبر «شتاوفنبرغ» بأنّ دوره في الكلام قد اقترب ، وبأنّ عليه أن يكون على استعداد ، فلم يجده في ردهة الانتظار . فعاد أدراجه مرتبكاً .

وفي تلك اللحظة بالذات ، في الساعة ١٢،٤٢ . انفجرت القنبلة . كان «شتاوفنبرغ» و«هافتن» قد غادرا مقام الفوهرر المحصّن ، وباتا ينتظران ، وهما يدخّنان سيجارة ، على مقربة من مكتب «فيلغيبل» . وأمّا الانفجار الذي سمعاه فكان شبيهاً بانفجار قنبلة من عيار ١٥٠ . وقد أبصرا اللهيب يتصاعد : وبلغت مسمعهما صيحاتُ الألم . لقد أُنجزت المهمّة !



لقد أخفقت المحاولة : «إنّها العناية الإلهيّة» (من كلام «موسوليني» إلى «هتلر»)

وانطلقت السيّارة باتّجاه المطار يقودها «هافتن» ، ولكنّ غيرة الوظيفة دفعت رئيساً لمركز المراقبة أمام الحاجز الخارجيّ إلى احتجازها برهة بعدما سمع دويّ الانفجار ؛ إلاّ أنّ «شتاوفنبرغ» اتّصل بالكابتن «مولندورف» ، وهو مساعد قائد مقرّ القيادة العليا ، فمنحه إذناً بالانصراف . ولم تمضِ دقائق حتّى كان يطير نحو «برلين» .

هبطت طائرة «شتاوفنبرغ» في الساعة ١٥،٤٥ في «رانغسدورف» . فاتّصل هاتفياً بالجنرال «أولبرخت» ناقلاً إليه النبأ السعيد : لقد مات «هتلر» !

وهرع «أولبرخت» إلى «فروم» يبلغه الحدث العظيم : وطلب إليه أن يوقّع أمراً بتحقيق مخطّط «فالكوري» قدّمه له . وأمّا «فروم» ، الرجل الحوت ، وطوله متران و٤ سم ، وهو صاحب أقرع قامة بين الجنرالات الألمان ، فقد طالب بالحصول على إثبات ، فتناول «أولبرخت» سمّاعة الهاتف وطلب الاتّصال «بكيتل» بسرعة البرق ، وهو على يقين من أنّ «رستنبورغ» لن تجيب ، إذ المفروض أن يكون «فيلغيبل» قد شلّ حركة

مراكز الهاتف . ومع ذلك فقد سُمِع صوت «كيتل» عبر الخطّ بعد ثوان قليلة ! قال له «فروم» ، الذي أخذ السمّاعة ، إنّ شائعة حول محاولة لاغتيال «هتلر» قد سرت في «برلين» . فأكّد له «كيتل» ذلك ، وقال إنّ الفوهرر لم يصب بجروح بليغة والحمد لله . وقد ذهب ينتظر «موسوليني» في محطّة «رستنبورغ» . وسأل «فروم» عمّا إذا كان يعرف شيئاً عن مكان وجود الكولونيل «فون شتاوفنبرغ» رئيس أركانه العامّة . فأجاب «فروم» بحسن نيّة إنّه لا يعرف عنه شيئاً .

لم يرتب أحد في أمر «شتاوفنبرغ» للحال . كان الانفجار شديد العنف ، ولقد قُتل من جرّائه على الأثر أربعةٌ هم : المساعد الجنرال «شمونت»، وجنرال الطيران «كورتن»، وكولونيل اسمه «براندت» كان قد غيّر اتّجاه الحقيبة بعدما تعثّر بها ، منقذاً بذلك ولا ريب حياة «هتلر» ، وأخيراً المختزل «بيرجر» . وخرج الناجون تغطّيهم الدماء . وقد تمزّقت ملابسهم ، سوداً كالزنوج ، وهم يولولون ؛ لقد ظنّوا لأوّل وهلة أنّ طائرة قد تمكّنت من إصابة هدفها . وبما أنّ المقرّ ذاك كان قد بُني حديثاً ، فقد ساد الاعتقاد بأنّ عمّالاً أجانب من منظّمة «تودت» قد دسّوا آلة جهنميّة تحت الأخشاب التي تغطّي الحضيض . ولكنّ «كيتل» ، وهو الوحيد الذي لم يُصب بخدش واحد ، تذكّر بعدئذ «شتاوفنبرغ» ...

«كنت أشعر بالخيانة تهيمن عليهم» .

وأعاد ظهور «هتلر» بعض الحشمة . وانصرف «هملر» إلى «برلين» وقد عُيّن قائداً أعلى للجيش الداخل . وبعد ذلك راح «هتلر» للمرّة العشرين يعرض «لموسوليني» — الذي كان في هذه المرّة أكثر إذعاناً — ثقته بالنصر . ولم يتفجّر الغيظ المكبوت إلاّ في ساعة تناول الشاي ؛ أصابت «هتلر» إذ ذاك نوبةُ هستيريا ناقمة . فراح يتوعّد الخونة وعائلاتهم وطبقتهم الاجتماعيّة ، منذراً بأرهب وسائل العقاب ... وفي «برلين» كان مشهد آخر قيد التمثيل . فبعدما وصل «شتاوفنبرغ» راح يقسم «لفروم» بأنّ «كيتل» كان يكذب، وبأنّ «هتلر» قد مات . وبأنّه شاهد جثّته تخرج من بطن المقرّ المبقور . ورفض «فروم» التصديق. وكان «هوبنر» ، الذي طرده «هتلر» من الجيش في ١٩٤١ ، قد وصل وهو يحمل بزّته في حقيبته، فدخل إلى المراحيض وغيّر ملابسه . أراد أن يطرد «فروم» من مكتبه، ولكنّ «فروم» قاوم. وانتصب الاثنان الواحد في وجه الآخر ، وصوّب كلّ مسدّسه إلى خصمه من غير أن يطلق الرصاص . ولكنّ «فروم» جُرّد من سلاحه وألقي القبض عليه . وأطاع الحرس أوامر «أولبرخت»، فسدّوا المنافذ وراحوا يجوبون الأروقة في دوريّات منتظمة. وكان مئات من الضبّاط يعملون في مكاتبهم من غير أن يشعروا بالمأساة التي كانت تجري على مقربة منهم .

كانت الخيانة تهيمن على الحاضرين ...

«شتاوفنبرغ» محرك المؤامرة .

في تلك اللحظات كان «هتلر» أهدأ الحاضرين جميعاً . وعندما دخل قطار «موسوليني» إلى المحطّة ، بعد توقّف طويل حدا الركّاب إلى الشكّ بحدوث أمر غير اعتياديّ ، كان «هتلر» واقفاً على الرصيف . ملتفّاً برداء أسود طويل . أمام «غورنغ» و«هملر» و«ريبنتروب» و«بورمان» وغيرهم ، الذين سارعوا في القدوم من مقرّات قياداتهم القريبة. وأمّا التحيّة التي أطلقها «هتلر» بيده اليسرى ، والخدش الظاهر فوق يده. وسدّة القطن المندوف المدسوسة في أذنه اليمنى إلى الطبلة المنقورة ، فقد كانت الآثار الظاهرة الوحيدة لمحاولة الاغتيال . قال «هتلر» : «أيّها الدوتشي ، لقد فجّروا منذ لحظات آلة جهنميّة بقصد قتلي . ولكنّ العناية الإلهيّة قد حرستني» . وبعد الوصول إلى مكان الإجتماع اعتذر لضيفه واختلى «بهملر» ، فيما راح القوّاد النازيّون الآخرون الكبار يتشاجرون و«غورنغ» يهدّد «ريبنتروب» بعصا مارشاليّته ، وذلك أمام الإيطاليّين المشدوهين . ولقد قال المارشال «غرازياني» في ذلك فيما بعد :

كانت هذه المأساة تسير سيراً وئيداً . فقد خاب ظنّ «شتاوفنبرغ» إذ لم يرَ أيّ تحرّك للقوّات أثناء عبوره «برلين» . وعندما وصل اغتاظ لعلمه أنّ كلمة السرّ «فالكوري» لم تنطلق إلاّ منذ لحظات وجيزة . وذلك بفضل حزم الكولونيل «ميرتزفون كويرهايم» الذي قام مقام رؤسائه المتردّدين . ولم يصل «بيك» إلى الوزارة إلاّ في الساعة ١٦،٣٠ . وقد أضناه السقم . وكان «فيتزليبن» قد ذهب إلى «روسّن» على بعد ٤٠ كلم من «برلين» للتشاور مع العريف البحريّ العامّ الأوّل «فاغنر» . ولم تكن مدرسة مشاة «دوبيريتز» قد تلقّت الإنذار بعد. وأمّا الجنرالات الذين نحوا نحو «فروم» فأظهروا عداءهم للمؤامرة ، مثل «كورتزفلايش» . فقد أوقفوا بدلاً من أن يُعدَموا للحال بلا محاكمة. لقد شاهد المتآمرون بأمّ عينهم وسائل القوميّة الاشتراكيّة العاتية وهم يدركون أنّ عقابهم ، إذا أخفقوا ، سيكون موتاً شنيعاً . ومع ذلك كانوا يخوضون تجربتهم الحاسمة بحسن تدبير يليق برجال المجتمع ، وبتباطؤ يشبه تباطؤ الشيوخ .



بيك





فون هاسل



فروم




غوردلر

كانت كتيبة حرس «برلين» تحت إمرة الماجور «أوتو إرنست ريمر» ؛ إنّه ضابط من الجبهة في الثانية والثلاثين من عمره، في جسده ندوب تسعة . قد قلّده الفوهرر بيده منذ مدة وجيزة صليب الفرسان . وقد نبّه «هيلدورف» «بيك» و «فيتزلبين» إلى أنّه يُستحسن إبعاد هذا الرجل بسبب ميوله السياسيّة المريبة ؛ ولكنّ السيّدين الوقورين لم يكترثا لهذا الإنذار ، فهما يفكّران بموجب القياس المنطقيّ التالي: ألجنديّ يطيع ، و«ريمر» جنديّ ، إذاً فسيبادر «ريمر» إلى الطاعة . ولمّا استُدعي «ريمر» إلى مقرّ القيادة أبلغ أنّ الفوهرر قد مات ، وأحيط علماً بالمهمّات الثلاثين التي أوكلت إلى كتيبته للحفاظ على الأمن ، ومنها : السيطرة على مراكز الإذاعة، وتطويق حيّ الوزارات، واحتلال مركز الغستابو، وإلقاء القبض على الدكتور «غوبلز»، الخ... فلم يبدِ أي اعتراض ، ولم يطرح أي سؤال، وعاد إلى «دوبيريتز» يصدر أوامره، وانطلق بنفسه على رأس بعض المصفّحات لإلقاء القبض على «غوبلز» . ولسوف يقول بعد فوات الحين إنّ القضيّة كانت تبدو له مريبة ، ولكنْ ، حتّى تلك اللحظة ، كان «فيتزلبين» و «بيك» مصيبين: فلقد أطاع الجنديّ «ريمر» الأوامر .

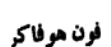
بيد أنّ «غوبلز» أنذر في الوقت المناسب ؛ فلقد أبلغه الخبرّ ملازم احتياط يُدعى «هاغن»، وهو ضابط إرشاد في الكتيبة. ولمّا دخل «ريمر» شاهراً مسدّسه وجد «غوبلز» رابط الجأش . ماذا يريد السيّد الماجور؟ توقيفه . ولماذا؟ لأنّ الفوهرر قد مات. فشال «غوبلز» بكتفيه : إنّ السيّد الماجور كان ضحيّة خدعة . ولكنّه كان يحمل حول عنقه صليب الفرسان. هل الفوهرر هو الذي قلّده إيّاه؟ أجل، بالفعل. إنّه ، إذاً ؛ يعرف صوت الفوهرر؟ حسناً ، فليصغ إليه .

وبظرف ثلاثين ثانية تمكّن «غوبلز» من الاتّصال «بجحر الذئب»، فأعطى «ريمر» السمّاعة ، وإذا «بهتلر» يقول للضابط الشاب إنّ بعض خونة الوطن الألمانيّ قد حاولوا بالواقع اغتياله ، وإنّه لم يُصب بجرح ولو طفيفاً ، وإنّ العقاب كان يأخذ مجراه . وكلّفه شخصيّاً باعتقال المتآمرين ، وأمره بألاّ يطيع أوامر أحد غير الدكتور «غوبلز» بانتظار وصول «هملر»، وقال له إنّه يعتمد على حميّته وإخلاصه وشرفه .

كانت الساعة في ذلك الحين حوالي السادسة مساء . وعلى الرغم من أنّ المتآمرين قد غدوا يرتابون في صحّة موت «هتلر». فقد خيّل إليهم أنّهم في طريقهم إلى الفوز بعدما تمكّنوا من السيطرة على وزارة الحربيّة ومقرّ القيادة العامّة. ومن «زوسّن» نصّب «فيتزلبين» نفسه القائد الأعلى للجيش الألمانيّ، وانتحل «شتاوفنبرغ» اسم «فروم» وأصدر أوامر باعتقال الحكّام العسكريّين ورؤساء الغستابو ومعسكرات الاعتقال، إلخ... وتمّ الاتّصال «بباريس» حيث اتّقد «شتولبناغل» حماسة. وكان «كلوغي» في الجبهة ولكنْ كان مرتقباً أن يعود إلى «روش غويون» بين ساعة وأخرى. ولم يكن أحد ليشكّ في انضمامه، فلقد سبق وردّد غير مرّة أنّه يجب القضاء على «الخنزير هتلر» وتصفية الحرب الخاسرة .

كان النهار مروّعاً بالنسبة «لكلوغي». فلقد عاد يغطّيه العرق والتراب بعدما ألقى بنفسه في الحفر عشرات المرّات. وكان، بعد إصابة «رومل»، قد جمع تحت إمرته الشخصيّة قيادة الغرب العليا وقيادة المجموعة «ب». كان يذرع «نورماندیا» يومياً فأُتيح له أن يقف على حقيقة الظروف العصيبة التي تحارب القوّات فيها، تلك القوّات التي ظنّها متراخية مستسلمة باديء ذي بدء . وكان الاجتماع الذي رئسه منذ برهة، والذي ضمّ جنرالات المجموعة الغربيّة المصفّحة ، قد انعقد في غابة قرب «سان بيار—سور—ديف»، إذ أنّ كلّ حراك حول أي مسكن كان يُعتبر بمثابة عمليّة انتحاريّة. كان النهار رائعاً، وهذا يعني أنّ الطيران العدوّ كان هائجاً . وكانت السماء خليّة متأجّجة ، وكانت كلّ طائرة من الطائرات التي حجبت الأفق تحمل النجمة البيضاء . وأمّا الاجتماع فقد كان نحساً . فالهجوم البريطانيّ شرقيّ «كين» مستمرّ منذ ثمان وأربعين ساعة، وبساط القنابل الذي طرحته الألفا طائرة في اليوم الأوّل قد أفنى القوّات الألمانيّة الأماميّة، ممّا استوجب استدعاء قوّات الاحتياط للحال؛ وكانت المصفّحات بكاملها تقاتل في منطقة تمتدّ من «تروارن» إلى «بورغيبوس» .

كان «شبيدل» ما يزال رئيساً للأركان العامّة لمجموعة الجيوش . فقدّم «لكلوغي» تقريراً عن تطوّر الأحداث خلال النهار ؛ وأضاف أنّ محاولة للاغتيال قد اقترفت ضدّ الفوهرر، وأنّها قد نجحت على ما يبدو ؛ وقد نقل هذا النبأ وكأنّه تفصيل عاديّ من التفاصيل الإداريّة .



فون هوفاكر



فون فيتزلبين



هوبنر



كاناريس



لم ينتفض «كلوغي». ولم تتبدل أساريره. ولم يُدلِ بأيّ تعليق. بل اكتفى بطرح سؤال واحد: «هل من شيء آخر؟» وبإلقاء كلمة واحدة أخيرة: «شكراً».

إنّ «كلوغي» لغريب الأطوار حقاً! فالحدث الذي داعب مخيّلته غير مرّة، ألا وهو اغتيال «هتلر»، قد وقع من غير أن يحرّك لديه ساكناً. فقام يستحمّ. ثمّ غيّر ملابسه الداخليّة، وذلك بغية إنعاش قواه. والحصول على متّسع من الوقت للتبصّر في الأمور.

في الساعة ١٩ وصلت مكالمة هاتفيّة من «برلين». كان «بيك» يتكلّم؛ قال: «يا «كلوغي»، لقد قُتل الفوهرر. أنا أدعوك إلى الانضمام لحركتنا في الحال... إنّني أذكّرك بأحاديثنا، وبالموقف الذي اتّخذته. كلا. إنّ الوضع ليس جلياً تماماً في الوقت الراهن؛ فموت «هتلر» أمر محتمل، ولكنّه ليس ثابتاً تماماً ... ولكن هذا ليس بذي أهميّة، فعمليّتنا قد انطلقت. ولسوف تستمرّ حتّى النهاية. وكلّ شيء وَقْفٌ على جيش الغرب. عليك أنت! إنّني أطلب جواباً خالياً من الالتباس». وصبر



«فون كلوغي»: «أيّها السادة لقد أخفقت المحاولة...»

«كلوغي» ريثما انتهى دفق الكلام العصبيّ المنطلق من فم الرجل الهرم الذي كان مرّة رئيسه؛ ثمّ قال: «عليّ أن أستشير أركاني العامّة. وسأعود إلى الاتّصال بك بعد نصف ساعة».

وبعد برهة أتى «شتولبناغل»: وبرفقته الدكتور «هورست» صهر «شبيدل»، و«كايزر فون هوفاكر» أكثر المتآمرين حماسة وبلاغة في الإقناع. فاختلوا «بكلوغي» الذي لم يكن قد وفى بعد بوعده في العودة إلى الاتّصال «ببيك» والذي لن يفي به أبداً. وتسلّم «هوفاكر» زمام الحديث، وهو ليوتنان– كولونيل احتياط بسيط؛ قال: «لقد خسرنا الحرب. ضعوا حدّاً للمجزرة ... إمنعوا أرهب الكوارث من أن تحلّ بالشعب الألمانيّ ...» ولكنّ هذه البلاغة فاضت على كتلة من جليد. ونهض «كلوغي» قائلاً: «أيّها السادة، لقد أخفقت المؤامرة». فقال «شتولبناغل»: «ولكنّني كنت أظنّك تعلم ذلك». فأجاب «كلوغي»: «لقد علمت ذلك لتوّي من «رستنبورغ»». كانت أيّة كلمة أخرى تُعتبر نافلة في مثل ذلك الوضع. لقد فهم «شتولبناغل» و«هوفاكر» القضيّة، ولقد علم «شتولبناغل» و«هوفاكر»، وآلاف غيرهما أنّه قد حُكم عليهم بالإعدام. فلقد اختار المارشال «كلوغي» ما اختار!

هل انتهى كلّ شيء؟ لا. كان «كلوغي» هو المضيف، فدعا زائريه لتناول الطعام. جلس المدعوّون حول المائدة حسب درجة رتبهم، في قاعة طعام الدارة الفخمة، وراح غسق تموز الطويل يتلاشى شيئاً بعد شيء؛ وبما أنّ خطوط الكهرباء قد تعطّلت بسبب القصف فقد جيء ببعض المشاعل. يا لها من مشاعل طويلة. جنائزيّة! لم يأكل من بين الحاضرين أحد غير «كلوغي»، ولم يتكلّم أحد غير «كلوغي»، فراح يسرد بعض ذكرياته عن حملة «روسيا»، وبعض النوادر عن حياته العسكريّة، وهو يضحك. وفجأة وضع «شتولبناغل» منديل الطعام وقال: «سيّدي الفيلد مارشال، أتسمح بأن أكلّمك على انفراد؟» تردّد «كلوغي» برهة، ولكنّه رضي، واقتاد مرؤوسه نحو حجرة مجاورة. وفي قاعة الطعام كان السكوت تاماً وكأنّ على رؤوس الحاضرين الطير. ولكنّ الباب عاد إلى الانفتاح بقساوة، وبلغت الآذانَ أصداءُ التعنيف العسكريّ الرنّانة كما لو كانت على سلّم ثكنة. لقد كان «كلوغي» يلعن ويشتم كما يلعن ويشتم جنديّ عاديّ! كان يصيح: «إنّ هذا لعجيب! إنّ هذا لغريب! مخالف للصواب! إنّه لعصيان! لقد أعطى الجنرال «فون شتولبناغل» إذاً أمراً باعتقال الجنرال «أوبرغ»، وقوّاد الصاعقة في «باريس»! يا «بلومنتريت». خذ الهاتف وألغِ هذا الأمر الأحمق في الحال»!

في «باريس» كانت الأمور تسير على خير ما يرام. كان الجنود ينفّذون باندفاع أمر اعتقال مساعدي النظام القائم. ولم يبدِ أحد من هؤلاء أيّة مقاومة. كانت أرتال من ناقلات الجيش الألمانيّ تقلّ نحو سجن «فرين» وقلعة «سان دوني» نحواً من ١،٢٠٠ شخص كانوا، لأربع سنين خلت، يخيّمون بالنظام النازيّ في العاصمة الفرنسيّة. وفي فندق «رافايل» كان ضبّاط «شتولبناغل» يحتسون الشامبانيا بانتظار عودة رئيسهم. كانت الإذاعة قد أعلنت أنّ الفوهرر قد نجا من محاولة اغتيال، ولكنّ الجميع كانوا مقتنعين بأنّ المارشال «كلوغي» منضمّ لا محالة إلى الانقلاب العسكريّ، وأنّه سوف يتفاوض مع الحلفاء.

حوالي الساعة ٢٣ تلقّى رئيس الأركان العامّة، الكولونيل «فون لنشتوف»، مكالمة هاتفيّة من «لاروش غويون» تأمره بتعليق اعتقالات النازيّين؛ فأجاب بأنّ الأوان قد فات، وبأنّ العمليّة قيد الإنجاز. وبعد نصف ساعة وصلت مخابرة من «برلين»؛ فما كان من «لنشتوف». المصاب بمرض القلب، إلاّ أن انهار على مقعده فاقد الوعي. كان «شتاوفنبرغ» هو الذي يبلغ شركاءه في المؤامرة أنّ الانقلاب قد أخفق. وأنّه لم يبقَ لديهم سوى التفكير بسلامتهم الشخصيّة. فقد تمرّدت كتيبة «ألمانيا الكبرى»، وبدلاً من أن تقوم بحماية وزارة الحربيّة عمدت إلى تطويقها واجتياحها. وكان بعض جنود الصاعقة، وبعض أعضاء الغستابو، يسيرون مع الجنود. قال «شتاوفنبرغ»: «إنّهم أمام باب مكتبي، لقد أوشكوا على الوصول».

في «لاروش غويون» عاد «كلوغي» للجلوس إلى المائدة. وقد أصرّ على أن يعود «شتولبناغل» إلى مقعده من عن يمينه. وبعد تناول الكونياك رافق الجنرال حتّى سيّارته، وهمس في أذنه، بعدما عاد إلى سابق ألفته، النصيحةَ التالية: «لو كنت في وضعك لارتديت الثياب المدنيّة محاولاً الاختفاء». ولكنّ «شتولبناغل» لم يسمع، وهو لم يرَ كذلك اليدَ التي مدّها إليه المارشال مصافحاً.

في «برلين» أزفت ساعة النهاية. وبعد ما أُخلي سبيل «فروم» أخذته ثورة من السخط الحاقد، وقد اتّقدت حواسّه رغبة في أن يشهد زوال أولئك الرجال الذين كان لهم شريكاً بسكوته. وكان «فيتزليبن» قد عاد إلى منزله ينتظر ساعة اعتقاله. وأمّا «غوردلر»، الذي بقي مختفياً طوال النهار، فقد أركن إلى الفرار؛ وأمّا العريف البحريّ العامّ «فاغنر» فقد أقدم على الانتحار؛ وأمّا «هوبنر»، الذي أوعز إليه «فروم» بأن يسلك الطريق نفسه باسم صداقة قديمة بينهما، فقد أجاب بأنّه يرجو أن يتمكّن من الدفاع عن نفسه، فاقتيد إلى سجن «موابيت» العسكريّ. وتمكّن بعض المتآمرين من الفرار. ولكنّ غيرهم، ومن جملتهم «يورك» و«شفيرين» و«برتولد دي

شتاوفنبرغ». شقيق «كلاوس». فقد سِيقوا إلى الغستابو. وأطلق «بيك» رصاصة على رأسه فأصيب بخدش في جبهته، ففقد الوعي ثمّ عاد إلى المحاولة بعد ما أفاق من غيبوبته. ولكنّه أخفق في محاولته للمرّة الثانية. وطلب «فروم» إلى ضابط صفّ أن يساعد «السيّد العجوز»، فأخذ ضابط الصفّ رئيس الأركان العامّة السابق بين ذراعيه وذهب به إلى مكتب مجاور حيث أجهز عليه.

بقي أربعة أسرى كانوا كلّهم معاونين للكولونيل جنرال «فريدريك فروم» على درجات متفاوتة. واكتفى «فروم» بالتداول همساً مع «ريغر» و«سكورزيني» برهة وجيزة، ثمّ صرّح على الأثر بأنّ محكمة عسكريّة قد حكمت بإعدام الجنرال «أولبرخت»، والكولونيل «ميرتز»، والليوتنان «هافتن». والكولونيل «شتاوفنبرغ»، فأنزلوا جميعاً إلى باحة الشرف وأعدموا على ضوء مصابيح السيّارة، في الوقت الذي كان فيه أسطول جويّ يسحق حيّاً من أحياء «برلين» الشماليّة بقصفه المدوّي الثقيل.

٢٢٤٦ طائرة تخرق جبهة "كوتنتان"

تعمّد الحلفاء باطّراد التقليلَ من قيمة حادث ٢٠ تموز الغريب الهائل. كانت الحكومات تعلم، بواسطة المتآمرين أنفسهم، قدمَ المؤامرة واتّساعها، ولكنّها رفضت دائماً أن توفّر أقلّ تشجيع لهذا الشكل من المقاومة الألمانيّة، على أنّها كانت تعارض الفكرة الراسخة الدافعة التي تقول بوحدة «ألمانيا» المطلقة مع زعيمها، كما كانت ترفض المبدأ الأوّليّ القائل بالتواطوء الحتميّ بين الاشتراكيّة القوميّة والعسكريّة البروسيّة. وقليلون هم الذين يكلّفون أنفسهم، حتّى في أيّامنا هذه، فيلاحظون أنّه لم يظهر في الواقع بين كبار زعماء النازيّة بروسيّون أرستقراطيّون، بل لم يكد يظهر غير ألمان من الغرب والجنوب ينتسبون بالإجمال إلى أرومة كاثوليكيّة، وبشكل دائم إلى أصل اجتماعيّ وضيع أو متواضع: أمثال «هتلر» و«غورنغ» و«هملر» و«غوبلز» و«بورمان» و«لي» و«ساوكل» وغيرهم. كان من شأن هذا الاكتشاف الذي ظهرت فيه نخبة اجتماعيّة وعقليّة مفكّرة تعترف بجرائم النظام، وتربط الوطنيّة بمعاقبة المجرمين: أن يسيء إلى مبدإ الاستسلام بلا قيد ولا شرط. كان على «ألمانيا» أن تظلّ بمجملها تجسيداً لروح الشرّ، لأنّ الحروب تُدار بمبادىء بسيطة وبأوامر وموجبات قصيرة!

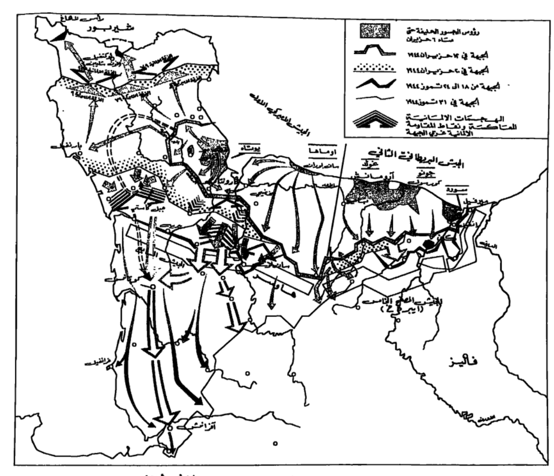
أسهم «هتلر» والحلفاء بالتالي في عرضٍ حادث ٢٠ تموز كحادث تافه المعنى حقير. فعندما تكلّم الفوهرر في الإذاعة قرب منتصف الليل ليروي خبر محاولة الاغتيال التي جعلت منه ربيب «العناية»، أشار إلى أنّ المتآمرين كانوا «زمرة صغيرة جدّاً، وعصابة محدودة للغاية»، من الضبّاط المجرمين الحمقى، الساعين لتحقيق مآرب شخصيّة دنيئة سافلة. ومع أنّ «تشرتشل» كان ذا معرفة خاصّة بسوابق المؤامرة، اكتفى بأن يعلن أنّ الاغتيال المدبّر ضدّ «القيط الكهل» يدلّ على أنّ هيئة الأركان الألمانيّة تعترف بأنّ الحرب خاسرة لا محالة. وكتب «فون تريشكوف» ما يلي، قبل أن ينتحر بقنبلة بين الخطوط الألمانيّة والروسيّة: «كان الله قد وعد بالعفو عن «صادوم» إذا وجد فيها عشرة رجال صالحين. وأملي أن يرضى بألاّ يدمّر «ألمانيا» من أجل ما حاولنا أن نفعله، وفي أيّة حال لا يحقّ لأحد منّا أن يتذمّر من مصيره». ولا بدّ من مرور سنين من الهدوء والرويّة ليتبيّن الناس في ٢٠ تموز معالمَ «ذاك المجهود البطوليّ الذي بذله البعض لتحطيم السلاسل التي كان الجميع قد ارتضوها لأنفسهم».

بدأت في ٢١ تموز حركةُ انتقام وردع مخيفة: فقد أقسم «هتلر» ليمحونّ اسم «شتاوفنبرغ»، وأقسم النازيّون الأقحاح ليبيدُنّ الأرستقراطيّة إبادة كاملة. فقُتل بعض المساجين أمثال الجنرال كونت «شبونيك» المحكوم عليه بالإعدام بسبب التمرّد على الأوامر، وكان «هتلر» قد خفّض عقوبته. وشُكّلت لجنة خاصّة دُعيت «لجنة ٢٠ تموز الخاصّة» للإشراف على التحقيق، كما شُكّلت «محكمة شعبيّة» لمحاكمة المتّهمين. وصدرت الأوامر بإيقاف عدّة آلاف من الأشخاص، ووُعد من يقتل «غوردلر» بجائزة نقديّة تبلغ مليون مارك. ونُبشت جثث «شتاوفنبرغ» و«أولبرخت» و«ميرتز» و«هافتن» من الأرض ثمّ أحرقت وذُرّ رمادها في الريح كما أوعز بذلك «هملر»: «لا فوق الأراضي المزروعة، بل فوق حقول التسميد!» وشُكّلت في الجيش «محكمة شرف» قبل المارشال «فون روندشتاد» رئاستها متسربلاً بالعار، وكان عليها أن تعيّن الضبّاط الذين يجب إحالتهم إلى القضاء النازيّ. ومهما يكن من أمر فإنّ «هتلر» لم ينتظر قراراتها ليكيل ضرباته. أحاطت الشبهات «بفروم» نظراً لتسرّعه الغريب في القضاء على «شتاوفنبرغ»: فأُوقف واعتُقل. لم يشترك «كورت زيتزلر» رئيس هيئة الأركان في المؤامرة، ولكنّ صلات من الصداقة كانت تربط بينه وبين كثير من المتآمرين: فطرده «هتلر» من الجيش، وحرّم عليه ارتداء البزّة العسكريّة. وقبل «غوديريان» خلافته.

في «باريس» اعتصم روؤساء فرق الصاعقة والغستابو بالحكمة، وآثروا طمس خبر توقيفهم من غير مجد على عرض تفاصيله المخزية الخطرة، فاعتقد «هوفاكر» و«لينشتوف»، وكولونيل آخر يُدعى «فينخ». خلال بضعة أيّام أنّهم سيفلتون من خروم الشبكة، بيد أنّ منظّمة الغستابو قد اكتشفتهم وأرسلتهم إلى «ألمانيا» بحكم التنكيل والموت. أمّا «شتولبناغل» فقد عرف مصيراً أشنع وأروع: استُدعي إلى «برلين» ليبرّر تصرّفه، فأمر سائقه بأن يقوم بدورة تعرّج به على ميدان موقعة «فردان». ولمّا صار على مقربة من «فاشروفيل»، حيث قاتل عام ١٩١٦، أطلق على رأسه رصاصة فأطار عينيه الاثنتين، ولمّا وُضع في المستشفى تحت تأثير المخدّر تلفّظ باسم «رومل»...

أمّا على جبهة «نورماندي» فلم يدع احتدام القتال للمحاربين فرصة الاهتمام باعتداء «رستنبورغ». وفجأة قرّر «مونتغومري» إيقاف الهجوم، بعدما تقدّم البريطانيّون مسافة ٦ أميال واعتقلوا ٢،٠٠٠ أسير — وهي، لعمري، نتيجة ضئيلة بالنظر للوسائل المعتمدة وللآمال المعقودة. ظهر بعض الانتقادات اللاذعة في الصحافة الانكليزيّة والأميركيّة، فقلق «أيزنهاور»، ذاك أنّ سابقة كانت تقلق الأفكار وترهقها، ألا وهي حملة «الدردنيل». فقد أرسى الانكليز رأس جسر كما فعلوا عام ١٩١٥ ودعّموه، ولكنّهم لم يتمكّنوا من الخروج منه، وتسمّرت الحملة في حرب حصار... هذا، فيما انهارت الجبهة الألمانيّة في الشرق، وكاد الجيش الأحمر، القادم من «الفولغا»، يدرك «النيمن».

درست اللجنة المكلّفة بإعداد الغزو عمليّات نزول أخرى، التماساً للخروج من هذا المأزق، ففكّرت «بنورماندي» العليا، وبشماليّ «بروتانيا»، و«الكيرون»، وما إليها. وبعد التروّي آثرت أن تعمد إلى محاولة جديدة في «الكوتنتان»: فالسياجات المقيتة، والدروب المنخفضة اللعينة، أثارت قرف الجنود الأميركيّين، ولكنّ «برادلي» ظنّ، لكثرة ما أكبّ على دراسة خرائطه، أنّه قد اكتشف منطقة هجوم مناسبة إلى حدّ ما، تقع غربيّ «سان لو» مباشرة، بين قريتي «هيبيكرولون» و«مونترول». فالأرض هناك وعرة كثيرة العقبات، إنّما هي قليلة الأشجار نوعاً، تسير فيها ممرّات التوغّل باتّجاه الجنوب الغربيّ متسلّلة بين



"نورماندیا" من ٧ حزيران الى ٣١ تموز، حتى احداث ثغرة "أفرانش"

تلال قليلة الارتفاع ؛ ثمّ تفضي إلى قسم من الغابة النورماندية تتّسع فيه الحقول، وترقّ السياجات، وتقلّ لزاجة الوحول وانخفاضات الدروب. ومن حسنات استثمار هذه الوجهة أنّها تقود إلى «أفرانش» في قاعدة «بروتانيا»، وتسمح بالانفتاح على «اللوار»، وتمكّن بالتالي من إطلاق تلك الحركة الالتفافيّة الكبيرة الّتي تقوم عليها الفكرة السّتراتيجيّة في مخطّط غزو «أوروبا» الغربيّة. أضف إلى ذلك أنّ خاطرة من خواطر الذكاء والحيلة قد حسّنت أوضاع القتال في الآجام، إذ أنّ رقيباً من سريّة الاستكشاف ١٠٢، يُدعى «كورتيس ج. كولين جونيور»، قد ابتدع جهازاً يمكّن دبّابات «شرمان» من اجتياز السياجات؛ فبادر قائد الفيلق «جيروي» و«برادلي» نفسه، إلى الاطلاع عليه. كان «كورتيس» فعلاً قد بنى ترساً تمدّده أربع حراب فولاذيّة، مستعيناً ببعض قطع الحديد العتيقة الّتي جمعها على الشواطىء، وبمصباح لحام وقع عليه في أنقاض مرأب للسيّارات. وهكذا زوّد الدبّابة بممسك، ووقى بطنها السريع العطب من إصابات المدفعيّة المضادّة للدبّابات، ومكّنها من أن تغوص عند أصل السياج كخنزير مزمجر، وتقتحم الممرّ وسط فوران الأتربة المتفجّرة والأشواك المحطّمة؛ فاستُقدم من «انكلترا» العتادُ اللازم، وبوشر على الفور تعميم اختراع الرقيب «كولين». بيد أنّ «برادلي» حظّر من إشراك الدبّابات المعدّلة في العمليّات الجارية، كيما تشكّل مفاجأة يوم الخرق والتوغّل.

تردّد «برادلي» قليلاً بشأن الوسيلة الّتي سيعتمدها لخرق جبهة العدوّ؛ مال قوّاد فيالقه من الجنرالات الكلاسيكيّين إلى اعتماد تمهيد تقوم به المدفعيّة؛ فقال «برادلي»: «ما كنت إلاّ لأتبنّى رأيكم لو كان لي عشرة أضعاف ما عندي من المدافع». فما لديه منها يحتّم قصفاً يدوم عدّة أيّام، فيتنبّه العدوّ وتفقد المفاجأة طابعها وجدواها. صحيح أنّ الطائرة لا تتمتّع بدقّة المدفع، إلاّ أنّها تتمتّع بحسنات أخرى هي المباغتة، وإثارة الشعور بالاختناق، والمقدرة على تحطيم أعصاب المدافعين. فالمهمّ في الموضوع هو بلوغ درجة مرضية من الريّ والاكتفاء بها، أي إلقاء كميّة من القنابل ملائمة على منطقة موافقة للهدف التكتيكيّ المنشود.

عاد «برادلي» إلى «انكلترا» بغية إنشاء مدفعيّته الطائرة، فإذا بنتائج الالتماس الذي انصرف إليه تفوق ما كان يتوقّعه، إذ وُضعت تحت تصرّفه ١،٥٠٠ قاذفة ثقيلة، و٣٩٦ قاذفة متوسّطة، و٣٥٠ مطاردة – قاذفة. كان بإمكان هذه القوّة أن تتجاوز هذا العدد أيضاً، ولكنّ

طائرات «لانكستر» التابعة لسلاح الجوّ البريطانيّ لم تكن مهيّأة إلاّ لإلقاء القنابل الضخمة، فخشي «برادلي» ما تحدثه من الحفر الواسعة القمعيّة الشكل التي عاقت التقدّم البريطانيّ في ناحية «كين»، فاستبعدها.

أمّا المنطقة التي سينالها التمهيد الجويّ فمستطيل يبلغ ٧ كلم طولاً و٣ كلم عرضاً، وتشكّل إحدى أضلاعه طريق «بيرييه–سان–لو»: ٢٠ كيلومتراً مربّعاً ستسحقها ٢،٢٤٦ طائرة، أي ما يعادل طائرة لكلّ هكتار من الأرض. ثمّ تلج الثغرةَ التي ستفتحها المطرقة الجويّة ثلاثُ فرق من جنود المشاة هي ٩ و٤ و٣٠، ثمّ تجتازها الفرقتان المصفّحتان ٢ و٣ فتسيران باتّجاه الجنوب الغربيّ، وتعدوان نحو «كوتانس» «فغرانفيل» «فأفرانش»، فتطوّقان القوّات المعادية المقاتلة ناحية «بيرييه» و«ليسي». والأمل كبير في انهيار مقاومة «الكوتنتان» دفعة واحدة.

في الجانب الألمانيّ تمّ التراجع خطوة خطوة، من مرتفعات «لاهي–دي–بوي» حتى مسكب مروج «جورج» المستنقعيّة التي تنتهي بمصبّ عريض. كانت فرقتا دبّابات «ليهر» والصاعقة الـ ١٢، لأيّام خلت، قد زُجّتا غربيّ «سان لو» في محاولة يائسة لإنقاذ المدينة. أمّا الآن فيعتقد «كلوغي» أنّ الزحف الانكليزيّ سيتحرّك من جديد، ولذا فهو يريد أن يسترجع الفرقتين المصفّحتين لإعادتهما إلى ناحية «كين». ولقد تمّ بالفعل استبدال فرقة الدبّابات الصاعقة ١٢، وكان على الفرقة «ليهر» أن تُستبدل أيضاً بعدما وافق «هتلر» أخيراً على سحب بعض الفرق من «بادي كاليه»، إلاّ أنّ القيادة المحليّة قد احتفظت برجال «بايرلين» ودبّاباته، نظراً لاقتناعها بضعف خطوطها؛ فأولئك الرجال، وهم نخبة جيش الغرب، هم الذين يمسكون بالجبهة ما بين «مونترول» و«هيبيكروفون» بمعونة بعض فئات من المظليّين وحطام فرقة المشاة ٢٧٥.

ولكنّ المطر ما فتيء ينهمر، فأرجئت المهاجمة الأميركيّة، المعيّنة في الأساس ليوم ١٨، مرّتين، ثمّ قُرِّرت ليوم ٢٤؛ وما أقلعت الأسراب الجويّة حتى اكفهرّت السماء وسُدّت منافذها، فصدر الأمر بعودة الطائرات. لكنّ مجموعات متعدّدة لم تسمعه فنفّذت مهمّاتها وألقت ٨٠٠ طنّ من القنابل، فقتلت وجرحت بعض الألمان، غير أنّها أصابت كذلك ١٥٦ أميركيّاً فكانت سبباً في إثارة الرعب والتراجع؛ فشمت رجال الدبّابات الألمان، مع ما أصابهم من خسائر، لدى رؤية العدوّ يفرّ من قنابله ذاتها!

في اليوم التالي، ٢٥ تموز، ذكر تقرير مدهش رُفع من الخطوط الأولى إلى مقرّ هيئة الأركان الألمانيّة: «تراجع العدوّ تراجعاً عاماً...» إقتربت المدفعيّة الطائرة بكاملها هذه المرّة، ونظراً لما خلّفته مشاهد الأمس من وقع بليغ في نفوس الأميركيّين، فرّت أفواج بكاملها تلقائيّاً أو انصياعاً لأمر. بيد أنّ الرضى الألمانيّ لم يدم طويلاً هذه المرّة، فالزوبعة التي انقضّت على المستطيل الذي رسمه «برادلي» فاقت كلّ ما شوهد خلال الحرب على الجبهات كافّة. هُشّمت المواقع الألمانيّة تهشيماً، وتفجّرت الذخائر، ودُمّرت الأسلحة والدبّابات، وبُقرت السياجات، ومُزّق الرجال شرّ ممزّق، ومن بقي منهم كان أشبه بالحيوانات المروّعة. وراح بعض الجنود، من الذين اجتازوا خمس سنوات من الحرب، يرتجفون وينشجون بالبكاء، وجُنّ منهم الكثير. إرتعدت الأرض نفسها، فهتف بعض المدنيّين في «سان–لو» القريبة، التي عرفت أهوال الحرب، أنّ العالم قد أدرك نهايته، فيما ظنّ البعض الآخر أنّ أحد المتحاربين قد اخترع سلاحاً جديداً مروّعاً. وأخيراً كست المنطقةَ المهاجمةَ موجةٌ من النيران الملتهبة أضرمتها موادّ «النابالم» التي ألقتها المطاردات — القاذفات، حتى لبدا مُحالاً أن يسلم إنسان من ذاك الجحيم.

دفع الأميركيّون كذلك نصيبهم من الضحايا، إذ تكرّر خطأ الأمس وألقيت قنابل شماليّ طريق «بيرييه–سان–لو»: فسقط مئات القتلى والجرحى، بينهم الجنرال «ليسلي ج. ملك نير» الذي استحال هباء في سيّارة الجيب، وكان قد أتى لمشاهدة المعركة من «انكلترا» حيث كان يأمر مجموعة من الجيوش موهومة، يُقصد منها إبقاء العدوّ في خشية نزول جديد. ولذا وجب إبقاء خبر وفاته سرّيّاً كي لا تُفتضح الحيلة.

وفي تمام الساعة ١١، إذ شنّ الكنديّون هجومهم في ضواحي «كين» لتجميد قوّات الاحتياط الألمانيّة، اجتاز الأميركيّون طريق «سان–لو–بيرييه»، وقد قيل لهم غير مرّة إنّ القصف الجويّ سيقضي على المدافعين عن بكرة أبيهم؛ وإذا ببعض الناجين الألمان في «لوزون» وغيرها يرفعون رؤوسهم، فيقعون على بعض الأسلحة ويعودون إلى القتال، فيمسك الكولونيلات وقوّاد الفرق المتهيّبون كتائبهم الزاحفة من غير أن تلقى مقاومة. ويؤخّر الجنرال «كولتز» دخول فرقه المصفّحة، على اعتبار أنّ الثغرة التي فتحها جيش المشاة لم تكن كافية. ويأزف المساء، وإذا التقدّم لا يتعدّى كيلومترين، وإذا «مارينيي» و«سان جيل»، هدفا النهار، ما يزالان في يد العدوّ. كانت الخيبة مريرة، ولقد ظهرت بوادرها بتوجيه انتقاد لاذع إلى سلاح الطيران، فقال الجنرال «هوبز»: «لم نرَ حتى الآن أثراً للقصف.»

لم يكن الحكم منصفاً؛ فضعف التقدّم يعود في الدرجة الأولى إلى ضعف الحميّة الذي اتّصف به هجوم المشاة. أمّا القصف الجويّ فقد دمّر مبدئيّاً فرقة الدبّابات «ليهر»، وفتح في خطوط العدوّ ثغرة فعليّة. إنهارت جيوب المقاومة المحليّة في ٢٦ و٢٧، وفي ٢٨ اندفع على طرقات «كوتانس» و«أفرانش» رتلان مصفّحان قويّان.

أمّا عمل القيادة الألمانيّة فبات مستحيلاً؛ فالخطوط الهاتفيّة قد تقطّعت، والاتّصالات اللاسلكيّة تجتذب الطائرات، وضبّاط الاتّصال فريسة لطائرات المطاردة تصليهم نيرانها على الطرقات. فوجيء الجنرال «فون شولتيتز» بظهور الدبّابات الأميركيّة في «تيرانس» المحترقة، ففرّ عبر الحقول، ولم يتّصل بهيئة أركانه إلاّ ليعلم أنّ الجنرال «إيلفلدت» قد استُبدل به على رأس فيلقه الـ ٨٤. وكذلك أُعفي «بمسل»، رئيس هيئة أركان الجيش السابع، من منصبه، تكفيراً لذنب رئيسه، جنرال فرق الصاعقة «هاوزر»، الذي سحب ميسرته ناحية الجنوب الشرقيّ، خلافاً لنيّات «كلوغي»، فقطع بذلك اتّصاله بساحل «الكوتنتان»، فلم يبقَ البحر يحمي جانب الجيش الألمانيّ. دخل الأميركيّون مدينة «كوتانس» في ٢٩ تموز، وفي ٣٠ استولوا على «أفرانش»، وفي ٣١ احتلّوا «بنتوبولت»، آخر محلّة نورمانديّة على طريق «بروتانيا».

كان عليهم أن يبلغوها في اليوم العشرين لبدء النزول، فلم يبلغوها إلاّ في اليوم الرابع والخمسين؛ ولكنّهم بلغوها.

في "الفيركور" حيث سقط قناع المقاومة

إنّ قتال محاربي «فيركور» لصفحة من أنبل صفحات المقاومة الفرنسيّة الداخليّة.

هذا، وقد لعب جبل «فيركور» المنيع، وهو حصن طبيعيّ يجاوز المئتي كلم، ومنعزل بسبب وجود أودية «دراك» و«الإيزير» و«الدروم» و«الرون»، على مقربة مباشرة من «غرونوبل»، دوراً هامّاً عهد به إليه الحلفاء. كان عليه أن يقوم مقام حصن داخليّ لتجميع قوّات المنطقة الناشطة، وأن يكون بمثابة ملجإ للمجموعات الحرّة. وهناك أيضاً كان متوقّعاً أن يجري إنزال الرجال والعتاد بواسطة المظلاّت.



١



٢



٤





٣

١ ــ أوجين شافان (الملقَّب بكليمان).

٢ ــ الكومندان هوبي (الملقَّب بهرفيو).

٣ ــ جان بريفو (الملقَّب بالكابيتين غوديرفيل).

٤ ــ الكولونيل ديكور (الملقَّب ببايار).



الكابيتين غيير (الملقَّب بتيفولي).

وأخيراً ، كان يُرتجى من «فيركور» أن يقوم بدور رأس جسر داخليّ بعد النزول جنوبيّ «فرنسا» .

في آذار ١٩٤٤ لم يكن جهاز المقاومة في «الفيركور» يعدّ أكثر من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رجل ، وهم جنود من جيش الهدنة الذي حلّه الألمان . أو متمرّدون على «خدمة العمل الإجباريّ» ، أو متطوّعون، أو أسرى هاربون ، إلخ . وكان يؤمّن التجنيدَ ضبّاطٌ وضبّاطُ صفٍّ قدامى ينتمون إلى وحدات مختلفة ، وخصوصاً إلى كتيبة القنّاصة المرتجلين السادسة ، وإلى فوج الخيّالة المدرّعين ١١ ، وإلى فوج المشاة الجبليّين ١٥٩ .

كانت المقاومة تحت سلطة الكولونيل «زيلر» (الملقَّب «بجوزيف») قائد المنطقتين العسكريّتين «ر ١» و «ر ٢» الممتدّتين من «بروفانسا» إلى «الجورا» . وأمّا رئيس الـ «ر ١» ، التي تتضمّن «الفيركور» . فكان الكولونيل «ديكور» (الملقَّب «ببايار») . وأمّا المقاومة عينها فقد كانت في البدء تحت إمرة الكابيتين «جيير» (الملقَّب «بتيفولي»)، ثمّ الكومندان «هوبي» (الملقَّب «بهرفيو»)، وكان رئيس المقاومة المدنيّة هو «أوجين شافان» (الملقَّب «بكليمان») ، .

ومنذ شتاء ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ نُظّمت المعسكرات في الجبل لإيواء المقاومين ، ولكنْ ، بعد سلسلة من الاشتباكات مع الألمان أعقبتها الاعتقالات ، تحوّلت المعسكرات إلى منظّمة أكثر طلاوة من مجموعات ثلاثينيّة بقيت الحال على ما هي حتّى نزول الحلفاء في «نورمانديا» . فعمدت الوحدات التي شُكّلت سرّاً إلى التجمّع ، وأبلغ المتطوّعون مسبقاً ، فراح الانفراديّون يتواكبون زرافات ، حتّى غدا «الفيركور» يعدّ أكثر من ٤.٠٠٠ مقاتل. وأنزل الحلفاء بالمظلاّت قوّات مهمّات عديدة . ومن جملتها قوّة فدائيّي الكابتن «تابرز» الأميركيّة .

في ١٣ حزيران وقعت أوّل معركة في منطقة «سان نيزييه» . وفي الأيّام التالية وقعت معارك ضارية بين المقاومين والجيش الألمانيّ . وأنزلت إلى المقاومين بواسطة المظلاّت دفعتان من السلاح والمؤن في ٢٥ حزيران و ١٤ تموز . فساعدتا بعض الشيء على الصمود . ولكنّ فرقة المشاة الجبليّين الألمان ١٥٧ . بإمرة الجنرال «بفلوم» . تساندها ٢٠ طائرة شراعيّة هبطت فوق نجد «فاسيو» وشنّت هجومها . فأرغم الفرنسيّون على التراجع وقد رزحوا تحت تفوّق العدوّ العدديّ . وكان العقاب الألمانيّ قاسياً : فقد قتل الألمان عدداً من المقاومين . وذبحوا المدنيّين . أو شنقوهم . أو رموهم بالرصاص . كما حصل في «فاسيو». وفي ٢٧ تموز اجتاح الألمان مغارة «لوير» التي حوّلت



بعد إعدام الرهائن في «الفيركور» . وقد وُجدت هذه الصورة في حوزة أسير ألمانيّ .



فتيان المقاومة السريّة في بزّة قنّاصة «الألب» يتدرّبون على القتال .

إلى مستشفى . فأجهزوا على الجرحى . وأعدموا الممرّضين أو نفوهم إلى «ألمانيا» .

ومنذ ٢٣ حزيران كان أمر التفرّق قد صدر عن الكومندان «هويبي» . فمهمّة «الفيركور» قد أُنجزت جزئياً . فإن هو لم يكن قد قام بوظيفته كرأس جسر داخليّ كما كان متوقّعاً في المخطّطات الأوّليّة . فقد كان . على الأقلّ . نقطة تثبيت هامّة مكّنت من تجميد القوّات الألمانيّة التي كان بإمكانها تأخير تقدّم القوّات الأميركيّة الفرنسيّة القادمة من «بروفانسا» .

دوريّة من رجال المقاومة في «الفيركور» .

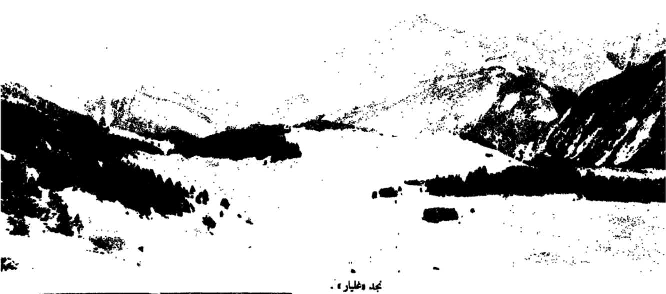




مقرّ وحدة من وحدات المقاومة.

مغارة «اللوير» حيث أجهز الألمان على الجرحى من رجال المقاومة .





نجد «غليار».

إنها الحرب، حتى في قلب "فرنسا" الفيشيّة

لا تزال ٧٠٠ ضريح : لمحارب أو مدنيّ مغتال ، تحيي ذكرى معارك رجال المقاومة في «الفيركور» . إنّ التقارير المتناقضة الواردة إلى هيئة أركان الجنرال «أيزنهاور» قد حملته على اعتبار عمل «المقاومة الفرنسيّة الداخليّة» كهبة ؛ أو كتتمّة لعمل القوّات الحليفة النازلة في «نورماندیا» و«بروفانسا». ولكنّ الوقائع غالباً ما تعدّت التقديرات ؛ فأعمال التخريب التي نالت الخطوط الحديديّة ، والجسور . والطرقات : والغارات التي شُنّت على القوافل ، قد أثبتت جدواها وأخّرت سير الأمداد الألمانيّة الموجّهة إلى «نورماندیا» : كما أخّرت انسحاب قوّات الجيش الألمانيّ .

أمّا في ما يتعلّق بفرق المقاومة، فلم يكن نشاطها متساوياً في كلّ مكان. فقد حقّق بعضها قبل وصول القوّات الحليفة عمليّات رائعة في



الليوتنان «تيودور موريل» الملقّب «بتوم» ، خرّيج معهد «سان سير» الحربيّ . إنّه رائد المقاومة السريّة في «غليار»، وقد قُتل في «اونترومون» في ٩ آذار ١٩٤٤ .

تحرير المدن والقرى؛ فيما لم يمكّن ضعف تسليح البعض الآخر وقلّة رجاله إلاّ من القيام بأعمال سطو محدودة ضدّ الأرتال الألمانيّة المتقهقرة . ولا يحقّ لأعمال التطرّف والإفراط التي انساق إليها بعض فرق المقاومة، قبل التحرير وخلاله وبعده، وقد أتت في الغالب انتقاماً لأعمال مماثلة قام بها الجيش المحتلّ، أن تمحو من بالنا استشهادَ فرنسيّين كثيرين، واستشهاد فرقة مقاومة «غليبار» في «السافوا» العليا خصوصاً .

كان جنود «غليبار»، كرفقائهم في «الفيركور»، تحت إمرة ضبّاط



بعض الأمداد الحليفة الملقاة بالمظلاّت إلى رجال المقاومة.

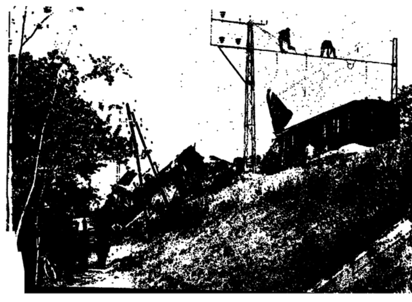
الكابيتين «موريس أنجو» خليفة «موريل». قُتل في ٢٦ آذار ١٩٤٤ .



وقوّاد من الجيش العامل، ينتمي أكثرهم إلى كتيبة قنّاصة «الألب» السابعة والعشرين. وكانوا، منذ نهاية كانون الثاني ١٩٤٤، قد تمركزوا على نجد يعلو البحر بمقدار ٥٠٠ : ١م. بدأت العمليّات في ٥ شباط بخطف الجند في «تون»، واستمرّت خلال شهرَي شباط وآذار بمعارك ضارية جداً بين رجال المقاومة، والجند الألمان وقوّات الحرس العسكريّ الجمهوري التابعة «لفيشي». تدخّل سلاح الطيران الألمانيّ في العمليّات في مطلع آذار. ثمّ تدخّل الجيش الألمانيّ في ٢٤ آذار تسانده المدفعيّة مساندة قويّة ويدعمه الطيران. جرت العمليّة بإشراف الجنرالين «نيهوف» و «بفلوم»: فسُحق رجال المقاومة وأرغموا على التراجع في كلّ مكان. وكانت عمليّة القمع قاسية صارمة: رَمي بالرصاص وإجلاء (لم يؤسر غير ٢٠٠ من أصل ٥٠٠ من الناجين). أمّا الذين تمكّنوا من الفرار فقد التحقوا بمجموعات أخرى في المنطقة. واشتركوا بمعارك التحرير.

معسكر لرجال المقاومة السريّة في «بروتانيا».





لقد كان لعمليّات المقاومة التخريبيّة اليد الطُولى في شلّ حركة المواصلات الألمانيّة. ويبدو في الصورة قطار أخرج عن خطّه في ناحية «بو».

يوم مجزرة : "أورادور - سور - غلان"



يرجع سبب مأساة «أورادور—سور—غلان» إلى اعتقال رجال المقاومة الليوتنان كولونيل «كامبفي» بالقرب من «سان ليونار». وفي اليوم التالي - الموافق نهار السبت في ١٠ حزيران ١٩٤٤ ، وصلت سريّة الفوج «الفوهرر» الثالثة إلى «أورادور» يقودها «ديكمان»، بعدما تلقّت تعليمات خاطئة تقول إنّ «كامبفي» كان معتقلاً هناك ، وإنّه سوف يُعدم فيها أمام الشعب . واجتاح «ديكمان» جنونٌ قاتل، فأمر بقتل الرجال كافّة وإحراق كلّ منزل . ولجأ النساء والأطفال إلى الكنيسة، ولكنّهم هلكوا فيها طعماً للنار ، أو فريسة سهلة لرصاص الألمان. وقد كان حصاد المجزرة ٦٤٢ من الضحايا تتراوح أعمارها بين ١٨ يوماً و٨٥ سنة . وأمّا الناجون الوحيدون فامرأة واحدة ، وخمسة رجال، وطفل واحد!

وقد قُتل «ديكمان» في «نورماندیا» بعدأيّام قليلة. وكان قائد فيلقه «ستادلر»، قد أقام ضدّه دعوى قضائيّة ؛ وكان والي «فيين العليا» «فروند فالاد»، والجنرال الألمانيّ «غلينيجر» قائد موقع «ليموج»، وحكومة «فيشي»، والمارشال «رومل»، قد اعترضوا جميعاً على العمل الشائن . ولكنّ موت «ديكمان»، والفناء الجزئيّ الذي عصف بالسريّة الثالثة، واعتراض «هتلر»، والاندحار الألمانيّ في «فرنسا»، عوامل تضافرت لإيقاف الملاحقات .

وبعد عشر سنوات أحدثت قضيّة «أورادور» في «فرنسا» هيجاناً عميقاً. كان ثلث جنود فوج «الفوهرر» من الشبّان الألزاسيّين المجنّدين تلقائياً في قوّات الصاعقة — كما كانت الحال بالنسبة للكثيرين من الألمان. وقد مثل اثنا عشر جندياً منهم أمام مجلس حرب «بوردو» في عداد عشرين متّهماً ، فحوكموا بمقتضى قانون ظرفيّ يتناول الجرم الجماعيّ . وفي ١٢ آذار ١٩٥٣ ، وبعد ستّة أسابيع من المداولات أثارت سخط «الألزاس» ، أصدر مجلس الحرب حكمين بالإعدام ، واحداً منهما بحقّ ألزاسيّ ، و١٢ حكماً بالسجن أو بالأشغال الشاقّة . ولكنّ عقاب الموت خُفّف فيما بعد ، وأُطلق سراح المحكومين سريعاً .



وحسب شهادة الناجية الوحيدة ، «مارغوريت روفانش» ، التي تمكّنت من الهرب من خلال إحدى النوافذ وهي مصابة بجروح بليغة ، كان حريق الكنيسة قد شبّ «من خلال صندوق يبلغ علوّه علوّ طاولة سرير جانبيّة». أشعل الألمان فتائله. «فاندلعت النيران ملوّنة تبهر العيون وتخنق الأنفاس». وأطلقت كذلك على حشد النساء والأطفال عيارات ناريّة عديدة . وقد هلكت معلّمات المنطقة الخمس داخل الكنيسة، ومن جملة تلامذة «أورادور» الـ ٢٤٢ لم ينجُ من المجزرة غير ولد واحد هو «لوران روجيه غودفرين» .



كان معروفاً عن «أورادور» أنّها دسكرة محافظة وآمنة في «الليموزان». حيث كان نشاط المقاومة وتعدّياتهم جسيمة. وكان عدد السكّان قد زاد بسبب اللاجئين من «اللورين». والعائلات التي كانت تهرب من قصف المدن الكبرى ، وبسبب المدنيّين الذين قدموا في ١٠ حزيران من «ليموج» بخطّ السكّة الزراعيّة سعياً وراء تموين إضافيّ. وفي الوقت الذي كان فيه طعام الغذاء يقدّم في فندق «أفريل» وفندق «ميلور» دخل رجال الصاعقة بملابس القتال وأوقفوا سيّاراتهم في ساحة الكنيسة .



كان الألمان قد سعوا وراء السكّان في منازلهم. فأخرجوهم وجمعوهم في السوق. وطُلب من المختار ، الدكتور «ديزورتو»، أن يسلّم خمس رهائن. فتطوّع بنفسه مع أفراد عائلته. وبعدما رافق الألمان النساء والأطفال إلى الكنيسة، قسموا الرجال مجموعات عديدة وأعدموهم رمياً بالرصاص في خمسة أنبار ثم أشعلوا فيها النار . وغادروا «أورادور» نهار الأحد. إلاّ أنّهم عادوا يوم الاثنين فدفنوا بقايا ضحاياهم في حفر عامّة .

تحرير

كان الجيش الألمانيّ ، في مطلع ربيع ١٩٤٤ ، ما يزال يحتفظ بشبه جزيرة «القرم» كلّها تقريباً ، وكان الروس في الشرق قد عبروا مضيق «كيرتش» ؛ ولكنّ الفيلق الألمانيّ الخامس أوقفهم بقيادة الجنرال «ألمندنغر» على برزخ «باربانش» .

الحرب تخرج من «روسيا»



كانوا في الشمال قد اجتازوا، مشياً على الأقدام ، البحيرةَ القليلة العمق المعروفة باسم «سيفاتش» أو «البحر الآسن»؛ إلاّ أنّ الفيلق الجبليّ التاسع والأربعين تمكّن، بقيادة الجنرال «كونراد»، من صدّهم في برزخ «بيريكوب» . ولمّا قام «شورنر» بجولة تفتيشيّة في الجيش السابع عشر عقب تسلّمه قيادة مجموعة «جنوب أوكرانيا»، لم يتردّد في رسم لوحة عامرة بالتفاؤل، قال: «رتّب كلّ شيء؛ وأصبح الدفاع عن «القرم» مضموناً...»

صدرت هذه البرقيّة التي وجّهها «شورنر» إلى قيادة جيش البرّ بتاريخ ٧ نيسان في تمام الساعة ٢١:٣٥. وفي تمام الساعة ٩ من ٨ نيسان حمل المارشال «توليوخين» على برزخ «بيريكوب» بجولة جيش الحرس السوفياتيّ الثاني والجيش الحادي والخمسين . ومنذ ٩ نيسان طلب الكولونيل-جنرال «يانيكي» ، قائد الجيش الألمانيّ السابع عشر، الإذن بالاعتقال في «سباستوبول» «كي لا يباد الجيش برمّته »!

أعاد «يانيكي» الكرّة في اليوم التالي، فاقترح الجلاء التامّ عن «القرم». وأيّد «شورنر» طلبه بعدما تبدّدت أوهامه، فرفض «هتلر» الإصغاء . وأمر بتجهيز قلعة «سباستوبول» من أجل مقاومة لا أجَلَ لها. وأردف: «ولا يحقّ التخلّي عن أيّ شبر من الأرض ، ولا يحقّ لأيّ رجل صحيح أن يُبحر ...»

في ١٦ نيسان لجأ الجيش السابع عشر إلى «سباستوبول» ، عقب تقهقر سريع فَقَدَ فيه ثلثي عتاده. فتعهّد الفيلق الخامس، بفرقه الألمانيّة الثلاث، وفرقه الرومانيّة الأربع ، بالدفاع عن القطاع الشرقيّ ، المتدّ من «بالاكلافا» إلى خليج «سفرناجا» ، فيما تعهّد الفيلق التاسع والأربعون بفرقتيه الألمانيّتين، وفرقه الرومانيّة الثلاث، بالدفاع عن القطاع الغربيّ. أمّا المارشال «توليوخين» ، فقد حشد أمام المدينة ثلاثة جيوش تضمّ ٢٨ فرقة. وهكذا بدأ الروس حصار «سباستوبول» ، بعدما حاصرها الألمان بسنتين .

ولكنّ الحصار هذه المرّة كان أقلّ ضراوة من السابق، فالقوّات الرومانيّة باتت لا تريد القتال. والفرق الألمانيّة الخمس لا تضمّ أكثر من ٢٠٠٠٠ محارب ، ولم يكن للجنود والضبّاط والجنرالات غير فكرة واحدة: هي عبور البحر من جديد، والإفلات من جحر الفأر . استقلّ «شورنر» الطائرة إلى «برشتسغادن» مكرّراً طلبه في الجلاء، فتنازل «هتلر» وكشف لهذا الجنرال الموافق لهواه عن الاعتبارات السياسيّة الستراتيجيّة التي تُملي عليه خطّة في السلوك غير مفهومة؛ «فالتخلّي عن «سباستوبول» ، في الظرف الراهن، قد يدفع «تركيا» إلى دخول الحرب، فيما سيتبدّل الوضع حتماً، بعد أسابيع ستّة أو ثمانية، إذ يكون الانكليز قد نزلوا في «فرنسا» وسُحقوا. إذ ذاك توجّه «ألمانيا» قوّاتها كلّها ضدّ «روسيا» ، ولن يكون لموقف «تركيا» عليها أيّ أثر . وكلّ ما يطلبه «الفوهرر» ، والحالة هذه، هو أن تصمد «سباستوبول» ستّة أسابيع أو ثمانية .

لم يطمئنّ «هتلر» إلى «يانيكي» . فاستدعى «ألمندنغر» ليُبلغه أنّ

تموز ١٩٤٤ . المعارك في قطاع «لفوف» في «أوكرانيا» .



رئيسه يوهن الدفاع بتخاذله، ثمّ استدعى «يانيكي» نفسه. فصمد له هذا وأصرّ على أنّه لم يقم إلاّ بتنفيذ ما صدر إليه من أوامر سيّئة، وتجاسر، قبل عودته إلى «سيباستوبول»، فوجّه إلى «هتلر» رسالة حافلة بالانتقاد، فأوقف لدى مروره في «غالاتز» وطُرد من الجيش.

حمل جيش الحرس الثاني في ٥ أيار على القطاع الغربيّ من «سيباستوبول»، وفي ٧ مدّد الجيش الحادي والخمسون والجيش الساحليّ الهجومَ حتّى «بالاكلافا»، فانتزعا قمّة «سابون»، التي كان «مانشتاين» باحتلالها قد ختم الحصار السابق. فأعاد «ألمندنغر»، الذي حلّ محلّ «يانيكي»، خطوطه حتّى «إلكرمان» بغية إنشاء قوّة صالحة للهجوم المعاكس، يحاول بها أن يسترجع القمّة الحيويّة، فلامه «هتلر»، ولكن لم يبقَ للوم «هتلر» كبير شأن بعد اليوم. فوضع الحامية ميؤوس منه، والفرق الألمانيّة تتخاذل واحدة بعد واحدة. وهكذا أخذ «شورنر» على نفسه، في ٨ أيار، أن يصدر إلى سلاحَي البحريّة والطيران أمراً يقضي بأن ينقلا ما تيسّر إنقاذُه، فما كان من «هتلر» إلاّ أن أذعن للأمر، وصادق على الجلاء.

حرّر الروس «سيباستوبول» في ٩ أيار. وكما فعل «بوبوف» عام ١٩٤٢، بقي «ألمندنغر» ٤ أيّام يقاوم في شبه جزيرة «شيرسونيز» ليمدّد إبحار من بقي من الجنود. وأعيد إلى «رومانيا»، من أصل ٢٣٥،٠٠٠ رجل كان يضمّهم الجيش السابع عشر، في ٨ نيسان، ١٥٠،٠٠٠ تقريباً، ولكنّهم لم يعودوا بغير مسدّساتهم. وهكذا قُضي على جيش ألمانيّ آخر. وعاد الهدوء إلى الجبهة الشرقيّة، وقد غدا شكلها غريباً. كانت الجيوش الألمانيّة في الشمال والوسط، مع ما مُنيت به من هزائم جسيمة، ما تزال بعيدة التوغّل في كتلة الأراضي الروسيّة. فمجموعة الشمال، التي تسلّم قيادتها حديثاً الكولونيل-جنرال «ليندمان»، ما انفكّت تسيطر على «نارفا» وعلى الضفّة الغربيّة من بحيرة «بيبوس»، مغطّية بذلك بلدان «البلطيق». وأمعنت مجموعة الوسط في التوغّل إلى أبعد من ذلك شطر الشرق، فكانت تسيطر على «فيتبسك» بنائئة بارزة تمتدّ على جانبَي «الدونا»، وتتشبّث بشرقيّ «الدنيبر»، أمام «أورشا» و«موهيليف»، فلا تعود إلى عبور النهر إلاّ قبل ملتقى «البيريزينا» بقليل، ناحية النبع. فالألمان ما برحوا على بعد ١٠٠ كلم من «سمولنسك»، وكأنّهم لم يفقدوا الأمل بمعاودة الزحف في اتّجاه «موسكو»!

أمّا الجانب الجنوبيّ من جبهتهم فقد انهار بكامله. فحرّر الروس «أوكرانيا»، ودخلوا «بولونيا»، وتقدّموا حتّى باتوا على مسافة ٥٠ كلم من «بريست ليتوفسك». ولقد أدركوا مواطئ «الكربات»، فعبروا «الدنيستر» و«البروث»، واجتاحوا «بوكوفين» و«بسّارابيا»، ليس هذا فحسب، بل اجتاحوا «رومانيا» القديمة أيضاً. كانت «أوديسا»، مع «سيباستوبول»، آخر مدينة تمسّك بها الألمانيّ في جنوب «روسيا»، ولكنّه أفلتها في ١٠ نيسان.

لم ينفكّ احتدام القتال في الجنوب يضعف كميّةَ القوّات المرابطة في القطاعات الأخرى ونوعيّتها، فانخفض عدد الوحدات الكبيرة في مجموعة الوسط إلى ٣٨، من أصلها اثنتان شُكّلتا من فائض سلاح الطيران، وفرقة من رجال الشرطة رديئة التسليح، وفرقتان مجريّتان لا يُركن إلى قتالهما. كان «فون كلوغي»، قبل حادث السيّارة الذي آل إلى استبدال المارشال «بوخ» به، قد مضى يعيش في الخنادق ليخبر وضعها ومناخها عن كثب. فكتب إلى «هتلر» رسالة شخصيّة يقول فيها: «إنّ الشعور بالفراغ لمخيف حقّاً»، فالفرق تستطيل على قطاعات تبلغ ٢٥ و٣٠ و٥٠ كلم، فتترك الخطوط الأولى بكثافة رجل واحد لكلّ ٥٠ أو ٨٠ م. أمّا القوّات الاحتياطيّة فلا وجود لها، وأمّا استبدال الجند فمستحيل لعدم توافر الرجال. واستأنف «كلوغي» يقول: «فللمجموعة الوسطى وحدها بحاجة إلى ٢٠٠،٠٠٠ رجل، وليس بوسع أحد من القوّاد أن يؤكّد لك علماً بأنّه لن يُصاب بكارثة ...»

وعقّد الأنصار مهمّة مجموعة الجيوش بشكل مريع، وجدهم الألمان في كلّ صقع من «الاتّحاد السوفياتيّ»، بيد أنّه لم يجد منهم في مكان ما وجده في «روسيا البيضاء». فقد غدت مناطق الغابات الكبيرة والمستنقعات الشاسعة مخابئ مستعصية تنطلق منها عمليّات حقيقيّة، تضمها وتنظّمها هيئة أركان خاصّة. وقد أحصت مراكز المراقبة في كلّ ليلة عدداً من الطائرات يتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ وهي في طريقها لتموين ربع مليون من الأنصار الذين يكتنفون الجبهة الألمانيّة حتّى تترك «بولونيا». وقد اضطرّت الجيوش إلى التخلّي عن الطرق المعبّدة والحديديّة كلّها، باستثناء واحدة قد ركّزت عليها سهرها ومراقبتها، من غير أن تتوصّل إلى درء أعمال التخريب والمداهمة. إنّها لحرب قاسية لا تعرف الرحمة، ولا تعرف بجرحى أو بأسرى، تقابل القلق بنشر الذعر، ولا تتراجع أمام العذاب والتنكيل، ولا أمام انتهاك حرمة الجثث. وكما وجد «الألمان» بين السكّان خصوماً ضراة، وجدوا بينهم كذلك مساعدين ضراةً، إلاّ أنّ إخلاص متطوّعيهم وناصريهم بات عرضة للشكّ بعد هزائمهم الكبيرة.

لم تواجه «ألمانيا» أزماتها المتفاقلة إلاّ بحلول تقلّ جدواها يوماً بعد يوم. فظهر المجنّدون الجدد من مواليد ١٩٢٦، أي جنود سنّ الثامنة عشرة، على الجبهة الشرقيّة منذ ربيع ١٩٤٤. لم ينفكّ «هتلر» يصرّ على أنّ الجنديّ الألمانيّ الراجلَ رجلٌ خارق، يمكن أن يُطلب منه كلّ شيء. ولكنّ هذا الوهم المتعجرف قد تبدّد أمام الحقيقة الروسيّة. فجريح واحد من ثلاثة يمكن استرجاعه، هذا وقد أسهمت المأذونيّات النادرة في تثبيط عزائم الرجال، بما وفّرته من مشاهد «ألمانيا»، وقد عاثت فيها الحرب دماراً وخراباً، يضاف إلى ذلك الأرض الروسيّة، والطبيعة الجبّارة الكئيبة، وهدم القرى، وذاك الشعور بالفراغ في المقدّمة، وبالقلق والاضطراب في المؤخّرة، وكلّ هذه عوامل كان لها الأثر الفعّال العميق في تثبيط الهمم،

فإذا باليأس النشيط العامل يستحيل خنوعاً. والخنوع يستحيل استسلاماً. والاستسلام قنوطاً. وإذا الجيش باهت خامل مقضيّ عليه بالهزيمة الواقعة المحتّمة. وقد وقف ينتظر صدمة جديدة.

وتفاقم الفقر بتفاقم الانهيار العصبيّ الناتج عن زوال عهد الانتصارات، فتدنّى مستوى قطع التبديل والأعتدة الجديدة، نظراً لعدم توافر الموادّ السّتراتيجيّة من منغانيز ونيكل وموليبدين وفولفرام. وغيرها. وبدأت أزمة الوقود الكبيرة حين أقدم الطيران السّتراتيجيّ الأميركيّ على تدمير حقول النفط الرومانيّة. فتدنّى إنتاجها الشهريّ في أيار ١٩٤٤ من ٤٣٠،٠٠٠ طنّ إلى ٢٦٠،٠٠٠ طنّ. لم يعرف الجيش الألمانيّ قطّ ثراءً ووفرةً في البنزين. أمّا الآن فقد بات فقيراً جدّاً، يعيش يوماً فيوماً. والشلل يتهدّده في كلّ لحظة.

كان قائد مجموعة جيوش الوسط أحد كبار قوّاد الجيش القلائل الذين كانوا يحبّذون الاشتراكيّة القوميّة. ويؤمنون بعبقريّة «هتلر» العسكريّة. ولقد كان عام ١٩٣٨ مع «رايخناو» القائد الوحيد الذي رفض التوقيع على مذكّرة «بيك» التي فضحت ذاك السباق إلى حرب قُضي عليها مسبقاً بالهزيمة. كان ذاك القائد، «إيرنست بوخ»، طويل القامة، بديناً، سميناً، غليظاً. وهو ابن مدير ميتم وضيع. وقد تنازل تماماً عن التقليد البروسيّ المتعلّق بمسؤوليّة هيئة الأركان العامّة التي لا حدّ لها، والحريّة التي يتمتّع بها في تقدير الأمور. معتمداً شعار: «الواجب الأسمى يكمن في الطاعة». ومهما يكن من أمر. فإنّ رفضه تأييد زملائه، وذاك الشعار الذي تستعذبه أذنا «الفوهرر»، لم يرقّياه ترقياً بالغاً، فقد كان جنرالاً يتولّى قيادة جيش عام ١٩٤٠. ولم يُعيّن مارشالاً إلاّ في أوّل نيسان ١٩٤٤، وها هو الآن يتسلّم قيادة مجموعة جيوش.

«أوديسا»، آخر مدينة أوكرانية تشبّث بها الألمان.

لم يلبث «بوخ» طويلاً ليدرك ثقل هذه القيادة الجليلة. حظي بمقابلة «هتلر» في ٢٤ أيار. فرأى من واجبه أن يعرض عليه الحلّين اللذين أعدّتهما هيئة أركانه لتقصير جبهة مجموعة الجيوش التمادية الاتّساع، يقضي «الحلّ الأصغر» بالاكتفاء إلى ما وراء «الدنيبر»، ويقضي «الحلّ الأكبر» بالاكتفاء إلى ما وراء «البيريزينا». فحدّق «هتلر» في المارشال الجديد تحديقاً ذا معنى وقال: «ما كنت أدري، يا «بوخ»، أنّك تنتمي إلى ذلك الضرب من الجنرالات الذين لا يحسنون إلاّ النظر إلى خلف ...» فأدرك «بوخ» فحوى الموضوع، وتعهّد بتنفيذ الأوامر كلّها بأمانة، ثمّ حمل إلى هيئة أركانه الذاهلة «عزم الفوهرر الواضح على عدم التخلّي عن شبر واحد من الأرض».

وعاد «بوخ» مع ذلك بتأكيد مطمئن، إذ قد وعده «هتلر» «بصيف هادئ»، فستظلّ الجبهة الوسطى، كما في السنوات السابقة، مسرحاً ثانويّاً لا تشغله غير حملات محليّة. أمّا الروسيّ فسيحاول استغلال منجزات الشتاء في الجنوب، الوصول إلى مصابّ «الدانوب»، وفتح مناطق النفط الرومانيّة، وطرد «ألمانيا» من «البلقان»، واجتياح «أوروبا» الوسطى، والسير نحو «فيينا». ولقد تأهّب الفوهرر لتلقّي الصدمة بتدعيم مجموعتَي جيوش الجنوب ما وسعه الأمر، ولسوف يصطدم الزحف بنواة الجيش الألمانيّ الفولاذيّة. فالجيش الأحمر الضخم كتلة غير متوازنة، وتستطيع صدمة عنيفة واحدة أن تلقيه أرضاً، كما حصل لجيش القيصر الذي اجتاح «ألمانيا» عام ١٩١٤، ولجيش «لينين» الذي اجتاح «بولونيا» عام ١٩٢٠. أمّا إسهام مجموعة الوسط في إحقاق النصر فيقوم بصمودها على جبهتها بما لديها من قوّة.

تتألّف هذه المجموعة من أربعة جيوش: الجيش الثاني الضعيف المختلف العناصر، والذي لا يتّصل عمليّاً بالقوّات النظاميّة المعادية، ويخضع لإمرة الكولونيل-جنرال «فايس»، ويرئس هيئة أركانه حتّى ٢١ تموز «فون تريشكوف»، وهو يشرف على ما لا يقلّ عن ٥٠٠ كلم، تمتدّ شرقاً بغرب، على طول مستنقعات «البريبت»، والجيش التاسع بقيادة جنرال المشاة «يوردان»، على ضفّتَي «البيريزينا»، يليه الجيش الرابع بإمرة الجنرال «فون تيبلسكيرش»، الذي يشغل موقّتاً منصب الكولونيل-جنرال «هاينريتشي» المأذون بسبب المرض، فيركب صهوة «الدنيبر» مرّتين قبل أن يذهب فيلتحم بجيش الدبّابات الثالث، التابع للكولونيل جنرال «راينهارت» الذي يمسك بنائئة «فيتبسك». ولمّا يبقَ لهذا التصفيح غير الاسم. وعلى سبيل الحذر والوقاية عمدت مجموعة الجيوش إلى إقامة موقع للدفاع غربيّ «البيريزينا»، إلاّ أنّه كان لا بدّ من إخفاء هذه المبادرة عن علم الفوهرر الذي كان يصرّ على القول بأنّ المواقع الخلفيّة ليست إلاّ تجربة تغذّي نهاف الجنرالات على التراجع.

أمّا «هتلر» فيعارض فكرة خطوط الدفاع المتتالية. بنظريّة «مكاسر الأمواج» التي يلهج بها. ولقد عيّن منها أربعة في منطقة مجموعة الجيوش: «بوبرويسك» على «البيريزينا»، و«موهيليف» و«أورشا» على «الدنيبر»، و«فيتبسك» على «الدونا». كانت مهمّتها، وقد دُعيت حصوناً — على غرار «ستالينغراد» قديماً — وأحيطت بحزام محصّن، وزُوّدت بحاكم وحامية. أن تستلم التطويق بغية تفكيك الزحف العادي. سيتولّى الدفاع عن كلّ من «بوبرويسك» و«موهيليف» و«أورشا» فرقة واحدة، فيما تتولّى الدفاع



مشاة البحرية السوفياتية في «سيباستوبول» المحرّرة.

عن «فيتبسك» ثلاث فرق. عارض الجنرالات كلّهم هذه النظريّة في إدارة الموقعة الدفاعيّة لأنّها تقضي بالهلاك الأكيد على قسم هامّ من الجيوش المقاتلة، ولكنّ سلطة الفوهرر المطلقة، بدل أن تهدّئ المصائب من غلوائها، ما انفكّت تشتدّ وتعتو؛ فلاذ القوّاد بالصمت منفّذين الأوامر، رافعين أبصارهم إلى السماء أحياناً.

إنتهى أيّار وبدأ حزيران. وإذا بالحوادث الجارية في الغرب، من سقوط «روما» إلى النزول في «نورمانديا»، لا تثير في الجيش الألمانيّ في الشرق غير أصداء خافتة جدّاً، فقد لزمت الحرب سيرها البطيء، ولكنّ المكاتب الثانية أخذت تجمع دلائل وبوادر غريبة. إجتمع رؤساء أركان الجيوش في «رستنبورغ» بتاريخ ١٤ حزيران، وتبادلوا ما لديهم من معلومات، فلم يلحظ رؤساء أركان مجموعة الشمال، ومجموعتي شماليّ «أوكرانيا» وجنوبيّها، أيّة بادرة تنذر بهجوم وشيك. أمّا رؤساء أركان مجموعة الوسط فقد أشاروا إلى أنّ احتشادات هائلة تجري أمامهم: فقد أمكن تبيّن ٩ جيوش، من أصلها عدّة جيوش صدام، بين «البريبت» و«الدونا». وهي تنتمي إلى ٤ جبهات: جبهة «البلطيق» الأولى، وجبهات «روسيا البيضاء» الثالثة والثانية والأولى، مجموعة تحت إمرة المارشال «فاسيليفسكي». كانت الأدلّة واضحة متّفقة: فالمجهود السوفياتيّ الصيفيّ الكبير لن يبذل حيث استعدّت القيادة الألمانيّة للقائه، لن يوجّه إلى الأهداف الاقتصاديّة، كالنفط الرومانيّ والمعادن البلقانيّة التي استحوذت على لبّ «هتلر»! بل رفع «ستالين» نقطة ثقله مسافة ٥٠٠ كلم نحو الشمال، وذلك بفضل مجهود تنظيميّ عجيب، وسيكيل على قلب العدوّ ضربة القويّ للضعيف، أو قل ضربة القويّ الجبّار للضعيف الواهي.

أمّا «هتلر» فقد عمي عن إدراك الحقائق البيّنة التي مثلت تعارض رأيه. فقد ذهب إلى أنّ التحرّكات الروسيّة في وسط الجبهة هي من السفور بحيث لا يمكن إلاّ أن تشكّل خدعة، أو هي، في أقصى حدّ، تنبئ بهجوم مضلّل. فلم يسمح «لبوخ»، والحالة هذه، حتّى بأن يحتفظ بفيلقه المصفّح ٤٦ الذي كان يتنازل عنه لمجموعة شمال «أوكرانيا». وفي ٢٠ حزيران وقّع «كيتل»، بأمر من «هتلر»، مذكّرة تعيد إلى الأذهان أنّ نقطة ثقل العدوّ ينبغي أن تنتظر، لا أمام مجموعة الوسط، بل أمام مجموعتي جيوش الجنوب.

ولمّا بلغت مذكّرة «كيتل» «بوخ»، كان الزحف السوفياتيّ على مجموعة الوسط قد بدأ بنشاط شامل للأنصار، الذين برزوا من كلّ ناحية مهاجمين الطرق والخطوط الحديديّة والمستودعات: مثيرين ٣،٥٠٠ اشتباك، محقّقين ١٠،٥٠٠ عمليّة تخريب. وفي فجر ٢٢ حزيران، ولمّا تمض ٤٨ ساعة على استئناف نشاط الأنصار، وعقب ليلة خانقة عبرت سماءها بروق حرّ ضخمة، شنّ مشاة جبهة «البلطيق» الأولى وجبهة «روسيا البيضاء» الثالثة، ودبّاباتهما، هجومهم على جيش الدبّابات الثالث. وامتدّ الزحف الروسيّ في اليوم التالي على الجيش الرابع، وفي اليوم الثالث على الجيش التاسع، مشعلاً جبهة من ٥٠٠ كلم تمتدّ من «الدونا» إلى «البريبت»؛ فزجّ الروس في وجه فرق المشاة الـ ٣٧، والفرقة المصفّحة الوحيدة، التي تؤلّف مجموعة الوسط، ١٣٨ فرقة من المشاة، و ٤٣ لواء من سلاح الدبّابات.

إتّسم هذا الزحف الصيفيّ بابتكار مفجع مروّع، إذ أضيف إلى حشود «أرغن ستالين»، وإلى سحق الخطوط الأماميّة، تمهيد جوّيّ أذهل الألمان بشدّته وعمقه. أمّا هم فلم يكن لهم في الجوّ شيء تقريباً، لأنّ الأسطول الجوّي السادس، الملحق بمجموعة جيوش الوسط، لم يكن يملك في ٢٢ حزيران غير ٤٠ مطاردة صالحة للاستعمال. إنّه لانقلاب في الأوضاع غريب، يساوي ذاك الذي حصل في «نورمانديا» في الوقت عينه، فبات على الجنود الألمان، في الشرق كما في الغرب، أن يكافحوا تحت سيطرة طيران العدوّ المطلقة.

وما لبث النزاع حول «فيتبسك» أن استحال مأساة، إذ طوّق الروس المدينة وأوقعوا في الشرك مجموعَ الفيلق ٥٣، بفرقه الأربع، أي ما يساوي نصف الجيش الثالث. فتشبّث «راينهارت» بالهاتف وسأل «بوخ» أن يتوسّل إلى «هتلر» أن يسمح للقوّات المطوّقة بالإفلات إلى النور، فرفض «هتلر» مذكّراً بأنّه قد جعل من «فيتبسك» قلعة يصرّ على أن يذاد عنها حتّى النهاية. وفي ٢٥، وقد سبق السيف العذل، قبِل بأن تخرج من المدينة ٣ فرق، ولكنّه أصرّ على أن تبقى فيها الفرقة ٢٠٦ بقيادة الجنرال «هتّر» للدفاع عنها «إلى أن يرفع الحصار»، كما أصرّ على أن يلقى أحد ضبّاط أركان جيش الدبّابات الثالث بالمظلّة في «فيتبسك» ليحمل إلى «هتّر» أمراً خطّيّاً. فرفض «راينهارت» أن يضحّي بأحد معاونيه جزافاً. وقال «لبوخ»: «سيّدي الفيلد مارشال، أسألك أن تعلم الفوهرر بأنّه، إذا أصرّ على أمره، فهناك ضابط واحد من ضبّاط جيش الدبّابات الثالث يستطيع القفز في «فيتبسك»: هو القائد الأعلى، أنا». فلم يلحّ «هتلر».

أرهق الروس القوّات المطوّقة في اليوم التالي وفي غده، فأخذت إذاعات الميدان التابعة للفيلق الـ ٥٣ تصمت واحدة بعد واحدة. كانت الفرقة التي أبقيت في «فيتبسك» أضعف من أن تملأ حزام المدينة المحصّن، فأغرقت لدى الهجوم الأوّل. أمّا الفرق الثلاث الأخرى، وقد عجزت عن أن تشقّ لنفسها طريقاً بين الحشود الروسيّة، فقد أبيدت عن بكرة أبيها. وراح ما تبقّى من جيش الدبّابات الثالث يتقهقر يائساً وسط غابات لا طرق فيها، وأنصار لا يعرفون هوادة.

وفي الجناح الآخر قذف «روكوسوفسكي» بـ ٥٠ من فرق المشاة، و١٣ وحدة آليّة كبيرة، على الجيش الألمانيّ التاسع وقلعة «بوبرويسك» الزائفة، وفي نيّته أن يزحف على «مينسك» ليلتقي «تشيرنا كوفسكي» القادم من «فيتبسك»، بغية إيقاع القلب الألمانيّ في الأسر.

كان ميدان القتال صعباً عسيراً، فثمّة عدّة أنهار كبيرة «كالأولسا» و«الأولا» و«الدروت» و«الدويسنا» و«البيريزينا» تسيل نحو «الدنيبير». وهي أنهار سهليّة موحلة بطيئة، تتّسع بشكل مستنقعات فسيحة فتؤلّف دلتا لا يخطر ببال أيّة قيادة غربيّة أن تجعل منه قطاعاً هجوميّاً. بيد أنّ القوّات السوفياتيّة قد أعدّت لحرب المستنقعات إعداداً عجيباً، فهي تسير حاملة كميّة خارقة خياليّة من الجذوع الصغيرة والأغصان والألواح المهيّأة لإنشاء دروب تسلكها العربات والدبّابات. فإذا برتل المشاة أشبه ما يكون بغابة تسعى.

شُنّت على الجيش التاسع ثلاث حملات، صُدّت منها اثنتان، ودحرت الثالثةُ الفيلقَ ٤١ جنوبيّ «البيريزينا». وأغرقت «بوبرويسك» من جهة الغرب. وفي ٢٦ طار «بوخ» إلى «برشتسغادن» وهو مصاب منكوب ليرسم «لزعيمه» صورةً عن الوضع المفجع. فقد قضي على «بوبرويسك» بعد «فيتبسك». وتمكّنت القوّات السوفياتيّة، التي صُدّت برهة على «الدروت»، من أن تثقب الجبهة بدورها فتتمّ تطويق المدينة من الشمال. طلب «بوخ» المخلص، رغبةً منه في إعادة تنظيم المعركة، أن يسمح للجيش الرابع، الذي تعرّض لهجوم ضعيف في الوسط، وبات تحت رحمة التطويق بعد انهيار جيرانه، بعبور «الدنيبير»؛ وطلب أن يتخلّى عن «بوبرويسك» و«موهيليف» و«أورشا»، وهي قلاع على ورق، قبل أن يحلّ بها ما حلّ «بفيتبسك»؛ وأن توفد، على وجه السرعة، نحو وسط الجبهة، أمدادٌ كبيرة ضخمة؛ فرفض «هتلر» كلّ تلك المطاليب، ولم يعد «بوخ» إلى «فيتبسك» إلاّ ليأخذ علماً بأنّ «مودل» قد أحلّ محلّه.

وهكذا ما فتىء عناد «هتلر» وعماه وقدرته على الشطط والخطإ في ازدياد مستمرّ كلّما أوغل في الهزيمة. فهو يصرّ على أنّ نزول الحلفاء في «نورماندیا»، والهجوم السوفياتيّ في «روسيا البيضاء» كليهما، ليسا النزول والهجوم الحقيقيّين. وكما أبقى الجيش الخامس عشر شماليّ «السين» مجمّداً، قضى بشلّ أفضل قوّات الجبهة الشرقيّة في «أوكرانيا». والجنرالات هم في رأيه المسؤولون حتماً عن الهزائم التي أملاها بنفسه، وهو الذي قال معلّماً: «هيبتي رأس مال لا يمكن استبدال شيء به، ولا يجوز أن يمسّ في أيّة حال. أمّا الجنرالات. فيمكن استبدال واحد منهم بآخر.»

في ٢٧ حزيران طوّق مجموع الجيش التاسع حول «بوبرويسك»، ففعل «هتلر» ما فعله في «فيتبسك» وقرّر أن تدافع عن الحصن فرقةٌ واحدة، فيما يفكّ معظم الفيلقين ٣٥ و٤١ طوق الحصار. فأمر الجنرالُ «فون لوتزوف» بتدمير العتاد الذي يتعذّر نقله، وانخرط في رتلٍ كثيف حاول معه أن يفرّ باتّجاه «مينسك»، وراحت ٥٠٠ قاذفة قنابل روسيّة تدكّ الحشد الألمانيّ. فيما قطعت عليه الطريقَ الوحداتُ المصفّحة التابعة لمجموعة «غورباتوف»، فعمدت جمهرة من الجنود الفارّين إلى اجتياز «البيريزينا» سباحة قصد اللجوء إلى «بوبرويسك»، حيث تكدّست في فوضى مقيتة بقايا نصف دزّينة من الفرق، فلم يتمكّن الجنرال «هامان»، قائد الموقع، من تنظيم الدفاع. ومنذ ٢٩ لم يبقَ في «بوبرويسك» ألمانيّ واحد مسلّح. ولم يبقَ من الجيش التاسع إلاّ زهاء ١٥،٠٠٠ رجل لا عتاد لهم.

يستحيل سرد وقائع تينك الهزيمتين الألمانيّتين الكبيرتين، «فيتبسك» و«بوبرويسك». سرداً مفصّلاً دقيقاً، فالمراجع غير متوافرة، وقليلون جدّاً هم الأسرى الذين عادوا ليرووا التجارب التي مرّوا بها وعاشوها. والواضح مع ذلك أنّ ضراوة المقاومة لا تشبه في شيء سابقات «ديميانسك» و«ستالينغراد» و«تشيركاسّي» الشهيرة. فقد كان القوّاد أوّل المنحنين للمقادير. مثال ذلك «لوتزوف» قائد الفيلق ٣٥ الذي استسلم مع هيئة أركانه كلّها.

لم يسلم من الجيوش الألمانيّة الثلاثة التي تعرّضت للهجوم غير جيش واحد هو جيش الوسط الرابع. فاستأذن «تيبلسكيرتش»، قائده الموقّت، في العبور إلى ما وراء «الدنيبير». ولكنّه اصطدم طبعاً برفض «بوخ» الذي يعكس رفض «هتلر»، فلم ينصع للأمر. بل عاد بأجناده إلى الضفّة اليمنى. ولكنّه لم يجرؤ على المضيّ في التمرّد إلى حدّ التخلّي عن حصنين من حصون «هتلر» المزعومة. أخليت «موهيليف» في اللحظة الأخيرة. أمّا «أورشا». التي أبقيت فيها فرقة واحدة، فقد سقطت عنوة في ٢٧. كانت تلك هي النقطة الأخيرة التي كان الجيش الألمانيّ ما يزال يلامس بها ثاني الأنهر الروسيّة. وها هو «الدنيبير» يسيل من ينبوعه حتى مصبّه في أرض محرّرة تماماً.

إنتقل القتال إلى «البيريزينا». وغدت «بوريسوف» هي محوره. كان سقوطها عام ١٨١٢ بالنسبة لجيش «نابوليون» بمثابة الضربة القاضية التي أرغمت ذلك القائد على أن يذهب إلى نقطة أبعد في الشمال ليلقي فيها جسرين موقّتين. كلّفه عبورهما ما تكلّفه هزيمة كبيرة. كافح «تيبلسكيرتش». وكان لا يزال محتفظاً بفيلقين شرقيّ النهر، في سبيل إنقاذ المدينة من جبهتي «أوكرانيا» الثانية والثالثة اللتين أخذتا تضغطان على ضفّتي النهر من الشمال والجنوب، فتمكّنت فرقة الدبّابات الخامسة، وهي أوّل مدد مصفّح بلغ المجموعة الوسطى، من تحطيم اللواءين الروسيّتين الممتدّتين على أوتوستراد «موسكو»، ولكن سرعان ما أعيدت إلى «مينسك»، حيث أحدث تدمير جيش الدبّابات الثالث وضعاً خطيراً ينذر بشرّ مستطير. وفي ٣٠ حزيران انتُزعت «بوريسوف» وجسراها من أيدي الألمان، ولمّا يزل ألوف الرجال يتخبّطون في المستنقعات شرقيّ «البيريزينا».

بقي ثمّة ممرّ واحد، هو جسر ميدان أقيم في «بيريزينو»: فهاجمه الطيران السوفياتيّ بلا انقطاع، غاطساً في نيران المدفعيّة المضادّة للطائرات. فاقداً أجهزة كثيرة، ولكنْ ملحقاً بالجسر أضراراً كان عمّال الجسور الأبطال يصلحونها بصبر وجلد. هذا، وفيض من الرجال والعربات ينساب فوق «البيريزينا»، بين الغارات وخلالها، حاملاً جثثاً وحطاماً. كانت الخسائر فادحة جسيمة، وقد قُتل على الجسر جنرالات ثلاثة، غير أن «تيبلسكيرتش» قد احتفظ «ببيريزينو» حتى ٣ تموز، وتمكّن من العودة بمجمل جيشه إلى الجهة الغربيّة من النهر.

ولكن شتّان ما بينه وبين النجاة! فالزحف السوفياتي يرمي إلى البعيد العميق! فقد اتّجهت جبهة «البلطيق» الأولى عن طريق «بولوتسك» ناحية «دونا بورغ»، وزحفت جبهة «روسيا البيضاء» الثالثة على «مولوديتشنو» مارّة «بلبييل»، وقصدت جبهة «روسيا البيضاء» الأولى عبر «سلوتسك» إلى «بارانوفيتش». أمّا المارشال «مودل»، وقد تسلّم قيادة الفراغ الذي انفتح على اتّساع ٣٥٠ كلم بين «البريبت» و«النيمن»، فقد استغنى عن تصريحات «هتلر»، فبادر إلى إعادة الجيش الثاني، الذي ما زال سليماً، إلى الحدود البولونيّة، وتخلّى عن مواقع «هتلر» الحصينة، وسحب ثلاث فرق مصفّحة من مجموعة جيوشه القديمة، إلاّ أنّ هذه التدابير الشديدة قد أتت متأخّرة فلم تنتزع من الظافر ثمار انتصاره. فالمعركة لم تبقَ غير سباق كبير ومطاردة، يحاول الألمان يائسين أن يفلتوا من الأسر، والروس يطاردونهم لاهثين، على طرق مخيفة مقيتة، في بلد عاثت فيه الحرب خراباً.

وبعدما اجتاز الجيش الألمانيّ الرابع مستنقعات «البيريزينا»، توغّل في أصقاع حرجيّة بلغت من الاتّساع والكثافة مبلغاً خفتت معه جلبة الحرب. إنتظم الفيلقان الـ ١٢ والـ ٢٧ بشكل مربّعات متحرّكة، وسارت باتّجاه الغرب على دروب رمليّة واسعة حفرت فيها القوافل أخاديد وأثلاماً ضخمة. ولكنّ عقبات الأرض، ومداهمات الأنصار، ونفاد الذخائر، والتقدّم الذي أحرزه جناحا العدوّ، كادت تُفقد هذا التراجع كلّ أمل. وإذا بسقوط «مينسك» في يد جبهة «روسيا البيضاء» الثانية، في ٣ تموز، يكرّس تطويق الجيش. حاول الطيران الألمانيّ أن ينظّم حركة تموين جوّي، ولكنّ المحاولة أهملت منذ اليوم الأوّل، فأذعن الجنرال «فنساتز مولر» للأمر واستسلم مع فيلقه ١٢. أمّا الفيلق ٢٧ فقد تجزّأ مفارز تمكّن بعضها من الفرار بالالتفاف حول «مينسك». مدّد الجيش الرابع احتضاره، إلاّ أنّ التلف قد أصابه أكثر ممّا أصاب جاريه في الشمال والجنوب.

في الأسبوع الثاني من تموز خفّت حدّة المعركة غربيّ «مينسك»، فرمال غابة «نايبلوتشي»، التي طالما ضايقت الألمان عام ١٩٤١، وفّرت لهم فرصة استعادة أنفاسهم بتأخير تقدّم العدوّ. فأمر «هتلر» بإقامة «جبهة منيعة لا تُرام»، تمرّ «ببارانوفيتش»، فتخوم غابة «نايبلوتشي» الغربيّة، فبحيرة «ناروتش». كان هذا القرار أبعد ما يكون عن المنطق بالنظر لتفاوت القوى، فنكبة حزيران ١٩٤٤، وهي أخطر من «ستالينغراد»، قد زادت من الضعف الذي يحارب فيه الجيش الألمانيّ منذ سنتين حتى بلغت فيه نقطةً لا عودة بعدها. ففي ١٥ يوماً دُمّرت ٢٥ فرقة، وفُقد ٤٠٠،٠٠٠ مقاتل، وأسر ٢٢ جنرالاً، ولم يبقَ من مجموعة جيوش الوسط إلاّ ما يعادل ٨ فرق، يضاف إليها ٨ فرق أخرى ما برحت قيد النقل لترفد الأولى. ولقد أحصت أركانها في الجانب الآخر ١٢٦ فرقة مشاة، و٦

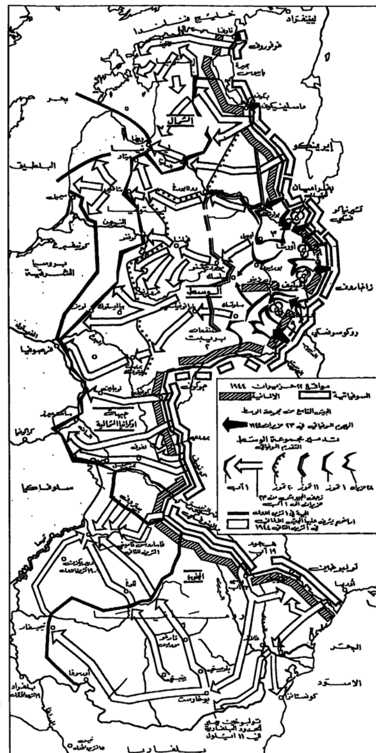
فرق خيّالة، و٦٢ لواء دبّابات، فإذا الألمان واحد ضدّ عشرة !

إستولت الأجناد السوفياتيّة على «بارانوفيتش» في ٨ تموز، وعلى «ليدا» في ٩ منه؛ وقضت في ١١ على العناصر الألمانيّة الأخيرة المطوّقة شرقيّ «مينسك». وفي ١٣ انتزعت ««فيلنا» التي ضحّى فيها «هتلر» بسبع كتائب كان قد كلّفها بالدفاع عن المدينة «حتّى النفس الأخير». تقدّم الروس مسافة ٤٠٠ كلم في ٢٠ يوماً، وحرّروا أراضيهم بكاملها، ولم توفّر استطالة مُواصلاتهم للألمان تلك الاستراحة التي كانوا بحاجة إليها لإعادة تنظيم صفوفهم. فما أُوقف الزحف في الوسط حتّى انتقل إلى الجناحين. فلم تنحصر نكبة الجيش الألمانيّ في المنطقة الواقعة بين «الدونا» و«البريبت» فحسب، بل شملت المنطقة الممتدّة من «البلطيق» إلى البحر الأسود.

كلّ «هتلر» من سماع «ليندمان» يطالب بانكفاء مجموعة جيوش الشمال إلى «الدونا»، فعمد في ٣ تموز إلى استبدال الجنرال «فريسنر» به. ولم تمض تسعة أيّام حتّى وجّه الجنرال الجديد إلى الفوهرر رسالة شخصيّة يتبنّى فيها بكثير من الإلحاح مطلب سلفه؛ فاستدعاه «هتلر» وانطلق أوّل الأمر يهدّده، ثمّ رقّعه بنزوة من مزاجه إلى رتبة جنرال أوبيرست، وأمر بإجراء تبديل بينه وبين «شورنر»، فانطلق «فريسنر» يدافع عن «رومانيا»، وكُلّف الرجل الذي تعهّد «لهتلر» بأنّ «سيباستوبول» منيعة لا تُقهر بالمحافظة على «البلطيق» حتّى الموت!

أمّا الروس فكانوا قد نشطوا للهجوم، ولكنّ عملهم في جبهات «البلطيق» لم يتّسم بذاك الطابع الخاطف الذي امتاز به زحفهم على «فيتبسك» و«مينسك»، إلاّ أنّ ضغطهم المستمرّ قد أرغم الجيشين الألمانيّين على تراجع لا ارتداد بعده، وانتُزعت منهما «وبليسكو» و«أوستروف» و«دوناببورغ» و«ميتاو» واحدة بعد واحدة، وما أقبل ٢٩ تموز حتّى بلغت جبهة «البلطيق» الأولى خليج «ريغا» في «تُكّوم»، فقُطعت بذلك مواصلات مجموعة الشمال البرّيّة، ولم يبقَ تموين رجالها الـ ٧٥٠،٠٠٠ ممكناً إلاّ عن طريق البحر.

وهكذا غدت الأراضي الألمانيّة ذاتها عرضة للتهديد والخطر؛ ففي ٣١ تموز استولى الروس على «كوفنو»، وتخطّت مقدّمة مصفّحة مدينة «سوالكي» في اليوم التالي فأدركت الحدود البروسيّة في «فيلكوفيشكي». لم تكن «رستنبورغ» إلاّ على بعد ٦٠ كلم ! ومع ذلك تشبّث بها «هتلر» بشكل كاد يبلغ حدود الهوس، قائلاً: «إذا رحلت ضاعت «بروسيا الشرقيّة». ذاك أنّ قنبلة «شتاوفنبرغ» لم تبق منه سوى خرقة بشريّة: فقد أُصيب بآلام شديدة في المغدة والامعاء حملت رجال بطانته على الظنّ بأنّه قد أُصيب بتسمّم؛ وبات لا ينهض من فراشه إلاّ للتقرير اليوميّ. وكان يقول «لكيتل»: «إسهر جيّداً على ألاّ يحتجزني هؤلاء السادة أكثر من نصف ساعة، لأنّ في ذلك إرهاقاً لصوتي.» ولكنّ هذا الصوت الخابي كان يستعيد نشاطه بعض الأيّام فيتدفّق سيلاً من البلاغة الهيستيريّة؛ ففي ٣١ تموز مثلاً، تكلّم «هتلر» دفعة واحدة من الساعة ٢٣،٥٣ إلى الساعة ٠،٥٩، معلّقاً بشكل غريب على سلسلة الهزائم المنكرة التي جعلت المسافة الفاصلة بين الروس و«برلين» بمقدار ٥٠٠ كلم. قال: «الوضع ليس على ما يُظنّ من السوء ... ينبغي أن ننظر إلى ميزان السيّئات والحسنات... فقد تخلّصنا على الأقلّ من تلك الخطوط ذات المراحل البالغة الطول ...» وهكذا أنهى «هتلر» حرفته في الدعاية السوداء.



«روسيا» من نيسان إلى تشرين الأوّل.

بدأ الزحف السوفياتيّ جنوبيّ «البريبت» في ١٣ تموز. كان الجيشان الألمانيّان التابعان لمجموعة شمال «أوكرانيا»، المرابطان في عرض سهل متموّج يمتدّ مسافة ٤٠٠ كلم بين «البريبت» و«الدنييستر»، يدعيان جيشين مصفّحين – وهما جيش الدبّابات الرابع. بقيادة الكولونيل جنرال «برايث»، وجيش الدبّابات الأوّل بقيادة الكولونيل–جنرال «راوس»–. إلاّ أنّهما كانا قد اضطرّا إلى التخلّي عن نصف دبّاباتهما في محاولة لتعمية الثغرة الّتي فتحها اندحار مجموعة الوسط في «روسيا البيضاء». كان تحت تصرّف الجنرال «هاربي»، خليفة «مودل». ٣١ فرقة مشاة و٥ فرق دبّابات يُقدَّر مجموعها بـ ٦٠٠ دبّابة. أمّا جبهتا «أوكرانيا» الرابعة والأولى فقد شنّتا هجومهما بقيادة المارشالين السوفياتيّين «كونييف» و«بوبوف» وتحت إمرتهما ٧٠ فرقة مشاة و ٣.٠٠٠ دبّابة.

وقعت الهزيمة الألمانيّة بمنتهى السرعة، فقد خُرِقَ موقع المقاومة الرئيس المدعوّ «برنز أوجين» في جانبَي «برودي»، كليهما. وطُوِّقت بالقرب من المدينة ثلاث فرق تابعة لجيش الدبّابات الأوّل تشمل ٤٠.٠٠٠ رجل. هبّ الفيلق المصفّح الثالث لنجدتها والإفراج عنها، فدمّر الطيران السوفياتيّ إحدى فرقه. وصدّت الأخرى بعدما تكبّدت خسائر جسيمة. فرّ الجنرالان «لانغي» و«لاش» من الجيب بـ ٥.٠٠٠ رجل. أمّا الجنرال «ليندمان» (الّذي سيحكم عليه «هتلر» بالموت غيابياً) فقد استسلم باسم من تبقّى من المحاصَرين. تراجع «هاربي» إلى ما وراء «البوغ»، ولكنّ «كونييف» مدّد الزحف نحو الشمال، وبعدما تخطّى مستنقعات «البريبت» ضمّ مجهوده إلى مجهود «روكوسوفسكي» في مطاردة ميمنة مجموعة الوسط. وراح المدّ الروسيّ يتقدّم ويتقدّم... من «الناريف» إلى «الكربات» على مدى اتّساع «بولونيا»، وغدا سرد العمليّات أشبه ما يكون بأوراق روزنامة تُنتزع يوماً بعد يوم.

في ٢٢ تموز تمّ عبور «البوغ» في «شولم». وفي ٢٤ سقطت «لوبلين». وفي يوم ٢٧ سقطت «بياليستوك» في الشمال و«ليمبرغ» و«ستانيسلاف» في الجنوب. وشهد يوم ٢٨ سقوط قلعتين سجّلتا اسمهما في تاريخ الحربين العالميّتين: «بزيميسل» الّتي صمدت في وجه حصار طويل عام ١٩١٥. و«بريست–ليتوفسك» الّتي انطلقت منها عمليّة غزو «روسيا» عام ١٩٤١. في ٣٠ تمّ الوصول إلى «الفيستول» بالقرب من نقطة التقائه مع «السان». كما تمّ اجتيازه على جبهة رحبة في الغد، وفي الأيّام التالية تمّ عبور النهر من جديد أمام «بولافي» ومن على جانبَي «بيليكا». ومضت القوّات الروسيّة تزحف باتّجاه «فرصوفيا». وفي ٣١ تموز بلغ جيش الحرس الثامن ضواحي المدينة في «أوتفوك» و«جوزيزوف» و«فيلينيكا»، واستولى الفليق المصفّح الثالث، القادم لملاقاته من الشمال. على «رودزيمين» و«فولومين» مقترباً من ضاحية «براغا».

"ستالين" يقف مكتوف اليدين إزاء سحق ثوّار "فرصوفيا"

إندلعت ثورة «فرصوفيا» في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي، الموافق أوّل آب. وراحت مفارز، ليس لهامن الزيّ غير ساعدة على الزند حمراء وبيضاء، تنبثق من كلّ صوب، وتهاجم المحطّة المركزيّة، ومركز البريد، ومستودعات الجيش الألمانيّ، وجسور «الفيستول». وما هي إلاّ ثوان قليلة حتى كانت مدينة فيها مليون نسمة تتخبّط في خضمّ معركة حاميّة الوطيس.

كانت «فرصوفيا»، وهي أوّل عاصمة احتلّها «هتلر»، تعيش منذ



«فرصوفيا» الشهيد البطلة، في آب ١٩٤٤.



لم يتلقّ ثوّار «فرصوفيا» من الروس حتى ولا خرطوشة...

قتال بلا رحمة تدور رحاه في الشوارع.



١٩٣٩ حياة كئيبة ومحمومة على السواء. وهي تعكس الواقعة القاسية المعقّدة التي حلّت «ببولونيا». في البدء أتت هزيمة «فرنسا»، ومتانة التحالف «ستالين – هتلر». تبعدان كلّ أمل في انتفاضة وطنيّة في مستقبل لا يُسبر غوره. فمن الشرق الذي كان منضماً «للاتّحاد السوفياتي»، لم تكن تصل غير شائعات مشوّشة عن إبادة الطبقات المالكة ونفي السكّان. وفي الغرب كانت «ألمانيا» قد استعادت حدودها كما كانت قبل ١٩١٤ ولكنّ موسّعة بشكل ملحوظ. ولم يبقَ من آثار الدولة البولونيّة غير حكومة عامّة تضمّ مقاطعات الوسط. وكانت «فرصوفيا»، التي خسرت مكانتها لصالح «كراكوفيا»، قد فقدت حتّى لقب عاصمة تلك الرقعة الدائرة.

هذا وأتت الحرب الألمانيّة الروسيّة. وهي بداية ثورة الأمل. تعيد إلى «فرصوفيا» أهميّة عسكريّة بالغة. فجسراها الحديديّان. وجسورها البريّة الثلاثة، قد جعلت منها ممرّ «الفيستول» الرئيس. كما جعل مركزها في الوسط منها المرحلة الأكثر أهميّة بالنسبة للمؤخّرات الألمانيّة. فأقامت فيها إدارات عسكريّة ونصف عسكريّة، وطُبعت فيها جريدتان ألمانيّتان يوميّتان. كان الدمار الناتج عن حصار ١٩٣٩ سطحيّاً، وبعدما تعاقبت عمليّات القصف الإنكليزيّة الأميركيّة على «ألمانيا» شهدت العاصمة البولونيّة الكبيرة اتّساع حظوتها لدى السلطة العسكريّة في «الرايخ» الثالث.

كانت المأساة اليهوديّة الكبرى تأخذ مجراها في كلّ بقعة من بقاع «بولونيا» التي تعدّ ٥ ملايين يهوديّ من مجموع ٢٧ مليون نسمة. وقد كانت «فرصوفيا» رمزاً لها وتتويجاً.

كان موقع الحيّ اليهوديّ يقوم وسط المدينة. وراء الحيّ الحكوميّ مباشرة. وأرغم الألمان اليهود على إحاطته بحائط علوّه أربعة أمتار ومحيطه ١٨ كلم. وقد اتّخذ الحائط شكل حرف «T» غير منتظم. فكانت شعبته الجانبيّة تمتدّ من «ستار مياستو»، المدينة القديمة، إلى المقبرة الإسرائيليّة، وشعبته العموديّة تمتدّ من محطّة القطار الشماليّة إلى جوار المحطّة المركزيّة. وكانت القُطُر تجتاز هذا القطاع المصوّن من غير توقّف متيحة لراكبيها مجال الإمعان في طرقات تعجّ بالجموع البائسة. كان الحيّ اليهوديّ يكتظّ قبل الحرب بنحو من نصف مليون نسمة؛ وقد جاء نحو من ١٥٠٬٠٠٠ إلى ٢٠٠٬٠٠٠ نسمة، طُردوا من مقاطعة «بوزن»، ومن «الفارتيغو». يضيفون عليه عبئاً ثقيلاً.

أُقيمت على مداخل الحيّ اليهوديّ مراكز للشرطة، فكان الدخول والخروج محظورين من غير إذن خاصّ بالمرور. وأمّا إدخال الموادّ الغذائيّة فكان يُعتبر جنحة عقابها السجن. ثمّ إنّ أحكام التقنين كانت تُبعد اليهود عن نيل أيّة حصّة من اللحم أو الحليب أو المواد الدسمة. مانحة إيّاهم كيلوغرامين من الخبز شهريّاً؛ فقد كان مفروضاً، والحالة هذه، أن يفنى اليهود خَوَراً عن بكرة أبيهم.

ولكنّهم لم يفنوا. فالحائط لم يتمكّن من اعتراض وصول مؤن إضافيّة. كما أنّ حاجات الجيش الألماني قد أطالت من عمر الجالية الإسرائيليّة في «فرصوفيا»، ففي مئات من المصانع. كان آلاف من اليهود. ذكوراً وإناثاً، يكبّون بإبرهم على قمصان طغاتهم وبزّاتهم يخيطون ويرفأون. وقد رُفعت حصّة الخبز الشهريّة آنذاك إلى ٦ كيلوغرامات. إلاّ أنّ معدّل الوفيات قد ارتفع بصورة مفجعة، كانت الجثث تُلتقط من عن الأرصفة في كلّ يوم؛ وجاء انقطاع التيّار الكهربائيّ، وإلغاء كلّ وسيلة للتدفئة، يغدقان نصيبهما على لوعة الجوع وعذابه؛ ولكنّ الحيّ اليهوديّ بحدّ ذاته لم يمت.

وكان أوّل موقف له هو الخضوع. قال أحد الناجين: «لقد تمّ



قاذفات اللهب تجهز على من تبقّى من المقاومين في «فرصوفيا».



الصليب الأحمر يتولّى توزيع المؤن في «فرصوفيا».

لقد اتّخذت القاطرات الحديديّة متاريس.



الاعتقاد بأنّ الوباء سيودي بـ ٧٠٠٠٠ يهوديّ. أو ١٠٠٠٠٠. فيُكتفى بهذا المقدار. ووجهة النظر هذه قد عُرضت في المناقشات الخاصّة. كما عُرضت في جلسات الجالية اليهوديّة المكلّفة بإدارة الحيّ اليهوديّ».

ثمّ لوحظ أنّ الحيّ اليهوديّ راح يفقد سكّانه ...

وقد حدث التفريغ من خلال شارع «ستوكي» الذي يقود نحو خطوط السكّة الحديديّة في محطّة الشمال. ففي كلّ صباح، ابتداء من شهر كانون الثاني ١٩٤٢، حُشد في المحطّة ٧ آلاف شخص في رحلة إلى المجهول، وكان أكثرهم من المتطوّعين الذين اقتنعوا بأنّهم كانوا متّجهين نحو معسكرات العمل. وبأنّهم قد خلصوا من الاختناق البطيء داخل الحيّ اليهوديّ.

وفي ذات يوم أبلغت المقاومة البولونيّة «لندن» بأنّ يهود «فرصوفيا» كانوا ينقلون إلى معسكرات «ماجدانيك» و «تريبلينكا» حيث كانوا يُبادون إبادة كاملة. وعجبت المقاومة لكونها لم تلقَ لدى الإذاعة البريطانيّة أيّ تجاوب على الإطلاق؛ فقد أبى الانكليز أن يصدّقوا، وخافوا الانزلاق بناء على إحدى تلك الشائعات المريبة الّتي تجتاح البلاد الجاثمة تحت كابوس الطغيان والحقد.

في نهاية ١٩٤٢ مكّن إخلاء الحيّ اليهوديّ من تقليص ثلثيه. وبقيت حظيره ذات شكل مثلّث، أسميت «الحيّ اليهوديّ الصغير»، قائمة في زاوية طريقَي «تواردا» و «بروستا»، في وسط المدينة. في ذلك الحين لم يكن قد بقي في «فرصوفيا» أكثر من ٨٠٠٠٠ يهوديّ على وجه التقدير. ولم يكن أحد منهم يرتاب في المصير الذي كان ينتظره.

وحدثت أوّل مقاومة مسلّحة في كانون الثاني ١٩٤٣. فقد قُتل بعض رجال الصاعقة الذين كانوا يقتنصون بعض الناس، فلم تحدُث أيّة ردّة فعل قطّ. ممّا أثار الدهشة العامّة، وما كان من الألمان إلاّ أن تلاشوا. وتوقّفت وسائل النقل كلّها، وراحت بقايا الحيّ اليهوديّ تتنظّم للموت في غمرة القتال. وراحت لجنة مقاومة، وهي عبارة عن حكومة حقيقيّة لمدينة اليأس تلك، تعمل علناً في الرقم ٣٤ من شارع «ميلا»؛ فراح الرجال يصنعون القنابل اليدويّة وقنابل «كوكتيل مولوتوف» بواسطة متفجّرات ووقود لا يدري أحد كيف حصلوا عليها؛ وقد اختزنوا كذلك كميّات من الزاج لتشويه الجلاّدين.

كان يوم ١٩ نيسان وهو اثنين عيد الفصح، اليومَ الذي اختاره النازيّون للقيام بعمليّة القمع النهائيّة. فاجتاحت الحيَّ اليهوديّ من خلال طريقَي «ستوكي» و «نيلوكي» أربعةُ سيّارات رشّاشة، وكتيبتان من جيش الصاعقة، وبعضُ تشكيلات الشرطة الألمانيّة والبولونيّة. وقد نظّم العمليّة البريغادفوهرر «شترو ب»، قائد شرطة قطاع «فرصوفيا»، وكانت تقضي بإخلاء المنازل كافّة، وحشد السكّان في المقبرة الإسرائيليّة بانتظار نقلهم إلى المعتقلات.

ولكنّ ردّة الفعل قد خنقت أنفاس المهاجمين بمفاجأتها وعنفها. ففرّوا هاربين. وعادوا إلى اجتياز الحائط تحت نيران تنصبّ عليهم من الأنبار والسطوح. وهرع كولونيل الصاعقة «فون سامرن» إلى مركز قيادة «شترو ب» يطلب إليه أن يستدعي طائرات «شتوكا». وما هي إلاّ ساعات حتّى كان زجاج «فرصوفيا» يصطكّ تحت رعيد المدفع، وتصاعدت فوق الحائط غمامات الدخان: فقد كان الألمان يقصفون الحيّ اليهوديّ. وراح اليهود يحرقون المؤسّسات التي كانت تعمل لحساب الجيش الألمانيّ. فكان الحيّ اليهوديّ يطلق تحدّيه وهو في نزاعه الأخير.

وعاد الألمان في اليوم التالي فدخلوا الحيّ اليهوديّ حاملين قاذفات اللّهب. وراح المحرقون يتقدّمون خطوةً خطوة مضرمين النار في المنازل



قافلة من اليهود البولونيّين تصل إلى «أوشفيتز».

واحداً واحداً. وقد خرج من المنازل أولئك الذين أرادوا ذلك أو استطاعوا إليه سبيلاً؛ وانتحر منهم كثيرون وقد ألقوا بأنفسهم إلى الشارع. وأمّا أولئك الذين أسلموا أمرهم فقد سيقوا أرتالاً طويلة مرفوعي الأيدي حتّى المقبرة الإسرائيليّة. ولكنّ مجموعات مؤلّفة من ٢٥ إلى ٣٠ مقاتل، من جملتهم نساء عديدات، وهنّ أكثر شجاعة وضراوة من الرجال، قد قاتلت حتّى الموت. ولم يعتبر الألمان أنّ الثورة قد أخمدت تماماً إلاّ في ٢٣ أيّار في الساعة ٢٠،١٥، حين نسفوا الكنيس الكبير، وبعدما قضوا على آخر مجموعة من المقاومين قرب ساحة «مورانوفسكي». واستمرّت مطاردة المنعزلين في الأقبية والمجارير، وتدمير الحيّ اليهوديّ النظاميّ، حتّى أوائل حزيران. ولم يبقَ الحائط يزنّر غير صحراء من رماد، وقد انتصب في وسطها سجن «باوياك» وهو المبنى الوحيد الذي نجا من الخراب.

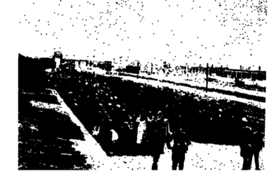
لقد بقي عدد الضحايا اليهود أمراً مجهولاً؛ وليس لذلك أهميّة، إذ أنّ موتاً أشنع كان ينتظر الناجين. وأمّا الخسائر الألمانيّة فقد كانت طفيفة: ١٥ قتيلاً، ونحو من مئة جريح. ولكنّ انتفاضة اليأس، يقوم بها قوم وُصموا بالجبن الوراثيّ، قد أحدثت دهشة كبيرة، حتّى إنّ الوثائق الألمانيّة قد نسبت شراسة المقاومة للأنصار، «وللّصوص» البولونيّين الذين سارعوا لنجدة الثائرين. ولكنّ اليهود ينكرون ذلك. فالمقاومة الآريّة قد أنقذت بعض المقاتلين، ولكنّ البريغادفوهرر من جهة أخرى، قد أطرى في تقريره الشرطةَ البولونيّة «التي ساعدت بعزم فريد على قمع ثورة الحيّ اليهوديّ».

هنالك كارثة أخرى: وظاهرة واقعيّة رهيبة كانت تشيع الاضطراب في «بولونيا». فلقد عُرف نهائياً ماذا حلّ بالعشرة آلاف ضابط البولونيّين الذين أسرهم الروس في ١٩٣٩. أجل، فقد كانوا يرقدون تحت الأشجار في غابة «كاتين»!

كانت الحكومة البولونيّة والصليب الأحمر الدوليّ يبحثان عن هؤلاء المفقودين منذ ثلاث سنوات. وكان الجنرال «سيكورسكي» قد طرح السؤال على «ستالين» بهذا الصدد أثناء زيارة قام بها «لموسكو». فأجاب «ستالين»



الوصول إلى معسكرات الإفناء !



بلهجة ساخرة: «إنّني إخال بولونييّك قد لاذوا بالفرار عبر «منشوريا». وفي شباط ١٩٤٣ . عندما اكتشف الألمان ثماني حفر مشتركة بالقرب من «سمولنسك». لم يخامر الشعب البولونيّ أدنى الشكّ في المسؤولين عن تلك المجزرة الرهيبة. .

لقد خلقت الانتصارات الروسيّة وضعاً رهيباً بالنسبة للمواطنين البولونيّين. فالمنقذ الذي كان يتقدّم بخطى واسعة كان عدوّاً تاريخيّاً لديه من العزم والعسف ما للألمانيّ ذاته. وأمّا الصديق الحقيقيّ فكان ذلك الإنكليزيّ البعيد العاجز. وعلى أثر هلاك «سيكورسكي» في حادث طائرة. ارتفع صوت خلفه الضعيف «ميكولاجيك»، ليرتطم بالآداب الإنكليزيّة والأميركيّة حيال الحليف السوفياتيّ. مستنزلاً عليه من جرّاء ذلك تعنيفاً قاسياً من «روزفلت» وحتّى من «تشرتشل» نفسه. فقد كان يطالب بحدود «بولونيا» الشرقيّة، كما رُسمت سنة ١٩٢٠، في الوقت الذي كان فيه الأميركيّون والإنكليز قد أقرّوا «لستالين» بصلاحيّة معاهدة التقسيم التي وقّعها مع «هتلر». وأمّا استعادة الحريّات الديمقراطيّة فلم تكن أقلّ معضلة من إعادة الحدود الإقليميّة؛ فقد أقامت «موسكو» سلفاً في «لوبلين» الحكومةَ الموالية التي يبتغونها «لبولونيا». وكما كانت الحال بالنسبة «لفرنسا» كانت المقاومة تتّخذ شكلَ حرب أهليّة، ولكن، على خلاف «فرنسا»، كان الجيش الأحمر مقبلاً وهو بمثابة السلطة المدنيّة للشيوعيّة حاملاً معه فوق دبّاباته هدم النظام الطبقيّ وسيطرة الطبقة العاملة.

كان الحظّ الضئيل الوحيد في إيجاد «بولونيا» حرّة كامناً في الانبعاث تلقائيّاً إبّان التحرير. ومن ثمّ، وبمعونة الحلفاء الغربيّين، التفاوضِ مع «الاتّحاد السوفياتيّ» لإيجاد تدبير لائق. وأكبّ رؤساء الجيش السريّ على هذه الأعجوبة يسعون إلى تحقيقها؛ فراحوا يجهدون، وهم العسكريّون المحترفون، في إحلال الانضباط الصارم ومبادىء غير مبادىء الإرهاب بين جنودهم العاملين في الخفاء، إذ كانوا يبتغون ثورة منظّمة تتّخذ قالباً عسكريّاً، وتعمل على إقامة نظام قانونيّ على وجه السرعة.

وكان اسم المخطّط العام «بورزا»، أي «عاصفة». وكان القائد الأعلى الذي حمل اسم الجنرال «بور»، هو الكولونيل «كوروموفسكي» عينه، ذاك الذي أصغى لصوت ضميره فبقي على أرض الوطن ساعة أراد الانتقال إلى «المجر». وتركت له الحكومة البولونيّة في «لندن» مجال الحكم على الساعة المناسبة لمباشرة التنفيذ. لم يكن «الكرملين» قد أعطى أيّة ضمانات، إلاّ أنّ الجيش الأحمر على أبواب العاصمة، وقد احتلّ نصف «بولونيا» كما كانت سنة ١٩٣٨. فالثورة يجب أن تندلع للحال. وإلاّ فلسوف تفوت السانحة أبداً. لقد بدأ الألمان ينصرفون، وقد احتجبت صحفهم عن الصدور، وأغلقت مكاتبهم، وراح أتباعهم يحتشدون في القُطُر الأخيرة. وكان جنودهم يجتازون جسور «الفيستول» مشتّتين، وقد ساق بعضهم أمامه بقرة، وهي آخر احتياط من المطبخ السيّار! وأمام لوحة الهزيمة تلك عصفت بسكّان «فرصوفيا» غبطة مثيرة. فالثورة. والحالة هذه. ستندلع من تلقاء نفسها إن لم يصدر «بور» أوامره بالثورة. وفي أيّ حال كانت الإذاعة السوفياتيّة تحثّ البولونيّين بلا انقطاع على حمل السلاح، موعزة إليهم بأن يهاجموا العدوّ الممقوت من كلّ صوب. وبكلّ وسيلة من وسائلهم.

كانت القوّات الألمانيّة في «فرصوفيا» مكوّنة من جند المرحلة ومن تشكيلات الشرطة والأركان العامّة فحسب. ومع ذلك لم تكن مكاسب التمرّد الأولى مرضية إلاّ جزئيّاً؛ فحوصرت المباني التي كانت تحتلّها الإدارات الألمانيّة، ولكن لم يتمّ الاستيلاء على واحد منها قطّ؛ وهوجم المطاران من غير جدوى؛ وبعد ما تمّ احتلال المحطّة المركزيّة برهة من الزمان، عادت إلى أيدي الألمان. وأمّا الكتيبة التي كانت مكلّفة بالاستيلاء على ضاحية «زوليبورز». فقد أخفقت في محاولتها الأولى. وتحتّم عليها أن تذهب لإعادة تنظيم صفوفها في غابة «كامبينوس» المتاخمة للمدينة. إلاّ أنّ أكثر الإخفاقات خطورة كان العجز عن الاستيلاء على جسور «الفيستول»؛ فضاحية «براغا»، وهي إلى شرقيّ النهر، وعلى بعد ١٠ كلم من المقدّمات السوفياتيّة، قد بقيت، والحالة هذه، منفصلة عن معقل الثورة الرئيس؛ فعمدت الدبّابات الألمانيّة إلى سحق العصيان فيها في بضع ساعات.

وعلى نقيض ذلك كان الجنرال «بور» سيّد «ستاري مياستو»، والجزء الأكبر من قلب «وولا» ومن حيّها العمّاليّ. وإن كانت الجسور قد بقيت بعيدة المنال، فقد أوقفت حركة النقل على «الفيستول» بصورة تامّة، بعد ما كانت تشمل في الليلة السابقة مئتي قطار. واستولى الثوّار على مخزونات من المؤن كبيرة حلّت موقّتاً مشكلة التموين، وعلى كميّة من الأسلحة، وحتّى على دبّابتين من طراز «تيغر» أصلحتا تحت القنابل. وأصبحتا بذلك العنصر المصفّح الأوّل للجيش البولونيّ المنبعث. وأبلغ «بور» «لندن» أنه قادر على المقاومة حتّى دخول الجيش السوفياتيّ إلى «فرصوفيا».

ولكنّ حادثاً غير منتظر قد وقع؛ فقد حشد المارشال «مودل» شخصيّاً قوّة إجهاز تضمّ الفرقتين المصفّحتين ٤ و١٩، وفرقة المظليّين «هيرمان غورنغ»، وفرقة الصاعقة «فايكنغ». وأمّا الفيلق السوفياتيّ الثالث المدرّع، الذي كان قد وصل إلى «فولومين» كالسهم، فقد أبيد من ٣١ تمّوز إلى ٣ آب. فضربة الإيقاف هذه كانت محكمة التسديد، ولكن لم يكن لدى «مودل» مشاة لاستغلالها، ولا وقود لإعادتها. وفي ٥ آب تلاشت الأزمة. فقد استُدعيت قوّات الصدام نحو الشمال، حيث كان الخطر على «بروسيا الشرقيّة» يتفاقم؛ ولم يبقَ أمام رأس جسر «براغا» غير فرقة للمشاة خائرة، وبعض عناصر الفرقة المصفّحة ١٩.

ولكنّ قرار «ستالين» قد اتّخذ؛ ففي ٣ آب استقبل «ميكولاجيك» الذي قدم من «موسكو» في محاولة أخيرة للتفاوض. وعندما طلب الرئيس البولونيّ من «ستالين» نجدة الجيش السريّ أبدى تعجّباً صاخباً، فقال: «على أيّ جيش تتكلّم؟ ما قيمة جيش لا مدفعيّة له ولا دبّابات ولا طيران؟» فالماكر الذي أصدر في ١٩٤١ مرسوم حرب العصابات «مشياً وعلى ظهر الخيل»، ما يزال يصدر للشعوب الأوروبيّة كافّة، وللبولونيّين خصوصاً، أمر العصيان بقبضاتهم المجرّدة، ولكنّه يرفض الاعتراف بالرجال الذين استولوا على «فرصوفيا»، وحجّته أنّهم لا يملكون الاعتدة الكاملة التي يتميّز بها الجيش!

في «فرصوفيا» لاحظ السكّان أنّ ثمّة تحوّلاً قد طرأ على مجرى المعركة: فالمدفع الروسيّ، الذي كان يدوّي على ضفّة «الفيستول» اليمنى منذ ٢٥ تمّوز، قد همدت أنفاسه. وأمّا الطائرات السوفياتيّة، التي كانت تسيطر على السماء قبل الثورة، فقد تلاشت. وراحت تشكيلات صغيرة من طائرات «شتوكا» تضرم النار في المدينة بأمان تامّ. وفي ٤ آب، ولأول مرّة، أنزلت طائرتان بريطانيّتان بالمظلاّت بعضَ صناديق الأسلحة والذخيرة، وذلك بفضل مبادرة طيّاريهما البولونيّين ولا ريب. وفي الليالي التالية عادت طائرات أخرى تنقل الحدّ الضروريّ الأدنى لتمديد المقاومة. كانت القواعد الجويّة الروسيّة على مسافة بضع دقائق، إلاّ أنّ رصاصة سوفياتيّة واحدة لم تُقدَّم لمقاتلي «فرصوفيا».

وثارت ثائرة «تشرتشل»، فراح يحرّض «ستالين»، لافتاً نظره إلى السخط وإلى الموجة المعادية للسوفياتيّة اللذين تولّدا في «إنكلترا» بسبب التخلّي عن الثوّار. وأجاب «ستالين» بأنّ حكومته إنّما تريد التنكّر «للمغامرين، ولتلك الزمرة المجرمة». وطالب «تشرتشل» عندئذ بأن يُسمح

لطائرات الجوّ الملكيّة التي تموّن «فرصوفيا» بالهبوط في «بولتافا». كما تفعل الطائرات التي كانت تسحق «ألمانيا» ذهاباً وإياباً. فكان رفض ستاليني جديد. وأمّا «روزفلت»، الذي لم يكن قد عاضد رئيس الوزارة إلاّ بتحفّظ . فقد تراجع سريعاً إذ قال: «أنا لا أرى بالإمكان أن نسعى أكثر من ذلك...» وحسب التاريخ الرسميّ لسلاح الجوّ الأميركيّ. كان موقف قادة الطيران الأميركيّ الكبار أصرح من هذا، فطالبوا بقطع مهمّات التموين عن البولونيّين «لأنّ من شأنها أن تعرّض علاقاتنا الطيّبة مع السوفيات للخطر ...»

في «فرصوفيا» اتّخذ القتال أشكالاً وحشيّة. وقال المارشال «مودل»: «إنّ على أولئك الذين سبّبوا العصيان بفسادهم ووحشيّتهم أن يقمعوه بأنفسهم. فهذا ليس من شأننا نحن الجنود.» وعلى الرغم من هذا التصريح كان على الجيش الألمانيّ أن يتدخّل لتوجيه العتاد الخارق القوّة الذي استُعمل لإخضاع المدينة : دبّابات «تيغر»، آليّات موجّهة «غوليات»، قطع من عيار ٣٨٠، وحتى مدافع الهاون الهائلة «كارل» من عيار ٦٠٠ مم، التي تطلق قذائف من زنة طنّين تسحق مجموعة بيوت كاملة. ولكنّ العمليّات كانت بإمرة «هملر»، وشاة القمع تضمّ مجرمين لئاماً: فوج الصاعقة «ديرليفانجر»، وأعضاؤه جميعاً من مجرمي الحقّ العامّ، والكتيبة الروسيّة «كامينسكي»، المختصّة بإبادة الأنصار، إلخ. وفي حيّ «وولا» ارتُكبت أعمال الشطط التي يعجز عن وصفها القلم واللسان، فأبيد مرضى المستشفى عن بكرة أبيهم بصورة وحشيّة، وكذلك المصابون بالسرطان في معهد «كوري». ورفض «بور» الاقتصاص من الأسرى الألمان فلقوا لديه معاملة مطابقة لقوانين الحرب، باستثناء بعض الحالات القليلة .

استمرّ القتال طوال شهر آب . وأعلن الروس والألمان غير مرّة أنّ مغامرة «فرصوفيا» قد صُفّيت أمرها، وفي كلّ مرّة كانت محطّة إذاعة «بليسكافيكا» تذيع تكذيباً طنّاناً . واستعاد الألمان السيطرة على «وولا» وعلى الحيّ اليهوديّ القديم. غير أنّ «بور» لم يُخلِ «ستارا–مياستو» إلاّ في ٢٩ آب، من خلال المجارير، مخلّفاً وراءه تاريخ «بولونيا» التي غدت كتلة من أطلال . كان الثوّار ما يزالون يسيطرون على وسط المدينة من حدائق «ساكس» إلى منتزه «لازينيكي»، وكذلك على ثلاث مناطق داخليّة هي : «زوليبورز» إلى الشمال التي أعادوا احتلالها؛ وإلى الجنوب «موكوتوف» و «تشيرنياكوف» .

ولكنّ الوضع كان يتأزّم يوماً بعد يوم . فهنالك ٢٠ أو ٣٠ حريقاً تستعر باستمرار ، وقد غدا الماء نادراً للغاية؛ وكان الطقس بالغ الحرارة؛ وكانت رائحة الجثث التي دُفنت كيفما اتّفق، أو التي لم تُدفن إطلاقاً، تسمّ حجاب الدخان الذي كانت المدينة تقضي تحته أيّامها ولياليها ، وراحت الديزنتاريا ترهق الأجساد، وكان شعور العزلة، وتحقير راديو «موسكو» يملآن القلوب غمّاً. ومع ذلك، لم يصغ «بور» لإنذار الأوبيرغروبنفوهرر «فون ديم باخ–زالفكي» الذي عرض على الثوّار معاملتهم بموجب قوانين «لاهاي» إذا هم استسلموا، متوعّداً بإبادتهم إذا هم أصرّوا على المضيّ في قتال يائس.

في ٤ أيلول دُمّر مصنع الكهرباء تدميراً كاملاً، بعدما بقي يعمل تحت القذائف منذ بداية الثورة. وفي ٥ استبدّ الذعر «بوفيسلا»، وهو حيّ على ضفّة «الفيستول». وحصل «بور» على وقف لإطلاق النار مدّته بضع ساعات ليتيح للمدنيّين فرصة مغادرة العاصمة؛ ولكنّ بضعة آلاف من السكّان فحسب استفادوا من هذه السانحة .

وفي ١٠ عاد المدفع الروسيّ فجأة إلى القصف. وفي ١٣ تسلّقت حشود جريئة سطوح المباني العالية التي صمدت في وجه القصف، لتشاهد الألمان والروس يتقاتلون في طرقات «براغا». وفي اليوم نفسه عادت آخر دبّابات الفرقة الألمانيّة المصفّحة ١٩ للعبور إلى الضفّة اليسرى. وبعد ذلك تفجّرت الجسور جميعها. وقامت كتيبة من فرقة «برلنغ» البولونيّة، كانت تعمل مع الجيش الأحمر، باجتياز «الفيستول» الذي كانت مياهه كثيرة الانخفاض، ولكنّها بدلاً من أن تقيم الاتّصال بالثوّار، عادت إلى الانسحاب معجلةً. كان هنالك خطّ هاتفيّ واحد بقي قائماً مع «براغا»، فحاول «بور» استخدامه للاتّصال «بروكوسوفسكي»، ولكنّه لم يتلقّ جواباً. وتعطّل خطّ الهاتف. وصمت المدفع الروسيّ. وهمدت كلّ حركة على الضفّة اليمنى . وعادت الطائرات الروسيّة إلى الاختفاء . وبقي حصار «فرصوفيا» مستمرّاً .

في ١٦ أيلول سقطت منطقة «تشيرنياكوف». واحتلّ الألمان شارع «جيروزوليمسكايا»، وبذلك شطروا القطاع الوسط شطرين. كانت آخر حصّة قد وُزّعت على الجنود؛ وقد بدأ المدنيّون يموتون عطشاً .

بقيت هنالك ساعة كبرى. ففي ١٩ أيلول، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، غادر السكّان جميعاً ملاجئهم، غير مبالين بشظايا المدفعيّة المضادّة للطائرات التي كانت تتطاير وتهطل وابلاً كالبَرَد. كانت الصبيحة رائعة، وكان المشهد عجيباً فريداً: فقد قامت ١١٠ طائرات من طراز «ب–١٧» بعمليّة إنزال في «فرصوفيا» بواسطة المظلاّت: فألقت بـ ١،٨٠٠ صندوق. وقال «بور» إنّ تسعة من كلّ عشرة صناديق قد سقطت في الأحياء التي كنّا نحتلّها لبضعة أيّام خلت ...

ولسوف يصمد «بور» حتى ٢ تشرين الأوّل. وهو اليوم الرابع والستّون للحصار. وبعد ذلك : وبعد ما جدّد الألمان عرضاً للاستسلام مشرّفاً، أذعن للأمر الواقع.

في تلك المرحلة من أوائل تشرين الأوّل ١٩٤٤، كانت «فنلندا» قد وقّعت مع «روسيا» معاهدة صلح تؤمّن لها البقاء . وفي البلاد البلطيقيّة تمكّن الألمان من فكّ أسر مجموعة جيوشهم الشماليّة، ولكنّ «هتلر» رفض أن يعيد إلى «ألمانيا» المهدّدة قوّات «شورنر» . وفي «بولونيا» عرفت الجبهة استقراراً على «الناريف» وعلى «الفيستول» وعلى «الفيسلايا». وصرّح «هتلر» مجدّداً : «لقد ولّى الصعب ...» وقال كذلك: «لقد كنت مصيباً . فمصير الحرب يتقرّر الآن في الجنوب» .

وفي سبيل الدفاع عن «رومانيا» كان «هانس فريسنر» يقود مجموعتين: «مولدافيا»، وهي بإمرة الكولونيل–جنرال «فوهلر»، و «بيسارابيا»، التي أوكل أمرها الرومانيّ «ديميتريسكو». وكانت قوّاتهما تضمّ الجيش الألمانيّ الثامن في مجموعة «فوهلر»، والجيش الألمانيّ السادس في مجموعة «ديميتريسكو»؛ والجيش الرومانيّ الثالث في المجموعة الأولى ؛ والجيش الرومانيّ الرابع في الثانية . وكان المجموع يشكّل قوّة لا يُستهان بها، أي ٢٣ فرقة رومانيّة، و٢١ فرقة ألمانيّة، منها فرقتا المصفّحات ١٣ و ٢٠ .

منذ الأيّام الغابرة من معارك «الدون» كانت القوّات الرومانيّة قد تخاذلت مراراً عدّة . وعلى نقيض ذلك، كانت الجبهة الداخليّة قد بقيت متماسكة. ومع أنّ الديكتاتور «أنطونيسكو» قد تكبّد خسائر فادحة، ومع أنّ وطنه قد تفكّك على يد «ريبنتروب»، فقد بقي مخلصاً للتحالف الألمانيّ. وكان المليك الشابّ تافهاً تماماً، ولم تكن هنالك أيّة خشية من بأسه. وأمّا الملكة الأم، التي عادت إلى «رومانيا» بعد استقالة زوجها، وذهاب المحظيّة المشؤومة «ماجده لوبيسكو»، فقد كانت معادية للألمان، ولكن بحذر. وأمّا «جول مانيو»، الرئيس السابق لحزب الفلاّحين، فقد كان في الظاهر يتوق للنسيان. وكان السفير الألمانيّ في «بوخارست»، «فون كيلنجر»، وهو قائد غوّاصة سابق، واثقاً من موقف «رومانيا». قال: «إنّ المارشال «أنطونيسكو» ينعم بمؤازرة الشعب والملك. لا خوف من قيام أيّة أزمة حكوميّة ...» وقد كانت «لهتلر» به ثقة مماثلة؛ قال:



الدبّابات السوفياتيّة تدخل إلى «بوخارست» .

«سوف أبقى ناعم البال ما دام «أنطونيسكو» باقياً هناك» . وقد قال «انطونيسكو» نفسه «لغوديريان» معلّقاً على محاولة ٢٠ تمّوز : «لا مجال للتفكير بحدوث خيانة كهذه عندنا. فبإمكاني أن أنام هانئاً، ورأسي بين أقدام جنرالاتي ....»

هاجم الروس في ٢٠ آب . فقامت جبهة «أوكرانيا» الثانية بقيادة «مالينوفسكي» ضدّ «فوهلر» . وقامت جبهة «أوكرانيا» الثالثة بقيادة «تولبوخين» ضدّ «ديميتريسكو» . سدّد الأوّل ضربته إلى ما بين «البروث» و «السيريث»، باتّجاه الجنوب، وضرب الآخر ضربته منطلقاً من رأس جسر على «الدنييستر» ، باتّجاه الغرب . وكان المجهودان متّجهين نحو «غالاتس»، وهما يهدفان إلى تطويق ناتئة «كيشينيف». وكان «أنطونيسكو» نفسه قد طلب إخلاءها، عارضاً التضحية بأرض رومانيّة لتقصير الخطوط والإفراج عن قوّات الاحتياط ، ولكنّ «هتلر» لم يرضَ بذلك .

لم يصب أيّ هجوم سوفياتيّ من قبل ما أصابه هذا الهجوم من نجاح سهل. فمنذ ٢٣ ، أقام «مالينوفسكي» و«تولبوخين» اتّصالهما على «البروث» بين «ليوفا» و «كاهول». لم يقاتل الرومانيّون قط. وفي بعض الأماكن ارتدّوا على حلفائهم! وقد فُقدت ستّ عشرة فرقة ألمانيّة، بعدما قُطع عليها سبيل التراجع .

لم يكد نهار الكوارث هذا ينقضي حتّى كانت الصاعقة تشقّ مقرّ «فريسنر» العامّ في «سلانيا»، ومن ثمّ مقرّ «هتلر» العامّ في «رستنبورغ». فالملك «ميشال» قد استدعى المارشال «أنطونيسكو» وأوقفه في داخل القصر الملكيّ. إنّ هذه المكيدة لصورة طبق الأصل عن تلك التي أودت «بموسوليني» من ناحية البواعث ومن ناحية المظاهر على السواء: فالملكيّات قد رضيت بالطغاة في الزمن الذي كانوا فيه يجرّون عليها السطوة والفائدة، ولكنّها أدركت مع تقلّب الأوضاع هول السلطة الشخصيّة، وفي مجهود يائس لتمديد البقاء المتجسّد فيها راحت تقضي على الرجال الذين ربطت مصيرها بمصيرهم!

ولكنّ الفارق مع الصيف المنصرم هو أنّ الأمور هنا كانت تسير بسرعة . فالروس على وشك الوصول؛ ومنذ الساعة ٢٠ طلبت الحكومة الرومانيّة الجديدة الحصول على هدنة. وأبرق الجنرال «غرستنبرغ»، الملحق الجوّيّ الألمانيّ، يقول إنّ الانقلاب من فعلة «زمرة ضئيلة من الجبناء». وأمر «هتلر» بإذلال هذه الزمرة، وأمر الطيران الألمانيّ بقصف القصر الملكيّ، محدثاً تأثيراً شديداً، ولكن قليلاً من الأضرار. وكانت ردّة الفعل هي إعلان «رومانيا» الحرب على «ألمانيا»، وإصدار أمر إلى القوّات الرومانيّة بمهاجمة الألمان! ونتج عن ذلك فوضى غامرة: راح السوفيات يتقدّمون خلالها من غير أن يلقوا أيّة مقاومة، وانهار كلّ شيء وسط الركام!

سقطت «بلويستي» وحقول النفط في ٢٩ آب؛ وسقطت «كونستانزا» في ٣٠، و«بوخارست» في ٣١. وفي ٥ أيلول أقام الروس الاتّصال مع عصابات «تيتو» في «تورنو-سيفيرين». وكان البلغاريّون قد حذوا حذو «رومانيا»، فأعلنوا الحرب على «ألمانيا»، ولكنّ «روسيا» أعلنت الحرب عليهم، ولم يتمكّنوا من تفادي احتلال بلدهم احتلالاً كاملاً . وفي أوائل آب كان «هتلر» قد أعرب مجدّداً للمارشال «فون فايخس» عن عزمه على الدفاع عن «البلقان» بكاملها؛ وإذ به الآن مرغم على إصدار الأوامر بالجلاء المعجل عن «كريت» و«اليونان» و«يوغوسلافيا». واجتيزت «الكربات» من غير قتال، وتمّ اجتياح «المجر»، وراحت الحرب ترهق «ألمانيا» في الجنوب ومن الشرق في آن معاً !

مسيرة مزدوجة باتّجاه "طوكيو"

لا بدّ من عودة وجيزة إلى المحيط الهادىء، لنشهد حرباً تدور رحاها على مسرح جغرافيّ أوسع كثيراً، ولكنّها تسير بخطى أبطأ كثيراً.

في ١٢ آذار ١٩٤٤ قرّر رؤساء الأركان الستراتيجيّة الأميركيّة الخاصّة بالمحيط الهادىء. فثمّة عمليّة تنتهي، هي إخضاع «رابول»؛ وهناك عمليّتان أخريان تبدآن، هما مسيرتا الجنرال «ماك أرثر» والأميرال «نيميتز» المتوازيتان باتّجاه «طوكيو» . ففيما يسير الأوّل عبر الهادىء الغربيّ، يمضي الثاني عبر الهادىء الأوسط . وقرّ رأي المخطّطين الأميركيّين أخيراً، وقد أدركوا ضخامة القوّة الموضوعة تحت تصرّفهم ، على اعتماد طريقين منفصلتين في آن معاً : ففيما يعمد «ماك أرثر» إلى طريق الأدغال، أي «غينيا الجديدة» و «المولوك» و «الفيليبين»، يلجأ «نيميتز» إلى طريق جزر المرجان، أي «المارشال» و «الماريان» و «الكارولين» و «البونين» .

أمّا الشريك الثالث فهو الجنرال «ستيلويل»، الذي ما فتىء يتخبّط في «تشونغ-كينغ» بين الدسائس الصينيّة ونظريّات «واشنطن». أمّا العمليّات، التي أخترتها معارضة «تشرتشل»، فقد بدأت في «برمانيا» وهدفها الإفراج عن «تشانغ كاي تشك»، وإضرام نار الحرب من جديد في «الصين»، والتمهيد لغزو «اليابان».

أصبح تعطيل «رابول» أمراً واقعاً، فهناك سحبٌ من قاذفات القنابل تنطلق بانتظام لتسحق ذاك المرفأ الصغير الذي غدا، برهةً من الزمن، محور الحرب الدائرة في المحيط الهادىء، وتأتي البوارج الأميركيّة، بين الحين والحين لتتدرّب على قصف «رابول». تحت هذه الضربات كلّها لم تبقَ القاعدة الجويّة البحريّة صالحة للاستعمال قطعاً، وعلى كلّ حال، لم يكن لها معنى إلاّ كمنطلق هجوميّ على «زيلندا الجديدة» و«أوستراليا»، والحال أنّ اليابانيّين قد تخلّوا منذ زمن بعيد عن أيّة فكرة توسّعيّة جديدة، وكلّ ما باتوا يفكّرون به الآن هو الدفاع عن محيط حيويّ معلوم.

ومع ذلك لم يجلوا عن «رابول». فقد حفروا تحت الجبال ٥٠٠ كلم من الأنفاق والسراديب، ولم تلحق بحاميتها عمليّاتُ القصف التي عطّلت القاعدة سوى خسائر طفيفة. أمّا القيادة الأميركيّة التي تتوخّى حقن الدماء فقد تخلّت عن فتح لا ترى فيه إلاّ إرضاء لهيبة ونفوذ. وهكذا انتظر يابانيّو «بريطانيا الجديدة» و«ايرلندا الجديدة» الـ ١٠٠،٠٠٠ المحاصَرون الجياع نهايةَ الحرب وأمر الأمبراطور ليستسلموا!

إطمأنّ «ماك أرثر» من ناحية «رابول»، وغدا بوسعه أن يباشر مسيرته باتّجاه الغرب. ولقد تمكّن، بالرغم من إزعاج «واشنطن» بدويّ شكاواه، وبالرغم من مواصلة تغذيته للرأي العامّ المتحبب المستنكر من تضحية «الهادىء» على حساب «أوروبا»، من حشد قوّات ضخمة مهيبة في منطقة جنوب شرقيّ المحيط الهادىء، فارتفع عدد الرجال الخاضعين لإمرته إلى ٧٥٠.٠٠٠ بين طيّارين وبحّارة وجنود، فالأوّلون يشكّلون سلاح الجوّ الخامس بقيادة الجنرال «جورج ك. كيني»، ويؤلّف البحّارة الأسطولَ السابع الذي يقوده الأميرال «توماس ك. كنكايد»، ويؤلّف الجنود ٨ فرق أميركيّة، و٧ فرق أوستراليّة، يقودها اسميّاً الجنرال الأوسترالي سير «توماس بلامي»، بيد أنّ شخصيّة «ماك أرثر» المسيطرة المهيبة كانت تركّز وتنسّق وتحيي كلّ شيء.

لم تكن الحرب حتى ذلك الحين قد لامست إلاّ قليلاً ذاك العالم الضخم الشرس الذي تشكّله «غينيا الجديدة». فالساحل الجنوبيّ وحده كان مسرح العمليّات. فقد نثر اليابانيّون قواعد جويّة وبحريّة صغيرة على طول الخلجان النادرة، وعلى الجزر النادرة، وعلى السهول الساحليّة النادرة. أمّا فكرة «ماك أرثر» في المناورة فتقوم على تخطّي بعضها، واحتلال بعضها الآخر قصد التقدّم. انطلاقاً من مركز استناد إلى مركز آخر، على غرار متسلّق الجبال الذي يتسلّق القنّة الصخرية الشاهقة متنقلاً من نتوء إلى نتوء. ولدى وصوله إلى «فوجيلكوب»، شبه الجزيرة التي تشبه بشكلها رأس عصفور، وتنتهي بها «غينيا الجديدة» ناحية الغرب، لن تكون «مندناو»، وهي أقرب جزر «الفيليبين»، إلاّ على بعد ٥٠٠ ميل بحريّ. تنتشر خلالها جزر أرخبيل «المولوك» انتشار الحجارة في مجاز النهر.

في ٢٠ نيسان ١٩٤٤ أبحرت من «فنشهافن» قوّة برمائيّة جبّارة، وغادرت وسط المحيط الهادى حاملاتُ الطائرات التابعة للأسطول الخامس التي أعارها «نيميتز» لتساعدها وتحميها. ولقد استُخدمت الحيل الكلاسيكيّة كلّها لإخفاء وجهة سيرها. ولم يكن اليابانيّون في أيّة حال ليتوقّعوا هجوماً على غير القواعد الثلاث التي بقيت في حوزتهم في القسم الشرقيّ من «غينيا الجديدة»، وهي «مادنغ» و«هانسا باي» و«ويواك». وكان الجيش الثامن عشر الصغير، بقيادة الجنرال «هاتزو أداشي»، يسهر متيقّظاً على تيك القواعد، بانتظار وصول بعض النجدات ليسدّ بها الثغر التي فتحتها في صفوفه هزائم «بابوازيا». أمّا بسالة «ماك أرثر» فقامت على القفز فوق هذا الحشد المعادي للبروز غرباً في قطاعات أقلّ تحصيناً.

لم تكن «هولنديا»، الواقعة على ٦٠٠ ميل غربيّ «هنساباي»، لتتوقّع شيئاً. وقد كانت هذه المحلّة البالغة الصغر، الواقعة على خليج «هومبولت» أفضل خلجان الساحل، سوقاً لطيور الجنّة، ولقد هُجرت تقريباً منذ أفول تلك التجارة الشعريّة. ولم يلقَ فيها اليابانيّون غير جماعة من المرسَلين بينهم بضعة ألمان أرادوا التوسّل بالمحالفة فعوملوا بوحشيّة لم يُعامل بها المرسلون الهولنديّون أو الانكليز! كانت مطارات ثلاثة قيد البناء في الداخل، بين خليج «هومبولت» وخليج «تاناميره»، وراء الشاشة السامقة الكثّة التي ترسمها سلسلة «السيكلوب» الساحليّة، وأمام بحيرة «ستاري» الموحلة المتعرّجة. سارت الأعمال مدّة طويلة ببطء واسترخاء، إلاّ أنّ الانتصارات الأميركيّة قد بعثت فيها النشاط، ووصل الأميرال «يوشيكازو إندو» قبل ذلك بأيّام كي يستحثّ نخوة العمّال.

أتت المفاجأة تامّة. ففي «هولنديا» وجد الأميركيّون أرزّ الفطور اليابانيّ ساخناً! وبعدما حجّرت المذلّةُ الأميرالَ «إندو» أوّل الأمر، ارتدى بزّته الرسميّة وذهب نحو جبال «سيكلوب» حيث فُقد أثره إلى الأبد. وفي خليج «هومبولت»، حيث نزلت الفرقة الـ ٤١، لم يبدُ أيّ أثر للمقاومة. ولم تلق الفرقة ٢٤، التي نزلت في خليج «تاناميره»، غير مقاومة الطبيعة. ظنّ النازلون أنّ بوسعهم استخدام شاطئين تفصل بينهما ثلاثة كيلومترات، فإذا الأوّل، وهو الشاطىء رقم ١، يتّصل بمستنقع لم يُحسب له أيّ حساب، وإذا بالرجال الذين يلجونه يغرقون كالحجارة في بحر من الخضرة بدا ثابتاً كالمرج. ومع هذا غامرت سريّة تابعة للواء المشاة ٢١ بالنزول باحثة عن طريق يصلها بالشاطىء رقم ٢، فاقتضى اجتيازها الكيلومترات الثلاثة، أربعاً وعشرين ساعة. وأخيراً قرّر الأميركيّون العودة إلى سفن الإنزال للنزول في مكان آخر.

وفي اليوم التالي خدم الحظّ اليابانيّين خدمة مدهشة لا تصدّق، فقد تمكّنت قاذفة القنابل الوحيدة التي بدت في سماء «هولنديا» من إصابة مستودع للذخائر فأضرمت فيه ناراً هائلة، وانتزعت من الأميركيّين كميّات ظنّوا أنّهم قد استولوا عليها، ودمّرت جزءاً كبيراً من الذخائر التي حملوها. وبالرغم من هذا الحريق نجحت الحملة نجاحاً كاملاً. فقد التقت الفرقتان ٢٤ و ٤٠ في المطارات ولم تفقدا إلاّ ٢٤ قتيلاً، فيما أبيد أكثر من ٣،٠٠٠ يابانيّ طوردوا في الدغل. وما لبثت الأعمال، التي بوشرت في الحال، أن جعلت من «هولنديا» إحدى القواعد الكبرى في جنوب المحيط الهادىء.

وفي شرقيّ «هولنديا» نزلت كذلك الفرقة الـ ٤١ في مركز إرساليّة «إيتاب» الصغيره. كانت هذه الحركة ترمي إلى تركيز حامية جانبيّة في وجه الجيش اليابانيّ الثامن عشر الذي كان ينبغي ترقّب عودته العدائيّة. وما لبث فيلق بكامله، يقوده الجنرال «شارلز ب. هال»، أن التحق شيئاً فشيئاً بفوج المشاة ١٦٣ على مجرى «الدرينيومور» الذي يسيل بمياهه الطامية في دغل خانق. فقد أراد «ماك أرثر» أن يحمي مؤخّراته وهو يتابع تقدّمه نحو الغرب.

هكذا وُضعت الخطّةُ، وراحت تطبيقاتها تتتالى، ففي ١٨ أيّار استولى الأميركيّون على جزيرة «واكدي» الساحليّة، ثمّ عادوا إلى الساحل للاستيلاء على مركز «سارني» الإداري الصغير، بعدما خاضوا غمار معركة قاسية في فجاج «لون تري هيل». وحملتهم خطوتهم التالية، في ٢٧ أيّار، إلى جزيرة «بياسك» الواقعة وسط الخليج العميق الفاصل بين



الفرقة ٢٤ تنزل في خليج «تاناميره» .

كتلة «غينيا الجديدة» وشبه جزيرة «فوجيلكوب». فأمست «الفيليبين» على متناول قاذفات القنابل .

إلاّ أنّ أيّام الحرب لا تتشابه، «فبياسك» جزيرة ذات أرض صعبة كأداء. تكسوها نباتات ليس لرداءتها مثيل، وتتوارى فيها كُهوفٌ هائلة الاتّساع . فتبيّن أنّ قوّات الهجوم، التي تشمل فوجين تابعين للفرقة ٤١. ضعيفة: فيما قوّات الدفاع، الخاضعة لسلطة قائد نشيط هو الكولونيل «كوزومي»، كانت تضمّ فوج المشاة ٢٢٢، وهو أحد أفضل أفواج الجيش الامبراطوريّ. عرقلت التيّارات وصخور المرجان عمليّة النزول إلى البرّ، فشابَهُ بعضُ الفوضى. أمّا الأهداف فمطارات ثلاثة قد بُنيت جنباً إلى جنب في سهل صغير، وهي «موكمر» و«بورروكو» و«سوريدو»، ولكنّ الفجاج التي امتدّت دونها قد أوقفت المهاجمين وأرغمتهم على تنظيم مناورة ساقتهم إلى المرتفعات، وأرغمتهم بالتالي على استقدام أجناد جديدة، وحتى على استقدام جنرال جديد سبق له أن تميّز في «بونا» و«هولنديا» هو «إيشلبرجر»: فلم يسقط مطار «موكمر» إلاّ في ٨ حزيران: ولم يكن صالحاً للاستعمال نظراً لانبساطه تحت مواقع اليابانيّين .

لم يردّ اليابانيّون على هجومَيّ «هولنديا» و«واكدي». ولكنّ ما أبدته فصيلة «كوزومي» من بسالة في المقاومة أهاب بهيئة الأركان الامبراطوريّة العامّة أن تجعل من «بياسك» نقطة توقّف. فوُجّهت شطر «غينيا

جرحى أوستراليّون وأميركيّون يحيط بهم السكّان قرب رأس «أندياديرز».



الجديدة الغربيّة» أمداد جويّة بحريّة ضخمة. فأبحر اللواء الرابع البرّمائيّ من «الفيليبين» على متن سفن حربيّة، إلاّ أنّ قيادة العمليّة أتت تبيّن أفول البسالة اليابانيّة: فقد ارتدّت حملة أولى تتألّف من بارجة و٤ طرّادات و٦ مدمّرات على أعقابها في ٣ حزيران، بناء لتقرير خاطىء وضعه كشّاف خُيّل إليه أنّه قد أبصر بعض حاملات الطائرات. وأعادت المدمّرات الكرّة وحدها في حزيران. وهي تقطر قوارب مسطّحة تقلّ الجنود. فأغرقت تشكيلة من طائرات «ب-٢٥» «الهاروسامي». ثمّ لاذ الأميرال «ساكونجو» بالفرار مخلّفاً قواربه المسطّحة أمام أسطول يقوده الأميرال الانكليزيّ «كروتشلي»، فتعقّبه الكومودور «جاريل» بسرعة ٣٥ عقدة على رأس ٨ مدمّرات أميركيّة ، فأصاب «الشيراتسويو». إلاّ أنّ الليل . وأمراً بالعودة صادراً عن «كروتشلي» . قد تضافرا لإنقاذ الفرقة المعادية .

لم تكن «بياسك» في الواقع غير نسخة موجزة واهية عن «غوادالكانال»: فقد تمكّن بعض مقتحمي الحصار من إدخال ١:٢٠٠ رجل تقريباً. وهي قوّة أضعف من أن تبدّل مصير المعركة . سقط المطاران الأخيران في ١٨ و٢٤ حزيران، وتلت ذلك حربُ كهوف دامت حتى ٢٠ آب. فأسر الأميركيّون ٢٢٠ رجلاً من ١٠،٠٠٠ يابانيّ؛ أمّا الباقون فقد سقطوا صرعى الرصاص، أو انتحروا، أو ماتوا جوعاً .

ودارت شرقيّ «هولنديا» رحى معركة أخيرة؛ فقد تلقّى «أداشي» أمراً بإعادة جيشه الثامن عشر نحو «فوجيلكوب» بطريق الأدغال. لم يكن الأمر قابلاً للتنفيذ، فآثر أن يهاجم الخطوط الأميركيّة على «الدرينيومور». فتمكّن من عبور النهر في ١١ تمّوز؛ غير أنّ فرقه الثلاث لم تكن تضمّ غير ٢٠،٠٠٠ مقاتل، ففتكت بهم الحملة الأميركيّة المعاكسة فتكاً ذريعاً، فعاد «أداشي» إلى «ويواك» بحطام تنهشه الحمّى . وبعد «بياسك» استولى الأميركيّون على جزيرة «نويمفور»، وفي «فوجيلكوب» تركوا قاعدة «سورونغ» الرئيسة جانباً مكتفين بمدرّجيّ «مار» و«سنسبور» الجويّين. وختمت بذلك العمليّات الهجوميّة في «غينيا الجديدة». ولكنّ قنابل المدافع والطائرات أخذت في ١٥ أيلول تقصف جزيرة «موروتاي». فيما راحت قوارب الإنزال وسفنه تشقّ عباب اليمّ متّجهة إليها في خطوط باتت معهودة أليفة .

لم تكن «موروتاي» تعني بلوغ «الفيليبين» . ولكنّها «الملوك» على كلّ حال . وها هو «ماك أرثر» يقفل راجعاً .

"نيمَيتز في كواجالين" وفي "سايبان"

بدأت المسيرة إلى «طوكيو» عبر طريق الجزر المرجانيّة في تشرين الثاني ١٩٤٣، وذلك على أثر احتلال جزر «جلبرت». وكانت المرحلة الثانية هي أرخبيل «مارشال» الذي كانت مجموعات جزره الصغيرة الـ ٣٢ مبعثرة فوق مساحة تبلغ ضعفيّ مساحة «فرنسا». ما بين خطّيّ العرض الشماليّين ٥ و١٢ .

وهناك ندخل منطقة كانت «اليابان» تعتبرها. منذ مرحلة ما قبل الحرب. ملكاً شرعيّاً لها . بعدما منحتها جمعيّة الأمم انتداباً على «المارشال» و«الكارولين» و«الماريان» (باستثناء «غوام») . وكان اليابانيّون قد تجاهلوا فقرات الانتداب التي تحظّر استخدام الجزر عسكريّة؛ فبعد انسحابهم من جمعيّة الأمم، احتفظوا ببرودة با... الذي منحتهم إيّاه. وكانت «الماريان» أقرب الأرخبيلات الثلاثة إلى «اليابان». وأمّا «الكارولين»، التي كانت تمتدّ من الغرب إلى الشرق . فقد كان مركزها قاعدة «تراك» البحريّة الكبيرة التي

انطلق منها السهمُ اليابانيّ نحو «أوستراليا». وعلى مسافة ١٠٠٠٠ ميل إلى الشرق، وفي وسط الهادىء. كانت «المارشال» قائمة في منتصف الطريق ما بين «الفيليبين» و «هاواي».

قرّر الأميرال «نيميتز»، على الرغم من معارضة قوّاده، أن يهاجم قلب الأرخبيل نفسه. ألا وهو «كواجالين». وهو أكبر مجموعة جزر مرجانيّة في العالم. إذ يتألّف من ١٠٠ جزيرة صغيرة تنبثق من أرض تحدّ الشاطىء عن كثب، ويبلغ محيطها ٢٠٠ ميل. وكانت هنالك نقطتان لهما أهميّة عسكريّة. هما: «كواجالين» الواقعة جنوبيّ البحيرة. وجزيرتان صغيرتان تصل الواحدة بالأخرى كتلةُ أرض صخريّة. وهما «روا» و «نامور» إلى الشمال الشرقيّ.

إنّ الدروس التي لُقّنت في جزر «جلبرت» قد طُبّقت بصورة تامّة. فحمم النار التي راحت تنصبّ على كل واحد من الأهداف الثلاثة كانت تبلغ ثلاثة أضعاف ما أُغدق في «تاراوا». وقد استُخدمت موجات الهجوم في فرقة المشاة البحريّين الرابعة، في «روا» و«نامور». وكذلك موجات هجوم فرقة المشاة السابعة في «كواجالين»، بضعَ مئات من الجرّارات والدبّابات البرمائيّة فانقضّت على المدافعين الذين أصابهم القصف بالذهول. وأُطلق الهجوم في الساعة التاسعة من نهار ٣١ كانون الثاني. فكان اليابانيّون يموتون بسرعة. وفي غضون ٧٢ ساعة انتقل المدافعون الـ ٨٠٦٧٥ من الحياة إلى الموت، باستثناء ٢٦٥ أسيراً ثلثاهم من العمّال الكوريّين. ومن مجموع الـ ٤١،٤٤٦ من الجنود ومن مشاة البحريّة الذين اشتركوا في الهجوم كانت خسارة الأميركيّين ٢٧٢ قتيلاً ومفقوداً.

بالنسبة لليابانيّين كان هذا النصر الأميركيّ: الكامل والفائق السرعة مروّعاً، وقد بقيت قوّاتهم البحريّة والجويّة في «الكارولين» بلا حراك. وفي جزر «مارشال» نفسها سلمت ستّ من قواعدهم الثماني من الهجوم. ولكنّ شلّ حركتها كان فعّالاً لدرجة أنّه تعذّر عليها التدخّل. ولسوف يكتفي الأميركيّون فيما بعد بالاستيلاء على «إينيويتوك»، مهملين القواعد الأخرى حيث راحت الحاميات اليابانيّة تحتضر ببطء حسب القاعدة المرعيّة.

وقد برهن انتصار جزر «مارشال» للأميركيّين أنّ ستراتيجيّة جزر المرجان كانت مصيبة. فقد كانت تتطلّب جهوداً عنيفة، ولكنْ متباعدة ووجيزة. وكانت تمكّن من استغلال سيادة البحر وسيادة الجوّ بصورة شاملة. وهي كذلك تدفع بالغزاة نحو «اليابان» بوثبات عريضة ؛ وتسمح بأن تستخدَم في قصفها القاذفات الضخمة «ب ـ ٢٩» التي كانت قد خاضت ميدان الخدمة بعد تغلّبها على بعض الصعوبات. ولكنّ خاصّة الرجال الكبار هي تعامٍ ساذج عن كلّ ما يعارض مجرى أهميّتهم المطلقة. ففي الوقت الذي استولى فيه «نيميتز» على جزر «مارشال» لم يكن «ماك أرثر» قد تحرّك بعدُ نحو «هولانديا». وهو إلى ذلك قد أكّد أنّ التحرّك كان «اندفاعاً ضعيفاً»، وراح يطالب مرّة أخرى بأن توضع قوّات الهادىء بكاملها تحت إمرته، حين لم تبقَ هناك أيّة طريق ستراتيجيّة أخرى نحو «اليابان» غير طريقه هو. ألا وهي «الفيليبين»؛ وطالب أخيراً بالتخلّي عن العمليّات المخطّطة لإنجاز غزو جزر «جلبرت» و «مارشال». وتخلّلت شهر شباط مناقشاتٌ حادّة. ومهمّة عاصفة قام بها إلى «واشنطن» «ريتشارد ك. ساذ رلاند» رئيس أركان «ماك أرثر» العامّة. إلاّ أنّ إقناع الأميرال «كينغ» وحميّته سوف ينفّذان ستراتيجيّة الهادىء الأوسط.

في الوقت الذي كانت فيه عمليّة غزو «أوروبا» قيد الإنجاز، بوشر تحقيق عمليّة برمائيّة ضخمة أخرى في الطرف الآخر من «نورماندي».

العمليّات في المحيط الهادىء (شباط ـ آب ١٩٤٤)

ففي ٦ حزيران وفيما كانت أقدام جنود «أيزنهاور» تطأ شواطئ «كالفادوس» و«كوتنتان». كانت القوّة البحريّة ٥٨، التابعة للأميرال «ماك ميتشر»، تُقلع من قاعدة «ماجورو» المؤقّتة في أرخبيل «مارشال». كانت تضمّ ٨٧ سفينة قتال. منها ١٣ حاملة للطائرات و٧ بوارج سريعة، مؤلّفة اسطولاً من أروع الأساطيل التي شقّت عباب الأمواج. وكانت مهمّتها أن تؤمّن السلامة العامّة لقوّات الغزو التي كانت تسبح باتّجاه جزيرة «سايبان»، التي اختيرت لتكون نواة النزول الأوّل. ومن «كواجالين». وفي جزر الأميراليّة، راحت القاذفات البريّة، التابعة لأسطولي الجوّ ٥ و١١، تساند الفرقة لسحق القواعد اليابانيّة الواقعة على مجال يمكّن من التدخّل. وهي «بيليليو» و«ياب» و«بولاوات»، وخصوصاً «تراك». كانت تلك المهمّات بالغة الخطورة، بما فيها من طيران طويل الأمد خلال طريق العودة، فوق مساحات بحريّة موحشة، وفي طائرات مصابة في الغالب بأضرار المدفعيّة المضادّة للطائرات. ولكنّها كانت مستمرّة منذ شهور بدقّة تشبه دقّة الساعة.

في ظلال هذه القوّة المتمثّلة بالقوّةالبحريّة ٥٨وبالقاذفات، تحرّكت قافلتان هائلتان باتّجاه «الماريان». كانت القافلة الأولى، وهي القوّة البحريّة ٥١، تحمل من «هاواي» فرقتي المشاة البحريّين ٢ و٤، وفرقة الجيش السابعة. وكانت الثانية، وهي القوّة البحريّة ٥٢، تنقل من «غوادالكانال» فرقة المشاة البحريّين ٣. فكان هنالك ٧٧ ناقلة، و٣٤ سفينة شحن، و٤٤ سفينة إنزال، محمّلة بالجند والعتاد، وكان لها من المواكبة والمؤازرة أسطول ضخم آخر: ١٤ حاملة طائرات مؤازرة، ٧ بوارج قديمة، ١٢ طرّاداً خفيفاً وثقيلاً، ١٢٢ مدمّرة، الخ. لم تكن السفن الـ ٦٦٤ بمجموعها، وبما فيها القوّة البحريّة ٥٨، وعدد الجنود الذي بلغ ١٢٧،٥٤١، على مستوى العمليّة النورمانديّة، ولكنّ الرحلات البحريّة كانت أطول بعشرين أو ثلاثين مرّة: ٣،٥٠٠ ميل من«هاواي»، و٢،٤٠٠ ميل من «غوادالكانال». كان المجهود العامّ مماثلاً، ولكنّ الفارق الوحيد الذي يميّزه من النزول النورمانديّ هو أنّه كان أميركيّاً بكامله. إنّه تعبير عن قوّة لا يمكن وصفها، خصوصاً وأنّ هذه القوّة لم تكن موجودة منذ أربع سنوات، وأنّها قد وُلدت من غير أن تغيّر تقريباً وجه الحياة اليوميّة بالنسبة للشعب الذي أفرزها.

لم تبقَ «الماريان» جزراً مرجانيّة كما كانت. إنّها ذرى سلسلة طويلة من البراكين ابتلعت أقدامها وهادُ الهادئ السحيقة. وهي تكوّن من الشمال إلى الجنوب قوساً ذات انعطاف ضئيل، تمتدّ على ٥٠٠ ميل من «فارالّون دي باجاروس» حتّى «غوام». وأمّا سفوحها المخضوضرة فترتفع على علوّ مئات الأمتار. كان طقسها ما يزال استوائيّاً، ولكنْ لا وجود فيها للاختناق وللأبخرة الوبيئة التي نجدها في أدغال جزر «سليمان» و«غينيا الجديدة». وقصّة «الماريان» طريفة. كان «ماجيلان» قد أطلق عليها إسم «جزر اللصوص» إشارة لخفّة أيدي الوطنيّين «الشامورّوس» الذين قدموا لزيارة سفنه. ولكنّها لم تلبث أن حملت اسماً أكثر تشريفاً، وهو اسم «الماريانّاس»، تيمّناً بـ «ماريّا آنّا» النمساويّة زوج «فيليب الثاني». وقد أهمل الإسبان شأن هذه الجزر، ولكنّ الألمان ابتاعوها، وحصل اليابانيّون عليها، باستثناء «غوام» التي اكتفت «أميركا» بالاحتفاظ بها بعد انتصارها على «اسبانيا» سنة ١٨٩٩، وغايتها منها أن يكون لها فيها مستودع للفحم بين «الفيليبين» و«هاواي». ولكنّ اليابانيّين انتزعوها منها بعد «بيرل هاربور» بأيّام.

وفضلاً عن «غوام»، وفي جوارها المباشر، كانت جزر «الماريان» الكبرى هي «روتا» و«تينيان» و«سايبان». وكانت هذه الأخيرة، وهي العاصمة العسكريّة للأرخبيل، مقرّ الجيش اليابانيّ ٣١، بقيادة الجنرال «هيديبوشي أوباتي». والفرقة المدعّمة ٤٣ بقيادة الجنرال «يوشيتزوغو سايتو». وكانت عدّة الحامية، بما فيها التشكيلات البحريّة، تبلغ ٣١،٦٤٩ رجلاً. وكانت تحتلّ الجزر الأخرى عدّة دون هذه العدّة: ١٨،٥٠٠ رجل في «غوام»، ٨،٠٠٠ رجل في «تينيان»، وبضع مئات من الرجال في «روتا». وكان المجموع موضوعاً اسميّاً تحت إمرة اسم شهير، اسم منتصر «بيرل هاربور»، «شويشوي ناغومو»، الذي أودت به كارثة «ميدوي» من أرفع مراتب الأسطول ظفراً إلى قيادة محليّة قائمة. كان موجوداً شخصيّاً في «سايبان»، إلاّ أنّه لم يكن يلعب فيها غير دور وهميّ.

كان التنظيم اليابانيّ متيناً، ولكنّ المخطّط الذي يقضي بمؤازرته بواسطة قوّات مقتطعة من «منشوريا» قد ذهب ضحيّة للغوّاصات الأميركيّة. وقد فقدت أكثريّة القوافل بعضاً من سفنها؛ وكانت نسبة الرجال الذين أنقذوا هامّة نسبيّاً، ولكنّ معظم العتاد قد ذهب إلى قاع البحر. وإليك هذا المثال: نُسِفت «السايتومارو» بالطوربيدات في ٢٩ شباط، ومن مجموع الجنود الـ ٣،٠٨٠ المنتمين لفوج المشاة ١٨، تمكّن المنقذون من إنقاذ ١،٦٨٨، ولكنّهم وصلوا إلى «غوام» ومعهم ٧ بنادق فحسب، وقاذفة قنابل يدويّة، و١٥٠ حربة! وينتج عن ذلك أنّ وحدات كثيرة باتت من غير سلاح، وأنّ الوحدات جميعاً كانت مفتقرة للذخيرة.

بدأ غزو «الماريان» تماماً في الوقت الذي تحدّد مسبقاً لشهور عديدة خلت، أي في ١٥ حزيران. وكانت القوّات تحت إمرة الجنرال «هولاند سميث»، من فيلق المشاة البحريّين. وقد كان لمشهد تحرّك تشكيلات الانقضاض وقع لا يزول من المخيّلات؛ كان الصباح بهيّاً، والبحر هادئاً، والنسيم عليلاً؛ وكانت منطقة النزول تمتدّ من كلتا ناحيتي رأس «أفتينا». وكانت الفرقة الثانية إلى اليسار، على الشاطئين «الأحمر» و«الأخضر»، والفرقة الرابعة إلى اليمين، على الشاطئين «الأزرق» و«الأصفر». وكانت تنتصب في صدر المنطقة، في الطرف الداخليّ، سلسلةٌ من الجبال تبلغ ذروتها ١،٥٥٤ قدماً. وفي المواضع الأماميّة كان البحر الأخضر يتحطّم على صخور المرجان، ثمّ ترقد مياهه داخل بحيرة مساحتها بضع مئات من الأمتار، وتهمد أنفاسه بعد ذلك على طول شاطئ ضيّق لاهب تحت القصف. وإلى جنوبيّ الرأس، وفي قطاع فرقة المشاة البحريّين الرابعة، كانت المنازل اليابانيّة في مدينة «شاران كانووا» الصغيرة قد ذهبت فريسة النار، وهي مصنوعة من الخشب والورق، إلاّ أنّ مدخنة مصنع السكّر بقيت منتصبة سوداء فاحمة. وفي الساعة ٨،٥٠ تقدّمت ٣٤ سفينة إنزال إلى مسافة نصف ميل من الشاطئ، ثم انفتحت أجوافها وقذفت ٧١٩ جرّاراً ودبّابة برمائيّة راحت تنتظم بشكل موجات انقضاض. وكان المهاجمون مزمعين على ألاّ يتوقّفوا على الشاطئ ولو برهة واحدة، بل على الانقضاض بالنزول المصفّح وثبة واحدة نحو خطّ القمم. ومن هناك كانت الأودية المحرّجة تنحدر حتّى خليج «ماجيسيين»، وهو فوهة نصفيّة لبركان غائص. وكان المهاجمون يعتزمون بلوغه وشطر الجزيرة جزئين في غضون يومين.

إلاّ أنّ أمر الانطلاق المهيب قد تحطّم. فعلى الشاطئ راحت أمواج مرتدّة، يبلغ علوّها بين ١٢ و ١٥ قدماً، ترهق الجرّارات والدبّابات البرمائيّة وتفكّك أرتالها. وتحت وطيس النار الحامية، التي انطلقت من رأس «أفتينا»، انحرفت الفرقة الثانية نحو الشمال وتشابكت كتائبها على الشاطئين «الأحمر» و«الأخضر». واجتازت الفرقة الرابعة «شاران كانووا» بسرعة، ولكنّها صادفت صعوبات في الانبساط نحو الشمال ونحو الجنوب. وكانت تعوز المصفّحات البرمائيّة القوّةُ اللازمة للتملّص من الحواجز

المضادّة للدبّابات، وبعدما غدت مرمى سهلاً للنار تخلّى المشاة البحريّون عنها للتقدّم مشياً على الأقدام أو زحفاً. لقد آمنت القيادة الأميركيّة إيماناً أعمى بجعل النزول آليّاً مئة بالمئة؛ وعند حلول الليل كان المهاجمون قد احتلّوا نصف المنطقة «د-١» فحسب. وأمّا الجنرال «يوشتروغو ساييتو»، الذي حلّ محلّ «أوباتي» المجمّد في «غوام»: فقد أرسل إلى «طوكيو» مذكّرة طنّانة تقول: «إنّ الجيش ٣١ سيشنّ هذه الليلة هجوماً مضادّاً بكامل قواه؛ وسيبيد العدوّ...»

وهكذا كان. ففي الساعة الثانية صباحاً انطلق هجوم من الطراز القديم على أنغام النفير. وفي وسط قبّة رسمتها القنابل المنيرة شهد مشاة البحريّة في الفرقة الثانية أشباحاً وكأنّها منبثقة من القرون الوسطى: كانت تشيح السيوف وتلوّح بالأعلام. وتلقّتهم نيران مروّعة حصدتهم حصداً. وبعثرت على السفوح ٨٠٠ جثّة. وبزغ الفجر والأميركيّون ما يزالون في جحورهم الفرديّة؛ فيما عادت الطائرات والسفن تسحق اليابانيّين والأمداد تنزل إلى الشاطىء دفقاً غزيراً. إنّ المدافعين ههنا، كما كانت الحال في «نورماندیا»، لم يعرفوا كيف يفيدون من سانحة الضعف في المهاجمين. ولقد تمّ من جرّاء ذلك إرساء رأس الجسر.

لقد وجدَت "اليابان" "ميدويت" أخرى

ولكنّ حدثاً جديداً جاء يلقي الاضطراب في نفوس البحّارة. ففي الساعة ١٨:٣٥ من الليلة الفائتة أبصرت الغوّاصة «فلاينغ فيش» أسطولاً للعدوّ. يضمّ حاملات للطائرات عديدة، ينبثق من مضيق «سان برناردينو»، بين جزر «لوسون» و«سامار» في اتّجاه الشرق. ولم يمض نصف ساعة حتّى كانت غوّاصة أخرى هي «سيهورس»، تعلن عن وجود تشكيلة من البوارج في عرض «ميندناو»، في اتّجاه إلى الشمال بشمال شرقيّ. وكانت الوجهتان تسيران نحو هدف واحد، إلى «الماريان». كان الأسطول اليابانيّ قادماً لانتزاع سيادة الهادىء من يد الأميركيّين. لم يبقَ مصير «سايبان» وسلامة «طوكيو» وقفاً على القتال الدائر على السفوح. ولكنّه كان سيتقرّر في ساحة قتال مائيّة منبسطة بين «الفيليبين» و«الماريان»، بين «غينيا الجديدة» و«اليابان».

كانت البحريّة الامبراطوريّة تسمو بلا انقطاع. في احتجابها الموقّت. إلى تلك المقابلة الحاسمة. إلى ثأر «ميدوي». وبعد مقتل «ياماموتو». قام خلفه «مينيبيشي كوغا»، ببناء ستراتيجيّته على هذا الانتظار. متجنّباً العمليّات المتفرّقة. موفّراً قواه لليوم الأوحد الذي سيمحو الهزائم جمعاء. وفي ٣١ آذار ١٩٤٤؛ اختفت طائرة جومائيّة بين «بالو» و«دافاو»، وقُتل «كوغا»، ولكنّ المذهب بقي هو ذاته في عهد خلفه الأميرال «سوموتويودا»: إعادة تنظيم الأسطول أوّلاً، ومن ثمّ خلق وضع ستراتيجيّ مناسب. وسحق العدوّ.

كانت «اليابان» فقيرة، وكانت طاقة مصانعها البجريّة والجويّة ضعيفة. وأمّا فتوحاتها الأسطوريّة في ١٩٤٢؛ فهي خدّاعة. كانت قد أتت ببعض الموادّ الأوّليّة كالقصدير والمطّاط والنفط، من غير أن تأتي بالترتيبات الصناعيّة الضروريّة للإفادة منها. وعلى هذا الأساس كان على اسطولها أن يستعمل للوقود النفطّ الخام. وهو صاف نسبيّاً؛ من «بورنيو»، على الرغم من العقبات والأخطار الجمّة. وقامت «اليابان» بمجهود محموم. وبأعمال ارتجاليّة ضخمة: أدّت إلى خلق حاملات للطائرات جديدة وأساطيل جويّة جديدة صغيرة؛ إلّا أنّ ثغراً مخيفة كانت كامنة في تلك القوقعة التي أعيد بناؤها. لم يكن قد طرأ على الرادار أيّ تحسين، وكانت وسائل الدفاع المضادّة للغوّاصات بدائيّة؛ ولم تكن الطائرات مصفّحة. ولا مزوّدة بالخزّانات ذات السدّاد الذي يمنع تسرّب الغاز. وأمّا الطيّارون فقد كانوا حاصلين على خبرة سطحيّة وعلى تدريب تافه. فالرجال المدهشون الذين هاجموا «بيرل هاربور» كانوا قد تحضّروا تقنيّاً ونفسانيّاً خلال سنوات عديدة، وها هم اليوم في زوايا الموت.

كانت الأركان العامّة البحريّة قد تاقت إلى الوضع الستراتيجيّ الملائم في جنوبيّ غربيّ الهادىء وعملت على تحضيره. وكان الحلم اليابانيّ هو في أن يخوض الأسطول الأميركيّ الكبير مثلّث «ياب-ميندناو-غينيا الجديدة» على مقربة من «الفيليبين»، لحلّ مشكلة التموين، في نطاق القواعد البريّة التي تعوّض ضعف الطيران البحريّ. وأتت حملة «ماك أرثر» إلى «بياك» تحمل على الاعتقاد بأنّ هذا الحلم قد أوشك أن يتحقّق. وكانت مفرزة قويّة تضمّ البارجتين الجبّارتين «ياماتو» و«موساشي» قد بُعثت مسبّقاً كمقدّمة إلى «باتجان» في «الملوك». وكان معظم الأسطول، وخصوصاً فرق حاملات الطائرات الثلاث، ينتظر بالمرصاد بين «الفيليبين» و«بورنيو»... ولكنّ «أميركا»، بدلاً من أن تزجّ نفسها في شباك جنوبيّ غربيّ الهادىء، سدّدت ضربتها في قلب المحيط، إلى «الماريان»، و«طوكيو» منها على مدى نشاط القاذفات!

وهكذا فإنّ حزام الأمان الوطنيّ اليابانيّ قد أوشك أن يُخرَق. وإذا بالخطر يحدق بالوطن الأمّ وبرأس الأمبراطور على السواء! لم يكن بميسور البحريّة الامبراطوريّة أن تسمح باحتلال «الماريان» فتقف كما وقفت حيال غزو جزر «المارشال» مكتوفة الأيدي. ومن خلال طريقين، غربي «ميندناو» وشرقيّها، تحرّك الأسطول السريع، بإمرة الفايس-أميرال «جيزابورو أوزاوا»، صاعداً باتّجاه بحر «الفيليبين»، حيث كان المخطّط العدوّ يوجّه صدمته الحاسمة. كان أسطول «الشمس المشرقة» الأخير هذا مهيأً: ٤ حاملات طائرات ثقيلة، ٤ حاملات طائرات خفيفة، ٥ بوارج. ١١ طرّاداً ثقيلاً، طرّادان خفيفان، ٢٨ مدمّرة. وكان في جملة حاملات الطائرات حاملتان من المحاربات القديمات مغمورتان بالظفر وبالجراح وهما «زويكاكو» و«شوكاكو»؛ والحاملة «تايهو» التي أنجز بناؤها مؤخّراً. فأتت أكبر حاملة في العالم كلّه. وقد بلغ عدد الطائرات المنقولة بحراً ٤٢٩ طائرة؛ أي ضعفي عدد الطائرات المغيرة على «بيرل هاربور». ولكنّ الخروج لملاقاة العدوّ لم يكن شبيهاً بالرحلة السحريّة في كانون الأوّل ١٩٤١. فقد تكبّدت القوّة خسائر ألبستها ثوب الحداد، ومن جملتها مدمّرة: وذلك بسبب بعض الحوادث والاصطدامات. وامّا مصير الهجوم الذي شنّته الغوّاصات، على أنّه ملحق للعمليّة، فقد أخفق إخفاقاً ذريعاً. وأمّا الغوّاصات الـ ٢٥، التي كانت مكلّفة بتطهير بحر «الفيليبين». فإنّها لم تُغرق سفينة واحدة. وقد دُمّرت ١٧ غوّاصة منها، دمّرت ستّاً منها المدمّرة «إنغلاند» وحدها.

وأمام «سايبان» قام القائد الأعلى للأسطول الخامس الأميرال «ريمون سبروونس»، بالاتّصال سريعاً بالفايس أميرال «تورنر» قائد القوّات البحريّة للمساندة المباشرة. قُسمت هذه القوّات قسمين: فالبوارج القديمة، وجزء من الطرّادات والمدمّرات. قد واصلت مهمّتها. مستمرّة في توطيد رأس جسر «أفتينا» بقصف مدافعها. وأمّا الباقي فقد انضمّ إلى القوّة البحريّة ٥٨ للانقضاض على العدوّ العائم. وفي وجه الجيش البحريّ اليابانيّ انتصبت ٧ حاملات طائرات كبيرة، و ٨ حاملات خفيفة، تقلّ ٩٥٦ طائرة متعدّدة الأجناس. تخدمها وتحميها ٧ بوارج سريعة. و٢١ طرّاداً، و٦٩ مدمّرة. ففي البحر وفي الجوّ على السواء كان التفوّق الأميركيّ بنسبة ١ ضدّ ٢.

كان ١٩ حزيران يوماً بلغت فيه الرؤية درجة غير محدودة، فوق بحر غمره النور وتطايرت على صفحاته الأسماك الطائرة. وكان الأميرال

«تويودا» ينعم بتفوّق ثمين بفضل كشّافيه الذين قاموا بعمل جيّد: فقد كان عالماً بموقع العدوّ. وكان يتمتّع بتفوّق آخر هو أحد نتائج الضعف والتخلّف: فطائراته. التي لم تكن مصفّحة. كانت أكثر خفّة من الطائرات الأميركيّة. وأوسع مجالاً للعمل منها: ٤٠٠ ميل مقابل ٣٠٠ ميل. وهكذا كان العدوّ بمتناول يده. فيما كان هو نفسه بعيداً عن مرماه: إنّه لوقت مثاليّ لشنّ الهجوم.

وأخذت الطائرات تُقلع من على سطوح السفن. ففي الساعة ٨،٣٠ أقلعت ٦٤ طائرة من على سطح سفن المقدّمة. وفي الساعة ٨،٥٦ انطلقت ١٢٨ طائرة من فرقة «أوزاوا». وكان في عدادها طائرة المساعد الأوّل البحريّ «ساهيو كوماتسو» الذي أبصر أثناء ارتفاعه خطّ طوربيد كان منطلقاً نحو «التايهو». فانقضّ عليه منتحراً لإنقاذ السفينة الكبيرة. وأمّا الفرقة الثانية فقد أطلقت ٤٧ طائرة في الساعة ١٠ . ثمّ صدر أمر في الساعة ١١ موجّه إلى الفرقتين ١ و٣ بأن تطلقا ١١٤ طائرة أخرى. فقد ألقى «أوزاوا» على العدوّ بأربعة أخماس قوّاته، محتفظاً بحفنة من المقاتلات لحماية سفنه.

لم يعثر الأميركيّون على موقع العدوّ. ولكنّ الرادار أنقذهم إذ كشف عن العدوّ القائم على بعد ١٦٥ ميلاً. فأقلعت المقاتلات للحال بسرعة عجيبة. ودارت اشتباكات كبرى غربيّ السفن بادىء ذي بدء، ومن ثمّ إلى الجنوب. مع الموجتين التاليتين. وتكبّد المهاجمون خسائر رهيبة، فكانوا يهطلون من السماء نفانفَ من دخان ومن لهب. أو أنّهم، راحوا يتحطّمون على جزيرة «غوام» بعدما أعيتهم الحيلة. ومن جملة الـ ٣٧٥ طائرة التي أطلقها «أوزاوا» تمكّنت نحو من أربعين طائرة أو أقلّ من مقاربة السفن، وتمكّنت طائرة واحدة لا غير من تسديد ضربتها فأصابت «الساوث داكوتا» وقتلت ٢٧ بحّاراً، ولكن من غير أن تحدث في البارجة أضراراً خطيرة. وأصيبت سفن أخرى بأضرار طفيفة بعدما أخطأتها القنابل عن كثب. لقد كان الثمن باهظاً إلى حدّ يفوق كلّ وصف: فنهار ١٩ حزيران قد كلّف اليابانيّين ٣١٥ طائرة، والأميركيّين ٢٩ طائرة.

كان الطوربيد الذي أوقفه المساعد الأوّل البحريّ منتحراً، على مقربة من حاملات الطائرات قد انطلق من الغوّاصة «ألباكور» وهي بإمرة الكومندان «ج. و. بلانشار». كان الطوربيد هذا واحداً من ستّة أطلقتها الغوّاصة على «التايهو» سفينة الأميرال «أوزاوا». فلم يصبها منها غيرُ واحد. وذلك في يسارها على مستوى المصعد الأماميّ. ولكنّ الصدمة كانت خفيفة. والأضرار طفيفة، ولم يشبّ في السفينة أيّ حريق واسع النطاق. وأبلغ الكومندانُ الأميرالَ بأنّ سفينته قد بقيت متمتّعة بكامل إمكاناتها العمليّة.

ولم تنقض ساعتان حتى كان طوربيد آخر يصيب «الشوكاكو». وقد وجّهته الغوّاصةُ «كافالاّ» بإمرة الكومندان «هـ.ج. كوسلر». ويبدو أنّ الإصابة كانت خطرة: فلقد خفّضت السفينة سرعتها، وخرجت من التشكيلة. وراحت تكافح النار التي شبّت في داخلها. وأمّا الوقود الذي كان يتسرّب من الخزّانات غير المحكمة السّداد. والسيّئة الوضع. فقد قدّم للحريق غذاء رهيباً. وبعد الساعة ١٥ بقليل بلغت النار أحد أنبار الذخيرة: فدوّت للحال سلسلة من الانفجارات مزّقت «الشوكاكو» إرباً. وقد بقيت «الزويكاكو» هي الناجية الوحيدة من حاملات الطائرات الستّ التي شنّت الهجوم على «بيرل هاربور».

وفوق «التايهو» لم يدم تفاؤل اللحظة الأولى طويلاً. إذ تطوّر فيها وضع مخيف: فصدمة الطوربيد قد فتّقت الأنابيب المعدنيّة وقطّعت أوصال الخزّانات. وامتلأت السفينة بخليط متفجّر مؤلّف من بخار الوقود ومن الهواء. حاول من في السفينة عزله من غير جدوى، فحدث ما كان متوقّعاً: ففي الساعة ١٥،٣٢ دوّى انفجار عنيف نسف الجسر وراح يلتهم أعماق السفينة. وأقبلت المدمّرة «واكاتسوكي» لتنقذ صورة الإمبراطور وتنقل «أوزاوا» إلى الطرّاد «هاغونو». ولم يكد الأميرال ينجو من سفينته حتّى اجتاحت النار «التايهو» من كلّ صوب، فغرقت في الساعة ١٧،٠٦ محرقة البحر من حولها. وتمكّنت المدمّرات بعدئذ من أن تنقذ بصعوبة فائقة ٥٠٠ من مجموع ضبّاطها وبحّارتها الـ ٢،١٥٠ .

إنّه لنهار كوارث يضاهي بفداحته «ميدوي»! لقد خسر «أوزاوا» اثنتين من سفنه الرئيسة، ولم يكن باقياً لديه غير نحو من مئة طائرة، في الوقت الذي كان فيه الأسطول الأميركيّ سليماً قبالته. ومع ذلك، بفضل حزمه الشديد، أو بفضل طاقته على التوهّم الخدّاع، لم يعتبر أنّه قد خسر المعركة. فقد أقنع نفسه. على ذمّة طيّاريه، بأنّ العدوّ قد تكبّد هو الآخر خسائر فادحة. وأبلغت قاذفات «الزويكاكو» أنّها قد أصابت قلب الهدف في إحدى حاملات الطائرات وأحد الطرّادات الكبرى. وأكّد طيّارو الفرقة الأولى أنّهم خلّفوا وراءهم أربع حاملات طائرات فريسةً للّهب. وقد دوّن تقرير آخر النهار «أنّه لا ريب في أنّ أربعاً أو خمساً من حاملات طائرات العدوّ: فضلاً عن بارجة وطرّاد كبير: قد أغرقت. أو أنّها أرغمت على ترك القتال. وهذا لا ينفي كذلك احتمال كون سفن أخرى قد تفجّرت أو غرقت...» وكنتيجة لذلك كان «أوزاوا» مزمعاً على استئناف القتال في غضون يومين، في ٢١، بعد أن يملأ خزّاناته بالمازوت خلال نهار ٢٠ .

ولكنّ القادة الأميركيّين، الذين حقّقوا انتصاراً لا ريب فيه: قد أظهروا التعقّل والتروّي. وقد أعلن الأميرال «سبروونس» ما يلي: «سوف أهاجم غداً إذا ما تمكّنت من تحديد موقع العدوّ بدقّة مرضية». ولكنّ شيئاً لم يحدث بغية الحصول على هذه المعلومات البالغة الأهميّة. وقال «إيليوت موريسون»: «لم تُرسل طائرة استكشاف واحدة خلال ليل ١٩ إلى ٢٠ حزيران الحاسم ...» وكان أحد الأسباب هو إنسانيّة «ميتشر». فهذا الأميرال المصغّر، الذي يبلغ طوله ١،٦٤ سنتم، ووزنه ١٣٥ ليبرة. والذي كان يحبّ طيّاريه الذين يشاطرونه هذا الشعور. «كان يمقت فكرة إرسال كشّاف منفرد قد يُرغم على الهبوط في متاهات المحيط. بعيداً عن كلّ أمل في النجاة ...» وبزغ صباح ٢٠ حزيران. وهو بهيّ بهاء الصباح المنصرم، يشهد أسطولاً أميركيّاً يسير بخطّ موازٍ لسير العدوّ. ولكن دونما علم له بذلك. وانطلقت دوريّات الفجر كالمعتاد وعادت من غير أن تعثر على أيّ أثر. وأقلعت دوريّات ما بعد الظهر بدورها. وكانت طائرات عديدة من طائراتها قد عادت أدراجها حين التُقطت في الساعة ١٥،١٥ رسالة مشوّشة تشير إلى العثور على العدوّ. ولم تنقض دقائق حتّى كان ملازم البحريّة «نلسون» يؤكّد أنّه شاهد سفن «أوزاوا» بأمّ عينه. وعمد إلى تصحيح التقدير الخاطىء الذي أعطاه عن موقع هذه السفن. كان أسطول العدوّ على بعد ٢٥٠ ميلاً. على حدود مدى العمل تقريباً. ولم يكن قد تبقّى من النهار غير أربع ساعات. فهل يتوجّب الهجوم يا ترى؟ أم أنّه كان يجب التريّث حتّى نهار غد؟

واتّخذ «ميتشر» قراره: يجب شنّ الهجوم. وبمدّة عشر دقائق. وهو رقم قياسيّ، كانت ٢١٦ قاذفة ونسّافة ومطاردة تحلّق في الفضاء. وفي آخر لحظة أوقف «ميتشر» موجة ثانية مماثلة: فالمفروض أن تعود الطائرات ليلاً، وكان عدد هذه الطائرات أكثر من اللزوم.

بدأت العمليّة في الساعة ١٨،٢٠، وكانت حوادثها تجري في غمرة شمس حمراء تغوص رويداً في اليمّ. وقبلت ثلاثون مطاردة يابانيّة تقريباً أن تواجه القتال المتفاوت ببسالة: فتمكّنت من تخفيف حدّة الهجوم من غير أن تتمكّن من تحطيمه. واشتعلت حاملة الطائرات «هييو» وغرقت بعد ما

أصابتها الطوربيدات. وأُصيبت «الزويكاكو» و «الشيودا» بأضرار. وكذلك البارجة «هارونا». وأغرقت ناقلتا بترول، وهي سفن ثمينة. ولا ريب في أنّ هذا الانتصار لم يكن ذلك الانتصار المدمّر الذي كان يمكن أن يتمّ «لسبروونس» و «ميتشر» لو توافرت فيهما جرأة أكبر. ولكنّ هذا النجاح كان ذا تأثير عميق. فمن مجموع الطائرات اليابانيّة، التي كان عددها ٤٣٠ طائرة في صبيحة ١٩ حزيران، لم يبقَ غير ٣٥ طائرة في عشيّة ٢٠ حزيران. وقد كتب التاريخ الرسميّ ما يلي: «إنّ أكثر النتائج أهميّة كائن في أنّ الطيران اليابانيّ المنقول بحراً قد دُمّر بكامله عملياً. وبهذا شُلّ هذا الطيران حتى نهاية الحرب.»

في الساعة ١٩.١٩. وفيما كانت أشعّة الشمس تغيب وراء الأفق. غادرت آخر طائرة أميركيّة ساحة القتال. فما كان من «أوزاوا»، الذي حداه العناد أو اليأس، إلاّ أن أصدر أمراً بشنّ هجوم ليليّ بواسطة السفن. وأطلق الأميرال «كوريتا» على رأس المقدّمة باتّجاه العدوّ. ولكنّ سفنه لم تكن تملك من المازوت مقداراً يكفي لهذه العمليّة، فدُعي «كوريتا» إلى العودة. وتحرّك الأسطول اليابانيّ السريع شطر «اليابان» خائباً.

وعادت الطائرات الأميركيّة في ليل حالك السّواد. وكان مستوى الوقود ينخفض بلا انقطاع، فسقط بعض الطائرات، وأعلنت الطائرات الأخرى جميعاً أنّها كانت تستهلك آخر نقاط الوقود لديها. وأما «ميتشر»، الذي أخذ منه القلق الشديد كلّ مأخذ، فقد راح يحسب حساب الوقت اللازم لهبوط الطائرات على سطح السفن خلال الظلمة، وهي عمليّة لم تكن لمعظم الطيّارين بها أيّة خبرة. فاتّخذ قراراً جريئاً. وأمر بإضاءة السفن، وإطلاق الأسهم، متعرّضاً لإرشاد الغوّاصات إلى موقعه. ومع ذلك فقد بقيت الخسارة فادحة؛ فمن جملة الطائرات الـ ٢١٦، كانت ٢٠ طائرة فحسب قد أُسقطت في المعركة، ولكنّ ثمانين طائرة هبطت في البحر أو تهشّمت على سطح حاملات الطائرات. وفي أيّة حال مكّن انتشال الطيّارين من الماء من تخفيض الخسارة في الأرواح إلى ٣٨ ضحيّة. وهذا، لعمري، ثمن زهيد للمعارك البحريّة بالنسبة لمن ينتصر فيها، إذا ما قيس بالمذابح البريّة.

حزام أمن "اليابان" يُخرَق

قضت الهزيمة البحريّة على مصير «سايبان»، ولكنّ الاستسلام ليس بكلمة يابانيّة، فاستمرّ النزاع ضارياً مريراً كما كان.

تمكّن الأميركيّون من الاستيلاء على مطار «أسليتو» الرئيس، في ١٧ حزيران. وفي ١٨ أدركوا خليج «ماجيسيان» وشرعوا يطهّرون جنوبيّ الجزيرة. فوضع «هولند سميث» الفرقة ٢٧ التابعة للجيش الأميركيّ بين فرقتيّ مشاة البحريّة الخاضعتين لإمرته، وعطف خطّ هجومه بغية فتح الوسط والشمال. كانت الفرقة ٢٧ بقيادة «سميث» آخر يُدعى «رالف»، جعله سميّه ورئيسه مسؤولاً عن النتائج الضعيفة التي حقّقها رجاله في ثلم الأشواك والنبات. المسمّى «وادي الموت». والممتدّ عند أصل جبل «توبوتشاو». ثمّ ما لبث أن أقاله من منصبه، بعد موافقة «سبروونس» و «تورنر»، واستبدل به أحد رجال مشاة البحريّة، هو الجنرال «جارمان». ولسوف ينشأ عن هذا التدبير الحازم نزاعٌ حادّ سيمتدّ إلى مجالي السياسة والصحافة فيغذّي حملات أنصار «ماك أرثر» الذين كانوا يطالبون، مُلحفين، بإسناد قيادة المحيط الهادئ كاملةً إلى رجلهم العظيم. ولقد ثبتت موضوعياً صعوبةُ استخدام فيلق مشاة البحريّة، ووحدات الحرس القوميّ العامل: كفرقة المشاة ٢٧: جنباً إلى جنب؛ فالمستوى العسكريّ بينها كثير التفاوت.



مشاة البحريّة يطأون الثرى.

لقد أمسى وضع اليابانيّين رهيباً؛ فلم يبقَ لهم مدفع واحد، وأفواجهم تضمّ ما يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ رجل فحسب، وهم مفتقرون إلى الماء. والأميركيّون من جهتهم يتقدّمون تحت غطاء من النار هائل، مطهّرين المغاور كلّها بقاذفات اللهب، ساحقين أقلّ مقاومة يصادفونها تحت بساط من قنابل الطائرات وقنابل المدفعيّة البحريّة. إستولوا على جبل «تابوتشاو»، وطفقوا ينتزعون «غارابان»، عاصمة الجزيرة الصغيرة، خربةً خربة، حاصرين العدوّ بانتظام في الرأس الشماليّ. فالتمس «سايتو» باتّضاع من الإمبراطور أن يعذره لأنّه لا يدافع عن «سايبان» بما يليق من العزيمة؛ وبعدما أمر بهجوم انتحاريّ يُشنّ ليل ٧–٨ تموز، عمد إلى اتّخاذ التدابير النهائيّة: فقطع شريان معصمه بسيفه، ثمّ أجهز عليه ضابط الخدمة بطلقة مسدّس. وفي مغارة مجاورة عمد الأميرال «شويشوي ناغومو»، بطل «بيرل هاربور»، والرجل الذي أبكى ٨٠ مليون يابانيّ عزّة وكبراً، إلى الوسائل عينها فوضع حدّاً لحياته.

حشد الهجوم اليابانيّ كلّ اليابانيّين وليس لمعظمهم من السلاح غير حراب أو مدى مغروسة في القصب. كان كرّهم في الليل خارقاً رهيباً، فسطوا على بطّاريّتين من بطّاريّات المدفعيّة، وشرّدوا عدّة كتائب؛ فاستبدّ الذعر بالأميركيّين فأخذوا يلقون بأنفسهم في البحر جماعات جماعات، واجتازوا بحيرة المرجان ولجأوا إلى صخر «تاناباغ»، حيث أقبلت المدمّرات عند الفجر لالتقاطهم. وأخيراً تمكّنت المدفعيّة والدبّابات من إبادة الشراذم اليابانيّة حتى آخر رجل، فكست ميدان القتال بـ ٤،٠٠٠ جثّة، حملت معها إلى العالم الآخر ٤٠٦ أميركيّين. وهكذا تكون «سايبان» قد كلّفت ٣،٦٧٤ رجلاً من مشاة الجيش الأميركيّ، بين قتيل وجريح ومفقود، و ١٠،٤٣٧ من مشاة فيلق البحريّة الأميركيّ.

بدأ الهجوم على «غوام» في ٢١، بنزول مزدوج قامت به فرقة مشاة البحريّة الثالثة واللواء الاحتياطيّ الأوّل. وبدأ الهجوم على «تينيان»، بعد ذلك بأربعة أيّام، بنزول فرقة مشاة البحريّة الرابعة. وتمّ فتح هذه الجزيرة الأخيرة المسطّحة الملائمة لتحرّك الدبّابات والطيران في غضون أسبوع واحد، بعد إبادة رجال الحامية الـ ٨،٠٠٠ إبادة شاملة. أمّا «غوام»، وهي أرحب وأوعر كثيراً، فقد استوجبت من المعارك ما هو أطول كثيراً. وأخيراً حُطّمت المقاومة المنظّمة في ١٠ آب، باحتلال جبل «سانتا روزا». وقتل «أوباتي»، قائد الجيش اليابانيّ الحادي والثلاثين، الذي فاته أن يشترك بمعركة «سايبان»، في ١١ آب. ولجأت إلى المقاومة في أدغال «غوام» جماعات من اليابانيّين أرادوا تحاشي عار الاستسلام أو واجب الانتحار.

دفع الأميركيّون ثمناً لاحتلال جزر «الماريان» ٢٣،٧٩٥ رجلاً بين قتيل وجريح ومفقود؛ وهو، لعمري، عدد ضخم بالنسبة لحملة ضمّت ١٥٠،٠٠٠ رجل. ولكنّ حزام أمن «اليابان» قد خُرِق، وباتت «طوكيو» بمتناول طائرات «ب–٢٩».



طائرة جومائيّة أميركيّة تراقب عمليّات النزول ، وقد بدا الشاطئ وسط سحب الدخان واللهب .

إحتلال "إنجبّي" في "ميكرونيزيا"

إحتلّ الأميركيّون جزيرة «إنجبي» في ١٧ شباط ١٩٤٤، ولم يُبد اليابانيّون سوى مقاومة معتدلة. والصور الواردة في هاتين الصفحتين تمثّل طبيعة القتال في «ميكرونيزيا» .



في تلك الجزر الصغيرة لم يكن بوسع مشاة البحريّة الأميركيّين أن يتقدّموا إلاّ زحفاً نظراً للمقاومة الضارية اليائسة التي كان اليابانيّون يبدونها .



لقد توغّلت هذه الدبّابة البرمائيّة حتّى بلغت قلب المقاومة العدوّة ، فيما راحت أشجار جوز الهند تشتعل . ويبدو إلى اليسار شبح أحد مشاة البحريّة . أهو الليل ، أم تراه النهار إنّها من الصور التي تحمل مأساة حرب المحيط الهادىء .

الدبّابة البرمائيّة الرائعة . ما إن تنزل من زورق الإنزال حتّى تنطلق سريعة ، ومدفعها مصوَّب متأهّب ، نحو النقطة التي عُيّنت لها على الشاطىء . إنّها هناك ، طليعة مشاة البحريّة .